تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى
فى العصور الوسطى

الجزء الثانى

تأليف : ف . هـايـد

ترجمة : أحمد رضا محمد رضا

مراجعة : د. عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة



١٩٩١

● ● **لابد لنا ، فى مقدمة الجزء الثانى من هذا العمل الموسوعى النفيس ، الا وهو تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، أن نشير بايجاز الى ما أحاط به الجزء الأول من هذا الكتاب من معلومات شاملة فى هذا المجال الفسيح .**

بدأ الجزء الأول بدراسة الحقبة الأولى من هذا الموضوع الذى يحيط بالنواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية فى منطقة الشرق الأدنى ، وتشمل البدايات منذ الفتوحات الكبرى حتى الحروب الصليبية . واستهل بعصر جوستنيان وخلفائه (من أباطرة بيزنطة) فى القرن السادس الميلادى . ويتحدث هذا القسم عن طوفان الشعوب المتبربرة فى شمال أوروبا ووسطها ، وسقوط روما ، وما استتبع ذلك من آثار فى الحياة الاجتماعية فى أوروبا فى الحقبة الأولى من العصور الوسطى . وفى هذا القسم اشارة الى اكتشاف الطريق البحرى المؤدى الى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، واتصال التجارة بأعماق الشرق ، مع بقاء الطرق التجارية الكبرى كما كانت فى العصور القديمة ويتطرق هذا الجزء لشئون الامبراطورية البيزنطية ، والمدن البحرية بايطاليا وفرنسا واسبانيا .

ثم يدرس صناعة الحرير ، وانتقالها من الصين الى الغرب ، كما يبحث بالدرس والتحليل دور فارس والهند وأثيوبيا وبيزنطة والجزيرة العربية فى التجارة البحرية . كما يتحدث عن ظهور الأتراك فى وسط آسيا ، ودولة الساسانيين فى فارس ، والتجارة فى الجزيرة العربية ، وسوريا ، ومصر ، وعن ضعف النشاط التجارى فى البلاد الجرمانية الأصلية .

وفى الفصل الثانى من هذا الجزء الأول ، يحدث عن ظهور الاسلام ، وانتشاره ، وبداية الحروب الصليبية ، ويصف الطرق التجارية فى الجزيرة العربية ، وأثر اتساع الدولة الاسلامية على ازدهار التجارة ، وخاصة فى العصر العباسى ، واتصالها بفارس ، والهند ، والصين ، واستخدامها الطرق البحرية ، بالمحيط الهندى ، والخليج الفارسى ، والبحر الأحمر ، وكذا الطرق البرية . وفى هذا المجال يخص بالذكر

حركة الحجاج ، وأهميـة الاسـكندرية ، وبغداد ، والمـدن العراقيـة والسورية ، وطربزون ، وأرمينيا الكبرى ، وآسيا الصغرى ، وأرخروم ، وجورجيا ، وسمرقند ، وبخارى ، وثغور بحر قزوين ، والخزر ، والبحر الأسود ، وبحر أزوف ، وبحر أرال ، والقسطنطينية ، وشمال أفريقيا ، وأسبانيا ، وصقلية .

وينتقل البحث الى الحركة التجارية فى اليونان وجزر الأرخبيل .

وفى روسيا واسكندناوة ، والمانيـا ، وبريطانيـا العظمى تكتشف نقود فضية عربية فى الحفريات التى أجريت بها ، دلالة على ممارسة أهالى تلك البلاد التجارة مع الشرق . أما فرنسـا الميروفنجية فكان لهـا صلات تجارية نشيطة مع مصر وسوريا وبلاد العرب ، خاصة فى عهد شرلمان وهرون الرشيـد . كذلك كان لايطاليا صلات تجارية قوية بالشرق .

يلى كل ذلك حقبة ثانية فى تاريخ التجارة ، خاصة بالمستوطنات التجارية على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

وتشتعل الحروب الصليبية ، وتنشأ دول صليبية فى سوريا تضم مستوطنـات تجارية ، وتجهز الأسـاطيل لهذه الأغراض ، العسـكرية والتجارية . وتجرى دراسـة تفصيلية للنظم السياسـية والقنصليـة والادارية ، والنشاطات التجارية ، والمنازعات المتلاحقة بين ملوك وأمراء الدول الصليبية ، والامارات العربية ، والمؤسسـات التجارية ، والنظم الجمركية . ويصف هذا الفصل وصفا اجماليا موانىء الأمم التجارية التى تطل على البحر المتوسط ، وبحر ايجة ، والبحر الادرياتى والبحر الأيونى ، والبحر التيرانى ، كما يتحدث بالتفصيل عن الامبراطورية اللاتينية ، والحملة الصليبية الرابعة ، والحروب بين البندقية ، وجنوا وبيزا .

وثمة دراسة تتناول آسيا الصغرى ، وجزيرتى كريت ورودس ، والدول الصليبية فى سورية فى غضـون القرن الثانى من وجودهـا ، والحركة التجارية فى أهم مدنها ، وفى مستوطنات جنوا ، والبندقية ، وبيزا ، وبروفانس فى سوريا .

أما الجزء الثانى من الموسوعة ، والذى نمهد له بهذه المقدمة ، فانه يستهل بدراسة جزيرة قبرص ، وارمينيا الصغرى ، وسورية ، ومصر . ثم يبحث فى نمو تجارة الشرق الأدنى فى اعقاب انفتاح قارة آسيا ، من أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الرابع عشر ، وظهور التتار ، وارمينيا الصغرى ، وطربزون ، وفارس ، والهند ، كما يتبين القارىء فى رؤوس الموضوعات المدونة فى فهرس هذا الكتاب .

المترجم : احمد رضا محمد رضا

– جزيرة قبرص ، من حيث موقعها قبالة الدول الصليبية

على الرغم من موقع جزيرة قبرص بالقرب من سواحل سوريا ، فان فكرة غزوها لم تطرأ على الغربيين الا بعد انقضاء زمن طويل نسبيا : فثمة فترة تبلغ قرابة المائة عام تفصل بين الحملة الصليبية الأولى وبين اليوم الذى قضى فيــه ريتشارد قلب الأسد على السيادة البيزنطية فى الجزيرة (١١٩١) • وحتى ذاك الحين لم يبد أن التجارة اجتذبت اليها الكثير من الغربيين • ومع ذلك كانت هناك أمم تجارية ايطالية تربطها معاهدات بامبراطورية الروم (١) تتمتع بحرية مطلقة فى ارسال سفنها التجارية الى الجزيرة • ففى المعاهدة التى أبرمها الامبراطور مانويل مع البندقية فى عام ١١٤٨ ، يذكر الامبراطور صراحة جزيرة قبرص بعد

(١) آثرنا فى هذه الترجمة أن نعرب كلمة Grecs بالروم بدلا من اليــونان لغلبة هذا الاسم فى التاريخ العربى حين كان المسلمون يسمون أقاليم الدولة البيزنطية فى جملتها بلاد الروم • وكان لفظ الرومى بمعنى الرومانى فى العصور الاسلامية الأول ترادف عند المسلمين « النصرانى » سواء أكان من اليونان أم اللاتين ، كما كانوا يعرفون البحر المتوسط باسم بحر الروم أيضا • وصارت لفظة « الروم » بمرور الأيام اسمًا لأقرب الأقاليم النصرانية من بلاد الاسلام • ومن ثمة صار « الروم » اسما لآسية الصــغرى عند العرب ، وهى البلاد العظيمة التى انتقلت نهائيا فى ختام المائة الخامسة (الحادية عشرة الميلادية (الى أيدى المسلمين باستيلاء الترك الســلاجقة عليها (كى لسترانج ، بلدان الخلافة الشرقية ، بغداد ، ١٩٥٤) – المراجع •

جزيرة كريت ، ضمن البلاد المتاحة للبنادقة (٢) · وثمة سفير بندقى سافر فى عام ١٣٠٢ الى بلاط هنرى الثانى دولوزينيان ، ليذكر الملك بالاملاك والحقوق ، والاعفاءات التى تتمتع بها جمهورية البندقية فى جزيرة قبرص ، وبخاصة فى نيقوسيا وليماسول Limisso فى عهد السيادة الرومية (٣) ، باعتبارها أمورا مسلما بها · ويزعم آخر مؤرخى أمالفى Amalfi (٤) أن مواطنيه كانوا يملكون فيما مضى وكالات تجارية فى قبرص ، وان لم يعن بتقديم اثبات لذلك · ولكن الواقع ذاته لا يخالف ذلك فى شىء · فنحن نعلم من جهة ان الأمالفيين كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بسياسة امبراطورية الروم ، وأنهم من جهة أخرى كانت لهم علاقات تجارية كثيرة على طول السواحل المصرية والسورية من حول جزيرة قبرص · كما تدل قصة غزو رتشارد قلب الأسد الجزيرة على وجود مستوطنات لتجار غربيين بالجزيرة منذ عهد السيادة البيزنطية · فالواقع أنه بينما كان الملك يتجول بأسطوله على مرأى من ليماسول ، أنباه بعض اللاتينيين المقيمين بالمدينة أن الروم قد جلوا عنها ، وأنها قد أصبحت عاجزة عن المقاومة (٥) · واذا كان هؤلاء اللاتينيون قد عرضوا هذا الأمر على الغازى ، فذلك دون شك لأنهم كانوا واثقين من أن التجار الغربيين لن يشعروا البتة بالأمان والراحة فى جزيرة قبرص ، ولن يشكلوا بها جاليات موسرة ان لم يطرد منها الروم ، وتحل محلهم حكومة لاتينية · وقد كانوا على حق فى ذلك ، كما كان الموقف مواتيا لنمو التجارة نموا سريعا ، بشرط أن تكون الحكومة صديقة بالفعل : وكانت هى حكومة أسرة لوزينيان التى حظيت بتاج المملكة الجديدة ، واحتفظت به ثلاثة قرون متصلة دون انقطاع ، بفضل ميول أمراء هذه الأسرة الطبيعية ، واهتمامهم ايضا بمصالحهم الشخصية · ومن ثم أكثروا من منح الامتيازات والهبات ، التى ساعدت بذلك على ازدهار الحياة التجارية ·

وقد وثق أول ملوك هذه الأسرة ، جى دو لوزينيان ، أحسن العلاقات بالبيزيين ، ويسر لهم دخول الجزيرة ، وأتاح لهم أحسن الظروف · وعندما بدأ يفقد سلطانه فى مملكة القدس ، ورآهم على استعداد لمساندته فى استرداد عرشه ، وعدهم بهبات وامتيازات كبيرة فى مملكته الجديدة

---

(٢) Taf, et Thom, I 124; voy aussi 265.

(٣) Mas-Latrie, Nouvelles preuves de l'hist de Chypre : Bibl. de l'école des Chartes, xxxiv (1873), p. 54.

(٤) Camera, Storia della citta e costiera d'Amalfi (1ère éd.) p. 206.

(٥) Contin, de Guill, de Tyr, p. 164.

بجزيرة قبرص . وفى اعتقادى أنه أوفى بوعوده ، خاصة وأن البيزيين قد ظلوا حلفاء له من تلك الآونة حتى حانت ساعة وفاته ، وان كان ولاءهم هذا وراء طردهم أيضاً من عكا (٦) .

وقبل أن يقر عزم الدول الرئيسية فى ايطاليا على انشاء مناطق تجارية كبيرة فى قبرص ، كانت هناك مدينة صغيرة فى جنوب ايطاليا ، تصادف اسمها كثيرا فى أخبار ذلك العصر ، لأن الكثير من الصليبيين كانوا يذهبون اليها وترسو سفنهم بها : تلك هى مدينة ترانى Trani التى حصلت على اعفاء تام لمواطنيها من الرسوم الجمركية . وفى عام ١١٩٦ كلف سامارس Samarus رئيس أساقفة تلك المدينة بمهمة خطيرة فى بلاط قبرص : ذلك أن أمورى دو لوزينيان Amaury de Lusignan (خليفة « جى ») أراد أن يدعم تاجه بتكريس من شخصية عظيمة لهـا نفوذها ، ومن ثم التمس من هنرى السادس امبراطور ألمانيـا أن يأتى ويسلمه بيديه شارات الملك . ووافق الامبراطور على ذلك ، بل كان فى عزمه بالفعل أن يذهب بنفسه ويضع التاج على رأس أمورى ، ولكن لم يتيسر له أن يحقق غرضه هذا . وفيما بعد أجرى كونراد ، رئيس أساقفة هيلدسهايم Hildesheim ، الاحتفال بذلك باسم الامبراطور . وقبل ذلك أرسل الامبراطور الصولجان مع اسقفى برنديزى ، وترانى (٧) . وانتهز الأسقف الثانى هذه الفرصة فطلب اعفاء أهل بلدته ــ وهم بحارة نشيطون ــ من الرسوم الجمركية فى قبرص ، فمنحه أمورى هذا الاعفاء فى شهر مايو من السنة نفسها (٨) . وليس فى وسعنا أن نقول الى أى مدى استفاد أهالى ترانى من هذا الامتياز ، لعدم وجود أدلة على ذلك .

وبين جنوا ومملكة قبرص الصغيرة ازدادت العـلاقات وتوثقت ، وبخاصة فى الفترة التى كان فيهـا هنرى الأول حفيد أمورى وخليفته قاصرا ، وما ترتب على ذلك من طول فترة الوصاية . وفى غضون هذه الفترة كانت مقاليد الحكم أولا فى يدى فيليب ديبلان Philippe d'Ibelin (توفى عام ١٢٢٧) ثم أخيه يوحنا ، صاحب بيروت (توفى عام ١٢٣٦) .

---

(٦) Ibid. Mascr. D. p. 199; 202 et s.

(٧) Annales Marbacenses, dans Pertz SS. XVII, 167. (Annal. Argentin éd. Bohmer, fontes, III, 89). Toche, Heinrich VI, p. 391. et s. 462.

(٨) انظر المرسوم رقم ٧ فى الوثائق ، فى :
Forges Davanzati, Dissertazione sulla seconda moglie del re manfredi e su'loro figliuoli Nap 1791. Huillard. Bréholes, Hist. dipl. Trid II Infod : Mas-Latrie, Histoire de Chypre, I, 427; Toche, op. cit., p. 391, not. 6 (Beltrani, Sugli antichi ordinamenti maritim idi Trani, p. 38-44.

وسبق ان تحدثت عن النضال الشديد الذى قامت به فى ذلك الحين أسرة ديبلان وأنصارها ضد سلطة آل هوهنشتاوفن ، وقلت ان الجنويين كانوا بين سائر الأمم التجارية أول من انضم الى الحزب المضاد للجبليين ، وبقوا أوفياء لهذا الحزب • ومن ثم فلا داعى للعودة الى الحديث فى هذا الخصوص • والمؤكد أن الجنويين كانت لديهم كل البواعث التى تحملهم على الاعتراف بجميل أسرة ديبلان • كما سبق أن رأينا كيف أن يوحنا قد أغدق عليهم الأملاك والامتيازات فى بلدته بيروت ، وأن فيليب قد أسس فى قبرص أولى المستعمرات التى نمت فيما بعد وبلغت أبعادا شاسعة • وتمثلت البداية المتواضعة الأولى عام ١٢١٨ فى منح قطعتين من الأرض للبناء ، احداهما فى ليماسول Limisso والأخرى فى فاماجوستا Famagouste (٩) • وفى الوقت ذاته أذن الأمير للجنويين أن يعينوا قنصلين بالجزيرة ، ومنحهما سلطة القضاء ، باستثناء الجرائم التى عقوبتها الاعدام ، فقد بقت من اختصاص محاكم الملك (١٠) • ولكن أهم الامتيازات التى منحها ، واستحق من أجلها اعتراف الجنويين بجميله ، هو اعفاؤهم من الرسوم الجمركية ، ومن كل الضرائب المفروضة على المنتجات التى يستوردها التجار من بلدهم • ولا شك أنه كان فى ذلك دعم لارتباطهم بآل ايبلان • غير أنه كان على يوحنا ديبلان أكثر من التزام نحوهم : بفضل أنهم كانوا قد تعاونوا معه فى فلسطين لاسقاط الأمبراطوريين (أو اللومبارديين كما كانوا يسمون فى ذلك الوقت) ، كما أعاروه فى قبرص سفنا يحارب بها أعداءه فى الداخل والخارج (١١) •

---

(٩) الواقع أن هذه البراءة قد منحتها الملكة الأرملة اليكس Alix
(Lib. jur, I, 625; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 39).
... غير أنه لما كانت اليكس قد تركت تصريف الشئون كلها لفيليب ، فانه يمكن القول بأن هذا الأخير هو الذى منح بالفعل هذا الامتياز • والسفير الذى حصل على هذه الاجازة هو بيترو جونتاردو •

(١٠) ثمة معاهدات لاحقة نصت لصالح قناصلة جنوا الحق فى التحقيق واصدار الأحكام حتى فى القضايا الهامة ، ولم تحفظ للمحكمة الملكية سوى تنفيذ الأحكام :
Mas-Latrie, I. c. II, 52, 258 et s.

(١١) Mas-Latrie. Hist. de Chypre, I, 282.

(١٢) Lib. jur., I, 899 et ss. ; Mas-Latrie, II, 51 et ss. ; Mas-Latrie, I, 281, 302.

الكلمة فى الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب هى diplôme ، وقد كانت تعنى فى الماضى أوراق الاعتماد لرؤساء البعثات الدبلوماسية Lettres de Créance • وقد جرى العرف والعمل بالنسبة للقناصل على ترجمتها بكلمة « براءة » • ولكن اتفاقية فينا لسنة ١٩٦٣ فى شان العلاقات القنصلية فى ترجمتها العربية الرسمية (الجريدة الرسمية — العدد ١٨٦) أطلقت هذه الكلمة « براءة » lettre de provision بمعنى الوثيقة =

وقد صحبه القنصلان الجنويان فى سورية ، هوجو فيراريو Hugo Ferrario وجوجليلمو دى اورتو Guglielmo de Orto فى هـذه السـفن حتى فاماجوستا • ومن ثم فانه ، اقرارا بشكره للجالية الجنوية ، سلمهما فى ١٠ من يونيه ١٢٣٢ خطابا بالاعفاء (من الرسوم الجمركية والضرائب) يوسع كثيرا ، وبمزيد من الدقة الامتيازات التى تتضمنها الاجازة القنصلية السابقة (١٢) • وبهذا التصرف منح التجار الجنويين منـازل فى المدن الأربع الأكثر أهمية فى الجزيرة ، نيقوسيا ، وليماسول ، وفاماجوستا ، وبافو (بافوس) ــ Baffo (Paphos) كمـا منحوا برجا حصينا فى ليماسول (١٣) • ولتحسين حالتهم المالية فى المدن ، خصص لهم حانات ومخابز ، ولتزويدهم بما يحتاجون اليه من الحبوب والنبيذ أهداهم عزبة مجاورة لليماسول ، بما فيها من الأهالى الفلاحين • وتبين أن كل المنازل الممنوحة ، والمذكورة فى المرسوم فى المدن الأربع صالحة لسكنى القناصل والفيكونتات الجنويين • ثم ان اختصاصات هؤلاء القناصل والفيكونتات كانت محددة بالطريقة الأكثر فائدة للجنويين • والواضـــح أن حـكومة الجزيرة لم تبد أى اعتراض على تعيين هؤلاء الموظفين • ويبدو مع ذلك أن الجمهورية لم تتعجل الاستفادة من هذا الترخيص المنصوص عليه بصورة عامة فى معاهدة عام ١٢١٨ ، واستمرت زمنـا طويلا فى ادارة شئون مستوطنيها فى قبرص عن طريق قناصلها فى سوريا • وهاكم دليلان على ذلك : ففى شهر ديسمبر ١٢٣٣ أبرمت الجمهورية فى نيقوسيا معاهدة تحالف مع ملك قبرص ، أو بالأحرى الوصى على المملكة ، يوحنا ديبلان ، ولم يكن ممثلها مقيما فى نيقوسيا ، ولكنه كان مندوبا مفوضا من قبل قناصل سورية (١٤) • وفى عام ١٢٤٩ ، أثبت قناصل سوريا فى قائمة الممتلكات التابعة لمستعمرات بللدهم : حماما فى نيقوسيا ، ومنزلا فى فاماجوستا ، كما لو كانت هذه المستعمرة أو المستوطنة ملحقة بسورية .

= التى تقوم باعدادها الدولة الموفدة لرئيس البعثة القنصلية للابلاغ عن تعيينه واثبات صفته واسمه ومرتبته ودرجته ودائرة اختصاص ومقر البعثـة القنصلية • أما الترخيص exequatur الذى تمنحه الدولة المستقبلة للبعثة القنصلية ورئيسها ليمـارس أعماله أيا كان شكل هذا الترخيص (والذى أطلق عليه مايد هنا diplôme) فقد اسمى فى الترجمة العربية الرسمية لاتفاقية فينا لسنة ١٩٦٣ المشار اليها « أجازة قنصلية » • ومن ثم ، أجرينا تصويب الترجمة على هذا الوجه • (المراجع)

(١٣) فى عام ١٢٩٥ ، استولى البنادقة على ليماسول فجأة ودمروا هذا البرج :

(١٤) Mas-Latrie, II, et ss : cf. I, 382, I, 302 et s.

ولم يكن لها وجود خاص بها (١٥) . وقبل عام ١٢٩٢ لم يكن في المستطاع - على الأقل استنادا الى الوثائق الموجودة - اثبات وجود رئيس للمستوطنة الجنوية في جزيرة قبرص ، مقيم بها .

ولم تصل الينا أية اجازة قنصلية صدرت لصالح البنادقة في قبرص في الفترة التي نحن بصددها ، حتى اننا لا نعلم حتى الآن الا الشيء القليل جدا عن الأموال والحقوق التي كانت في حوزتهم . ومع ذلك فهناك على الأقل ثلاث من هذه الاجازات : أولاها سلمت الى بيتيرو داندولو Pietro Dandolo ، ولوكا باربانى Luca Barbani سفيرى البندقية في فترة الوصاية على هنرى الأول « القاصر » (١٢١٨ - ١٢٣٣) (١٦) ، وحصل ماركو باربو Marco Barbo على اجازة ثانية من بلاسنتيا Placentia الوصية على العرش ، وذلك بين ١٢٥٣ و ١٢٦١ ، وأخيرا حصل باربو هذا على الاجازة الثالثة من هوجو الثالث Hugues III (١٢٦٧ - ١٢٨٤) . وقد حرر ملخص لهذه الاجازات القنصلية في مناسبة سفارة بعثت الى قبرص في عام ١٣٠٢ (١٧) ، وأثبت مجلس شيوخ البندقية أنها تتضمن امتيازات كبيرة .

ونحن الآن نعرف أحسن من ذى قبل مجموعة الممتلكات والحقوق التي كانت للبنادقة في الجزيرة ، وذلك بفضل اكتشاف أجراه حديثا الأستاذ توماس Thomas (١٨) ، وهو عبارة عن صحيفة من نوع التقارير المشهورة لمارسيليو جورجيو Marsilio Giorgio عن ممتلكات الجمهورية في سوريا ، ويبدو أنها حررت في العصر نفسه أو قريبا منه . وفي هذا التقرير جاء أن البنادقة كانوا يعاملون على قدم المساواة مع الجنويين من حيث الضرائب ، عند وصولهم الجزيرة ، واقامتهم فيها أو رحيلهم عنها ، بالاضافة الى أنه كان لهم قضاؤهم الخاص ، مثلهم مثل بارونات المملكة . وكان مركزهم الرئيسى ليماسول ، حيث يملك الكثير من البنادقة منازل وحوانيت وحدائق وبساتين كروم ، ومزارع في الضواحي ، ويبدو أن عدد هذه الممتلكات الخاصة كان أكثر بكثير قبل العصر الذى حرر فيه الكاتب صحيفته هذه . ومن ذلك الحين فقد البنادقة جزءا كبيرا من ممتلكاتهم ، انتقل الى حوزة البيزيين والجنويين والبروفانسيين والروم ،

---

(١٥) Archiv. de l'Or. lat. II, 2, p. 219.

(١٦) Lib. jur. II., 276.

(١٧) Mas-Latrie. Nouvelles preuves de l'hist. - de Chypre, I.C.P. 54 et s.

(١٨) Sitzungsberichte der Philos.-philol.-hist. Cl der Munchener Akad. 1878, I, 2, p. 143 et ss.

وفرسان القديس يوحنا أو فرسان الهيكل ، اما بالاحتلال غير المشروع ، أو بالبيع أو الوراثة • وكان للأمة (البندقية) فى ليماسول فندق منحه الملك لهم ، وكنيستان ، احداهما مكرسة للقديس مرقص (سان مارك)، والأخرى للقديس جورج ، وبيت للعـــــادة ، ومستشفى • ولم يكن ما يملكونه فى نيقوسيا وبافو يقارن بهذا الذى يملكونه فى ليماسول • ومع ذلك كان لهم كنيسة فى كل من هاتين المدينتين •

وكان لانكونا أيضا فى ذاك العصر علاقات تجارية مع قبرص • وفى عام ١٢٧٢ قدم اليها بعض تجار هذه المدينة ومعهم خطابات توصية من حاكمهم ، ومن شارل دانجو ملك نابولى (١٩) •

وقد كان البروفانسيون الأمة الوحيدة التى حصلت – الى جانب الايطاليين – على امتيازات فى قبرص فى القرن الأول من السيادة الفرنجية ففى شهر أكتوبر ١١٩٨ حصلت مدينة مرسيليا وحدها من الملك أمورى على الاعفاء التام من الرسوم الجمركية فى الدخول والخروج (٢٠) • وفى عام ١٢٣٦ قام قنصـــل مرسيليـــا فى عكا ، بالاشتراك مع ممثل من مونبلييه (٢١) بمساع أسفرت عن مد سريان هذا الامتياز الى سائر مدن البروفانس : ومع ذلك فان اسم مونبلييه هو وحده الذى ذكر فى هذه الاجازة • وتتضمن هذه المعـــاهدة الثانية بعض التعديلات ذات الأهمية الثانوية : من ذلك أنه كان على البروفانسيين أن يدفعوا دينارا بيزنطيا عن كل مائة دينار من ثمن البضائع الواردة من سوريا ، أو من سلطة ايكونيوم (قونية حاليا) أو من أماكن أخرى على الساحل الغربى لآسيا ، والمبيعة فى قبرص • فاذا لم يتم بيع هذه البضائع ، وأعيد تصديرهـــا ، فانهم (أى البروفانسيين) يستطيعون حملها معهم – اذا كانت واردة أصلا من سوريا – دون أن يدفعوا عنها ضرائب • أما بضاعة الشب ، والصوف ، والجلود ، والحرير ، الواردة من آسيا الصغرى فانها تخضع لبعض الرسوم التى تقدر بتعريفة لا نستطيع أن نبحث هنا تفاصيلها(٢٢) •

---

(١٩) Minieri Riccio, Il regno-di Carlo I d'Angio 1271-1272, p. 63.

(٢٠) Mery et Guindon, I, 186. M. de Mas-Latrie (Hist. de Chypre, II, 24 et s.

(٢١) Raimond-de Conchis, Hist.-du commerce de Montpellier, I, 253.

– ريمون دوكونشى ، شهد فى المدينة التى ولد فيها أحداثا ذات اهمية عـــامة (١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٤٥) نجده ذات مرة (١٢٢٣) قنصلا للمدينة ، انظر :

— Teulet Lavettes-du trésor des Chartes, II. 4. 53, 89, 603.

(٢٢) ابرمت هذه المعاهدة مع هنرى الأول ملك قبرص ، ونجدها فى :
Méry et Guindon, I, 419 et s.

غير أنه لم يكن هناك ثمة قناصل بروفانسيون أو أملاك استيطانية فى حوزة المدن البروفانسية ، ومع ذلك يمكن استثناء مدينة مرسيليا التى كانت تملك ضيعة Casal اسمها فلاسيا Flacia منحها اياها الملك أمورى فى عام ١١٨٩ ·

وطالما بقيت موانى الساحل السورى فى أيدى المسيحيين ، كان التيار الرئيسى للملاحة التجارية الغربية يتجه اليها · وهناك تركزت المنشئات التجارية الرئيسية ، ولم تكن قبرص سوى محطة وسطى ذات أهمية ثانوية · وكان سقوط عكا دلالة على حدوث انقلاب مفاجىء فى الأحوال · فمن تلك اللحظة ، نرى كل الأمم التجارية الغربية تحول أنظارها الى قبرص ، وتبذل مساعيها للحصول ثمة على أحياء واعفاءات ·

- ارمينيا الصغرى ، من حيث علاقات الجوار والصداقة بينها وبين الدول الصليبية :

هناك وراء حدود امارة أنطاكية ، عند ذروة الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى ، بلد يسكنه شعب مسيحى تدفعه مصالحه السياسية والدينية الى التقرب من الدول الصليبية ومن العالم الرومانى الجرمانى : وهذى مزية كبرى لتجارة الغرب · وفى زمن غير بعيد عن وصول الصليبيين الأوائل الى آسيا ، كان عدد كبير من الأرمن قد هاجروا حفاظا على قوميتهم ، حين هددهم تفوق الروم تفوقا متزايدا فى البلاد التى يرويها المجرى العلوى لنهر الفرات · واستقر هؤلاء الأرمن أولا فى الجبال شمال قليقية Cilicie ، ولكنهم ما لبثوا أن انحدروا الى القسم الحفيض من هذا الاقليم ، وانتزعوا ملكيته طوعا أو كرها من الروم سادته القدامى · ومن زعماء هؤلاء الأرمن أسرة تفوقت كثيرا على غيرها : تلك هى أسرة الروبينيد Roupénides ، ومن أفرادها لاوُن (ليون) الثانى Leon II ، وهو جندى باسل ، وسياسى قدير ، أسس دولة أرمينية جديدة (١١٨٧ ـ ١٢١٩) ، كانت حصنا حصينا لمسيحيى غرب آسيا · لذلك كان لاوُن يشعر شعورا عميقا بأهميته ، ويزهو بتفوقه على سائر سادة أمته ، ومن ثم اتخذ لنفسه لقب الملك · ولكنه كان يرى أبعد مما يراه غالبية مواطنيه ، وأدرك أن القيمة التى يشعر بها السكان فى أعماق نفوسهم ، وسلاسل الجبال التى تحيط ببلادهم ، لا يشكل أى منها للمملكة الجديدة سورا حصينا كافيا ، ولهذا شعر بالنسبة لنفسه ولخلفائه من بعده بضرورة عقد اتفاقات مع دول الغرب ومستعمراتها فى سوريا حتى

يستطيع أن يقاوم كلا من الأمراء المسلمين والأباطرة البيزنطيين . وما أن رسخ هذا الاعتقاد في نفسه حتى جعل كل تصرفاته متمشية معه . فالتمس من امبراطور ألمانيا ، هنرى السادس ، أن يسلمه بيده تاج الملك، وكون لنفسه بلاطا على نسق بلاطات الغرب ، وجعل لمملكته نظاما اقطاعيا مماثلا ، بل عمل على التوفيق بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ووزع جزءا كبيرا من قصور بلده على بارونات من الفرنجة . وفرسان القديس يوحنا ، وفرسان الهيكل ، والتيوتون : وكان القصد من كل هذه الأعمال اثارة اهتمام أوروبا برخاء مملكته . والى هذه المجموعة من الأفكار التى سار على هديها هو وخلفاؤه يرجع الفضل في الترحيب الذى لقيه التجار الغربيون في مملكة الأرمن : فكان من المحتمل أن تأتى اللحظة التى تدعو الحاجة فيها الى الاهتمام جديا بالدفاع عن هذه المملكة رعاية للحركة التجارية للدول الغربية ، وبخاصة الدول البحرية .

ومن وجهة التجارة ، كانت مملكة الأرمن في ظروف ملائمة : ففى الفترة التى كانت في أكثر اتساع لها ، أى في عهد لاوون (ليون) الثانى ، نمت التجارة على السواحل نموا كبيرا ، من الساحل الشرقى لخليج الاسكندرونة حتى موقع يبعد بضعة فراسخ عن شرم ساتاليا Satalia ، وبعد وفاة هذا الأمير بوقت قليل ، أدت غزوات السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى الى انكماش حجم المملكة كثيرا ، وارتداد حدودها من الجانب الغربى الى مدينة سلوقية (سلفكة Selefke الحالية) (٢٣) . ونطالع في « سانوتو » Sanuto (٢٤) وصفا ممتعا للساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، جعل للملاحين بنوع خاص ، ونلاحظ فيه بشأن القطاع الواقع بين النقاط المذكورة بعاليه ، مجموعة من الثغور الجيدة التى لم يعد الغربيون يرتادونها في الوقت الحاضر الا في القليل النادر . وكان الأمر دون شك على خلاف ذلك في العصور الوسطى ، لأن عددا كبيرا من هذا الموانىء قد ذكر في « سانوتو » وفي الخرائط الساحلية القديمة بأسماء ايطالية ، حيث كان اثنان من هذه الموانىء بنوع خاص : آياس Lajazzo ، قرياقوس Korykos (Gorighos)

---

(٢٣) هى مدينة سلوسية Seleucia فى اسمها البيزنطى واليونانى القديم ، ثم أصبحت تسمى سلوقية فى العربية ، وسلفكة فى التركية بعد الفتح السلجوقى (المراجع) Houtsma Ub. e Turk Chron. p. 13 et ss.

(٢٤) Bongars, II, 88 et ss. ; Taf. et Thom. I, 375-381, suppléments, III, 462 et s. ; Vivien de Saint-Martin, Asie mineure, I, 519-526 .

(٢٥) كان لهذا الموقع أهمية فى عصر السيادة البيزنطية انظر : Anne Comène éd. Bonn, II ,120 et s.

يتمتعان برخاء كبير ، كما كانت طرسوس مدينة بحرية لم ينسحب البحر بعيدا عن أسوارها ، كما هو الحال فى الوقت الحاضر . ولم يكن نهر البردان (كودنس Cydnus أو طرسوس تشاى Tarsous-Tchai) الذى يخترقها قد سدت الرمال مجراه ، وانما كان يتدفق منها نحو البحر (٢٦) . وعلى بعد ما ، داخل الاقليم ، كانت مدينتا أطنة والمصيصة (Mamistra) دوبسويست Mopsueste القديمة وحاليا المصيصة (Missis) تتصلان بالبحر عن طريق قنوات صالحة للملاحة (٢٧) . ولم تزل المراكب قليلة الحمولة تصعد فى الوقت الحاضر نهر سيحان Sihan-Tehai (سارس قديما) حتى أطنه ، كذلك لم يزل نهر جيحان Djihan Tehai (بيرامس القديم Pyramus) صالحا للملاحة عند المصيصة (٢٨) . وقد كان للنهرين وقتئذ مصب واحد ، أكثر اتساعا وأكثر صلاحية لدخول السفن (٢٩) .

وقدمت مملكة الأرمن الصغيرة للتجارة أيضا مزايا أخرى ، خلاف ذلك الجمع من مواقع الرسو الملائمة للتجارة : ذلك أنها كانت بموقعها عند ذروة الزاوية بين آسيا الصغرى وسوريا مهيأة بالطبيعة لمرور القوافل على أرضها . وكان الطريق البرى من سوريا الى ايكونيوم (قونية) والى القسطنطينية ، والذى ينتهى اليه من جهة طريق الفرات ، ومن جهة أخرى طرق بلاد العرب — كان هذا الطريق يجتاز أرمينيا الصغرى بكل طولها . كما كانت القوافل القادمة من حلب وأنطاكية تصل الى الاسكندرونة عن طريق ممر بيلان Beilan . ولم تكن مدينة بيلان (البيلقان ، وتعرف بالأرمنية باسم فيدا كران) فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر سوى بقعة منعزلة (٣٠) ، ولكنها نمت فى الأزمنة اللاحقة حتى أصبحت ميناء لحلب (٣١) . وعلى بعد بضعة أميال شمالى

---

(٢٦) Dulaurier, dans le Recueil des historiens des croisades.

(٢٧) Kotschy, Reise in den cilicischen Taurus, p. 283 et s.

(٢٨) Chesney, Expedition for the survey of the river Euphrates, I, 300.

(٢٩) Dulaurier, L. c. p. XLII et s.

(٣٠) Wilbr. Oldenb., éd. Laurent p. 16; Aboulf. Géogr. II, 2, p. 33. ;

(٣١) Ritter, Endk XVII, 2, p. 1819 e ts. 1893 et s.

الاسكندرونة يصـل المرء الى الأبـواب القليقيـة المشـهورة (بورتيللا Portella) (٣٢) حيث المكتب الرئيسى للجمارك الأرمينية ، وهو ممر ضيق محصور بين الجبل والخليج ، وكان مغلقا بباب رخامى لم تزل أطلاله ظاهرة الى الآن (٣٣) · ومن هذه الأبواب يمتد الطريق الى اقليم ارمينيا ، فيلتف حول الساحل ، ويصل الى المصيصة (مامسترا ، ماسيسا ، مسيس) ثم الى أذنه (أطنة) : ويعبر جبال طوروس Taurus عند ممر « جوليك بوغـاز Goulek Boghaz » ، ويشرف على هـذا الدرب حصن كبير ، يسمى جوجلاج Gouglag (٣٤) يحمى الحدود من ناحية الأتراك (٣٥) ، وكان هناك أيضا على ما يبدو مكتب جمركى · وعند الخروج من الممر الجبلى يتجه الطريق الى قونية · وهكذا نرى أن هذا الطريق يجتاز أرمينيا من الجنوب الشرقى الى الشـمال الغربى ، ويقطع بالقرب من مامسترا واطنه طريقا آخر قادما من المجرى الأوسط لنهر الفرات عن طريق مراش Marach (٣٦) ، فكان يزود هـاتين المدينتين بنصـيبه من الحركة

وتعرف بسوق الكركى (من قرياقوس اليونانى وتعنى يوم الرب) ·
ويشير كى لسترانج فى « بلدان الخلافة الشرقية » (طبعة بغداد سنة ١٩٥٤) أننـا لجد فى التواريخ القديمة أسماء جملة من هذه المدن معربة ، ولكن معظم هذه الأسماء قد انتقل الينا على غير هذه الصور بعد الفتح التركى · فقد أشار المصـنفون العرب الى جملة مواضع يصعب تعيينها الآن اما لغموض ما ذكروه أو للبس فى الاسم · ص ١٧١ ، ٢١٢ (المراجع) ·

(٣٢) Wilbr. l. c. ; Sanut, p. 244; Contin, de Guill de Tyr, p. 215.

(٣٣) Ainsworth, dans le Journ. of the geogr. society, VIII, 185 et ss. ;
Ritter, op. cit., p. 1828 ; Taf. et Thom. II. 399 et s.; Guatremère Makrizi, I, 2. p. 124 ; Muller, Geographi graci minores, I, 476 et s.; Dulaurier, dans le Recueil des hist. des-crois, l.c. Introd p., XXVII et ss.

Langlois. Voyage en Cilicie, p. 362 et s., 368; Mémoire sur la constitution de l'Armenie, dans les Mém. de l'Acad de S. Pétersbourg. 7e série. T, III, p. 46; Dulaurier, dans le Rec. des hist. des crois.

(٣٤) هذا الحصن هو فى الأعم قلعة الحدث (Adaka) المعروفة فى مؤلفات الرحالة العرب ، كما كان الممر معروفا بدرب الحدث ثم أسمى درب السلامة على طريق القسطنطينية الذى يجتاز جبال طوروس عند الأبواب القليقية (المراجع) ·

(٣٥) Kotschy. Reise in den cilicischen Taurus, p. 71 et ss., 204 et s.

(٣٦) Edrisi. II, 139, 313 et ss.

والنشاط . كان هناك أيضا طريق ثالث ، ولكنه لم يكتسب أهمية بالنسبة الى حركة التجارة الا فى زمن لاحق . وسوف نتحدث عنه فيما بعد (٣٧) .

وكانت هذه الطرق كلها تلقى على سواحل أرمينيا كميات من البضائع يأتى معظمها من وسط آسيا . ومع ذلك فمن العسير معرفة أى من منتجات آسيا أو منتجات البلد نفسه يجتذب التجار الغربيين أكثر من غيره . والواقع أن المنتجات الأهلية كانت كثيرة التنوع ، كما كانت زراعة القطن التى اعتنى بها عدد من التجار مزدهرة للغاية فى العصور الوسطى ، وتزود الصناعة بمادة أولية ممتازة (٣٨) . وكان الناس يطلبون صوف أرمينيا ، وبخاصة شعر الماعز (٣٩) الذى يستعمل محليا فى صناعة الشمال (جمع شملة) الممتازة (٤٠) وكانت ماسيسا متخصصة فى تصدير الجلود والفراء . (٤١) وفى مناجم طوروس تستخرج معادن متنوعة ، وبالأخص الحديد (٤٢) ، كما كانت غابات الجبال تنتج الأخشاب بوفرة (٤٣) ، فى حين تنتج السهول قمحا ونبيذا وزبيبا للتصدير (٤٤) . وأخيرا ، كانت الخيول والبغال الأرمينية تحظى فى الخارج بتقدير كبير (٤٥) .

ومن الراجح كثيرا أن (قليقيه Cilicia) كان يزورها التجار الايطاليون قبل أن تصبح مملكة أرمينية : فقد كانت اقليما بيزنطيا ، وكان الأباطرة يرخصون لجمهوريات ايطاليا التجارية بدخول أقاليم الامبراطورية ، ولابد أن هذا الترخيص كان يسرى ضمنا على سلوقية (قليقية) . وبالفعل كان ثمة امتياز ممنوح للبنادقة فى عام ١٠٨٢ يذكر صراحة من الأسواق المفتوحة لهم ، أسواق المصيصة ، وأدنه ، وطرسوس (٤٦) . ومع ذلك فما أن جلا الروم عن آخر ممتلكاتهم فى

---

(٣٧) Kotschy, op. cit., p. 33.

(٣٨) لمزيد من الايضاح انظر الفصل المخصص للسلع التجارية .

(٣٩) Yates, Textrinum antiquorum, 1er part Lond, 1843, p. 127. et ss.

(٤٠) انظر الفصل الخاص بهذا الموضوع

(٤١) أبو الفدا : Géogr. II, 2, p. 29.

(٤٢) Makrizi, Histoire des sultans mamlouks. éd. Guatremère, II, 1, p. 207; Lib. jur. 11, 184; Pegol .p. 44, 46.

(٤٣) Pegol, p. 44.

(٤٤) Pegol, p. 44; Lib. jur. II, 184; Aboulf. Géogr. 11, 2, p. 34.

(٤٥) Not, et extr. XI, 117; Pegol, p. 298.

(٤٦) Taf. et Thom, I, 52, 118.

القسم السفلى من البلد ، وأصبح لاؤون الثانى سيد الساحل بلا منازع ، حتى وجد سفراء جنوا والبندقية يأتون الى بلاطه ملتمسين عطفه ورعايته. واذا كان الأوروبيون بعامة مصرحا لهم بالاعتماد على حسن استقبال لاؤون لهم ، فان الجنويين كان لهم الحق فى ذلك قبل غيرهم لأنهم قدموا كل ما فى وسعهم من مساعدة لسفرائه فى الغرب (وغالبا فى مناسبة المفاوضات التى جرت بينهم وبين الامبراطور والبابا) . ولم يتركهم لاؤون ينتظرون مكافأتهم ، فما أن وصل أول سفير لهم ، وهو أوجيريو دى باللو Ogerio di Pallo (٤٧) فى شهر مارس ١٢٠١ (٤٨) حتى منح مواطنى جنوا الاعفاء من الرسوم الجمركية ، والمكوس ، وسائر الضرائب فى كل أنحاء ولاياته ، بالاضافة الى عقارات وأراض لبناء المخازن والمحاكم فى سيس Sis حيث مقره (على رافد شمالى لنهر جيحان) (٤٩) ، وفى المصيصة ، وطرسوس حيث أصبح لهم حق ممارسة الشعائر الدينية وتشييد الكنائس ، كما أصبح لهم الاختصاص القضائى بين مواطنيهم . وما أن تسلم الجنويون ممتلكاتهم حتى جعلوا المستوطنة تحت ادارة فيكونت ، شأنها شأن سائر مستوطناتهم فى سوريا . وكان الفيكونت اوجونيه فيراريو Ugone Ferrario هو الذى حصل فى عام ١٢١٥ لصالح مواطنيه على ثانى اجازة موقعة من لاؤون (٥٠) . هذه الاجازة أكثرت من العقارات التى يمتلكها الجنويون فى طرسوس ، فأتاحت لهم بناء فرن وحمام وضم حديقة ، ولكنها وضعت قيدا على الاعفاء من الرسوم والضرائب . فقد كان فى المملكة أربعة بارونات لم يستطع لاؤون أن يحملهم على التنازل عن الرسوم والضرائب التى فرضوها على التجار الجنويين الذين يمرون بأقاليمهم ، ومن ثم وجد نفسه مضطرا لأن يستمهل الجنويين ، ويعدهم بأنه فى حالة رجوع أى اقليم من هذه الأقاليم الى الملك فانهم سوف يتمتعون فى الحال بذات الاعفاءات التى يتمتع بها مواطنوهم

---

(٤٧) M. Saint-Martin (Not. et extr. XI p. 19) et Langlois (Trésor des chartes de l'Arménie p,. 109 et s,); Annales Japaneses, p. 118; Lib. jur. I, 462 et ss. ; Canale, Nuova istoria di Genova, I, 367; II, 544.

(٤٨) Lib. jur. I, 468-470; Not. el extr XI, p. 19 et ss. ; Langlois. Trésor,. p. 105 et ss.

(٤٩) أطلق المسلمون على نهرى ساروس وبيرامس فى آسيا الصغرى اسم نهر سيحان وجيحان ، على غرا رتسميتهم نهرى أوكسس Oxus وجكسارتس Jaxartes فى آسيا الوسطى ، وهما أكثر شهرة باسم سيحون وجيحون . ومنابع النهرين الأولين فى شمال أرمينية الصغرى . ويذكر أبو الفداء أن العامة تسمى نهر جيحان بنهر جهان الذى يصب فى خليج اياس الى شمال ميناء الملون (ملس Mallus . أما سيحان فاصغر منه وتقع مدينة أذنة على ضفافه — (المراجع)

(٥٠) Lib. jur. I. 574-576; Langlois, Trésor, p. 126 et. ss.

في سائر أنحاء البلاد التى تتبعه تبعية مباشرة • هؤلاء البارونات هم أوتون فى طبرية ، وآدم فى جاستون ، وفاهرام فى قرياقوس أو سوق الكركى (مارشـال المملكة) ولاؤون سيد جابان • وعلى الرغم من المركز الكبير الذى كان لهذه الشخصيات فى بلاط أرمينيا ، والدور الهام الذى أدوه فى التاريخ ، فهم لا يهموننا كثيرا فى هذا المجال(٥١) • ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة الى اقطاعياتهم ، لأن مواقع هذه الاقطاعيات تصلح لأن تكون لنا بمثابة شواخص تدلنا على الطرق التى كان يسلكها التجار الجنويون • فاسم طبرية Tabaria كعلم لأسرة يرجع أصله الى بحيرة طبرية Tiberiade بفلسطين ، فان كان لا علم لنا بموقع اقطاعية أوتون تلك فى طبرية ، مما يؤسف له • ويعتقد دولوريه Dulaurier أن قصر هذا البارون وجمركه كانا عند ممر « جوليك بوغاز » الذى يجرى عنده الاتصال بين سلوقية (قليقيه) وسلطنة قونية ، وان كـان هـذا مجرد افتراض لا يزودنا باثبات قاطع (٥٢) • والأمر على العكس من ذلك بالنسبة الى الاقطاعيات الثلاث الأخرى ، اذ يمكننا أن نحدد مواقعها على الخريطة • فهناك أولا مدينة قرياقوس (سوق الكركى) Korykos الكائنة على بعد خمسين ميلا فقط (٥٣) من جزيرة قبرص ، وفى موقع ملائم لحركة التجارة التى تقصد سلطنة قونية (٥٤) • وكانت هذه المدينة على ما يبدو الميناء المفضل لدى الجنويين • أما قصر سيد جاستون Gaston (جاستيم Gastim) فقد كان يشرف على ممر بيلان ، على بعد أربعة أميال فحسب من أنطاكية (٥٥) : بمعنى أنه كان على الجنويين فى حملتهم للتجارة أن يجتازوا اقليمه ، ذلك لأنهم كانوا يترددون كثيرا على الطريق الكبير الذى يبدأ من أنطاكية ، وينحدر الى خليج الاسكندرونة عن

---

(٥١) Dulaurier, dans le Recueil des hist. des crois., Doc. armén. I, p. lxxxiv et ss.

(٥٢) فى عام ١١٩٨ كانت هذه القلعة فى حراسة بارون أرمنى اسمه سمباد Ibid. p. xcv - Sempad

انظر كى لسترنج ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ – (المراجع) •

Mas-Latrie, Des relations de l'Asie mineure avec l'île de Chypre : Bibl. de l'école des charte, 2e série, I, 303.

(٥٣) Gesta Ricardi I, éd. Stubbs, II, 194.

(٥٤) Mas-Latrie, Des relatoins de l'Asie mineure avec l'île de Chypre, Bibl. de l'école des chartes 2e série, I. 303.

(٥٥) wilbr. ab Oldenb. p. 174; Innoc. III, epist lib. 11, no. 259, lib. xii, no 45 ; Gesta Innoc. III, p. 72; p. 72; Raynold, Annal. eccles ad an. 1205 et la note de Mansi; Contin. de Guill. de Tyr, dans le Rec. p. 136 et note;Documents arméniens, I, éd. Dulaurier, dans le même Recueil p. 171 et s., not.

طريق جبل أمانوس Amanus (٥٦) ، ومن هناك الى المصيصة وأطنه .
ونقرأ في الوثيقة المشار اليها أن لاؤون سيد جابان Gaban فرض اتاوة
على التجار المارين بجيحان (٥٧) ، وكانت جابان قلعة كائنة في الجبل
شمال غربي مرعش (مراسيون) على رافد شمالى لنهر جيحان (٥٨) .
وكان اقليم السيد المعروف بهذا الاسم يمتد حتى نهر جيحان . واذا كان
التجار الجنويون يدفعون هناك رسم مرور، فذلك لأنهم يزورون الحدود
الشمالية الأرمينية .

وبعد انقضاء حوالى ستة شهور على قدوم اوجيريو دى باللو ، وصل
الى أرمينية سفير من البندقية يدعى جاكوبو بادوارو Jacopo Badoaro
مبعوثا بسلطات مطلقة من قبل الدوج أنريكو داندولو ، وحصل على
امتيازات مماثلة تقريبا للامتيازات الممنوحة للجنويين باجازة عام
١٢٠١(٥٩)وان كانت في الحقيقة أضيق منها نطاقا بكثير . وقد أرخت هذه
الاجازة التى لم تمنح البنادقة سوى كنيسة،ومستودع وأرض لبناء دار عامة
domusفي المصيصة،دون أن يحظوا بشيء في سيس أو طرسوس ، بشهر
ديسمبر عام ١٢٠١ . وكان تجارهم مأذونا لهم بممارسة التجارة بمطلق
الحرية في المملكة كلها ، وبالمرور في البلاد المجاورة بشرط أن تكون
أرمينية على علاقة سلمية معهم . ولم تكن الرسوم الجمركية تستحق الا
على البنادقة المقيمين في الشرق (في سورية) ، عند مرورهم من
الأبواب القليقية (بورتيللا) . أما غيرهم من البنادقة فكانوا معافين من
هذه الرسوم ، فيما عدا المواد المصنوعة من ذهب أو فضة ومستوردة
بغرض تحويلها الى نقود . ولم يرد في هذه الاجازة التى أصدرها لاؤون
الثانى ذكر لتعيين قنصل أو حاكم مستعمرة baile بندقى في أرمينية ،
ولا نجد أيضا ذكرا لذلك في الاجازة التى أصدرها حتوم Hethoum

(٥٦) لا شك أنه احدى جبال أو قمم سلسلة جبال طوروس الداخلة التى عممها
العرب باسم جبل اللكام حيث كانوا مقلين في اطلاق التسميات ، فكان ذلك علة كثير
من الارتباك (المراجع) .

(٥٧) Quatremere, Makrizi, l.c. p. 260 ; Saint-Martin, Mémoires sur l'Ar- ménie. I, 164; Langlois, Trésor, p. 119; Cont. de Guill de Tyr, p. 208.

(٥٨) Saint-Martin, L.c. I, 202 402 ; Dulaurier, l.c. p. XXV et s.,

(٥٩) 153 et s., 483, 513; Ritler. Kleinasien, II, 36 103, 157. Archivs stor. ital. App. ix, p. 361-364; Taf. et Thom. I, 381 et ss.; Langlois. l.c.p. 109.

فى شهر مارس ١٢٤٥ (٦٠) ، وهى الاجازة الثانية من حيث تاريخها ، أما من حيث بنودها الرئيسية فانها ليست سوى نسخة من الأولى • وفى نصوص اجازة عام ١٢٠١ أنه اذا توفى أحد البنادقة ، ولم يكن هناك من مواطنيه من يرثه ، تبقى ثروته مودعة عند كبير أساقفة سيس حتى يتصرف فى أمرها دوج البندقية أو حاكم مستعمرة البنادقة baile فى عكا (وقد أضيف هذا النص فى براءة عام ١٢٤٥) • ولم يرد فى أية واحدة من البراءتين ذكر لقاض بندقى يفصل فى المنازعات بين البنادقة ، وانما يتدخل لفض مثل هذه الأمور أى بنادقة آخرين بصفة محكمين ممن حضروا الصفقة موضوع النزاع • فاذا لم يمكن هناك ثمة شهود للنزاع ، يعهد بالفصل فيه الى رئيس أساقفة سيس الذى يجمع الى وظائفه الكنسية وظائف المستشار ورئيس القضاة (٦١) •

ومن المعلوم أنه وان كانت منشئات البنادقة وقتئذ أقل حجما من منشئات الجنويين ، الا أن تجارتهم كانت بالفعل أكثر نشاطا واتساعا • ويفترض نص براءتى عامى١٢٠١ ، ١٢٤٥ أنهم يزورون كل البلاد المجاورة لأرمينية ، مسيحية كانت أو اسلامية ، ومن بين هذه الأخيرة بالتأكيد سلطنة قونية : ذلك لأن البندقية كانت منذ فجر القرن الثالث عشر مرتبطة مع أمراء هذه الدولة بمعاهدات تسعى الى تنمية العلاقات التجارية بين البلدين •

والواقع أنه لم يكن لأرمينية وقتئذ فى نظر الغربيين من حيث التجارة الأهمية التى صارت لها فيما بعد ، حيث لم تكن فى نظرهم سوى دولة تابعة للدول الصليبية فى سورية ، شأنها فى ذلك شأن جزيرة قبرص ، وان كانت قد تجاوزت قبل قبرص هذا الدور الثانوى ، وازدادت أهميتها يوما بعد يوم ، حتى صارت من المحاط الرئيسية فى تجارة الشرق الأدنى • والحقيقة أن أصل هذا الازدياد فى الأهمية يرجع الى عشرين أو ثلاثين سنة قبل سقوط عكا ، مرتبطا فى ذلك بظروف ليس فى وسعنا أن نتحدث عنها هنا بالتفصيل • فهناك ثمة اعتبار يجعلنا نتوقف عند هذا الحد • ذلك أننا داخلون فى عصر آخر ، فمنذ أن سقطت • امارة عكا ، ومعها الحصن الشمالى للدول الصليبية فى أيدى المسلمين (١٢٦٨م) لم تعد أرمينية جارة لها ، وانما أصبحت معتمدة على قوتها الذاتية •

---

(٦٠) Archiv. stor., l.c.p. 365 et ss. ; Taf. et Thom. II, 426 et ss. ; Langlois, p. 143 et ss., p. 145.

(٦١) Langlois, p. 34 ; Dulaurier, l.c. p. lxxxvii.

عندما يقتضى الأمر ايضاح الطريق الذى تسلكه منتجات الشرق لتصل الى الدول الصليبية ، يتعين علينا أن نعود بخطانا الى الوراء ونتحدث عن البلاد الواقعة خلفها ، أى الى الجزء من سوريا الذى بقى فى أيدى المسلمين . فالواقع أن تجارة الموانى السورية كانت تتزود أساسا من الأسواق الكبرى فى حلب ودمشق ، وكذا من محاط أقل اهمية فى حمص وحماه . ويبدو أنه انقضى وقت طويل قبل أن يجرؤ التجار الأوروبيون على المخاطرة فى هذه المناطق المعتبرة بلادا معادية . وشيئا فشيئا خفت حدة الأحقاد ؛ وكلما عادت علاقات أمم أوروبا التجارية مع مسلمى مصر الى ما كانت عليه قبلا ، زال النفور بالتدريج من اخوانهم فى الدين (أى المسلمين) فى سوريا . ومن اليوم الذى أصبح فيه سلاطين مصر سادة هذا البلد ، أى منذ أن تولى صلاح الدين مقاليد الحكم ، ضمنت المعاهدات التى أبرمتها هذه الأمم قبلا مع مصر ترحيبا طيبا بها فى سوريا . لذلك نرى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر تجار عكا من البنادقة يزورون دمشق ومدنا اسلامية أخرى(٦٢) .ومهدت لهم أوطانهم الطريق بأن تبادلت السفراء مع سلاطين حلب ، والعديد من صغار أمراء شمال سوريا . ولم تكن هذه الأمم تستهدف بذلك فقط توسيع نطاق تجارتها داخل القارة ، ولكنها كانت تتغيا أيضا الاحتفاظ بمواقعها القديمة على الساحل . ونحن نعلم أن جيوش صلاح الدين المظفرة أنزلت بامارة انطاكية ضربة قاصمة ؛ وفى حين خرجت الامارات الأخرى من هذه النكبة وقد انكمشت حتى أصبحت قاصرة على شريط من الأرض يمتد على طول الساحل ، ولكنها ظلت متحدة ومترابطة ، فقدت امارة أنطاكية قسما من سواحلها ، وتقدم اقليم المسلمين فيما يشبه الزاوية حتى بلغ البحر بين أنطاكية وطرابلس ، وغزا صلاح الدين اللاذقية Laodicee وجبيل Gibel (٦٣) . حقا ، لقد اضطرت الحاميات الاسلامية لهذين الموقعين فى عام ١١٩٧ الى الانسحاب أمام قوات الأمير بوهمند الثالث (أمير أنطاكية) (٦٤) . ولكن نجاح المسيحيين هذا كان نجاحا مؤقتا . ففى عام ١٢٠٣ سارت فرقة من الصليبيين برا من عكا الى انطاكية فوجدت جبيل وقد احتلها أمير مسلم ، فواصلت طريقها ،

(٦٢) Taf. et Thom II, 396.

(٦٣) Aboulféda, dans le Recueil des hist. des crois, p. 59 ; Ibn-Alathir, Ibid. p. 719 et s.

(٦٤) wilken, V, 49.

وكان عليها أن تمر باقليم سلطان حلب ، فهاجمهـا العدو بالقرب من اللاذقية وأبادها تقريبا (٦٥) • وظل الموقف على حاله فى عام ١٢١١ ، عندما زار فيلبراند دولدبرج Wilbrand d'Oldenbourg هذه البقاع • فمن مرجات Margath ، ركب هذا الحاج البحر ليتحاشى ثلاث مدن اسلامية وأقاليمها : جبيل التى يحتلها صهر سلطان حلب ، وسيجون Séhjoun وهى قلعة يملكها هذا السلطان ، واللاذقية • وكان عليه ، ليجد أرضا مسيحية ، أن يواصل طريقه حتى سويدين Souidin (السويدية Soueidièh) ، حيث نزل من السفينة (٦٦) • وهناك ، عن عشر السنين التالية ، دلائل تثبت احتلال المسلمين اللاذقية وجبيل • هذان الموقعـان هما ضمـن المواقع التى أعطاهـا السلطان « الملك الكامل » للصليبيين فى عام ١٢٢١ فى مقابل مدينة دمياط (٦٧) ، ولما رفض عرضه هذا بقيت المدينتان فى أيدى المسلمين كما كانتا من قبل ، وهذا أمر ثابت لا جدال فيه • حقا لقد تصرف الأميران اللذان تنازعا خلافة بهمند الثالث فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، ريموند Raimond Roupen وبهمند الرابع ، تصرفا كما لو كانا سادة جبيل ، فمنح أحدهما المدينة لفرسان القديس يوحنا ، ومنحها الثانى لفرسان الهيكل ، فنشأ بين الطائفتين نزاع لم ينته الا بقرار محكمين (٦٨) • ولم يكن لذلك أهمية : فالواقع أن جبيل لم تكن تابعة لا لروبن ولا لبهمند ، وكل ما كان فى وسعهما أن يمنحاه هو الحق فى غزو المدينة ، وكان هـذا الحق هو موضوع النزاع بين الطائفتين • ولكن المدينة بقيت مسلمة (٦٩) • والى الآن لم نلتفت الى هذه التفاصيل ، ولكنها كافية لكى تفسر كيف أنه منذ بداية القرن الثـالث عشر ، اختفى اسـما اللاذقية وجبيل تمـاما من الاجازات التى منحهـا أمراء انطاكية لصـالح الأمم التجارية • ولكى تستطيع هـذه الأمـم الاحتفـاظ بممتلكاتها الاستعمارية فى هاتين المدينتين ، والحقوق الملحقة بها ، لم يكن عليهم أن يخاطبوا أمراء أنطاكية الذين لم يكن فى وسعهم أن يصنعوا شيئا فى هذا الخصوص ، وانما كان عليهم أن يتوجهوا الى أمراء حلب ، أو الأمراء الصغار التابعين لهم بنوع

(٦٥) Contin de Guill. de Tyr, p. 247-249.

(٦٦) Wilbrand ab. Oldenburg ; dans Laurent, Peregrimatores medii oevi, p. 170 et s.

(٦٧) Aboulf. l.c., p. 97; Ibn Alathir, dans Michand-Reinaud, Bibl. des crois, IV, 413.

(٦٨) Paoli. Cod. dipl. I, 95, 99, 113, 120, 123, et s.

(٦٩) Paoli, p. 124.

ما ، وكان فى أيديهم هاتان المدينتان وأقليمهما • على أن جمهورية البندقية كانت تريد شيئا خلاف الاحتفاظ بالوضع القديم • كانت تريد توسيع تجارتها • ومن ثم عقدت علاقات دبلوماسية مع أمراء حلب • وفى عام ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ (عام ٦٠٤ هـ) رأى غياث الدين الظاهر ، ابن صلاح الدين ، وأول أمير من أسرة الأيوبيين التى حكمت حلب فترة قصيرة ، رأى ب • مارينيونى P. Marignoni مبعوث الدوج زيانى Ziani وقد وصل الى بلاطه ليعقد معه معاهدة تجارية • ومن ثم منح البنادقة فى مدينة حلب فندقا وحماما وكنيسة ، ووعد من يأتى منهم للاقامة بها ، وكذا المقيمين فى اللاذقية أن يساعدهم موظفوه فى الحالات التى يتعين عليهم فيها التوجه الى القضاء ، وضمن لهم عدم المساس بثرواتهم فى حالة الوفاة ، وحدد بصورة عامة الرسوم الجمركية فجعلها ١٢٪ عند الدخول والخروج • وبالنسبة الى اللآلىء والأحجار الكريمة ، يتعين على التجار البنادقة أن يدفعوا الرسم نفسه كلما أرادوا اعادة تصديرها لبيعها فى جهات أخرى • وبالنسبة الى القطن كان عليهم أن يسددوا عند باب المدينة رسما قدره ١٧ درهما على حمولة الدابة ، غير أن الأمير أعفاهم من المكوس التى تحصل عادة عند المرور بجبل سيفام Ceffam (٧٠) •

وفى عام ١٢٢٥ ، فى عهد الملك العزيز خليفة الظاهر ، أرسل الدوج سفيرا ثانيا اسمه تومازينو فوسكارينى Tomasino Foscarini فحصل هذا السفير على تخفيض الرسوم الجمركية الى ٦٪ وضمانات أقوى لسلامة أموال الرعايا البنادقة فى حالة الوفاة والغرق ، اذ كان البنادقة مهددين بانتزاع منشئاتهم فى اللاذقية : ومن ثم التمس السفير من الأمير أن يحتفظ لهم بها ، ولكن الأمير أجابه بأن ذلك ليس من سلطته ، وأحاله الى أمير اللاذقية • وعلى ذلك ذهب فوسكارينى الى هذه المدينة ، فأيد الأمير حق البنادقة فى أن يمتلكوا فى اللاذقية محكمة وفندقا وكنيسة وحماما ومخبزا ، وخفض الضريبة على المبيعات والمشتروات من ٨٪ الى ٣٪ ، والرسم الذى يحصل عن حمولة الدابة (Soma) من ثلاثة دراهم الى درهمين •

---

(٧٠) انظر « البراءة » فى :
Taf. et Thom, II, 63 et ss. ou dans Cicogna, Iscriz Venez.,
أما بخصوص جبل Ceffam أو Cesfam فانى اعترف اننى لم أجد هذا الاسم او اى اسم شبيه له على طريق قوافل انطاكية الى حلب أو طريق اللاذقية الى حلب •
— (Aboulf. Géogr. II, 2. p. 39 : Chereffouddin, Cherefnamèh, éd Charmoy, I, 1, p. 270, 749).
ـ وكانت القوافل الذاهبة من اللاذقية الى حلب تمر حتمـا على هذا الجسر حيث يوجد مكتب للجمارك : وهو معروف اليوم باسم جسر الشغور •
انظر : Ritter. Syrien, II, 902.

ومع ذلك لم تكن مهمة فوسكاريني قد انتهت ، اذ كان معه رسالة عليه ان يسلمها لسيد سيجون Seujoun ، وكانت قلعة سيجون من أمنع القلاع القائمة في جبال شمالي سوريا (٧١) ، وتقع على مسيرة يوم واحد شرقي اللاذقية ، وتشرف على طريق للقوافل يعبر حوض النهر الكبير وجبال النصيرية Nossairis ويمر بالاورونت (نهر العاص) عند جسر الشغور Djisr-ech-Chogr ، ويتجه من ثمة الى حلب (٧٢) ٠ ومن الناحية الأخرى يمتد الاقليم التابع للقلعة حتى البحر (٧٣) ، بين اللاذقية وجبيل ، وينتهي بلسان من الأرض يحمي موردة (٧٤) كثيرا ما تاوي اليها سفن الغرب عند الضرورة ٠ كان يهم البنادقة من كل الوجوه أن يكونوا على وفاق تام مع سيد البلد ، فقد تجنح احدى سفنهم على الساحل ، وقد يموت تاجر منهم وهو يمر باقليمه ٠ ولكن وبنوع خاص (وهذى مسألة ذات أهمية كبرى) قد يفرض السيد ضرائب مرتفعة على البضائع المنقولة من حلب الى البحر ، أو العكس ٠ وبعد استيلاء صلاح الدين على القلعة في عام ١١٨٨ أعطاها اقطاعية لمن يدعى ناصر الدين مانكوبارس Nassireddin Mancoubars (٧٥) ٠ وليس في الامكان اثبات ما اذا كان سيد القلعة في عام ١٢٢٥ هو هذا الشخص نفسه ، ذلك أن فوسكاريني لم يذكر أي اسم ٠ على أنه لا أهمية لهذه المسألة : فقد أعطى (سيد القلعة) للسفير ، من أجل سلامة البنادقة ، وأموالهم نفس الضمانات التي لسائر الأمراء ، بالاضافة الى تخفيض طفيف في الرسوم على الفلفل والقطن (٧٦) ٠

وفي أواخر عام ١٢٢٩ أوفد الدوج جاكوبو تيبولو Jacopo Tiepolo سفارة جديدة الى سيجون وحلب ، ويدعى السفير جيوفاني سوكوجولو

---

(٧١) عن هذه القلعة ، انظر أبو الفدا (Géogr. II, 2, p. 35) وابن الأثير د (Recueil, p. 721) وابن بطوطة 1, 166 ، وكذا

— L'index géographique de Schultens dans la Bohadini vita Saladini, p. 82 : Dulaurier, Mathieu d'Edesse) Rec. des hist. des crois. Doc. armén.). p. 18; Michaud-Reinaud, Bibl des crois. IV, 227; Taf. et Thom. II, 259, 272 et Ansbert. exp. Frid., éd. DobroWski, p. 5.

(٧٢) Ritter. Endk. XVII 1, p. 907 et s. 911 et s., 971 et s.

(٧٣) La relation de voyage de wilbrand d'Oldenbourg.

(٧٤) Cosmogrophie de Chemseddin-Dimeshky, trad. Mehren, p. 234

(٧٥) Aboulféda, dans le Rec. des hist des crois. p. 59, 70.

أبو الفدا ... ، ابن الأثير ، المرجع السابق ص ٧٢٢ ٠

(٧٦) نتائج سفارة فوسكاريني في حلب واللاذقية ، وصهيون ملخصة في ورقة نشرها (Taf. et Thom. II, 256 et ss.)

Giovanni Succugullo • وكان أمير سيجون وقتئذ شخصا يدعى مظفر الدين (٧٧) ، جدد وأكد الامتيازات التى منحها سلفه ، وذلك فى بنودها الرئيسية ، ووعد بأن يترك للبنادقة مهمة تسوية المنازعات التى تقع بينهم •

وفى اجازته تفرقة فى تعريفة رسوم الترانزيت المفروضة على الفلفل والقطن بين حمولة الجمل وحمولة البغل ، ولم يعد السعر الذى حدده أسلافه لحمولة الدابة بوجه عام يطبق الا على حمولة الجمل ، أما بالنسبة الى حمولة البغل فقد خفض السعر بدرجة محسوسة(٧٨) • ووجد سوكوجولو فى حلب الأمير نفسه « الملك العزيز » الذى تعامل معه قبلا فوسكاريني • ولكى يشجع هذا الأمير التجار البنادقة على زيارة بلده أكثر من ذى قبل ، خفض بعض الرســوم التى يدفعونهـا عند الاستيراد والتصدير ، ولكنه أبقى على سعر متوسط قدره ٦٪ ، ووعد بأن يجعل التجار البنادقة فى مأمن من أى ضغط يقع عليهم عند البيع والشراء ، وعين موظفا خاصا مهمته تلقى شكواهم ضد المطالبات المرهقة من جانب موظفى الجمارك ، ورخص للبنادقة فضلا عن ذلك بانشاء مستوطنة فى حلب واللاذقية ، وأن يقيموا على رأس هــذه المنشئات بايلا (سفيرا بندقيا) ، يضم اختصاصه القضائى كل المنازعات والخصومات بين الرعايا البنادقة ، ومنحهم كنيسة فى اللاذقية • وكانوا من قبل يملكون فندقين ، أحدهما فى حلب ، والثانى فى اللاذقية ، ووعد بأن يبنى لهم فندقا ثالثا « بالقرب من الجسر (ad pontem) » (٧٩) والراجح أن المقصود بذلك هو جسر الشغور ، على ضفاف نهر العاصى الذى لا بد من عبوره للذهاب الى حلب واللاذقية • كما وعد الأمير بالامتناع عن أى اجـراء ثأرى ضد التجار البنادقة فى حالة ارتكاب أحد مواطنيهم سرقة اضرارا بأحد رعاياه ، وأن يحمى من تغرق سفينته ، من أمتعهم فى اقليمى اللاذقية وجبيل (٨٠) • وفى عام ١٢٥٤ زار ســفير بندقى ثالث اسـمه جيوڤانى ساجريدو Giovanni Sagredo بلاط آخر أمراء حلب من سلالة صلاح الدين ، الملك الناصر ، وحصل منه على خطابين محررين بالفرنسية ، اطلعنا عليهما ،

---

(٧٧) لم يذكره المؤرخون العرب الا ليقولوا انه أبو سيف الدين الذى كان فى حوزته سيجون Séhjoun بين ١٢٦٢ ، ١٢٧٢ ، انظر : أبو الفدا (l.c. p. 148, 154) بين ١٢٦٢ – ١٢٧٢ انظر أبو الفدا I 1, p. 179, والقريزى I.I, p. 179

(٧٨) انظر البراءة فى : Tar, et Thom, II, 272 et s.

(٧٩) Riter Erdk, XVII 2, p. 1099 et ss.

(٨٠) Taf, et Thom, II, 274-276.

لا يحتويان الا على وعود بالصداقة والحماية ، محررين بعبارات عامة ، ويثبتان فقط أن البنادقة ما زالوا يمارسون فى ذلك الحين تجارتهم مع حلب (٨١) .

وبعد بضع سنين ، خلع الناصر من عرشه ، خلعه هولاكو ، خان المغول (١٢٦٠) ، وقطعت رأسه فى سجنه (١٢٦١) (٨٢) ، وبقيت سلالة سادة سيجون بعد انقضاء سلالة الأيوبيين فى حلب . وفى وسعنا أن نتتبعها حتى ســـابق الدين سليمان Sabik-eééin Sotiman الذى يملك القلعة مع أخيه فخر الدين . وتنفيذا للرغبات التى أبداها أبوه فى وصيته ، سلم القلعة للسلطان بيبرس (١٢٧٢) (٨٣) . كما حارب فيما بعد السلطان قلاوون ، بقيـــادة خصـمه سنقر الأشقر Sonkor-Achkar ، حتى اذا انهزم فريقه وقع فى الأسر وسجن (١٢٨٠) . ومع ذلك احتفظ سنقر الأشقر بالقلعة ، وجعل منها حصنه ، وبقى بها عدة سنوات (٨٤) .

فماذا كان مصير البنادقة وسط هذه الانقلابات والتغيرات فى الأسر الحاكمة ؟ هل بقى فندقهم فى حلب ابان الغزو المغولى دون أن يصاب بشىء ؟ وهل احترم سادة حلب وسيجون الجدد المعاهدات القديمة ؟ لا علم لنا بشىء من ذلك . غير أن شيئا واحدا أكيدا : ذلك أنه فى أواخر العصور الوسطى كان عدد كبير من التجار البنادقة ما زالوا يذهبون الى حلب ، وآخرون مقيمين بها . وسوف نتكلم فى هذا الخصوص ، ولا يبقى سوى أن نضيف كلمة بشأن المواد التى كان البنادقة يستوردونها الى حلب ، والمواد التى يصدرونها منها . فمن المواد المستوردة تذكر المعاهدات التى استعرضناهـا اللآلىء ، والأحجار الكريمة ، والفضـة ، والنحاس ، والأصـــواف . ومن مـــواد التصـــدير القطن الذى كانت ســـورية تنتجه أيضا بوفرة ، والتوابل (وبخاصة الفلفل) التى تصل الى حلب من الخليج الفارسى والفرات . ولا يغيب عن البال أنه عند تحرير هذه المعاهدات لم يكن المقصود وضع قائمة كاملة بالأشياء التى يلتزم البنادقة بتقديمها للجمارك ، سواء فى حلب أو فى الطريق ذهابا وايابا ، والا

---

(٨١) Ibid. III, 60-62. Mas-Latrie, dans la Biblioth. de l'école des Charles, 3e série II, 527.

(٨٢) Weil, Gesch. d. Chalif, IV, 13 et s. 17.

(٨٣) أبو الفدا (Rec. p. 154) ، المقريزى (1, 2, p. 110)

(٨٤) المقريزى (II, 1, p. 18, 30, 41, 87 et s.)

لم تكن الأقمشـة الحريرية قـد نسيت ، لأن حلب كانت من الأسواق الرئيسية لهذه السلعة (٨٥) ، أو نسى أيضا الشب الذى ينتجـه هذا البلد ، والذى نصادفه كثيراً فى الغرب اعتباراً من القرن الثالث عشر •

ـ مصر :

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان طريق البحر الأحمر هو بالتأكيد أكثر الطرق المعروفة ملاءمة للصلة بين الشرق والغرب • فهو يختصر بأقل ما يمكن المصاعب والنفقات الباهظة المترتبة على المواصلات البرية • وبغض النظر عن الشريط الضيق من اليابس الذى يفصل البحر الأحمر عن النيـل ، كانت البضائع المصـدرة من الهند أو الصين تنتقل دائما بطريق البحر ، وتتبع الخط الأكثر استقامة ، أى الطريق الأقصر للوصول الى موانىء ايطاليا وفرنسا وأسبانيا • ونحن نعرف دور مصر الهام فى التاريخ القديم : وتدين مصر بهذا الدور الهام لموقعها المركزى ، وللحركة التجارية الهائلة التى ترتبت على هذا الموقع • وفى العصور الوسطى لم يكن هذا الوضع قد تغير ، ويمكن القول عن مصر كلها ما قاله جويوم (وليم) الصورى عن الاسكندرية بنوع خاص (٨٦) : انها سوق العالمين •

ويتناول هذا الفصل بالايضاح كيف كانت منتجات الشرق النادرة المطلوبة بكثرة تصل الى مصر وتخرج منها فى العصر الذى وصلت اليه دراستنا هذه ، أى فى زمن الحروب الصليبية : لذلك ينبغى لنا أولا أن نوجه أبحاثنا صوب الجنوب الغربى من بلاد العرب • فثمة بلدتان على الساحل : عدن ، وزبيد حظيتا بشهرة عالية بسبب اتساع نطاق ما كان أيهما من علاقات • وفى الأزمان القديمة كان سكان صحار على ساحل عمان يرسلون سفنا الى الهند والصيـن ، ولكن منذ أن مارس قرصان جزيرة

---

(٨٥) Voyez les extraits de l'Histoire d'Alep, par Ibn-ouch-Chihnèh, communiqués par M. Kremer dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad. 1850, avri, p. 239, 243.

(٨٦) Guill de Tyr, XIX, 27.

كيش غاراتهم فى الخليج الفارسى ومجاوراته (٨٧) تركزت تجارة بلاد العرب كلها تقريبا فى عدن ، وجرت حركة ملاحة نشيطة بين هذه المدينة والبلاد التى يرويها نهر الاندوس (السند) ، وشبه جزيرة جوجارت Guzerate (٨٨) (على الساحل الغربى للهند) ، وساحل الملبار (٨٩) والهند الصينية ، والصين (٩٠) • ويكفينا ، لكى نقدر كمية المنتجات التى ترد على عدن ، أن نتصفح ما أحصاه الادريسى منها • ولكنا نكتفى بذكر بعضها ، فمنها : المسك ، والفلفل ، والهال (المعروف بالحبهان) ، والقرفة ، والخولنجان ، والاهليلج (جنس شجر هندى ذو ثمر) ، والكافور ، وجوز الهند ، وجوز الطيب ، والصبر ، والأبنوس ، والعاج . والحرشف ، وكذلك الأوانى الفخارية التى قال عنها ريتر Ritter انها بورسلين (خزف صينى) (٩١) •

وكانت زبيد تتلقى من عدن منتجات الهند والصين ، اما بطريق البحر ، أو البر • ولما كانت تلك المدينة تقع فى سهول اليمن التى تشرف على البحر الأحمر كان سكان الشواطىء يفضلون أن يتزودوا منها بمؤونتهم لأن ذلك يجنبهم الرحلة الى عدن التى تقع وراء مضيق باب المندب (٩٢) • أما عن التجارة العامة فان هذه المدينة (أى زبيد) ظلت بالنظر الى موقعها على بعد يزيد على خمسة أميال من الشاطىء فى المرتبة الثانية • وكانت عدن هى السوق الرئيسية الكبرى • وهناك تجرى مسافنة (المسافنة نقل البضائع من سفينة الى أخرى ــ المترجم) لبضائع الشرق • وكثيرا ماتنتقل ملكية هذه البضائع من شخص الى آخر •

يقول المقريزى ، وهو كاتب حديث نسبيا ،ولكنه ضليع فى تاريخ مصر وجغرافيتها ، انه طوال الأزمان القديمة كانت سفن التجار الهنود

---

(٨٧) الادريسى ، ترجمة Janbert, (I, 152)

(٨٨) ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) ، ذكره أبو الفدا : Geogr. II, 2, p. 116.

(٨٩) كان يصل الى عدن سفن قادمة من كولام Koulam انظر ابن سعيد ، فى أبو الفدا

(٩٠) الادريسى : I, 51 ؛ ابن الأثير فى (Rec. des hist. des crois hist I, 597) يسمى عدن سوق الهند ، وزنجبار ، والحبشة ، وعمان ، وكيرمان ، وكيش ، وفارس ، الخ وفيما يختص بالصين ، يذكر مؤرخو أسرة سونج أنه فى غضون هذه الفترة كانت السفن الصينية تتخذ الطريق من اقليم فو ــ كيين الى جزر نيكوبار Nicobar (؟) فى أربعين يوما ، ومن هناك الى بلاد العرب (ربما الى عدن) فى ستين يوما • انظر : Bretscheider. On the Knwledge, etc. p. 15 et s.

(٩١) Arabian, I, 241.

(٩٢) Edrisi, I, 49.

تلقى مراسيها فى عدن • وأنها ، على ما يذكر الناس كافة لم تتجاوز أبداً هذا الميناء ، الا أنه فى الأزمنة الأخيرة ، أى فى القرن الخامس عشر بدأت تبحث عن مواقع للرسو داخل البحر الأحمر (٩٣) • وثمة سبب معقول كان يمنع سفن الهند من أن تتجه بحمولتها الى الساحل المصرى : ذلك أن الخليج العربى وهو الاسم القديم للبحر الأحمر — المترجم — ملىء بالصخور • وكان المعتقد أنه من الخطورة أن تدخله سفن ذات حمولة كبيرة ، يقودها ربانية لا خبرة لهم بهذه النواحى (٩٤) • وعلى ذلك كانت منتجات الشرق تشحن فى سفن صغيرة تمر من باب المندب • وقد سبق أن ذكرنا أن هذه البضائع كانت تنتقل كثيرا من يد الى أخرى فى عدن ، والغالب أن ينتهز الهنود الذين يحضرونها فرصة وجودهم هناك ويبيعونها الى تجار عرب أو مصريين قبل أن يعودوا الى بلادهم • ومع ذلك كانوا يصحبون بضائعهم أحيانا حتى مصر ، ويبيعونها فى أسواق هذا البلد ؛ وكان هذا الأمر كثير الحدوث ، فلم يكن وجودهم هناك يثير أية دهشة(٩٥)•

وكان طريق السفن المحملة بمنتجات الهند يلتقى فى وسط البحر الأحمر بطريق الحجاج الأفارقة الذاهبين الى مكة • فقد كان الحجاج فيما مضى يسلكون الطريق البرى فى شبه جزيرة سيناء • غير أنه منذ أن احتل الفرنجة مملكة بيت المقدس ، وجعلوا يمدون سيطرتهم من وقت الى آخر حتى خليج (العقبة) ، شعرت القوافل بالخطر الذى يحيق بها • ومن ثم غيرت طريقها ، فجعلت تصعد مجرى النيل ، ثم تعبر الصحراء التى تفصل بين النهر والبحر الأحمر وكان ميناء نزول الحجاج هو أيضا ميناء تفريغ شحنات منتجات الشرق ، وموقعه فى مصر العليا ويسمى عيذاب Aidab (٩٦) ، ويبدو لنا أنه كان يقع فى مجاورات رأس علية (٩٧) •

ويقول المقريزى ان سفن الهند واليمن كانت تفرغ شحناتها هناك ، ونسى أنه قال فى موضع آخر ان سفن الهند كانت تتوقف عند عدن • وكانت السفن العربية والمصرية هى التى تأتى من عدن الى عيذاب بالبضائع

---

(٩٣) De Sacy, Chrestomathie, arabe, II, 54.

(٩٤) الادريسى : I, 39, 331

(٩٥) Thietmari iter in terram sanctam, éd. Tobler, p. 36 et s., éd. Laurent, p. 40.

(٩٦) الادريسى : I, 133 أبو الفدا (Geogr. I, 144) ، المقريزى فى : Quatremère, Mémoires sur l'Egypte, II, 162 et s. ; Guilt de Tyr, XIX, 26.

(٩٧) Vivien de Saint Martin, Le Nord de l'Afrique, p. 262.

وبعض التجار القادمين من الهند ، ومن هناك ينقل التجار والبضائع على ظهور الجمال الى النيل عبر الصحراء ٠

ومن المؤسف له أن جويوم (وليم) الصورى ، والادريسى لم يذكر الموقع الذى تصل عنده القوافل على ضفاف النيل ٠ وقد نفكر فى أسوان حيث كانت المراكب النيلية تصعد النهر الى هناك ، كما كان هناك طريق من عيذاب الى أسوان عبر الصحراء (٩٨) ٠ والواقع أن الادريسى ذكر هذه المدينة ، ولكنه قال انها المكان الذى تجرى عنده المبادلات بين مصر والنوبة (٩٩) ٠ وثمة ثلاثة كتاب فى عصر قريب جدا من عصر الحروب الصليبية : هم سانوتوالأكبر ، وأبو الفدا ، وشهاب الدين ويذكر هؤلاء ، كما سنرى فيما بعد مدينة قوص (١٠٠) الواقعة شمالى أسوان على أنها كانت محطة فى طريق تجارة الهند ٠ بل يروى الادريسى أنه كان يجرى فى قوص حركة استيراد وتصدير كبيرة ، كما كان يجد المرء بها حشدا كبيرا من التجار ٠ ويضيف صراحة أنه كان بين عيذاب وقوص خدمة منتظمة من القوافل (١٠١) ٠ ولما كان الثابت أن عيذاب كانت آنئذ موضع انزال منتجات الهند من السفن ٠ فانا لا نخطىء اذا قلنا انه منذ القرن الثانى عشر كانت قوص النقطة القصوى التى ينتهى عندها نقل البضائع عن طريق البر ٠ وكان عبور الصحراء بين عيذاب وقوص يستغرق عشرين يوما على الأقل حسبما يقول الإدريسى ، وسبعة عشر يوما على قول المقريزى ٠ ومن قوص تنقل البضائع على مياه النيل حتى دمياط أو رشيد ٠ ومن رشيد الى الاسكندرية طريقان : قناة الشابور التى يسلكها الملاحون بسهولة ، فى وقت الفيضان فقط ، وفرع طبيعى (من النهر) يصب فى حوضين على التوالى ، ويسمح للسفن أن تقترب الى مسافة ستة أميال تقريبا من الاسكندرية ٠ وهذا الجزء الأخير من الطريق لا يمكن سلوكه الا بطريق البر (١٠٢) ٠

---

(٩٨) أبو الفدا ٠ الادريسى I, 35

(٩٩) الادريسى I, 35

ومن المعلوم أن طريق الحج قد تحول بعد ذلك فى عصر سلاطين المماليك الى درب الحج بسيناء ، فحجت به شجرة الدر والظاهر بيبرس وقلاوون والغورى ٠٠٠ الخ (المراجع)

(١٠٠) هى أبوللينوبوليس بارفا Apollinopolis parva القديمة الواقعة على النيل أعلا كوبتوس Koptos قفط Kif t

(١٠١) الادريسى : I, 127, 132 et s.

(١٠٢) الادريسى : I, 28, 313, 326 et s. وأحسن ترجمة لهذا الجغرافى يمكن الرجوع اليها فيما يختص بمصر ، نجدها فى الكتاب المعنون : =

ويصف ماركو بولو الطريق التجارى من عدن الى الاسكندرية (وان لم يكن قد رآه بنفسه) • فقد ردد المعلومات التى سمعها من أفواه التجار الذين قابلهم غالبا فى الهند أو فى الخليج الفارسى • ويختلط الصحيح بالكاذب فى هذا الوصف : فالثابت مثلا أن منتجات الهند كانت تنقل فى عدن من السفن الكبيرة التى تأتى بهـا الى سفن أقل حجما وحمولة • والثابت أيضا أنه فى الميناء الذى تفرغ فيه البضائع ، تنقل هذه على ظهور الجمال حتى النيل ، ثم تهبط النهر فى مراكب تصل بها الى الاسكندرية • وهنا تبدأ المعلومات الكاذبة : فثمة معلومة تدل على أن المؤلف لا يتحدث عن شىء رآه بعينه • ففى النص الأصلى (١٠٣) يعتبر البحر الأحمر نهرا ، وفى الطبعة الثانية صحح هذا الخطأ على ما نعتقد ، بمعنى أنه لم يعد ثمة ذكر لبحر أو نهر ، وانما هناك سفن فقط (١٠٤) • يلى هذا بيانات كثيرا ما أربكت المفسرين : فهو يقول انه يلزم سبعة أيام ملاحة بين عدن وبين موضع الرسو والابرار على الساحل الغربى لمصر ، وثلاثين يوما للنقل البرى بالقوافل من هذه النقطة الى النيل • غير أن أية سفينة تقلع من عدن يمكنها أن تصل الى مصـوع فى سبعة أيام على الأقل ، ويلزمهـا أسبوعان الى ثـلاثة أسابيـع على الأقل لتصـل الى سواكن فى أحسن الظروف (١٠٥) ، وأكثر من ذلك طبعا اذا كان عليها أن تواصل سيرها الى النقطة التى كانت عندها عيذاب ، أو حتى الى القصير • ولنسلم جدلا أن ماركو بولو كان يقصد مصوع : عند هذا تبرز للحال صعوبة ، ذلك انه يستحيل من هذا الموقع الوصول فى ثلاثين يوما الى نقطة على النيل يبدأ النهر عندها يكون صالحا للملاحة المتواصلة بلا انقطاع • وبازاء هذه الصعوبة ، يغض السيد ملتزان Maltzan النظر عن رحلة السبعة الأيام فى البحر (١٠٦) ، ولكنه يؤيد مسيرة الثلاثين يوما ، لأن هذا الرقم

= Edrisi; Description de l'Afrique :
et de l'Espagne, en arabe et en français, par Dozy et Goeje. Leyde 1866.

ونجد وصف الطرق المائية المؤدية الى الاسكندرية فى صفحات ١٧٩ ، ١٩١ وما بعدها •

(١٠٣) نشر بمعرفة « الجمعية الجغرافية الفرنسية » :
Recueil des voyages et des mémoires, I, p. 241

(١٠٤) Ed. Pauthier, III, 703; cf. Yule, M. Polo ,I, cxix, II, 374.

(١٠٥) هذا ما يؤكده السيد ملتزان Maltzan فى دراسته :
— M. Polo's Angaben uber Sudarabien und Habesch.
التى نشرت فى : — l'«Ausland» 1871, 10 Juill., p. 650 et s.

(١٠٦) أعتقد راموزيو Ramusio أنه لابد من اجراء تصحيح فى نص السيد بولو ، فقد غير « سبعة » الى « عشرين » ، وسمح لنفسه فى هذا الجزء باجراء الكثير =

« يعادل على وجه التقريب مدة الرحلة التى تقوم بها قافلة من سواكن الى كوروسكو Korosko حيث يعود النيل صالحا للملاحة » . وسواكن كما يقول مكان لرسو السفن وتفريغها . ويميل السيد يول Yule الى تأييد هذا الرأى (١٠٧) . ولسوء الحظ فى تقدير السيد ملتزان ، فانا نملك حقيقة ثابتة تؤيدها شواهد أبو الفدا ، وشهاب الدين ، والمقريزى ، وسانوتو : ذلك أن نقطة وصول القوافل ، وقيام الملاحة النيلية لم تكن كوروسكو ، ولكنها كانت قوص ، وهى بلدة تقع فى الشمال على نهر النيل ، يفصلها عن سواكن مسافة يستحيل اجتيازها فى ثلاثين يوما . ومن جهة أخرى ، لدينا فى شأن تحديد ميناء تفريغ السفن ما هو أفضل من أقوال ماركو بولو وتخميناتنا نحن: ذلك أن وليم الصورى Guillaume de Tyr يعين بالتأكيد عيذاب ، كما يؤكد الجغرافيون العرب الذين ذكرناهم قبلا شهادته هذه . وعلى ذلك فانا نسلم بأن الطريق الذى تحدث عنه ماركو بولو لم يكن سوى طريق عيذاب الى قوص (١٠٨) . والواقع أننا باختيار هذا الحل نفض النظر عن مسيرة الثلاثين يوما بعد غض النظر عن الملاحة بسبعة أيام ، ذلك لأن الكتاب العرب يقدرون مسافة الطريق من عيذاب الى قوص كما رأينا بمسيرة ١٧ الى ٢٠ يوما .

كان المعروف فى الغرب فى كل زمان أن توابل الهند تصل الى البحر المتوسط عن طريق النيل ، الا أنه كان من غير المعروف البلاد الحقيقية المنتجة لها ، ومن ثم تناولت الأساطير بسهولة كل الحقائق التى عرضنا تاريخها فى هذا الخصوص . فالتوابل مثلها مثل منتجات الأرض النفيسة ، تأتى بالتأكيد من الجنة ، كما تبدو فى التصورات الشعبية التى تعتبر نهر الفردوس (Géhon) فى الكتاب المقدس) والنيل نهرا واحدا ، ليس له وسيط . ولقد قيل ان التوابل تنمو على ضفاف النيل نفسه ، وتسقط من الأشجار على النهر فيجلبها تياره الى المناطق المعروفة ، ويسحبها المصريون بشباكهم من الماء . ولقد ألف جوانفيل Joinville هذه القصة فى كتابه عن تاريخ القديس لويس (١٠٩) ، وتحدث عن كل الأشياء الطيبة التى

= من التغييرات التى تنأى كثيرا عن النص الأول : من ذلك مثلا أنه يكتب دائما « القاهرة le Caire » بدلا من بابليون أو بابيلونيا Bobylonia, Bobylone (ص ٤٦٦) التى يستخدمها دائمـــا السيد بولو .

(١٠٧) M. Polo, II, 374.

(١٠٨) الجدير بالذكر أن المقريزى (تاريخ السلاطين المماليك ، الجزء الثانى ، ١ ، ص ٤٨) يحكى أن ثمة سفراء أرسلهم ملك اليمن الى بلاط السلطان قلاوون (١٢٨١) ، وركبوا السفينة فى عيذاب للعودة الى وطنهم ، وهذا رأى يتمشى مع رأينا .

(١٠٩) Ed. de wailly (1874) ,p. 104.

يجدهـا الانسـان عند المصريين ، مثل القرفة ، والراوند ، والقرنفل ، وخشب الصبر ، ولكنه يستهجن بيعهم للغربيين بثمن غال جداً أشياء يجلبها لهم النيل ويلقيها بين أيديهم، فيجمعونها بلا مشـقة . ونسبت الأسطورة خشب الصبر بنوع خاص الى هذا الأصل الفردوسى . فاذا عرف فى بعض الأحيان مصدره الحقيقى ، كما كان من المتصور دائما وجود صلة غير منقطعة بين الهند وأثيوبيا ، كان من المسلم به دون تردد أن الشجرة التى تنتج مثل هذا الخشـب تنمو عند أعالى النيل ، وأن الغصـون التى تجففها أو تقتلعها تسقط فى النهر ، وما على المصريين الا أن يلتقطوها (١١٠) وبقيت هذه الأسطورة راسخة بقوة ، خاصة بين الحجاج ، حتى فى زمن كان لعالم التجار أفكار أصح عن البلاد المنتجة للتوابل ، وعن الكيفية التى تصل بها التوابل الى مصر (١١١) .

وفى سوق الاسكندرية يتكدس معظم منتجات الشرق الآتية بطريق النيل . ويقول وليم الصورى ان كل العطور ، والأحجار الكريمـة ، وسائر الأشياء الثمينة التى لا توجد فى أوروبا ترد الى الاسكندرية عن طريق البحر والنيل من بلاد الهند ، وسبأ ، وبلاد العرب ، وأثيوبيا ، وفارس ، والبلاد المجاورة لهؤلاء (١١٢) . بل ان بعض المسافرين ، مثل بنيامين دو توديل ، والنائب Vicedominus بوركارد Burkhard الذى كان فى مصر عام ١١٧٥ سـفيرا للامبراطور فردريك بارباروسـا دهشوا من كمية التوابل التى تأتى بها المراكب النيلية القادمة من الوجه القبلى قاصدة الاسكندرية (١١٣) . وبجوار الاسكندرية كان لدمياط مركز مشرف ، لا من وجهة التجارة العامة فقط (١١٤) ، ولكن بخاصة كسوق لمنتجات الهند (١١٥) ، واسـتمر هـذا الوضع حتى أواخر الحروب الصليبية : عندئذ فقط طرأ تغير سوف نتحدث عنه فيما بعد . ويعرض

---

(١١٠) Jaco. de Vitry, p. 1100 ; Platearius circa instans», dans Serapion, fol. ce XXIV, Verso; Gloses sur l'Antido-tarium de Niclaus, p. ccxlv; Albertus M. de vegetabilibus, éd. Meyer et Jessen, p. 344 et s.

(١١١) Ludalphe de Suthen, p. 60 ; Joh. Tucher. dans le Revssbuch des heil. Landes ,p. 369. Fel. Fobri, III, 136 et s. ; Breydenbach, p. 118.

(١١٢) Guill de Tyr, XIX, 26.

(١١٣) Benj. de Tudèl., éd. Asher, I, 157 ; Arnold. Lubec, dans Pertz SSI, XXI, 237.

(١١٤) كان لدمياط ، مثلها مثل سائر المدن التجارية ، سوقها Lunda حيث تخزن كل السلع وتعرض للبيع . وحين اضطر السكان لاخلاء المدينة عند اقتراب جيش الصليبيين بقيادة القديس لويس (١٢٤٩) ، أشعلوا النيران فى هذه السوق . انظر :
— Jainville, éd de Wally. (1874), p. 90.

(١١٥) Chron, Ursperg, dans Petz, SS. XXIII, 380.

جاك دو فترى Jacques de Vitry أسقف عكا ، ومعه « حوليات كولونيا الكبرى » les Grandes Annales de Cologne (١١٦) فى هذا الموضوع لوحة تكشف لمؤلفيها عن معلومات جغرافيـة شـديدة الغموض : فهم يتحدثون عن سفن تصل من الهند الى دمياط مباشرة ، ومن هناك تقلع ثانية الى سوريا ، وجزيرة قبرص ، وارمينيا ، واليونان ، فى حين أن المراكب النيلية هى التى كانت فى الواقع تحضر توابل الهند الى دمياط حيث تتسلمها سفن كبيرة تنقلها الى شواطىء البحر المتوسط . كذلك كانت رشـيـد تتمتع وقتئـذ فى القرن الثانى عشر بازدهـار تجـارى كبير (١١٧) ، وليس لدينا شك فى أنها تدين بجزء كبير من هذا الازدهار الى ورود منتجات الهند اليها عن طريق النيل .

ولا بد أنه كان لموانىء مصر جاذبية شديدة للأمم التجارية الغربية . حقا كانت توابل الهند موجودة فى سوريا أيضا ، ولكنها لا تصـل اليها الا بعد رحلات برية كثيرة التكاليف ترفع كثيرا من أثمانها ، وكان فى المستطاع احضارها بنفقات أقل من ذلك بكثير حتى مصاب نهر النيل ، فيكون سعر التكلفة هناك أكثر انخفاضـا ، حتى مع اعتبار الرسـوم الجمركية التى كانت مرتفعة فى مصر (١١٨) ، فى حين لم تكن هـذه الرسوم موجودة فى سوريا بالنسبة الى عدد كبير من هذه المواد . نضيف الى ذلك أن الغربيين كانا لهم ميزة الحصـول فى الموانىء المصرية على حاصلات الأراضى المصرية ومنتجاتها الصناعية ، ولم تكن هذه المنتجات زهيدة القيمة ، كما سنرى . وكان هناك من جهة أخرى أرباح كبيرة تتحقق بتوريد بعض السلع التى كانت مصر محرومة منها تماما ، رغم ما تتمتع به من ثراء ، وكانت أوروبا تزودها بها بكميات وفيرة ، ونذكر اثنين فقط من أهم هذه المنتجات : الخشب والحديد ، وهما مادتان لا غنى عنهما ، وكان لابد لمصر من استيرادهما من الخارج (١١٩) .

كان فى هذا ما يغرى الأمم التجارية الغربية ، ولكن توثيق روابط سلمية مع مصر لم يكن بالسهولة التى تبدو لأول وهلة . فطالما بقيت الدول

---

(١١٦) Jacq. de Vitry, éd. Bongars, p. 1128 ; Annal, Colon max., Dans Petrz, SS. XVII, 833.

(١١٧) Edrisi, I, 326.

(١١٨) فى عام ١١٧٥ ، يقال ان جمرك الاسكندرية زود سلطان مصر باكثر من ٨٠٠٠ مارك من الفضة الخالصة . انظر : Arnold Lubec. 1.c. p. 236.

(١١٩) Haython, Hist. orient., cap. 54 ; Sanuto, Sec. fidel. cruc. p. 25, et Mémoire, dans Mas-Lalrie, Hist de Chypre, II, 120 et s.

الصليبية ، كانت جارتها مصر عدوة لها بالضرورة • وفي البداية كانت مصر ضعيفة ، وعرضة لهجمات ملوك القدس ، ولا تملك تقريبا القدرة على الدفاع عن نفسها ، ولكنها أضحت بالتدريج احدى القوى العسكرية الكبرى في العالم الاسلامى ، وأوقعت أكثر من مرة فرنجة فلسطين في ضيق شديد • وكلما عظمت قوتها وصار جوارهـا خطرا على الدول الصليبية ، ازدادت كراهية العالم المسيحى لها • وكان العمل على اذلالها وخرابها في نظر الغرب أول واجبات المسيحية ، كما كان الهدف الذى يتغياه قادة الحملات الصليبية الأخيرة •

وكانت الأمم التجارية (الغربية) تتساءل قبل أن ترتبط بعلاقات تجارية مع مصر ، هل تسيء بذلك الى باقى العالم المسيحى ؟ ألم يكن الذهاب الى مصر وشراء سلع بها ليزيد موارد هذا البلد ، اذ يربح التجار والمنتجون الوطنيون بذلك أموالا كثيرة ، كما تنتفخ خزائن السلطان من حصيلة الرسوم الجمركية ؟ ألا يزود الغربيون على هذا النحو المصريين بأشياء ينبغى حرمانهم منها حتى لا تنمو قوتهم ؟ كان التاجر الغربى الذى يجرؤ على الاتجار مع مصر يوصـف حتما بأنه مسيحى فاجر • وكان السلاطين من ناحيتهم ، بترحيبهم بهؤلاء التجار ، يتعرضـون لغضب المتعصبين من رعاياهم ، ويضطرون لمكافحة مشاعرهم • وحين أعد الغرب حملة بعد أخرى ضد مصر ، فهل اضطر هؤلاء السلاطين أن يتركوا التجار المسيحيين يمارسون بها تجارتهم في أمن وسلام ؟ وحين كانت المدن والبلاد التى يخرج منها هؤلاء التجار هى التى تجهز الأساطيل والجيوش للحملات الصليبية ضد مصر ، ألم ينزع السلاطين الى الأخذ بثأرهم بالانتقام من هؤلاء التجار ؟

يتبين لنا اذن أنه من العسير قيام حركة تجارية بين أوروبا ومصر ، فكانت العقبات تأتى من الطرفين • ولكن الأمل عند الغربيين في الحصول على أرباح جسيمة كان يبدد الكثير من المخاوف •

ومن جهة أخرى كان سادة مصر يتحملون ما يصيبهم من ويلات في نظير الأرباح الهائلة التى تأتى بها التجارة لبلدهم وخزائنهم • وكان أكثر السلاطين حبا للقتال ، أولئك الذين يعتبرون أن رسالتهم هى سـحق صـليبيى فلسـطين ، يرحبون مع ذلك بمواطنى هؤلاء الصليبيين الذين يأتون عندهم للتجارة ، وبخاصة حين يحضرون معهم خشبا لبناء السفن ، وقارا وقطرانا ، ومعادن مختلفة ، وأسلحة • وما شابه كل ذلك • ولم يهمل السلاطين أية وسيلة لتشجيع الاستيراد ، من بذل الوعود لهؤلاء

التجار ليبيعوا بضائعهم بسرعة وربح ، وخفض التعريفات لهم (١٢٠) . ولا شك فى أن جهودهم فى هذا السبيل قد حققت النتيجة المرجوة . وبعبارة أخرى كان كثير من التجار الأوروبيين لا يتورعون عن تزويد المصريين بمعدات حربية تستخدم بالتالى فى قتال الصليبيين (١٢١) . ولا شك أن هـذه الجرائم الضارة بالعالم المسيحى كانت تثير السخط العام ، وحملت الكنيسة أكثر من مرة على التدخل ، بل أثارت ثائرة المجامع الدينية التى اعتبرت أن كل شخص يجرؤ فى المستقبل على بيع حديد ، أو سلاح ، أو خشب لبناء السفن ، أو سفن جاهزة للمسلمين ، أو يدخل فى خدمتهم بصفة قبطان سفينة يستحق عقوبة الحرمان ، فضـلا عن مصادرة أمواله ، وفقد حريته الشخصية ، كما يرخص لمن يقبض عليه أن يحتفظ به عبدا له (١٢٢) . وكانت القوانين الكنسية تأمر بنشر هذه الأحكام بصفة دورية فى الموانىء ، كذلك أصدرت بعض المجامع الاقليمية التى انعقدت فى المناطق البحرية أحكاما بهذا المعنى(١٢٣) . ووجه البابوات فى منشورات مختلفة ، تحذيرات صريحة فى هذا الصدد لسكان المدن

---

(١٢٠) انظر الوثائق البيزية التى سوف نتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل :
— Amari, Dipl. arab., p. 243, 260, 264, 289.

(١٢١) يعرض صلاح الدين فى خطاب بتاريخ عام ١١٨٢ موجه الى الخليفة الى أن البنادقة والجنويين والبيزيين يستوردون الى مصر منتجات ممتازة من الغرب ، وبخاصة أسلحة وأدوات حربية ، الأمر الذى يفيد الاسلام ويضر بالمسيحية . انظر فى ذلك :
Amari, Biblioth arabo-sicula, p. 336 et s.

وكذا :
— Storia dei Musulmani di Sicilia, III, 525 et s. :

هذا الشغف بالكسب الذى كان يسكت فى ضمائر التجار المسيحيين كل وازع دينى كان موضوعا لسخرية المسلمين ، انظر :
— Thadeus Neapolitanus, Hist. de desolatione Civitatis Acconensis, p. 37 et ss. et la Bulle de Grégoire X publ. par Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 267 et s.

(١٢٢) نجد هذه التهديدات مدونة على التوالى فى القوانين الكنسية الصادرة فى المجامع الدينية العامة الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، والثالثة عشرة (١١٧٩ ، ١٢١٥ ، ١٢٤٥) :
Mansi, Coll. coscil., XXII, 230, 1066 ; XXIII, 631.

(١٢٣) نذكر على سبيل المثال المجامع المنعقدة فى مونبيليه فى ١١٦٢ ، ١١٩٥ :
Mansi, XXI 1159 ; XXII 667.

وكذا فى ليقوسيا (بقبرص) فى ١٢٥١ : المرجع السابق :
XXVI, 336.

التجارية (١٢٤) • ولم يكن فى وسع السلطات فى هذه المدن الا أن تردد هذه التحذيرات ، وتفرض عقوبات على كل من يسيئون استعمال حرية التجارة • فأصدر قناصل جنوا (١١٥١) : وبييترو زيانى Pietro Ziani دوج البندقية (١٢٢٦) لمواطنيهم مراسيم خاصة بهذا الشأن • فعل جايمى الأول Jayme Ier ملك أراجون الشيء نفسه لسكان مونبيلييه (١٢٣١) ، وسكان برشلونة (١٢٧٤) (١٢٥) • وفرضت مدينة بيزا أحكاما رادعة لهذه الانتهاكات ، أولا فى قانونها Brêve لعام ١٢٨٦ ، ثم فى قانونى عامى ١٣٠٥ ، ١٣٤٣ (١٢٦) • وعلى الرغم من هذه المجموعة الكبيرة من التهديدات الرسمية ، فان لنا أن نشك فى أنها أخذت مأخذ الجد ، وأن العقوبات المقررة طبقت بكل ما فيها من صرامة • ولعبت مدينة بيزا فى هذه المسألة دورا كثير الغموض • ففى المعاهدات التى عقدها سفراء بيزا مع ملوك مصر ، كان نقل مواد بناء السفن ، والأسلحة الى مصر فى السفن البيزية أمرا مضمرا باعتباره ممارسة مألوفة • أكثر من ذلك أن البيزيين تعهدوا فى معاهدة عام ١١٧٣ صراحة بتوريد هذه المواد (١٢٧) • والحقيقة أن الاغراء كان قويا بالنسبة اليهم ، لأن انتاج الحديد والصلب كان من صناعات بلدهم الرئيسية (١٢٨) •

وفى غير هذه الأصناف من السلع كانت التجارة مع مصر تعتبر أمرا مشروعا طوال الحروب الصليبية • ففى ذات مرة ، هدد البابا أنوسنت الثالث (وهو فى هذا الخصوص أكثر صرامة من غيره من الباباوات)

---

(١٢٤) Innocent III aux Vénitiens, en 1198; Epist., éd. Baluze, 1, 306; Gregoire X aux bourgeois de Génes et à ceux de Montpellier en 1272, en Termes à peut près identiques (Raynald, Annal eccles a h.a. no 13-16; Germain, Hist de commerce de Montpellier, I, 266 et ss.), à ceux de Narbonne (Port, Essai sur l'hist. du commerce maritime de Narbonne, 128).

(١٢٥) Lib. jur. I, 158, Taf. et Thom. III, 260 et ss. ; Germain. Hist de la commune de Montpellier, II, 39, not. ; Company, Memorias, II, 36 et s : Thomas. Die altesten Verordnugen der Venetianer fur auswaertige Angelegenheiten, Abh. der Muenchen. Akad., Cl. I, sect. I, p. 139 et s.

– وبالنسبة للخشب ، يستثنى مرسوم من الحكومة الفينيسية لعام ١٢٨١ (المرجع السابق ١٤١) الأوانى الخشبية والألواح التى لا يتجاوز طولها ستة أقدام •

(١٢٦) Statuti Pisani, éd. Bonaini, I, 412 et s. ; III, 426, 578.

(١٢٧) Amari, Dipl. arab., p, 243, 260, 289; Doc. sulle relaz. tosc p. 7.

(١٢٨) كان العرب يعرفون السيوف الفولاذية البيزية ، ويفضلونها على السيوف الهندية • انظر :

Gayangos, Etude sur Al-Makkari, I, 393 et s.

بالحرمان كل من يزاول التجارة مع المسلمين · غير أن جمهورية البندقية أوضحت له عن طريق سفرائها الضرر الذى يصيب رخاءها من جراء اغلاق هذا السوق · ومن ثم وافق البابا ، مراعاة لصالحها أن يأذن لها – بصفة مؤقتة على الأقل – بالابقاء على الوضع الراهن ، وقصر التحريم على المواد الحربية (١٢٩) ·

ومع ذلك ، كانت الكنيسة تطالب من وقت لآخر ، أثناء الاستعدادات لحرب صليبية بوقف ارسال السفن التجارية الى مصر · وكان لابد للأمم التجارية أن ترضخ لهذا الطلب ، لأن القصد من هذا الحظر هو توفير وسائل النقل الكافية للصليبيين ، ومنع المسلمين الذين يقاتلونهم من أن يتسلموا من الغرب (فى الوقت الذى تقوم فيه المعارك) المعدات التى هم فى أمس الحاجة اليها لمواصلة الحرب (١٣٠) ·

هذه الانقطاعات الوقتية لم تكن بالاجمال تعيق حركة الملاحة النشيطة بين الغرب ومصر الا بصورة عرضية · وقد يبدو أن عصر الحروب الصليبية لم يكن ملائما لهذه الحركة التجارية ، ومع ذلك فانها نمت نموا كبيرا فى هذه الفترة بالذات · فالاسكندرية من قبل لم يكن يزورها سوى البنادقة والأمالفيين والجنويين ، ولكن منذ ذلك العصر راحت أمم كثيرة تشارك فى نشاط هذا السوق الكبير ، ويذكر بنيامين دو توديل (١٣١) أنه رأى تجار حوالى ثمانية وعشرين بلدا أو مدينة فى ذاك السوق · على أن ما كتبه طرأ عليه تحريف كثير ، وهو لم يتبع الترتيب الجغرافى فى تعداده لهذه البلاد ، فيصعب أحيانا ، فى الاسم الذى دونه ، معرفة البلد الذى يعنيه · وها هى الأسماء مرتبة حسبما ذكرها : البندقية (١٣٢) ، تسكانيا ، لمبارديا ، بوليا ، أمالفى ، صقلية ، راجوزا (؟) ، أسبانيا ، روسيا (؟) ، ألمانيا ، سكس (١٣٣) ، الدانمرك ،

---

(١٢٩) انظر بعاليه بيانات منشور بابوى لعام ١١٩٨ ·

(١٣٠) انظر على سبيل المثال قوانين مجمع لاتران Latran لعام ١٢١٥
Mansi, l.c. XXII, 1066.

(١٣١) Ed. Asher, I, p. du texte hébreu, p. 157 de la traduction anglaise; II, p. 218 et ss. des annotations.

(١٣٢) L'éd Asher porte "Valentia», mais la lecure du Cod. Bodlej. «La Venecia» est préférable ; Riant, dans la Revue des quest. hist., Janv. 1878, p. 101, not. 1.

(١٣٣) يدل شكل الكلمة على أنها لا تعنى انجلترا ·

جاليسيا ، الفلاندر ارتوا ؟(١٣٤) نورمانديا ، ايل دوفرانس ، يواتو انجو ، برجانديا ، مين ، بروڤانس ، جنوا ، بيزا ، وجسكونيا ، راجون، نافار . وقد وضعت علامة استفهام بعد كل اسم لم استوثق من مدلوله. ولا بد لى أن أقول أولا اننى أشك كثيرا فى صحة هذه القائمة .

واذا كانت البلاد والمدن التى تشرف على البحر المتوسط تزاول التجارة مع مصر ، فان هذا الأمر مؤكد بالنسبة لبعضها ، وقوى الاحتمال بالنسبة الى البعض الآخر . واذا كانت السفن الروسية قد تجاوزت القسطنطينية ، وواصلت سيرها حتى الاسكندرية ، فهذا أمر ليس بغريب كما يظن السيد أشير Asher (١٣٥) . ومن المحتمل أيضا أن تكون سكس ــ والمقصود بهذا الاسم شمال ألمانيا ــ ممثلة فى الاسكندرية بعدد صغير من سفن بريمن Brêmn أو كولونيا Cologne . ولكن لا يسعنى أن امضى فى الاحتمالات الى أبعد من هذا ، فمن المشكوك فيه كثيرا أن تكون الفلاندر قد أرسلت فى هذه الآونة سفنا تجارية الى مصر . أما بالنسبة للبلاد الأخرى مثل الدانمرك ، ونورمانديا ، وبواتو ، وجسكونيا ، ونافار ، وجاليسيا ، فلعله مما يبعث على الدهش أن تكون قد أسهمت بنشاط فعال فى تجارة البحر المتوسط . ولكن ما القول فى الأقاليم الواقعة وسط فرنسا ، مثل ايل دو فرانس ، وأنجو ، ومين ، والبورجند ؟ الواضح أن بنيامين دو توديل قد دفعته الرغبة فى أن يعبر بصورة مؤثرة عن الأهمية الكبرى لمدينة عالمية كالاسكندرية تضم أجناسا عديدة فراح يبالغ فى ذلك ، وكان من العسير عليه أن يثبت أن بعض هذه البلاد اعتادت أن ترسل تجارا الى الاسكندرية ، وهو كسائح أصابه الدهش من منظر الحشد الخليط من التجار الغربيين فى المدينة . ففى عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ ــ ١٢١٦ م) مثلا ، كان عدد الذين قدموا من هؤلاء الى المدينة لا يقل عن ٣٠٠٠ (١٣٦) . كذلك كان ميناء دمياط تأتيه سفن

---

(١٣٤) الكلمة العبرية تبدو أنها تقصد ارتوا Artois ، وهذا أمر طبيعى نظرا لقربها من الفلاندر ، ومن العسير معرفة كيف طرأ على الكلمة تعديل بحيث صارت تدل على هانو le Hainaut

(١٣٥) هذا هو الباعث الوحيد الذى من أجله يزيل السيد أشير كلمة Rusia من النص ويستبدل بها كلمة Rusijjon أى Roussillen : وهذا مجرد افتراض الرد عليه بأنه منذ عهد قسطنطين بورفيروجنيت وابن خرداذبة كانت السفن الروسية تبحر حتى سورية .

(١٣٦) Amari, Dipl. arab., p. IV, de'près la description de 'lEgypte de Makrizi.

من بوليا ، والبندقية ، واليونان ، وأرمينيا ، وسورية ، وقبرص لتاخذ السلع التي تجلبها المراكب النيلية (١٣٧) .

وتتناول الآن كل أمة تجارية على حدة ، ونبحث عما ينبئنا به التاريخ عن علاقاتها بمصر . ومن أجل ذلك ينبغي لنا أن نعود الى العصر السابق على صلاح الدين ، حين كان الفاطميون متربعين على عرش مصر . فبالنسبة الى بعض المدن مثل أمالفي ، والبندقية ، وجنوا وهي التي وثقت علاقاتها بمصر منذ زمن قديم ، يمكننا أن نجزم بأنها حافظت على هذه العلاقات في عصر الحروب الصليبية ، رغم أنه لم تصلنا أية وثيقة من أواخر الملوك الفاطميين أو أسلافهم ، فيها ذكر للامتيازات التجارية الممنوحة لمواطني هذه المدن ، اذ ضاع الكثير من الوثائق العربية القديمة . واذا كان المطلوب معرفة كيف أمكن اثبات هذه الحقائق . فهاكم مثالا مفيدا . ففي مكتب وثائق جنوا ، مجموعة من عقود فردية تنتمي الى الفترة من عام ١١٥٥ الى عام ١١٦٤ ، وفي هذه المجموعة وريقات عليها حروف عربية صادرة من مكتب موثق العقود جيوفاني Giovanni Scriba الذي نقل فقرات من أوراق اعتماد diplome عربية محررة برسم ديوان الانشاء Chancellerie في عصر السلاطين الفاطميين . وبين سطور النص العربي ترجمة باللاتينية كتبت على ما يبدو في أوائل القرن العاشر . وتدل بضعة السطور في هذا النص والترجمة على أن الوثيقة كلها كانت اما كتابا موجها الى مدينة غربية (قد تكون مدينة جنوا نفسها) ، واما نسخة لمعاهدة مع هذه المدينة ، يتعهد فيها سلطان مصر ببسط حمايته على مواطني هذه المدينة الموجودين في كل أنحاء مملكته (١٣٨) . وتشتمل الحزمة التي أودعت فيها هذه الورقة على عقود انشاء شركات بين بعض الجنويين لمشروعات تجارية بعيدة . وفيها نجد ما يثبت أنه خلال هذه السنوات التسع (ومن قبيل الصدف ، لم تحفظ أية عقود مشابهة عن سنوات أخرى) كان يتردد كثيرا على مصر سفن تجارية من جنوا ، ربما أكثر من أي بلد آخر (١٣٩) ، ونجد في هذه العقود اسم الاسكندرية يتردد ما لا يقل عن ست وستين مرة ، يذكرها الشركاء على أنها غاية الرحلة المزمع القيام بها . ولم يكن هناك أي ميناء آخر على البحر المتوسط يقصده الملاحون الجنويون بهذه الكثرة (١٤٠) .

---

(١٣٧) La relation inédite d'Ascolin, citée par webb dans l'Archéologie de Londres, XXI, 401 Jacq de Vitry, 1.c., Annal Colon, max, l.c. : Hopf. Choniques gréco-romanes, p. 38, not.

(١٣٨) Amari, Dipl. arab., p. iii, iv; Atti della Società Ligure, V, 633 et s.

(١٣٩) Publiés dans les Monum. hist patr. Chartae, II, 287 et ss.

(١٤٠) لا يذكر اسم ميناء بوجي Bougie في شمال افريقيا الا ثلاثين مرة ، وتبقى الموانيء الأخرى بعيدة .

بل ان بعض هذه العقود ليذكر الموضوع الذى تم بشأنه التعاقد ، فيزودنا بمعلومات عن السلع التى يتناولها المشروع ، نرى فيها الفلفل ، وخشب البقم ، وجوز الطيب ، والقرفة والقرنفل ، والشب ، الخ (١٤١) ·
نذكر أيضا لخطابين من المراسلات التجارية ، تاريخهما أقدم عشرين سنة من الوثائق التى شرحناها آنفا ، ومحفوظين فى مجمـوعة من الرسائل المخطوطة (رقم ٢٥٠٧) بدار الكتب بفيينا (١٤٢) · هذان الخطابان متلهما مثل مستندات المجموعة التى يمكن تحديد تاريخ كل منها بعام ١١٣٢ ويقدمان لنا مثلا للمراسلة بين شريكين جنويين ، أحدهما يباشر بنجاح الأعمال الاسكندرية ، ويتأهب للابحار الى القسطنطينية مارا بجزر بالأرخبيل (بحرايجه) ، أما الثانى ، امبرياكو Gugl. Embriaco فانه يضرب فى خطابه موعدا للأول فى القسطنطينية · ونجد فى هذين الخطابين برهانا آخر على وجـود علاقـات تجارية بين جنوا ومصر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى · وحتى اذا فرضنا أن هذين الخطابين ليسا سوى نموذجين من المراسلات فان قيمتهما لا تقل منّ وجهة نظرنا ، لأن من عادة مؤلفى هـذا النوع من المكاتبـات أن يستعيروا موضوعاتهم من الحياة الواقعية · وهناك فضلا عن ذلك براهين أخرى ، خلاف هذه الوثائق المتعلقة بمصالح الأفراد ، كما تزخر الوثائق التاريخية بالفقرات المتعلقة بالنشاط التجارى بين جنوا والاسكندرية (١٤٣) ·

ولا شك فى أن البنادقة ، شأنهم شأن الجنويين كانوا يضاعفون رحلاتهم الى مصر سنة بعد أخرى (١٤٤) ، مع نمو تجارتهم نموا مطردا ، أما أمالفى فانها المدينة الوحيدة التى تقر بأن علاقتها بمصر قد تباطأت بالتدريج الى أن توقفت تماما ، وعانت مما أصابها من نكبات سياسية ·

وهناك غير هذه الأمم التى عرفت علاقاتهـــا بمصر منـذ أقدم العصور ، أمم لا تظهر أسماؤها فى تاريخ تجارة مصر الا فى عصر الحروب الصليبية · ومع ذلك ، فربما كان من الضرورى لكى نعثر على بداياتها أن نرجع الى أزمنة أقدم مما يوجد فى الوثائق التى نملكهـا · ففيما يتعلق بصقلية تزودنا وثيقة رسمية لروجر الثانى فى عام ١١٣٧ بلمحة

---

(١٤١) Mon hist. patr. l.c. p. 344, 346 514, 516, 520, 647, 767.

(١٤٢) Wattenbach. Iter austriacum, dans l'archiv fur Kunde osterr. Geschichts quellen, XIV, 79 et s.

(١٤٣) Marang. Annale Pis., p. 245, 253, 266 : Annal Jan., p. 22, 89; Trinchera, Syllab. graec membran., Neap. 1865, p. 146; Atti della Soc. lig., II, 2, p. 9, 365.

(١٤٤) كانت هذه الرحلات تتتابع فى فترات منتظمة ·

عن وضعها وقتئذ . يتعهد روجر فيما يتعهد به فى هذه الوثيقة الممنوحة لمدينة سالرنو مكافأة لها على اخلاصها له ولبيته أن يسعى للحصول على تخفيض الرسوم التى كان يدفعها فى الاسكندرية تجار تلك المدينة (سالرنو) بالفئة المحددة لتجار صقلية (١٤٥) . وعلى ذلك ، ففى عام ١١٣٧ كان الصقليون يتمتعون فى مصر بتخفيض فى التعريفات . واذا كان روجر قد بر بوعده ، فلا بد أن سكان سالرنو قد حصلوا بالتالى على نفس الامتياز . ويقول المؤرخ ان هذا الملك عقد بعد بضع سنوات معاهدة مع ملك مصر ، وجنى منها شرفا وكسبا (١٤٦) . ولا نخطىء كثيرا اذا استخلصنا من هذه العبارة أنه حصل على تخفيضات جديدة لصالح التجارة فى بلده . حقا ، حدث اثر ذلك أن أغارت بعض أساطيل صقلية على السواحل المصرية ، ونهبت بعض المدن (١٤٧) ، وحاصرت الاسكندرية بضعة أيام (١٤٨) ، غير أن هذا لم يكن سوى سحابة عابرة ، فسرعان ما عادت الحركة التجارية بين مصر وصقلية الى نشاطها السلمى المعتاد ، يشهد لنا بذلك بنيامين دو توديل ، واستمرت كذلك زمنا طويلا بعد زوال الأسرة النورماندية الحاكمة .

أما بيزا ، فانها ربطت علاقات بمصر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، ان لم يكن قبل ذلك (١٤٩) . وفى عام ١١٥٤ استقبل الخليفة الفاطمى أبو المنصور اسماعيل الظافر ، ووزيره عباس الزيرى فى بلاط مصر سفيرا بيزيا اسمه رانيرى بوتاكى Ranieri Bottacci يحمل رسائل من رئيس الاساقفة فيللانوس Villanus وقناصل بيزا . ولكنه لم يكن أول سفير بيزى يظهر فى هذا البلاط . وأثار وصوله بعض الدهش لأنه ، خلافا لعادة أسلافه قدم على ظهر سفينة حربية ، فى حين كان الآخرون يجيئون فى سفن تجارية عادية وكان الغرض من

---

(١٤٥) — Archiv. Venet., VII, (1874), p. 366; voy aussi VIII. (1874), p. 134. Ughelli, Italia sacra, VII, 399.

(١٤٦) Romuald. Salern, dans Pertz, SS. XIX 424.

(١٤٧) فى عامى ٥٤٨ ، ٥٥٠هـ (١١٥٣ — ١١٥٤ ، ١١٥٥) . انظر .
Amari. Dipolomi arabi, p. 458; Wustenfeld Gesch. der Fatimiden Chalifen, 3e part., dans les Abh der Gott. Ges, der Wiss. XXVII. (1881), p. 92 et s., 98.

(١٤٨) En 1174; voy Guill, de Tyr. XXI 3 ; Annal. Pis., dans Pertz, SS. XIX, 266. Annal Cosm. Ibid, p. 312 ; Michaud - Reinaud, Biblioth. des crois. IV, 172 et s.

(١٤٩) Michele Amari ... I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino (Firenze 1863), documenti degli archivj toscani.

مهمته تسوية بعض الخلافات التى تعانى منها العلاقات القديمة التى تربط الأمتين . ففى العام السابق كان تجار بيزيون فى سفينة مع بعض رعايا الخليفة ، فقتلوا الرجال منهم وأسروا النساء والأطفال ، واستولوا على ما معهم من بضائع : وأخذ الخليفة بثار رعاياه فى شخص التجار البيزيين المقيمين فى مصر أو المارين بها ، ومن ثم انقطعت حركة التجارة ، وطالبت الحكومة المصرية بمعاقبة المذنبين قبل أن تصرح بعودة الحركة . وأراد السفير أولا أن يتفاوض بكبرياء ، ولكنه اضطر أخيرا أن يتنازل ، ويقسم بأن يقدم الترضية المطلوبة (١٥٠) ، وبهذا الشرط فقد التزمت الحكومة المصرية ، فى حالة تكرار مثل هذا العدوان الا تتخذ أجراءات ثارية فورية ضد التجار البيزيين ، وأن تعطى مهلة سنة واحدة لتتيح للسلطات البيزية الوقت الكافى للتعويض عما يقع من أضرار ، وتقديم الترضية الكافية . كذلك اضطر بوتاكى أن يتعهد بألا يقدم بلده أية مساعدة لفرنجة سورية أو غيرهم فى أية حملة يقومون بها ضد مصر . واحتفظت الحكومة المصرية بالحق فى معاملة كل بيزى تجده على متن سفينة حربية أو يكون قرصانا على أنه عدو لها ، وصرحت بأن التجار والحجاج المسافرين فى سفينة مسالمة هم وحدهم الذين يستحقون التمتع بحمايتها ، وعلى هذا الشرط يمكن أن يستعيد التجار البيزيون للحال فنادقهم فى الاسكندرية ، أو ينتفعوا بفندق ثان فى القاهرة ، ولهم مطلق الحرية — بعد سداد الرسوم والضرائب المقررة — أن يبيعوا بضائعهم فى جميع أنحاء الاقليم ، أن يحملوها معهم اذا لم يجدوا من يشتريها . ولم يكن ثمة استثناء لهذا الحكم الا بالنسبة الى الحديد والخشب والقار ، اذ كان خروجها من البلاد ممنوعا ، وعليهم أن يسلموها لموظفى الجمارك المصرية الذين يتعين عليهم شراءها بسعر السوق . وبعد ابرام هـذه المعاهدة ، قام بوتاكى برحلة أخرى الى سورية حيث كان عليه أن يتفاوض للحصول على بعض الامتيازات لصالح تجارة بلده (١٥١) ، ومن هناك عاد الى بيزا .

وتأكيدا لعودة التفاهم الودى أحضر معه قارورة ملأى ببلسم ثمين حصل عليه من بعض الناس ، وأعاد معه خمسة وعشرين شخصا من مواطنيه تمكن من اطلاق سراحهم . وفى حوزتنا خطاب حرره أحد كبار الموظفين المصريين ، وهو غالبـا حاكم الاسكندرية ، وسلم الى السفير

(١٥٠) M. Langer (op. cit., p. 52 et s.); Stat. Pis ined. éd. Bonaini p. 3, 24 ; Annal. Pis. 253; Annal Jan. 64, 65, 86, 87, 89.

(١٥١) Doc. sulle relaz. tosc., p. 6 ; ibid, p. 80 ; M. Langer, op. cit., p. 53, not. 4.

نفسه ، أو ربما أرسل اليه عقب عودته . ونقل محرر الخطاب النقاط الرئيسية فى المعاهدة ، ثم وصف ضروب المعاملة الطيبة التى يلقاها البيزيون فى مصر فى كل زمان ، وتمتعهم باحترام حقوقهم وعاداتهم ، وتخفيض الضرائب مرة بعد أخرى على تجاراتهم ، فيقول انه حتى فى الوقت الذى جرى فيه هذا الخطاب كان الروم ، والمسلمون يدفعون من الضرائب أكثر مما يدفعه البيزيون . ويؤكد الفائدة التى تعود على هؤلاء من المعيشة فى مصر فى جو من السلام والألفة ، وممارسة تجارة مربحة (١٥٢) . نذكر أيضا وثيقة أخرى لعلها تنتمى الى العصر نفسه : فقد صدر الأمر الى قاضى الاسكندرية فى بضعة سطور ، أن يقدم للبيزيين العون والحماية لترميم فندقهم ، ولسائر الأمور بوجه عام (١٥٣) .

وبعد رحيل رانيرى بوتاكى بوقت قليل ، قتل الوزير عباس مولاه الخليفة الظافر (١٦ من ابريل سنة ١١٥٤ م) ونصب فى مكانه على العرش ابنه (ابن ضحيته) ، أبو القاسم عيسى الفائز بنصر الله . البالغ من العمر خمس سنوات فقط : بغرض تسيير أمور البلاد حسب مشيئته . ولكنه لم يتمتع طويلا باغتصاب السلطة : ففى ٣٠ من مارس من السنة التالية أطاح به طلائع ابن رزيق الأرمنى . وتولى الوزير الجديد الحكم حتى عام ١١٦٠ باسم الخليفة الفائز ، وبعثت اليه حكومة بيزا بالسفراء ، وسعت الى اكتساب مودته ورعايته كما فعلت مع سلفه . وقد استقبل السفراء فى مصر أحسن استقبال ، ولما عادوا الى بلدهم ، حملوا معهم أثمن أنواع الدهون التى أهديت لهم لاستعمالها فى حفلات القداس ، واستصحبوا معهم بعض أسرى الحرب الذين أطلق سراحهم تكريما لهم . كذلك سلمهم الوزير رسائل لحكومتهم ، أكد فيها أن الحرب التى شنها عليه الفرنجة لن تغير شيئا من سلوكه حيال التجار البيزيين ، وأنه سوف يستمر فى حمايتهم ومعاملتهم بروح الصداقة (١٥٤) .

---

(١٥٢) Amari, Dipl. arab., p. 241-249;
Benincasa, biographe de Ranieri (Acta SS. Boll., jun. III, p. 421 et ss., voy. p. 439, 454).

(١٥٣) Amari, p. 290.
– يضع امارى هذه الوثيقة فى ص ٢٩٠ دون أن يذكر اى شىء عن تاريخها

(١٥٤) هذه الرسائل محررة فى ٢٠ مارس ١١٥٥ و ٢ نوفمبر ١١٥٦ (Amari, p. 250-254) واثبتت بها محررها اسمه «أبو الجرات طلائع» ولقبه «الملك الصالح» الذى استخدمه عندما تسلم مقاليد الحكم (٤ يونيه ١١٥٤) . وفى الرسالة الاولى يذكر اسم سيده ، الخليفة الفايز ، ويذكر أنه أسقط الوزير (عباس) وابنه (نصر) . انظر فى ذلك :

ويبدو أن مملكة بيت المقدس لم تنظر بعين الرضا الى علاقة المودة بين بيزا ومصر (١٥٥) • ففى عام ١١٥٦ عقدت معاهدة بين بيزا وبلدوين الرابع (١٥٦) ، لوضع حد لسلسلة من الخلافات ، وربما من الأعمال العدوانية المكشوفة ، غير أن الملك احتفظ لنفسه صراحة بالحق فى مصادرة الحديد ، وخشب السفن والقار التى يعثر عليها فى سفن بيزية متجهة الى مصر ، دون أن يكون لحكومة بيزا الحق فى الشكوى من هذا الاجراء بدعوى أنه انتهاك للسلام • ومع ذلك حانت لحظة أصبح فيها اهتمام بيزا بكل ما يحدث فى مصر فرصة للتقارب بينها وبين مملكة بيت المقدس . ويتعين علينا أن نشرح ذلك فى بضع كلمات • ذلك أن دولة الفاطميين كانت وقتئذ تسير بخطوات واسعة نحو الفناء ، اذ أصبح الخلفاء منذ زمن طويل مجردين من كل سلطة عن طريق وزرائهم • الا أنه لم يستطع أى من هؤلاء الوزراء أن يحتفظ بمنصبه • وحين وجد احدهم ، ويدعى شاور ، أنه على وشك السقوط طلب معونة نور الدين ، أقوى ملوك سورية وبلاد ما بين النهرين المسلمين • وبفضل جيوش نور الدين بقيادة مساعده شيركوه نجح فى سحق خصومه • ولكن شاور لم يف بوعوده ، بل عمل على التخلص من شيركوه ، ولم يجد وسيلة لذلك أفضل من الاستعانة بحليف جديد ، ذلك هو عمورى Amoury ملك بيت المقدس الذى كان له مصلحة كبيرة فى جلاء القوات السورية سريعا من مصر : ذلك لأنه اذا نجح نور الدين فى بسط سيادته على البلد ، فان مملكة بيت المقدس سوف تجد نفسها محصورة ومهددة من جميع الجهات • لذلك استجاب عمورى لنداء شاور ، وقام فى عام ١١٦٥ بحملة ضد شيركوه وحاصره فى مدينة بلبيس ، ولكن هذا الحصار ما لبث أن فشل • وفى عام ١١٦٧ كشف نور الدين جهارا عن مشروعاته ، فأرسل جيشا جديدا الى مصر تحت امرة شيركوه • وهب عمورى للقتال ، يعاونه فى هذه المرة البيزيون الذين سعى الى التحالف معهم بنوع خاص بسبب قوتهم البحرية • وفى هذه الحملة استولى شيركوه على الاسكندرية ، وعهد بحراستها الى ابن أخيه صلاح الدين •

= Aboulfeda, l.c. Hist. patr. Alex. p. 520 ;
Buill de Tyr. XVIII 9 ; Michaud — Reinaud, Bibl. des crois., IV 102, 104 ; Amari, p. 456 : Wustenfeld, Fatimiden, 3e part op. cit., p. 96.

(١٥٥) شوهد أيضا فى ذلك العصر سفن مصرية فى بيزا ، ذكر ذلك نيقولاس قس تنجيرار فى ايسلنده Tingheyrar الذى زار بيزا أثناء أدائه الحج فى روما وبيت المقدس • انظر :
— Werlauff, Symboloe ad. geogr. medii avi, p. 21.

(١٥٦) Doc. sulle relaz. tosc. ,p. 6 et s.

أما عمورى فانه حاصرها بمعاونة الأسطول البيزى ، ولكن المدينة قاومت الى أن تم عقد الصلح : وكان أول شروط المعاهدة اقصاء صلاح الدين (١٥٧) . وكان بود البيزيين أن تبقى هذه السوق المشهورة فى قبضة عمورى : ذلك لأنه رغم ما كان يبديه لهم الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم من عطف ومودة ، لم يغب عن خاطرهم إن وضعهم يكون أفضل بكثير فى ظل سيادة فرنجية .

غير أن المعاهدة أعادت الاسكندرية الى الخليفة الفاطمى . ولما لم يستطع البيزيون أن ينالوا ما كانوا يفضلونه ، فانهم اسهموا فى حل المشكلة — أى عقد معاهدة الصلح — ولم ينس الخليفة هذا الاسهام من جانبهم ، واعترافا منه بجميلهم أمر بتخفيض كبير فى الضرائب لصالح التجار البيزيين فى القاهرة (١٥٨) ، بينما كافأ عمورى حلفاءه فمنحهم امتيازات فى عكا (١٥٩) . ومن المحتمل أن يكون سينيبالدس Sinibaldus سفير عمورى قد حصل فى شهر يناير ١١٦٨ من البيزيين على وعد بأن يستمروا فى التعاون معه ، رغم مشاكلهم الداخلية ، فى مقابل منحهم امتيازات جديدة (١٦٠) . وفى شهر أكتوبر تلقى الملك من بيزا ، وهو يتأهب لغزو مصر من جديد مددا من فرق عسكرية وسفن حربية ، فأغار على مدينتى بلبيس وتنيس الغنيتين (٤ نوفمبر)، واستولى عليهما ، وتركهما فريسة للنهب والسلب . ولكنه اضطر لرفع الحصار عن القاهرة ليسرع لنجدة مملكة بيت المقدس التى كانت مهددة من جانب سورية . (١٦١) فى عام ١١٦٩ شن عمورى غارة ، بمساعدة البيزيين غالبا ، مثلما حدث فى الغارات السابقة ، ولكنها فشلت بصورة مزرية تحت أسوار دمياط(١٦٢) . وأعاد الملك الكرة بضراوة شديدة ، وتخيل نفسه سيدا على مصر ، وراح يوزع مسبقا على

---

(١٥٧) Guill. de Tyr, XIX 5, 7. 12-31, Hist regni hieros, dans Pertz, SS. XVIII, 50 et s. ; Marang., Ann. Pis., ibid XIX. 257; Amari, Dipl. arabe, p. li et s. ; Weil, Gesch. d. Chalif. IV 320 et ss.; Wilken Gesch. d. Kreuzz., III, 2, p. 82 et ss.

(١٥٨) Marang. l.c.

(١٥٩) Doc. sulle relaz. tosc. p. 14.

(١٦٠) Marang., l.c.

(١٦١) Guill. di Tyr, XX 5-11; Marang., p. 258; Wustenfeld, Fatimiden, op. cit., p. 112 et ss.

(١٦٢) Wilken, Gesch. d. Kreuzz., III, 2, p. 128 et ss. ; wuslenfeld, op. cit., p. 121 et s.

رفاقة (١٦٣) المدن والأقاليم والغنائم ، ويبذل الوعود للبيزيين ، بمنحهم أحياء فى القاهرة القديمة ، والقاهرة الجديدة ، والحق فى القضاء القنصلى ، وكنائس ، وحمامات ، الخ ، ثم الاعفاء من الضرائب فى الاسكندرية ، ودمياط ، وتنيس ٠ والى أن يتحقق كل ذلك وعد بأن يصرف لهم اعانة سنوية قدرها ألف دينار بيزنطى تؤخذ من ايراداته فى القاهرة القديمة والجديدة (١٦٤) : أحلام جميلة لم يتحقق أى منها ٠

وكانت نتيجة الصراعات التى جرت فى مصر سقوط الدولة الفاطمية ولم يستفد عمورى من سقوطها ، اذ آلت السيادة الى صلاح الدين ابن أخى شيركوه المشهور وخليفته ٠ وكان شيركوه أولا قائد جيوش نور الدين ثم الوزير الأكبر لآخر سلاطين الفاطميين ونجح بعد وفاة السلطان فى ١٤ من سبتمبر ١١٧١ فى الاستيلاء على العرش ٠ وبالنسبة الى الفترة المعاصرة لحكم بين بيزا ومصر ، أما معلوماتنا عن سائر الأمم فانها أقل من ذلك بكثير٠ ففى عام ١١٧٣ ذهب سفير بيزى يدعى الديبراندوس (Ilderprando) Aldeprandus الى بلاط صلاح الدين لكى يحصل لمواطنيه على تسهيلات مختلفة فى التجارة ، وتناسى السلطان سلوكهم ابان الحرب الأخيرة ، فوافق على عقد معاهدة جديدة (١٦٥)،ضمنت للبيزيين المقيمين بالاسكندرية امتلاك فندق ، وحمام ، وكنيسة ، وتمتعهم بحرية العبادة ، ورخصت لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وشجعت استيراد منتجات الغرب الى مصر ، وبخاصة الحديد والخشب والقار ، وأعفت البيزيين من كل الضرائب على ما يستوردونه الى مصر من ذهب وفضة ، ولكنها ألزمتهم بأن يقدموا للجمارك عند رحيلهم ما يتبقى معهم من نقود ٠ وأخيرا وضع صلاح الدين حدا لمختلف ضروب العسف التى كان البيزيون ضحيتها ، من مطالب الجمارك المرهقة ، واجبارهم على بيع بضائعهم للحكومة بأقل من السعر الجارى ، ومنعهم بالقوة من الرحيل ٠

وبعد الديبراندوس ، توالى ثلاثة سفراء بيزيين ، من ١١٧٦ الى ١١٨٠ ، وكان من مهامهم الرئيسية تخليص أسرى الحرب ، والحصول بنوع خاص على اجراءات نافعة لمصالح الجالية فى الاسكندرية ولأمن التجارة ٠ وفى حوزتنا الاجابات المؤيدة لهذه الطلبات ، والصادرة

---

(١٦٣) Paoli. Cod. dipl., I, 48-50; Streehlke, Tab. ord. teuton., p. 6 et s. ; en Egypte ; Abou-Tai, rapporté dans Michaud-Reinaud, Bibl. des crois. IV, 128.

(١٦٤) Doc sulle relaz. tosc., p. 15 ; d. d. 15 sept. 1169.

(١٦٥) Amari, p. 257 et ss.

اما من صلاح الدين نفسه ، أو في غيابه من أخيه الملك العادل ، وأبلغ بها السفراء • ولسوء الحظ كانت هذه الاجابات مصوغة بعبارات عامة ، فهى لا تنبئنا بأى شىء جديد من وجهة التجارة فى ذاك العصر (١٦٦)

وعلى غرار بيزا ، استمرت جنوا والبندقية تزاولان تجارتهما مع مصر فى عهد صلاح الدين ، وعقدتا مع هذا الأمير عن طريق سفرائهما معاهدات فقدت نصـوصها الأصـلية • من ذلك أن الدوج سبباستيانو زيانى Sebastiano Ziani عقد ــ حسب ما قاله أحد المؤرخين (١٦٧) ــ صـلحا متينا مع سيد بابيـلون (أى القـاهرة) ، وأمير المصـمودين Masmoudes (١٦٨) • وليس هناك بالنسـبة الى الأول احتمـال للخطأ ، فهو صلاح الدين ، وأما بالنسبة الى الثانى ، فلا بد أن الأمير الموحدى الحاكم وقتئذ ، وهو أبو يعقوب يوسف ، ابن المغازى المغربى الكبير عبد المؤمن • وفى عام ١١٧٧ أرسلت جنوا السفير روبيس دى فولتا Rubeus de Volta (١٦٩) • والواقع أنه لا يمكن اسـتخلاص أية نتائج من هذه الوقائع الفردية لصالح النشاط فى العلاقات التجارية • ولن نلح كثيرا على قصة أخ لصلاح الدين اسـتعان بوسـاطة جندى اسمه روجيرونس Ruggeronus لمبادلة كمية من الشب المصرى ببعض منتجات الغرب (١٧٠) • غير أننا نجد لذلك دلالة أكثر صدقا فى خبر من أخبار غزوات صلاح الدين فى فلسطين : فقد كان من بين الأسرى

---

(١٦٦) توجد أول هذه الرسالات فى « أمارى » Amari ص ٢٦٤ ويحمل تاريخها (رجب ٥٧٢ هـ ، من ٥ ديسمبر ١١٧٦ الى ٣ يناير ١١٧٧م) ، ويعطى صلاح الدين لنفسه اسم يوسف : تبعا لما ذكره بهاء الدين ، وأبو الفدا ، يبدو أن هذا هو بالفعل اسمه • والرسالة الثانية محررة فى ١٦ من شهر رمضان ٥٧٤ (١٥ من فبراير ١١٧٩) ، ونوجد فى : (Pagnini, Della decima, II, 201 et s. : Amari,

أما الرسالة الثالثة (أمارى ، ص ٢٦٧) فتاريخها شـــهر شوال عام ٥٧٥هـ ، p. 265 et s. (من ٢٩ فبراير الى ٢٨ مارس ١١٨٠) • وربما كان هناك رسالة رابعة سابقة للثلاث رسالات الاخرى ، وقد فقدت : وفى هذه الرسالة يمنح السلطان البيزيين « مزايا كبيرة ومساكن مريحة » •

(١٦٧) Hist duc. Venet, dans les Monum. Germ. hist., SS XIV, 81.

(١٦٨) Pertz, SS. VI, 455; XIX 310 et ss., 429.

(١٦٩) Annal Jan. p. 98.

(١٧٠) سقط روجيرونس فى أيدى القراصنة البيزيين ، ومعـه شحنة من الشب • واوفد صلاح الدين فى هذا الخصوص الى بيزا سفيرا مكلفا بتسليم رسالتين نجدهما فى (Amari p. 262 et s)

الذين أخذوا فى عسقلان وفى مدن أخرى جنوبى فلسطين خمسمائة أسير من سلالة فرنجية ، فأرسلهم السلطان الى الاسكندرية (فى خريف ١١٨٧) ، وأمر بأن يركبوا من هناك سفنا غربية تذهب بهم الى أوروبا ٠

ونعلم بهذه المناسبة أنه فى غضون شتاء ١١٨٧ ـــ ١١٨٨ كان فى ميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قدمت من جنوا وبيزا والبندقية ومدن غربية أخرى (١٧١) ٠ هذا العدد من السفن لا يبدو فى ذاته كبيرا ، ولكن اذا علمنا أن الغالبية الكبرى من التجار كانوا يزاولون أعمالهم فى مصر فى الفصل الملائم ، وأن ربابنة السفن يفضلون قضاء الشتاء فى بلادهم عن قضائه خارجها ، فاننا نميل الى التسليم بأن مئات السفن وليس سبعا وثلاثين سفينة فقط كانت تتجمع فى ميناء الاسكندرية فى فصول الربيع والصيف والخريف ٠

هذه الحقيقة تتيح لنا أيضا أن نوضح المدى الذى وصلت اليه الريبة من الغربيين عند سلطات الاسكندرية ، رغم كل ما كانت تبديه من تأكيدات بالود والصداقة ٠ فقد رفض ربابنة السفن تسلم أسرى عسقلان البائسين فى سفنهم ، لأن هؤلاء الأسرى لم يكن معهم نقود أو مؤن ، ولكن حاكم الاسكندرية كان يملك وسيلة للضغط عليهم ، فقد رفض أن يعطيهم دواقل السفن (عوارض الصوارى) وسكانها (دفتها) حتى يتلقى منهم وعدا بأن يقلوا مواطنيهم بسفنهم ، ويعاملوهم معاملة لائقة فى أثناء الطريق ٠ وهكذا كان حاكم الاسكندرية يجبر كل سفينة قادمة أن تودع عنده تحت حراسته دواقل السفينة والسكان ، وهذى طريقة ناجعة لمنع أصحاب السفن والتجار من مغادرة البلد قبل سداد الضرائب كلها ، ولضمان تنفيذ الاجراءات الثأرية على تجار أمة ثبت ارتكاب أحد مواطنيها عملا ضارا بأحد الرعايا المصريين ٠ وكان هذا الاجراء ساريا حتى عام ١١٨٨ ، وقد وعد صلاح الدين بالغائه منذ عام ١١٧٣ بالنسبة الى البيزيين بنوع خاص٠ نرى من ذلك أن التجار الغربيين كانوا يشعرون فى عهد السيادة الاسلامية بأنهم أشبه بمسجونين فى مصر ، وأنهم لم يتمتعوا فيها بلحظة واحدة من الأمن التام ٠

---

(١٧١) Contin. de Guill. de Tyr, p. 101-103 : cf. l'extrait de l'Histoire des patriarches d'Alexandrie, dans Michaud — Reinaud, Biblioth. des crois, IV, 213.

ـــ نجد أمثلة تثبت وجود هذه الحركة التجارية لبعض الأفراد البنادقة فى سنتى ١١٨٨ ، ١١٨٩ فى العقود الفردية المدرجة تحت رقمى ٨٣ ، ٨٦ فى :
l'Archiv. Veneto, XX, 54 et s., 57.

وتفجرت الكارثة التي حدثت منذ زمن بعيد الدول الصليبية في فلسطين ، وكان ذلك في أعقاب حملة صلاح الدين المظفرة ، والتي كان من نتيجتها استثارة حملات صليبية جديدة • كان المقصود أولا استرداد أقصى ما يمكن استرداده من الأراضي المقدسة ، وكان هذا في ذاته مهمة عسيرة للغاية : واقتضى الأمر على الأقل جرأة رجل مثل ريتشارد قلب الأسد ، أخذ يفكر في الهجوم مباشرة على مصر عقب الاستيلاء على عكا • ومع ذلك ناقش الأمير مشروعه هـــذا مع موريتو دى بيساتزالونجا Morino di Piazzalonga قنصل جنوا ، وبذل أقصى جهده للحصول على معاونة الجمهورية في الحملة التي أزمع القيام بها في صيف عام ١١٩٢ (١٧٢) • وبقيت الأمور مؤقتا في نطاق المشروع ، الا أن ثمة احداثا جديدة أثبتت أن مصر هي أخطر عدو للدول الصليبية • وشيئا فشيئا اتضحت صحة الفكرة التي تقدم بها ريتشارد حتى قيل بصراحة انه يجب ضرب مصر في الصميم ، وأن هـــذه هي الطريقة الوحيدة لتخليص الأرض المقدسة من هـــذا التهديد الدائم • والمعروف ان الفكرة التي نجمت عنها الحملة الصليبية الرابعة التي نظمها الفرسان الفلمنكيون والفرنسيون كانت تستهدف مصر ،وأن المفاوضات التي جرت مع الدوج داندولو حين عرض أن يتحالف معهم كانت تتغيا هذا الهدف (١٧٣) •

وفي هذه الأثناء ، مضى الأمير الكسيوس الذي طرد من القسطنطينية يلتمس معونة صهره فيليب أمير سوابيا Souabe الذي أصر على أن يعين له من يحميه • فاتخذ الدوج هذا الاصرار ذريعة لكي يحول الحملة الصليبية عن غايتها • والواقع أنه كان للبندقية مصلحة سياسية في الدرجة الأولى من الأهمية في احداث تغيير في نظام الحكم بالقسطنطينية ، وكانت عازمة على الثأر لضروب الاذلال والاهانات التي أوقعها بها طاغية القسطنطينية • وبمســاندة جيش كبير ، لايتــاح للجمهورية أن تجد مثله ، يمكنها أن تملي ارادتها على ضفاف البسفور : وكانت فرصة ذهبية لا يجوز لها أن تتركها تفلت من أيديها ، وأدرك ايزيكو داندولو ذلك • وفي دراسة حديثة للكونت ريان Riant (١٧٤) تحدث عن الرجل الذي جعل للحملة الصليبية هذه الوجهة غير المتوقعة (ثم انه جعل المسئولية في ذلك على امبراطور ألمانيا أكثر مما جعلها على الدوج) ،

---

(١٧٢) انظر الوثيقتين بتاريخ ١١ أكتوبر ١١٩١ في (Lib. jur., I, 365 et s.) وتؤكدان ، جزئيا على الأقل المشروعات الكبيرة التي نسبها سانوتو الى هذا الأمير :

(١٧٣) Rob. Clary, dans Hopf, Chron. gréco-romanes, p. 5 ; Geoffroy de Villehardouin, éd. de Wailly, p. 18.

(١٧٤) Innocent III. Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat (Revue des questions historiques, 187 s.)

فذكر فى شأنه كلمة « الخيانة » . وقد يكون هذا الاتهام صحيحا لو ثبت أن ذاك الرجل استطاع أن يتكهن بسير الأحداث ، ويفترض أن الصليبيين سوف يتوقفون عند القسطنطينية ، ويجدون أنه يستحيل عليهم العودة الى مشروعاتهم الأولى . نعم ، قد يكون هناك ما يدعو للحديث عن الخيانة لو أن الدوج تأثر بوعود السلطان . قيل ان المؤرخ ارنول Ernoul الذى ينتمى الى العالم المسيحى فى سوريا ، ومؤرخين غيره نقلوا منه ، أو كتبوا فى نفس الاتجاه الفكرى ، تحدثوا عن سفارة مصرية يقال انها ذهبت الى البندقية حاملة هدايا نفيسة فى وقت تجمع جيش الصليبيين ، وأغرت البنادقة بمزايا عظيمة ، ومكاسب هائلة فى الاسكندرية ، بشرط أن يستخدم الدوج نفوذه ليغير طريق الحملة الصليبية (١٧٥) . ولم تكن حجة المؤرخ الذى روى هذه القصة من القوة بحيث يمكن الوثوق بصدق أقواله ، وبخاصة ازاء الصمت الذى راعاه فى هذا الموضوع كل المؤرخين الرئيسيين الذين كتبوا عن الحملة الصليبية الرابعة .

ومن جهتى ، أعتقد أن قصته ليست الا مجموعة من الاشاعات التى كانت رائجة فى بيئته بسورية . ونحن ندرك تماما غضب المسيحيين فى ذاك البلد من البنادقة بعد الفعلة الدنيئة التى اقترفوها باستيلائهم على امدادات كانوا فى انتظارها بفروغ صبر . وقد فسرت تصرفات السلطان الملك العادل : فحيثما كانت هذه التصرفات مجرد أجراءات طيبة اتخذت فى مقابل خدمة أديت بطريق غير مباشر ودون تدبير مسبق ، رأت بعض النفوس المتحيزة فى هذه التصرفات ثمنا لخيانة متفق عليها مقدما . ويبدو واضحا أن ارنول لم يفعل أكثر من أن يدون على الورق كل ما قاله الناس عن هذه التدبيرات المخادعة (١٧٦) . وأراد البعض فى زمن غير بعيد أن يؤكد هذه القصة بما ورد فى بعض الوثائق الخاصة بالعلاقات بين البندقية ومصر ، والتى نشرها لأول مرة السيدان تافل Tafel ، وتوماس Thomas (١٧٧) ، ولكننا لا نجد فى هذه الوثائق سوى تعداد للامتيازات التى حصل عليها من الملك العادل

---

(١٧٥) Ernoul et Bernard le Trésirier, éd. Mas-Latrie, p. 345, 362; Contin de Guill de Tyr, p. 251, 265; Chron. gall. inéd. (aut. Baudouin d'Avesnes), dans Taf. et Thom. I, 332; Balduinus Constantinopolitanus dans la Chron. Flandr,. éd. Smet (Rec. des chron de Flandre. T. I), p. 132.

(١٧٦) L'étude de M. de Wailly, à l'Académie des Inscriptions, Publiée dans la 2e édition de Villehardouin (Paris, 1874 in 4e, p. 430 et ss.)

(١٧٧) Taf et Thom I.I. 185-189 : Mas-Latrie, Traités de paix et de commerce, Suppl., p. 70 et ss.

سفيران بندقيان : مارينو داندولو ، وبييترو ميشيل ، وليس فيها كلمة واحدة يمكن أن يستخلص منها أن هذه المهمة سبقتها سفارة بعث بها السلطان الى البندقية (١٧٨) • ثم انــه يجب البدء بتحديد الزمن الذى جرت فيه هذه المهمة ، مهمة داندولو وميشيل ، لأن الوثائق لا تحمل أى بيان بالتاريخ • ورأى المحررون الأوائل فى هــذه الوثائق بيــانا بالاستعدادات لقيام حملة صليبية كان على البنادقة أن يزودوها بالسفن ، وسلموا بأنها هى الحملة التى استمرت من ١٢١٧ الى ١٢٢١ ، وتبعا لهــذا الاستنتاج ، حددوا تاريخ المهمة بعام ١٢١٧ (١٧٩) • ويقول الكونت ريان (١٨٠) ان الحملة الصليبية الجارى اعدادها وقتئذ يحتمل أن تكون الرابعة • وقد أوضحت من قبل (١٨١) أن الفقرة التى تستند اليها هذه التفسيرات لا يمكن أن تنطبق على صليبيين ، لأن السلطان لا يمكن أن يضمن سلامتهم على اقليمه ، ولكنها تنطبق على الحجاج الذين تنقلهم سفن البندقية طوال العام على الأراضى المقدسة (١٨٢) • واعتقد السيدان هوف Hopf وستريت Streit (١٨٣) أنهما وجدا فى أول هذه الوثائق بنوع خاص بيانات تثبت أنها تنتمى الى الحرب الصليبية الرابعة : مثال ذلك انهما يقولان ان داندولو ، تبعا للدور الفائق الذى لعبه فى الحملة الصليبية الرابعة هو الشخص الوحيد الذى ينطبق عليه بعض النعوت من قبل :

Leo fortis, dux prudens, miles militum, prudens comestabilis, exercitus Christianorum.

(أسد شجاع ، قائد حكيم ، جندى باسل ، رفيق عاقل ، مسيحى تقى) •

غير أن الأسلوب الجزل الذى يميز الرسائل الرسمية لملوك الشرق كان شيئا معروفا ، ونحن نعرف ما ينبغى أن نفهمه منها • ففى رسالة للسلطان الى بيترو زيانى ، خليفة داندولو ، نرى هذا الأخير متحليا بالصفات الآتية :

— miles militum, custos militia Christianorum.

---

(١٧٨) M. Hopf (art. Griechenland, op. cit., lxxxv, p. 188).

(١٧٩) Taf. et Thom., II, 184 et s.

(١٨٠) Op. cit., p. 129 du tirage séparé.

(١٨١) Colon. commerce., II, 183, not. 2.

(١٨٢) Taf. et Thom., II, 187; Revue historique, IV .1877), p. 92.

(١٨٣) Streit, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen Constantinopel (Anklam 1877), suppl. C, p. 49.

Gubernator Christianorum

(جندی باسل ، حامی حمی المسيحية ، الحاكم المسيحی)

ويخاطب السلطان الدوج جاكوبو تيبولو بهذه العبارات :

— le lion et lo pro, capitancus militum et capitaneus de lege Christanorum.

(الأسد القوى ، قائد الجيش ، والقائد المسيحى) (١٨٤)

كل هذه العبارات متشابهة ، ويزعم السيد هوف أن معاهدة التجارة المشار اليها قد أبرمت بالقاهرة فى ١٣ من مايو ١٢٠٢ ، وان الأمير سعد الدين المكلف بالحصول على تصديق على المعاهدة سافر فى الحال الى البندقية فوصلها قبل قيام الحملة الصليبية (فى أول أكتوبر ١٢٠٢) : فلو ثبتت صحة هذا النبأ لكانت مسألة التاريخ محلولة . ولسوء الحظ فان حكاية هـذه الوقائع ليس الا مجموعة من الأخطاء . فبدءا بالبيان الأخير ، لم يعتمد هذا البيان الا على تفسير غير صحيح للوثيقة الرابعة : فلم يكن بالمرة ثمة سفارة ، بل بالعكس ، كان الأمر مجرد خطاب أرسله السلطان الى فيض الدين Faideddin أمير الاسكندرية (وليس سعد الدين) يأمره باسكان البنادقة فى الفندق الجديد الذى منحوه ، وأن يشرح لهم حقوقهم التى يتعين على خلفاء هذا الموظف أن يراعوها . وعلى ذلك فان قصة سفارة مصرية مبعوثة الى البندقية هى قصة مختلقة ، حتى بالشكل الذى عرضه السيد هوف . وعلى العكس من ذلك فان البعثة الفينيسية صحيحة : فهى حدث ايجابى ، ولكن ينبغى أن نعرف ما اذا كانت قد حدثت قبل رحيل جيش الصليبيين . ولست أرى شيئا فى الوقائع يشهد بصحة هذا الرأى ويجعلنا ننكر التاريخ الذى يستخلص من مجموع الوثائق الأربع . ثم ان الوثيقة الثانية هى بالاجمال الوحيدة التى لا تحتوى على أى تاريخ : ونقرأ فى نهاية الوثيقتين الثالثة والرابعة عبارة ١٩ شعبان ، والتاريخ فى الوثيقة الأولى أكثر وضوحا :

decima nona Saben, mensis Martii

وقد أبان السيد ريان (١٨٥) أنه فى عهد الملك العادل (١٢٠٠ — ١٢١٨) حدث ثلاث مرات فقط أن وقع يوم ١٩ من شعبان فى شهر مارس ، وكان ذلك فى السنوات ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ . . فلو أردنا نسبة الوثائق الى عام ١٢٠٢ مثلما فعل السيدان هوف وريان لوجب

---

(١٨٤) Taf. et Thom., II, 185, 190, 191, 337.

(١٨٥) L.c., p. 129.

تصحيح كلمة Martii وجعلها Madii . أما السيد ستريت Streit
الذى اختار عام ١٢٠٣ فانه اضطر أن يجرى هذا العمل نفسه (١٨٦) .
ولكن اذا اكتفينا باتخاذ التاريخ كما هو ، فان الوثائق المعنية تنتمى
لا الى عصر ايزيكو داندولو ، رغم النعوت الفخمة الطنانة التى أضفيت
على الدوج ، كما بينا من قبل ، ولكن الى عصر بييترو زيانى (١٢٠٥ -
١٢٢٩) . وكان من شأن التغيير الذى حدث فى اتجاه الحملة الصليبية ،
والثورة التى اندلعت على ضفاف البسفور أن حولت عن امارات السلطان
خطرا داهما . ولما انقضى كل شىء ، لم يفت الدوج أن يستفيد مما حدث
لدى السلطان ، ويتمسك بالحقوق الكبيرة التى اكتسبتها البندقية نظير
اعتراف مصر بأفضالها . وكلف داندولو وميشيل بالذهاب للمطالبة
بتأييد قوى لهذه الحقوق . فهل كانت بعثتهم هذه فى عام ١٢٠٦ أو
١٢٠٧ أو ١٢٠٨ ؟ لا بد أنها كانت فى احدى هذه السنين الثلاث ،
حتى لا يؤول النص تأويلا خاطئا . ومن ناحيتى ، أميل مع السيد هانوتو
M. Hanoutaux (١٨٧) الى عام ١٢٠٨ : فالواقع أنه فى الوثائق
التى ندرسها يمنح السلطان الملك العادل نفسه القاب :
(rex regum-dominus imperatorum — et amicus miri
Amamoni — Amicus de Mir-momoni)
غير أن هذين اللقبين « ملك الملوك » و « صديق أمير المؤمنين » لم يسندا
الى السلطان الا فى عام ٦٠٤ هـ (١٨٨) الذى يبدأ فى ٢٨ من يولية
١٢٠٧ ، بحيث يقابل يوم ١٩ من شعبان يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ .
ويزعم الكونت ريان أنه من المستحيل أن يكون مارينو داندولو قد عقد
معاهدة صلح فى مصر يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ ، ذلك لأنه فى شهر
فبراير من السنة نفسها كان فى البندقية حيث وقع بامضائه كشاهد فى
عقد هبة (١٨٩) . وأنا أؤيد ذلك ، بشرط أن يثبت أولا أن مارينو
داندولو كان فى الحالتين شخص واحد بذاته ، فقد كانت أسرة داندولو
كبيرة بحيث أنه قد يكون هناك شخصان من هذه الأسرة يحملان اسما
واحدا ، فى وقت واحد .

---

(١٨٦) Op. cit., p. 32 ; Taf. et Thom., I, 246 et ss.

(١٨٧) (ذكرت التواريخ تبعا للتقويم الاغريقى : ٢٧ سبتمبر -
Nov. ind. 2, ann. 6707.
L.C., p. 96.

(١٨٨) Annal muslem., IV, 224. M. Streit — op. cit p. 49.
استخدم السيد ستريت هذه العبارة دون أن يوليها اهتماما آخر .

(١٨٩) Revue des questions historiques, Janv. 1878, p. 102 et s.

ولا بد أن السلطان كان راضيا بالحسنات التى أدتهـا لدولته جمهورية البندقية ، أو بتصريحات سفرائها الودية ، **لذلك أصدر أوامره بأن يعامل التجار البنادقة فى مصر كلها باعتبارهم رعايا أمة صديقة** ، كما منحهم تخفيضا فى الضرائب ، وفندقا ثانيا فى الاسكندرية ، اذ كان لهم فيها فندق من قبل (١٩٠) ٠ وبعد قليل أرسل الى الدوج بييترو زيانى رسالة يجدد له فيها آيات عرفانه بجميله ، ويبدى عزمه على أن يخص البنادقة بامتيازات تفوق ما لسائر الأمم منها ٠ وبالفعل رحب بكل الطلبات التى قدمها له سفير جديد من قبل الدوج بييترو أربانى Pietro Arpani ، قدم فى عام (١٢١٧ (١٩١) ٠

وسوف ندرس بنوع خاص العلاقات بين البندقية ومصر ، بعد أن نعود لحظة الى الموضوع العام ٠ لقد أدى تكرار الحملات الصليبية الى حالة من التوتر الدائم فى العلاقات بين مصر والعالم المسيحى الغربى ، وكانت الحكومة المصرية تنظر بعين القلق الى الزيادة المطردة فى عدد الفرنجة بالاسكندرية ، مما أثار أعمال العنف التى ارتكبت فى عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ ـ ١٢١٦ م) ٠ وكان فى الاسكندرية ما لا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر افرنجى ٠ ففى ذات يوم وصل الى الاسكندرية سفينة على ظهرها سيدان كبيران من الغرب ، وارتاب السلطان الملك العادل فى أنهما يعتزمان القيام بهجوم عسكرى مفاجىء على المدينة ، بالاشتراك مع هؤلاء التجار ، ومن ثم ألقى بهما فى السجن ، ومعهمـا كل التجار ، وصـــادر كل ما يملكون (١٩٢) ٠

كان هذا الارتياب فى محله ، ونجد برهانا على ذلك فى احدى وقائع الحملة الصليبية التى شنها عامى ١٢١٨ ، ١٢١٩ مسيحيو سوريا والغرب للاستيلاء على دمياط ، مفتاح نهر النيل ٠ وكان الحصار شاقا ، طويل الأمد ، وبين القـــائمين به كثير من الايطـــاليين ، من جنـــوا وبيزا والبندقية (١٩٣) ٠ **وأخيرا استسلمت المدينة (فى ٥ من نوفمبر ١٢١٩)** ،

---

(١٩٠) تفترض معاهدة ١٢٣٨ كحقيقة ثابتة امتلاك البنادقة
(Taf. et Thom., I, 196.)
فندقين ، ويؤكد هذا صحة تفسيرنا للفقرة المثبتة بعاليه ، رغم انتقادات السـيد هانوتو يجعل السيد ستريت أول هذه الوثائق فى عام ١٢٠٦ وثانيتها فى عام ١٢١٧ : أما السيد ريان فانه يجعل الاثنتين فى عام ١٢١٧ (ص ١٢٨) ٠

(١٩١) Taf. et Thom. I, 190-193.

(١٩٢) Amari, Dipl. arab., p. lv, d'après Makrizi

(١٩٣) فى خصوص تفاصيل حصار دمياط ، انظر :
Wilken, Gesch. der Kreuzz, VI.
Bibl. des écoles franç. d'Athènes et de Rome, fasc. 19 p. 125.

وفرح أهالى هذه المدن ، لا باعتبار ذلك نصرا عسكريا ، ولكن باعتباره عملا مفيدا للتجارة مع مصر . فالواقع أنه ابتداء من هذه الآونة ، لوحظ فى الأرض المقدسة أن التجار الذين اعتادوا القدوم اليها ، قد هجروها الى دمياط (١٩٤) . وكانت الأربعون سفينة بندقية التى دخلت ميناء دمياط فى شهر مايو ١٢٢٠ تنتمى الى كل من الأسطول التجارى والأسطول الحربى . ولسوء حظ العالم المسيحى ، فانه لم يهنأ طويلا بنصره هذا : فقد أراد جيش الصليبيين أن يتوغل فى داخل البلاد ، فارسل حملة لقيت مصيرا مؤلما ، وكان أول نتيجة لهذه الكارثة سقوط دمياط فى يدى السلطان (٨ من سبتمبر ١٢٢١) : وعبثا قاومت حامية المدينة حتى النهاية . والعجيب أن الذين عارضوا بشدة فى تنفيذ التسليم كانوا هم بالذات ممثلى المدن التجارية الايطالية الثلاث ، وبخاصة البنادقة (١٩٥) .

وهكذا لم ينجح المسيحيون بالمرة فى احتلال دمياط ، ولكن محاولتهم هذه تركت فى مصر سخطا شديدا ، وتحمل مسيحيو مصر عبء هذا السخط كله (١٩٦) ، وعومل التجار المسيحيون بنوع خاص معاملة لعلها أسوأ من ذى قبل . ومن جهة أخرى ، ورغم أن نجاح الصليبيين لم يكن الا نجاحا مؤقتا ، فقد قيل فى الغرب انه ليس من المستحيل اذن احتلال مدينة مصرية ، وأن هجوما عنيفا يمكن أن يجعل الساحل كله تحت سيطرة المسيحيين . تلك هى دون شك البواعث التى حظرت من أجلها حكومة البندقية على رعاياها كل عمل تجارى مع مصر فى اللحظة التى كان فيها فردريك على وشك القيام بحملة صليبية التى أعد لها العدة منذ بضع سنوات ، وآن الأوان لوقف امداد العدو بمعدات المقاومة . ولم يكن محظورا فقط على كل تاجر أن يحمل الى مصر أخشابا للبناء ، وحديدا ، وقارا ، وموادا أخرى والاتعرض لعقوبة النفى ، ومصادرة أمواله ، ولكن اذا تجرأ أحدهم على مخالفة الحظر ، كان لأى شخص الحق فى أن يقبض عليه ، كما توقع عقوبة المصادرة بحكم القانون على كل

---

(١٩٤) لم يمض عام على وقوع دمياط فى قبضة المسيحيين حتى أرسل قساوسة ومطارنة فلسطين رسالة الى فيليب اوجست (اول أكتوبر ١٢٢٠) ... انظر :

(١٩٥) Chron. Turon, dans le Recueil des hist de la France, XVIII 302.

(١٩٦) Raynaldi Annal. eccl. ad. an 1223, n. 9

من يشترى سلعا مستوردة من مصر (١٩٧) • وبالغت حكومة البندقية في هذه الاجراءات ، ففى غضون هذه السنوات (فى حوالى ١٢٢٤) حظرت على أصحاب السفن (ومجهزيها) ، وكل قبطان أن يرسلوا أية سفينة الى مصر • وفى عام ١٢٢٧ أيدت هذا الحظر وأذنت بالمرور لشخص قابل سفينة متجهة الى مصر فاستولى عليها وحرقها (١٩٨) ، وحظرت شراء أية بضائع فى مصر ، وأمرت بمصادرة مواد مستوردة من مصر ، أينما تم الاستيلاء على تلك المواد ، حتى ولو كان مالكوها قد حصلوا عليها مستعملة من قبل (١٩٩) •

ولم يبدأ تنفيذ الحملة الصليبية التى طال التأهب لها الا فى عام ١٢٢٨ • وأديرت شئون الحملة بكيفية انتزعت منها مقدما أية فرصة للحصول على نتائج جدية • فبدلا من مهاجمة مصر ، عقد فردريك الثانى **أواصر صداقة مع السلطان الحاكم وقتئذ ، وهو الملك الكامل** • ولكن مهما كان الحكم على السلوك العام لهذا الأمير (أى فردريك الثانى) فى الشرق ، **فلا بد من الاعتراف بأن سياسته هذه كانت أكثر صلاحية للتجارة من غزو الموانىء المصرية ، لأن السيادة المسيحية لم تستطع أبدا البقاء بها أمدا طويلا** •

ولسنا نملك لسـوء الحظ الا القليل جدا من المعلومات بشـأن المفاوضـات التى جرت بين فردريك الثانى والملك الكامل : اذ يسـود غموض تام كل ما انعقد بينهما من اتفاقيات قبل الحرب الصليبية • أما بخصوص الامتيازات التى حصل عليها الامبراطور بالطريق الدبلوماسى أثناء اقامته بسورية ، فانا نعرف عنها الخطوط الرئيسية ، ولـكن لم يصلنا نص المعاهدة نفسها • ولا بد أن هذه المعاهدة كانت تحتوى على بنود خاصـة بالتجارة ، وليس فى ذلك أدنى شـك • فمن جهة كان فردريك مهتما بوجه عام بازدهار تجارة الامبراطورية • ومن جهة أخرى ،

---

(١٩٧) فى شهر مارس ١٢٢٦ أرسل الدوج بييترو زيانى هذا الحظر الى حاكم كريت فى صورة مرسوم جديد ، انظر :

Taf et Thom. II, 260 et ss. ; Romanin, Storia di Venezia, II, 439 et ss.

ولم يصلنا النص الأصلى ، ولكنا نملك الدليل على القسوة التى طبقت بها الأوامر الصادرة ، ذلك أنه فى شهر يوليه ١٢٢٦ خصصت سفينة لمراقبة ما يرتكب من مخالفات لهذه الأوامر فى البحر الأدرياتى انظر فى ذلك :

Lib plegiorum, p. 102.

(١٩٨) Lib plegiorum, p. 36, 39, 40, 41, 49, 52, 68, 75; 77; 78, 79; 125 124, 141 : Monumenta spectantia historiom Slavorum meridionalium, I, 93 ; III, 394.

(١٩٩) Lib. Plegiorum, p. 87 et s., 89, 91, 93, 114, 116, 119.

يروى المقريزى (٢٠٠) – وهو مؤرخ فى زمنه بعض الشىء – أن الامبراطور طالب منذ بدء المفاوضات بالاعفاء التام من الضرائب لرعاياه فى الاسكندرية ودمياط ، ولكن طلبه قوبل بالرفض • وفى هذا اثبات كاف على أن المسائل التجارية قد نوقشت ، غير أنه تنقصنا النتيجة النهائية للنقاش •

ومع ذلك فليس من المستحيل اعادة تشكيل هذا الجزء من المعاهدة ، على الأقل بطريق الحدس • وكيفية ذلك أنه فى عام ١٢٩٠ عمل بعض سفراء الفونس ، ملك أراجون – استنادا الى اتفاقية انعقدت بين فردريك الثانى والملك الكامل – على عقد معاهدة صلح وصداقة مماثلة ، بين سيدهم وبين السلطان قلاوون الذى كان يتولى الحكم وقتئذ ، وسلم اليهم لهذا الغرض نسخة من الاتفاقية التى كان أصلها مودعا فى سجلات الدولة المصرية (٢٠١) • وفى حوزتنا نص الاتفاقية (٢٠٢) ، والمطلوب معرفة الى أى مدى استنسخ النموذج الأصلى • فمن عصر الى آخر تغير الوضع ، ومن ثم أجرى بطبيعة الحال بعض الحذف من جهة ، والاضافة من جهة أخرى ، وكانت البنود الخاصة بالتجارة هى التى طرأ عليها أقل قدر من التغيير • نرى على سبيل المثال فى معاهدة عام ١٢٩٠ أن ملك اراجون يرخص لرعاياه ولسائر الفرنجة أن يصدروا لمصر خشبا وأسلحة (٢٠٣) ، وحديدا ، ويسمح فى العقود التى تحرر فى بلاد اسلامية بين أفراد ينتمون الى عرشه وبين تجار مسلمين ، **بالالتزام باحكام الشريعة الاسلامية** (المادتان ١١ ، ١٣) • ومن المؤكد حسبما

---

(٢٠٠) Michaud — Reinaud, Biblioth des croisades, IV, 430.

(٢٠١) Amari (La guerra del vespro siciliano, 8e éd., Fir. 1876, Doc. XXXI, T, II, p. 332 et ss.; Bibl. arab. sic. trad, I, I, 548 et ss.)

– هذا الجزء من التاريخ غامض بعض الشىء ، ومع ذلك يتبين أن معاهدة أبرمت فى عهد الملك الكامل توضح أسس الاتفاقية الجديدة • هذا صحيح ، ولكن هذا الأمر لا يتعلق بمعاهدة عقدها روجر دى اميسيس Roger de Amicis — باسم فردريك الثانى • انظر فى ذلك :

— M. Amari, l.c, 429; Huillard — Bréholles, Hist. dipl Frid, II, introd. p. ccclvi et s. et Schirrmacher, Friedrich II, III, 197; Winkelmann. Acta imp. ined. sac. XIII, p. 653 661 et s.

– لا يمكن ، تبعا لهذه المصادر أن يكون دى أميسيس قد أوفد الى مصر بصفته سفير قبل أواخر عام ١٢٤١ ، ومن ثم فهو لم يجد الملك الكامل على عرش مصر بل وجد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب •

(٢٠٢) Amari, lc. : silv. de Sacy, l.c. : Wilken, Gesch, der Krfeuzz., VII, suppl, p. 17 et ss.

(٢٠٣) Gayangos, notes à l'éd de Al—Makkari, I, 393 et s.

هو معروف عن طبيعة فردريك الثانى ، أن تكون هذه النصوص مقتبسة من معاهدته • وليس فى المعاهدة بين أراجون ومصر ما ينص على خفض أو الغاء الرسوم الجمركية ، بل على العكس كان المتفق عليه أن يدفع تجار أراجون الرسوم المقررة بالكامل عند وصولهم وخروجهم ، أو حتى عند مرورهم فقط بمدينتى الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الأماكن الواقعة على حدود البلاد الاسلامية ، وذلك طبقا للتعريفات التى حددتها أخيرا ادارة الجمارك (المادة ١٨) •

وكما نعرف ، لقى فردريك الثانى مقاومة شديدة حين أراد أن يحصل لرعاياه على الاعفاء من الرسوم الجمركية عند وصولهم الى مصر ، ولا يبدو من ثمة أنه حصل على تخفيفات ذات قيمة • ومع ذلك فالثابت أن علاقات المودة التى وثقها حتى وفاته مع الملك الكامل أولا ، ثم مع أبنائه وحلفائه كانت مفيدة لرعاياه ، وأنهم وجدوا فى مصر ترحابا ومعاملة طيبة (٢٠٤) • بل كان الامبراطور نفسه يشتغل بالتجارة ، ويستغلها لصالحه الشخصى • ومن صقلية كان يرسل الى مصر سفنا تابعة له ، رست واحدة منها فى الاسكندرية عام ١١٤٢ أو ١١٤٣ وعليها شحنة من الزيت ، والنبيذ ، والجبن ، والعسل ، وكمية من سلع أخرى ، وكان اسمها Le demio monde (عالم الغانيات) ، واستثارت دهشة الناس بأبعادها الكبيرة ، وطاقمها الذى لا يقل عدد أفراده عن ثلاثمائة رجل (٢٠٥) • وبلغت المودة بين الملكين ــ اذا صدقنا ما يقوله عنهما المؤرخون ــ شأوا بعيدا حتى أن فردريك اهتم بتجارة السلاطين فى الهند ، وأرسل وكلاء الى تلك المناطق ، عن طريق البر والبحر •

وليس المصدر الذى استقينا منه هذه المعلومات (٢٠٦) مؤكدا فى كل الأحوال ، وبخاصة فيما يتعلق ببلاد نائية • ثم اننا نعلم أن السلاطين لم يكونوا يميلون الى مساعدة الغربيين على الذهاب الى الهند : وعلى ذلك فمن الجائز أن نثير بعض الشك فى هذه النقطة ، ولعل ذلك لم يكن الا من قبيل الاشاعات التى انطلقت بسبب الهدايا التى منحها السلطان

---

(٢٠٤) Huillard — Bréholles, l.c. introd., p .cclv, not. 1, ccclix, ccclxi., ccclxvi ; Raynaldi Ann. eccl. a.a. 1244, no 19; Michaud-Reinaud Biblioth. dls crois, IV 448; Rahricht, Beitr, zur Gesch, d. Kreuzz., I, 50 et s., 84 et s.

(٢٠٥) Histoire des patriarches d'Alexandrie ; Amari, Bibliotheca arabo-sicula p. 326; Dipl arab., p. xxiii, et Storia dei Musulm. di Sicilia III, 656.

(٢٠٦) Matth, Paris, Chron. maj., éd. Luard (SS. rer. brit), V, 217

للامبراطور ، ومع ذلك فمن بين الأشياء النفيسة الواردة من الهند ، وجدت أشياء أخرى من اليمن ، وفارس ، وبلاد مابين النهرين ، وسورية ، ومصر : هذا ما ينبئنا به المقريزي (٢٠٧) ·

وقد أثبت فردريك الثانى بتصرفاته المشاعر الودية التى غذاها حيال المسلمين ، وسار على نهجه خليفتاه منفريد Manfred وكونرادين Conradin (٢٠٨) : وكان فى ذلك دلالة على التهدئة التى شاعت فى الغرب : ولم يفت هذا الأمر على ذهن السلاطين ، وكان من أثر ذلك دون شك التغير الحميد الذى طرأ على موقفهم ، وعلى حسن وفادتهم للتجار الغربيين ·

وأطلقت الحماسة التى ألهبت الصليبيين الأوائل آخر ومضة لها فى الحملات الصليبية التى شنها لويس القديس ملك فرنسا · أما حملته الأولى (١٢٤٩) فانها وجهت ضد مصر ، ولما لم يكن لدى الملك أسطول ، فانه استأجر سفنا من جنوا ومرسيليا (٢٠٩) · وفتحت له دمياط أبوابها ، وارتعب المسلمون عند رؤيتهم جيشه القوى ، فتركوا له المدينة دون مقاومة · كان هذا نجاحا عابرا ، وما لبث الصليبيون حين توغلوا فى داخل البلاد أن أشرفوا على الهلاك ، وسقط الملك نفسه أسيرا ، وكان عليه ، ليسترد حريته أن يسلم دمياط ويذهب الى سورية (١٢٥٠)· وفى هذه المرة أيضا استثار تسليم دمياط الى المسلمين غضب البنادقة والجنويين والبيزيين ، حتى قيل انهم جعلوا يعاملون الفرسان الفرنسيين باعتبارهم أعداء لهم (٢١٠) ·

وبعد انقضاء عشرين سنة ، شن القديس لويس حملة صليبية ثانية · وفى هذه المرة التجأ أولا الى البندقية ليحصل على سفن · وفى حوزتنا الوثيقة التى يعرض فيها الدوج شروطه : فهو يطالب ، فى البلد المزمع غزوه ، بالاعفاء من كل الضرائب لصالح التجارة ، وبأحياء بها كنيسة ، وحمام ، وفرن ، واستعمال الموازين والمكاييل البندقية ،

---

(٢٠٧) Citation par Amari, Storia dei Musulm di Sicil., III, 639.

(٢٠٨) Wilken, Gesch. der Kreugz,. VII, 430 et s., 528.
فيما يختص بالسفن الجنوبية ، انظر :
Annal. Jan., p. 220, 224, 227.

(٢٠٩)
وفيما يختص بسفن مرسيليا انظر نص العقد الذى نشره شامبليون فيجيه Chempollion-Figeae فى وثائقه :
Coll. des. doc. inéd., I, 605-609 : Documents historiques inédits.

(٢١٠) Matth. Paris, l.c,. V, 207.

... الخ (٢١١) غير أنه يبدو أن البنادقة كانوا يفضلون ما بأيديهم عما قد يأتي به المستقبل ، ولم يريدوا اثارة غضب السلطان عليهم ، وفقد أموالهم في الاسكندرية ، ولم يخفوا ذلك عن سفراء ملك فرنسا (٢١٢) • ولعلهم وضعوا عمدا مطالب لا يمكن قبولها • والثابت أن المفاوضات لم تسفر عن شيء • وانتقل سفراء القديس لويس الى جنوا ووجدوا شروطا أفضل (٢١٣) • ومن الراجح أن الملك عقد تسوية مماثلة مع مرسيليا (٢١٤) •

والمعروف أنه قد طرأت له فكرة مشئومة بأن يبدأ الحملة من تونس التي مات تحت أسوارها • وعندما كانت الحملة على وشك الانطلاق ، كان في جنوا سفارة من قبل سلطان مصر (٢١٥) ، ومع ذلك فليس ثمة ما يثبت أن تحول الحملة عن وجهتها كان بحافز من الجنويين بقصد ابعاد العاصفة عن رأس السلطان • بل انهم على العكس من ذلك أمدوا الحملة بوحدة عسكرية تزيد على عشرة آلاف رجل ، وفي صفوف هؤلاء ارتفعت أكثر الأصوات استنكارا لتغيير اتجاه العمليات العسكرية (٢١٦) •

كانت الحملة الصليبية الأخيرة هي آخر تهديد وقع على مصر ، وقد جعل كل من هذه الحملات الجاليات التجارية في موقف سيء بنوع ما • ولم يكن كل ذلك سوى عواصف وقتية ، أعقبتها فترات من الهدوء والسكينة • ومع اقتراب أساطيل الصليبيين ، كان السلطان يراقب الأجانب مراقبة دقيقة ، بل انه كان يستوثق أحيانا من أشخاصهم ، وعندما يزول الخطر يستمتع التجار من جديد بحريتهم في نشاطهم ،

---

(٢١١) Duchesne, Historia Francorum scriplores, V. 435-437.

(٢١٢) Bref du pape Clément IV, dans Martène et Durand Thes. aneed., II, 628 et s.

(٢١٣) تحتوى عقود استئجار السفن على أهم التفاصيل بشأن السفن في ذلك العصر ، وقد نشر هذه العقود :

— Jal, Doc. hist. ined., l.c., I, 507-604, II, 50 et ss. et.. Belgramo, Documenti inediti riguardanti le due croiati di S. Lodovico re di Francia .Genova 1859) ; Annal Jan., p. 264 et ss ; Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 599 et ss.

— ولتصحيح التاريخ الذى ذكره جال Jal (١٢٦٨ بدلا من ١٢٤٨) انظر : Les Archiv des miss scientif., 2e serie III, 260.

(٢١٤) Jal, l.c., p. 513, 609-614.

(٢١٥) Annal. Jan, p. 264.

(٢١٦) Ibid, p. 267, 268.

وتنشط التجارة كعادتها . وفي بعض الأحيان كان بعض المدن التجارية تقطع تجارتها مع مصر ابان الاستعدادات لحملة صليبية أو أثناء قيام الحملة ، كما رأينا في مثال البندقية . غير أن التجارة كانت تستمر غالبا دون عوائق ، ولم تكن فترات الانقطاع هذه تمنع أفراد المستوطنات الفرنجية من ملء حوانيتهم ، واثقين من تصريف بضائعهم بمجرد عودة حركة الملاحة الحرة الآمنة .

ولمعرفة ظروف الحياة العادية للتجارة وفي المستوطنات الغربية بمصر معرفة جيدة ، لا يوجد أفضل من دراسة « براءات » أو أوراق الاعتماد diplômes التي يحملها مبعوثو السلاطين وسفراؤهم . والبندقية هي المدينة التي بها أكبر مجموعة من هذا النوع من الوثائق . وعلى ذلك فمن الصواب البدء بهذه المدينة لاستعراض « حقوق الأمم التجارية وأملاكها » بمصر في القرن الثالث عشر . وقد ذكرت الامتيازات الرئيسية الممنوحة للبنادقة على أرض مصر في براءات السلاطين : الملك العادل الأول (٢١٧) ، والملك العادل الثاني (٢١٨) ، والملك الصالح نجم الدين أيوب (٢١٩) ، والملك المعز عز الدين أيبك (٢٢٠) . ونعرف من قبل أن البنادقة كانوا يملكون في الاسكندرية منذ أوائل القرن فندقين يشرف على شئونهما « ديوان » الحكومة المصرية ، ويستخدمان مسكنا للتجار ، ومخزنا للبضائع . وكان لهم أيضا كنيسة مكرسة للقديس ميشيل S. Michel ، وحمام خاص بهم . وشيد في أحد الفندقين مخبز يأخذون منه خبزهم . وكان النبيذ محرما في الاقليم الاسلامي كله ، ولكن كان مصرحا بدخوله وبيعه في الفندقين .

ثم ان السلطات كانت تبدي كل ضروب المراعاة لراحة التجار في الفنادق من ذلك أن جمهورية البندقية قدمت طلبا بسيطا فبادرت السلطة بنقل سوق سمك كان يقام عادة داخل أحد هذين الفندقين الى

---

(٢١٧) Taf. et Thom., II, 184-193 ; Hammer, Litt. Gesch. der Araber, VII, 60 not. ; le document pisan dans Amari, p. 267 (et la note de la p. 492).

(٢١٨) Diplôme de 1238, dans Taf. et Thom., II, 336 et ss. et dans Marin, VI, 337 et ss., IV, 263 et ss.

– لابد من تصحيح التاريخين ١٢٥٨ ، ١٢٦٢ ، والتاريخ الصحيح هو ١٢٣٨ .

(٢١٩) Diplôme de 1244, dans Taf. et Thom., II, 416 et ss. ; Romanin, III, 399.

(٢٢٠) Lettres de 1254 et de 1258, dans Taf. et Thom., II, 483 et ss.

جهة أخرى (٢٢١) . وحدد الموظفون البنادقة ساعات فتح المحال وغلقها ، ولكنهم كانوا ملتزمين بمراعاة العرف ، واغلاق المحال يوم الجمعة أثناء صلاة المسلمين : وكان الغرض من هذا الاجراء دون شك تجنب الاحتكاك بين مختلف الديانات . وكان لكل فندق مديره ، ويدير شئون الجالية كلها قنصل يتبعه ثلاثة من الخدم ، وكل هؤلاء الموظفين معافون من الضريبة على الرأس (الجزية capitation) (٢٢٢) ، ومرخص لهم بعرض رغباتهم أو مطالبهم شفاهة . وكان لكل بندقى الحق ـ بمقتضى المعاهدات فى رفع شكواه الى السلطان مباشرة ، أو يكلف بذلك قنصله الذى يقدم فى هذا الشأن مذكرة مكتوبة الى السلطان . وكان القنصل يختص أيضا بتلقى أموال الرعايا البنادقة الذين يتوفون . ومع ذلك فالمعاهدات لا تلقى الا ضوءا قليلا على كل ما يتعلق باختصاصات القناصل الادارية كذلك ليس هناك أية اشارة الى المستشارين الملحقين بالقناصل . وفى ظننا ، تبعا لبعض العبارات ، أنه كان هناك قناصل فى مدن غير الاسكندرية ، ولكن لم تذكر أية مدينة بالاسم .

وقد أبدى سفراء الجمهورية ، لصالح الحركة التجارية بنوع خاص مجموعة من الرغبات استجاب لها السلاطين بمراسيمهم على قدر الامكان . من ذلك أن قباطنة السفن الفينيسية كان مرخصا لهم بعمليات الشحن والتفريغ عند وصول السفن ، ورحيلها ، بواسطة رجال تابعين لهم . وكان للبنادقة الحق فى تعيين موظف تجارى يختص بالاقرار الجمركى ، ومراقبة البضائع طـوال الوقت الذى تقضيه فى مخازن الجمـارك . والغيت بعض الضرائب المقوتة ، كالرسم المفروض على فحص البضائع وحراستها فى مكتب الجمارك (٢٢٣) ، وغيره ، والتى فرضها عسفا موظفو الجمارك أو التراجمة الذين يمارسون أعمال السماسرة . وأعفيت اللآلئ والأحجار الكريمة والفراء نهائيـا من الضرائب . وكان البنادقة

---

(٢٢١) Zilia, Taf. et Thom., II, 486, de l'arabe Djaliah : voy. Hammer, Laender verwaltung unter dem Chalifat, p. 189 ; Guatrem(re, Makrizi, II, 1, p. 132.

(٢٢٢) كان الأمر كذلك على الأقل فى عهد الملك العادل الأول ، على حد قول :
— Ricc, de S. Germano, dans Pertz, SS. XIX, 336.

ـ وان اسم Saphadinus المنسوب الى هذا الأمير فى هذه الرواية ، وفى غيرها هو تحريف للقبة « سيف الدين » .

(٢٢٣) Taf et Thom .II, 186, 188, 339, 384. Amari, Dipl. arab., p. 468 et s. 470.

ـ هذان الرسمان ذكرا بكلمتين مقتبستين من العربية : cuffum, arsum

احرارا فى أن يبيعوا بضائعهم لمن يشاؤون • كما لا يجوز فرض ضرائب على البضائع غير المبيعة اذا أرادوا العودة بها ، ولا يجوز اجبارهم على بيع أية بضائع ، أو أن يحتفظوا بالبضائع التى يتضح بعد الشراء أنها مغشوشة • وبالاختصار ، تدل قرارات الحكومة المصرية كلها على حسن معاملتها البنادقة •

وبينما نجح فى أن يكونوا فى عداد الأمم ذوات الامتياز ، بقى البيزيون على وضعهم القديم • ففى عام ١٢٠٧ ، فى عهد السلطان الملك العادل الذى منح البنادقة أقدم امتياز وصل أمره الى علمنا ، بعث اليه البيزيون سفيرا يدعى مرزوكو ديى تيبرتى Marzucco hei Teperti بمهمة عقد معاهدة جديدة • وكانت طلباتهم تتلخص فى النقاط الآتية (٢٢٤) : الابقاء على ملكية البيزيين لفندقهم ، وكنيسة القديس نقولا S. Nicolas ، وحماماتهم ، وترميم الفندق والكنيسة على حساب السلطان ، وحق البيزيين فى استعمال موازينهم ، وعدم فرض أية ضريبة اضافية على بضائعهم ، والمعافاة التامة من الضرائب على الذهب والفضة (٢٢٥) • وقد ووفق على هذه الطلبات ، أو على الأقل أهمها ، وهذا ما ينبئنا به « التصريح بالسفر » lettre de convoi المعطى لمرزوكو عند عودته • وثمة براءة معاصرة موقع عليها بامضاء الملك العادل تكفل للبيزيين ، ضمن أشياء أخرى ابقاء التعريفة الجمركية بسعرها الى ذلك اليوم (٢٢٦) •

واستقبل الملك نفسه سفيرا بيزيا ثانيا اسمه Ranuccio di Benedetto ، وكانت أوراق اعتماده موقعة من رئيس الأساقفة Lothario «لوتير» والبوردستان أو بالدو فيسكونتي Ubaldo Visconti ومؤرخة فى ٢٩ من مارس ١٢١٥ (٢٢٧) • ونفترض أن الأمر السلطانى

---

(٢٢٤) تعليمات موجهة من الأسقف أوبالدو Ubaldo الى مرزوكو (الذى شغل المنصب الأسقفى من ١١٧٥ الى ١٢٠٨) ، وكذا من البودستات جيراردو كورتفيكيا Gerardo Cortevecchia

انظر : Amari, p. 280 et s. : ، وكذا : Amari, p. 465.

(٢٢٥) فى خصوص الذهب والفضة ، انظر فيما بعد براءة عام ١٢١٥ •

(٢٢٦) Amari, p. 282, 283.

(٢٢٧) نجد النص اللاتينى والترجمة العربية فى : Amari, p. 81 et s. et 284.

ويذكر السيد ترونسى Tronci هذه السفارة فى عام ١٢١٥ •

الصادر عام ١٢١٥ يعرض علينا نتائج هذه المهمة (٢٢٨) : فالملك العادل يصـــدر أمــره باطـــلاق سراح بعض البيزيين الذين انتزعهم من كنيستهم (٢٢٩) وجعلهم عبيدا ، وذلك دون أن يقتضى عنهم فدية ، ويكفل للبيزيين حرية الانتقال ، ذهابا وايابا ، وأمن أشـــخاصهم ، واحتفاظهم أموالهم فى حالة غرق السفينة ، وامتلاكهم فندقهم وكنيستهم المخصصة لدفن موتاهم ، وأداء الشعائر والخدمات الدينية ، وحمامهم . وتحددت الرسوم على البضائع العامة بنسبة ١٦٪ ، وعلى الذهب والفضة بنسبة ١٠٪ ، ويعفى منها المواد الغذائية ، والنبيذ المستورد لاستعمالهم الشخصى ، ويرخص لهم بتعيين مندوب فى الجمرك ، وقس وخادم فى الكنيسة . ويعفى الثلاثة من الضرائب . وأخيرا ، اذا خالف موظف مصرى نصـــوص المعـــاهدات ، يكون لهم الحق فى اللجوء الى حاكم الاسكندرية ، أو الى السلطان نفسه ان اقتضى الأمر ذلك . ويتضمن هذا الأمر السلطانى الامتيازات التى منحها السلاطين للبيزيين : وقائمة هذه الوثائق قصيرة ، وتنتهى فى عام ١٢١٥ . غير أن قوانين مقاطعة بيزا تحيطنا علما بالأزمنة اللاحقة ، وتثبت بما لا يقبل الشك أن هذه الجمهورية احتفظت بقناصلها وفنادقهــا فى الموانىء المصرية طوال فترة الحروب الصليبية وبعدها . ومن المفيد من وجهة النظر هذه ، بنوع خاص أن تتصفح « مرسوم مقاطعة بيزا » Breve Pisani communis لعام ١٢٨٦ (٢٣٠) . فثمة فقرتان من الكتاب الأول تبينان الشروط المطلوبة لاختيار قناصل الاسكندرية ودمياط ، ومدة مناصبهم ، وبعض التنظيمات الخاصة بهم : نذكر منها على سبيل المثال حظر بيع النبيذ فى الفنادق البيزية (٢٣١) ، ومنع التجار الذين لا ينتمون الى جمهورية

---

(٢٢٨) نجد ترجمة ايطالية قديمة لهذه المعاهدة فى : Pagnini ,II, 198-201. وفى : Amari, 285-287 وتاريخ عام ٦٢٢ هـ . (١٢٢٥) غير صحيح بالتأكيد لأن العادل توفى عام ٦١٥هـ (١٢١٨) ، وقد صحح السيد أمارى هذا التاريخ واستبدل به عام ٦١٢هـ . ونشر الكاتب نفسه ، ص ٢٨٨ وما بعدها أيضا براءة أخرى مماثلة تماما ، ولكنها تنتمى الى عصر غير معروف ، ولا يمكن أن ننسب الى هذا الموضوع سوى القراصنات .

(٢٢٩) غالبا فى مناسبة القبض على التجار الغربيين بوجه عام ، الأمر الذى ذكرناه قبلا حسبما ذكره أمارى ، ص ١٧ .

(٢٣٠) Bonani, Statuti Pisani inediti, I, 55-640.

(٢٣١) Bonani, op. cit., I, 333.

ـ منذ عهد بيبرس تجدد حظر النبيـــذ عند المسلمين بمزيد من الصرامة : وهـذا بلا شك هو السبب فى الحظر المشار اليه .

بيزا من الادعاء بأنهم من رعاياهـا حتى يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للبيزيين ، والا وقع عليهم غرامة كبيرة . وأخيرا ، تنبئنا القوانين البلدية باسم واحـد على الأقـل من القناصـل : هو برناردوكيوس ماسـكا Bernarhuccius Mascha ، وقد ذكر اسمه بمناسبة اقامته مخبزا لمواطنيه ، دون ذكر لأى تاريخ (٢٣٢) .

وفيما يتعلق بصلات جنوا بمصر ، لم تقدم المصـادر ايضاحات كافية . كان لجنوا قناصلها فى الاسكندرية ، ويبدو أنهم كانوا يعملون مثنى مثنى . وقـد أنبأتنـا بذلك فقرة فى « الحوليـات الجنـوية » Annales genoises خاصة واقعة حدثت مع ذلك بعيدا عن مصر . فقد رأينا أنه فى عـام ١٢٠٤ طرد المغـامر الجنوى المانو دى كوستا Almano de Costa البيزيين من سيراقوسه حيث استقروا بها سادة منذ قليل ، وكان بين أعضاء هذه الحملة قناصل جنويون كانوا قد انهوا مدة توليهم مناصبهم فى الاسكندرية وعادوا الى وطنهم (٢٣٣) .

هذا الأمر يتطلب بعض الايضاح : ذلك أن « المانو » كان قد بارح جزيرة كريت حيث لحق به بعض مواطنيه الذين قدموا من سـوريا والاسكندرية ، وكانوا غالبا قناصل عائدين من المستوطنات ، وتصرفوا بصفتهم ممثلين للسلطات الجنوبية ، فأقاموه فى المدينة التى غزوهـا ، ومنحوه لقب كونت . وتشير عبارات مؤرخ الحوليات الى أنه كان هناك زوجان من القناصل قدما من الاسكندرية ، هما لامبرتس فورناريوس Lambertus Fornarius ، وبلموستوس ليركاريوس Belmustus Lercarius ، ومن جهة أخرى اوجيريوس دى انسوليس Ogerius de Insulis وبلموسـتوس ليركاريوس الصـغير . ترى هل كان هؤلاء القناصل الأربعة يشغلون مناصبهم فى الاسكندرية فى وقت واحد ، ثم عادوا معا الى جنوا ؟

يصـعب أن نسـلم بذلك : فهل كان اثنان منهمـا عـائدين من الاسـكندرية فالتقيـا تحت أسـوار سيراقوسه بالاثنين الآخرين اللذين قدما ليحلا محلهما ؟ قد يبدو هذا أكثر احتمالا ، غير أنه لم يكن من المتبع أن يترك قناصل المستعمرات وظائفهم قبل أن يصـل من يخلفهم . ثم اننا لا نجد البتة فى تاريخ حملة سيراقوسه أن أسطول المانو قد انضم

---

(٢٣٢) Ibid III, 395 et s.

(٢٣٣) Annal. Jan., p. 121 et s.

اليه سفينة قادمة من جنوا • ويحاول السيد كاناليه Canale أن يحل المشكلة (٢٣٤) ، فيفترض أن القنصلين الأولين هما اللذان قدما وحدهما من الاسكندرية ، وأن الاثنين الآخرين قدما من الاسكندرونة ، ومن ثم يجب التسليم باحتمال وجود قناصل غربيين فى الاسكندرونة ، وهو ما يصعب التسليم به ، لأن الغربيين كانوا قد تركوا المدينة فى هذه الفترة• ولكن هاكم شيئا أكثر يقينا : ذلك هو المعاهدة التى عقدها فى عام١٢٠٣ القنصلان لامبرتوفورنارى Lamberto Fornari وبلموستو ليركارى Blemusto Lercari مع أمير أنطاكية (٢٣٥) •

وعلى ذلك لم يأت القنصلان الأولان من الاسكندرية ، ولكنهما أتيا من سورية حيث كانا يؤديان وظيفتهما خلال السنة السابقة • فقط وبزلة قلم من المؤلف أو الناسخ ظهرت كلمة de Alexandria مرتين فى الفقرة ، ومن ثم يجب وضع كلمة de Syria بعد اسمى القنصلين الأولين ، ويبقى من هذا الجدل أن القنصلين القادمين من الاسكندرية هما أوجيريوس دى انسوليس ، وبلموستوس ليركاريوس الصغير •

بقى لنا ، بخلاف ما سبق ذكره ، بضع كلمات نلتقطها من هنا وهناك ، أحيانا بمناسبة سفينة ، وأحيانا بمناسبة سفراء يذكر أحد المؤرخين رحيلهم من جنوا الى الاسكندرية ، دون أن يضيف أى بيان يشفى غليلنا عن هدف البعثة أو نتيجتها (٢٣٦) • فقط فى أواخر القرن

---

(٢٣٤) Nuova istoria di Genova, II, 328.

(٢٣٥) Canale, l.c. II, 310; cf. Olivieri, Carte e Cronache, p. 59.

– يذكر المقريزى فى عام ١٢٨٥ سفيرين من جنوا أحضرا معهما حمولتين من «المسارازيناء (تقليد لأقمشة الشرق) ، وستة سنقرات (طير من فصيلة الصقريات) ، وكلبا كبيرا ، وقد وصلا الى القاهرة ومعهما مبعوثان من رودلف الهابسبورجى ، ومن الامبراطور ألدرونيك السابق ، وكانت مهمتهما بلا شك الايحاء الى السلطان باتخاذ مواقف سلمية ازاء مسيحيى سوريا • انظر :

Karabacek, Une ambassade de Rodolphe de Hapsbourg ēn Egypte
Les Annal Jan., p. 317, 324.

(٢٣٦) Annal Jan., a. a. 1200, 1205, 1231 - 1233, p. 118, 123, 117-181.

فى أول هذه الفقرات فقط ، قيل أن على السفير أن يطلب من السلطان تسليم الأسرى الجنويين ، ولكنه فشل فى هذا الجزء من مهمته ، انظر أيضا المقريزى :

— Makrizi, éd. Guatremère, I ,1 ,p. 91, not 215; 1, 2, p. 127; II, 1, p. 81.
(aux années 1263, 1275, 1285); Canale, l.c., II, 327 et s.

الثالث عشر ، ظهر ضوء آثر وضوحا يكشف النقاب عن علاقات جمهورية جنوا بسلاطين مصر ، وذلك بفضل وثيقة لعام ١٢٩٠ ، هي نص معاهدة صلح وتجارة انعقدت بين الدولتين لوضع حد لمجموعة من الأعمال الثأرية المتبادلة . ففي عام ١٢٨٧ رست في ميناء الاسكندرية سفينة تجارية تحمل شحنة ثمينة ، وتابعة لمؤسسة سبينولينو سبينولا وشركاه الجنوية ، Spinolino Spinola ، فاحتجز السلطان السفينة ، ووضع طاقمها وشحنتها في مكان حريز ، ولم يوافق على اخلاء سبيلها الا نظير فدية كبيرة . ومن جهة أخرى ، حدث في عام ١٢٨٩ ، أن استولى القبطان الجنوي بنديتو زكاريا ، بالاتفاق مع قنصل كافا ، باولينو دوريا Paolino Doria ، بالقرب من ساحل آسيا الصغرى ، حيال كانديلور Candelore على سفينة مصرية محملة بالسكر والفلفل والكتان : وكان هذا انتقاما لسقوط طرابلس في أيدي السلطان في شهر ابريل من السنة نفسها . وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة انزل السلطان الحانق جام غضبه على التجار الجنويين الذين كان يوجد عدد كبير منهم في تلك الآونة في الاسكندرية ، والقى في السجن كل الذين لم يصل الخبر الى مسامعهم فلم يستطيعوا الفرار في الوقت المناسب . وفي هذه الأثناء ، أغار شخص يدعى بيرانجير بانزانو Béranger Panzano (؟) على مدينة تينه Tineh ، وبادرت حكومة جنوا بالتنصل من تصرفات زكاريا وبانزانو ، وأعلنت أنهما ليسا سوى قرصانين رفضا الامتثال لأوامرها ، وجعلا يجوبان البحار على مسئوليتهما . وبعث البرتو سبينولا Alberto Spinota في مهمة لدى السلطان (في ديسمبر ١٢٨٩) ، وأعاد معه ركاب السفينة التي استولى عليها زكاريا وبضائعهم ، أو ثمن هذه البضائع . وبعد أتمام أجراءات التسليم ، أقسم اليمين على أنا قد تم رد الأشياء كلها ، وأبدى رغبته في معاهدة صلح مع السلطان . وتمنع السلطان قلاوون طويلا ، ولكنه كان بعامة لا يريد أن تضيع منه الأرباح التي تجلبهـا للبلد التجارة مع جنوا ، ومن ثم رضـخ في النهاية (٢٣٧) . وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة في ١٣ مايو ١٢٩٠ (٢٣٨) ، وقعها باسم جمهورية جنوا البرتوسبينولا ، وباسم

---

(٢٣٧) Les Annal Jan., p. 317 324.

(٢٣٨) Silvestre de Sacy (Not. et extr, XI, 41-52) et Amari (Atti della Società Ligure, V, 606-614 et suppl.)

ـ نشر الاثنان النصوص العربية ومعها ترجمتها وتفسيراتها . أما النصوص اللاتينية فتوجد في :

= , Liber jurium, II, 243-248.

السلطان وابنه نائب سلطان مصر حسام الدين طورونطاى Hossam eddin-Torontai. (٢٣٩) ، واشترك فيها بمثابة شهود القنصلات الجنويان بونيفاتسيو Bonifazio (؟) ، ورافو Raffo وبعض التجار ، وكبار أعضاء الاكليروس المختارين من بين مسيحيى مصر • واقسم السفير بأنه يضمن أن يخلص المواطنون الجنويون مستقبلا أشخاص وأموال رعايا السلطان فى كل مكان ، وأن يمتنعوا عن الاعتداء على أى منهم بسبب ما يرتكبه الغير من أذى • وأعطى السلطان من ناحيته كل الضمانات الكفيلة بتحقيق الرغبات التى أبداها السفير فى شأن معاملة التجار الجنويين بمصر ، ووضعهم • وبدراسة المعاهدة فيما يتعلق بالجالية الجنوية بالاسكندرية ، نرى أنها لا تحتوى على ضمان صريح لملكية الفندق ، ولكنها تضمر هذا الضمان ، لأنها تنص على المعافاة من الرسوم على الجبن ، وسائر السلع الغذائية الخاصة بسكان الفندق • وتضمن المعاهدة للجنويين ملكية كنيسة نوتردام بشرط ألا يجرى بها أية ترميمات حتى ولو انهارت (٢٤٠) • وكالمعتاد وضعت حدود لسلطة القناصل الجنويين القضائية ، والأمير رئيس الجمرك ، بمعنى أن يرفع المدعى دعواه لقضاة المدعى عليه • ويرخص لكل قنصل جنوى أن يخاطب السلطان مباشرة حين يقدم شكوى باسم أحد مواطنيه ، ويطلب أن يحرسه « قواص » Cawas من لدن الأمير ، أو يحرس من يوفده الى القاهرة لهذا الغرض • وللتجار الجنويين فى الجمرك حق الانتفاع بمخازن موظفو الجمرك ، تحت مسئوليتهم • وثمة مندوب يدفع الجنويون مرتبه يمسك سجلا يدون فيه من جهة مجموع الرسوم التى يدين بها التجار الجنويون الجمرك ، ومن جهة أخرى المبالغ المدين بها الجمرك (كثيرا ما كان التجار يبيعون مباشرة للادارة) • فاذا كان أحد الرعايا الجنويين مدينا للجمرك عند رحيله ، فعلى الجمرك أن يقبل اما كفالة المندوب

= ـ نجد مقتطفات من هذه المعاهدة فى :

— Serra, Storia dell' antica Liguria e di : Genova, IV, 162 et ss., et dans Depping, Hist du commerce entre le Levant et l'Europe, II, 119-123; Canale, Nuova istoria di Genova, III, 184-190

ـ أخطأ Depping اذ تحدث عن معاهدتين أبرمت احداهما مع المنصور ، والأخرى مع قلاوون ، لأن المنصور وقلاوون هما شخص واحد •

(٢٣٩) شغل هذا المنصب من ١٢٧٩ الى ١٢٩٠ ، المقريزى ، الجزء الثانى ، (١) ، ص ٦ ، ١١٠ ، ١١٣ •

(٢٤٠) استخدم فى هذه النقطة ، بالاتفاق مع سلفستر دى ساكى Silvestre de Sacy كلمة «nec» بدلا من «nisi» si dirruerit

الجنوى ، واما كفالة مواطن مسلم مدين للجنوى المسافر . وتضمن الإدارة سداد الثمن فى حالة أى بيع يجريه جنوى لمسلم ، اذا تم البيع حسب القانون وأمام شهود ، بمعرفة أحد السماسرة أو التراجمة التابعين للجمرك . ولا يجوز اجبار أى جنوى على أن يبيع سلعته ، فله دائما الحق فى العودة بلا مصاريف بسلعة لم تبع ، كذلك لا يجوز لأى موظف أو شخصية كبيرة فى البلد أن يجبر أى جنوى على الشراء . وتتضمن المعاهدة مجموعة من المواد المتعلقة بتحديد الرسوم الجمركية التى يختلف سعرها حسب جدول موضوع تبعا لتصنيف البضائع .

أما الفراء الدقيق والأحجار الكريمة فانها معفاة ، وأما الشملات ، والحرير ، والمنسوجات الحريرية ، والأقمشة المعروفة باسم سندال Cendal ، وساميت Samit ، والأقمشة الصوفية المتعددة الألوان، وجوخ ريمس Reims ، والخيوط الذهبية ، وخشب البناء ، فانها تدفع ١٠٪ ؛ وكل المواد التى توزن فى الجمرك تخضع لرسم قدره ١٢٪ ؛ وبالنسبة للعملات الذهبية والفضية ، والفضة غير المسكوكة ، يزيد الرسم قليلا على ٤٪ ؛ وبالنسبة الى السبائك الذهبية ، يزيد الرسم على ٦٪ (٢٤١) . ويستطيع كل جنوى معه سبائك ذهبية أو فضية أن يسكها لحسابه فى دار سك العملة بالاسكندرية نظير رسم معين ولا تخضع هذه النقود لأى رسم جمركى اذا صدرت من الاسكندرية إلى القاهرة لتستعمل هناك فى سداد أى شيء (٢٤٢) . يدل هذا على أن الجنويين لم يكونوا منعزلين فى الاسكندرية ، بل كانوا منتشرين داخل القطر ، ولكن تجتذبهم العاصمة بطبيعة الحال أكثر مما تجتذبهم سائر الأماكن . ويتبين من مقدمة المعاهدة أن كل الأقاليم الخاضعة لسيادة السلطان كانت مفتوحة لهم . وتنص فقرة أخرى على حالة وفاة جنوى فى ناحية لا يوجد بها قنصل من وطنه ، أو حتى أى واحد من مواطنيه ففى هذه الحالة تضع السلطات المصرية أمواله تحت الحراسة حتى يصدر بشأنها قرار من حكومة جنوا .

لم نتحدث الى الآن الا عن وضع الثلاث مدن الايطالية التجار الرئيسية فى مصر ، ولكنها لم تكن الوحيدة التى تستغل أرضا مثمر كأرض مصر . ورغم ما كانت تبذله البندقية من جهود لسد الطرق ف

---

(٢٤١) كان المبلغ الذى يتعين دفعه ، حسب الحالة من ٤ الى ٦ دنانير بيزنطية بالاضـ الى عملة صغيرة ، انظر : zano, p. 111, 113

(٢٤٢) f et Thom., II, 489,

وجه سائر مدن البحر الأدرياتى ، فانها لم تستطع منع راجوزا وانكونا من ارسال سفنها الى مصر . وثمة معاهدات ثلاث ، متماثلة تقريبا ، أبرمت بين راجوزا والبندقية خلال السنوات ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ يمكن أن تزودنا بلمحة عن البلاد التى كانت تتردد عليها آنئذ سفن راجوزا : فالى جانب أسماء رومانيا ، وبلاد البربر ، وتونس ، وسورية ، نقرأ اسم مصر (٢٤٣) . فكانت سفن اجوزا تجلب الى البندقية منتجات هذه البلاد ، وكان الغرض من المعاهدات المشار اليها تحديد الرسوم التى يتعين تحصيلها عن هذه المنتجات . وقد يواجهنا البعض بوثائق يتعهد فيهـا بعض مواطنى راجوزا لدوج البندقيـة بألا يذهبوا الى مصر (٢٤٤) ، ولكن لا مجال للخطأ فى هذا الشأن ، فهذه الوثائق يرجع تاريخها الى السنوات التى سبقت حملة فوردريك الثانى الصليبية ، أى الى عصر كان فيه السفر الى مصر محظورا على مواطنى البندقية أنفسهم . وعلى الشاطىء الايطالى للبحر الأدرياتى كانت أنكونا وقتئذ فى أوج ازدهارها ، وقد رأينـا قبلا أن أفراد الطبقة البورجوازية بها كانت لهم علاقات بسورية ، وكان لهم بها منشآت ، كما كانوا يتاجرون مع مصر . وحين وصف بونكومبانى Boncompagni حصار كريستيان Christian رئيس أساقفة ماينس Mayence (٢٤٥) للمدينـة فى عام ١١٧٤ ، أحصى المدافعين عن المدينة ، وذكر أن عددا كبيرا من البورجوازيين كانوا غائبين عنهـا ، اذ كانوا يزاولون أعمالهم التجارية فى الاسـكندرية والقسطنطينية ، أو فى أماكن أخرى من الامبراطورية البيزنطية . ومن الراجح أن يكون هناك معاهدات بين أنكونا وسلاطين مصر ، اذ يبدو أن البابا جريجورى العاشر قد أشار اليها فى خطاب وجهه الى السلطان فى عام ١٢٣١ للتوسط فى صالح تجار تلك المدينة : فهؤلاء البؤساء قد ألقى بهم فى سجون الاسكندرية وجردوا من كل ما يملكون . ويقول البابا ان للأنكونيين الحق فى الاعتماد على حماية السلطان (٢٤٦) .

فاذا انتقلنا من أنكونا ، واتجهنا الى الجنوب ، صادفنا على طول الساحل مجموعة من الموانى التى كان موقعها ملائما بنوع خاص للتجارة

---

(٢٤٣) Taf. et Thom., II, 311, 332, 468; Monum. spect. hist. slav. merid I, 48, 55, 94 et s. ; l'Archiv. stor. it. App. IX, p. 386.

(٢٤٤) Monum. Slav. merid., I, 33 ; III. 392.

(٢٤٥) Muratori, SS. VI, 930.

(٢٤٦) Raynald, Annal. eccl. a. a. 1231, no. 56.

مع مصر . كان فى بارلتا Barletta ، وترانى Trani ، وبارى Bari جماعات من أصحاب السفن ومجهزيها ، لا يكتفون بنقل الحجاج والصليبيين ، ولكنهم يزاولون أيضا نقل البضائع . ويستفيدون من الصلات الطيبة التى تربط فردريك الثانى بالسلطان فى مضاعفة رحلاتهم الى مصر . والى هذا العصر تنتمى وصية مواطن من ترانى كان يعيش كما يبدو فى برنديزى : ففى هذه الوصية : يتصرف المواطن فى مبلغ من المال وبضائع عهد بها الى سفينة مبحرة الى الاسكندرية (١٢٢٧) (٢٤٧) . والأمثلة لدينا كثيرة من هذا النوع ، لولا ندرة الوثائق الصادرة من الأفراد . ولم يترتب على وفاة كل من فردريك الثانى وما نفرد قطع الصلات بين جنوب ايطاليا ومصر . واذا كان شارل دوق أنجو قد عمل على النقيض من الأمراء الألمان ، فانه فى هذه النقطة كان حكيما اذ اقتدى بهم ، فسعى الى كسب صداقة سلطان مصر ، ولم يفته أن ينص لصالح رعاياه على استمرار المزايا التى كانوا يتمتعون بها فى عهد فردريك (٢٤٨) .

كانت الظروف المواتية لبحارة ايطاليا مواتية بالمثل لبحارة صقلية (٢٤٩) ، ويبدو أن بحارة مسينا قد استفادوا من هذه الظروف بنوع خاص ، وهذا أمر طبيعى ، نظرا لموقع هذه المدينة على طريق مصر المباشر . كان هذا أيضا فرصة طيبة لسكان سالرنو وأمالفى ، اذ كانت صلاتهما بمصر قديمة العهد ، وحافظت أمالفى على هذه الصلات بقدر ما سمحت لها قواها التى ضعفت كثيرا من قبل (٢٥٠)

لقد أحصينا بالكامل تقريبا كل المدن الايطالية التى كان لها علاقات تجارية مع مصر ، على الأقل تلك التى يوجد بشأنها دلائل ثابتة . أو

---

(٢٤٧) Davanzati, Sulla seconda moglie di Manfredi, p. xciv et ss.

(٢٤٨) Michaud-Reinand, Bibliothèque des croisades, IV, 482 et s., 516; Wilken, Gesch. der Kreuzz., VII, 420 et s., 528; Del Giudice, Cod dipl. angiov., p. 222 et s., not. (Chartes de 1269 et 1271); Minieri Ricci, Il regno di Carlo I d'Angio negli anni 1271e 1272, p. 13 15, 75.

(٢٤٩) أشار اليهم بنيامين دى توديل وهم Benjamin de Tudèle يترددون على سوق الاسكندرية فى عصر السيادة النورماندية .

(٢٥٠) وجد أيضا فى عام ١٢٥٩ عقد مبرم بين أمالفى واحد سكان رافيللو Ravello ، وهى ناحية تقع على مرتفع يشرف على مدينة أمالفى ، موضوعه رحلة تجارية مشتركة ، الى الاسكندرية او عكا : انظر :

Camera, Men di Amalfi, I, 435.
Méry et Guindon, I, 329, 333; II, 205 et ss.

احتمالات كبيرة . ولننتقل الآن الى فرنسا : هنا نجد أولا مرسيليا ، فعلاقاتها مع مصر ترجع الى زمن موغل فى القدم . وتعرض علينا قوانين بلدية مرسيليا فى القرن الثالث عشر تجارتها مع مصر فى أوج نشاطها ، ونجد بها ذكرا كثيرا لبضائع يستوردها من الاسكندرية الى مرسيليا تجار وطنيون وأجانب ، وتنبئنا فضلا عن ذلك أن المرسيليين كانوا أثناء رحلاتهم ، أو اقامتهم فى الاسكندرية خاضعين لسلطة قناصل وطنهم (٢٥١) . وفى عام ١٢٧٢ وقع حادث كاد يوقف فجأة هذه الحركة التجارية : فقد استولت سفن مرسيلية على سفينة لمسلمين كانت عائدة من القرم وبها سفراء من التتار الى بلاط السلطان بيبرس ، وأسرت السفراء ، ومضت بهم مع باقى طاقم السفينة الى عكا . وفى الحال طالب السلطان باطلاق سراح الأسرى ، والا حظر مزاولة تجارة مرسيليا فى أمبراطوريته . وأثمر التهديد ، فقد أطلق سراح السفراء ، وبقى المرسيليون أحرارا يتابعون مشاريعهم التجارية فى مصر (٢٥٢) .

وكان لمونبلييه أيضا مستوطنتها التجارية بالاسكندرية قبل منتصف القرن الثالث عشر . **وفى هذه الفترة كان ملوك اراجون سادة مونبلييه** ، ولا بد أن أفراد الجالية بالاسكندرية كان يقرون لهؤلاء الملوك بحقوق السيادة أسوة بمواطنيهم فى فرنسا . ومع ذلك لم تكن الحال دائما على هذا المنوال : فلأسباب نجهلها طالب أفراد الجالية بالتخلص من روابط الطاعة التى تربطهم بهؤلاء الملوك : حدث ذلك وقت اقامة ريمون دوكونشى Raimond de Conchis بمصر . على أننا نجد ريمون هذا مكلفا بمهمة فى قبرص وطرابلس (٢٥٣) ، عامى ١٢٣٦ ، ١٢٤٣ ، ومن المحتمل أن تكون فترة اقامته فى مصر قد سبقت أو أعقبت بقليل احدى هذه المهام ، وأنه هو الذى أخطر عند عودته بمطالب أفراد الجالية . وعلى أية حال ، صرح الملك جيمس الأول Jayme 1er بمرسوم خاص لعام ١٢٦٤ بعدوله عن توقيع العقاب على هذا التمرد(٢٥٤)

---

(٢٥١) انظر أيضا العقد المبرم فى عام ١٢١٩ بين مدينة مرسيليا والكونت هوج دى امبورياس . Hugues de Empurias
— Papon, Hist de la Provence, II. preuves ,no XLI :

(٢٥٢) Michaud-Reinaud, Biblioth. des crois., IV, 530 et s. ; Witken, Gesch. d. Kreuzz., VII, 608 et s.

(٢٥٣) Méry et Guindon, I, 419 et s. ; Germain, Hist. de la ommune de montpellier, III, 513.

(٢٥٤) Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 253.

والثابت أن حركة التمرد هذه كانت وقتية ، وكان القناصل الاستعماريون يتولون مهام مناصبهم باسم الملك ، وتعينهم السلطة الملكية . وفى عام ١٢٦٧ أوفد جيمس الأول الى الاسكندرية مع سفينة تجارية اثنين من برجوازى مونبلييه برنار دو مولندنيس Bernard de Molendinis (أومولينس) ، وبرنار دوبلانو Bernard de Plano مزودين بسلطات مطلقة . ولم يكن رعايا الملك الذين ركبوا السفينة نفسها خاضعين لسلطة هذين البورجوازيين وقضائهما أثناء رحلة السفينة ذهابا وعودة فحسب ، ولكن صدر الأمر أيضا لكل التجار الذين ينتمون بأصلهم الى أقاليم تابعة للأسرة الحاكمة فى أراجون ، الموجودين بالاسكندرية ، أن يخضعوا لسلطتهما الادارية والقضائية . ورخص للمفوضين بمباشرة تأجير الفندق ، وكلفا بأن يقيما فى المستوطنة قبل عودتهما قنصلا أو أكثر ، يتولى باسم الملك القضاء المدنى والجنائى (٢٥٥) . ويبدو أن أهالى مونبلييه المقيمين بالاسكندرية لم يكن لهم قنصلية وفندق ، على الأقل طالما كان وطنهم الأصلى خاضعا لتاج أراجون ، ولكنهم كانوا يتقاسمون القنصلية والفندق مع التجار الذين ينتمون الى الأقاليم الاسبانية التابعة لهذا التاج ، وكان رؤساء المستوطنة ينتخبون بالتناوب فى كل من الجنسيتين اللتين تتكون منهما .

واذا كانت التجارة مع مصر مباحة بوجه عام لرعايا ملك أراجون ، فانه كان محظورا عليهم أن يبيعوا للمسلمين موادا لبناء السفن ، أو سفنا مبنية . كانت هذه التجارة موضوعا لانذار رسمى وجهه البابا جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٢ الى بورجوازى مونبلييه ، وسبق لنا أن تكلمنا عنه . وفى السنة السابقة وجه انذارا مماثلا على وجه التقريب الى بورجوازى ناربون (٢٥٦) ، ويدل هذا على أن ناربون كانت تقيم هى أيضا صلات مع مصر فى عصر الحروب الصليبية . ويشهد جغرافى عربى معاصر (٢٥٧) بأنه كان يوجد حركة تجارية بين انجلترا والاسكندرية عن طريق ناربون . كيفية ذلك أن اكويتانيا l'Aquitaine كانت وقتئذ خاضعة للانجليز ، وكانت انجلترا ترسل الى بوردو عن طريق البحر

---

(٢٥٥) Company, Memorias sobre la marina de Barcelona, IV, 6.
— ونجد بعد ذلك ، فى صفحة ٧ أمرا بصرف مبلغ الى هذين الشخصين .

(٢٥٦) Port, Histoire du commerce maritime de Narbonne, p. 128-129; Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 266 et ss.

(٢٥٧) Ibn-Saïd (mort en 1274), cité par Aboulféda, Géogr, trad. Reinaud, II, 307.

شحنات من القصدير والنحاس ، وتصعد هذه المواد (فى مراكب) نهر الجارون حتى تولوز ، ومنها تنقل على ظهور الدواب حتى ناربون ، ثم تحمل على متن سفن « افرنجية » تمضى بها الى الاسكندرية ، وتنتمى هذه السفن الافرنجية طبعا الى الأسطول الناربونى (٢٥٨) ٠

وختاما ، نضيف أن بنيامين دى توديل يذكر من بين التجار الذين يقول انه رآهم فى الاسكندرية تجار أراجون ، والحقيقة أن من أراد أن يذكرهم هم تجار قطالونيا التى انضمت الى أراجون منذ عام ١١٣٧ ، وبخاصة عاصمتها برشلونة ٠ كان هؤلاء التجار القطالونيون يقومون معظم الوقت بالرحلة الى الاسكندرية على سفن وطنية ، وليس فى ذلك أدنى شك وفيما بعد (١٢٢٧) حظر الملك جيمس الأول شحن البضائع الى الاسكندرية أو سورية فى سفن أجنبية ما دام هناك سفن فى ميناء برشلونة (٢٥٩) ٠ الثابت اذن أن الأسطول التجارى التابع لبرشلونة كان يقوم بصورة معتادة بالرحلة الى مصر (٢٦٠) ويعرفنا بذلك القانون البحرى المعروف باسم Consulado del mar ٠ومن المسلم به أن هذا القانون قد دون بأكمله فى برشلونة ؛ ويفهم من فقرات مختلفة من هذا القانون أن بحارة هذه الأمة التى شرع القانون من أجلها كانوا يعرفون ليس فقط ارمينيا وسورية (عكا) ، ولكن أيضا الاسكندرية (٢٦١) ، لأنهم زاروها ٠

وكانت هذه التجارة تمثل خطرا ، ذلك لأنها تسهم فى تزويد ملوك مصر بالوسائل الكفيلة بدعم قوتهم الحربيـــة ٠ وتداركا لهذا الموقف

---

(٢٥٨) كان بعض تجار ناربون عائدين ان الاسكندرية مع بعض زملائهم ن بيزا ومرسيليا لوقعوا فى أيدى أحد الجنويين (١٢٩١) :
Annal. Jan., p. 341.

(٢٥٩) Company, l.c., III, 11 et 3.

(٢٦٠) أبديت رأيى فى خصوص الامارات الصليبية فى سورية ، أن هناك ما يدعو الى أن ننسب الى التجارة التى كانت قائمة بين سوريا وبرشلونة وجود كميات هائلة من منتجات الشرق فى سوق برشلونة ، أما كابمانى (Campany I, 43 et ss.) فانه ينسبها الى تجارة مصر ٠ وانى أقر ، من جهتى ، أن جزءا كبيرا من التوابل التى تصل الى برشلونة كانت تاتى من هذا الطريق (أى من مصر) ٠

(٢٦١) Consulado del mar, dans Paradessus, Collection des lois maritimes, II, 80, 301.

ـ يدل اسم عكا Acre الموجود هناك (والمعروف أنها دمرت عام ١٢٩١ ـ على أن الفصل المذكور قد حرر فى عصر الحروب الصليبية ٠

أصدر جيمس الأول فى عام ١٢٧٤ مرسوما يحظر تصدير المعادن ، وخشب البناء ، والأسلحة ، والمواد الغذائية الى مصر (٢٦٢) • وكان هذا الاجراء وقائيا فحسب ، ولم يستهدف البتة عرقلة التجارة مع مصر ، وكانت الحركة التجارية مع هذا البلد قد بلغت من قبل درجة كبيرة من التقدم حتى صـارت الاسكندرية من بلدان ما وراء البحار التى توفد اليها برشلونة قنصلا : وبمقتضى تفويض ملكى كان هذا القنصل يعينه مجلس المدينة وحكماؤها ، ويوفد الى الاسكندرية ليتولى شئون الجالية القطالونية بها ، بمساعدة اثنين من المستشارين (٢٦٣) •

والم هـذا الرخاء التجارى النامى بالآراء السياسـية عند ملوك أراجون ، فكان لا بد لهم من العمل على تشجيعه • ولما كان هؤلاء الملوك من أقرباء ملوك أسرة هو هنشتاوفن ، ولهم ما لهؤلاء من صفات ، فانهم اتبعوا سياستهم الودية مع سلاطين مصر • وكان جيمس الأول قد بادل سلطان مصر آيات المودة (٢٦٤) ، وغالبا عن طريق مانفريد من أسرة هوهنشتاوفن ، المتصل بكلا العاهلين • وثمة مسائل تجارية تحتاج الى معالجة ، زودت بطرس الثالث ابن جيمس بفرصـة يجدد فيها توثيق هذه الروابط (٢٦٥) • على أن الأمير الذى قطع شوطا بعيدا فى هـذه السياسة كان **الفونس الثالث ملك اراجون** : فقد أرسل الى القـاهرة بالاتفاق مع أخيه جاك ملك صقلية سفارة مكلفة بعقـد **معاهدة تحالف دفاعى وهجومى مع السلطان قلاوون** ، القصد منها الحصول على امدادات بالرجال ، أو على الأقل معونات مالية (٢٦٦) • وأبرمت المعاهدة فى ٢٥ من ابريل ١٢٩٠ •

---

(٢٦٢) Copmany, II, 36 et s.

(٢٦٣) Chartes de 1266 et 1268, dans Capmany, II, 32-34 ; ibid. II, 366.

(٢٦٤) Michaud — Reinaud, Biblioth des crois, IV, 494, 516; Miedes (De vita et rebus gestis Jacobi I, Valenc. 1582, p. 309 et s.)

— يتحدث Miedes عن اثنين من بورجوازيى برشلونة ، وهما من كبار الرحالة ، على أنهما سفيران للملك •

(٢٦٥) Capmany, I, 2e part., p. 48.

— لسوء الحظ ، لم يذكر كابمانى الوثيقة الخاصة بهذه الواقعة •

(٢٦٦) طالب جاك فعلا بعد سنتين باعانات مالية ، وسوف نعود الى هذه النقطة •

ويخطئ ويلكن Wilken (٢٦٧) حين يتحدث عن هذه المعاهدة على أنها معاهدة تجارية لأن المكانة الأولى فيها بنود ذات أهمية سياسية بحتة ، ومع ذلك فهي تتضمن أيضا بضعة بنود خاصة بالتجارة . من ذلك أنه قد نص فيها على أن تظل رســـوم الدخول والخروج والمرور المستعملة حتى ذاك الحين مطبقة على التجار الذين ينتمون بأصلهم الى أقاليم تابعة لتاج أراجون ، وذلك فى الاسكندرية ودمياط وسائر مدن الحدود المصرية . وبخصوص عمليات البيع والشراء التى تجرى بين هؤلاء التجار والتجار المصريين فى الاقليم المصرى ، تتبع الاجراءات التى تنظمها الشريعة الاسلامية ، وأخيرا تنص المعاهدة على الا يفعل الفونسى شيئا من شأنه أن يمنع رعاياه أو غيرهم من الفرنجة من تصدير الأسلحة والخشب والمواد المماثلة الى مصر (٢٦٨) . ولما كان الفونس قد غير فى هذه الأثناء خطته السياسية كل التغيير ، فان من المشكوك فيه أن يكون قد صدق على هذه الاتفاقية (٢٦٩) .

وبعد ستة شهور ، توفى قلاوون (١٠ نوفمبر ١٢٩٠) وسـط الاستعدادات لحصار عكة ، وأنجز ابنه الملك الأشرف مشروعه هـــذا . **وبهذه الواقعة انتهى عهد الحروب الصليبية** . ولم يبق لنا الا أن نقول بضع كلمات عما فعله السلاطين المماليك للتجارة منـذ ثلاثين سنة فى حكمهم لمصر . كانت طبيعتهم الحرب ، وتستهدف جهودهم اضـعاف الدول الصليبية ، وسحقها ان أمكن . ولما كان من المحتمل أن تهرع جيوش جديدة لنجدة السيادة الافرنجية المترنحة فى سوريا ، كان لا بد من تأمين وحماية بلدهم من هجمات الفرنجة . **واذا كانوا قد وافقوا أحيانا على توثيق علاقات ودية مع بعض أمراء الغرب ، فتلك وسيلة لتحويل جزء من العالم المسيحى عن الحركة الصليبية ، ومن ثم الاخاطة**

---

(٢٦٧) Gesch. der Kreuzz., VII, 713.

(٢٦٨) توجد هذه المعاهدة فى السيرة العربية للسلطان قلاوون ، وكان سلفيستر دوساس أول من ترجمها الى الفرنسية ، ونشرها على حدة :

— (Magasin encyclopédique de millin,
7e année, 1801, II, 145 et ss.)

وهذه الترجمة الفرنسية هى التى نقلها ويلكن الى الالمانية :

(Gesch. der Kreuzz, VII, suppl., 17-39).

— وقد قابل السيد أمارى M. Amari مرارا هذه الترجمات بالأصل ، وانتهى بان قدم بالايطالية الترجمة الصحيحة :

— La guerra del vespro siciliano, 8e édit. Firenze, 1878, II, 332 et ss.

(٢٦٩) — Amari, l.c. I, cxiii, 422.

علما بالموقف السياسى فى أوروبا ، ومشروعات أمرائهـا • ولم تجىء الاعتبارات التجارية الا فى المرتبة الثانية •

وازاء الاجراءات الواجب اتخاذها للدفاع عن مصر ضد الحملات الصليبية ، كان لا بد للمصالح التجارية أن تنزوى • من ذلك أنه لكى يتدارك السلطان بيبرس أخطار غزو يشنه الفرنجة عن طريق مصب النيل ، فانه ضيق فرع دمياط وجعله غير صالح لملاحة السفن الحربية عديدة الطبقات ، ولم يهمه أن يغلق على هذا النحو مدخل النهر فى وجه السفن التجارية الكبيرة • وفى زمن المقريزى ، أى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، كان النهر ولم يزل مسدودا عند هذا الموقع ، وكانت السفن القادمة من عرض البحر تضطر الى تفريغ حمولتهـا فى قوارب • وتأثرت الحركة التجارية فى دمياط بطبيعة الحال ، وكانت قد عانت كثيرا بسبب تحويلها عن المدينة فى عام ١٢٥٠ • وقبلا كان من السهل دخول المدينة من ناحية البحر ، وبذلك استولى عليها الصليبيون مرتين ، وجعلوا منها قاعدة لعملياتهم • ولكى ينزع منهم المسلمون مستقبلا نقطة الارتكاز هذه ، هدموها ، وراحوا يشيدون مدينة دمياط جديدة على ضفاف النيل على بعد فرسخين من المدينة القديمة (٢٧٠) •

ولنعد الى الحديث عن سلاطين المماليك ، فنقول انه ينبغى التحرز من اتهامهم ، واتهام بيبرس بالذات ، وهو أشدهم اقداما فى الحروب ، باللامبالاة المطلقة بالمصالح التجارية • فبيبرس ، على سبيل المثال ، كان يحرص على الاهتمام بالتجار الذين يجوبون البحر الأحمر • ولما نهب أمراء جزر دهلق Dahlak ، وسواكم Souakim أموال التجار الذين ماتوا فى اقاليمهم ، أبدى استيـاءه منهم على لسـان مبعوث خاص (٢٧١) ، وألغى الضرائب على المبيعات ، وكانت عبئا ثقيلا على سكان الاسكندرية ، وبذلك يسر المبادلات التجارية (٢٧٢) • وما قلناه عن بيبرس يسرى بالأولى على قلاوون الذى تابع بالتأكيد بعين يقظة تقدم الحياة التجارية ، وأبرم مع الجنويين تلك المعاهدة التجارية البارزة بما زودها من تفاصيل ، وبما يتجلى بها من تصميم واضح على تحقيق رغبات التجار الأجانب • ويبدو أن هذا السلطان تكفل بأن يجذب الى بلده الأمم

---

(٢٧٠) Makrizi, Hist. des sult maml., I, 1, p; 15; 140, Aboulf. dans le recueil des hist. des crois, p. 130, 768; Michaud — Reinadu, Biblioth. des crois., IV, 481, Annal. Jon., p. 227; Matth. Paris, Hist angl., éd. Madden, III; 113, 321, Wilken, Gesch der Kreuzz. V,I, 186; VII; 258 et s .

(٢٧١) Makrizi, l.c. p. 231.

(٢٧٢) Ibid, p. 221.

التجارية الغربية ، ولكنه لم يهمل مع ذلك الأمم الشرقية . وفى عام ١٢٨٨ أمر وزيره بأن يحرر جوازات سفر كلف بعض التجار المصريين بتوزيعها فى اليمن ، والهند ، والهنـد الصينية ، وحتى فى الصين ليستعملها سكان هذه المناطق الذين يريدون زيارة مصر وسوريا (٢٧٣) . والواضح أنه لا يمكن أن يظهر المرء بكيفية أكثر وضوحا من هـذه الكيفية الرغبة فى اجتذاب تجارة هذه البلاد النائية نحو مصر وسوريا . ولسنا نعلم ما اذا كانت هذه الدعوة قد حظيت بالنجاح المأمول ، ولكن يبدو واضحا أن أمبراطورية سلاطين مصر كانت تمارس على أهالى الشرق جاذبية تسهم فيها اتساعها ، ومواردها الهائلة ، والمجد العسكرى الذى يكلل هامات ملوكها .

نجد مثالا طيبا لذلك فى بعثة أمير سيلان التى وصلت الى مصر فى شهر أبريل عام ١٢٨٣ فقد تلقى هذا الأمير عروضا للتحالف مـع ملك اليمن ، ولكنه فضل أن يتحالف مع قلاوون ، وأن يوثق مع أمبراطوريته علاقات تجارية ، ومن ثم أوفد لهذا الغرض سفيرا . ولما كان أقصر طريق (من سيلان الى مصر) يمر على مرأى من اليمن ، فقد جعل لرحلته طريقا يمر بالخليج الفارسى وبغداد . واذ أراد أن يعطى السلطان فكرة عظيمة عن قوته ، فقـد حمل سفيره رسالة عدد فيهـا بأسلوب رقيق سفنه وأفيـاله ، وحصـونه السبعة والعشرين ، وكنوزه الكثيرة ، ثم عرض ما تنتجه بـلاده بوفرة من لآلىء ، وحجارة كريمة ، وموسلين (نسيج شفاف —) ، وغيره من الأقمشة الرقيقة ، وخشب البقم ، والقرفة ، وأكد أن المصريين سوف يجدون عنده كل السلع التى يستوردونها من بلاد « البنيان » Banians ، أى الهند ، وأبدى رغبته أخيرا فى أن يعين السلطان مندوبا له فى عدن ، وهى المحطة الرئيسية الوسطى بين مصر وسيلان .

ولا شك فى أن هذا الموظف كان فى رأيه حقيقا بأن يشجع حركة التجارة بين البلدين ويحميها فى الوقت نفسه (٢٧٤) . هذه الرسالة تؤيد ما سبق أن قلنـاه وهو أن المصريين كانوا يتلقـــون بوجـه عام منتجات الشرق عن طريق الهنـــود . ولم تتح لنـــا أبحاثنا أن تثبت

---

(٢٧٣) Id. II, 1, p. 97.

(٢٧٤) Guatremère, Mém. géogr. et hist sur l'Egypte, II, 284-286; Makrizi, l.c. II.

ما اذا كانت المنافســة التى مارســتها الهنــد فى مجــال التجارة قــد انتظمت · ما نــود ان نوضــحه هو انه فى عصر الحروب كانت مصر تســتقبل على الدوام تجــارا قادمين من أعمــاق الشرق ، وانهــا كانت ترسل الى هناك دائما تجارا ، ومن ثم لم تكف منتجات الشرق عن التكدس فى أسواقها ، وان تكون موضوعة للمبادلة ·

٢ ـ نمو تجارة الشرق الأدنى
فى أعقاب انفتاح قارة آسيا ·

من أواخر القرن الثالث عشر
الى أواخـر الـرابع عشر ·

(١) المنطقة الأولى

أولا – امبراطورية الروم فى عهد آل باليولوجوس وامارات الفرنجة فى بلاد الروم حتى معاهدة تورين لعام ١٣٨١

يجدر بنا العودة لحظة الى الوراء ، الى العصر الذى طرد فيه الجنويون من عكا ، على أيدى خصومهم · وكان ذلك محنة قاسية مرت بهم : فقد هدمت بيوتهم ، وأسوارهم ، وأبراجهم ، واقتسم الأعداء أموالهم ، ولم يكن فى مقدورهم ، حتى أن يظهروا فى المدينة دون أن يتعرضوا لضروب الذل والهوان · وفشلت كل محاولات الصلح ، فقد رفضها المنتصرون بغطرسة · وطفح الكيل ، وكان لا بد للجنويين من أن ينتهزوا أية فرصة تسنح لهم فى أى مكان لكى يثأروا من البنادقة · وعلى ذلك ، علموا ذات يوم أنه يجرى فى اليونان الاعداد لمشروع اذا نجح سيكون كارثة على أعدائهم : فقد كان ميخائيل باليولوجوس يتأهب للقيام بحملة لطرد اللاتينيين من امبراطورية الروم ، ولم يكن الجنويون يجهلون أنهم اذا تحالفوا مع هذا الأمير ، عدو اللاتينيين فانهم سوف يثيرون سخط الغرب كله ، وبخاصة البابا ، لأن فى ذلك قضاء على مشروعه الأثير ، ألا وهو

احياء الديانة الكاثوليكية الرومانية فى بلاد الروم (١) · غير أن وجود الامبراطورية اللاتينية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتفوق البندقية فى بيزنطة ، فكان فى القضاء على الوحدة نهاية للأخرى · وبالنسبة الى الجنويين الذين طردوا من قلب سوريا ، كانت فكرة طرد البنادقة من قلب « رومانيا » فكرة مغرية ، فلم يكن الخوف من الحرمان الذى توقعه الكنيسة قويا بدرجة تمنعهم من تنفيذ الفكرة · وهكذا ، ففى شهر يناير عام ١٢٦١ (٢) ، ذهب السفيران جوليلمو فيسكونتى Guglielmo Vesconte ، وجوارنيريو جوديتشى Guarnerio Guidice بأمر من مايتنو دى فانو Martino di Fano ، بودستان جنوا ، وجوليلمو بوكانيجرا Guglielmo Boccanegra, Capitano del Popopolo يعرضان على ميخائيل باليولوجوس تحالف الجمهورية معه ضد البندقية · وفى ١٣ من مارس فى العام نفسه ، وقعا معه على معاهدة نيمفيوم Nymphaum (٣) · وهذه واقعة كبيرة الأهمية نلح عليها بالنظر الى نتائجها · فبمقتضى هذه المعاهدة تعهد الجنويون للأمير بمؤازرة كل القوات التى يمكن لحكومتهم اعتدادها ، وبخاصة أسطول برجاله ومعداته ، وتكفل ميخائيل بدفع رواتب الجند ، وتوفير المؤن ، ونعلم السرعة التى تمكن بها من الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة عليها ، فقد تم ذلك بسرعة البرق · وفى الغرب أكد بعض المؤرخين المتأخرين أن الجنويين قد اشتركوا فى هذه الحرب ، غير أنه لم يحدث شىء من هذا · وفى هذا الخصوص ، نؤيد الرأى العكسى الذى أبداه المؤرخ البيزنطى نقفور جريجوراس Nicephore Gregoras (٤) فالواقع أن أسطولا جنويا أقلع

---

(١) أصدر البابا بالفعل قراره بالحرمان ، ولم يرفعه الا فى اليوم الذى اعتزم فيه الجنويون الامتثال لانذاراته ، وارجاع السفن الحربية التى كانوا قد أرسلوها الى القسطنطينية لمساندة ميخائيل باليولوجوس ·

انظر فى ذلك : Posse, Analecta Vaticana, p. 18 et ss. 24, 28.

(٢) من المستحيل الموافقة على تاريخ لاحق ، لأن ماريتنو دى فانو ترك منصب البودستات فى أوائل فبراير ١٢٦١ · انظر :

— Canale, Nuova istoria di Genova, II, 149, not. 664.

ومن الصعب كذلك الموافقة على تاريخ سابق ، لأن المعاهدة لم تبرم الا فى ١٣ مارس ١٢٦١ ·

(٣) نيمفيوم ، ناحية فى اقليم ليديا ، غير بعيدة عن ماجنيسيا وساردس ، وبها قصر وحدائق ، وكان الأباطرة اليونانيون ينزلون بها من حين الى حين ، وبخاصة فى الشتاء والربيع · انظر فى ذلك :

— Georg. Acropol., p. 30, 73, 91, 109, 110, 187; Nicéph. Greg., I, 50, 137, 190; Ducas, 83, 104 etc.

(٤) I, 97 ; éd. Bonn.

تحت امرة مارتينو بوكانيجرا بعد التصديق على المعاهدة مباشرة (٥) . غير أن التصديق لم يتم في جنوا الا يوم ١٠ من يوليه ، وفي يوم ٢٥ استسلمت القسطنطينية : وعلى ذلك يستحيل ماديا وصول التعزيزات الجنوية في الوقت المناسب : ولم يكن ثمة خطأ من جانبهم ، كما اعتقد ميخائيل باليولوجوس بأنه ملتزم بالوفاء بتعهداته . ومع ذلك كان تعاونهم الفعال في انجاح المشروع منصوصا عليه بصراحة ، وبهذا الشرط فقط وعدهم الامبراطور بأن يضيف أملاكا جديدة الى ما كانوا يملكونه قبلا في القسطنطينية : وكانت هذه الأملاك الجديدة الثابتة في المعاهدة هي كنيسة نوتردام التي كانت وقتئذ ملكا للبنادقة ،مع الحوانيت المحيطة بها ، وجبانتها ، والأرض التي تشغلها قلعة البنادقة التي تقرر هدمها . ولم ينفذ الشرط بحذافيره ، ولكن بعد دخول ميخائيل باليولوجوس العاصمة رسميا (١٥ من اغسطس) (٦) ، لم يتمنع في تسليم الجنويين قلعة البنادقة ، وفي الحال بدأ الجنويون في هدمها وسط صيحات الفرح ، وصدح الأبواق ، وأرسلوا حجارة منها الى جنوا حيث عرضت على أنها من غنائم الحرب (٧) . وبالمثل ، حدث منذ بضع سنوات مضت ، بعد تدمير المستوطنة الجنوية في عكا ، اذ أرسل أعداؤهم الى البندقية أحجارا ليبنى بها صرح تذكارى . وفي خارج القسطنطينية ، وعد ميخائيل الجنويين بأن يقيموا في ميناء سمرنه Smyrne (أزمير) ، وتنوه الوثيقة بثراء هذه المدينة ، وجودة مينائها ، كما وعد بأن يمارس الجنويون سلطتهم السياسية كاملة على المدينة وملحقاتها وسكانها ، بشرط أن يعترفوا بحقوق أسقف الروم بها من الوجهة الدينية . ولا شك عندنا في تنفيذ هذا البند من المعاهدة . غير أن سادة أزمير الجدد لم يتمتعوا طويلا بما كسبوا ، اذ حدث بعد زمن قليل أن انتشر الأتراك السلاجقة كموجة عارمة على كل القسم الغربي من آسيا الصغرى . ولم تزل معاهدة نيمفيوم تكفل للجنويين انشاء مستوطنات صغيرة بها قضاء قنصلي وملحقات عادية من كنيسة ، ومخبز ، وحمام ، الخ في المدن الآتية :

---

(٥) Annal Jan., p. 243.

(٦) نجح قائده العام سيزار الكسيوس مليسنوس ستراتيجوبولوس (Georg. Acrop., p. 196) في الاستيلاء على المدينة بغارة مفاجئة (في ٢٥ من يوليه) مستغلا ظرفا مناسبا : اذ كان ماركو جرادينجو ، بودستات البنادقة قد أرسل كل السفن الموجودة في جملة ضد دافنوسيون Daphnousion ومن ثم حرمت القسطنطينية من اقوى مدافعيها . انظر أيضا :
— Sanudo, dans Hopf. Chron. gréc. — rom., p. 114 et s., 172.

(٧) Annal Jan., p. 243.

آنيا Anaa في كاريا Carie تجاه ساموس Samos (٨) وفي غضون العشرين سنة التالية لابرام المعاهدة ، جرى بين السكان الجنويين الجدد بالمدينة ، وبين السكان الروم القدامى بها منافسة بشأن من يجهز سفنا أكثر من الآخر للقيام باعمال القرصنة ضد البنادقة ، ولكن لا شك أن الاثنين أخليا المكان للأتراك قبل عام ١٣٠٠ • (٢) أدراميتيوم Adramyttium : كانت هذه المدينة حتى مستهل القرن التالي في أيدي الجنويين ، ونراها في تلك الآونة تدافع عن نفسها ضد الأتراك بحامية قوية تحت امرة سادة فوجيه Phocee من أسرة زكاريا ، وسوف نتكلم عنهم بعد قليل (٩) • وأخيرا (٣) كاساندريا Cassandria بالقرب من تسالونيك • وخصصت المعاهدة للجنويين محطات تجارية بها قناصل ، في جزر خيوس (١٠) ولسبوس ، وكريت ، ونجربونت • وكان ميخائيل باليولوجوس وقتئذ يأمل في استعادة المدينتين الأخيرتين• ورغم ما ظفر به الجنويون من مكاسب هائلة في الأمبراطورية الرومية التي عادت الى سادتها الأصليين ، فأننا نؤكد أن لا شيء أثار البهجة في نفوسهم مثل رؤيتهم خصمهم الأكبر البندقية وقد طردت من أسواق الروم وبنطس Pont : وفي هذا الخصوص أرضاهم ميخائيل من وجهتين : فقد وعدهم من جهة بألا يمنح حرية التجارة أيا من أعداء جنوا فيما عدا البيزيين ، رعاياه المخلصين (١١) ، والا يسمح ، من جهة أخرى بدخول البحر الأسود لأية سفينة تجارية خلاف السفن الجنوية والبيزية ، والسفن المحملة بنقود ومؤن لحساب الامبراطور • نضيف أخيرا أنه بمقتضى المعاهدة ، يتمتع الجنويون بالاعفاء الكامل من الرسوم الجمركية التي كانوا يدفعونها حتى تلك الآونة •

هذه هي النقاط الرئيسية في معاهدة نيمفيوم (١٢) التي يكفل تنفيذها للجنويين في الأرخبيل والبسفور ، والبحر الأسود تفوقا يعادل التفوق الذي تمتع به البنادقة طوال ستين عاما في عهد الأباطرة اللاتينيين • على أن ميخائيل باليولوجوس لم يكن بالمرة مستعدا لمحاباتهم وحدهم دون غيرهم ، بل انه على العكس من ذلك بذل كل ما في وسعه

---

(٨) Taf. et Thom., III, 71, 161, et s.

(٩) Pachym, II, 558.

(١٠) يقول : Agost. Giustiniani, Foglietta et Bizzaro ان ميخيل باليولوجوس قد أهدى جزيرة خيوس كلها لمدينة جنوا ؛ وهذا خطأ •

(١١) تذكر صيغة التصديق أيضا بيزا ضمن الدول الصديقة التي يجب على الاسطول الجنوي أن يراعيها •

(١٢) Lib. jur., I, 1350 et ss.

لكسب مودة وولاء كل من بقى من الغربيين فى القسطنطينية ، وكان سلوكه فى هذا الصدد تمليه مصلحته الخاصة بطبيعة الحال ، فقد كان يتوقع من يوم لآخر هجوما ينطلق من أى موقع فى الغرب ، وكان من الأهمية الا تقدم هذه الجاليات ، أو بلادها الأصلية على التعاون مع أعدائه . لذلك فانه وعد البنادقة تحت اشراف « البايل » ، والبيزيين تحت سلطة قنصلهم ، مثل ما وعد به الجنويين تحت سلطة « البودستات » بمنح هؤلاء جميعا نفس الحرية فى التصرف ، والاعفاءات ، وأحياء جيدة (١٣) . ومع ذلك فانه لم يكن يثق بالغربيين ، ورغم الأحاديث الطيبة التى كان يتحفهم بها ، فانه أبان عن ريبته هذه بما بذله من اهتمام باجبارهم على السكن منفصلين عن بعضهم بعضا . ومع ذلك كان ارتيابه أقل حدة من ناحية البنادقة والبيزيين الذين قل عددهم كثيرا عن ذى قبل ، منه حيال الجنويين الذين أقبلوا فى جموع كبيرة ، فخورين بتفوقهم الجديد ، فكانوا من ثمة على استعداد لاساءة استخدام هذا التفوق (١٤) .

ومن بين الدول التى انتزع منها انتصار ميخائيـل باليولوجوس السيادة على « رومانيا » ، كانت البندقية أول دولة بدأت النضال ، على الأقل لانقاذ ما تبقى من أملاكها المباشرة وغير المباشرة (١٥) . ولم تكن القوات الرومية والجنوية المشتركة فى حالة تسمح لها بمقاومة الأساطيل التى أرسلتها البندقية الى الأرخبيل ، وانهزمت فى المعركة التى نشبت

---

(١٣) تدعو عبارات باشيميرس Pachymérès I, 168 الى الظن بأن ميخائيل ، حين وافق على ترك البنادقة والبيزيين بالمدينة ، فانه عين لهم مع ذلك أحياء جديدة بحيث لم يعودوا جيرانا كما كانوا من قبل . غير أن الظاهر يدل على أن الأمتين احتفظتا بوجه عام بأحيائهما القديمة . انظر :

— Paspati, dans l'Annuaire du Syllogos, VII, 104, 106, 107.

وكان وضع هذه الأحياء يوافق تماما آراء الامبراطور ، ذلك لأنها كما رأينا من قبل لم تكن متجاورة تماما . ولسنا نرى بوضوح ما اذا كان قد وسع المسافة التى تفصل بينها ، ولا الكيفية التى تصرف بها فى هذا الشأن ، وربما وضع بعض اليونانيين فى المسافة الفاصلة ، بدلا من الأمالفيين الذين لم يكن بوسعهم أن يطالبوا بتخصيص حى لهم . وربما كذلك هـذا القسم من المدينـة قد أصابتـه الحرائق التى دمرت أحياء الفرنجـة وقت الاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٢٦١ ، كما حدث قبلا عام ١٢٠٤ ، ومن ثم وسعت الحدود :

(Pachym. I, 147 ; Georg. Arcrop, 192).

(١٤) هرب الموظفون البنادقة ، وكبار التجار ، ولم يبق سوى صغار التجار وبعض العمال .

(١٥) Pachym., I, 162 et s., 167 ; Niceph. Greg., I, 97:

قبالة جزيرة ستيبوتزى Settepozzi الصغيرة (١٦) . وكان مما يخشى منه أن يمد الامبراطور فتوحاته الى كريت وقبرص (١٧) ، ومن ثم أوقفته هذه الهزيمة عند حده . واذ رأى الامبراطور أن السفن الحربية الجنوية انما تثير القلاقل فى امبراطوريته ، فانـــه اعتزم فى عـام ١٢٦٣ أن يبعدها (١٨) .

وكان الامبراطور غير راض عن حلفائه ، وفى عام ١٢٦٤ أصبح عدم رضائه هذا قطيعة صريحة . واليكم كيف تم هذا : فقد بلغه ذات يوم بطريق غير مباشر أن البودستات الجنوى بالقسطنطينية ، جوليلمو جويرتشيو اتفق مع مانفرد ملك صـــقلية ، ودبر معه مشروعا للاســـتيلاء على القسطنطينية ، واعادة السيادة اللاتينية بهـا . ولم ينكر جويرتشيو المؤامرة . حقا ، كانت المؤامرة من تدبير فرد واحد فى امكانه أن يفعلها دون علم حكومته ، ومع ذلك فان الامبراطور ، بايحاء من ربيبته المسيطرة عليه حيال اللاتينيين ، أمر كل الايطاليين بالخروج من القسطنطينية ، وخصص لسكن الجنويين مدينة بعيدة بعدا كافيا عن العاصمة ، وهى مدينة هيرقلة Heraclee (Erekli) الواقعة على بحر مرمرة بين سلمبريا Selymbria ، ورودستو Rodosto (١٩) . وعبثا أبعدت حكومة جنوا جويرتشيو ، وعبثا طالب سفراؤها بتنفيذ المعـاهدة التى تضمن لمواطنيهم الانتفاع بحى كبير فى القسطنطينية تحت ادارة بودستاتهم ، وعبثا طلبوا على الأقل التصريح لهم بالعودة الى بيرية Péra (مينــاء أثينا) : فقد أصر الامبراطور على ما أمر به (٢٠) .

وبينما جعل الامبراطور الجنويين يشعرون بوطأة غضبه ، فانه من جهة أخرى أجرى مفاوضات مع البندقية عن طريق أسير بندقى ، وكان بذلك يريد أن يرى ما اذا كان أكثر توفيقا مع أعدائه القدامى منه مع حلفائه القدامى . واستجاب الدوج رانييرو زينو لعروضه فى شهر مارس

---

(١٦) نجد اسم هذه الجزيرة فى :
Mart. de Canale, p. 488 (voy. not., p. 732), :
et par Dandolo, p. 371 à propos de la bataille ; Tof. et Thom., III, 169; Muntaner, trad. Lanz, II, 180; la note de l'Atlante Luxoro, dans les Atti della Soc. Lig., V, 97.

(١٧) Taf. et Thom., III, 57; Mas-Latrie, Hist de Chypre, I, 392; II, 69; III, 653 et ss.

(١٨) Annal. Jan., p. 245 et s.; M. da Canale, p. 496.

(١٩) Annal. Jan., p. 249 ; Pachym. I, 168.

(٢٠) Annal. Jan., l.c.

١٢٦٥ ، فاوفد سفيرين ، جاكوبو داندولو ، وجاكوبو موروسينى مزودين بسلطات مطلقة بقصد عقد معاهدة . وفى ٨ من يونيه ١٢٦٥ وعد الأمبراطور أول كل شيء أن يمنح مقاطعة البندقية الحيازة الآمنة لمدينتى كورون Coron ، ومودون Modon وجزيرة كريت ، والقسم من جزيرة نجربونت الذى كانت تحتله ، والا يتعرض للنبلاء البنادقة الذين اقتطعوا لأنفسهم امارات فى جزر الأرخبيل . وثانيا أن يضع تحت تصرف البنادقة فى القسطنطينية وتسالونيك ومدن أخرى أماكن كافية يقيمون فيها منشئات تجارية يديرها موظفون تابعون لهم (٢١) . وكان المتفق عليه طرد الجنويين من أراضى الأمبراطورية ، فإذا صاروا من ثمة أعداء ، فان البنادقة يضمون قواتهم الى قوات اليونانيين للتصدى لهم . وهكذا دلت هذه المعاهدة على تطور تام فى سياسة الأمبراطورية حيال البندقية . وكان الأمبراطور خليقا بأن يتوقع على الأقل رفض الدوج التصديق على المعاهدة . ومع ذلك ، وبعد التفكير فى كل شيء ، يتبين لنا مدى الصعوبات التى تعترض الدوج فى اتخاذ قرار فى هذا الصدد ، فلم تزل هناك أقسام حية باقية من الأمبراطورية اللاتينية القديمة ، وهى امارة المورة ، ودوقية أثينا ، واقطاعيات نجربونت ، والكيكلاد الصغيرة ، كما لم يفقد الأمل بعد فى الحصول على معاونة الغرب بقصد تجميع هذه الأجزاء المبعثرة من جديد ، وكان هذا الأمل يبشر البنادقة بمزايا أكبر بكثير مما وعدهم بها الباليولوجوس . ترى هل كان عليهم أن يربطوا الى الأبد سياستهم بسياسة الأمبراطور اليونانى الذى قد تسقطه من فوق عرشه ذات يوم ثورة جديدة ؟ لم يكن الأمر أقل أهمية من هذا ، ولم تكن المسألة مجرد معاهدة مؤقتة . هل كان على البنادقة ، كما اقترح البعض فى المجلس أن يلتزموا الحياد ، حتى لو هاجم الأمبراطور نجربونت وأجبر سادتها على الولاء له بعد أن كانوا على الدوام حلفاء البندقية ؟ هذه الاعتبارات ، وربما أيضا الحاح الدول الصديقة (٢٢) هى التى حملت الدوج على رفض معاهدة الصلح المعروضة عليه وتفضيل معاهدة قصيرة الأمد . وأدرك الأمبراطور أن البندقية تسعى الى كسب الوقت للانقلاب ضده فى الوقت المناسب ، ومن ثم

---

(٢١) لما كان هذا الجزء من المعاهدة لم ينفذ بالمرة ، فانى أعفى نفسى من ذكر الأماكن المشار اليها . وتجد نص هذه الوثيقة باللغات اليونانية واللاتينية والألمانية فى :

— Les Sitzungsberichte der Wiener Akad., philos. hist. Cl., oct. 1850; en grec et en latin dans le Cartulaire véniti, en, III, 62 et ss., publ. par Taf. et Thom. ; en grec seulement dans Miklosich et muller, Acta graca medii aeir, III, 76-84.

(٢٢) Dandolo, p. 573 ; Mart da Canale. p. 582.

أطال أمد المفاوضات ، وفي نهاية ثلاث سنوات ، في عام ١٢٦٨ قبل أن يوقع على معاهدة مؤقتة مدتها خمس سنوات (٢٣) ، تتضمن قسما كبيرا من البنود المنصوص عليها في عام ١٢٦٥ ، ولكنهـا أقل ملاءمة للبندقية من حيث بندين رئيسيين • فأولا ألغى الامبراطور الالتزام الذي كان قـد قبله بطرد الجنويين من القسـطنطينية ، ومن الأمبراطورية بعامة (٢٤) ، واقتصر في هذه المرة — قضاء على جرثومة الاضطرابات الضـارة بالأمبراطورية — على تقرير مبدأ الحظر على الأمتين المتنافستين بحسم خلافاتهما في المضايق التي تربط بحر ايجه بالبحر الأسود ، أو في البحر الأسود نفسه • وثانيا ، رفض أن يعين أماكن يتسنى البنادقة أن يقيموا بها منشئات دائمة ، فقصر امتيازاته على التصريح لهم باستئجار الأماكن التي تبدو لهم مناسبة ، وفقط بعد اتفاق خاص • ولم يظهر أي امبراطور بمثل هذا البخل في منح الامتيازات ، ولابد أن هذا البخل قد بدا قاسيا في أعين البنادقة ، وهم الذين كانوا على مدى ستين عاما يتحدثون بأسلوب السادة في الامبراطورية •

وفي عام ١٢٦٧ ، خيل اليهم أن الأحوال سوف تعود الى ما كانوا يتمنون : ذلك أن بولدوين ، الأمبراطور الذي خلع عن عرشه ، وراح يجوب البلاد ، وجد حليفا قويا في شخص ملك نابولي الطموح ، شارل الأول ، أنجر أنجو • وبمقتضى معاهدة فيتربو Viterbe (٢٥) ، تعهد هـذا الأمير بمحاربة اليونانيين ، واسقاط آل باليولوجوس ، واعـادة الأمبراطورية اللاتينية • وتضمنت المعاهدة بندا خاصا ينص على استرداد البنادقة حقوقهم وأموالهم ، وأدرج هذا البند أيضا في التعليمات التي أصدرهـــا الملك عام ١٢٦٩ الى السفراء الذين كلفهم بعقد حلف مع البندقية (٢٦) • ومع ذلك يبدو أن هذه المفاوضات بقيت قائمـة دون أن تصل الى نتيجة • وفي هذه الأثناء اكتفى الدوج بالمعاهدة المبرمة في السنة السابقة مع ميخائيل باليولوجوس • ولم يمنع هذا شارل أمير أنجو من أن يتقدم بجيوشه ولكنه لم يتجاوز البيلوبونيز حيث أراد أن ينشيء قاعدة قوية لعملياته في المستقبل ، وكان يظن أن أمامه فسحة من الوقت لتجهيز رحلته الكبرى ضد القسطنطينية • وأصيبت هذه الحملة

(٢٣) Taf. et Thom., III, 92-100.

(٢٤) عاد في هذه الآونة فايري مفاوضات مع جنوا : Annal, Jan., p. 262.

(٢٥) Ducange, Hist. de Constantniople. Charles, p. 17-21; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio II, I, 30 et ss.

(٢٦) Del Giudice, l.c., I, 300 et s.

أخيرا بالشلل نتيجة لمناورة بارعة قام بها الأمبراطور : فقد عرف فجأة أن الأمبراطور أعلن خضوعه للكنيسة الكاثوليكية الرومانية (مجمع ليون ١٢٧٤) ، وأن البابا شمله بحمايته • وكان هذا الحدث انقلابا تاما فى الموقف ، وفى هذه الظروف قرر الدوج ، بعد تردد طويل ، أن يقبل عروض ميخائيل باليولوجوس — فلم يكن هناك ما هو أفضل منها — وأن يباشر مفاوضات جديدة بقصد مد فترة الهدنة •

وهكذا استطاع ميخائيل ، بخطة بارعة أن يظفر بانتصار مزدوج ، ويبدد العاصفة التى تجمعت فوق رأسه • وفى الوقت نفسه ابتسم الحظ من جديد لقواته العسكرية : فثمة فارس يدعى ليكاريو Licario من أسرة فيرونية (نسبة الى مدينة فيرونا بايطاليا — المترجم) استقرت فى جزيرة نجربونت ، دخل فى خدمة جيشــه ، فأعاد له فتح جــزيرة نجربونت ، باستثناء العاصــمة ، ومجموعــة من جزر الأرخبيل الصغيرة (١٢٧٦ — ١٢٧٨) • وفقد عدد كبير من أسر البنادقة التى أنشأت لها امارات فى الجزر اليونانية ، فقدت سيادتها فى غضون هذه الحملة ، البعض منها فقدها مؤقتا ، والبعض الآخر فقدها نهائيا • وعادت الى الامبراطورية اليونانية بصفة نهائية جزيرة لمنوس التى كان « الغراندوق » باولو نافيجابوزو Paolo Navigajoso يقتسمهــا مع آل جرادنيجو Gradenigo ، وفوســكارى Foscari ، واقتيــد فيليب جيزى Philippe Ghisi أمير جزر سبوراديس Sparades الشمالية أسيرا الى القسطنطينية • كذلك أعاد ليكاريو غزو قسم كبير من جزر الكيكلاد ، الا أن احتلال اليونان لهذا الجزر لم يدم الا بضع سنوات (٢٧) • واذا كانت هذه الخسائر لم تصب مباشرة الا عائلات قليلة ، فانها كانت مع ذلك عاملا محسوسا فى اضعاف سلطة البندقية فى الأرخبيل : اذ كانت هذه الموانىء أحيانا ملجأ للسفن التجارية الفينيسية من غارات القراصنة ، وأحيانا أخرى كان قراصنة هذه الجزر يجدون فيها ملجأ أمينا ، ونقطة ارتكاز ممتازة ، افتقدوها من ذلك الحين • ومع ذلك بقيت البندقية حبيسة حيادها ، واكتفت بأن تنظم الدفاع عن حيها فى نجربونت تنظيما محكما • ولم يسبب لها هذا السلوك الحكيم أى ضرر ، وقــد نفترض بأنه أكسبها ظروفا أكثر ملاءمة لهــا ، أتاحهــا لهــا ميخائيل—

(٢٧) L'Istoria del regno di Romania, de Sanudo, setrouvée par Hopp et publiée par lui — dans ses Chroniques gréco-romaines, p. 99 et ss ; p. 122-127. ;Pachym., I, 205; Nicéph. Grég., I, 98; Hopf. artciel articles Ghisi et Giustiniani ; Gesch von Andros, et le suppte, dans Griechenland, dans Ersch et Gruber, 1e sect. lxxxv, 304 et ss ; les les Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., 1855, avril, p. 43; 1856, Juillet, p. 225-228.

باليولوجوس فى عام ١٢٧٧ عندما اقتضى الأمر تجديد المعاهدة لسنتين وفى هذه المرة لم يطالبها الأمبراطور بترك سادة نجربونت تحت رحمته، بل سمح لها أن تزودهم بمعونات ضده هو ٠ ومع ابقائه كمبدأ القاعدة العامة التى تقضى بأن يستأجر البنادقة الأماكن اللازمة لمنشئاتهم التجارية ، وضع استثناء من ذلك لأهم مدينتين ، القسطنطينية وتسالونيك : اذ وعد بتخصيص دار فى القسطنطينية لقضاتهم ، ودار فى تسالونيك لقنصلهم ، ثم دار ثانية فى المدينتين لمستشاريهم ، وثالثة لحفظ الأشياء التابعة لدولة فينيسيا ، وخمسة وعشرين منزلا أو أكثر حسب الحاجة لسكنى التجار البنادقة عند قدومهم : فقط لا بد أن تستأجر هذه البيوت كلها لحسابه ، وأضاف الى كل هذه المزايا منح كتينستى سانت ماريا ، وسان مارك فى القسطنطينية ، وكنيسة الأرمن القديمة فى تسالونيك ٠ وحصل البنادقة أخيرا على التصريح الذى رفض منحه لهم فى المعاهدات السابقة ، والخاص بمرور قوافل الحبوب القادمة من البحر الأسود عبر الاقليم اليونانى دون أن تدفع عنها رسوم (٢٨) ٠

وبينما عقدت جمهورية البندقية على هذا النحو هدنة بعد أخرى ، ودائما لفترات قصيرة بحيث تتيح لتجارها الا تنقطع صلتهم تماما بالأمبراطورية اليونانية ، تابع شارل أمير الأنجو مشروعاته الخاصة بالغزو ٠ ففى عام ١٢٨١ ، وقد وجد أخيرا فى مارتن الرابع Martin IV بابا أكثر تقبلا لتلميحاته ، فانه حصل منه على اجازة مطلقة ، ومن ثم شرع للحال فى العمل ، وبدأ بتسليحات ضخمة (٢٩) ٠ وعقد مع البندقية فى ٣ من يوليه ١٢٨١ فى اورفيتو Orvieto معاهدة حددت القيام بالحملة فى شهر أبريل التالى ، هدفها الذى أعلن جهارا اعادة الأمبراطورية اللاتينية ، ورصد التاج للأمير فيليب ابن بولدوين آخر امبراطور توفى عام ١٢٧٣ ، وصهر شارل دوق أنجو ٠ وكان مقدرا أن تسترد البندقية امتيازاتها القديمة ، وأموالها كلها (٣٠) ٠ ولم يكن الوقت قد أتيح للقوات المتحالفة أن تتجمع ، حين تفجرت الثورة المعروفة باسم Vepres siciliennes (صلوات صقلية) فى ٣١ من

---

(٢٨) انظر الأصل اليونانى لهذه المعاهدة فى :

— Miklosich et Muller, Acta et dipl. : graec, III, 94 et ss.; la trad. en latin dans Taf. et Thom., II, 133-149.

(٢٩) Amari, La guerra del vespro siciliano (8e éd., 1876), I, 116-118; Archiv. stor. ital., 4e série, IV, 17, 174 et s.

(٣٠) Taf. et Thom., III, 287 et ss.

مارس ١٢٨٢ ، وهى انطلاقه للمشاعر الوطنية ضد الطاغية الأجنبى • وثارت صقلية بأسرها ، واستدعت لحكمها بطرس الثالث ملك اراجون • ولما كان هذا الأمير زعيما لحزب الجبليين فانه سبق فأعد العدة لمحاربة شارل دوق أنجو ، بالاتفاق ليس فقط مع اخوانه فى الدين والسياسة فى ايطاليا ، ولكن أيضا مع ميخائيل باليولوجوس • وحين مضى الجنوى الافرانكو كاسانو Alafranco Cassano الى القسطنطينية حاملا معه باسم شعب مسينا نبأ هذه الثورة (٣١) ، ابتهج الامبراطور من كل قلبه ، وكان محقا فى ذلك ، لأن شارل دوق أنجو كان على أية حال قد أصبح لا حول له ولا قوة لزمن طويل • أما جمهورية البندقية فلم يكن فى عزمها أن تتحمل وحدها عبء هذه الحرب ، وكانت أيضا مضطرة لتأجيل آمالها ، ووضع سلاحها (٣٢) • وحين توفى ميخائيل باليولوجوس (فى ١١ من ديسمبر ١٢٨٢) ، ترك لابنه أندرونيك الثانى Andronic II الأمبراطورية فى ظروف مواتية •

ولا يسعنا مع ذلك أن نترك ميخائيل باليولوجوس قبل أن نتحدث عن علاقاته مع الجنويين خلال السنوات الأخيرة من حكمه • وقد توقفنا فى اللحظة التى كان فيها غاضبا عليهم ، فطرد الجالية الجنوية الى هيرقلية • ولم يدم هذا الخصام طويلا ، فعندما لحظ أن البنادقة يرفضون باصرار أن يعقدوا معه صلحا دائما ، رجع الى مشاعره السابقة • وكان اول دليل على هذا التحول ايفاده فى عام ١٢٦٧ مفاوضا الى جنوا ، وردت الجمهورية للتو على هذه المبادرة بأن أوفدت سفيرا ، هو فرانتشيسكينو دى كاميللا Francescdino de Camilla (٣٣) • ونحن نجهل تفاصيل المفاوضات التى جرت ، والقرارات التى اتخذت ، ولكن الراجح أنه توجد علاقة مباشرة بينها وبين نقل الجنويين من هيرقلية الى غلطة Galata (٣٤) • حسبما رواه باشيميرس Pachymeres (٣٥) يقول هذا الكاتب ان ميخائيل وجد أنه من الأفضل ، لصالح أمن الدولة أن يكون حى الجنويين فى غلطة ، قبالة القسطنطينية ، وبهذه الكيفية يكون فى استطاعته بالتأكيد مراقبتهم عن كثب ، وكبح ما يقع منهم من

---

(٣١) Amari, l.c., p. 156.

(٣٢) Hopf, art. Griechenland, op. cit., LXXXV, 327.

(٣٣) Annal Jan., p. 262.

(٣٤) السيد باسباتى Paspati يجعل هذه الواقعة فى عام ١٢٦٨ •

(٣٥) Pachym, I, 168.

انحراف فى الوقت المناسب (٣٦) • وزيادة فى الحيطة ، هدم برج غلطة الذى كان لهم بمثابة نقطة ارتكاز فى حالة اندلاع ثورة ، وشتتهم خارج الأســوار فى مجموعة من المنـــازل المصطفة على طول القرن الذهبى (٣٧) • وانا لنجد فى هذه الاجراءات تلك الريبة التى أوحى بها الى الامبراطور ذلك العدد الكبير من الجنويين الموجود هناك وغطرستهم • واذا كانت ريبته من ناحية البنادقة والبيزيين أقل ، فذلك فقط بسبب عددهم الأقل ؛ ومن ثم تركهم داخل المدينة ، ولكنه حرص على عزلهم ، كما هدم بناء محصنا يشرف على السوق من جهة الشاطىء ، ويمكن أن يكون نقطة ارتكاز لهم • ورغم هذا الفرق ، فان وضع الجنويين كان أكثر ملاءمة من عدة وجوه • أولا ، أتاح لهم سكناهم فى ضاحية أن يتوسعوا بسهولة أكثر مما لو كانوا داخل المدينة ،خاصة وأن ميخائيل باليولوجوس قــد جعل داخل الأســوار -كـل الروم اليونانيين الذين كـانوا يقيمون خارجها (٣٨) • ومن جهة أخرى ، لم تكن المسافة بين غلطة والمدينة سوى عقبة خفيفة ، لأن عبور القرن الذهبى لا يستغرق الا بضع دقائق (٣٩) ، كما أن الضاحية كانت على الأقل مماثلة للمدينة من حيث ملاءمتها لرسو السـفن ، اذ كان فى مقدور السـفن الكبيرة الغاطس أن ترســو عند الرصـيف (٤٠) • وعلى ذلك لم يكن لدى الجنويين من البواعث الا مـا يحملهم على الرضا عن المعاملة الشديدة التى عوملوا بها ؛ وبمغادرتهم منفاهم فى هرقليا الى ضاحية غلطة ، كان لهم أن يعتبروا أن الوعود التى تضمنتها معاهدة نيمفيوم قد تحققت ، على الأقل بصورة تقريبية •

وأسهم ايفاد سفارات جنوية جديدة فى عامى ١٢٧٥ ، ١٢٨٠ (٤١) فى تعزيز العلاقات الطيبة بين الجمهورية والامبراطور ميخائيل • ونحن

---

(٣٦) كان عنده بواعث مختلفة لكيلا يتركهم يعودون لشغل حيهم القديم فى داخل القسطنطينية • أولا كان من المتوقع دائما حدوث منازعات بين الجنويين واليونانيين ، وبين الجنويين والبنادقة وكان من الأفضل أن يجرى ذلك بعيدا بقدر المستطاع عن المدينــة ، وثانيا ، كانت الأسوار الجديدة التى أقامها حين كان يتوقع أن يهاجمه شارل دانجو تطوق قسما كبيرا من الحى الجنوى القديم :
(Paspati, op. cit. VII, 107, p. 208 et s.)

(٣٧) Niceph. Grég. II, 841.

(٣٨) Pachym. I, 163.

(٣٩) Pegol., p. 14. Brochart, Advis directif (Coll. de chron. belges : Namur, Hainaut, Luxembourg, IV), p. 272.

(٤٠) Clavijo, p. 70; Brochart l.c. p. 281; Bertrandon de la Broquière, p. 556; Procop., De edific., I, 5.

(٤١) Annal Jan., p. 290.

لا نعرف من هذه العلاقات الا ما تنبئنا به معاهدة تفاوضت الجمهورية فى عقدها (٤٢) ، ومع ذلك فربما هى لا تحيطنا علما الا بنصف ما فيها ، لاننا لا نجد فيهـا الا بيانا بالشروط التى وضعها الامبراطور وقبلهـا السفير ، ولا شىء يتعلق بمطالب الجمهورية ، وتنازلات الامبراطور ، وانما نرى فيها اشارة الى بودستات عينته الجمهورية ليدير شئون مواطنيها فى فى رومانيا (أى فى اقليم الامبراطورية الرومانية) • ولكن ليس ثمة معلومات تشير الى الأماكن التى يسكنها هؤلاء المستوطنون • وتنتمى المسائل التى تعالجها المعاهدة الى مجال قانون الشعوب (أى القانون الدولى) أكثر مما تنتمى الى مجال القانون التجارى • وبالنسبة الى وجهة النظر الأخيرة ، لانتبين الافقرتين : فى احداهما يحتفظ الامبراطور لنفسه بالحق فى أن يحظر على الجنويين تصدير الذهب والفضة والحبوب الرومية المصدر ، أو السلع الغذائية بوجه عام • وعلى أية حال لا يجوز تصدير السـلع الغذائيـة الا الى مواطنيهـم (أى اليونانيين) لا الى أعـداء الامبراطورية • أما الفقرة الثانية فانهـا تلح على ضروب الاحتيال التى يقترفها بعض الجنويين على خزانة الامبراطورية ، بأن يقروا ببضائع يملكها أجانب على أنها بضـائعهم هم حتى تخضع لتفتيش الجمارك ، أو بأن يعقدوا صفقات خفية بقصد التهرب من سداد رسوم الانتاج •

وفى عام ١٢٧٥ ، أى فى السنة التى حررت فيها هذه المعاهدة ، تنازل ميخائيل باليولوجوس لجنوى يدعى مانويل زكاريا Manuele Zaccaria (٤٣) كان يتمتع عنده بحظوة كبيرة عن مدينة فوكايا (٤٤) Phocee ، ويسميها الايطاليون فوجيا Fogia ، وفوليا Foglia, Folia أو حتى فويا Foia (٤٥) ، وتقع عند مدخل خليج سميرن ، على الضفة

---

(٤٢) Sauli. Della colonia dei Genovesi in Galata, II, doc. no. VIII, p. 204-208.

(٤٣) Sanudo, dans Hopf, p. 146 ; Pachym, I, 420; Hopf, art. Guistinioni, dans Ersch et Gruber, sect, 1, vol LXVIII, 310.

من المشكوك فيه أن يكون بنديتو شريكا فى ملكية فوكايا فى حياة اخيه مانويل ، ولكنه كان وريثه المنتظر •

(٤٤) Anne Commène, éd. Bonn., I, 361; Phocia dans Taf. et Thom., I, 118; Ibn-Batouta (II, 314) en fait Foudjeh. Hamilton (Voyage en Asie — Mineure 1 — Fouges

يتحدث هاملتون عن هذه الناحية ويسميها Fouges

(٤٥) l'Altante Luxoro. Atti della soc. lig. V, 95 ; Muntaner (trad. Lanz, II, 170-172).

الشمالية منه بجوار الجبال التى تحتوى على طبقات من الشب الذى بدأ اليونانيون استغلاله من قبل ، وكان بمثابة منجم ذهب لسعيد الحظ الذى يمتلكه . وجمع مانويل زكاريا من تجارة الشب ثروة هائلة (٤٦) . ويبدو أنه لم يكن هناك الا نوع واحد من الشب ينافس شب فوكيا منافسة جدية ، ذلك هو شب البلاد التى تطل على البحر الأسود . كان الشب ذو الجودة الأولى ـ كما يقول بيجولوتى Pegolotti ـ ويأتى من سيرازونت Cerazonte (٤٧) . لذلك ازدرى زكاريا بكل المشاعر الوطنية واستغل ما له من حظوة لدى الامبراطور فى صالحه الشخصى ، وحصل منه على أمر بمنع ما عداه من الجنويين من استيراد الشب من منطقة البحر الأسود . ولم يخرج الجنويون فى غلظة على الاحتجاج على هذا القرار خوفا من زوال حظوتهم لدى الامبراطور . وحدث أن انطلق من مدينة جنوا سفينة نقل كبيرة ، مرت أمام قصر الامبراطور فى القسطنطينية دون أن تؤدى له التحية المعتادة (٤٨) ، ودخلت البحر الأسود ، واستولت على سفينة يونانية تحمل شحنة كبيرة من الشب . ولم يكن من طبيعة ميخائيل باليولوجوس أن يتسامح فى مثل هذا النوع من الاحتجاج ، ومن ثم أطلق فى أعقاب سفينة القرصان هذه أسطولا تمكن من القبض عليها ، وهلك ضباطها بعد أن ذاقوا أقسى أنواع التعذيب (٤٩) . ويصعب التسليم بأن الامبراطور ألغى بنفسه الحظر الذى أثار الكثير من السخط فى جنوا ، بعد أن أبدى عزما قويا فى هذا الصدد . والحقيقة أن هذا الحظر لم يدم زمنا طويلا . ففى معاهدة عام ١٣٠٤ المنعقدة بين الامبراطور أندرونيك الثانى وجنوا نجد الشب ضمن المواد التى يصرح الجنويين باستيرادها بحرية دون أن يدفعوا رسوما عنها ، من البلاد التى تشرف على البحر الأسود ، المستقلة عن الامبراطورية البيزنطية (٥٠).

وفى مناسبة أخرى ، تعرف الجنويون فى غلظة على صلابة ميخائيل: فقد قتل جنوى يونانيا ، ومن ثم حاصر الامبراطور منازلهم بعسكره ، ولم يقبل العفو عنهم الا بعد أن قدموا له اعتذارهم ودفعوا غرامة كبيرة (٥١) .

---

(٤٦) Hopf, art Giustiniani dans Ersch et Gruber, sect. 1, vol. LXVIII, 310.

(٤٧) Chisende ; Pegol., p. 369.

(٤٨) Codin, Curopal., p. 75, éd. Bonn.

(٤٩) Pachym., I, 420-425; Nicéph. Grég., I, 134 et ss.

(٥٠) Lib. Jur., II, 443.

(٥١) Pachym., I, 425 et s.; Nicéph Grég, II, 134.

وكان ميخائيل مضطرا بسبب المصاعب الخارجية للمحافظة على علاقات حسن الجوار معهم • من ذلك أن القسطنطينية كانت لعدة سنين عرضة لهجوم يشنه شارل دوق أنجو ، ولكى ينزع الامبراطور من نفوس مستوطنى غلطة (٥٢) الرغبة فى مشاركة هذا الأمير فى وقت ما ، بذل جهده ليثبت لهم عطفه عليهم ، ويكسب مودتهم (٥٣) • وكان فى الواقع يعرف أنه لا يخشى من جانب هؤلاء المستوطنين شيئا طالما حددوا موقفهم السياسى طبقا لموقف وطنهم الأصلى • وكان ملك نابولى قد أنذر جنوا وسائر الدول بأن يشتركوا معه فى الهجوم على الامبراطورية البيزنطية ، ولكن حكومة جنوا لم تقنع برفض انذاره ، بل بادرت بتحذير الامبراطور من الخطر الذى يتهدده (٥٤) • ومن جهة أخرى كان هناك عدد من الجنويين المقيمين بالامبراطورية اليونانية ، منهم بنديتو زكاريا Benedetto Zaccaria أخو مانويل ، مخلصين لسياسة وطنهم الأصلى . فعملوا على تكوين حلف بين الباليولوجوس وبين بعض الدول الغربية بقصد القيام بعمل مشترك ضد شارل دوق أنجو • وبوساطة جان دى بروتشيدا Jean de Procida من أهالى نابولى ، وهو لاجىء فى بلاط بطرس الأراجونى Pierre h'Aragon أجرى بنديتو مفاوضات لعقد معاهدة يتعهد فيها ميخائيل باليولوجوس بتقديم معونات مالية للملك أراجون اذا هب لمحاربة شارل دوق أنجو (٥٥) • وتكفل بنديتو هذا فى عام ١٢٨٢ بأداء مهمة فى بلاطى أراجون وقشتالة باسم الامبراطور اليونانى ، بقصد توثيق الاتحاد السياسى بين الدولتين بعقد زواج بين ابن ميخائيل وابنة بطرس(٥٦) • ومع أن المعونات لم تدفع بالمرة ، ولم يتم الزواج ، فان ذلك لم يكن من خطأ ارتكبه زكاريا ، اذ اسهم على كل حال اسهاما قويا فى فشل الهجوم الذى أعده شارل دو أنجو • هذا الاهتمام الفعال الذى أبداه بعض الجنويين ذوى الشخصيات البارزة بشئون الامبراطور ، والموقف الودى الذى اتخذته الجالية الجنوية كلها قد اسهما فى أواخر حكم الباليولوجوس الأول فى مزيد من التقارب بين الجنويين واليونانيين •

---

(٥٢) فى هذا العصر كان الجنويون قد استقروا فى غلطة (١٢٦٩) •

(٥٣) Pachym., I, 366.

(٥٤) Annal. Jan., p. 293.

(٥٥) Ptol. Luc., dans Murat ss. XI, 1186 et s. et aprés lui Sanudo. Istoria del regno di Romania, dans Hopf, Chron. Gréco-rom., p. 132 et s.

(٥٦) خطاب من بطرس ال ميخائيل •

Saint-Priest. Hist. de la Conquête de Naples : par Charles d'Anjou, IV, 213 ; Amari, la guerra del vespro siciliano, 8 éd., 299 et s.; p. 305.

ولنلخص فى بضعة سطور نتائج حكم هذا الامبراطور بالنسبة الى لأمم التجارية الغربية · ويدين له الجنويون بأفضال كبيرة : من ذلك أن لقضاء على تفوق البنادقة تفوقا عسفيا ، والغاء الرسوم الجمركية المرهقة أتاحا للتجارة نهضة كبيرة فى المياه البيزنطية والبحر الأسود · ولا يسع الروم أن ينكروا أن الجنويين بعد أن كانوا زمنا طويلا أقل كفاءة من البنادقة فى فنون الملاحة ، وفى الثروة والأبهة ، فانهم بزوا من ذلك الحين منافسيهم فى هذين المجالين(٥٧)·ومن جهة أخرى وجه ميخائيل ضربة شديدة الى رخاء تجارة البنادقة فى الشرق الأدنى · ولما لم يكن البنادقة يريدون أن يتخلوا عن مشروعهم الخاص باحياء الأمبراطورية اللاتينية ، فانهم كانوا يراعون دائما حيال الأمير الذى يعتبرونه مغتصبا للعرش موقفا متحفظا على أقل تقدير ان لم يكن عدائيا فان الامبراطور لم يكن فى وسعه الا أن يبدى من ناحيتهم ارتيابا كبيرا ، وكلما رأى واجبه أن يتنازل لهم عن شيء ، فعل ذلك دائما بيد شحيحة (٥٨) ·

ومع ذلك لا يجوز أن ننسى أن ميخائيل لم يستطع أن يجمع تحت سلطته الا جزءا من أمبراطورية الكومنينوس والأنجيلوس القديمة · والمعروف أن الصرب والبلغار قد انتزعوا قسما من الأقاليم الشمالية ، أما القسم الباقى فقد اقتسمه مع الأمراء الروم من آل انجيلوس الذين حافظوا على استقلالهم فى تساليه وابيروس Epire · وكانت اتيكا Attique وبيوتيا Béotia فى أيدى دوقات من أصل برجندى · وفى جزيرة يوبية Eubée كان يحكم أمراء من سلالة لمباردية · وأخيرا فاذا كانت غزوات الفارس ليكاريو قد أكسبته أرضا فى هذه الجزيرة ، فان نجاحه هذا كان وقتيا · فحتى عام ١٢٧٨ كانت امارة المورة Moree فى أيدى آل فيلهاردوين Villehardouin · وحين أسر ميخائيل باليولوجوس الأمير جويوم (وليم ، غليوم) الثانى ، لم يحصل على فدية أكثر من ثلاثة أمكنة محصنة · وبعد وفاة جويوم ، استولى شارل دوق

---

(٥٧) Pachym., I ,419 et s.

(٥٨) الفرق فى المعاملة بين الجنويين والبنادقة فى حفلات بلاط ميخائيل واضح كل الوضوح · فعندما يستقبل الامبراطور فى حفل رسمى لأول مرة بودستات جنويا ، يؤدى البودستات ركعتين ، ثم يسمح له بتقبيل يد الامبراطور وقدمه ، فى حين لا يؤدى البايل البندقى سوى ركعة واحدة ولا يقبل يد الامبراطور أو قدمه · وفى المقابلات العادية يخلع كل من الاثنين قبعته ، الا أن البودستات الجنوى يؤدى فضلا عن ذلك ركعتين · وعند وصول سفينة جنوية يسمح لبحارتها بان يحيوا الامبراطور بالصيحات : وهذا ما لا يسمح بـه للبنادقة · انظر :

— Codinus Curopal. De offic. palat Cpol. éd. Bonn. p. 75 et s.

أنجو على الامارة . وفى الأرخبيل كان ميخائيل يمتلك الجزء المجاورة لتراقيا وآسيا الصغرى ، بينما بقيت الجزر المجاورة لليونان الأصلية تحت سلطة الأسر الفينيسية التى استولت عليها خـلال الحملة الصليبية الرابعة . وأخيرا ، احتفظت جمهورية فينيسيا (البندقية) بجزيرتى مودون وكورون ، وجزيرة كريت بالاضافة الى مستعمرتها فى نجربونت .

وبالاجمال ، اذا كان من الثابت أنه من الأمتين التجاريتين الكبيرتين فى ايطاليا ، كانت جنوا تتمتع بأكبر قـدر من النفوذ فى البلاد التى يحكمها ميخائيل باليولوجوس ، وذلك اضرارا بمصالح البندقية ، فان الدائرة التى كان يمارس بداخلها هذا التفوق كانت قاصرة على مقدونيا ، وتراقيا ، والشاطىء الغربى من آسيا الصغرى ، مع الجزر التابعة لها . وفى مقابل ذلك كانت هذه الدائرة تضم القسطنطينية ، المدينة العالمية ، والمنفذ الكبير الى البحر الأسود ، وتسالونيك بأسواقها الواسعة ، وجزرا مثل خيوس وزودس .

أما فى اليونان نفسها ، وفى الجزر اليونانية ، فالوضع كان على العكس من ذلك : فهنا ظلت البندقية ، وهى قوية بأملاكها المباشرة وغير المباشرة ، مسيطرة على محطات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى الملاحة التجارية ، والحرب البحرية . هنا كان حكامها فى نجربونت يتصرفـون ببراعة شديدة ، فما لبثت أن مارست ضربا من الحماية على الجزيرة بأسرها (٥٩) . هنا ، منذ عام ١٢٦٢ كان حليفها جويوم الثانى ، أمير المورة ، وعملت بالاتفاق معه على منع تعديات امبراطورية الروم ، على الأقل فى النطاق الذى تسمح به علاقاتهـا المتبـادلة مع ميخائيـل باليولوجوس (٦٠) .

نرى من ذلك أنه كانت هناك منطقتان متميزتان ، المنطقـة الرومية فى شمال الأرخبيل وشرقيه ، والمنطقة الافرنجية غربا وجنوبا ، وبين المنطقتين لم تكن تمر دقيقـة فى سـلام حقيقى طالمـا كان ميخائيـل باليولوجوس حيا يرزق . وليس علينا أن نهتم هنا بالوقائع الحربية التى كانت القارة مسرحا لها ، وقد سبق أن تحدثنا عن الحملة البحرية الكبرى التى قام بها ليكاريو . غير أنه فى الفترات بين هـذه الحـروب الكبيرة ، استمرت حالة حرب صغيرة سببت للتجارة ضررا لم يسبق له مثيل ، وذلك بتشجيعها أعمال القرصنة بصورة هائلة فى المياه الرومية .

(٥٩) Hopf, art. Grichenland, op. cit., LXXXV, 307.

(٦٠) Ibid. p. 284-290.

وقد اكتشف حديثا مصدر قيم لقصة هذه الحرب الصغيرة : ذلك هو المحاضر الرسمية للجنة شكلها عام ١٢٧٨ ثلاثة قضاة الدوج كونتاريني Giac. Contarini للتحقيق فى أعمال النهب والعنف والخسائر التى عانى منها الرعايا البنادقة من جانب الروم وحلفائهم فى غضون السنوات العشر السابقة • وقلما نصادف مثل هذه الأعمال فى تواريخ أكثر قدما • ولابد أن شكاوى الضحايا التى تتلقاها اللجنة ، ويؤيدها شهود أو موظفون كونت ملفا ليضعه بعض السفراء تحت أنظار الامبراطور تأييدا للمطالبة بتعويضات • هذه المحاضر لها أهمية كبرى (٦١) • فالى جانب فقرات تتحدث عن أعمال العنف التى ارتكبها بعض موظفى الجمارك ، أو دلالات السخط التى بدت على بعض تجار الملح أو الحبوب ، فانها لا تعرض الا سلسلة من قصص القسطنطينية • ولا شك أن هؤلاء القراصنة كانوا مدفوعين الى ممارسة مهنتهم هذه على الأقل بكراهية قومية ، الى جانب ولعهم بالنهب والسلب ، ومن ثم راحوا يطاردون سفن البنادقة ، وينهبون ركابها ، ويسيئون أحيانا معاملتهم ، ويجردونهم من كل ما معهم ، فلا يتركون لهم سوى ما عليهم من قمصان • كان أصغر سفينة ذاهبة من نجربونت الى شاطئ تسالية ، أو من اندروس الى نجربونت تتعرض للوقوع فى أيدى هؤلاء القراصنة ، فتترك لهم كل حمولتها ، حتى ولو كانت من الجبن أو الفاصوليا أو السمك • وكانت الرحلات الأطول من هذه تعرض البحار بالطبع لمخاطر أشد • ونقرأ (فى المحاضر المشار اليها) أسماء سفن تجارية كبيرة ، مثل بومبيزا Bombiza ، وزونيللا Zonella ، أسرت فى الأرخبيل أثناء عودتها من سوريا وبها شحنة من القطن (٦٢) • ومن أسماء القراصنة ، نقرأ عددا كبيرا يدل على أنهم من أصل غربى • ومن السهل أن نفهم السبب فى هذا اذا فكرنا فى العناصر الغربية التى اختلطت بالجنسية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، وبعدها أيضا ، وفى عدد الغربيين الذين خدموا فى البحرية الامبراطورية بصفتهم أمراء بحر (اميرالات) أو قباطنة • نذكر كمثل واحد لذلك الجنوى اندريا جافور Andrea Gaffore الذى نقرأ اسمه مرة بصفته قرصانا عاديا ، ثم بصفته قائد أسطول امبراطورى يضم ثمانى عشرة سفينة

(٦١) Taf. et Thom. III, 159-281.

(٦٢) Sanudo, Istoria del regno di Romania, p. 132 ; Taf et Thom., III, 337, 351.

حربية (٦٣) . وفى كل مرة يصادف محرر المحضر واحدا من هـذه الأسماء التى تكشف عن أصل غربى أو تصحبها اشارة الى جنسيتها البيزية أو الجنوية أو غيرهما ، لا يفوته أن يضيف أن الشخص المعنى يعمل فى خـدمة الامبراطور ، أو أنـه يقطن رودس أوتسـالونيك أو آنيا ، الخ ، أو أن سفينة القرصنة التى يقودها جهزت فى ميناء يونانية . هذه الدقة فى البيانات قد روعيت طبعا لاثبات الحق فى القاء المسئولية على الامبراطور عن الأضرار التى سببها القراصنة . ولم يكن الذين من أصـل يونانى بأقل عـددا من الغربيين ، ولم يكن موظفو الامبراطورية يخجلون من حياتهم ، بل ان منهم من كان يفعل أكثر من ذلك ، فيجهزون بأنفسهم السفن لأغراض القرصنة . مثال ذلك حكام تاسوس Thasos واسكوبيلوس Scopelos ، وسيريجو Cérigo ، وبخاصة حاكم رودس ، ويدعى كريفيكيوتيس Krivikiotes ، وكان يحتفظ وقتـا طويلا بالأسرى البنادقة الذين يقعون فى قبضـته ، فيوسعهم ضربا ، ويرغمهم على أداء أشغال شاقة ، كالمجرمين . وبعد الجزر المذكورة بعاليه ، كانت المأوى التى يفضلها القراصنة هى جزر ساموتراس Samothrace وتزيا Zia ، وساموس Samos ، وموانى مالفوازيا Malvoisie (مونمبازيا ، باليونانية ــ المترجم) ، وتسالونيك على الساحل الأوروبى ، وميناء آنيا على الساحل الآسيوى للأرخبيل . ومن تسالونيك كان يوحنا سنسيرازون Jean Senserazon ينطلق مع طاقمه من القراصنة ، كانت آنيا تأوى بحارة يوحنا دى لو كافو Jean de lo Cavo المولود فى نامفيو Namfio . والذى صار فيما بعد ملك هـذه الجزيرة (٦٤) . واسما رئيسى القراصنة هذين هما اللذان يترددان كثيرا ، ولكننا نستطيع أن نذكر قرابة تسعين اسما آخر ، ويتبع اسم كل قرصان منهم قائمة طويلة أو قصيرة بالأعمال الشريرة التى اقترفها ضد البنادقة . وبخلاف هؤلاء القراصنة الذين يخرجون من موانىء اليونان وجزرها ، توجد مجموعة من القراصنة الجنويين الذين يتجولون حـول نجربونت ، فلا يتركـون المستوطنة الفينيسية فى سـلام أو هدوء . وقد لخصت مغامراتهم فى مفكرة حررت بأمر من الولاية (من ١٢٧٣ الى ١٢٧٥) (٦٥) .

---

(٦٣) Hopf, Urkunden und Zusatze zur Geschichte von And-os. (Sitzungsberichte der Wiener Akod., phit. hist. Cl., XXI, 1826), p. 246, et s.

(٦٤) Sanndo dans Hopf, Chron., gréco-Romanes, p. 132 ; Hopf, Veneto - byzant. Annlecten, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad, Phil .hist. Cl., XXXII (1859), p. 500.

(٦٥) Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 310, not 73.

وربما تسنى للجنويين والروم أيضا أن يضعوا قائمة مقابلة بأسماء القراصنة البنادقة أو حلفاء البنادقة . وكان سادة نجربونت ، حلفاء البندقية و « البايل » الفينيسي نفسه (٦٦) يشنون غارات مفاجئة على سواحل الأمبراطورية اليونانية . وتكللت احدى هذه الغارات ضد مدينة آنيا بنجاح باهر ، وأسفرت عن غنائم عظيمة من أحجار كريمة ولآلئ وأشياء ذهبية وفضية ، وعدد كبير من الأسرى . كذلك كانت الجزر الصغيرة في الأرخبيل ، التي يمتلكها سادة من أسر فينيسية تسهم بقراصنتها الأشداء الذين يغامرون بغاراتهم حتى أرمينيا وقبرص وكبتشاك (Scitia) Kiptchak (٦٧) .

هذه الحرب الصغيرة التي يشنها الطرفان دون هوادة ، دمرت البلد وسكانه ماديا ومعنويا . وزاد الطين بلة ثلة من القراصنة المحترفين ، تقاطروا من كل الأنحاء ، واستغلوا الفوضى الشاملة ، فراحوا يقتلون وينهبون بلا تمييز كل ما تصل اليه أيديهم . ومع أنهم كانوا يجدون أماكن يأوون اليها ، وخاصة في نجربونت ، ونوبليا Nauplie فقد كان لهم خصوم يطاردونهم بعزم وهمة . وفي هذه المهمة أبدى الاخوان مانويل ، وبنديتو زكاريا من فوكايا نشاطا عظيما ، ذلك لأنه كان من صالح تجارتهم في الشب تطهير البحار من اللصوص الذين يعيثون فيها فسادا (٦٨) .

وفي وسعنا أن نتصور الخسائر الجسيمة التي كانت تسببها هذه الويلات للتجارة بوجه عام ، وللقسطنطينية والبحر الأسود بوجه خاص ، وكذا لتجارة مصر وأرمينيا وسوريا وقبرص بطريقة غير مباشرة . ولم يكن هذا على ما يبدو سوى بداية حرب عامة نشهد فيها البندقية وهي تحارب الى جانب شارل دوق أنجو ، وجنوا تحارب الى جانب ميخائيل باليولوجوس . وكانت الثورة المسماة في صقلية Vepres Sicilinnes وموت ميخائيل نذيرا بوقوع الكارثة . وفي عهد أندرونيك الثاني مرت فترة تهدئة من الطرفين . فمن جهة ، لم يكن هذا الأمير ذا نزعة قتالية بالمرة ، ومن جهة أخرى ، بقيت الأمم التجارية هادئة في العشر السنوات الأولى من حكمه ، رغم التفاوت في المعاملة بينها في بلاد الروم – وهو السبب الأول في نشوب الحرب بينها . وفي هذا الصدد أتبع الامبراطور

---

(٦٦) Archiv. venet., XX, 81.

(٦٧) Sanudo, dans Hopf, Chron. Gréco-romanes, p. 120, 127, 146 et s.

(٦٨) Ibid. p. 127, 146 et s.

الجديد الطريق الذى اختطه أبوه ، فقد اختص الجنويين بكل أنواع المراعاة مثلما فعل أبوه ، ومن ثم احتفظ هؤلاء ، بفضل هذا الوضع المتميز بتفوقهم فى البسفور • وللأسف تعوزنا الوثائق المتعلقة بهذه الفترة الأولى من حكم اندرونيك ، ومن ثم فليس فى وسعنا أن نعرف بدلائل ثابتة الامتيازات الجديدة التى منحها لهذه الأمة • وليس من شك فى أن السفارة التى أوفدتها جنوا عام ١٢٨٤ قد لقيت ترحيبا طيبا ، لأنها أتت ومعها ماركيزة من آل مونفيرا لتصير زوجة للامبراطور الصغير (٦٩) •
ونعرف أيضـــا سفارة نيكولو دى بالاتزو Nicolo di Palazzo فى عام ١٢٩١ (٧٠) ، غير أن نتائج هاتين السفارتين لم تتضح للأجيال التالية • وبعد مفاوضـــات طويلة استهلهـا فى القسطنطينية انجيلو مارتشيللو Angelo Marcello ، وماركو تزينو Marco Zeno وواصلها فى البندقية رئيس أساقفة لسبوس ، وقسطنطين فوسكامالوس Constantin Foscamalus تم أخيرا فى عام ١٢٨٥ التوقيع على معاهدة الصلح بين أندرونيك والبندقية • أما بنود المعاهدة فليست سوى نسخة من بنود ميثاق عام ١٢٧٧ ، غير أن مدتها المحددة بعشر سنوات تتميز بصورة مفيدة عن الهدنات القصيرة الأمد التى وافق عليها ميخائيـل باليولوجوس • وبهذه المناسبة وافق أندرونيك على أن يدفع تعويضا قدره ٢٤٠٠٠ « هيبربر » عن الأضرار التى سببها قراصنة الروم وحلفاؤهم فى عهد ميخائيل للبنادقة (٧١) ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يتحمل المسئولية عن أعمال القرصنة التى ترتكب فى المستقبل ضدهم فى المياه اليونانية • والواقع أنه باهماله ، ترك البحرية الرومية تضعف حتى أصبح رعاياه عرضة لهجمات القراصنة ، بلا دفاع ، واضطر أن يأمر سكان السواحل بالانســحاب الى الداخل حتى لا يتعرضـوا للسلب والنهب (٧٢) • ويتضح من ذلك أن الأجانب لم يكن فى وسعهم الا الاعتماد على أنفسهم •

ولم تمض عشر سنين على ارتقـاء اندرونيك العرش حتى سقطت عكا فى أيدى سلطان مصر ، وسقط معها كل ما بقى من الدول الصليبية فى سوريا • هذه الكارثة سدت فى الجنوب طريق تجارة الشرق الأدنى ، أو جردتها على الأقل من كل أماكن فى هذه الناحية ، وكانت ضربة شديدة

(٦٩) Annal Jan., p. 311.

(٧٠) Canale, Nuova istoria della republica di Genova, III, 202.

(٧١) Taf. et Thom., III, 322, et ss., 339 et ss.

(٧٢) Pachym., II, 105.

على البنادقة ، خاصة وأن تفوق الجنويين فى الشمال أقام العراقيل فى طريق القسطنطينية والبحر الأسود • وترتب على ذلك تفجر جديد فى الحقد والكراهية بين البنادقة والجنويين (٧٣) ، وأصبحت أرض الأمبراطورية الرومية من جديد مسرحا لأعمال القتل والنهب • وشهد عام ١٢٩٤ بداية حرب طويلة بين القوتين ، وكانت البدايات فى صالح الجنويين ، اذ أوقعوا بأعدائهم هزيمة ساحقة ، فى معركة Lajazzo ، واستولوا عنوة على كانيا بجزيرة كريت ، ودمروا أسطولا تجاريا فى ميناء مودون (٧٤) • ولكن بعد هذه الانتصارات الأولى ، تخلى عنهم الحظ ، وانقلب لصالح البنادقة : فقد التقى أمير البحرية البندقية روجييرو موروسينى Ruggiero Morosini الملقب مالابرانكا Malabranca باسطول صغير للعدو ، فطارده فى البسفور حتى المضيق المعروف باسم هيرون Hieron (٧٥) ، ثم عاد الى غلطة ، ودمر كل ما صادفه فى طريقه (١٢٩٦) • ولم تكن ضاحية غلطة قد اكتمل بناؤها ، ولم تكن لها أسوار (٧٦) ، وكان سكانها من الروم والجنويين قد لجأوا الى القسطنطينية بأسرهم وكل ما استطاعوا حمله ، وانتظروا هناك العدو ، على استعداد لمقاومته • وتأهب سكان القسطنطينية اليونانيون للقتال ، وأغلقوا بواباتهم ، وأقاموا حراسة متينة • واعتقل اندرونيك البنادقة المقيمين بالمدينة ليمنعهم من التواطؤ مع مواطنيهم (٧٧)• واعتبر أعداء الجنويين بمثابة أعدائه • أما البنادقة فقد أصبح من حقه أن يعتبر من أعدائه ، خاصة وأنهم قد خالفوا حكما من أهم أحكام المعاهدة ، ذلك الذى يحظر عليهم وعلى الجنويين أن يسووا خلافاتهم داخل المضايق المؤدية الى القسطنطينية (٧٨) • وبدأ موروسينى باشعال النيران فى البيوت المهجورة بغلطة (٧٩) ، ثم وجه قواته الى القسطنطينية ،

---

(٧٣) Ibid, II, 232 et s.

(٧٤) Dandolo, p. 404 et s.

(٧٥) C'est le Lalgiro de Dandolo, p. 406.

(٧٦) Jacq. de Vorag., dans Murat., SS, IX, 56 ; Nicéph. Grég., I, 134.

(٧٧) ارتكب سكان القسطنطينية من اليونانيين فى هذه المناسبة سرقات من السكان البنادقة ، بلغت قيمتها ٧٠٠٠ هيبربر : ويتبين ذلك ضمن بنود معاهدة الصلح فى ٤ اكتوبر ١٣٠٢ ــ ٧ مارس ١٣٠٣ •

(٧٨) Taf. et Thom., III, 96, 141, 329, 346; Pachym., 11, 239.

(٧٩) هذا الحريق أجبر الجنويين فى بيرا اللاجئين الى القسطنطينية ، أن يطيلوا اقامتهم بها ، ونزلوا فى حى البلاكيرن Blaquernes ، انظر : Paspati, p. 215 ; Atti della soc. X, 498.

ولكنه واجه هناك مقاومة عنيفة ، فرأى من الصواب أن يتقهقر · وفى طريقه استولى بغتة على فوكاية التى كانت وقتئذ تابعة لبنديتو زكاريا المعروف ، أخى مانويل المتوفى عام ١٢٨٨ ، واستولى على المراجل وسائر الأدوات المستعملة فى صنع الشب (٨٠) · وبعد رحيل موروسينى ، وضع أندرونيك تحت الحراسة أموال البنادقة المقيمين بالقسطنطينية ضمانا لسداد مبلغ ٨٠٠٠٠ هيبربر الذى طالب به تعويضا للبيوت التى أحرقت فى غلطة (٨١) · أما الجنويون فانهم أخذوا بثأرهم من المستوطنين البنادقة فى القسطنطينية ، وانتهزوا فرصة نزاع حرب بينهم وبين هؤلاء البنادقة فانقضوا عليهم ، وانتزعوا منهم بالقوة برجا احتموا به ، وألقوا من فوق السطح « بايلهم » (السيد بيمبو (M. Bembo) ، وقتلوا عددا كبيرا من أعيانهم (٨٢) · ونجا سواد الشعب من المذبحة ·

ولكن الاقامة فى القسطنطينية لم تعد فى نظرهم مأمونة ، وفضلوا العودة الى البندقية · وخطر لأندرونيك أنه متهم بالتحريض على هذا التمرد ، ومن ثم بعث بوفد يشرح المسألة فى البندقية · ومع ذلك فالواقع أن هذا العدوان قد تم فى عاصمته ، وتحت أنظاره دون أن يلقى أى عقاب ، ومن ثم كان للجمهورية الحق فى أن تلقى على الأمبراطور تبعة هذه الأحداث · ولما كانت معاهدة عام ١٢٨٥ قد انتهت مدتها ، فانها رفضت تجديدها قبل أن يرد الأمبراطور الأموال التى وضعها تحت الحراسة (٨٣) · وبالاجمال ، ماذا كانت النتيجة التى حصل عليها البنادقة بهجومهم على المستوطنات الجنوية ؟ (٨٤) لقد أنزلوا بخصومهم فى التو واللحظة ضربات شديدة ، ولكنهم لم ينجحوا فى طردهم نهائيا من أى موقع من المواقع التى يحتلونها · أكثر من ذلك أن ما تركوه من خرائب أعيد بناؤه تحت أنظارهم ، وبخاصة غلطة التى أعيد بناؤها فى

---

(٨٠) Jacq. de Verag., l.c.; Dandolo, p. 406.

(٨١) يلاحظ باشيميريس Pachymérès بحق أن الامبراطور ، بتصرفه هذا ، كان يراعى أحكام المعاهدات التى تعطيه الحق فى تعويض الضحايا على حساب المعتدين ·

(٨٢) يذكر الأرمنى حيتوم Héthoum عدد ٥٦ :
— Rec. des hist. descrois; doc. arménien, :.I 490.
ـ أما مكمل جاك دى فوراجين فانه يذكر ٧٠ على الأقل :
— Contin., de Jacq. de Voragine (Atti della Soc. lig., X 499).

(٨٣) Pachymérès, II, 237-244 ; Nicéph. Grég. (207 et s.); Jacques de Voragine et son continuateu ; al charte d'Andronic publiée par Marin, VI, 305 et ss.

(٨٤) بينما هاجم موروسينى غلطة ، استولى سوزانزو بقوة السلاح على كافا واحتلها (١٢٩٦) وسوف نرى ذلك فيما بعد ·

زمن قصير على مساحات أوسع من ذى قبل ، فبدت وكأنها استمدت من كارثتها دافعا قويا . أما بخصوصهم فان الأعمال الثأرية الفظيعة التى ارتكبها الجنويون دمرت مستوطنهم فى القسطنطينية ، كما تكبدوا هزيمة بحرية قبالة جزيرة كورزولا Curzola فى البحر الادرياتى (٧ من سبتمبر ١٢٩٨) (٨٥) . وأخيرا ، وبفضل وساطة ماتيوفيسكونتى matteo Visconte ، سيد ميلانو ، عقدت الجمهوريتان الصلح من جديد عام ١٢٩٩ ، وتنازل كل منهما عن التعويضات التى قد يكون له حق فيها . ولم يكن للامبراطور أى ذكر فى المعاهدة . كذلك قدر فى المعاهدة احتمال استطالة الحرب بينه وبين البندقية ، ذلك لأن الجنويين احتفظوا لأنفسهم ، بمقتضى المعاهدات القديمة ، بالحق فى الاسهام بالدفاع عن كل موقع يهاجمه البنادقة فى بلاد الروم ، دون أن يعتبر هذا التعاون من جانبهم بمثابة انتهاك السلم (٨٦) . فالواقع أن البنادقة لم يكونوا فى هذا الحين قد تفاهموا مع اندرونيك ، وتشبث البنادقة بالمطالبة باستعادة الضمانات التى استولى عليها الأمبراطور ، أو على الأقل انقاص التعويض الذى يطالب به ، وقدموا طلبهم فى عام ١٢٩٩ ، ولكن الأمبراطور لم يرحب بها ، ولم يرد عليها الا باجراءات جديدة ضد المستوطنين البنادقة فى القسطنطينية (٨٧) . ولم يكن فى الامكان انهاء هذا الوضع الا باستخدام القوة : ففى عام ١٣٠١ظهر أسطول بندقى بقيادة بلليتو جوستنيانى Belletto Giustiniani ، وجويدينو موروسينى Guidino Morosini أمام القسطنطينية ، وضرب كل شىء تحت أنظار سكان القصر الأمبراطورى ، وقبض على سكان جزر « الأمراء » المسالمين ، وعذبهم ، وحدث كل ذلك دون أن يجرؤ على الظهور الأسطول اليونانى الذى أصبح عاجزا بصورة مخجلة (٨٨) . وتنازل الأمبراطور أخيرا ، وأعاد الضمانات التى كان قد استولى عليها (٨٩) . وفى ٤ من أكتوبر ١٣٠٢ وقع سفراؤه فى البندقية على معاهدة الصلح . وفى ٧ من مارس

(٨٥) بخصوص هذا التاريخ ، انظر المناقشة التى جرت فى :
M. Yule, M. Polo, 1, plxxv et s.

(٨٦) Lib. jur., II, 344 et ss. ; voy. aussi Mavagero dans murat., ss. XXIII, 1011; Taf. et Thom., III, 391 et s.

(٨٧) Pachym., II, 286 et s.; Dand p. 409.

(٨٨) Pachym., II, 322 et ss. ; Nicéph, Grég., I, 208-210; Dand., l.c. ; Commemoriali della republica di Venezia regesti, 1, 20 (n. 79) et 24 (n. 102).

(٨٩) Pachym., II, 326.

١٣٠٣ صدق الأمبراطور على المعاهدة (٩٠) : فلم يتخل فقط عن المطالبة بتعويضات عن التخريب والدمار الذى أوقعه روجييرو موروسينى فى اقليم الامبراطورية ، ولكنه وعد أيضا بدفع مبالغ كبيرة تعويضا عن الأضرار التى سببها للبنادقة رعايا الأمبراطورية .

وفى غضون الحرب ، احتل البنادقة عددا من الجزر اليونانية (٩١) ، واحتفظوا بجزر تزيا Zia (سيا Cya) ، وسريفوس Sériphos (سارفوس Sarphus) ، وسانتورن (Sancta Erina) Santorin وأموروجوس Amorgos بعبارة أخرى ، اعترف اندرونيك بشرعية سيادة الأسر الفينيسية التى اقتطع لها منذ عام ١٢٩٦ امارات بهذه الجزر ، وهى أسر ميكييلى Michieli ، وجوستينيانى ، وجيزى Ghisi وباروتزى Barozzi (٩٢) . وهناك على العكس من ذلك جزر مثل كوس (Lango) Cos التى غزاها حديثا بلليتو جوستنيانى (٩٣) ، ولم تكن أبدا تابعة للاتينيين ، عادت الى الامبراطور . ومن بين المسائل التى تهم التجارة ، نشير الى الحظر الذى فرض على التجار البنادقة ببيع الملح أو المستكة (صمغ) فى داخل الامبراطورية . وفى هذا الخصوص أبدى الأمبراطور صلابة ، حتى عاد السلام الى نصابه .

ولكن الأمور لم تتغير كثيرا بالنسبة الى البنادقة ، ولم تكن أعمالهم فى الامبراطورية فى حالة ترضيهم ، لذلك لم يكفوا عن تدبير الدسائس والمؤامرات ضد آل باليولوجوس . وفى عام ١٣٠١ تزوج شارل كونت فالوا ، أخو فيليب (الجميل) ملك فرنسا حفيدة الامبراطور السابق بولدوين الثانى ، وادعى أنه اكتسب بهذا النسب حقوقا فى تاج القسطنطينية . وفى اليوم الذى أراد فيه أن يسعى لنيل هذه الحقوق ، وجد جمهورية فينيسيا مستعدة لمعاونته (٩٤) . وفى عام ١٣٠٦ ذهب

---

(٩٠) Taf. et Thom., IV, 12 et ss., 16 et ss ; Le premier livre de Misti v. Archv. Venet., XVIII, 324; XX 293.

(٩١) Navagero, p 1009.

(٩٢) Hopf, art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, p. 303 et s. ; Zusatze zur Gesch, von Andros. Op. Cit., p. 225 et ss; Veneto-byzant. Analekten, Op. cit., p. 237, 454.

(٩٣) Hopf, Giustiniani, op. cit.,

— لنلاحظ تلك الهجمات التى شنها البنادقة على جزيرة كوس Cos فى عامى ١٢٩١ ، ١٢٩٢ (داندولو ، ص ٤٠٣) : وهذى واقعة ذات دلالة كبيرة .

(٩٤) لم يكن فى حاجة الى تشجيع البابا كليمنت الخامس :

=

عميله تيبو دى سيبوى Thibaut de Cépoy الى البندقية مزودا بسلطات مطلقة ، ووضع مع الحكومة برنامج حملة مشتركة تنطلق فى ربيع عام ١٣٠٧ (٩٥) • وفى انتظـار الحملة قام عميلان من البندقيـة ، فيليبو مارشـيانو Filippo Marchiano ، وماتيو بالبو Matteo Balbo بالتفاوض لعقد اتفاق سرى بين شارل وبعض أعيان امبراطورية الروم (٩٦)• وقام أسطول بندقى بمصاحبة تيبو دى سيبوى الى بلاد الروم ، وكان مكلفا بأن يمهد هناك الطرق ، بصفته الوكيل العام لشارل وزوجته (٩٧) • وبنوع خاص أن يضم الى قضية المطالب بالعرش جماعة الجند المرتزقة القطالونية (٩٨) • وذهبت هـذه الجهود سدى : فقد راح شارل دوق أنجو يؤجل رحيله ستة شهور ثم ستة أخرى الى أن تخلى نهائيـا عن المشروع • وفى هذه الأثناء ، عيل صبر الدوج ، وهو ينتظر يوما بعد يوم بدء العمليات ، وكان قد استدعى فى عام ١٣٠٨ التجار البنادقة الموجودين فى الامبراطورية ، وكانت أعمالهم كلها قد أصابها الشلل • ولكن نداءاته كلها ذهبت أدراج الرياح (٩٩) وأخيرا تبين أن الجمهورية قد تسلحت ، وعرضت مصالح تجارتها للضياع (١٠٠) ، وتعرضت هى للمخاطر ، كل ذلك نظير لا شىء • وكان الاصرار الذى تابعت به حلمها باعادة الامبراطورية اللاتينيـة الى العرش ، اصرارا عجيبا لا يصـدقه العقل • وفى عام ١٣٢٠ أجرت مفاوضات لهذا الغرض مع شارل ، صهر الأمير فيليب دوق تارانتو (١٠١) •

= (Comm:m. regesti, I, 56 ; Taf. et Thom., IV, 38; d.d. 15 Janv, 1306)
ـ فضلا عن ذلك ، كان البابا بنوا الحادى عشر قد وجه نداء مشابها لكل المؤمنين :
— Doc. sulle relaz. tosc., p. 112 et s.

(٩٥) — d.d. Paris, 28 juill. 1306 ; Taf. et Thom., IV, 48 et ss.

(٩٦) Ducange, Hist, de Cpel., p. 226 et Chartes, p. 50-53; Buchon, Recherches et matériaux. I, 49-50; Miklosich et Muller Acta groeeica,

(٩٧) نجد هذا اللقب مقرونا باسمه فى ملحوظة على رأس موضوع : M. Polo de Pauthier, p. 2.

(٩٨) Muntaner, trad. Lanz, II, 174 et ss.; Kunstmann, Studien uber Marino Sanudo d. alt, Obh der 3e Cl. der Bayer. Akad., XII 3. p. 775

(٩٩) Taf. et IV, 59 et s., 75-79; Commem., regest,i I, p. 85, no. 361. p. 172 et s., nos 10-15; Mas-Latrie, Coll. des doc. inéd., Mélanges, histor., 2e série, III, 62 et ss. documents extraits des Commemoriali, ou dans les Commem., Reg., I, 173 et s., nos 18-26, 28; p. 222 et s. nos 243, 244.

(١٠٠) Sanudo dans Kunsimann, Op. Cit., et dans Hopf, Chron. gréco roman p. 173 : Romanin Storia di Venezia III, 9 et s.

(١٠١) Taf. et Thom., IV, 170 et s; Coll. des doc. inéd. l.c. p. 72 et s. ; Hopf art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 379, 405.

على أنه في مستهل القرن الرابع عشر ، تعرضت امبراطورية الروم لخطر أفدح كثيرا من المؤامرات التي تحاك في الغرب : ذلك هو الغزو التركي الذي كان يتقدم في آسيا الصغرى بقوة لا تقاوم . ولما يئس أندرونيك من أن يتغلب على هذا العدو بقواته وحدها ، استغاث في عام ١٣٠٣ بقائد المرتزقة روجر دي فلور Roger de Flor وفرقته التي اشتهرت باسم « السرية القطالونية » . هذه الواقعة ليست غريبة بالمرة على تاريخ مستوطناتنا التجارية ، فالواقع أن الجنويين رأوا باستياء شديد وصول هؤلاء المرتزقة ، وأدركوا ، كما يقول رامون مونتانر Ramon Muntaner (١٠٢) انه : « اذا بقيت هذه القوات في البلد ، فانهم - أي الجنويين - سوف يفقدون الوضع القوي المشرف الذي كانوا يتمتعون به حتى ذلك الحين ، لأن الامبراطور لم يكن يجرؤ على فعل أي شيء دون موافقتهم » . واذا كان القطالونيون يتمتعون في الامبراطورية بدور المنقذين ، فانه من الطبيعي أن تغدو أمتهم ، الأمة الأثيرة لدى الامبراطور ، وكان في هذا منافسة تنتهيأ في المضمار التجاري . ألم يمنحهم أندرونيك من قبل (في عام ١٢٩٠) حرية التجارة (١٠٣) ؟

وكان لا بد أن تفضي هذه الحالة النفسية الى الحرب : وهذا ما حدث بالفعل . ولكن الجنويين خسروا هذه الحرب ، اذ راح ضحيتها ثلاثة آلاف قتيل وجريح جنوي ، وكان لا بد من بذل جهود ضخمة لايقاف المرتزقة الذين شرعوا في نهب غلطة (١٠٤) . ولم يكن مناص من اللجوء الى وسيلة أخرى : فاعتبارا من تلك اللحظة ، اهتم مستوطنو غلطة باظهار كل ما يمكن أن يثير ريبة الامبراطور من فرقة المرتزقة ، وكانوا قد علموا باستعدادات شارل دو فالوا ، وكان هذا الأمير قد حصل في عام ١٣٠٢ من فردريك الثاني ملك صقلية على وعد بالمساعدة في الحملة التي اعتزم القيام بها (١٠٥) . وكانت عصبة روجر دي فلور في خدمة ملك صقلية ، ولم تتركه الا حين قدمت الى القسطنطينية في عام ١٣٠٢ . ولم يفت الجنويون أن يصوروها على أنها طليعة متنكرة ، مكلفة بتهيئة الساحة لجيش غاز . والثابت أن هذه الفكرة صحيحة الى حد كبير ، ولكن اندرونيك رفض الاستماع الى تلميحاتهم هذه (١٠٦) ، ويرى فيها

(١٠٢) Trad. Lanz, II, 106.

(١٠٣) Voy. plus loin.
(انظر فيما بعد)

(١٠٤) Muntaner, Op. cit., 107 et s. ; Pachym., II, 398 et s.

(١٠٥) Ducange, Hist de Cple, Chartes, p. 43.

(١٠٦) Buchon, Recherches et matériaux, etc., I, p. 48-50.

مجرد وشـايات (١٠٧) • ومع ذلك فان عجرفة روجر ووقاحته ، هو ورفاقه تجاوزت كل الحدود حتى أحدثت انقلابا فى نفسيته • كان هؤلاء المغامرون يعتبرون رومانيا بلدا مغزوا ، وزودتهم وفاة روجر دى فلور (١٣٠٥) مقتولا بايعاز من الأمـير ميخائيل ابن الامبراطور وشريكه فى الوصاية على العرش بذريعة للتمرد ، ومن حاميتهم فى جاليبولى أوفدوا مندوبين يحملان للأمبراطور تحديا أصوليا • وثمة واقعة تثبت بكيفية واضحة استدامة عداء البندقية لبيزنطة : ذلك أن مندوبى القطالونيين قرأوا رسالتهم على الجالية الفينيسية فى القسطنطينية وسلموها نسخة منها (١٠٨) • وبقى الجنويون مخلصـين لمناهجهم السلوكى ، وكانت مصـــالحهم مختلطة بمصـــالح الامبراطور ، وكان اقصـــاء « السرية » (القطالونية) أو سحقها بالنسبة اليهم مسألة حياة أو موت • ومهما كانت الخلافات والمنازعات التى تنشأ فى تلك الآونة بين اليونانيين وبين « البيروت Perotes ؟ (١٠٩) فانها لم تكن ذات أثر فى هذا الخصوص• فقـد شن أميرال جنوى الحرب على القطالونيين فى بحر مرمرة ، وأسر قائدهم بيرنجر دى انتنسا Berenger de Entenca وأميرال آخر هاجمهم فى عقر دارهم بجاليبولى ، تعاونه فرق يونانية ، ولكنه لقى مقاومة عنيفة واضطر أن يتقهقر (١١٠) •

ومع ذلك ، فبالنسبة الى أمة تجارية مثل الأمة الجنوية التى كانت سفنها التى لا حصر لها تواصل حركة مستمرة ذهابا وايابا بين الغرب والبحر الأسود ، كان من المؤلم أن تجد نفسها فى موقف عدائى مع فرقة حربية متمركزة بكيفية تتحكم بها على مضيق الدردنيل • لذلك انتهى الأمر بجنويى غلاطة أن يصرحوا للامبراطور بعزمهم على عقد معاهدة صلح ، بأى ثمن مع القطالونيين ، وفعلوا كما قالوا ، دون أن يشغلوا بالهم بأن الامبراطور قد يستاء من تصرفهم هذا (١١١) • ومن جهة أخرى ضعفت صداقة البنادقة مع القطالونيين ، وازداد هذا التطور فى العلاقات (١١٢) كما يتبين فى المعاهدة المبرمة عام ١٣١٠ بين البندقية وامبراطور الروم ، اذ أدرج فيها البند الآتى ، حسب الرغبة التى أبداها أندرونيك ، وموافقة

(١٠٧) Pachym, II, 489 et s.

(١٠٨) Muntaner, trad. Lanz, II, 132.

(١٠٩) Pachym, II, 534-539.

(١١٠) Pachym., II, 533-557, 597 et ss. ; Muntaner, 133 et s, 150-155.

(١١١) Pachym., II, 624 et s.

(١١٢) Taf. et Thom., IV, 83.

الاقطاعية : « يحظر على كل مواطن فينيسى — والا تعرض لعقوبة شديدة — أن يتجر مع السرية المشار اليها طالما كانت تحتل بالقوة أى موقع فى الامبراطورية » (١١٣) ٠ والمعروف أنه أعقب ذلك جلاء القطالونيين طوعا عن جاليبولى بعد أن أنهكوا ونهبوا البلدان المحيطة بهم ، واستقروا أخيرا عام ١٣١١ فى أتيكا وبيوتيـا ، وطردوا منهمـا دوقات بيت لاروش La Roche وهكذا تخلص اليونانيون من جيرة مزعجة وجـاء دور بنادقة نجربونت : ذلك أن شـهوة الغزو عند هؤلاء المغامرين (أى القطالونيين) أصبحت لدى البنادقة فى نجربونت مثارا للقلق المستمر ، وامتدت غاراتهم الى داخل الجزيرة ٠ وفى عام ١٣١٧ استولوا على عاصمة الجزيرة ، بصفة عارضة ، ولكن احتلالهم قلعة كارستوس Karystos كان أطول أمدا (لم يخرجوا منها الا فى عام ١٣٦٥) (١١٤) ٠

ولم يكن هذا كل شىء ، فلم يعد يكفيهم قطع الطرق البرية ، بل راحوا يمارسون القرصنة ، واتحدوا مع أتراك آسيا الصغرى فى تخريب جزر الأرخبيل حتى جزيرة كريت (١١٥) ٠ وثمة العديد من أمراء الفرنجة الذين كانت مصـالحهم فى هـذه الظروف هى مصـالح البنـادقية نفسها ، عرضوا على البندقية أن يكونوا معها رابطة للقضاء على السيطرة القطالونية فى دوقية أثينا(١١٦) ، الا أن «الاقطاعية» لم تلبث أن اعترفت بأن كل ما فعلوه لم يكن سوى مفاوضات ، ومن ثم احترزت من مهاجمة اقليم السرية القطالونيـة ، ولكنهـا قامت بمطاردة القراصـنة بسفنهـا الحربية (١١٧) ، ولجأت الى الطريق الدبلوماسى للحصول على تعويض عن الأضرار التى سببتها لتجارتها ، فخاطبت فى هذا الشأن قائد السرية الأمير الفونسـو فادريك Alfonso Fadrique (١١٨) وأبيـه فردريك الثانى ملك صقلية الذى أساء استقبال مندوبيها (١١٩) ٠ وأخيرا ، فى ٩ من

---

(١١٣) Misti, Lib, 3 : extraits publiés dans l'Archiv, venet., XVIII, 325.

(١١٤) Hoph. Ueberbilck uber die Schicksale von Karystos, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad,. phil hist, Cl, octobre 1853, p. 570 et ss. ; art. Griechenland, Op. Cit., LXXXV, 410 et ss.

(١١٥) Hopf. art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 415 425 et s., 461; Dépéches de crête, dans Taf. et Thom., IV. 107-110.

(١١٦) Coll. des doc. inéd., Mélanges hist., iii, (1880), p. 32 et ss., 34 et ss., 43 et s. Archiv. venet., XVII, 136 (4e paragr.).

(١١٧) Commem. Reg., I, 194, no 110.

(١١٨) Ibid et p. 193 ,no. 106.

(١١٩) Taf. et Thom., IV, 110-117 ; Coll. d. doc. inéd., 1.c, p. 36 et ss., 41 et ss.; Testa, De vita et rebus gestis Friderici II, Sicil. reg., p. 267-270.

يونيه ١٣١٩ انعقد الصلح ، ووقعت معاهدة لستة شهور بين الفونســو فادريك والسرية القطالونية من جهة ، وبين فرانشسكو داندولو ، البايل الفينيسى فى نجربونت ، والسادة الاقطاعيين بالجزيرة من جهة أخرى . وتعهد القطالونيون بنزع أسلحة سفنهم الشراعية ، وألا يسلحوا سفنا غيرها ، ولا يساعدوا القراصنة بكيفية مباشرة أو غير مباشرة . ومع ذلك صرح لهم بالاحتفاظ بالسفن الراسية فى ميناء ليفادوستر و Livahostro بشرط الا تكون مجهزة للقتال (١٢٠) ، ويقع هذا الميناء فى عمق خليج كورنثوس ، ومن هناك لم يكن فى استطاعتهم أن يهددوا جزر الأرخبيل ، أو يمدوا أيديهم الى الأتراك . وتجددت المعاهدة فى ١١ من مايو ١٣٢١ ، وفى ٥ من أبريل ١٣٣١ (وربما أيضا فى مرات أخرى) بعبارات متماثلة تقريبا ، فقط أضيف اليها بند يتعلق بالأتراك : فقط حظر على القطالونيين أن يعقدوا معهم معاهدات جديدة ، وأن يساعدوهم فى مشروعاتهم ضد نجربونت أو الجزر الصغيرة التى يمتلكها أمراء من أصل بندقى ، من آل سانوتو Sanuto ، وآل جيزى Gyhisi (١٢١) . ويبدو أن « السرية » ثابرت بجدية متزايدة على تنفيذ هذه المعاهدة ذات الأهمية الكبيرة لأمن التجارة فى الأرخبيل ، ولهذا الأمر ما يبرره . فاولا ، لم تكن « السرية » سوى « جمهورية من قطاع الطرق » ، ولكنها اتخذت بالتدريج سمــات الدولة القانونية ، ومن ثم تسنى للبندقية أن تتفاهم معها ، وأن تعيش معها فى مودة ووئام .

كذلك أتاح القطالونيون للبندقية ، بطريق غير مباشر فرصـــة اضافة اقليم جديد على الأقاليم التى تملكها من قبل فى اليونان . وفى عام ١٣١٩ غزوا للمرة الثانية تساليا ، وضموا جزءا منها . وللتخلص منهم وضع سكان ميناء فتليون Phtelion الواقع على مقربة من زيتون Zeiton عند مدخل خليج فولوس Volo (١٢٢) (فى بحر ايجه ـ المترجم) ، وضـــعوا أنفســهم فى حمـــاية البندقيــة (١٢٣) . ووافــق أندرونيــك (١٢٤) لعجزه عن الاحتفاظ بهذه المدينة ، والأمير الفونسو

(١٢٠) Mas-Latrie, dang la Coll. des doc. inéd., l.c., p. 44 et ss. ; Taf. et Thom; IV, 120 et ss. ; M. Thomas, Op. Cit., p. 335.

(١٢١) Coll. des doc. inéd., l.c., p. 49 et ss. ; Taf et Thom., IV, 214 et ss.

(١٢٢) Leake, Travels in northern Greece, IP, 341 ; Uzzano p,. 224.

(١٢٣) Taf. et Thom., IV, 218.

(١٢٤) Sanut, Epist. 3 ,publ. à la suite des Secret .fid. crue, p. 293.

فادريك زعيم السرية (١٢٥) على أن تضع الجمهورية يدها على هذا الميناء ، وكان هذا التملك يحقق أمانيها لأنه يزودها بمحطة بحرية جديدة على القارة في مواجهة جزيرة نجربونت ، وفيما مضى كانت سفنها التجارية ترسو كثيرا عند فتليون ، ولكن في عهد ميخائيل باليولوجوس أصبح هذا الميناء وكرا للقراصنة (١٢٦) • وابتداء من الاحتلال أصبح هناك « خورى » بندقى تابع لبايل نجربونت (١٢٧) •

أعقبت الاضطرابات التى أحدثتها حملة القطالونيين في اليونان فترة من الهدوء ، وننتهز هذه الفرصة للدخول في بعض التفصيلات الخاصة بوضع مختلف الأمم التجارية الغربية في اليونان وأملاكها في مستهل القرن الرابع عشر ، وما طرأ عليها خلال هذا القرن ، وتنظيم مستوطناتها • ويحسن البدء في هذا الخصوص بالجنويين ومستوطنهم في غلطة ، ذلك لأنهم هم الذين كانوا في هذه الحقبة يلعبون الدور الأول في البسفور • كانت غلطة في البداية تتكون من بضعة منازل معرضة دون دفاع لكل ضروب المهانة ، ودمرها موروسيني في عام ١٢٩٦ ، وهجرها نصف سكانها بعض الوقت في أعقاب الحريق الذى أشعله (١٢٨) • ثم بدأت تظهر من اطلالها ، فصارت مدينة حقيقية على الضفة المقابلة للقرن الذهبى • وفي شهر مارس ١٣٠٣ ، بناء على طلب الجنويين ، منحهم أندرونيك امتيازات لأراضى جديدة تضاف الى أراضيهم السابقة • وصار الكل يشكل من ذلك الحين مجموعة متماسكة يطوقها سور وخندق ، وترك فيما وراء الخندق منطقة جرداء منحدرة عرضها ستون « أونا » (١٢٩) • (*)

وشكل المدينة الجديدة يشبه تقريبا شبه المنحرف ، وقاعدته الكبرى (طولها ٣٣٩ خطوة) من ناحية البحر بعرض النتوء المستدير في نهاية القرن الذهبى وأول البسفور • ويبدأ هذا الخط من نقطة واقعة في القرن الذهبى على بعد حوالى خمس وعشرين خطوة من الحوض المسمى « الحوض القديم » (Vetus tarsana) ، وهو لا شك نفس الشكل الانسيابى الموضح على خريطة القسطنطينية لكوفر Kauffer (التى نشرها السيد هامر

---

(١٢٥) Hopf, art. Griechenland op. cit., LXXXV, 422.

(١٢٦) Taf. et Thom. ,III, 167, 214, 216, 235.

(١٢٧) Misti, dans l'Arch. Venet., XVIII, 329 ; XX 84 et ss.

(١٢٨) جاك دى فوراجين Jacques de Voragine كبير أساقفة جنوا يذكر هذه الواقعة في مناسبة كنيسة القديس ميخائيل في بيرا التى تهدمت تماما في تلك الآونة •

(١٢٩) الأون مقياس طول قديم يساوى حوالى ١٫١٨٨ مترا ــ المترجم •

(Hammer) (١٣٠) ، وهو خليج صغير أقام عليه الـ Pérotes فيما بعد ترسانتهم البحرية (١٣١) : وتنتهى من ناحية البسفور عند النقطة التى يوجد فيها حاليا باب « كاراكوى Karakeui (١٣٢) ، على بعد ستين خطوة من برج غلطة • هذا البرج الذى يتردد اسمه كثيرا فى تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ، وفى الوقائع البيزنطية لا بد أنه كان يقع خارج الحى الجنوى من الجهة الشرقية (١٣٣) ، ويرتفع على الشاطىء قبالة « لسان البسرای » الداخل فى البحر ، فاذا مدت سلسلة بين هاتين النقطتين ، أمكن غلق مدخل القرن الذهبى ، واذا مدت سلسلة أخرى بين برج غلطة وبرج ليأندر Léandre فى جزيرة دوماليس Damalis أمكن منع السفن التى تعبر البسفور من الاقتراب من القسطنطينية •

أما قاعدة شبه المنحرف الصغرى ، وطولها ٢١٧ خطوة ، فانها تسير موازية للقاعدة الكبرى بارتفاع قليل فوق الشـــاطىء ، وتجتاز بستان كرم ، وتمر أمام عدة كنائس منعزلة • وأما الجانبان فانهما أقصر بكثير : فالجانب الخارجى ، وطوله خمس وسبعون خطوة فقط ، فانه يرتفع مكونا خطا منكسرا ، وأما الجانب الآخر ، ويبـدأ من الحوض القديم ، فطوله تسعون خطوة • وعلى ذلك فان الطول الذى تشغله المدينة على الشاطىء يبلغ فى عمقه بنسبة أربعة الى واحد (١٣٤) •

وكان المحظور على كل جنوى ، حسب الأصول أن يسكن خارج الحدود التى أوضحنا خطوطها ، وهى حدود يبينها بوضوح الخندق والمنحدر • غير أنه حدث بعد ذلك أن اشترى عدد من الجنويين أماكن للبناء ، وشيدوا عليها لأنفسهم مســـاكن خارج حيهم • ولما ترتب على ذلك اثارة بعض المتاعب ، اشتكى الأمبراطور من هـــذا الانتهاك ، والتزمت الجمهـــورية

---

(١٣٠) ناحية Kalafat-yeri ، يشبهها السيد باسياتى Paspati (ص ٢٢٠) vetus targana هذه الناحية لا اثر لها فى اية خريطة أمكننى الحصول عليها •

(١٣١) Barbaro, Giorn. dell' assedio di Cpoli ,p. 27 et s. (novarchio di Pera).

(١٣٢) Paspati, 7, 89, p. 179 et s., 182.

(١٣٣) لا يجوز الخلط بين هذا البرج وبين البرج المحصن الذى لم يزل قائما حتى وقتنا الحاضر ، ويقوم على مرتفع غلطة ، وهو مشهور بالمنظر الذى يجذب الانظار الى ذروته : وقد شيده انسطاسيوس ديكوروس Anstasios Dikoros ، وأعاد الجنويون بناءه قبل استيلاء الاتراك على القسطنطينية بوقت قليل •

(١٣٤) Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 209 et s. ; dans le Lib. jur. II, II, 435 et ss., et dans les Atti della Soc. Lig., XIII, 103 et s.

بالاعتراف بخطأ رعاياها (١٣٥) . ففي قانون صدر بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ خصيصا لمدينة غلطة مادة تحظر على كل جنوى أن يبنى خارج الحى دون ترخيص من الأمبراطور .

أما بخصوص المنازل السابق بناؤها ، فلا بد من صدور قرار خاص بالاتفاق بين الامبراطور ومستشارى البودستات الستة (١٣٦) . وعلى العكس من ذلك . ترك أندرونيك للجنويين مطلق الحرية داخل الأرض الممنوحة لهم ، فيما عدا تشييد قلعة ، وهذا يثبت أنه كان يشعر بالخطر الذى يهدد القسطنطينية من مجاورة المدينة الجديدة (١٣٧) . وبادر الجنويون بالعمل بهمة ونشاط ، وسرعان ما اكتسى حيهم الجديد بصروح فخمة ، عامة وخاصة . وفى غضون شتاء ١٣٠٤/١٣٠٥ ، وتحت تهديد غزو يشنه القطالونيون ، أسرعوا باتمام وسائل الدفاع ، فجعلوا للخندق عمقا كافيا لايصال ماء البحر اليه (١٣٨) . وفى عام ١٣١٥ اندلع فى المدينة حريق أحال معظمها رمادا . وفى السنة التالية أعاد البودستات مونتانو دى مارينى Montano dei Marini بناء قصر البلدية ، ودور عامة أخرى ، كما شيد فى عهده سور المدينة من الداخل (١٣٩) .

والى جانب البناء المادى للمدينة ، كان لا بد من تأسيس المستوطنة على قواعد متينة ، ومن أجل هذا أنشئت ادارة مدنية ، وادارة قضائية ، ونظمت الشئون العامة . نجد برهانا على ذلك فى مجموعة من الوثائق التشريعية التى وقعت فى أيدينا . والمجموعة المعروفة باسم Magnum volumen Peyre ليست الا ملخصا للقانون العرفى الجنوى الذى فرض بأكمله على المستوطنة ، مع أمر صادر لموظفى المستوطنة بتطبيقه ، وهو عبـــارة عن مجمـــوعة قوانين جنائيـــة ومدنيـــة وتجارية ، واجراءات جنائية (١٤٠) ، ويتكون من « تعليمات رسمية » brefs موجهة الى المحاكم القنصلية ، ولوائح وضعها «رؤساء الشعب» Capitani del popolo (١٤١)،

(١٣٥) مفاوضات بين اندرونيك وجنوا فى ٢٢ مارس ١٣٠٨ :
Atti, I, c., p. 112, 114.

(١٣٦) Sauli, II, 224 ; Atti. lc., p. 118.

(١٣٧) امتياز منحة الامبراطور فى شهر مارس ١٣٠٤ :
Sauli, II ,211 et s. ; Lib jur., ii, 441 et s.; Atti, 1.c., p. 105.

(١٣٨) Pachym., II, 495.

(١٣٩) Jaacq. de Vorag., Chron. cont. : Atti-della Soc. Lig., X, 500; XIII, 321.

(١٤٠) M. Pardessus : Coll. des lois marit., VI, 582 et ss.

(١٤١) Statut idella colonia genovese di Pera editi de Vinc. Promis, dans les Migcell di storia ttaliana, xi (1870), 513 et ss.

وبعض المراسيم ، وكلها مؤرخة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (١٤٢) • يضاف الى هذه المجموعة من جهة مجموعة من القرارات فى موضوعات منوعة ، أصدرها فى ٢٠ من ديسمبر ١٣٠٠ جافينو تارتارو Gavino Tartaro ممثل الجالية الجنوية فى الأمبراطورية البيزنطية والبلاد المطلة على البحر الأسود للمستوطنات التابعة له ، وذلك حسب العرف الذى يتبعه سائر البودستات ، ومن جهة أخرى القوانين التنظيمية الأساسية التى تسرى على كل المستوطنات والتى شرعت بجنوا فى ١٦ من مارس ١٣٠٤ • كل هذه اللوائح والقرارات التى الحق بها منشور من رئيس أساقفة جنوا ، ومرسوم خاص بمسائل القانون الجنائى ، أصدره فى ١٨ من يولية ١٣٠٤ روسو دوريا Rosso Doria بودستات بيرا Pera جمعت بمعرفة الادارة التابعة لدوريا هذا فى المجلد السادس والأخير لهذه المجموعة القانونية (١٤٣) •

وفى حوزتنا أخيرا قانون بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ (١٤٤) صادر من الحكومة الجنوية Consilium Gubernatorum ، ويسرى بنوع خاص على بودستات بيرا والمستوطنين مرؤوسيه • وسنحاول اعتمادا على هذا القانون ، وعلى بضع وثائق أخرى أن نوضح صورة للحياة الداخلية فى مستوطنة غلطة •

فالبودستات يتسلم أمر تعيينه فى جنوا ، ولا تنحصر سلطته فى دائرة بيرا الضيقة بل تمتد فتشمل كل المواطنين الجنويين المقيمين فى الاقليم اليونانى بصفة دائمة أو مؤقتة • **اما القناصل الجنويون وسائر الوكلاء الموزعين فى الأمبراطورية فانهم مرؤوسون له** • وكان الأمر كذلك فى القرن الرابع عشر بالنسبة الى القناصل الموزعين على طول البحر الأسود (فيما عدا قنصل كافة وحده) ، وفى آسيا الصغرى التركية حتى سيفاس Sivas (١٤٥) • ولهذا السبب نرى لقب Potestas (vicarius) januensis

---

(١٤٢) أحدث تاريخ هو عام ١٢٩٠ •

(١٤٣) مرسوم ١٩ مايو ١٣١٦ بخصوص المسافرين الى كافا (ص ٧٦٤) يبدو أنه أضيف فيما بعد : وهو نسخة طبق الأصل من بداية مرسوم كافا فى مارس ١٣١٦ : (Off. Gaz., p. 377 et s). :

(١٤٤) Sauli, II, 222-230 ; Atti della Soc. Lig., XIII, 116-123.

(١٤٥) Statuti di Pera, l.c. p. 781 et s.

نلاحظ أن Savasto ليست هى Sebastpoli • اما كافا فانها لم تصبح الا فيما بعد العاصمة الادارية لكل منطقة البحر الأسود •

vicariud pro communi anua : : أو ذات مرة ، in imperio Romania
in toto imperio Romania et mari majori. (١٤٦) .

وكان يضطلع الى حد ما بمنصب الوزير المقيم لوطنه لدى الامبراطورية ، الأمر الذى لم يكن يمنع حكومته من أن يمثلها سفراء مؤقتون فى الأحوال الخطيرة . وبعد تعيين البودستات يقسم اليمين بين يدى الامبراطور . ولما كان ممثلا للدولة الغربية الأكثر رعاية ، فانه كان يظهر كثيرا فى البلاط ، ويحضر بانتظام مع مستشاريه مائدة الامبراطور أيام الآحاد ، والأعياد الدينية ، والحفلات وحسب قواعد ترتيب الأسبقية ، يتخذ مكانه فى هذه المناسبات بعد الاميرال الأعظم (١٤٧) . ولم تكن شخصية موظف له هذه الأهمية بمهملة فى نظر الأمبراطور . والواقع أن مبالغته فى التحيز لمواطنيه ، أو قلة نشاطه يمكن أن يؤدى أى منهما الى عدم مراعاة الالتزامات التى تعهد بها الجنويون حيال الامبراطور . وفى كثير من الأحوال ، حين لا يتيسر للبودستات الوقت الكافى ليطلب تعليمات من جنوا ، فان عليه أن يتخذ قرارا من تلقاء نفسه . وفى وسعه أن يؤدى للامبراطور خدمات جليلة ، مسترشدا بروح المصالحة ، كما قد يسبب الكثير من الأذى اذا كان فظا ، عدوانى الطبع . لذلك وضع ميخائيل باليولوجوس فى معاهدة عام ١٢٧٥ شرطا يقضى بأن الشخص الذى يكلف بهذه الوظيفة يجب عليه أن يبدى اهتماما بمصالح الامبراطور بقدر اهتمامه بمصالح الجالية الجنوية (١٤٨) . وفى بعض الأحيان يرفض الامبراطور أن يصدق على تعيين مرشح لهذا المنصب بسبب خلاف شخصى معه(١٤٩) .

ويجمع البودستات بين يديه أعلى سلطة ادارية وقضائية . وكان له فى ممارسة وظائفه أن يطبق قواعد القانون المدنى والجنائى السارى فى جنوا ، واللوائح الصادرة للمستوطنة فى وطنه الأصلى (١٥٠) ، والمعاهدات القائمة بين جنوا وبيزنطة . ويساعده فى ادارة المستوطنة « مجلس كبير »

---

(١٤٦) Off. Gaz., p. 335 379 ; Lib. jur., II, 440 ; Sauli, II 260; Annal. Jan. p. 276; Atti della Soc. XIII, 101, 102, 126, 123 etc., 936, 945, Statut di Pera l.c. p. 755, 763; Commem. Reg. II, 94, no. 538.

(١٤٧) Codin Curapalat., p. 55 et ss., 65, 74-76; Cf. Cantacuz., I, 61; Pachym., II, 539.

(١٤٨) Sauli, II, 205.

(١٤٩) فى عام ١٣٠٨ عين برنابو سبينولا لثانى مرة لمنصب بودستات بيرا ، وكان قد شغل هذا المنصب قبلا فى عام ١٣٠٠ ، ورفض اندرونيك التصديق على تعيينه لوجود خلافات بينه وبين هذا الشخص ، ومع ذلك تشبث رؤساء Capitani جنوا بتعيينه . انظر : Atti, l.c. p. 102, 113, 115.

(١٥٠) Capitula communis Peyre : Atti, l.c,. p. 177.

و « مجلس صغير » ، يتشكل أولهما من أربعة وعشرين عضوا (١٥١) ، وثانيهما من ستة أعضاء يختار نصفهم من النبلاء والنصف الآخر من عامة الشعب (١٥٢) • ولم يكن هذا النظام الديموقراطي قديما في أصله ، فقد أنشىء درءا لميول البودستات القوية للنظام الارستقراطي • وبالطبع كان للتغيرات العديدة التي طرأت على دستور الوطن الأصـــلي ردود فعل في المستوطنة • فمنـذ عـام ١٢٧٠ نجـد في جنوا من يطلق عليـه لقب Abbate del popolo وهو موظف له اختصاصات مماثلة لاختصاصات قضاة الشعب tribun في روما ، وتتبع سلطته تطورات سلطة الحزب الديمقراطي (١٥٣) • وأدخلت هذه الوظيفة أيضا في بيرا عام ١٣٠٦ ، كما ينبئنا به الكاتب اليوناني باشيميرس الذي تكشف لنا أخباره عن علم صحيح بهذه الأشـياء (١٥٤) ، وبقيت هذه الوظيفة حتى أواسـط القرن الخامس عشر (١٥٥) • وكان البودستات يمارس مهـام وظيفته القضائية بنفسه أو بوساطة نائب عنه Vicarius curiae potestatis في دار البلدية • وكان كل الجنويين في بيرا والقسطنطينية ، حتى من صار منهم أتباعا اقطاعيين للامبراطور (١٥٦) خاضعين لقضاء هذه المحكمة • ولا يجوز استدعاء أي جنوي أمام المحاكم اليونانية الا في حالتين : أما بصفته متهما بأحداث اصابات لأحد رعايا الأمبراطور ، اذا رفض البودستات محاكمته ، واما كمدع ضد أحد رعايا الأمبراطور في قضية مدنية • وفي هذه الحالة يتلقى شكاوى الجنويين موظفان روميان ، ولكن في استطاعة البودستات دائما استئناف الحكم الى الأمبراطور ، اذا تبين له أنه مشوب بالتحيز ، أو لا يستند الى أساس صحيح بسبب ضعف معرفة اللغة الايطالية (١٥٧) • واتبع البودستات النظام نفسه ، وعهد الى حكمين (mediatores) بالفصل في القضايا التي يكون فيها المدعي يوناني الجنسية والمدعى عليه جنوي الجنسية • غير أن الامبراطور أندرونيك احتج على هذا الانتهاك ، وبأمر من الحكومة الجنوية ، عاد البودستات الى العرف القديم الذي يقضي

---

(١٥١) Statut de 1317; Sauli, II, 223 ; Atti, l.c., p. 116 et s.

(١٥٢) Ibid et Lib. jur., II, 441 ; Not et extr,. XI, 65 et s. 70.

(١٥٣) Canale, III, 161 et s.

(١٥٤) Pachym, II, 624.

(١٥٥) «Abbas Peyre» (1308); Atti, l.c. p. 113 et s. ; Lib. jur, II, 441.; Commem. reg., II, 94 ,no 538. «Abazia di Pera (1427)» : Olivieri, Carte e cronache manoscritte, p. 122.

(١٥٦) Lib. jur., I, 1351; II 443; Atti, l.c. p. 108.

(١٥٧) Sauli, II, 205 et s., 227 et s. ; Atti della soc. Lig. XIII, 121,

بأن يصدر هو الأحكام بنفسه (١٥٨) .

ولما كانت التجارة تلعب الدور الأول في حياة المستوطنين الجنويين ، كان معظم الشئون الادارية والقضائية التابعة للبودستات متعلقة بالتجارة ، لذلك كان يتبعه ليعـــاونه في هذه المهمة مكتب تجــارى (officium mercancia) (١٥٩) . وكان عنده مهام كثيرة : فكان لا بد أولا أن يحترم موظفو الجمارك اليونانيون الاعفاء المطلق المكفول كتابة لصالح الجنويين (١٦٠) ، عند كل من التصدير والاستيراد ، وكذا عند البيع والشراء (١٦١) ، ومن جهة أخرى كان لا بد أن يراعى الجنويون القيود التي فرضها الأباطرة بخصوص بعض المواد تبعـا لمقتضيات سياستهم التجارية . مثال ذلك كان تصدير الذهب والفضة محظورا الا بترخيص صريح من الأمبراطور (١٦٢) ، وكان ممنوعا على الجنويين الاتجار في الملح والصمغ (المستكة) في كل أنحاء الأمبراطورية (١٦٣) . وفي عام ١٢٧٥ كان تصدير القمـح ولم يزل مصرحا به بشرط الا يصـدر الى أعـداء الامبراطورية ، ولكن في عام ١٣٠٤ أصبح منع تصديره عاما (١٦٤) . ولعلنا نجد هذه القيود سيئة من وجهة نظر الاقتصاد السياسى ، وعلى أية حال فانها تضايق التجار الايطاليين كثيرا . ولكن لا يمكن من الناحية القانونية الاعتراض على أن يتخذ الأباطرة اجراءاتهم الكفيلة بمنع الغش والاحتيال ، فقد اعتاد الأجانب ذلك . مثال ذلك أن بعض الموظفين الجنويين في المستوطنات كانوا يعطون التجار الأجانب شهادات بالجنسية الجنوية تتيح لهم التهرب من الجمارك الرومية . وأخضع الامبراطور بطبيعة الحال اقرارات الجنسية لرقابة صارمة . ولم يكن بوسع الحكومة الجنوية أن تفعل شيئا ازاء هذا سوى أن تصدر تعليماتها لموظفيها بأن يمتنعوا عن

---

(١٥٨) Atti, I.c, p. 112, 114.

(١٥٩) Off. Gax., p. 329-331 ,337, 344, 351 et 419.

(١٦٠) Atti, I.c, p. 107.

(١٦١) ومع ذلك لم تكن الحكومة الجنوية تبدى أى اعتراض في الحالة التي تطلب فيها الجمارك اليونانية من تاجر جنوى دفع رسوم لأنه عمل على مرور حديد أو خشب أو مماليك بالاقليم البيزنطي لتصديرها الى الاسكندرية ، فقد كانت هذه الأعمال التجاريـــة مخالفة لمراسيمها . انظر : Atti, l.c., p. 111.

(١٦٢) Lib jur. I, 1355 et s. ; Atti, XIII 109.

(١٦٣) Atti, XIII 107.

- لم يكن مصرحا للسفن الجنوية الا بالمرور بملح البحر الأسود . المرجع السابق ، ١٢٠

(١٦٤) Sauli, II, 207; Atti XIII, 109.

مثل هذه المجاملات (١٦٥) • وثمة حالة أكثر تواترا ، تتمثل فى أن يقر التجار الجنويون بأن البضائع الأجنبية تخصهم بالملكية ، أو أنها واردة بعامة من جنوا ، حتى تمر معفاة من الرسوم • وتقضى تعليمات بودستات بيرا بمعاقبة من يثبت خيانتهم هذه بدفع غرامة تســــاوى ضعف المبلغ المهرب من الجمارك (١٦٦) • وتلقى أصحاب السفن التجارية ووكلاؤها الأمر بأن يسلموا مندوبى الأمبراطورية اقرارا صحيحا بكل البضائع غير الجنوية الموجودة فى سفنهم • وفى كل مرة تجرى عمليات بيع أو شراء بين تجار جنويين وتجار غير جنويين ، يجب على مندوبى مكتب بيرا العام للموازين أن يقدم عنها اقرارا لمفتشى الجمارك اليونانية (١٦٧) •

ومن الوجهة الدينيــة كان الجنويون يتمتعون فى غلطة بحريــة مطلقة ، فكان لهم الحق فى بناء كنائس خاصة بهم ، يقيم بها قساوستهم القداس تبعا للشعائر الرومانية • ولم يستثن الامبراطور من ذلك سوى ثلاث كنائس يونانية فى الأرض التى منحها اياهم أثناء توسيع المدينة ، وكان المفروض أن تبقى هذه الكنائس مخصصة للديانة اليونانية تحت ســلطة بطاركة القسطنطينية (١٦٨) • وكانت مدينة غلطة تتبع دائرة اختصاص كبير أساقفة جنوا ، وكانت كاتدرائيتها التى هدمت فى عام ١٢٩٦ ، ثم أعيد بناؤها بالفور مكرسة للقديس ميخائيل S. Michel شفيع بيرا (١٦٩) • كذلك كان رئيس الكاتدرائية يؤدى وظيفة النائب العام لكبير أساقفة جنوا (١٧٠) وكانت غلطة تضم العديد من الأديرة الخاصة برجال ينتمون الى طوائف دينية غربية (١٧١) • وقد نال بعض رجال الدين التابعين لهذه الدور شهرة عظيمة لدى الروم لعلمهم ، وتعمقهم

---

(١٦٥) Atti, XIII, 111, 113 et s., 116 et s.

(١٦٦) Lib. jur., I, 1355; Sauli, 205, 225 et s.; Atti XIII, 111 et s. 114 ,118 et ss.

(١٦٧) Atti, XIII, 106, 119, et s.

(١٦٨) Lib. jur., II, 442, atti, 106; cf. Paspati, p. 271.

(١٦٩) Stella, p. 1113; Atti della Soc. lig., XIII. 153, 165, 167 174, etc. 948, 951, 972.

(١٧٠) Lib jur., II 439, 445 ; Belgrano, Illustrazione del registro arciyescovile, Atti ,II, 374 et ss.

(١٧١) Pachym., II, 616; Lib-jur., II, 437; Atti della Soc. Lig., XIII 153 ; Coll. des doc. inéd., Mél hist., III, 282; Atti della Soc. lig., XIII, 934 et ss. ; ibid, p. 933, 949, 970.

فى الفلسفة اليونانية القديمة ، (فلسفة أرسطو) ، وكلف العديد منهم بمهمات ، اما للمستوطنة ، أو حتى للامبراطور ، وبخاصـــة حين جرت مفاوضات بين روما وبيزنطة بقصد اتحاد الكنيستين (١٧٢) • ويبدو أن كنائس الأديرة الرئيسية هي كنيسة القديس بطرس ، وكنيسة القديس فرانسوا (حاليا Jeni Djani ــ بالتركية : الجامع الجديد ــ) (١٧٣) ، ويحكى الرحالة كلافيجو Clavijo أن بهما ذخائر نفيسة ، وأنه شاهد بهما مقابر هامة (١٧٤) • وأخيرا ، كان من بين سكان بيرا عدد من المسيحيين الشرقيين التابعين للكنيسة الأرمينية (١٧٥) •

وبخلاف غلطة ، وعد ميخائيل باليولوجوس الجنويين أن يمنحهم محطات تجارية أخرى ، ولما كانت المصادر صامتة من هذه الناحية ، فانا نجهل مدى ما تحققه من هذه الوعود • وعلى أية حال فان أندرونيك أوفى بنفسه بأحد هــذه الوعود • ففى عام ١٣٠٤ وافق من جديد لصـــالح جمهورية جنوا على التنازل لها عن حى فى مدينة سميرن ، به دار عامة ، وحمام ، وفرن ، وكنيسة ، الخ (١٧٦) • ويكفى أن نتذكر ما سبق أن قلناه بشأن تقدم الأتراك بآسيا الصغرى ، تقدما مخيفا ، لندرك مدى ما كان لهذه الحيازة من طابع وقتى • ويكفينا أن نذكر جزيرة كارباذوس Karpathos (Scarpanto) التى منحها الامبراطور أندرونيك الثانى اقطاعية للجنوى أندرياموريسكو Andrea Moresco مكافأة له على خدماته الجليلة وهو قرصان ثم أميرال • على أن موريسكو لم يتمتع طويلا بهذه الاقطاعية ، فقد طرده من الجزيرة اندريا كورنارو Andrea Camaro فى مستهل القرن الرابع عشر ، ولما أراد أخوه لودوفيكو Ladovico أن يستردها ، كفر عن محاولته هذه بأن أمضى زمنا طويلا فى سجون كريت (١٧٧) • وكانت أسرة زكاريا أسعد حظا ، اذ بقيت عدة أجيال مالكة لفوكاية (١٧٨) ومناجم الشعب الثمينة فيها ، وبلغت درجة كبيرة من الثراء • وفى الوسع أن نكون فكرة عن ايرادات هذه المناجم ، والسرعة التى نهضت بها فوكاية عام ١٢٩٦ من الخراب الذى حل بهـــا ، وذلك بفضل روجيرو مورموسينى ،

---

(١٧٢) Cantacuz., II, 502 et ss. ; III, 62.

(١٧٣) Paspati, dans la Revue du Syllogos de Constantinople, VII 115 ; Hammer Constantinople, II, 111.

(١٧٤) Clavijo, p. 71 et s.

(١٧٥) Atti della Soc. Lig., XIII, 205 et s.

(١٧٦) Atti, XIII, 106.

(١٧٧) Hopf, Veneto-byzantinische Analecten, Op. cit., p. 479 et ss. 486 ; cf. Commem. reg., i, 208. 225 et s.; Archiv. Venet., XX, 294.

(١٧٨) l'Hist. polit. Cpol., éd. Bonn., p. 26.

حيث نعلم أنه فى عـام ١٢٩٨ باع بنديتو زكاريا ٦٥٠ قنطاراً من الشب بسعر ١٥٠٠٠٠٠ جنيه(١٧٩)٠على أنه كان هناك فى الموضوع نقطة سوداء، تلك هى الأتراك الذين كانوا يتقدمون دون هوادة ، وبدت آسيا الصغرى أنها قضى عليها بأن تكون ضحيتهم ٠ وكان لابد من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوقى غاراتهم ٠ ويحكى المؤرخ دوكاس Ducas الذى كتب بعد مائة وثمانين عاما من الأحداث التى نرويها ، وأجرى مع ذلك بصفته مالكا لمنزل فى فوكاية الجديدة أبحاثا كثيرة فى تاريخ هـذه المدينة ، يحكى أن المشروع الأول اقتصر على بناء قلعة صغيرة تكفى لايواء مالك المناجم وعماله الخمسين ٠ ولكن ما ان بدأت أعمـال البناء حتى أقبل يونانيو مقاطعـة مينومينـوس Mainomenos ، ومانيزيا Magnésie ، ونيمفيـوم Nymphaum الذين ناوشـهم الأتراك ، وتجمعوا حـول اللاتينيين ، ووضعوا قواتهم تحت تصرفهم ٠ ومن ثم نمت بصورة غير متوقعة ، وبدلا من القلعـة البسيطة ، نشأت بلدة واسـعة تكفى لسـكنى اليونانيين واللاتينيين تحت حماية القلعة (١٨٠) ٠

ويبدو أن هذا التغيير فى الأوضاع الأولية قد طرأ فى عام ١٣٠٠ لأن مونتانر Muntaner القطالونى الذى اشترك عام ١٣٠٧ فى حملة ضد فوليـا Fuylla (Foglia) يقول انه كان يوجد قلعة ومدينة بها أكثر من ٣٠٠ ساكن يونانى يشتغلون فى تحضير الشب (١٨١) ٠ وفى رأيه أن مؤسسى المدينة الجديدة جنويـان من أسرة كاتانيـو Cattaneo أندريا ، وجاكوبو ٠ والواقع أن بنديتو زكاريا انتدب قبل وفاته بخمس سنين ابن أخيه (أو ابن أخته ؟ ـ المترجم) تديزيو Tedisio ، ومانيزيا فوكاية ، وبعد وفاته (١٣٠٧) عهد ابنه ووريثه باليولوجوس (المسمى أيضا بنديتو الثانى) بسلطاته فى فوكاية الى ممثل جديد ، اندريولو كاتانيـو Andreolo Cattaneo ٠ وتوفى باليولـوجوس عام ١٣١٤ ، وبموته انقرضت سلالة بنديتو زكاريا ٠ عندئذ انتقلت فوكاية الى بيت جنوى آخر ، بيت آل كاتانيو ديللا فولتا Cattaneo della Volta من أقرباء آل زكاريا : وكان المالك الأول ، هو الممثل السابق لآل زكاريا ، اندريـولو (١٣١٤ ـ ١٣٣١) الذى نقل الملكيـة الى ابنـه دومينيكو Domenico (١٣٣١ ـ ١٣٣٦) ٠ وبالعودة الى حكاية دوكاس ، يتبين

---

(١٧٩) Hopf. art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, 1e sect. LXVIII, 310.

(١٨٠) Duc. p. 162.

(١٨١) Trad. Lanz. II, 172.

لنا أنها مطابقة للتاريخ الحقيقي من حيث أن ثمة أندريا (اندريولو) تولى ادارة مستوطنة فوكاية سنين طويلة ، ولكن ليس فى القصة أية اشارة الى جاكوبو · وبخصوص توسيع فوكاية والتحصينات التى أجريت بها ، مما ذكره هذا المؤرخ ، اذا كانت قد تمت فى عهد اندريولو ، فانها لا يمكن ان تكون قد تمت الا فى السنة الأولى (١٣٠٦) ، لأن مونتانر وجد المدينة قد تغيرت فى عام ١٣٠٧ · وعلى أية حال فان سبب تمركز السكان المسيحيين فى هذا الموقع كان بالتأكيد تقدم الأتراك المستمر · على أن فوكاية لم تكن مهددة من جهة البر فقط ، فالقراصنة الأتراك كانوا يجوبون البحار على الدوام · وسواء أصبح الأتراك سادة على جزر الأرخبيل، او سيطروا فقط على الجزر المجاورة لآسيا الصغرى ، مثل خيوس ، فان فوكاية وجدت نفسها منقطعة عن العالم الغربى ، وأصبح من المستحيل أن ترسل منها سفن مشحونة بالشب ، ولم يعد فى مقدور التجار الذين اعتادوا القدوم اليها لشراء الشب أن يصلوا اليها دون أن يتعرضوا لأكبر المخاطر · والح بنديتو زكاريا بشدة على الأمبراطور أن يتخذ الاجراءات الكفيلة بحماية فوكاية ، اللهم الا اذا فضل أن يترك له القيام بهذه المهمة · ولما تأخر الرد ، بادر بنديتو بنفسه ، دون انتظار ، وبدأ بوضع يده على جزيرة خيوس (١٣٠٤) · ولما لم يكن فى مقدور أندرونيك أن يطرده منها ، عهد اليه بحكمها لعشر سنوات ، دون أن يدفع جزية عنها واقترح بنديتو أن يستخدم ايرادات الجزيرة فى أعمال الدفاع (١٨٢) · وبعده انتقلت الجزيرة الى ورثته وخلفائهم ، ومع كل تغيير ، كان كل حاكم جديد يطلب من الأمبراطور أن يقلده منصبه ، واستمر علم الأمبراطور يرفرف دواما على أسوار العاصمة · ولكنهم كانوا فى الواقع يتصرفون تصرف الأمراء المستقلين · وتميز أحدهم ، مارتينو زكاريا (١٣١٤ ـ ١٣٢٩) بنوع خاص فى كفاحه ضد الأتراك ، تميز بشجاعته ونجاحه ، واكتسب لنفسه مركزا كبيرا بالحماية التى أحاط بها المسافرين الغربيين ، حتى ان فيليب ، المطالب اللاتينى بعرش القسطنطينية منحه لقب « ملك آسيا الصغرى وطاغيتها » ، كما منحه البابا يوحنا الثانى والعشرين ، بالمخالفة للحظر العام المفروض على الاتجار مع مصر ، تصريحا بتصدير المستكة الى الاسكندرية اعترافا بالخدمات التى أداها للمسيحيين ، وكذا لما وهبه من أموال كثيرة (١٨٣) · وهكذا فان خيوس التى لم يكن مصرح لها بمقتضى

---

(١٨٢) Pachym, II, 558 ; Cantacuz, I, 370.

(١٨٣) Jord, Catal., p. 63 ; Guill. Adoe ; De modo extirpandi Saracenos (encore inédit : cf. Giorn. lingust., 1878, p. 274); Minieri Riccio. Saggio di cod. dipl. Napol., Suppl., 2e part. (1883); p. 75 et s.; Archiv

معاهدة نيمفيوم بأن تتلقى أكثر من محطة جنوية واحدة ، صارت كلها تحت سلطة الجنويين ، واستغلت أسرة زكاريا مناجم الشب فى فوكاية ، والمستكة فى خيوس ، واحتكرت تجارة جنوا بيع هذين المحصولين ، وهما أثمن وأندر محاصيل هذه المناطق .

ولننتقل الآن الى البنادقة . ففى القسطنطينية ، مركز الحياة التجارية ، بقى البنادقة فى الدور الثانى الذى جعلتهم فيه الأحداث . ولم يعد رئيس الجالية يحمل اللقب السامى ، البودستات ، فهذه الصفة أصبحت من ذلك الحين قاصرة على رئيس الجالية الجنوية . وفى عهد أسرة باليولوجوس لم يكن للبندقية فى القسطنطينية سوى « بايل » واحد (١٨٤) . وكان الفرق فى اللقب يجعل البايل فى مرتبة أدنى من مرتبة البودستات . ففى البلاط مثلا لم يكن البايل من الشخصيات التى تدعى الى مائدة الامبراطور فى الأعياد الدينية الكبيرة (١٨٥) ، ومنهم البودستات ، ولكنه كان مثل البودستات يذهب كل يوم أحد ليقدم للامبراطور فروض الاحترام (١٨٦) ، ويحضر أعياد البلاط ، ولكن لا يشغل ثمة المراتب الأولى . وكان أهم واجباته تمثيل مصالح وطنه ومواطنيه المنتشرين فى جميع أنحاء الامبراطورية . ولم تكن ثمة وسيلة لا يستخدمها الروم ، لشعورهم البدائى حيال البنادقة ، لمخالفة المعاهدات ، والتحايل عليها ، وكانوا يعتدون على البنادقة وعلى حقوقهم وأملاكهم ، بحيث ينشغل وقت البايل فى مطالبات بالتعويض واحتجاجات . وكان من اختصاصه الفصل فى اعتداءات البنادقة على الروم ، والمنازعات بين البنادقة ، والشكاوى التى يرفعها أشخاص من أمم لاتينية أخرى ضد أعضاء الجالية الفينيسية (١٨٧) . ولهذا الغرض كان يعقد ثلاث جلسات فى الأسبوع ، اما فى محكمته ، أو فى المستودع ، أو تحت رواق كنيسة سانت ماريا . وكانت العقوبات التى يوقعها فى أغلب الأحيان غرامات ، تضاف اليها

= d.e l'or. lat., I, 272 M. Hopf : Guistiniani génois, dans Ersch et Gruber, Op. cit.,; wolff (Giorn,. ligust., VII, VIII, IX, 1981-82) ; Promis,. La zecca di Scio durante il dominio dei Genovesi (Mem. dell' Accad. di Torino 2e rérie XXIII 1866).

(١٨٤) «Rectorem. qui vocetur Bajulus.» Taf. et Thom., III, 83. «Bajulus geu rector.» Ibid. 97 et s. Cf. aussi, ibid., p. 139, 327; Nicéph. Brég., I, 97.

(١٨٥) Codin Curop. 55 et ss., 74-76.

(١٨٦) Cantacuz, I, 61.

(١٨٧) أحكام القضاء موجودة فى :

Le Capitulaire bajuli Constatinopolitani.
Filiasi (Memorie dei Veneti primi e secondi, VI, 2, p. 191 et s.)

لتغذية الخزانة العامة للجالية حصيلة مختلف الضرائب والايجارات ، بحيث أن الخزانة كانت بصـامة مملوءة بدرجـة كافية لصرف مرتبات موظفى المستوطنة وسائر النفقات العامة • وكانت هذه الخزانة تتلقى أيضا الودائع النقدية ، والضمانات ، وكان البايل مدير الخزانة ، والمطلوب منه أن يقدم عنها حسابات دقيقة • ويلحق بالبايل أثنـــان من المستشـــارين (consilarii) ، مهمتهم ضمان سلامة تصرفاته الادارية ، واجراء رقابة مستمرة • وكان مرخصا لهم ، خارج وظيفتهم الاشتغال بالمسائل التجارية، وهو أمر محظور على البايل ، لذلك فكثيرا ما كانوا يستغلون هذا الترخيص للاعتذار عن حضور الجلسات والاشتراك فى الأعمال الرسمية • وفى حالة حدوث خلاف بين هذه الشخصيات الثلاث ، يتولى مجلس الاثنى عشر consilium majus الفصل بالاستئناف فى المسائل المتنازع عليها ، وينتخب هذا المجلس كل عام من بين أعضاء الجالية (١٨٨) •

وفيما يختص بمســاكن البنادقة بالقسطنطينية ، كان المبدأ الذى وضعته معـاهدة عام ١٢٧٧ وأيدته معـاهدة عام ١٢٨٥ (١٨٩) سارى المفعول : فكان الامبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا فى حالة جيدة للبايل ، ومنزلا آخر لمستشاريه ، وثالثا لتخزين الأشياء التابعة للجالية ، بالاضافة الى خمسة وعشرين مسكنا أو أكثر حسب الحاجة (١٩٠) للتجار • هذه المفعول : فكان الامبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا فى حالة جيدة للبايل ، على ضفة القرن الذهبى ، بين باب La Porta (Peramoe Balik Bazar-Kapoussi) (حاليا باب سوق السمك — وبين باب la Porta Drungarii وهو حاليا وفى الغـالب باب زندان Zindan - Kapausai أى فى موقع الحى البندقى القديم • والراجح أن هذه المنازل لم تكن تشكل مجموعة مندمجة كما كانت فى الأزمنة القديمة ، والثابت أن البنـادقة لم يعد لديهم مكان مغلق يستطيعون بداخله أن يضعوا أشخاصهم وأموالهم فى مأمن من الثورات الشعبية والحرائق (١٩١) • وكان لهم الحق من هذه الناحية أن ينظروا بعين الحسد الى وضع غلطة على الضفة الأخرى •

---

(١٨٨) المصادر التى استقينا منها هذه المعلومات هى أساسا :
Les rapports rédigés par le baile Marco Minotto, en 1317 (?) et 1320, et la Commission d'Andrea Gradenigo, 1374; Taf. et Thom, IV, 103 et ss., 164 et ss ; M. Diehl, dans les Mélanges d'archéologie et d'hist. publ. par l'école françaises de Rome, 3e année, mars 1883, p. 128-131.

(١٨٩) Taf. et Thom., III ,139, 326 et s. ; Commemor., regest., I, 248.

(١٩٠) Diehl, l.c. p. 95, 103.

(١٩١) Diehl, et Thom., IV, 187.

وكانت كنيستا القديسة مريم St. Maria والقديس مرقس S. Marc اللتان تتبعانهم منذ نشأة المستوطنة وأعادتهما اليهم المعاهدات (١٩٢) محصورتين بين المساكن ورعايتهما موكولة الى الأمبراطور • ولم يكن المستوطنون ملزمين بشغل المساكن التى يخصصها لهم الأمبراطور بالمجان ، أو أن ينعزلوا داخل حى واحد ، فكانت لهم الحرية فى استئجار منازل على نفقتهم فى أماكن أخرى بالمدينة • وكانت هذه هى القاعدة أيضا فى تسالونيكا ، فقط ، وبالنظر الى أن هذه المدينة أصغر حجما ، فان عدد المساكن التى يخصصها الأمبراطور للتجار البنادقة قد هبط من خمسة وعشرين الى خمسة عشر مسكنا على الأقل • ونعرف أن الأباطرة من آل باليولوجوس كانوا مقترين فى هباتهم للبنادقة ، لذلك فلا ندهش حين نعلم أن البيوت التى يخصصونها لسكناهم كانت صغيرة فلا يستطيع الذين تخصص لهم هذه البيوت أن يسكنوها ، ويفضلون أن يؤجروها من الباطن الى تجار السمك أو غيرهم من صغار التجار (١٩٣) • وكانت هاتان المدينتان هما الوحيدتين اللتين كان للتجار البنادقة الحق فى أن يحصلوا فيهما على مساكن بالمجان ، ولكن كان فى وسعهم أن يقطنوا فى أية جهة أخرى على نفقتهم • نجد مثالا لذلك فى مدينة اينوس Oenos عند مصب نهر ماريتزا Maritza ، وفى جزر أخرى من الامبراطورية (١٩٤) •

ولسوء الحظ ، فانه بالرغم من الضمانات التى توفرها المعاهدات لكل من البنادقة والجنويين ، كان أمن الأشخاص والأموال غير مكفول كما ينبغى • ويبدو أن الأهالى اليونانيين كانوا يحملون دائما فى صدورهم ذكرى أليمة للزمن الذى كانوا يقاسون فيه من اضطهاد اللاتينيين لهم ، وكانوا يعلمون المحاولات المتكررة التى كان البنادقة يقومون بها لاستعادة السيطرة اللاتينية على القسطنطينية • لذلك لم يكن يمر يوم دون أن يعتدى على أحد البنادقة أو يسلب ماله ، فاذا رفع شكواه الى المحاكم وجد القضاة أو بعض الحاضرين الذين لا شأن لهم بقضيته يصرخون فى وجهه ، فلا يستطيع حتى أن يسمع صوته • وكانت المعاهدات تعطى للبنادقة الحق فى أن ينالوا تعويضا من خزانة الدولة عما يصيب أملاكهم من تلف بفعل الرعايا اليونانيين (١٩٥) ، ولكنهم حين يذهبون الى القسطنطينية للمطالبة

(١٩٢) Taf. et Thom., III, 140, 327; IV, 188.

(١٩٣) شكوى حررها ماركو سلسى Marco Celsi قنصل تسالونيك : راجع :
Taf. et Thom., IV, 134 ; les Commem regest., I, 208, no 181.

(١٩٤) Taf. et Thom. IV,. 164, 166.

(١٩٥) معاهدة ١٣٠٣ فى :
Traité de 1303. Taf. et Thom. IV, 16 et ss.

بذلك ، يحاولون للتنفيذ على أموال من تسبب فى الاضرار بأملاكهم ، وهذا لا يملك شيئا فى الغالب ، ومن ثم يضطرون للسفر ثانية الى القسطنطينية ليحصلوا على نقودهم ، وهناك يلقون تباطؤا وتسويفا ، وأخيرا ، بعد أن يكونوا قد ملوا من الانتظار ، يقبلون تخفيضا فى ديونهم ، وعند السداد يقتطع موظف الخزانة أيضا جزءا من الدين • كانت حرية التجارة ، والاعفاء من الضرائب بالنسبة اليهم مجرد كلمات تقال ، يعترض تحقيقها كل أنواع العوائق • وكانت السلع الوحيدة التى يحظر عليهم فيهـا فى اقليم الامبراطورية حسب المعاهدات هى الملح والمستكة (١٩٦) ، وكان بوسعهم تصدير القمح بشرط الا يكون ثمة غلاء ، والا يزيد السعر على عدد معين (١٩٧) ، ولكنهم كانوا يستوردون القمح أيضا من أقاليم البحر الأسود ، وبلغاريا بنوع خاص • وقد عالجت المعاهدات هذه الحالة ، فقد نص فيها على أن هـذا القمح يمكن أن يعبر بمطلق الحرية اقليم الامبراطورية (١٩٨) • على أن الموظفين الروم كانوا يفسرون هذا البند على أنه يصرح للبنادقة فقط بنقل القمح عبر اقليم الامبراطورية ، لا بيعه فى أسواقها ، ويفرض على كل يونانى يشترى هذا القمح ضريبة قدرها ستة قراريط على كل « موديوس » modius (مكيال قمح يساوى ربع بوشل — المترجم) لذلك كان اليونانيون يفضلون طبعا شراء القمح من جهات أخرى • وأصر البنادقة على أن تطبيق هذا الاجراء الظالم مخالف للمعاهدات ، لأن قمح البحر الأسود لم يكن ضمن السلع المستثناة من القاعدة العامة التى تنص على حرية البيع والشراء • ثم أن القمح لم يكن السلعة الوحيدة التى يجيز الموظفون اليونانيون لأنفسهم ، دون أى حق واضح اما حظر بيعها للبنادقة أو اقتضاء ضريبة من المشترى • وثمة حق آخر كان معترفا به للبنادقة دون أية قيود : ذلك أن يمارسوا أية حرفة ، ولكن شتان بين الحق والواقع ! فاذا أحضروا الى سـوق القسطنطينية سروجا صنعوها بأنفسهم ، صودرت هذه السروج عند الأبواب • وكان اليهود الذين يزاولون حرفة السراجة فى حماية البنادقة يستهدفون بنوع خاص لمعاملات جائرة ، فكانت جلودها تحرق وتلقى فى الماء • وكان فى مقدورهم ، من الوجهة الرسمية أن يزاولوا حرفة الفراء ، على أن هـذه الحرفة كانت فى الواقع محظورة عليهم •• ولم يكن مسموحا لصياد بندقى

(١٩٦) Taf. et Thom., IV, 17.

— كانت جزيرة خيوس ، وهى البلد المنتجة للمستكة تنتمى فى تلك الفترة أيضا للامبراطور اليونانى ، الذى أنشأ احتكارا لبيع هذه المادة •

(١٩٧) Taf. et Thom., III, 98, 144, 332 et s., 349; IV, 82 et ss.

(١٩٨) L.c.' III, 144, 332 349.

أن يكون له منضدة فى سوق السمك ، ولجزار بندقى أن يكون له وضم أو منضدة فى السلخانة العمومية ، والأمر كذلك بالنسبة الى كل بائع بالقطاعى . وكانت الحكومة تبذل كل ما فى وسعها لاقامة حاجز بين الأجناس اليونانية والبندقية : فكان كل بحار يونانى يدخل فى خدمة البنادقة ، وكل عامل يونانى يشتغل مع بنادقة ، وكل منتج رومى يستعين فى تنقلاته بسفن بندقية يفرض عليه ضريبة أو يتعرض لمختلف ضروب الاهانة وسوء المعاملة . أما سائر الأمم الايطالية ، ليس فقط الجنويون ، ولكن أيضا البيزيون والأنكونيون فانهم كانوا يلقون معاملة طيبة تثير حفيظة البنادقة . ففى البلاط ، كانت شئون الجنويين تقضى دون عائق ، أما شئون البنادقة فانها لا تتحقق . وكان فى وسع الجنويين والأنكونيين أن يديروا حانات على أرصفة الموانى خارج الأسوار ، أما البنادقة فلم يكن مصرحا لهم بذلك . وذات يوم اندلع حريق دمر مجموعة من البيوت المجاورة لكنيسة القديس بطرس التابعة للبيزيين ، ورخص لكل المنكوبين بأن يعيدوا بناء بيوتهم ، وكان البنادقة هم وحدهم الذين رفض الترخيص لهم بذلك (١٩٩) .

وهكذا ، ففى حين كان البنادقة فى اقليم الامبراطورية معرضين لنية الايذاء من جانب الأمبراطور وموظفيه ، وكراهية الشعب ، وضروب الاذلال والاهانة ، كانوا فى المناطق اليونانية الواقعة تحت سيطرة الفرنجة يتمتعون على العكس من ذلك بمكانة ممتازة . كانت مستعمرة نجربونت التى يحكمها بايل بمعاونة اثنين من مستشاريه (٢٠٠) مركز نفوذهم ، كانت حسب تعبير بارع ورد فى خطاب حرره تاجر بندقى بمثابة « حبة عين » الجمهورية ، ويليها اليمنى (٢٠١) . وفى البداية كانت العقارات التى تملكها البندقية ملكية مباشرة محصورة داخل الحدود التى وصفناها قبلا ، أى أنها كلها ، بما فيها دار البلدية ، وكنيسة القديس مرقس (٢٠٢) ، الخ لا تزيد على نطاق حى فسيح فى عاصمة الجزيرة . ومع ذلك ، ففى أيدى هؤلاء « البايلات » ، وهم من رجال الدولة الأكفاء ، ذوى العقول الراجحة ، الذين لا تفوتهم مصالح الجمهورية ، أصبح هذا

---

(١٩٩) Taf. et Thom., IV, 124-139; ibid. IV, 139-164; ibid IV, 187-191.

(٢٠٠) Sanudo, dans Murat., SS XXII 797; Hopf, art. Grischenland, Op. Cit., LXXXV, 307, 371.

(٢٠١) Hopf, dans les Sitzungsberichte der Berl. Ahad., phil. hist. Cl., 3 février 1862, p. 81, 89.

(٢٠٢) كان هذا الحى محاطا بسور محصن ، استغرق بناؤه من ١٣٠٥ الى ١٣٠٨ : Hopf art.Grischenland, Op.. cit., LXXXV, 375.
وفى أعوام ١٣٣٨ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٣ أجرى تقوية التحصينات . ص ٤٣٨ .

الركن الصغير من المدينة قاعدة لمشروعات ضخمة ، فأولا ضعفت سلطة سائر السكان ، ملاك باقي الجزيرة ، بتغيرات طرأت على الأشخاص ، وتقسيمات ، ومنازعات داخلية ، واذ تركوا وشأنهم ، حين تخلى عنهم أمراء شبه جزيرة المورة الذين لم تكن تربطهم بهم الا علاقة تبعية اسمية تقريبا (٢٠٣) ، لم يلبثوا أن فهموا في كفاحهم المتواصل ضد الروم والأتراك والقطالونيين أنهم لا يستطيعون أن يجدوا عونا قويا الا في جمهورية البندقية التي لم تتخل أبدا عن مستعمراتها في نجربونت ، وكانت تزودها دواما بأسطول يحميها اذا تعرضت لأي خطر • وعلى ذلك كان هؤلاء السكان يشعرون أكثر فأكثر بأنهم في حماية البندقية ، ويعتبرون أنفسهم سعداء اذ تتضمنهم المعاهدات التي توقعها مع غيرها من الدول • ومن جهة أخرى عرفت الجمهورية كيف تحصل على مقابل لخدماتها : فبعد أن طردت القطالونيين في عام ١٣١٧ ، وضعت حاميات في قلاع المدن ، فلم تترك لهؤلاء السكان الا بقية الجهات (٢٠٤) •

وعلى هذا النحو بلغت الجمهورية شيئا فشيئا غاية مطامحها ، أي السيادة السياسية في الجزيرة ، وكانت تملك هذه السيادة منذ زمن بعيد في مجال التجارة : فبمقتضى معاهدة أبردت في عام ١٢٦٢ ، كان على كل البضائع التي تصل الى الجزيرة عن طريق البحر ، مهما كانت نقطة تفريغها أن تدفع ضريبة جمركية (٢٠٥) مقدارها ٢٪ ، كما يقول بيجولوتي Pegolotti (٢٠٦) • على أن الشيء الذي كان يؤكد غالبا تفوقها ، هو أن نجربونت هي المحطة التي يتردد عليها الغالبية من أسطولها التجاري ، فكانت السفن ترسو عندها عند مرورها ، ثم ترحل منها اما الى القسطنطينية أو تانا tana ، أو طربزون ، المسخ ، أو الى البندقية (٢٠٧) ، واما الى سواحل الأرخبيل الأوروبية أو الآسيوية •

---

(٢٠٣) Hopf, Op. cit., p. 410.

(٢٠٤) Hopf, Op. cit., p. 413, 426 ,438.

(٢٠٥) Taf. et Thom., III, 47, 53.

(٢٠٦) في عام ١٣٤٨ ، اشتكى سكان الجزيرة من ارتفاع الرسوم الجمركية • Pegol. p. 109; Hopf, Op. cit., p. 452.

(٢٠٧) وفقا للأصول المتبعة ، اكان على السفن الحربية المتجهة الى القسطنطينية والبحر الأسود أن ترسو عند نجربونت (Arch. Venet., XVIII, 326, 327 ... Misti)

ومع ذلك ، وعلى الأقل في عصور لاحقة ، حين كانت الرحلة تقتضي أن تكون سريعة ، كانت السفن تمر أحيانا بالكيكيد ، على مرأى من سيريفو Séripho انظر : Sathas Doc. inéd. relat, à l'hist., de la Grece au moyen-âge, 1ère série, I, 67, 114, 134, 194.

وكان وضع دوقات جزيرة نكسوس Naxos مماثلا تماما لوضع سكان تجربونت tierciers . كان هؤلاء الأمراء الصغار يجمعون تحت سيطرتهم المباشرة وغير المباشرة العديد من جزر الكيكلاد ، وكانوا ينحدرون من أسرة سانودى Sanudi الفينيسية ، وادعوا زمنا طويلا عدم خضوعهم لوطنهم الأصلى ، ومن ثم أطلقوا على أنفسهم ألقاب الأتباع الاقطاعيين للامبراطور اللاتينى (٢٠٨) ، وأعيان امارة شبه جزيرة المورة (٢٠٩) . وفيما بعد حين تعرضوا أكثر من غيرهم لغارات القراصنة ، اضطروا للالتجاء الى البندقية التى جلبت اليهم من نجربونت معدات حربية . ومن ذلك الحين اقتنعوا بأن البندقية هى الدولة الوحيدة القادرة على حمايتهم ، فراحوا يبذلون كل جهدهم لتوثيق صلتهم بها (٢١٠) ، وفى هذا كانوا يقتفون (٢١١) أثر العدد الكبير من أمراء الجزر الصغار ، من سلالة الأسر الفينيسية ، الذين كانوا فى الكثير من الأحيان يمضون قسما من السنة فى البندقية ، ولما كانت اماراتهم لا تزودهم الا بدخول قليلة لا تكفيهم ، فانهم يطلبون وظائف بالبندقية ، فكانوا ثمة أمراء بحر (أميرالات) ، وسفراء ، وحكاما فى خدمة الجمهورية (٢١٢) . وكانت الجمهورية شديدة الحرص على ألا يعقد هؤلاء الأمراء زيجات لا تتوافق مع مصالحها ، اذ كان لا بد من منع انتقال هذه الجزر الى أيد أجنبية ، جنوية بنوع خاص (٢١٣) . لذلك فانها كانت تنظر فى محكمتها كل القضايا الخاصة بالمطالبة باستحقاق الملكية والميراث . وكان كل ما من شأنه أن يسهم فى تنمية سلطة الجمهورية ، وفتح محطات وموانىء جديدة فى المياه اليونانية ، يعزز فى الوقت نفسه مصالح تجارتها فى الشرق الأدنى ، فضلا عن أن منتجات هذه الجزر ، على قلتها ، كانت بمثابة اضافة الحركة التجارية .

وفى حين كان بايل نجربونت يمارس رقابة شديدة على القسم الشمالى من الجزر اليونانية ، كانت مصالح الجمهورية فى القسم الجنوبى منها يرعاها دوق كريت . وكانت جزيرة كريت ، وهى أكبر هذه الجزر ، وتقع فى الوقت نفسه فى أقصى الجنوب منها بمثابة الحصن المنيع لهذه الجزر : ولما كانت فى أيدى البندقية ، فانها كانت أداة ثمينة للسيادة

---

(٢٠٨) Hopf, Zusätze zur Gesch von Andros, Op. Cit., p. 242-245.

(٢٠٩) Hopf, art. Griechenland op. cit., p. 410.

(٢١٠) Hopf, op. cit., p. 462.

(٢١١) Hopf, op. cit., p. 378.

(٢١٢) Hopf, Gesch. von Andros, p. 37 et s. 44

(٢١٣) Ibid, p. 56-60.

على هذه المنطقة كلها ، كما كانت بنوع خاص محطة وسطى ذات قيمة لا تقدر لتجارة سوريا . وقد سبق لنا الحديث فى هذا الخصوص كما عددنا المنتجات التى كانت تزود بها التجارة ، ولا يبقى علينا الا أن نتناول تاريخ الجزيرة منذ أن صارت مستعمرة فينيسية .

فقد أراد ميخائيل باليولوجوس ، عاهل القسطنطينية أن يستعيد الجزيرة ، فبعث اليها بالجيوش . واذ أصبح المستعمرون البنادقة هدفا لهجوم هذه الجيوش ، واعتداءات الأهالى اليونانيين ، فقد وجدوا أنفسهم فى وقت ما فى موقف حرج للغاية (١٢٦٤) (٢١٤) . ومع ذلك فقد أحبطوا هجمات أعدائهم حتى آن الأوان لعقد الصلح معهم . وبمقتضى معاهدات أعوام ١٢٦٥ ، ١٢٦٨ ، ١٢٧٧ تعهد ميخائيل بسحب قواته ، والا ينازع البنادقة ملكية الجزيرة (٢١٥) . وفى الواقع لم يأت بعد ذلك أى تهديد للجزيرة من ناحية القسطنطينية . ومع ذلك بدأ عهد المشاكل الداخلية . ولن نتكلم الا من قبل التذكرة عن الخلافات الداخلية التى نشأت عن واقعة ثارية فردية أثارت فى عام ١٢٦٩ ثورة عدد من الأسر الفينيسية ضد الدوق أندريا تزينو Andrea Zeno (٢١٦) (١٢٦٥ — ١٢٦٩) : الا أن عناصر المقاومة الرئيسية كانت فى أسر « الارشونتات » (الحكام اليونانيين) archentes grecs وهى أسر شديدة البأس بما تمتلكه من أقاليم ، وبنفوذها على سكان الأرياف . كان زعماء الثورة الأولى هم أفراد أسر كورتازى Cortazzi الذين أعلنوا عزمهم على طرد الأجنبى ، وكادوا يصيبون هدفهم مرتين ، المرة الأولى فى عام ١٢٧٤ حين فاجأوا الدوق مارينو تزينو Marino zeno فى شعبة (ممر بين جبلين) ، واستشهد فى ساحة القتال زهرة الأسر النبيلة الفينيسية ، والمرة الثانية فى عام ١٢٧٧ اذ ضيقوا الخناق على الدوق بييترو تزينو Pictre zevo فى كانديا العاصمة التى ضربوا الحصار عليها ، غير أن وصول مارينو جراد ينجو Marino Gradengo أجبرهم على رفع الحصار ، وما لبثوا أن استبسلوا بعد الهزيمة ، وبعد أن استمرت ثورتهم ست سنوات.

---

(٢١٤) Taf. et Thom. III, 54; Laur de Monacis, Chronicon de rebus venetis, p. 158!

(٢١٥) Taf. et Thom. III, 68, 80, 95, 137.

— جدد ابنه الدرونيك هذا الوعد فى عام ١٢٨٥ : (ibid, 325, 344).

(٢١٦) Laur, de Monacis, p. 158-160.

— صحح السيد هوف Hopf ، الترتيب التاريخى للأحداث التى ذكرها هذا الكاتب، وحدد بالضبط عهد حكم تزينو ، وكذلك تاريخ تحرير الخطاب الذى أرسله تزينو الى الدوج (١٠ أول ابريل ١٢٦٩) بشأن هذه الثورة ، انظر : Taf. et Thom., III, 102 et ss.

تقريبا (٢١٧) • وبعد بضع سنين ، قاد الكسيس كالرجيس Glexis Kalergis ثورة جديدة ، وواصل النضال ست عشرة سنة (١٢٨٣ — ١٢٩٩) (٢١٨) ، وانتهى الأمر بخضوعه بمقتضى معاهدة فى صالحه كفلت له توسيع أملاكه الى مدى كبير ، وحصوله على ايرادات كبيرة من أملاك الكنائس والأديرة (٢١٩) • ومن ذلك الحين ، أخلص الولاء للبنادقة ، واقتدى بهم فى ذلك خلفاؤه ، وبامتناعهم عن الاشتراك فى العصيان فشلت محاولات كثيرة للقيام بثورات تعاقبت من عام ١٣١٩ الى ١٣٣٣ •

ومع ذلك ففى عام ١٣٤١ اندلعت ثورة عامة جديدة ، وفى وقت ما لم يبق للبنادقة من أملاك سوى العاصمة وبضعة قصور منعزلة (٢٢٠)• ومع ذلك فقد تغلب البنادقة على خصومهم فى النهاية ، ومع أن وطنهم الأصلى لم يرفض تزويدهم بالمعونات ، الا أن الفضل الأكبر فى نجاحهم يرجع الى النبلاء ملاك الاقطاعيات وغيرهم ممن أدوا بحماس واجبـاتهم العسكرية • وفى الوسع أن نتصور حياتهم خلال هذه الفترة : فأحيانا كان من المستحيل عليهم فلاحة الأرض ، وأحيانا دمر الثوار المحاصيل فى الحقول • ولحسن الحظ كانت خصوبة التربة العظيمة عونا كبيرا لهم ، وسرعان ما سدت الفراغات • ولا بد أن التجارة قد عانت من آثار هذه الحروب الأهلية على انتاج الجزيرة • ومع ذلك واصلت التجارة الكبرى مع سورية ومصر نشاطها المعتـاد : ذلك لأن مدينـة كانديا ، العاصمة والميناء الرئيسى للسفن الضخمة لم تسقط أبدا فى أيدى الثوار • وكان هناك أيضا ميناء آخر أقل أهمية هو مدينة كانيا Canée • ففى عام ١٢٩٣ أحرق الجنويون هذه المدينة وأحالوها رمادا • وفى عام ١٣٠٩ استولى عليها قراصنة بيزيون (٢٢١) ، الا أنه باستثناء هذين الحدثين ، بقيت المدينة طول الوقت مفتوحة السفن التجارية • وهناك ، كما فى كانديا ، بنى البنادقة رصيفا حاجزا كبيرا لتيسير دخـول السفن فى الميناء (٢٢٢) •

(٢١٧) Laur. de Monacis, p. 160 et s.; Hopf, Op. cit., p. 314.

(٢١٨) Laur. de Monacis, p. 161 et s. ; Hopf, Op. cit., p. 460.

(٢١٩) Taf. et Thom., III, 376 et ss.

(٢٢٠) Laur. de Monacis, p. 164-171; Hopf, Op. cit. p. 460-462.

(٢٢١) Hopf, Op. cit., p. 460.

(٢٢٢) بعثة موفدة فى مهمة لجزيرة كريت ، بامر الدوج أندريا داندولو فى عام ١٣٥٠ ، انظر :

Thomas, Abh. der baver, Akad, Cl I. vol. XIV, sec. I, p. 208-212. (Ordonnances des années 1312 et 1317); l'Archvi Venet, XVIII, 59 et ss.

• وعلى اليابسة ، فى شبه جزيرة المورة ، نعلم أن البندقية لم تكن تملك سوى ركن من الأرض ، ولكن على هذا الركن قامت مدينتان عظيمتا القيمة لأمة تهتم بتجارة الشرق ، وكانت السلطة الاقطاعية (الفينيسية) قد أحاطتهما بتحصينات قوية ، وأقامت بهما حامية دائمة • وتعتبر كورون أهم المدينتين ، تأوى الى مينائها السفن الحربية وغير الحربية (٢٢٣) ، وتحصل على دخول أكثر مما تحصل عليها مودون Modon حيث كانت الايرادات فى الكثير من الأحيان أقل من المصروفات (٢٢٤) • ومن الناحية الادارية ، تشكل المستعمرتان مستعمرة واحدة تحت سلطة كاستيلان Castellans (حكام) ، كانوا فى البداية ثلاثة ثم صاروا فيما بعد اثنين ، يتبادلان العمل فى المدينتين بالتناوب ، فى فترات محددة • ولم يكن لدى هؤلاء الحكام ما يشغلهم من شئون البلد بقدر ما يشغلهم من أمور تجرى فى البحار ، من سفن تنقل الحجاج ، وسفن تجارية ، وأساطيل حربية فينيسية وغيرها تقبل كثيرا تلتمس مأوى لها فى موانيها ، وكثيرا ما كان يطلب منهم المشورة أو المساعدة حين يكون ثمة خطر داهم من أساطيل معادية أو قراصنة (٢٢٥) • وكثيرا أيضا ما كان يعهد اليهم فى ظروف حرجة بحراسة بضائع واردة من مختلف أنحاء الشرق الأدنى (٢٢٦)، ثم استرداد هذه البضائع فيما بعد •

والآن ، وقد عرفنا موقف الأمتين التجاريتين الايطاليتين الرئيسيتين فى بلاد الروم فى عهد ميخائيل باليولوجوس وأندرونيك الثانى ، فقد حان الوقت لنقول القليل الذى نعرفـــه عن « المـــستعمرة البيزية فى القسطنطينية » فى الفترة نفسها • فعندما دخل ميخائيل باليولوجوس القسطنطينية وجد بها تجارا بيزيين قليلين ، ووافق على أن يتركهم مقيمين بالمدينة مع قنصلهم (٢٢٧)• ويبدو أن حيهم كان هو حيهم القديم ، اذ نجد أن كنيسة القديس بطرس الذى كانوا يملكونه من قبل فى القرن الثانى عشر كانت تابعة لهم أيضا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٢٢٨) •

---

(٢٢٣) فى عام ١٢٨١ تلقى « كاستيلان » كورون أمرا ببناء ترسانة ••• وتكرر هذا الأمر بين ١٣١٣ ، و ١٣١٧ (Archiv. Venet., XIX, 113). ونجد ثمة كذلك مجموعة من مراسيم أخرى خاصة بكورون ومودون •

(٢٢٤) Sathas, l.c. III, 376.

(٢٢٥) Hopf, art. Griechenland, Op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440.

(٢٢٦) Sathas, l.c. III, 299 et s., 353 et s., 367, 441 et s.

(٢٢٧) Pachym., I, 162 et s., 168.

(٢٢٨) «In contrata S. Petri Pisanorum» : Tof. et Thom., 166.

وكان القنصل البيزي مرخصا له ، بصفته ممثلا لدولته بشرف تقديم آيات الولاء للامبراطور في الأعياد الرسمية (٢٢٩) ، ولكنه في غير هذا لم يكن يؤدي الا دورا متواضعا للغاية • ولم يحدث سوى مرة واحدة أن سجل في الحوليات البيزنطية خدمة مرموقة أداها قنصل بيزي للامبراطور أندرونيك • فثمة رهبان فرنسيسكان كانوا قد اشتروا قطعة أرض في القسطنطينية ، وشيدوا عليها ديرا فخما وكنيسة ، وتم كل هذا بموافقة الامبراطور • غير أن اقامة رهبان من الرومان الكاثوليك في قلب العاصمة أثار حنق البطريرك اليوناني وغضب السكان ، حتى قر عزم أندرونيك على ابعادهم ، ولو بالقوة اذا لم يكف الاقناع لحملهم على الرحيل • وكان لتدخل القنصل البيزي الذي كان يقطن بجوار هذا المكان فائدة كبيرة ، اذ حصل من كهنة كنيسة القديس بطرس على تعهد بحراسة الأواني المقدسة الخاصة بالدير (٢٣٠) • ومع أنه اكتسب بهذا التصرف اعتراف الامبراطور له بالجميل ، فانه اجتذب اليه حقد البودستات الجنوي في غلطة ، الذي حرضه عليه الفرنسيسكان ، فحاول اغتياله (٢٣١) •

كيف يتسنى لنا أن نفسر أن البيزيين ، بعد أن أدوا في حوالي عام ١٢٠٠ دورا بالغ الأهمية في سوريا والقسطنطينية ، ساءت حالهم في عاصمة الامبراطورية لدرجة أنه لم يعد لهم شأن يذكر في البلاد الجديدة التي تفتحت للتجارة في هذه الفترة ؟ كان السبب في ذلك المنافسة الطويلة الأمد التي قامت بين الجنويين والبيزيين : فعلى مدى سنين طويلة اشتركت الجمهوريتان في حروب ، بدأت بقصد امتلاك جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، ولكن السبب الرئيسي لهذه الحروب كان الحصول على التفوق البحري في القسم الغربي من البحر المتوسط • وانتهى الصراع في عام ١٢٨٤ في معركة ميلوريا Meloria البحرية ، وكان الأسطول الجنوي تحت امرة اوبرتو دوريا Oberto Doria ، وترك البيزيون في الموقعة ثلاثا وثلاثين من سفنهم الحربية سقطت في أيدي العدو ، وغرق سبع سفن أخرى ، وأسر المنتصر عشرة آلاف رجل من بينهم صفوة النبلاء البيزيين • واذ اضطروا في عام ١٢٨٨ أن يعقدوا معاهدة مذلة لهم ، فانهم لم يقبلوها الا على مضض ، وواصلوا مع ذلك معارك ثانوية صغيرة •

---

(٢٢٩) Codinus Curopal. p. 57 .

(٢٣٠) يضيف المترجم مع ذلك في هذه الفقرة ، خطأ ، ان كنيسة القديس بطرس كانت كنيسة يونانية ، حقا انه كان يجهل انها تنتمي الى البيزيين ، غير أن هذا الظرف الذي كان فيه لدى القنصل البيزي ، بحكم منصبه أوامر يعطيها لقساوسة هذه الكنيسة ، كان حقيقا بان يوجهه الى الصواب •

(٢٣١) Pachym., II, 536-539.

وعقـابا لهـم على ذلك ، دمر كورادو دوريا Corrado Doria فى ١٠ من سبتمبر ١٢٩٠ الميناء التجارى المسمى « الميناء البيزى » (بين مصب نهـر كالامبريـون Calambrione وحصـن ليفـورن Livourne القديم) (٢٣٢) ، وأقام سدا عند مصب نهر أرنو arno ، وكان هذا ضربة قاضية على قوة بيزا البحرية والتجارية ، لم تنهض منه أبدا وكان نهوضها عسـيرا لأن تسكانيا كانت فى تلك الآونة ممزقـة الأوصـال بالمنافسة التى احتدمت بين الجويلفيين والجبليين ، وبلغت ذروتها آنئذ ، وكانت بيزا على رأس حزب الجبليين ، وفى حاجة الى كل قواها لمواصلة النضال ضد قوات الجولفيين التى تفوق قواتها ٠

ولا بد أن هذه الأحداث قد أثرت على نشاط البيزيين التجارى ، وامتد رد فعل هذا التأثير الى مدينة القسطنطينية ، الا أنه بدأ يظهر هناك بورجوازيون من فلورنسا ، المدينة الجويلفية ، ووريثة بيزا مستقبلا ٠ وقد ذكرها بيجولوتى Pegolotti على حدة ضمن الأمم التجارية التى لها ممثلون فى القسطنطينية ، فى فترة لم تكن تملك بعد ميناء أو سفينة حربية (٢٣٣) ٠

ومن مدن ايطاليا الوسطى كان لأنكونا Ancône فى القسطنطينية مستعمرة تجارية متميزة ، يتولى ادارتها قنصل يعينه الوطن الأم لسنوات ثلاث ، يساعده قنصل للتجار (٢٣٤) ٠ وكانت مرتبة هذا القنصل فى الاحتفالات الرسمية لبلاط بيزنطة تلى مباشرة مرتبة قنصل بيزا ، تبعا للأهمية النسبية للأمة التى يمثلها القنصل (٢٣٥) ٠ وفى غير ذلك تبعث أنكونا سفارات خاصة حين يراد الحصول على تعويضات عن انتهاكات ارتكبت أو زيادة فى الاعفاءات (٢٣٦) ٠ وفى مناسبة احدى هذه السفارات ألغى الامبراطور أندرونيك الثانى أحكام مرسوم سابق ، لم يبق له أثر

---

(٢٣٢) Atlante Luxoro, p. 52.

(٢٣٣) Pego.l p. 24.
فى عام ١٣٤٨ كان لبنك البرتى Alberti الفلورنسى فرع فى القسطنطينية ، انظر : Perrens, Hist. de Florence, III, 258 et s.

(٢٣٤) Makuscev. Monumenta hist. Slav. mérid, I, I, p. 161. et ss. Commem. reg., II ,69, lign. 2.

(٢٣٥) Codin. Curopal., p. 57.

(٢٣٦) Makuscev, l.c.

الآن ، وحدد الرسوم (٢٣٧) المفروضة على التجار الأنكونيين بنسبة موحدة قيمتها ٢٪ عند دخول السلع وخروجها ، بما في ذلك رسوم الوزن والسمسرة • وفي هذه المناسبة أيضا منع كل تحايل على القانون ، اذ كان بعض التجار الأنكونيين يدخلون بضائعهم خلسة تهربا من دفع الرسوم ، وذلك بأن ينسبوها الى مصدر فينيسي أو جنوي •

وأخيرا ، كان جنوب ايطاليا ممثلا في القسطنطينية بمدن منطقة بوليا (ابوليا) la Pouille ، وبخاصة مدينتي باري Bari ، وتراني Trani ، ثم بتجار من أمالفي وصقلية (٢٣٨) •

وكان تجار راجوزة Roguse يقيمون دائما علاقات مع بيزنطة ، وجددوا امتيازاتهم القديمة ، أولا عن طريق ميخائيل باليولوجوس ، ثم في عام ١٣٢٢ عن طريق أندرونيك الثاني (٢٣٩) • وكانوا يمارسون تجارتهم برا وبحرا بفضل امتيازات حصلوا عليها من أمراء البوسنة والصرب والبلغار (٢٤٠) الذين صرحوا لهم بأن يجتازوا ببضائعهم شبه جزيرة هيموس Hémus كلها •

كانت هذه الأمم كلها معروفة لزمن طويل في بلاد الروم • ولكن في الفترة التي نتحدث عنها نجد منها أمة جديدة ، أمة القطالونيين Catalans ، ومن بين الذين وصلوا أخيرا من هذه الأمة ، برز بنوع خاص من أواخر القرن العاشر تجار برشلونة ، برزوا بروح المغامرة • ويبدو أن وحدة المصالح التي جمعت في تجاه عدواني واحد ضد أمراء أسرة انجو التي حكمت مملكة نابولي ، وأسرة باليولوجوس ، وملوك أراجون كان لها تأثير كبير في تنمية التجارة في هذه الدول • واستقبلت القسطنطينية بحفاوة قباطنة السفن القطالونية ، وذلك حين اتحد ملوك أراجون مع ثوار صقلية فهزموا جيوش نابولي ، وشغلوها كثيرا حتى بددوا بكل ما كان في نفوس سكان الامبراطورية البيزنطية من مخاوف الغزو • ومن جهة أخرى شكلت «مذبحة صلاة المساء» (ثورة صقلية على الملك شارل الأول — ذبح فيها الفرنسيون يوم الاثنين من عيد الفصح — المترجم)

---

(٢٣٧) Juill. 1308, publ. en grec par Miklosich et Muller, Acta graca, III, xvi-xix en latin par Makuscev, l.c., p. 156-1C8.

(٢٣٨) D'Avino, Cenni storici sulle chiese Napol., p. 676; Petroni, Storia di Bari. II, app., p. 537; Pegol., p. 24; Camera, Mem. di Amalfi, I, 540 et ss.

(٢٣٩) Luccari, Ristretto degli annali di Rausa, p. 40; Appendini, Notzie sulle antchità dei Ragusei ,I, 287; Engel, Gesch. d. Freistaats Ragusa, p. 118.

(٢٤٠) Miklosich, Monum. Serbica, passim.

قاعدة الوحدة بين الأراجونيين والقطالونيين من جهة ، وبين الصقليين من جهة أخرى ، وكانت الأمتان يحكمهما أمراء من أسرة واحدة • وفى ميناء مسينا ، كانت السفن القطالونية تتصرف كأنها فى وطنها الأصلى ، كما تمتعت التجارة القطالونية ثمة بامتيازات غير عادية (٢٤١) • ولا ننسى أن مضيق مسينا كان من أهم الممرات التى يجتازها غالبية السفن المتجهة الى الشرق ، ونعتقد أن التجار القطالونيين كانوا بطبيعة الحال يستخدمون هـذا الطريق • وعلى ذلك انتهى بهم الأمر الى انشـاء مستعمرة فى القسطنطينية ، ومن العسير تحديد تاريخ انشائها • والثابت أنه فى حوالى عام ١٢٩٠ حظى قنصل قطالونى يدعى دالماشيو سونر Dalmacio Suner بمقابلة الامبراطور أندرونيك الثانى ، وعرض عليه مشروعا وضعه سكان أراجون ، وقطالونيا ، ومايورقا Majorque ، وبخاصة بورجوازيو المدن الساحلية ، برشلونة ، وفالنسية ، وترتوسا (طرطوشة) Tortose من أجـل ترددهم على الامبراطورية اليونانية وعاصمتها ، ورغبتهم فى الحصول أولا على حرية الدخول فيها بوجه عام ، ثم تخفيض الرسـوم الجمركية بنوع خاص • ورخص لهم الامبراطور بحرية التنقل فى أراضيه ، وحدد نسبة ٣٪ للرسوم التى يتعين عليهم دفعها عند دخولهم وخروجهم ، وكفل لهم فوق ذلك أمن بضائعهم ، وبخاصة فى حالة الغرق • وقد حفظت الوثيقة التى ذكرت فيها هذه الامتيازات ، وفى حوزتنا النص الأصلى لها باللغة اليونانية (٢٤٢) والترجمة باللاتينية (٢٤٣) ، ومن الأسف أنه لم يذكر بها اسم الامبراطور ، أو السنة •

غير أنه لما كان ملك أراجون قد ذكر بها على أنه ملك صقلية أيضا ، فالواضح أنه لا يمكن أن ينتمى الى عصر خلاف العصر الذى اتحد فيه التاجان ، أى الفترة بين سنتى ١٢٨٢ ، ١٢٩٥ • ومن العسير أن نفهم كيف توصل السيد كابمانى M. Capmany الى تحديد سنة ١٢٩٠ تاريخا

---

(٢٤١) تشهد الوثائق الرسمية (دبلومات) لملوك صقلية : جاك (١٨ و ٢٢ فبراير ١٢٨٦ ، ١٧ يولية ١٢٨٨) ، وفردريك الثانى (٣ أبريل ١٢٩٦) بفصاحة بالوضـع الممتاز للقطالونيين ، فى حين أن الجنويين قد لعبوا حتى ذاك الحين الدور الأول فى سوق صقلية • ولم تكن هذه الخطوة قاصرة على تجار برشلونة وقطالونيا بوجه عام ، ولكنها كانت تمتد فتشمل الى جزر البليار ، وكل بلدان جنوب فرنسا التابعة لتاج أراجون : كونتية روسيون مع بيربنيان ، ولاسيردانى ، ومدينتى ناربون ومونبيلييه :

Pandetta delle gabelle di messina, éd. Sella, dans les Miscell di Storia ital., X. 120 et ss., et l'introduction de P. Vayra p., 33-37; ibid, p. 131-142.

(٢٤٢) Capmany, Mém. hist. sobre la marina, commercio y artes de Barcelona. II, 467 et s.; Zacharie, Jus graeco-romanum, III 97 et s.

(٢٤٣) Capmany, l.c. p. 367 et s.

لهذه الفترة ، ولا يمكن قبول هذا التاريخ الا على أساس أنه تقريبي . وثمة تفاصيل معينة في هـذه الوثيقة تدل على أن علاقات القطالونيين التجارية مع الامبراطورية كانت وقتئذ في بدايتها ، وفي هذه الحالة يتعين الافتراض بأن د. سوتر كان سفيرا مكلفا بمهمتين : بتأسيس المستعمرة القطالونية في القسطنطينية وادارتها في فترة معينـة . ولكن منـذ عام ١٢٦٨ حصلت السلطات البلدية ببرشلونة من الملك على ترخيص بتعيين قناصـلة في البلاد التي لبحرية مدينتهم علاقات معهـا ، وذكرت اسم « رومانيا » Romanic (أي الامبراطورية البيزنطية) بنوع خاص في هذا الترخيص (٢٤٤) . ويصعب التسليم بأن هذا الترخيص بقي حبرا على ورق بالنسبة الى عاصمة « رومانيا » ، وأنه لم يعين بها قنصل الا في عام ١٢٩٠ . نضيف أيضا أننا نجد آثارا أكيدة تدل على وجود تجارة بحرية بين قطالونيا وبيزنطة منذ عهد ميخائيل باليولوجوس .

والواقع أن هذا الامبراطور قد استغل ذات يوم وجود سفينة تجارية قطالونية كبيرة في الميناء ليطارد بها قرصانا جنويا (٢٤٥) . واستمرت هذه الحركة التجارية في عهد أندرونيك الثاني . ففي عام ١٣٠٢ على سـبيل المثال ، عندمـا كان بعض تجار برشلونة يتأهبون للابحار الى القسطنطينية ، سلمتهم سلطات المدينـة خطابات توصـيـة للبودستات الجنوى (٢٤٦) : ولعلنا نتساءل : لم لم توجه هذه الخطابات الى القنصل القطالوني ؟ لنا أن نفترض ، مع السيد كابماني أن منصب القنصل القطالوني كان شاغرا في ذاك الحين ، أو ربما أن الوظيفة لم تنشأ بعد بصفة دائمة . ويبدو أن وصـول فرقة الجنود المرتزقة الذين طلبهم روجر دي فلور Roger de Flor في سنة ١٣٠٢ كان الغرض منه انشاء وضع متميز للأمة القطالونية في بلاط بيزنطة ، وبخاصة لأن اعتراف الامبراطور بالخدمات الجليلة التي أدتها له هذه الفرقة ضـد الأتراك قد امتدت آثاره لتشمل كل القطالونيين الموجودين في القسطنطينية .

والحقيقة أن الجنويين خافوا من أن يطغى عليهم القطالونيون في مجال الامتيازات التي يمنحها الامبراطور ، ومن ثم اتخذوا ازاءهم للحال

---

(٢٤٤) Capmany, l.c. p. 34, no XIV.

(٢٤٥) Pachym., I, 424 et s. ; la Chronique de Giov. Villani (éd. Dragom. I, 439).

— من الراجح أن تكون السفن الجنوية قد اتت وحدها من رومانيا ، وأن السفن الصقلية والقطالونية أتت من صقلية .

(٢٤٦) Capmany, II, 375 et s.

موقفا عدائيا . ولكن موت روجر دى فلور الذى اغتيل فى عام ١٣٠٥ بايعاز من الأمير ميخائيل قلب وجه الأمور . وقد رأينا أن « الفرقة » (أو السرية) أرسلت تهديدا الى الامبراطور من جاليبولى التى اتخذتها مقاما لها . وردا على هذا التهديد قتل الامبراطور قائدهم وكل القطالونيين والأراجونيين الموجودين فى القسطنطينية . الا أنه ليس من الثابت أن يكون هذا الاجراء القاسى قد أصاب التجار العاديين . ومع ذلك فطالما استمرت الحرب بين « السرية » والامبراطورية ، أى لسنوات عديدة ، كان من العسير على مستعمرة تجارية أن تبقى فى القسطنطينية دون أن تتعرض لأخطار جسام . ولا شك أن المستعمرين قد هاجروا ، وربما الى حصن السرية فى جاليبولى حيث وجدوا بها مزيتين : أولا الغنائم الهائلة التى ترد اليها فتغذى تجارتها بمادة لا تنفد ، ثم انهم أسهموا فى الدفاع عن الموقع (٢٤٧) . وبعد ذلك ، حين غادرت السرية جاليبولى واستقرت فى دوقية أثينا (١٣١١) ، لم يكن ثمة شك فى أن تلك الامارة صارت مقصدا للسفن التجارية القطالونية (٢٤٨) لأنها كانت على ثقة من أن تلقى بها ترحيبا . غير أن القسطنطينية كان لها أهمية أخرى من الوجهة التجارية ، لذلك كان التجار القطالونيون يعربون عن رغبتهم الخالصة فى توثيق علاقاتهم السابقة منها . ويبدو أن المصالحة المرغوبة لم يطل انتظارها ، ذلك لأنهم حصلوا قبل عام ١٣٢٠ على خفض الرسوم على الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ الى ٢٪ . والواقع أن سلطات برشلونة أشارت فى وثيقة مؤرخة بسنة ١٣٢٠ هذه الى امتياز امبراطورى يكفل لمواطنيها هذا السعر ، ولكنها اشتكت من طلب سداد هذه الرسوم مرتين أو ثلاث مرات ، وتقول أن التجار القطالونيين ، حين لا يتسنى لهم تصريف بضائعهم فى أول ميناء يفرغون فيه بضائعهم فينقلونها الى أسواق أخرى ، كان يقتضى منهم الرسم نفسه فى كل مرة . ولكى تحصل سلطات برشلونة على محو هذا التعسف ، فانها طلبت الى الملك جيمس الثانى Jayme II أن يؤيد طلبها لدى الامبراطور .

وفي هذه الآونة كان البيت التجارى ج. كاربونيل G. Carbonell

---

(٢٤٧) Muntaner, trad. Lanz., II 106 et s, 129 et s., 132, 144, 152.

ـ جعل مونتانر تجارا قطالونيين على رأس فرقة من النساء المسلحات للدفاع عن جاليبولى ضد الجنويين ، والثابت أن هؤلاء الناس لم يخرجوا من سرية المرتزقة .

(٢٤٨) les Commem. reg., II, p. 15, no 96, p. 22, no 129, p. 28 et s., no 165, p, 30, nos 171, 173, p. 139 et s., no 130, p. 325, no 269, p. 330 s., no 303.

ـ فى هذه الأوراق نجد تجارا من برشلونة او ماجورقة يقومون برحلات تجارية الى أثينا وطيبة أو مشتركين فى بعثات قائمة من دوقية أثينا .

et Cie يشحن سفينة مبحرة الى القسطنطينية ، فتكفلت بحمل الرسالة الى الملك (٢٤٩) • ويعتقد السيد كابمانى أن الوثيقة الثانية أصدرها أندرونيك الثانى لصالح القطالونيين ، على أثر هذا المسعى • وفى حوزتنا هذه الوثيقة • ولسوء الحظ فانهما هى والوثيقة الأولى لا يحمل أى منهما تاريخا (٢٥٠) : ويجعلهما السيد كابمانى حسب رأيه فى عام ١٣٢٠ (٢٥١) • ويبدو لأول وهلة أن كل شيء يبرر هذا الرأى : فالواقع أن الوثيقة هى الرد على خطاب الملك جيمس الذى أحضره المدعو كاربونيل وثلاثة تجار قطالونيين • ولكنا اذا أمعنا النظر فى الخطاب ، اكتشفنا أن الحرف الأول من اسم كاربونيل فى خطاب سلطات برشلونة هو حرف G (? Guillermo) فى حين أن اسم كاربونيل فى المرسوم الامبراطورى مدون بحروف كاملة Berengario ، فضلا عن ذلك، فان المرسوم يحدد الرسم الواجب سداده بنسبة ٢٪ ، يعقب ذلك حظر مطالبة القطالونيين برسم يزيد على هذه النسبة الا أن هذه الجملة مصوغة بعبارة عامة للغاية فلا يمكن أن نرى فيها استجابة لمطالب سلطات برشلونة • فى رأيى اذن أن المرسوم الذى جعل السيد كابمانى تاريخه عام ١٣٢٠ هو أول امتياز خفض فيه اندرونيك الرسوم الجمركية من ٣٪ الى ٢٪ ، وهذا هو الرد على عريضة أكثر قدما ، عززها الملك وأحضرها برنجر كاربونيل وشركاؤه •

أما بخصوص النتائج التى تم الحصول عليها بخطاب آخر من جيمس بتاريخ ١٣٢٠ وحمله جويرمو كاربونيل وشركاؤه ، بافتراض أن الملك كتبه بالفعل ، وهذا أمر محتمل للغاية ، فان رأيى هو أننا لا نملك من الوسائل ما يساعدنا على معرفتها • وعلى أية حال (٢٥٢) • فلا شك أن بحرية برشلونة التجارية التى كانت وقتئذ فى فجر رخائها قد استغلت على نطاق واسع الترخيص الذى منحت اياه بالاتجار مع الامبراطورية اليونانية ، وأنها شغلت بجرأة مكانها الى جانب البحرية

(٢٤٩) Capmany, II, 84 et s.

(٢٥٠) Capmany, II, 468-471 ; Zachariae, l.c. p. 639 et ss.; Miklosich et Muller, l.c., III, 98-100.

(٢٥١) Mem., I, 73.

(٢٥٢) La Carta al Rey Andronico il Paleologo, publiée dans la Rivista de ciencias historicas de S. Sanpere y miquel, no 1, Avril 1880.

الجنوية والفينيسية (٢٥٣) : وسوف نرى أن ظهورها فى المياه اليونانية لم يلبث أن أعقبه ظهور أسطولها الحربى المكلف بحماية مصالح آل أراجون ·

وأخيرا ، ففى تعداد الأمم التجارية الممثلة فى مدينة القسطنطينية ، والذى دونه بيجولوتى ، نجد اسم « البروفانسيين » Provençaux (٢٥٤) · غير أنه يجب تفسير هذا الاسم بمعناه الواسع الذى أعطاه العصر الوسيط · من ذلك أن هذا الاسم يذكرنا أولا بسكان مرسيليا ، المدينة الأولى فى مقاطعة بروفانس Provence بالمعنى الصحيح ، ولكن أيضا ، وربما أكثر من ذلك مدينتى مونبيلييه ، وناربون · وثمة ثلاث وقائع من أعمال القرصنة ، أدت الى مطالبات ودعـاو ، تعرفنـا بمـا كانت عليه التجارة بين مدن جنوب فرنسا والقسطنطينية ، وتمطينا فكرة عن المواد التى كانت موضوعا للتجارة بين البلدين · ففى عام ١٣٣٤ أبحر تجار من ناربون ومونبيلييه وبيزيير Béziers على متن سفينة ناربونية ، ومعهم شحنة من الشب والشمع والجلود والقمح ، وفى الطريق وقعوا فى أيدى قراصنة أسبان (٢٥٥) ·

وفى عامى ١٣٥٣ ، ١٣٥٥ كان ثمة تاجر فرنسى كبير يدعى ريمون سيراليه (Serailler) Raimond Scraller له محل تجارى فى مونبيلييه ، ويمضى من حين الى حين بعض الوقت فى ناربون (٢٥٦) : أصيب مرارا بخسائر جسيمة بفعل قراصنة من البنادقة يجوبون المياه اليونانية ·

وكانت جنوا والبندقية وقتئذ فى حرب ، كما سنرى فيما بعد ، وكان هؤلاء القراصنة يطاردون بنوع خاص السفن الجنوية ، ولم يمنعهم ذلك من تفتيش أية سفينة يصادفونها ترفع علما محايدا بدعوى الاستيثاق

---

(٢٥٣) جرى فى القسطنطينية عام ١٣٢٥ مناوشات دموية بين البنادقة والقطالونيين ، ساعد فى تهدئتها الاسقف بيرونيمس Hieronymus اسقف كافا :
Coll. des doc. ined, Melanges hist; II (1880), p. 96.

(٢٥٤) Pegol., p. 24.
ذكروا أيضا فى معاهدة عام ١٣٣٢ بين اندرونيك الثالث والبندقية ، انظر :
Miklos et Muller, Acta graeca, III, 108.

(٢٥٥) Germain Hist. du commerce de Montpellier, I, 509 et ss.
Port, Essai sur l'hist du comm.
تجد مثالا مشابها (حوالى ١٣٥٠) فى :
marit. de Narbonne, p. 117.

(٢٥٦) نجد تفاصيل عن هذا الشخص فى
Francisque Michel, hist du commerce et de la navigation de Bordeaux, II, 159 ; Germain, Hist du commerce de Montpellier, II, 218 ,not.

من أنها لا تحمل بضائع جنوية ، فاذا أعجبهم ما فيها من شحنات صرحوا: بأنها غنيمة مشروعة لهم ، مهما كان مصدرها • واليكم مثالا لذلك • في عام ١٣٥٣ التقى أسطول فينيسى تحت امرة لورنزو تشيلو Lorenzo Celso ذات يوم بسفينة تجارية رودسية عائدة من رومانيا ومتجهة الى ميناء قيدها ، فاستولى عليها واقتادها الى كانديا • وكان لريمون سيراليه فى هذه السفينة بضائع قيمتها ألف ريال ذهبى ، لم يستطع أن يستردها (٢٥٧) •مثال آخر : فى ١٨ من فبراير ١٣٥٥ ، التقى ثلاثة قراصنة من البنادقة فى مضيق الدردنيل بمركب من مسينا ذاهب من رودس الى القسطنطينية ، فاستولوا عليه ، وارتابوا فى أنه يحمل بضائع جنوية ، وكان بين الركاب شخص يدعى يوحنا تاسكر Jean Tascher وكيل ريمون سيراليه ومن أقربائه ، كان قد شحن على هذا المركب بضائع يبلغ ثمنها حوالى ٦٠٠٠ ريال ذهبى ، وصادر القراصنة الفينيسيون للحال ، ليس فقط بضائع تاسكر مع غيرها من البضائع ، ولكن أيضا ما كان يحمله من نقود (٢٥٨) •

وتنبئنا قائمة البضائع التى يحملها تاسكر الى سوق القسطنطينية أو بيرا بنوع المواد التى كانت تصدر من جنوب فرنسا الى امبراطورية الروم : نجد فيها أقمشة صوفية من فرنسا والفلاندر ، ونسيج كتانى من ريمس Reims ، وشملات صوفية • وعلى قدر علمنا كانت ناربون هى المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا التى حظيت بامتيازات من الأباطرة اليونانيين ، أول هـذه الامتيازات منحه اياها أندرونيك الثانى • وفيما يختص بالرسوم الجمركية ، لم تكن الامتيازات التى تتضمنها ذات أهمية ، لأن رسوم الدخول والخروج حددت فيها بنسبة ٤٪ ، فضلا عن أن الأمبراطور أضاف اليها فى صالح خزانته تنبيها على الناربيين بألا يحاولوا تهريب بضائع أجنبية خاضعة لرسم أعلى ، مع بضائعهم ، ورخص لجاليتهم بأن يكون دار عامة وقنصل ينتخبه أفراد الجالية ليدير شئونهـا ، وله حق الفصل فى كل المنازعات التى تقع بين رعيته ، ولكن لا يجوز له أن يفصل فى القضايا الهامة •

---

(٢٥٧) Commem. reg., II, 276 no 5, suppl. A ; ibid. p. 293, no 92; ibid. p. 264, no 238.

(٢٥٨) Coll. des doc. inéd., Mélang. hist., III, 121-134; Commem. reg., II, 277, no 6, suppl. ; no 7, suppl. A ; ibid., p. 293, no 92, suppl; ibid, p. 307, no 163, suppl. ; Coll. des doc. inéd., l.c., p. 134 et ss. 141. 147 ; Commem. reg., II, p. 275-277, nos 3-7, 9; p. 296, no 102; p. 297, no 106 et s. ; p. 300, no 121; Commem. reg., biid, p. 293, no 92; p. 299, no 114.; ibid. p. 264, no 238, p. 283, no 38 et s., p. 307, no 163; Commem. reg., III, p. 11, no 51; p. 78, no 470; p. 91, no 563; p. 102, no 654; p. 132; p. 133, no 28; p. 190, no 279 ; p. 234, no 8; p. 280, no. 202.

ولا يريد الامبراطور أن يجعل التجار الناربونيين مسئولين عن الأضرار التي يوقعها قراصنة من بنى أمتهم فى الامبراطورية ، ويعطى فضلا عن ذلك الضمانات المعتادة لسلامة الأموال فى حالة غرق السفن ٠ ولم يكن من المنتظر على ما يبدو صدور هذا المرسوم (٢٥٩) لانشاء المستعمرة رسميا ، لأن الامبراطور يتحدث عن قنصل تم تعيينه من قبل ٠ وبقيت المستعمرة بعد وفاة أندرونيك الثانى ، اذ نرى فيما بعد قنصلا للناربونيين يطلب من الأمبراطور يوحنا الخامس ، ابن أندرونيك تجديد هذا المرسوم ، ويتم له ذلك (٢٦٠) ٠

يمكن اذن القول بحق ان مجموعة من الأمم التجارية كانت تتردد على أسواق القسطنطينية وضاحيتها بيرا (غلطة) ٠ وتنوعت الشروط المفروضة على كل من هذه الأمم ٠ وكالمعتاد كانت الأمم الكبرى تحظى برعاية أكبر مما تحظى به الصغرى ٠ كان البنادقة والجنويون يتمتعون بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية (٢٦١) ٠ أما البيزيون فكانوا يدفعون فى القسطنطينية وبيرا ٢٪ من قيمة الشىء ، عند الاستيراد وعند التصدير ٠ وكان الفلورنسيون ، والبروفنسيون ، والأنكونيون ، والصقليون وسائر الأجانب يخضعون للرسم نفسه ، أى ٢٪ ٠ فقط كان يقتضى من هؤلاء سداد ضريبتين عند الوصول ٠ وكان رسم التصدير يحسب بسهولة ، فهناك أمران ٠

اما أن التجار الأجانب يبيعون بضائعهم ثم يشترون بالمبلغ الذى يحصلون عليه بضائع أخرى للتصدير ، أو يجلبون مع بضائعهم المستوردة ذهبا وفضة من أجل مشتروات جديدة : فهذه المبالغ تخضع أيضا

---

(٢٥٩) Ducange, Famliiae byzantinea, p. 237 et s;, éd. Paris, in fol

(٢٦٠) le Musée des archives départementales (Paris 1878), Texte, p. 282 et s.;
Miklosich et Mulelr, Acta et dipl. graeca, III, 120 et s.
Tables, no XIIV; Ducange Famil. buy. p, 239 et s; Gachariac Jus, graeco-romanum III, 712 et s;

(٢٦١) المسألة هنا ، بطبيعة الحال ، لا تتعلق بضرائب تفرضها فى المستعمرات حكومات الأوطان الأصلية ٠ كانت جمهورية جنوا تصدق فحسب على هذه الضرائب ٠ وكان على سكان بيرا ، وكذا التجار وقباطنة السفن الجنويين الذين يقيمون بها اقامة عابرة أن يدفعوا الضريبة لملتزمى جبايتها أو محصليهم ٠ أما بخصوص أهالى بيرا ، فان الضريبة كانت تحدد من عام الى عام بمعرفة لجنة ، على أساس قيمة املاكهم العقارية والمنقولة ، وكانت تقدر للتجار بالنسبة الى قيمة بضائعهم مهما كان نوعها ، وسواء كانت سلعا مستوردة أو للتصدير ، أو مارة بالاقليم ، وعلى ربابنة السفن أن يدفعوا الضريبة لحظة وصولهم أو اقلاعهم ، حتى ولو رسوا فقط بسفنهم ٠ انظر فى ذلك :
Atti della Soc., Lig,. XIII 2,85 et s.

للضرائب ، ومن ثم تكون عرضة لتفتيش موظفي الجمارك • وبعد سداد هذه الضريبة المزدوجة ، والحصول من موظفى الجمرك على ايصال بالسداد ، لا يبقى على التجار أى تكليف آخر ، الا اذا اشتروا بحصيلة بيوعهم بضائع أخرى ليبيعوها فى سوق أخرى من أسواق الامبراطورية ، وفى هذه الحالة يلتزمون ثانية بسداد رسم ال ٢٪ ، والأمر كذلك اذا انصرفوا طلبا لبضائع فى البلاد المطلة على البحر الأسود لاحضارها بالتالى الى الامبراطورية(٢٦٢)ويضيف بيجولوتى الذى ندين له بهذه المعلومات أنه حين يقدم تاجر هدية لموظفى الجمارك ، من وكلاء تجاريين وتراجمة ، فان هؤلاء يتصرفون بأدب جم،ويقدرون الرسوم على البضائع المستوردة مخفضة• وعند بيجولوتى بوجه عام معلومات غزيرة وصحيحة ، ويمكن الاعتماد على ما يقوله عن تنوع الرسوم المفروضة ، ومع ذلك يتبين من الامتياز الذى منحه أندرونيك الثالث أنه بالنسبة الى الناربونيين الذين يعتبرون فى عداد البروفانسيين ، كان الرسم ٤٪ عند الدخول والخروج ، وبالنسبة الى أمم أخرى ، كان الرسم أعلى من ذلك : وقد رأينا فى الواقع أن الامبراطور يصر على أن يمتنع الناربونيون عن ادخال بضائع خاضعة لرسوم أعلى مع بضائعهم تهربا من دفع هذه الرسوم •

وكان فى أسواق القسطنطينية وبيرا العديد من المصروفات التى يتحملها البائع والمشترى مناصفة ، كرسم الوزن والكيل (وكان الجنويون فى بيرا معافين من هذين الرسمين حين يستعملون موازينهم ومكاييلهم) ، ورسوم غربلة التوابل (سحقها ودقها) وبخاصة بالنسبة الى الأنواع التى يتخلف عنها نفايات ، وأجور السماسرة ($\frac{1}{4}$ ٪) والحمالين والحزامين ، الخ •

كانت بيرا هى السوق الرئيسية : وكانت الصفقات فى القسطنطينية أقل بكثير منها فى بيرا ، الا أنه لم يكن هناك فرق بين السوقين من حيث السلع المعروضة للبيع • ومن المستحيل عرض قائمة كاملة ، أو حتى تقريبية بهذه السلع • ويعطى بيجولوتى (٢٦٣) فكرة عن تنوعها اللانهائى، ومع ذلك فقصده من ذلك ليس وضع قائمة بها ولكن فقط ذكر ما يباع منها بالرطل أو الصاع أو القطعة ، الخ والمصروفات التى تتحملها حتى تصل الى يد المشترى • نذكر أول كل شىء التوابل ، ومواد الصباغة ، والنباتات العطرية من الهند وفارس ، المستوردة عن طريق طربزون ، أو تانا • فبالنسبة الى هذه المواد لم يكن لسوق القسطنطينية ، أو

(٢٦٢) Pegol, p. 24.

(٢٦٣) Pegol, p. 14-18.

بالأحرى سوق بيرا منافس سوى سوق الاسكندرية على أكثر تقدير ، وكذا سوق فاماجوستا Famagouste • ولم يوجد في أى مكان آخر مثل هذه التشكيلة من الشب ، وكان هذا أمرا طبيعيا لأن الجزء الأكبر منه كان يرد من آسيا الصغرى التى كانت تنتج أيضا العفص (ثمر البلوط ، وهو دواء قابض مجفف ، ربما اتخذ منه حبر أو صبغ — المترجم) • وكان فراء الشمال وجلوده تصل عن طريق تانا Tana ، وكافا Caffa وكانت القسطنطينية هي المستودع الكبير لقمح القرم ، وبلغاريا ، وتراقيا . وكانت صناعة النسيج الغربية تتزود عندها بالمواد الأولية ، من حرير فارس ، والصوف ، ووبر ماعز آسيا الصغرى ، وكتان الاسكندرية أو اليونان ، وتصدر اليها أيضا منتجاتها : من جوخ الفلاندر وفرنسا وتسكانيا ، ومنسوجات شمبانيا ، والخيوط الذهبية والفضية من لوكا Lucques وجنوا ، وأنسجة بخارى من أذربيجان (ارمينيا) وقبرص • وكانت أنبذة ايطاليا تتنافس بها أنبذة اليونان وكانديا ، وصابون البندقية ، وأنكونا ، وبوليا ، وقبرص ، ورودس ، وتين اسبانيا ، وجوز نابولى ، وزيت زيتون ايطاليا تتقايض فيها بشمع اليونان وتاتاريا Tatarie (تانا) ، ولودانوم (عقار ممزوج بروح الأفيون — المترجم) قبرص ، وصمغ (مستكة) خيوس • وبسبب ضخامة حركة منتجات الشرق والغرب فى هذا المكان ، رأى بيجولوتى من الضرورى أن يضع للتجار قائمة مقارنة بالموازين والمكاييل والنقود المستعملة فى بيرا والقسطنطينية ، وفى سائر الأماكن التى تسنى له أن يحصل على معلومات عنها ، ولم يقنع بالمقارنة بين هذين السوقين والجهات الرئيسية بايطاليا وجنوب فرنسا ، ولكنه مد أبحاثه الى أشبيلية وقادس ، وحتى الى بورج Burges ولندن •

ولنكف عن هـذا الاستطراد الطويل ، ونعود الى سرد الوقائع التاريخية ، ونبدأها فى عهد أندرونيك الثانى ، ونمر على الأحداث فى عشر السنوات الأخيرة من حكمه • وعلينا أول كل شىء أن نشير الى نزاع خطير قام بين المستوطنات الجنوية فى الشرق الأدنى وبين وطنها الأصلى • ففى جنوا ، وبعد خلافات داخلية طويلة بين الجولفيين والجبليين انتهت بانتصار الأولين واخضاع المدينة لحكم زعيم الحزب فى ايطاليا ، روبرت ملك نابولى (١٣١٨) وبقيت المستوطنات فى الشرق الأدنى وفية للحزب الجبلى ، كما بقى الامبراطور أندرونيك أيضا منحازا لهذا الحزب ، وهو أمر مفهوم ، فلم يكن له أية مصلحة فى تشجيع نمو سلطة ملك نابولى الذى أصبح أخوه فيليب دوتارنت Philippe de Tarente بزواجه من

كاترين دو فالوا Catherine de Valois (١٣١٣) (٢٦٤) ووريثة لمطالبة بلدوين الثاني Baudouin II بعرش الامبراطورية . لذلك نراه يقدم اعانات مالية كبيرة ، من جهة الجنويين الذين طردوا لمناصرتهم قضيـــة الجبليين ، ومن جهة أخرى لفردريك الثاني ملك صقلية (٢٦٥) عدو روبرت المباشر . ولم يكن في وسع الحزب الجويلفي المسيطر على جنوا أن يتساءل في تنظيم هذه المعارضة الجبلية في الشرق ، خاصة وأن عدد الجبليين المطرودين من المدينة أصبح يشكل خطرا عليه .

وعلى ذلك قر عزم الحزب على القيام باستعراض من شأنه ارهاب الامبراطور والرعايا الجنـويين المقيمين باليـونان وعلى شـواطيء البحر الأسود . ففي عام ١٣٢٤ أبحر أسطول جنوي جويلفي متجها الى الشرق تحت امرة كارلو جريمالدى Carlo Grimaldi ، وحين وصل قبالة بيرا ، وجد المستوطنين مستعدين لاستقباله ، واذ لم يجرؤ كارلو جريمالدى على مهاجمتهم ، فانه اكتفى بأخـذ بعض الأسرى ، ثم توغل في البحر الأسود ، وأوقع خسائر شديدة بالمستوطنين في تانا وبيسكى Pesce (ميناء جنوبي تانا على نهر بى ــ سو (Bei-sou) . ولكنه حين أراد الرجوع ، وجد مدخل البسفور مغلقا : فقد كان في انتظاره عند مضيق هيرون Hiéron أسطول أكبر عددا من أسطوله ، جهزه جنويو بيرا . ولما لم يستطع المرور اتجه الى سينوب Sinope بأمل أن يجد بها مددا : ووعده أمير المنطقة ، الغـازى شلبى Ghazi Tchélébi باعطـائه كل ما طلبه . على أن هذا الوعد لم يكن سوى خدعة ، اذ تمكن الأمير من الاستيلاء غدرا على قسم كبير من بحارة الأسطول ، ومعظم القادة ، وقطع رؤوس بعضهم ، وألقى الآخرين في السجن ، واستولى على كل السفن تقريبا ، وهربت بقية السفن ، ونجحت في التسلل بين اطرادات بيرا والعودة الى جنوا (٢٦٦) . وما كادت مستوطنة غلطة تهدأ بالا من هذه الناحية ، حتى اضطرت الى الدفاع عن نفسها ضد هجوم شنه البنادقة ، ونجحت في صد الهجوم دون خسائر كبيرة . وكان ذلك في عام ١٣٢٨ ، وكان الخصمان يعيشان في سلام منذ زمن بعيد . ولكن البندقية اذ أثار حفيظتها أعمال القرصنة العديدة التي كان يقوم بها البحارة الجنويون ، فقد قر عزمها على أن تأخذ بثأرها ، ونظمت حملة كبيرة عهدت بقيادتها الى جوستنيانو جوستنيانى Gustiniano Giustiniani . وقسم الأميرال البندقى أسطوله قسمين ، ونجح في امرار القسم الأول

(٢٦٤) Buchon, Recherches et matéraux, I, p. 52 et ss.

(٢٦٥) Texta, Vita Frdierici II, p. 183.

(٢٦٦) Contin de Jacq. de Voragine, l.c., p. 505 et s. ; Stella dans Murat., SS. XVII 1051 et s ; Giustiniani, Annali di Genova, p. 122.

تحت أسوار غلطة ، واحتل هذا القسم مضيق هيرون وأسر عددا كبيرا من السفن الجنوية • وكمن جوستنتيانى مع القسم الثانى من أسطوله قبالة برج لياندر (بالقرب من اسكوتارى) (٢٦٧) ، وأعلن أنه لن يتحرك من هناك حتى يحصل من الجالية الجنوية على وعد بدفع تعويض حربى قدره ١٨٠٠٠ دينار ذهبى ، يسدد فى ثلاث سنين • ولم يطل مقامه هناك أكثر من اسبوعين أو ثلاثة ، وعند انسحابه أطلق سراح السفن التجارية الجنوية (واليونانية) التى كان قد أسرها • وابتهج أهالى القسطنطينية حين تبين لهم أن شحنات القمح والسمك المملح التى أتت بها هذه السفن من سواحل بحر أزوف ومصب كوبان والدن بقيت سليمة • وكانت الدهشة كبيرة وسارة حين تبين أيضا أن عاصمة الأمبراطورية أصبحت مضطرة للحصول على زادها أن تذهب فى طلبها الى تلك البلاد البعيدة ، وذلك منذ أن فتك بالسهول الخصبة فى تراقيا ومقدونيا مرة بعد أخرى الفرقة القطالونية ، وأتراك آسيا الصغرى (٢٦٨) •

وبعد بضعة شهور ، أسقط أندرونيك الثانى العجوز من عرشه ، أسقطه حفيده أندرونيك الثالث الصغير (مايو ١٩٢٨) • ويبدو ان هذا الانقلاب حقن دماء جديدة فى الأمبراطورية • كان الأمبراطور الجديد ذا طبيعة محاربة ، وعمل بنوع خاص على رفع البحرية من مستوى الانحطاط التى وصلت اليه بسبب اهمال سلفه ، ولم يستغرق هذا العمل الا وقتا قليلا • وكان من أوائل أعماله استرداد جزيرة خيوس التى كانت أسرة زكاريا الجنوية قد استولت عليها تعسفا • وقد رأينا قبلا الظروف التى تم فيها ذلك •

وكان سكان الجزيرة اليونانيون قد أرهقتهم الضرائب التى فرضها عليهم هؤلاء السادة الجدد ، وكانوا فضلا عن ذلك يكرهونهم بسبب أصلهم اللاتينى ، ومن ثم التمسوا من الأمبراطور أن يخلصهم من ربقة الأجنبى • وفى عام ١٣٢٩ جهز أندرونيك أسطولا لم يشهد أحد مثله من زمن بعيد ، يسانده سكان الجزيرة اليونانيون ، فأجبر دون مشقة الأمير الحاكم وقتئذ ، مارتينو زكاريا على التسليم واقتاده أسيرا الى القسطنطينية • أما بنديتو زكاريا أخو مارتينو فقد خان أخاه لأغراض شخصية ، ومن ثم طرد من

---

(٢٦٧) Nicéphore Grégoras dit «dans la Corne d,or».

(٢٦٨) Dandool, p. 412 ; Sanuto, Vite déi ducki, p. 599; Contin de Jacq. de Voragine, p. 507 et s. ; Nicéph. Grég., I, 416 et s.

(٢٦٩) Niccolo Sanuto, duc de Naxos)

زود نيقولا سانوتو ، دوق ناكسوس الأسطول اليونانى بتعزيز من أربع سفن : (Nicéph. Grég. I, 436) :

الجزيرة ، وحاول بعد ذلك استرداد الجزيرة لحسابه الخاص ، ولكنه فشل ومات كمدا فى عام ١٣٣٠ (٢٧٠) .

واذ استتب سلطان أندرونيك فى خيوس ، فكر فى بسط سلطانه أيضا على مدينة فوكاية . ورأينا أن هذه المدينة قد انتقلت فى عام ١٣١٤ من يدى باليولوجوس زكاريا الذى توفى بلا عقب الى يدى اندريولو كاتانيا Andréolo Cattanea . وكان الأخير على قيد الحياة حين أقبل اندرونيك وضرب الحصار أمام المدينة ، ولكنه كان حينئذ غائبا ، وعهد بحراسة المدينة الى عمه أريجو تارتارو Arrigo Tartaro . ولم يبد أريجو أية محاولة ، ولو شكلية للدفاع عن المدينة ، بل سلم للامبراطور فوكاية الجديدة كلها ، مدينة وقصرا ، واقسم يمين الولاء بين يديه ، ومعه الحامية الجنوية كلها .

ودخل أندرونيك القصر ، وعقد بلاطه يومين ، وعندما وطد على هذا النحو سيادته ، أقام أريجو حاكما على المدينة لمدة غير محدودة ، بصفته ممثلا لاندريولو الغائب (٢٧١) . وهكذا احتفظت أسرة كاتانيو بملكيتها لفوكاية ، بفضل ما أبدته من خضوع مناسب . ومات أندريولو بعد هذا بقليل (١٣٣١) ، ونسى ابنه وخليفته دومنيكو Domenico أنه ليس أكثر من حاكم ، فلم يلبث أن تصرف فى فوكاية باعتباره سيدا وعاهلا ، ولم يقنع بذلك ، بل استولى بقوة السلاح على جزيرة من أجمل جزر الامبراطورية . كان ذلك فى مناسبة العمليات التى أجراها بايعاز من البندقية الكثير من القوى المتحالفة ضد أتراك آسيا الصغرى ، وكان المقصود أولا وضع سواحل الأرخبيل وجزره فى منأى من غارات قراصنتهم، ثم اذا أمكن ابعادهم من الساحل ودفعهم داخل الأراضى(٢٧٢) .

ورغم بدايات موفقة ، لم يلبث الحلفاء أن عدلوا عن المضى فى حملتهم هذه . غير أن فرسان رودس ، ودوق ناكسوس Naxos ، وسيد فوكاية ، وقد ثار غضبهم بعد أن أنفقوا أموالا ضاعت هباء ، قر عزمهم على تعويض خسارتهم بالاستيلاء على لزبوس Lesbos ، رغم أن هذه الجزيرة كانت

---

(٢٧٠) Contacuz., I, 371-388, 390 et s. ; Nicéph. Grég., I, 438 et s.; Contin. de Jacq de Vorag. p. 510.

– أشار بعض المسافرين الى أمر مارتينو :

Ludolf von Suthen, p. 23 et s.,
et Jord. Catalani, p. 63 et Brochart, dans son Advis directif (en tête de l'oeuvre de Piloti), p. 281.

(٢٧١) Cantacuz., I ,388-390.

(٢٧٢) تجد مزيدا من التفاصيل فى الفصل الخاص بآسيا الصغرى .

تابعة للأمبراطورية ، وأن أندرونيك كان من أعضاء الحلف . ونجحوا في ذلك ، الا أن فرسان رودس ودوق ناكسوس اضطروا بعد قليل الى التخلي عن غنيمتهم . أما سيد فوكاية فإنه استخدم الحيلة حينا ، والقوة أحيانا ، واستطاع بذلك أن يضمن لنفسه ملكية الجزيرة ، ملكية مطلقة ، ثم بادر بتوطيد مقامه فيها ، ولم يترك بفوكاية سوى حامية (٢٧٣) .

كان غزو لزبوس على أيدي أحد مواطني الجنويين في غلطة أمرا يسر هؤلاء بلا شك ، كان نوعا من التعويض عن فقدهم جزيرة خيوس . وكان في أسلوبهم الذي عبروا به عن فرحتهم اهانة وتهديدا للأمبراطور . والحقيقة أنهم كانوا ناقمين عليه ، أولا لأنه انتزع خيوس من آل زكاريا ، واهان آل كاتانيو في فوكاية ، ثم أنه تخلى عن السياسة الحذرة المعادية التي كان يتبعها سلفه حيال البندقية (٢٧٤) . فالواقع كان أول تظلم لهم أن أندرونيك ، في الوقت الذي تأهب فيه لخلع جده عن العرش كان قد لجأ الى أمير البحر البندقي جستنياني ليحصل منه على نجدة رفض هذا أن يقدمها اليه (٢٧٥) . والتظلم الثاني : أنه انضم الى الحلف المشكل ضد الأتراك وهذا الحلف هو في الأصل من ابتكار البندقية ، وأنه في المؤتمرات التي انعقدت في رودس عام ١٣٣٢ ، جعل ممثلا له السفير البندقي بييترو داكاناليه Pietro da Canale (٢٧٦) . ثالث تظلم : أنه في شهر نوفمبر من السنة نفسها ، صدق على المعاهدات القديمة المنعقدة بين الأمبراطورية والبندقية ، وأبدى استعداده لتلقي مجموعة من طلبات التعويض المقدمة اما من حكومة البندقية أو من بعض البنادقة (٢٧٧) .

وفي هذه الأحوال ارتأى للجنويين أنهم غير ملتزمين بمراعاة المعاهدات الخاصة بهم مراعاة دقيقة ، ومن ثم عملوا على تقوية التحصينات القديمة

---

(٢٧٣) Niceph Grég., I, 525 et s. ; Cantacuz.

(٢٧٤) كان اندرونيك الثاني قد اظهر مشاعر سليمة حيال البنادقة : فبمقتضى معاهدة عقدها في شهر اكتوبر ١٣٢٤ مع الدوج جيوفاني سورانزو ، سبب شكوى من اكبر شكاويهم ، وذلك بأن رخص ببيع قمح بنطس وغيره بوجه عام في كل أنحاء الإمبراطورية ، فيما عدا في سوق الحبوب بالقسطنطينية : ويوجد النص اليوناني لهذه المعاهدة في :
Miklos et Muller, Acta graca, III, 199 et ss.
والنص اللاتيني في :
Taf. et Thom., IV, 200

(٢٧٥) Niceph, Greg. I, 417.

(٢٧٦) له سلطات مطلقة ، في ٢٦ اغسطس ١٣٣٢ :
Taf et Thom., IV, 227.

(٢٧٧) Texte grec dans Miklosich et Muller, Acta graca, III, 105-111; texte latni dans Taf. et Thom., IV, 230 et ss.

فى غلطه ، ثم وجدوا أنها غير كافية فشيدوا خـارج حيهم على المرتفع المشرف على غلطه حصونا كالقلاع كدسـوا بها أسلحـة مختلفـة أنواعها (٢٧٨) • وما أن بلغ الامبراطور نبأ ما جرى فى لزبوس حتى أصدر أمره بعمل الترتيبات اللازمة لاستعادة الجزيرة ممن غزوها ، الا أنه أراد ألا يرحل قبـل أن يعطى أهـالى بيرا درسا قاسيا ، فبدأ باشعال النيران فى القلاع التى شيدوها على المرتفع ، ذلك لأنه لم يكن من الجائز لهم أن يبنوها بالمخالفة التامة لامتياز عام ١٣٠٤ ، وكان بوده أن يمضى الى أكثر من ذلك ، ولكنه توقف أمام ما أبداه السكان من عزيمة قوية ، اذ كمنوا خلف أسوارهم وهم محصنون تماما من ناحية القسطنطينية ، وأعدوا عدتهم لحصار حسب الأصول المرعية •

وفى المستطاع أن نرى فى هذه الظروف ما كانت عليه التجارة بين العاصمة وضاحيتها ، وأهمية هذه التجارة فى الوفاء بالحاجات • ولما كان سكان غلطة يتزودون من القسطنطينية بالأشياء الضرورية لمعيشتهم ، لذلك وجدوا أنفسهم بعد بضعة أيام مهددين بالمجاعة ، فضلا عن أن جماعة من صـغار التجار الذين يتعيشـون من التجارة وجدوا أنفسهم محرومين من وسائل معيشتهم • هـذه الحال حملت قادة الحركة على التفكير ، ولما انقضى أسبوع فى صياح وضجيج ، اعتزم القادة على الاذعان للامبراطور • وهكذا صار فى وسع أندرونيك أن يرحل وهو مطمئن من ناحيتهم ، فأبحر مع أسطول كبير لكى يؤدب دومنيكو كاتانيو (٢٧٩) • وبدأ بالاستيلاء على خمس سفن تابعة للمتمرد على طول سواحل لزبوس ، وبعد أن أنزل فى الجزيرة عددا من الفرق العسكرية التى كلفها بمحاصرة ميتلين Mityline عاصـمة الجزيرة الجديدة ، اتجه الى فوكاية هدفـه الرئيسى • وفى هذه الناحية وجد تابعـا ذا فائدة عظيمة له فى شخص صاروخان Sarou-Khan (٢٨٠) سلطان مانيزيا Magnésie كانت علاقة هذا السلطان بمستعمرة فوكاية غريبة فى نوعها ، اذ كانت المستعمرة تدفع له كل سنة ، على شكل هدية (٢٨١) مبلغا من المال حددته معاهدات قديمة ، الأمر الذى لم يمنع قيام منازعات دائمة بينها وبينه • وكانت فى هذه الآونة بالذات تحتجز ابنا للسلطان ، ورهائن أخرى • وكان

---

(٢٧٨) Nicéph. Grég., I, 527.

(٢٧٩) Nicéph. Grég., I, 528; Cantacuz., I, 476 et s.

(٢٨٠) بخصوص هذا السلطان وامبراطوريته ، انظر فيما بعد : آسيا الصغرى •

(٢٨١) Ibn-Batouta, II, 314; Ducas, p. 162 et s.

ـ يحدد هذا الأخير رقم الجزية • وتبعا للتواريخ التى يذكرها ، بدأ آل زكاريا دفع الجزية فى أواخر القرن الثالث عشر •

السلطان قد اختبر مرارا شجاعة حامية فوكاية (٢٨٢) ومتانة قلعتها ، فلم يجرؤ على مهاجمتها • ومع ذلك سارع بقبول دعوة الامبراطـور ، وقامت قواتهما المشتركة بحصار المدينة : وقاوم الموقع أكثر من ستة شهور ، وأصبح المحاصرون مهددين بالمجاعة ، ولم يتقوها ، ولبضعة أيام فقط إلا بالقاء السكان اليونانيين خارج الأسوار • وأخيرا قر عزمهم على التفاوض (١٣٣٦) • وأطلق الحاكم الجنوى سراح الأسرى الأتراك ، وتعهد بالحصـول من كاتانيو عـلى قرار بالجـلاء عن جزيرة لزبوس • واعتزم كاتانيو بالفعل ترك الجزيرة ، أو بالأحرى العاصمة ، فهى كل ما تبقى له • الا أنه لا يبدو أن المعاهدة أثرت فيما اعتزم فعله : ذلك أن ما حمله على اتخاذ قراره هذا هو تخلى جنوده عنه بعد رشوتهم بالذهب البيزنطى (٢٨٣) • وعلى ذلك عاد الى فوكاية التى وافق الامبراطور على ترك حق استغلالها له ، لا حق ملكيتها • ومع انكماش ممتلكاته على هذا النحو ، لم يستمتع بها زمنـا طويلا (١٣٤٠) ، كان ذات يوم يصطاد ، فثار السكان الروم وقتلوا جنود الحامية اللاتينية الصغيرة ، وأعلنوا أنهم لن يعترفوا بسـيد عليهم الا الامبراطور • وجاء بحاكم رومى Megaduca أرسله الامبراطور ، وتسلم باسمه مقـاليد الحكم (٢٨٤) •

ولدينـا من المعلومات ما يكفى لنفهم ما كان لهذه الأحداث من أثر فى هياج النفوس فى غلطة • ففى عام ١٣٣٧ حين تجرأ أورخان « الأمير العثمانى الأكبر » الذى كان مسيطرا منذ زمن بعيد على الضفة الآسيوية لهلسبونتس Hellepont (الدردنيل) فعبر المضيق عند نقطتين بقصد ضرب الحصار أمام القسطنطينية نفسها ، كان قد أدخل فى اعتباره تذمر أهالى غلطة (٢٨٥) • فهل كان قد اتفق مسبقا مع سكان غلطة ؟ وهل كان على حق فى اعتماده بصورة ايجابية على معاونتهم له ، أو على مجرد حيادهم ؟ لا يسعنا أن نجيب على ذلك ، ثم ان الأمر لا أهمية له ، لأنه هزم وارتد قبل أن يصل الى أسوار العاصمة • غير ان هذه الواقعة مفيدة

---

(٢٨٢) فى عهد اندريولو كاتانيو كانت الحامية تتكون من ٥٢ فارس ، و ٤٠٠ جندى من المشاة : Catal. p. 63.

(٢٨٣) ما تقدم مقتبس من :

Nicéph. Grég., I, 529-535, et à Cantacuz., I, 477-495 :

ولابد من القول بان بين الحكايتين فروقا كبيرة •

(٢٨٤) Niceph. Grég., I, 553; Hopf, art. Giustiniani, p. 313, 315.

(٢٨٥) Nicéph. Grég., I, 539.

للغاية اذ توضح لنا مدى تراخى الحلف المنعقد بين بيزنطة وجنوا بمقتضى معاهدة نيمفيوم فى عهد الباليولوجوس الثالث ٠

وتوفى أندرونيك الثالث فى عام ١٣٤١ تاركا الامبراطورية ليوحنا الخامس ، وهو طفل فى التاسعة من عمره ، بوصاية أمه الامبراطورة آن Anne (من سافوا) ٠ وبعد وقت قليل رفع « الخادم الأكبر » يوحنا كانتا كوزين Jean Cantacuzène علم الثورة ، وبعد سنين طويلة من الصراع نجح فى استلام التاج بالنيابة انتظارا لبلوغ يوحنا الخامس سن البلوغ (١٣٤٧) ٠ هذه الحرب الأهلية الطويلة شلت التجارة والصناعة فى البلد ، وأهلكت الشعب ، وأضعفت الأمبراطورية ، وأتاحت لأعدائها فرصة التوسع على حسابها ٠ عندئذ مد استيفان دوشان Etienne Douchan ملك الصرب سلطانه حتى الأرخبيل ، واتخذ لنفسه لقب امبراطور القسطنطينية ٠ ولما كان مسيطرا على حوض ستريمون Strymon (ستروما Struma حاليا) ، فانه حتى يتم له غزو تراقيا وعاصمة الأمبراطورية ، لم يكن ينقصه ــ وهذا ما بدا له على الأقل ــ سوى التحالف مع قوة بحرية ٠ ومن أجل ذلك اتصل مرتين بالبندقية (فى ١٣٤٦ ، ١٣٥٠) ليحصل على معاونتها ، وفى المرة الثانية عرض عليها ثمنا لتعاونها السيادة الكاملة على بيرا أو ابيروس ، ولكنه تلقى فى المرتين رد الجمهورية بأنها لا يمكن أن تتنكر لمعاهداتها ، وأنها تفضل أن تقوم بدور الوسيطة (٢٨٦) ٠

وعلى العموم كانت علاقات البندقية فى هذه الفترة بأباطرة الدولة البيزنطية ذات طبيعة ودية ٠ وعندما تسلمت الامبراطورة آن مقاليد الوصاية على العرش ، تلقت تهانى سفير بندقى جدد معها المعاهدات القديمة سبع سنوات (٢٨٧) ٠ وعندما تولى يوحنا كانتا كوزين العرش الأمبراطورى أثنت عليه الجمهورية (٢٨٨) وطلبت منه مدا جديدا لامتيازاتها القديمة (٢٨٩) والحقيقة أن هذا الثناء لم يكن الا وسيلة لمعونته

(٢٨٦) Monum. hist. Slav. merid., II, 164, 178, 192 et s., 326 et s. ; III, 119 ,175, 177, 181.

(٢٨٧) Texte grec dans Miklosich et Muller, Acta III, 111-1144 : date 25 mars 1342 ; texte latin dans taf et Thom. IV, 257 et ss. Voyez aussi Hopf, art. Griechenland, Op. Cit., p. 443 et s.

وفى هذا المرجع الأخير حديث عن قرض سلمت آن للبندقية كرهن عنه جواهر التاج ٠

(٢٨٨) كلف بهذه المهمة (١٤ يولية ١٣٤٧) سفراء مضوا لمقابلة الخـــان جنبك Khan Djanibek وتواجدوا فى طريقهم بالقسطنطينية : Taf. et Thom., IV, 310.

(٢٨٩) بوساطة زكاريا كونتارين ، ٩ من سبتمبر ١٣٤٩ : Miklos et Muller, l.c., p. 114-120: Taf. et Thom. IV, 341 et s.

الى النظر في طلبات تعويض ومطالب منوعة . مثال ذلك أن التجار البنادقة كانوا يصدرون قمحا من آسيا الصغرى عن طريق فوكاية ، وكان موظفو الجمارك اليونانيون يجبرونهم على دفع الرسوم ، ومن ثم ادعت الجمهورية أنها ترى في هذا التصرف انتهاكا لما لها من اعفاءات جمركية . وكان بيع النبيذ في الحانات محظورا على البنادقة ولكنه مصرح لليونانيين وحدهم ، وهذا مخالف للمعاهدات . وفي عام ١٣٤٤ كلفت حكومة البندقية « البايلات » بالسعي في الغاء هذه الاجراءات . وفي عام ١٣٤٥ أرسلت الى الامبراطور خطابا بهذا المعنى (٢٩٠) .

أما الجنويون فانهم لم يهملوا الفرصة التي أتاحتها لهم الاضطرابات الداخلية في الامبراطورية ، وكانوا يتوقون الى استعادة ملكيتهم لجزيرة خيوس التي كان بها حاكم يوناني منذ عام ١٣٢٩ ، على أن مارتينو زكاريا حاكم الجزيرة الأسبق كان أكثر الناس حماسة لاستعادة الجزيرة ، وكان في تلك الآونة أسيرا في القسطنطينية ، ثم أطلق سراحه ، ووضعته الدول المتحالفة ضد الأتراك على رأس الجيش الذي غزا فيما بعد تحت امرته مدينة سميرن . وخطر له أن ينتهز هذه الفرصة ويستعيد جزيرة خيوس ، الا أن البابا حظر على الصليبيين تنفيذ هذا المشروع ، لأنه ينأى عن الهدف الرئيسي للحملة . وكان لا بد من العدول عن المشروع (٢٩١) ، ولم يعد في الامكان طرح المسألة على بساط البحث بعد الاستيلاء على سميرن ، وقد قتل بها زكاريا في عام ١٣٤٥ . ومع ذلك ، فبعد مضى سنتين على وفاته عادت الجزيرة من جديد الى أيدي الجنويين . وهذا ما حدث : ففي عام ١٣٤٥ اندلعت ثورة بين سكان سواحل ليجوريا Ligurie ، ولاخماد هذه الثورة كان لا بد من استخدام أسطول ، الا أن خزانة الدولة كانت خاوية . واستجابة لنداء الدولة تكفل عدد من الوطنيين الأثرياء بتجهيز أسطول بشرط أن تضمن لهم الدولة سداد ما أدوا من نفقات ، وأقاموا على رأس الأسطول رجلا باسلا من رجال الشعب يدعى سيمون فينوزى Simone Vignosi . وبعد أن تشتت المتمردون دون أن يبدوا أية مقاومة ، أريد الاستفادة من التسليحات المجهزة ، ومن ثم أرسل الأسطول الى البحر الأسود حيث كانت الجاليات الجنوية في حاجة الى حماية . وغادر الأسطول جنوا في ربيع عام ١٣٤٦ ووصل في ٨ من يونيه الى نجربونت ، المحطة الوسطى ، ووجد بها اسطولا آخر يتأهب للاقلاع ، في حملة يقودها همبرت الثاني Humbert II

(٢٩٠) Tafel et Thomas, IV, 273 et s., 287.
(٢٩١) Raynold, Annal eccl., ad an 1344, no. 2.

ولى عهد فيينا لانقاذ سميرن التى أطبق عليها الأتراك . وكان ولى العهد عند وصوله الى نجربونت قد عقد على الأرجح مفاوضات مع آن (أو انا الوصية على عرش الأمبراطورية بقصد الحصول منها على التنازل له عن جزيرة خيوس لمدة ثلاث سنوات ، وهى المدة المحددة للحملة التى يتولى قيادتها (٢٩٢) . وكان لا بد أن تكون هذه الجزيرة قاعدة لعملياته اللاحقة فى آسيا الصغرى . ويبدو أن الأمبراطورة ، بعد أن رحبت أولا بهذا الطلب غيرت رأيها . ومن ثم تأهب ولى العهد لاحتلال الجزيرة بالقوة وذلك فى الوقت الذى دخل فيه فينوزى ميناء نجربونت بأسطوله الذى يضم تسعا وعشرين سفينة . وعرض عليه همبرت كما عرض على رفاقه قباطنة السفن مبالغ ضخمة للحصول على معاونتهم ، أو على الأقل حيادهم : ولم يكن فى ذلك جدوى . ولم يكن ثمة جنوى لا يذكر أن جزيرة خيوس كانت منذ بضع سنوات مضت تابعة لأمير من مواطنيه ، ولا يغذى فى نفسه الرغبة فى استعادة هذه الجزيرة الى أملاك جنوا ، ولا يريد تقديم مساعدته لكيلا تقع الجزيرة فى أيد أجنبية . ورأى فينوزى ورفاقه بحق فى مشروع ولى العهد عملية دبرها البنادقة خفية ، وهم حلفاؤه الرئيسيون فى هـذه الحملة (٢٩٣) . وكان المعروف أن البنادقة لو استقروا مرة فى الجزيرة بعد احتلال ولى العهد اياها ، فلن يكون من السهل اخراجهم منها ، وأن فى سيطرة البندقية على خيوس تهديدا خطيرا لعلاقات جنوا بالقسطنطينية والبحر الأسود . لذلك رفض الأميرال ورفاقه هذه العروض ، وبادروا بالعمل ، ولما وصلوا الى خيوس اكتفوا أولا بعرض مساعدتهم للأهالى لصد هجوم همبرت والبنادقة الوشيك الوقوع ، ولم يطلبوا منهم مقابل ذلك سوى رفع العلم الجنوى ، واستقبال فرقهم . واذ تلقوا من الأهالى رفضا قاطعا لعروضهم ، فانهم لجأوا الى العنف (١٦ من يونية ١٣٤٦) واستولوا فى أربعة أيام على الجزيرة كلها ، فيما عدا قلعة العاصمة التى ما لبثت أن استسلمت بدورها بعد حصار استغرق ثلاثة شهور (١٢ من سبتمبر) (٢٩٤) . أما همبرت و لى العهد ، فان هذه الحملة انتهت نهاية

---

(٢٩٢) (Valbonais) Mémoires pour servir l'histoire du Dauphiné. Paris 1711, in fol. p. 577, 580; M. Petigny, la Bibl .de l'école des chartes, 2ème série, I, 274-280 ; Stela (Murat., XVII, 1085 et s, 1088) et les Istorie Pistolesi, Prato 1935 p. 453 et s. ; Taf et Thom., IV 298, 300; U .Chevalier, Chrox de doc. hist sur le Dauphiné (Lyon 1874) p. 95 et ss. ; Archives de l'Or. lat, I, 537 et s.

(٢٩٣) Taf. et Thom, IV, 298, 300 ; Commem. reg., II, 149, no 173.

(٢٩٤) Lib. jur., II, 558-572 (et dans C. Pagano D,elle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 271-285) et la Chronique de Giorgio Stella, l.c., p. 1086-1089.

غير مشرفة له ، فلم يعدل فقط عن الغزو الذى كان يحلم به ، ولكنه فقد فى الحملة أيضا خيله ، وجواهره ، ومعداته ، وأشياء ثمينة أخرى انتزعها القراصنة الجنويون (٢٩٥) . وكان نجاح حملة فينوزى ورفاقه حقيقا بأن يوعز اليهم بفكرة استعادة « مدينتى فوكاية » اللتين اجتمعتا لزمن طويل مع خيوس تحت سيادة أسرة واحدة من أمراء جنويين ، وكان عليهم أيضـــا أن يثأروا من سكان هاتين المدينتين الذين لم يكفوا عن مناوشتهم أثناء حصار قلعة خيوس . وسقطت المدينتان كلتاهمـا فى أيديهم فى شهر واحد ، فوكاية القديمة فى ١٨ من سبتمبر ، والجديدة فى ٢٠ منه (٢٩٦) . وأراد فنيوزى أن يمضى الى أبعد من ذلك ، ويمد غزواته حتى لزبوس وتنيدوس Ténédos ، غير أن القسم الأكبر من رجاله رفضوا المضى معه ، ومن ثم اضطر الى العودة الى خيوس (٢٩٧) .

ولكى يحمل الغزاة سكان خيوس وفوكاية على قبول نظام حكم جديد يحولهم للفور من رعايا الامبراطورية اليونانية الى مواطنين جنويين ، فانهم أبدوا لهم كرما كبيرا ، فاحترموا بقدر المستطاع الملكيات الفردية ، وأعطوا الأفراد كل الضمانات المرغوبة ليتمتعوا بحرياتهم المدنية والدينية (٢٩٨) ، كما بذلوا الجهد لتشكيل حاميات كافية لحراسة الجزيرة ومدن القارة . وبعد أن أنجزوا على هذا النحو كل متطلبات الحالة الراهنة ، عادوا الى وطنهم . وكان لا بد من تسوية حساباتهم مع « القومون » : كان هـذا موضوعا لمفاوضات طويلة انتهت أخيرا بتسوية حاسمة وقعت فى ٢٦ من فبراير ١٣٤٧ (٢٩٩) . ولم يكن القومون كما رأينا من قبل قد قدم أى مبلغ لتجهيز الأسطول بالجنود والمعدات ، ولكنه تعهد بتعويض أعضاء الحملة عن كل ما يصيبهم من خسائر ، ويدفعوا لمجهزى السفن كل ما أدوه من نفقات وذلك بمبالغ تستقطع من ايرادات الدولة . وبعد تسـوية الحسابات كلها ، بلغت نفقات الحملة ٢٠٣٠٠٠ جنيه ، غير أن الخزانة لم تزل خاوية . ولتعويض قادة الحملة ، تخلت لهم الحكومة عن ملكية الجزيرة وفوكاية ، ملكية كاملة ، وتلقى كل ربان سفينة لقبا يكفل له نسبة فى الايرادات العامة . وهكذا وجد غزاة خيوس وفوكاية أنفسهم

(٢٩٥) BibliOth de l'école des chartes, l.c., p. 284-287.

(٢٩٦) Stella, l.c., p. 1089 et s.; Lib jur., II, 560; Pagno, l.c., p. 266-270.

(٢٩٧) Stella, p. 1089.

(٢٩٨) انظر معاهدة ١٢ سبتمبر بشأن خيوس ، ومعاهدة ٢٠ سبتمبر بشأن فوكاية فى : — Pagno, p. 261-270.

(٢٩٩) Lib jur., II, 558-572, p. 1498 et ss. ; Pagno, p. 271-285.

أعضاء في شركة مساهمة . على غرار الكثير من سائر الشركات المماثلة في ذلك العصر، باسم ماؤنى Maone أو ماهونى Mahons (٣٠٠) ، وأطلق على المساهمين اسم « ماهون » Mahons · واحتفظ الكومون لنفسه بالحق فى استرداد الأسهم شيئا فشيئا بالشراء بحيث يغدو مالكا لها فى مهلة معينة بعد تعويض الماهون بالكامل · الا أنه بسبب العديد من الحروب التى اشتركت فيها الجمهورية ، والنفقات التى استلزمتها ، بقى هذا التحفظ حبرا على ورق (٣٠١) · ولم تخرج « ملكية الانتفاع » dominium utile بخيوس وفوكاية من أيدى الشركة . الا أنه طرأ على تنظيمها ، وعدد المساهمين ، وأسمائهم ، وعدد الأسهم وقيمتها بمرور الزمن تغيرات كثيرة : فبعد أن كانت الأسهم فى البداية مركزة فى أسر ربابنة السفن التى غزت خيوس وفوكاية ، انتقلت بالبيع من أسرة الى أخرى (٣٠٢) · وعلى الرغم من هذا التشتت ، بقيت المصالح المشتركة قائمة · وفى عام ١٣٦٢ انعقدت معاهدة جديدة بين الكومون وبين « الماهون » (٣٠٣) ، ورأى هؤلاء أنه من الأفضل أن يعلنوا على الملأ العلاقة التى تربطهم بعضهم ببعض ، ومن أجل هذا تخلى كل واحد منهم عن لقب الأسرة الذى يحمله ، واستبدل به لقب جوستنيانى (٣٠٤) . ولا شك أن الأصل فى اختيار هذا اللقب يرجع الى قصر جوستنيانى الذى كان ملكا مشتركا للشركة فى جنوا (٣٠٥) · واعتبارا من تلك اللحظة بدا أن الماهون يشكلون طائفة كبيرة ·

وعلى العكس من العادة المتبعة لدى الماهون القدامى الذين كانوا

---

(٣٠٠) نجد تفسيرات متنوعة لهذا الاسم عند الكتاب الآتى بيانهم :
Serra, Storia, dell'antica Liguria e di Genova, IV, 103 (éd. Capolago); Pagano, Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 132; Canale, Nuova istoria di Genova, I, 277 ; Alivieri Carte e cronache monoscritte, p. 68 ; Hopf, art Giustiniani, p. 327; Promis, La zecca di Scio, p. 336; Amari, Lipl. arab p. XXV; Amari, Storia de Musulmani in Sicilia, III, 886, not 4; cf. Dozy et Englemann, Glossaire des mots espaguols et portugais dérivés de l'arabe, 2e éd. (1869), p. 179 et s.
— فى اللغة العربية ، كلمة يشبه نطقها نطق كلمة Maone ومعناها أكثر ملاءمة لطبيعة الشركة المشار اليها من أية كلمة أخرى ، تلك هى كلمة (معونة) ، وأمارى Amari هو الذى اقترح هذا الأصل لاسم الشركة ·

(٣٠١) Lib. jur. II, 782 et ss. 790 et ss. ; Hopf, Guistinian, p. 318.

(٣٠٢) Lib. jur., II, 714 et ss., 682 et ss., 790 et ss., 1016 et ss., et dans l'étude si complète de M. Hopf sur les Giustiniani, p. 317-320.

(٣٠٣) Lib. jur., II, 714 et ss.

(٣٠٤) Agost Giustiniani od. an. 1362, fol. 137 à ; Hopf. Op. Cit.,

(٣٠٥) Hopf., Op. cit., p. 327.

يقطنون غالبا فى جنوا ، ويعهدون الى ملتزمين بتحصيل دخولهم ، فان الجوستنيانيين كانوا كلهم تقريبا يقيمون فى خيوس ، تجارا ، ومصرفيين ، وأصحاب دخول يتقاسمون فى الشئون المالية والادارية الوظائف التى تخصهم . وفيما عدا استثناءات قليلة ، كانت كل الوظائف فى خيوس وفوكاية يشغلها أفراد من الماهون . ومن قبل ، فى زمن المعاهدة الأولى المبرمة مع سيمون فينوزى وشركائه ، لم يشترط قومون جنوا الا ثلاثة تحفظات : السيادة على مجموع الممتلكات الجديدة ، والقضاء المدنى والجنائى ، وحق الملكية المباشرة لمدينة خيوس وقلعتها ، ومدينتى فوكاية وقلاعهما .

وتبعا لهذا التنظيم لم يكن يتبعه من حيث التعيين سوى عدد محدود من الموظفين : أولا ، بودستات لجزيرة خيوس ، ثانيا بودستات لمدينتى فوكاية ، ثالثا ، ثلاثة حكام (كاستللانى Castéllani) لقلاع خيوس ومدينتى فوكاية . وكانت الشخصيات التى تدعى لشغل هذه المناصب تنتخب حسب نظام تحدده المعاهدات ، ويعهد فى اختيارها بالنصيب الأكبر الى الماهون بحيث كان من المستحيل الوصول الى هذه المناصب دون موافقتهم . فضلا عن ذلك كان بودستات خيوس ، فى كل الشئون التى لم تكن ذات طبيعة قانونية بحتة ملزما بأن يأخذ رأى هيئة من المستشارين يختارهم الماهون فيما بينهم . وهكذا كانت سلطة الحكومة المركزية دائما محدودة جدا ، وفى مقابل ذلك لم تكن رعاية المستعمرة تكلفها شيئا على وجه التقريب ، فكانت طائفة الماهون هى التى تنفق على شئون الإدارة ، والشرطة ، والقوات البرية والبحرية ، والتحصينات ، والموانى ، الخ ، بل كانت تتولى أيضا تدريب الموظفين الذين ينتخبهم القومون .

ومن المفيد أن نعرف الموارد التى كانت طائفة الماهون تستخدمها لتغطية كل هذه المصروفات وتستهلك فى الوقت نفسه نفقات الغزو ، ومن أجل ذلك ينبغى لنا أن نتذكر ما قلناه قبلا عن خصوبة الجزيرة ، وبالأخص ثرائها الكبير فى مزارع « المستكة » ، ونتاج مناجم الشب فى فوكاية . وفى المتوسط كان بيع المستكة لا يصل سنويا الا الى ٤٣٠ قنطارا ، اذ كان من المتبع الاقتصاد فى استخدام المزارع خشية استهلاكها المبكر . الا أن القنطار كان يساوى من ٤٠ الى ٤٥ جنيها ، بحيث تثمر هذه المادة وحدها ايرادا قدره من ١٧ ألف الى ١٩ ألف جنيه . كذلك كانت الضرائب تأتى بدخل كبير ، وكانت على الأخص تثقل كاهل السكان اليونانيين ، ولكنها كانت أخف عبئا على الغربيين ، وتأتى بعدها الرسوم على الواردات والصادرات .

... وفى عصر جوستنيانى كان بالجزيرة عدة موانى تتردد عليها سفن كثيرة : أولها ميناء خيوس ، ثم الموانى الأقل أهمية : ميناء بورتو ـ فينو Perto-Fino (دلفينو ، دلفينيوم القديم) ، وميناء ليثى Lithi (لايوس القديم Laius) (٣٠٦) كانت هذه الموانى تعج بالغربيين والشرقيين ، من كل الأجناس ، يفد البعض اليها بحثا عن منتجات الجزيرة الثمينة ، وكانت الجزيرة للبعض الآخر مرسى فى الطريق من مصر أو سوريا أو الغرب الى القسطنطينية والبحر الأسود ، أو بالعكس • وثمة ترتيب خاص ، جعل لتيسير رخاء خيوس ، يأمر السفن الجنوية التى تقوم بالرحلة الى الشرق الأدنى أن تتوقف يوما عند خيوس • وكان الجنويون يتمتعون بعامة بالمعافاة من الرسوم •

ولكن بالنسبة الى تصدير الحاصلات الطبيعية ، كالمستكة مثلا ، كانوا يدفعون نفس الرسوم المفروضة عليهم فى عهد الحكومة اليونانية • وكان الأمر كذلك فى فوكاية (٣٠٧) • أما سائر الأمم فكانت تدفع رسوما مرتفعة ، ويبدو أن أقل رسم كان خمسة « هيربر » عن كل قنطار (٣٠٨) • وعندنا وثيقتان تنبآننا بكيفية مناسبة عن المبلغ الاجمالى الذى كانت هذه المصادر المختلفة من الايراد تدخله فى خزائن الماهون • ففى وثيقة فرنسية نشرت حديثا ، يقدر هذا المبلغ بسبعين ألف فلورين ، وفى فوليتا Foglietta بستين الف « جنوفين دورو » genovini d'oro (نقد جنوى قديم ـ المترجم) ، وكانت قيمة جنوفينى دو رو تساوى قيمة الفلورين (٣٠٩) • ويذكر « كانتا كوزين » رقما أعلى قليلا فى أواخر عهد آل كاتانيو (١٣٢٩) ، فيتحدث عن مبلغ ١٢٠٠٠ هيبربر ذهبى (٣١٠) • ولما كان الهيبربر الذهبى يساوى فى ذلك العصر ثلثى الفلورين (٣١١) ، فان هذا المبلغ يعطى دخلا سنويا قدره ٨٠٠٠٠ فلورين • فاذا جعلنا للدينار الذهبى ecu فى ذاك العصر قيمة ١٢ فرنك ، نرى من هذه المصادر الثلاثة أن المبلغ الاجمالى يصل الى ٧٢٠٠٠٠ حتى ٩٦٠٠٠٠ فرنك •

---

(٣٠٦) Hopf, Op. cit., p. 335, et Fustel de Coulanges, dans les Archives des missions scientifiques, V. 500, 503 et s.

(٣٠٧) Lib. jur. II, 568, 802.

(٣٠٨) Hopf, Op. cit., p. 331.

(٣٠٩) Bibl. de l'école des chartes, 1e série, I, 285; Fogl. p. 582.

(٣١٠) Cantacuz. I, 371.

(٣١١) Desimoni, dans la Giorm ligust., 1874, p.158, not.

وعاشت المستعمرة التي أنشأها فنيوزى (٣١٢) أكثر من مائتى سنة • ولما كانت خاضعة لسيادة جنوا ، كان يحكمها ويدبر شئونها ويستغلها هيئة مكونة من أسر جنوية ، ويمتد نفوذ هذه الهيئة فيشمل بالاضافة الى خيوس ومدينتى فوكاية جزرا أخرى أقل أهمية : ساموس ، ونيكاريا Nikaria ، وسنتا باناجيا Santa Panagia • ومن الوجهة التجارية ، كان هذا الوضع كسبا لا يقدر بثمن • كانت خيوس تشكل أول حلقة فى سلسلة طويلة من المستعمرات ، ربما تعتبر بيرا مركزا لها ، وفى طرفيها كافا وتانا من جهة ، وطربزون وطوريس Tauris من جهة أخرى• وأدى امتلاك خيوس الى تعزيز أمن المواصلات بين جنوا ومستعمراتها البعيدة • ولم يكن مناص من هذا ، على الأقل لموازنة تفوق البندقية فى الأرخبيل • ولكن ، حتى فى غير هذه الاعتبارات الخاصة بالسياسة العليا ، فان تجارة جنوا وجدت غذاء وفيرا فى منتجات خيوس وفوكاية • واذا لم يكن لهذه الأخيرة الا ما بها من شب ، فان هذا المحصول يكفى وحده لاعطائها قيمة كبيرة ، ويمكن أن تقرن به ، كمادة للترانزيت قمح آسيا الصغرى •

أما بخصوص جزيرة خيوس ، فان حاصلات التربة ومنتجات الصناعة متوفرة بها ، نذكر فى مقدمتها راتنج المستكة ، ويستخلص من البحوث التى أجراها م • هوف M. Hopf أن « الماهون » كانت تصدر كل سنة الى الغرب فى المتوسط ١٢٠ قنطارا ، و ١١٤ قنطارا الى أرمينيا وقبرص ورودس وسوريا ومصر (٣١٣) ، و ٢٠٠ قنطار الى امبراطورية الروم وآسيا الصغرى التركية • ولما كانت هذه المادة لا توجد الا فى خيوس ، فان المسافرين فى العصور الوسطى ينسون بعامة ، بعد أن يتحدثوا عنها ، أن يذكروا سائر منتجات الجزيرة • ومع ذلك يذكر كلافيو Clovijo بساتين الكروم (٣١٤) • ويكمل م• هوف معلوماتنا فى هذا الخصوص بمعلومات استقاها من وثائق مختلفة ، فيقول : « تنتج الجزيرة كميات كبيرة للتصدير من أنبذة ممتازة ، وزيت ، وتين ، وفواكه أخرى من فواكه الجنوب ، وكان حرير خيوس يحظى بتقدير كبير ، وكانت

(٣١٢) M. Hopf., dans l'art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber (1ère section., LXVIII, 308-341).

(٣١٣) فى عصر بيلوتى Piloti كان صندوق المستكة يباع بمبلغ ١٠٠ دوكا ducats فى سوق الاسكندرية : Piloti, p. 375.

(٣١٤) Clavijo, p. 42.

محاجر بيلنيون Pelinan تنتج رخاما ، وكان يصدر الى جهات بعيدة فخار لا يقل قيمته عن فخار لمنوس Lemnos (٣١٥) ٠

ولا بد أن الامبراطورية الرومية كانت وقتئذ فى حالة من الضعف يرثى لها ، حتى تترك الغربيين ينتزعون منها بسهولة هذه الجزيرة العظيمة الخصب والانتاج ٠ لقد مزقت الحرب الأهلية البلد ٠ وكانت الامبراطورة آن مجردة من كل شيء ، من المال اللازم لتجهيز أسطول ، والرجال القادرين على قيادته ، فلم تكن فى حالة تسمح لها بالتصدى بالقوة لمشروع فنيوزى ٠ حقا ، لقد أقلعت بضع سفن بقيادة الايطالى فاتشيولاتى Facciolati فى محاولة لتموين الجزيرة ، ولكنها وصلت متأخرة كثيرا ٠ وانتقاما لفشله ، هاجم بضع سفن تجارية جنوية مسالمة وقتل عددا من بحارتها ٠ وأثار هذا العمل الخليق بقرصان حفيظة الجنويين فى غلطة ، واعتبروا فاتشيولاتى خارجا على القانون ، فلم يعد يجرؤ على الخروج الا فى حراسة مسلحة ٠ وكاد الجنويون يوقعون العاصمة فى مجاعة بايقافهم ارساليات القمح الذى كانوا هم الموردين الوحيدين له (٣١٦) ٠ ولكى تضع الامبراطورة حدا لهذه الحال ، اضطرت أن تعيد اليهم ما أخذ منهم ، وتعطيهم فوق ذلك تعويضا (٣١٧) ٠

وفى خصوص الأحزاب التى جزأت الامبراطورية ، كان سلوك المستعمرين الجنويين فى غلطة حافلا بالمتناقضات ، فكانوا تارة يساندون حزبا ، وتارة حزبا آخر (٣١٨) ٠ ولما كانت الحرب الأهلية مضرة بتجارتهم ، فانه يبدو أنهم ارتاحوا لانتصار كانتا كوزين الذى أنهى هذه الحرب فى عام ١٣٣٧ ، بعد أن استمرت خمس سنوات ، وأعاد الأمن الى نصابه فى الامبراطورية ٠ وكان من الوسائل التى استخدمها الوصى الجديد على العرش لاصلاح مالية الدولة ، وسيلة لا ترضيهم ، تتمثل فى خفض الرسوم التى يحصلها جمرك القسطنطينية من المنتجات الأجنبية ، وكان يستهدف بذلك حمل الأمم التجارية على العودة الى طريق القسطنطينية ٠ فبمرور الزمن نمت تجارة غلطة نموا كبيرا على حساب تجارة العاصمة ، فبلغت ايرادات جمركها ٢٠٠ ٠٠٠ هيبربر ، فى حين

---

(٣١٥) Art. Giustiniani O.p. cit., p. 333.

(٣١٦) Remarque de Nicéph. Grég., II, 766.

(٣١٧) Nicéph. Grèg., II, 766 et s. ; Cantacuz., II, 583 et s.

(٣١٨) Cantacuz., II, 502-522, 607 et s.; Nicéph. Grég., II, 734 et s., 775 et s.

لم تتجاوز فى جمرك القسطنطينية ٣٠٠٠٠ هيبربر (٣١٩) ، وكان الغرض من خفض الرسوم فى جمرك القسطنطينية قلب هذه النسبة فى وقت قصير . وثمة أمر آخر استاء لـه الجنويون فى غلطـة : ذلك أن كانتا كوزين انهمك فى اصلاح البحرية اليونانية وتجديدها : ذلك لأنه كلمـا قل مًا فى حوزة اليونانيين من وسائل النقل ، ازدادت سيطرة البحرية الجنوية على سبيل التجارة ، وكلما قل ما لدى اليونانيين من سفن حربية تستطيع تشغيلهـا ، قل ما تخشـاه خيوس وفوكاية من ناحيتها . واهتم سكان غلطة بهذا الأمر اهتماما كبيرا حتى انهم تأهبوا للنضال بقوة لكى يحافظوا على تفوقهم التجارى والبحرى . غير أن النضال لم يكن كل شىء ، فلم يكن فى مقدورهم أن يعتمدوا على نجاحهم فى ذلك طالما لم يكونوا مسيطرين على المرتفعات الواقعة خلف غلطة وتشرف عليها . وحاولوا أولا أن يتذرعوا باللطف ، فقدموا لكانتا كوزين التماسا عرضوا فيه أن حيهم لم يعد يسع سكانه . الا أن الوصى لم يكن بالمرة مستعدا للتخلى عن وضع يعرف جدا قيمته . ولما فشلت هذه الوسيلة ، انتهزوا فرصة بقاء كانتاكوزين فى ديديموتيشوس Didymoteichos لمرضه فى صيف عام ١٣٤٨ ، وبدأوا العدوان .

ولم يكن فى وسع اليونانيين الا قبول التحدى على مضض ، وكان بين الجنويين عدد منهم يودون حفظ السلام لصالح أشغالهم ، واجتهدوا حتى آخر لحظة أن يتداركوا انقطاع الصلات ، وذلك بايفاد سفارة الى القسطنطينية ، الا أنهم صمموا على مطالبة اليونانيين بالكف عن الاجراءات التى اتخذوها لتجديد أسطولهم . وفى حين انتظر سكان القسطنطينية بقلق خلف أبوابهم المغلقة ما تسفر عنه الأحداث ، أشعل الجنويون النيران فى بيوت اليونانيين القائمـة على ضفة القرن الذهبى من ناحية غلطة ، والسفن التجارية الراسية فى المرفأ ، والحوانيت الواقعة خـارج أسوار العاصمة ، ودمروا فى أحواض المرفأ السفن الجارى بناؤها أو ترميمها ، ولم ينج منها سوى ثلاث سفن كبيرة ، وبضع سفن صغيرة أمكن امرارها فى جنح الظلام فى مواقع يصعب عبورها عند الموضع الذى تصب فيه المياه المعذبة فى القرن الذهبى (٣٢٠) .

وبعد هذه الغارة ، عمل الجنويون على مد حيهم الى داخل الأراضى حتى قمة التل . ولكى يؤمنوا سلامة الأرض التى ضموها ، بادروا ببناء

(٣١٩) Nicéph. Grég., II, 842.

(٣٢٠) Hammer, Constantinopel und der Bosporus, II, 35.
وكانت أعمال الترميم تجرى فى الزاوية القصوى من القرن الذهبى .

سور مرتفع ، وكانوا منذ وقت بعيد قد بدأوا فى هدوء يكدسون المواد والمعدات اللازمة. وحيثما لم يكن السور كافيا، أضافوا اليه مبان وحظائر. وتتويجا لهذه التحصينات أقاموا برجا على ذروة التل . وتتابعت هذه الأعمال ليل نهار ، وتنافس فى أدائها بحماسة وطنية النساء والرجال ، النبلاء وعامة الشعب . وفى هذه الأثناء شغلوا سكان العاصمة بغارات موجهة تارة الى الأبواب ، وتارة الى السفن التى بقيت سليمة ، وعلى هذا النحو لم يكن لدى الجنود اليونانيين القليلى العدد من الوقت ما يتيح لهم أن يعرقلوا الأعمال الجارية فى حى الجنويين ، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أن يحرقوا بيوت الجنويين الواقعة خارج أسوار غلطة . وكان الجنويون يأملون فى قيام اسطولهم بدور شديد الفعالية ، بمنع وصول أى سفينة الى المدينة (القسطنطينية) . وكانوا يعتمدون بهذه الوسيلة على كسب نصر سريع على خصومهم ، ولكنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة غير متوقعة . فقد استخدم سكان القسطنطينية كل مواردهم لاكمال وسائل دفاعهم ، بحيث لم يبق للجنويين وسيلة للتغلب على أعدائهم سوى الهجوم المباشر . ومن ثم جمعوا عددا كبيرا من السفن والجند ، من بينهم فرقة قدمها مواطنوهم فى خيوس ، وهاجموا القسم من المدينة الذى يشرف على القرن الذهبى (خريف ١٣٤٨) .

ودافع اليونانيون عن أسوارهم وأبوابهم ببأس شديد ، حتى اضطر الجنويون ، رغم ضراوة قتالهم أن يتقهقروا متحملين خسائر كبيرة . وعندئذ قر عزمهم على طلب الصلح ، ولكن دون جدوى . ولسوء حظهم فان الامبراطور لم يكد يشفى من مرضه حتى عاد فى هذه الأثناء الى عاصمته . واكسب عودته المدافعين شجاعة جديدة ، وأحضر الأمبراطور معه مالا ، وتعزيزات وسفنا لتحل محل السفن التى دمرت . ومن جهة أخرى ، قامت السفن الجنوية المصطفة على طول شاطىء غلطة لتأمين الضاحية كثيرا من القذائف التى أطلقت عليها من القسطنطينية ، حتى اضطرت الى الانسحاب تاركة السور فى هذه الناحية مكشوفا بلا حماية .

وأراد الجنويون عقد صلح من جديد ، وطلبوا وساطة فرسان رودس ، ولكنهم لم يقبلوا الجلاء عن الأرض التى استولوا عليها أو دفع تعويضات عن كل ما دمروه . وسرعان ما انقطعت المفاوضات وعادت السفينة التى أتت بمندوبى الفرسان تحمل تحفا ثمينة ، ونساء وأطفالا أرسلهم سكان غلطة الى رودس لابعادهم عن الأخطار ، اذ كانوا يتوقعون وقوع أسوأ الكوارث . وفى الشتاء أتم كانتاكوزين تسليحاته . وفى الربيع أصبح مستعدا ، ليس فقط لاطلاق سفن جديدة تتصدى للسفن

الجنوية ، ولكن أيضا لمحاصرة قلعتهم الجديدة بفرق عسكرية فتية . ولم يشعر الجنويون فى أنفسهم القدرة الكافية على القتال على الساحتين البرية والبحرية ، وفكروا تفكيرا جديا فى العدول عن القتال فى البحر ليركزوا جهودهم كلها للدفاع عن القلعة .

غير أن قائد بحريتهم أدرك بنظرة خاطفة الناحيـة الضعيفة فى الأسطول اليونانى : ذلك أنه لم يكن بوسعه التحرك بكفـاءة ، اذ كان الجدافون فى السفن غير مدربين على تسييرها . وعلى ذلك أصر على استمرار الصراع بحرا . وساعدته عاصفة شـديدة فانزل بالأسطول اليونانى هزيمة منكرة ، دب على أثرها الفزع فى نفوس أهالى القسطنطينية والجنود الذين كانوا يحاصرون قلعة غلطة ، وفروا من ثمة هاربين فى فوضى شديدة .

وفى اللحظة التى أخذت فيها الأمور اتجاها ملائما لأهالى غلطة ، وصل من جنوا سفارة موفدة فى الوقت الذى كان الناس فيه لم يزالوا متأثرين بالهزائم السابق ذكرها . ولم يكن الوطن الأم (جنوا) قد وافق على سلوك المستعمرين ، لذلك لم يرسل لهم امدادات أو سـفراء لتسـوية النزاع . وكانت السفارة التى أشرنا الى وصولها مكلفة بمطالبة المستعمرين برد الأرض التى احتلوها بغير حق ، وأن يدفعوا تعويضا عن الخسائر التى تسببوا فى وقوعها ، ومبلغا كبيرا بصفة غرامة . ولكن بعد كل الذى حدث ، لم يكن فى المستطاع اجبار أهالى بيرا ، وهم فى نشوة النصر على طلب الصلح بهذه الشروط . ولم يكن كانتا كوزين فى حالة تسمح له بفرض هذه الشروط . ولم يسعه الا أن يترك للجنويين الأرض موضوع النزاع (٣٢١) .

ولتحقيق حلم من الأحلام التى داعبت عقول الجنويين ، كان لا بد أن تبقى البحرية اليونانية فى حالة من الضعف والخضـوع ، ولكن كانتاكوزين لم يكن ليسمح لهم بالاستمتاع بتحقيق هذا الحلم . ففى الوقت الذى كان يعمل فيه دون هوادة على تعويض خسائره ، لم يغرب عن باله مشروع اعادة ضم خيوس وفوكاية الى الأمبراطورية .

وبدأ بأن أوفد الى جنوا سفارة مكلفة بعرض مطالبه ضد احتلال الجزيرة احتلالا غير مشروع . وكان رد الدوج هو الرد المتوقع ، اذ قال ان القومون لا علاقة له بهذا الأمر ، فخيوس قد احتلتها شركة خاصة ،

(٣٢١) Cantacuz., III 68-80; Niceph, Grég., II, 841-867.

أما هو ، أى الدوج ، فلم يكن فى تلك الآونة فى حالة تسمح له باجبار هذه الشركة على اعادة ما استولت عليه ، الخ ، ولم يقبل كانتاكوزين هذا «الدفع بعدم سماع الدعوى» كما أن حقه فى تلك القضية كان واضحا لدرجة لا تسمح بالاعتراض عليه بأية حجة . وعلى ذلك وافقت حكومة جنوا على أن توقع معاهدة نص فيها على أن ترد الشركة فى الحال جزيرة خيوس الى الامبراطور ، على أن يبقى لها حيازة عاصمة الجزيرة حتى عام ١٣٧٥ ، بشرط الاعتراف بسيادة الامبراطورية ، ودفع ضريبة سنوية قدرها ١٢٠٠٠ هيبربر ذهبى (٣٢٢) .

والواضح أن هذه المعاهدة لم تكن جدية من جانب جنوا ، اذ كان من المؤكد أن فينوزى أو رفاقه لم يكونوا على استعداد لتنفيذها . لذلك لجأ اليونانيون الى وسائل أشد فعالية . فقد عمل الأرخنت (الوالى) archante الخيوسى زيبوس Zybos الذى ولاه فنيوزى حكومة فوكاية القديمة ، عمل غدرا على انتزع خيوس لحساب الامبراطور ، بالتواطؤ معه بلا شك ، ولكن محاولته فشلت (٣٢٣) . وهكذا لم تنجح الدبلوماسية ولا القوة ، وبقيت الشركة مالكة خيوس ، ونجح الروم فقط فى طردها مؤقتا فى مدينة فوكاية (١٣٤٨) . ونجد حكاما يونانيين فى احداهما حتى عام ١٣٥١ ، وفى الثانية حتى عام ١٣٥٨ (٣٢٤) . وأخيرا اضطر الامبراطور يوحنا أن يوقع معاهدتى ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ اعترف فيهما بسيادة الماهون على جزيرة خيوس فى مقابل جزية سنوية قدرها ٥٠٠ هيبربر (٣٢٥) .

ومع انهماك الجنويين فى ابقاء البحرية العسكرية والتجارية للامبراطورية الرومية على حالها من العجز المطلق ، كانوا يجدون أيضا وقتا يكفى لعرقلة نمو قوة البندقية فى الشرق الأدنى . وكانت جمهورية البندقية تعمل سنين طويلة على تركيز نشاطها الكلى فى توسيع أملاكها من الأرض اليابسة فى ايطاليا (٣٢٦) ، ولكنها فى الآونة التى وصلنا اليها بدأت من جديد تحول أنظارها صوب الشرق الأدنى . ولدينا البرهان على ذلك فيما بذلته من جهود لمحاربة الأتراك السلاجقة . ولكنها كانت فى

(٣٢٢) Cantacuz. III, 82.

(٣٢٣) Cantacuz. III, 80-85.

(٣٢٤) Hopf, Op. cit., p. 316.

(٣٢٥) Sperone, Real grandezza di Genova, p. 206 et s.

(٣٢٦) بالأخص فى عهد الدوج داندولو ١٣٢٩ – ١٣٣٩ Franc. Dandolo
Romanin III, 108 et ss.

ذلك أكثر نشاطا فى البحر الأسود ، وأصبحت المدن التجارية الساحلية هناك مسرحا لمنافسة شديدة بين الخصمين ، وكانت علاقاتهما من قبل متوترة حين سبق الجنويون البنادقة فنجحوا فى الاستيلاء على خيوس ، ولم يكن من شأن ذلك أن يخفف من سخط البنادقة المتزايد حدة ٠

وكانت الحرب على وشك أن تندلع وقتئذ لو لم يعترض دوج جنوا جيوفانى دى مورتا Giovani di Murta على قطع العلاقات : وساعده فى ذلك الطاعون الرهيب الذى انتشر عام ١٣٤٨ فشــل حركة جيوش الأمتين (٣٢٧) ٠ ولكن فى عام ١٣٥٠ كان لجنوا دوج آخر ، جيوفانى دى فالنتى Giovanni di Valente : فما كاد يتسلم مقاليد الحكم حتى تناول من جديد المشروع الأثير لدى أمته ، بطرد خصمها نهائيا من البحر الأسود (٣٢٨) ، وأسر بضــع سفن فينيسية فى ميناء كافا (٣٢٩) : وأصبحت الحرب من ثمة لا مناص منها ٠

وأوفد الأميرال ماركو روتزينى Marco Ruzzini من البندقية ومعه خمس وثلاثون سفينة حربية ، ففاجأ فى ميناء الكاسترى Alcastri (سبتمبر ١٣٥٠) أسطولا من أربع عشرة سفينة تجارية جنوية قاصدة الى بيرا وكافا (٣٣٠) ، واستطاعت أربع سفن منها فقط النجاة ، والتجأت الى خيوس ٠ ولم يحظ روتزينى بمثل هذا النجاح فى غلطة ، اذ كان المستعمرون فى انتظاره باستعدادات انتزعت من نفسه الرغبــة فى مهاجمتهم ، ومن ثم عدل عن ذلك وواصل عملياته فى البحر الأسود ٠

وفى هذه الأثناء قام سادة خيوس (فينوزى وشركاه) بتسليح أسطول انضم اليــه الســفن الأربع التى نجت من كارثة الكاسترى ، وأرسلها تهاجم الأملاك الفينيسية فى جزيرة يوبية Bubée ولم تكن مدينة نجربونت ، الهدف الرئيسى لهذه الحملة تتوقع أى شىء ، ومن ثم دخل جند خيوس بقوة السلاح فى الحى البندقى ، وقام مواطنوهم ، أسرى الكاسترى الذين تركهم روتزينى فى حراسة سكان المدينة ، قاموا

---

(٣٢٧) Romanin III, 155 et s., 158 ; Stella, p. 1090; Commem. reg., II, 168, no 265; ibid. p. 175 no 303, p. 185 no 354, p. 192 no 384, p. 195 no 400, p. 196 no 403, p. 217 no 20, p. 218 nos 24, 25.

(٣٢٨) Dandolo, p. 420; cf. Nicéph. Grég. II, 877.

(٣٢٩) Romanin, III, 158.

(٣٣٠) يتحدث Nicéph. Grég. الذى كان وقتئذ بنفسه فى يوبية Eubée فى الناحية التى فوجىء عندها الأسطول الجنوى ، فيعين بالتحديد ميناء واقعا بين Aulis, و Oropus, ومن ثم فهو على الساحل الشرقى ليوبية : (III, 43 et s.)

بنهب البيوت والسفن المربوطة فى الميناء وحرقها ، وعادوا منها محملين بالغنائم ، ومعهم العديد من الأسرى ومفاتيح نجربونت التى علقوها على أبواب خيوس تذكاراً للنصر (٣٣١) .

ولم تكن هذه الوقائع سوى مقدمة لأحداث أهم : فقد تأهب البنادقة لشن الحرب على نطاق أوسع (٣٣٢) . ولما كانوا على وعى بضعفهم ، اذ كانت قوة جنوا وقتئذ تفوق قوتهم ، فقد راحوا يبحثون عن حلفاء لهم . كانوا يعرفون أن بطرس الرابع Pierre IV ملك أراجون كان حاقدا على خصومهم بسبب المساندة التى كان يحظى بها اتباعه الذين تمردوا عليه فى جزيرة سردينيا ، وكذا فى قومون جنوا ، ومن ثم جسوا نبضه ليعرفوا ما اذا كان على استعداد للتحالف معهم ضد الجنويين ، فوجدوه مستعدا لذلك .

وتعاقب سفيران جنويان أوفدا لمقابلته وثنيه عن عزمه ، ولكنهما لم يوفقا الى ذلك . وفى ١٦ من يناير ١٣٥١ وقع مع البندقية معاهدة صدق عليها الدوج فى ١٢ من يوليه ، والتزم فيها باشغال الجنويين بغارات متتابعة على سواحل ايطاليا وجزرها بكيفية تجبرهم على توزيع قواهم ، ومن ثم يكفل للبنــادقة على هــذا النحــو حرية العمل فى الشرق الأدنى (٣٣٣) .

وفى الوقت نفسه كان البنادقة على علم بما عند يوحنا كانتا كوزين من شكاو عديدة ضد الجنويين ، ومن ثم قاموا بمحــاولات لدى هــذا العاهل لجذبه الى حلفهم . غير أنه لما كان فى ذاك الحين منهمكا فى حرب ضد الصرب ، فان مساعيهم الأولى لم تكلل بالنجاح المرغوب (٣٣٤) . واذ دعى البيزيون أيضا للانضمام الى الحلف فانهم رفضوا أولا ، ذلك

---

(٣٣١) Dandolo, p. 420 ; Sanuto, Vite dei Dogi, p. 621 et s., Stella, p. 1091 ; Giustin. fol. 135 ; Fogl., p. 448; Nicéph. Grég., II, 878; III, 43 et s.; Thom. Viaro (voy. aussi Marin, VI, 94 et s. ; ; Romanin, III, 159 et s.)

(٣٣٢) «Ad confusionem, destructionem et exterminium finale Januensium»

– هذى العبارات الواردة بالمعاهدة المبرمة مع بطرس الرابع الأراجونى

(٣٣٣) Curita, Anales de la corona de Aragon (éd. de 1610), II, 241 et s. ; marin, VI 99-91 : Romanin, III, 160; Memorial historico espanol, II (Mardid 1851), p. 274 et ss. ; les Commem. reg., II p. 187 no 368, p. 191 no 381, p. 192 no 385 et s. p. 193 no 387, 389 et s., p. 194 no 392, 395 p. 195 no 398.

(٣٣٤) Cantacuz. III, 118.

لأنهم كانوا من قبل قد ضعفوا ، ومن ثم خشوا أن يستنفدوا فى حرب جديدة ما بقى لهم من قوة ، ثم وافقوا بعد ذلك على الانضمام ، ولكن جاءت موافقتهم متأخرة كثيرا (٣٣٥) ٠

ثم ان البندقية كانت على ثقة من تحالف الأراجونيين معها ، وهؤلاء بحارة أكفاء ، وجنود مدربون ، ومن ثم شعرت بأنها قوية بدرجة تسمح لها ببدء الأعمال الحربية ٠ وفى خلال صيف عام ١٣٥١ وصل ذات ليلة أسطول فينيسى قوامه خمس وعشرون سفينة حربية بقيادة نيكولو بيزانى Niccolo Pisani أمام غلطة (٣٣٦) ٠

ولما كانت أبواب المدينة تبقى عادة مفتوحة ، فقد دخلها البنادقة بسهولة ، واستيقظ السكان فزعين على صيحات الانذار ، وناضلوا نضالا شديدا حتى استطاعوا القاءهم خارج الأسوار ٠ وبخلاف هذه الغارة اكتفى الأسطول الفينيسى بالتجول فى البحار ٠ ومع ذلك فقبل أن يبتعد عن القسطنطينية ترك فيها السفير جيوفانى دولفينو الذى أجرى من جديد المحاولات التى بذلت لأول مرة مع كانتا كوزين (٣٣٧) ٠ واذ أبدى الامبراطور مرة أخرى رغبته فى أن يبقى على الحياد ، فقد عقد البنادقة عزمهم على القيام بعمل أكثر فعالية ، فاستدعوا بايلهم فى القسطنطينية وأركبوه احدى سفنهم ٠ وعندما سعى البنادقة ، بهذه الحركة التهديدية الى حمل الامبراطور على التفكير فى النتائج الخطيرة التى سوف تعود عليه من جراء موقفه المحايد ، جعل سكان غلطة ، من المستحيل عليه بوقاحتهم أن يتخذ هذا الموقف ٠ فقد نظروا اليه بحق على انه فى السر صديق البنادقة ، وذات يوم أرادوا أن يثبتوا له أنهم لا يخافون منه ، فأطلقوا باحدى آلاتهم الحربية حجرا كبيرا على القسطنطينية ، وكرروا هذا العمل فى اليوم التالى ٠

وازاء هذا التحدى لم يعد فى وسع كانتاكوزين الا أن يضم قضيته صراحة الى قضية البنادقة (٣٣٨) ٠ وكان أسطوله محدودا باثنتى عشرة سفينة حربية ، ووعده البنادقة أن يدفعوا له ثلثى النفقات ، مثلما فعلوا

---

(٣٣٥) Matt. Villani (éd, Dragomanni) I ,148; cf. Sauli, I. 326 et ss.; ›iopf, art. Griechenland, Op. cit., p. 447.

(٣٣٦) Dandolo, p. 421 ; M. Sauli (I, 330 et s).

(٣٣٧) Cantacuz, III, 186.

(٣٣٨) Cantacuz, III, 185-191 (Nicéph. Grég., II, 880), Nicéph. Grég. (II ,1031).

مع ملك أراجون ، وفضلا عن ذلك أبدوا له رغبتهم فى أن يعيدوا له الجواهر التى كان قد رهنها فى البندقية منذ بعض الوقت .

وأخيرا تم الاتفاق على أنه اذا تم الاستيلاء على حى غلطة فان الحى سوف يدمر ، وأن تعاد خيوس وفوكاية الى الامبراطور (٣٣٩) . وبعد انهاء هذه الترتيبات بدأت القوات اليونانيـة والفينيسية الحملة معا ، فطارد قسم من القوات السفن الجنوية بنجاح جعل من الحملة عملية مثمرة ، فى حين بدأ القسم الثانى حصـار غلطة برا وبحرا ، حصارا منظما . وكانت عمليات الحصار تجرى بصورة جيدة ، واتخذت كل التدابير اللازمة للهجوم حين تسلم أمير البحر البندقى اخطارا باقتراب اسـطول جنوى كبير ، كما تلقى فى الوقت نفسه تحذيرا بأنه اذا أصر على البقاء أمام غلطة فان سفنه سوف تكون عرضة لأن تطوق وتغرق . لذلك فقد ترك كل شئ هناك ، وأسرع بالاقلاع صوب الأرخبيل ، بينما واصل كانتاكوزين الحصار الى حين وصول اشعار آخر (٣٤٠) .

والواقع أن حجم الأسطول الجنوى كان لا يستهان به ، اذ يضـم ستين سفينة حربية ، يعمل بها بحارة من الصـفوة يقودهم أمين البحر المشهور باجانينو دوريا Paganino Doria (٣٤١) . وحين وصل هـذا الأسطول ، كان الأسطول الفينيسى قد أتيح له الوقت لأن يحتمى خلف تحصينات نجربونت . ولم يتردد دوريا فى ضرب الحصار على الموقع واستمر الحصار شهرين (من ١٥ أغسطس الى ٢٠ أكتوبر ١٣٥١) (٣٤٢) حتى اضطره اقتراب أسطول فينيسى جديد تحت امرة بانكراز يوجوستنيانى Pancrazio Giustiniani وأسـطول أراجونى تحت امرة بونتشى دى سـانتابو Ponce de Santa Pau الى الابتعاد (٣٤٤) ، فاطلق رحيله حرية

---

(٣٣٩) Martin, VI, 91-93 ; Romanin, III, 160 et s.; Taf et. Thom., inéd.; Commem. reg., II ,196, no 402.

(٣٤٠) Cantacuz., III, 193-200; Nicéph. Grég., III, 45 et s.,

(٣٤١) Stella, p. 1091 ; Giustin., p. 135 : Fogl., p. 449. Le contin. de Dandolo donne le chiffre de 66 galères, p. 421.

(٣٤٢) Dand., l.c. ; Fogl., l.c.

– ويقول Nicéph. Grég. (III, 46-51) ان ناحية أوريوس Oréos شمال الجزيرة حاصرها الجنويون ودافع عنها بيزانى Pisani بمساعدة ٣٠٠ فارس من دوقية أثينا .

(٣٤٣) هذا هو الشكل الاسبانى لهذا الاسم ، حسب سوريتا Curita وكابمانى Capmany

(٣٤٤) Dand. l.c : Curita, p. 244 et s.

– أخذ أيضا من البنادقة ، وهو فى طريقه ناحية فتيليون Phtèlion فى خليج فولوس . (Sanut. p. 624)

الحركة لبيزنطى ، فاستطاع أن يتصل بالتعزيزات التى وصلت فى الوقت المناسب ، وتقرر أن يتولى القيادة العليا (٣٤٥) . ولكن الشتاء يقترب . ولم يكن لدى أميرى البحر فى هذا الوقت من عمل عاجل سوى وضع أسطولهم فى مأمن من الأحوال الجوية السيئة فى هذا الفصل فى موانىء الأرخبيل (٣٤٦) . وتأجلت الموقعة الحاسمة الى عام ١٣٥٢ ، وكان لا بد أن تجرى فى مجاورات القسطنطينية .

وكلما اقتربت اللحظة الحاسمة استشعر الجنويون الأخطار الناجمة عن عزلتهم وقاموا بعدة محاولات لانتزاع كانتاكوزين من الحلف الثلاثى ، ولكن دائما دون جدوى : ويبدو أنهم كانوا يريدون القضاء على كل محاولة للتقارب : ألم يقوموا فى اللحظة التى كانوا يتفاوضون فيها لهذا الغرض باحتلال مدينتى هيرقليا Héraclée وسوزوبوليس Sozopolis فى بحر مرمرة (٣٤٧) ؟ .

ويجدر القول تبريرا لعملهم هذا ، فى خصوص هيرقليا أن ما دفعهم الى ذلك هو موقف السكان العدائى لهم . وكانوا أطيب حالا من ناحية الأتراك ، فقد عقدوا معاهدة تحالف مع خضر بيك Khidrbeg — عاهل ألطولوجو Altoluogo (٣٤٨) ، كذلك أوفد دوريا فى مهمة لدى أورخان Orkhan أمير العثمانيين اثنين من بيرا : فيليبو ديلوميدى Philippo Delomede ، وبونيفاتسيو صولى Bonifazio Sauli وكان اقليم هذا الأمير يمتد حتى الساحل الآسيوى للبوسفور . وبدأ المندوبان باكتساب مودته بهدايا ، ووعد بدفع جزية ، وانتهيا بحمله على توقيع معاهدة أصولية لم يصلنا نصها الأصلى (٣٤٩) . وفى ذلك يقول كانتاكوزين ان الجنويين لم يتحالفوا مع أورخان الا بعد الموقعة الكبرى التى سوف نتكلم عنها بعد قليل ، وعندئذ فقط ، وهم يتوقعون هجوما جديدا على بيرا — هجوم لم يحدث فى الواقع — التمسوا منه مددا وحصلوا عليه .

أما نيقفور جريجوراس Nicéphore Grégoras فانه على العكس

---

(٣٤٥) Dandolo, l.c. ; Cantacuz., III, 219.

(٣٤٦) Matt, Villani, I 158 ; Nicéph. Grég., III, 51, 78.

(٣٤٧) Niceph. Grtg., III, 78-82; Cantacuz., III, 209-218.

(٣٤٨) Traité inddit, signalé par Hopf. ort Griechenland, Op. Cit., p. 447.

(٣٤٩) Cantacuzène (III, 228 et s.) et Nicéph Grég. (III, 84); Lib. jur., II, 602; Not et extr., XI, 59; Atti della Soc. lig., XIII, 125 et ss.

من ذلك يجعل توقيع المعاهدة قبل الموقعة الكبرى ، ولا بد أنه محق فى ذلك • ويبدو واضحا أن أورخان اشترك ذاك اليوم فى المعمعة مع فرقة اتخذت موقعها على الساحل الجنوبى من البسفور ، ذلك لأن ثمة وثيقة جنوية بتاريخ لاحق تثنى على الدور الذى أداه فى تلك المناسبة (٣٥٠) • وانتظر الامبراطور بفارغ صبر وصول الأسطولين الفينيسى والقطالونى ، وهذا أمر طبيعى •

وأخيرا فى ١٥ من فبراير ١٣٥٢ شوهد الاسطولان متجهين بكل سرعة من جزر « الأمراء » Iles des Princes الى القسطنطينية : وتجنب باجانينو دوريا الصدام بأن انسحب الى الخلف : فعلى الرغم من أنه تلقى من مستعمرة غلطة تعزيزات جعلت تحت امرته ٦٥ سفينة ، الا أن أسطوله لم يزل أقل عددا من أساطيل خصومه التى يدفعها ريح ملائمة ، وتتقدم منطلقة فى طريقها بحرية •

واتصلت هذه الأساطيل بالأسطول الرومى قبالة ترسانة هبتاسكالون Heptaskaoln ، وهى رصيف بحرى المرمرة المسمى حاليا كاترجا ـ ليمانى Katerga-Limani (أى ميناء السفن الحربية) (٣٥١) • وفى الحال ، أى فى اليوم ذاته نشبت المعركة ، وتقهقر الجنويون بداءة ذى بدء ، تحت ريح معاكسة ، وبضغط شديد من الأعداء ، وصارت غلطة من ثمة مكشوفة بسبب حركة الانسحاب هذه (٣٥٢) • ومع ذلك فانهم عندما وصلوا بازاء سالى ـ بازار Sali-Bazar وهى الجزء من الساحل المحصور بين توب ـ هانيــه Top Hané وبشـيك ـ تاش Bechik-Tach (٣٥٣) قرروا مواجهة العدو ، ومن ثم صارت المعركة عامة ، اشترك فيها ما لا يقل عن ١٣٠ الى ١٤٠ سفينة حربية ، تتقاتل فى مجموعات فى القناة الضيقة التى تشكل البسفور • وجرى القتال بضراوة ، واستمر فى جنح الظلام ، وفقد القطالونيون اثنتى عشرة سفينة ، كما فقدت بيزا أكثر من نصف جنودها • وأخيرا كانت المعركة من نوع المعارك المتأرجحة التى يدعى كل طرف فى نهايتها أنه هو المنتصر ، وينسحب منهوك القوى غير راغب فى مواصلة القتال • وبعد انقضاء بضعة أيام عاد أمير البحر الفينيسى فى طريق

---

(٣٥٠) Atti, l.c., p. 127, 129.

(٣٥١) Hammer, Contstantinople und der Bosporus, I, 123 et s.

(٣٥٢) Stella, p. 1092.

(٣٥٣) M. Paspati ... p. 277.

الغرب ، يتبعه عن كثب الأراجونيون حاملين جثمان قائدهم الباسل مونتشى دى سانتابو الذى مات متأثرا بجراحه (٣٥٤) .

أما الروم فقد تركوا بجبن ساحة القتال فى أشد الأوقات ضراوة ، وبذلك لم يفقدوا أية سفينة من سفنهم . ومع ذلك لم يكن فى عزم الامبراطور بعد رحيل حلفائه ، وسلامة قواته أن يتحمل عبء القتال ، فلم يكن راغبا فيه ، خاصة وأن الأتراك الذين دعاهم الجنويون لمساعدتهم ، ضاعفوا من غاراتهم وصاروا مصدر ازعاج شديد ، وبدأو ابالاشتراك مع حلفائهم يتأهبون لحصار القسطنطينية (٣٥٥) .

وعلى ذلك عقد الصلح مع باجانينو دوريا . وفى التسوية التى تمت بينهما ، وعد الامبراطور من جهة بمنع السفن الفينيسية والقطالونية من الرسو والتزود بالمؤن على طول اقليمه (اللهم الا لانزال سفير أو بايل) ، ومن جهة أخرى أن يحظر على السفن اليونانية أن تزور الموانىء الفينيسية والقطالونية ، ولا يسمح مستقبلا للرعايا اليونانيين أن يخدموا على سفن تنتمى الى أعداء جنوا ، أو أن يشتركوا فى منازعات تقوم بين جنويين من جهة وقطالونيين وبنادقة من جهة أخرى .

وفيما يختص بالتجارة ، يتعهد الامبراطور وقومون جنوا بأن يمنحا الاعفاء من الرسوم الجمركية عن السلع التى يشتريها رعايا أى منهما من رعايا الآخر . واذا باع رعايا يونانيون نبيذا فى غلطة فعليهم أن يدفعوا الرسوم لموظفى الانتاج فى الجهة ، مثلهم مثل الجنويين ، والعكس بالعكس . وتم التصديق صراحة على التنازل بالمجان عن غلطة ، وتعيين حدودها بخندق السور ، وتذكر الوثيقة ثلاث نقط يمر بها خط الحدود : رأس غلطة caput Gallata ، وبرج ترافيريوس Traverius ، والقلعة التى تحمل اسم الصليب المقدس Ste Croix . ولا شك أن هذه التسمية تطلق على القلعة المشيدة على المرتفع ، وهى سبب النزاع الرئيسى ، بحيث أن مجرد ذكرها يشكل بذاته موافقة غير مباشرة على بنائها . ولم يتخذ

(٣٥٤) قبل ان يموت ، حرر تقريرا نسب فيه النصر الى حزبه ، وتاريخ التقرير ، مارس ١٣٥٢ .

– وصف السيد سوريتا Curita سمات هذه المعركة عن طريق تقارير مختلفة من نفس النوع وكذا عن طريق :

La Chronique de D. Pedro IV. Cantacuzène, III, 218-234; Nicéph. Grégoras, III, 86-94 et M. Villani, I, 184-187 (éd .Dragomanni); Lorenzo de Monacis, p. 214.

(٣٥٥) Cantacuz., III, 233 et s.; Nicéph. Grég., III, 91 et s., 99, 144. et s. ; M. Villani, I, 200.

وقتئذ أى قرار بشأن خيوس وفوكاية ، ومن ثم بقى المجال مفتوحا بشانها للنشاط الدبلوماسى (٣٥٦) ٠

وما أن حقق باجانينو دوريا مهمته على هذا الوجه حتى ابتعد بدوره عن الشرق الأدنى ٠ ومع ذلك فالحرب لم تنتهـه ، وكل ما هنـالك أن كانتاكوزين لم يعد يسهم فيها اسهاما فعالا ٠ وظهر بيزانى مرة أخرى فى خلال السنة نفسها أمام أسوار غلطة مع أسـطول مكون من سفن فينيسية وقطالونية ، ولكن المدينة كانت متأهبة للدفاع ، ومن ثم عاد من حيث أتى (٣٥٧) ٠

وفى السنة التالية جرت الاستعدادات للتسلح على قدم وساق فى أراجون وجنوا والبندقية ٠ الا أن المعركة الكبرى لم تقع هذه المرة فى الشرق الأدنى ، وانما وقعت بالقرب من سواحل سردينيا ، بازاء ميناء الجيرو Alghero ٠ وانتهت بالنسبة الى الجنويين بهزيمة منكرة ٠ وزادت فداحة هذه الكارثة باستمرار الانقسامات الداخلية ، وانهاك القوى والمجاعة ٠ وفى هذا الضيق ، ومع يأس الجنويين من الحفاظ على أمن وطنهم ، أبدوا خضوعهم ليوحنا فيسكونتى Jean Visconti ملك ميلانو ٠ كان هـذا الأمير ثريا وقويا ، وعمل على اعادة تنظيم البحرية ٠

وفى عام ١٣٥٤ كان أسطول جنوى على أهبة الابحار مرة ثانية ، وأصبح فى مقدور دوريا أن يتجول بسفينة رافعا بفخار علم جنوا ، فتوغل هذا الملاح الجسور فى البحر الادرياتى ، حتى وصـل الى القرب من البندقية ، واستولى عنوة على مدينة بارنزو Parenzo وأحرقها ، وأنهى حملته بعمل بطـولى بارع (٤ نوفمبر) ، اذ فجأ فى مينـاء زونكيو Zonchio (نافارين Navarin القديمة) أسطولا فينيسيا فى مثل قوة أسطوله ، فاستولى بعد مقاومة ضعيفة على الخمس والثلاثين سفينة التى يتشكل منها ذاك الأسطول ، وعاد الى جنوا بكل بحارتها أسرى ، ويزيد عددهم على خمسة آلاف رجل (٣٥٨) ٠

هذه الضربة التى تلقاها البنادقة على يدى عدو كانوا يعتبرونه نصف ميت أثاز مشاعرهم ٠ كانوا فى العام الماضى قد رفضوا باحتقار عروضا

---

(٣٥٦) تاريخ وثيقة الصلح ٦ مايو ١٣٥٢ ، وتجد الوثيقة فى :
Sauli, II, 216 et ss., et dans le Lib. jur., II, 601 et ss.

(٣٥٧) Sanut, p. 625 ; Navag., p. 1036; Nicéph. Grég., III, 171 et s.

(٣٥٨) Matt. Villani, I, 333-335 ; Stella, p. 1093; Fogl. p. 452; Dand., p. 424; Sanut. p. 629 et s.

للصلح من قبل يوحنا فيسكونتى ، ولكنهم فى هذه المرة ، حين عرض ورثته وخلفاؤه فى السلطة الأخوة الثلاثة مايتو ، وبرنابو ، وجالياتزو فيسكونتى استئناف المفاوضات كانوا أقل غطرسة عن ذى قبل ، وقبلوا أن يوقعوا أولا هدنة (فى ١٥ من يناير ١٣٥٥) ، ثم معاهدة صلح (فى أول يونيه) (٣٥٩) .

واذا تأملنا فى الأحداث الجسيمة التى جرت فى هذه الحرب ، بدت لنا البنود المنصوص عليها فى هذه المعاهدة قليلة الأهمية . وأهم نقطة فى المعاهدة هى التزام الأمتين بألا ترسلا على مدى ثلاث سنوات أية سفينة تجارية الى « تانا » . ولم تتعرض المعاهدة لمسألة حقوق الايطاليين وممتلكاتهم فى رومانيا (بلاد الروم) فيما عدا نقطة تتعلق بدوق ناكسوس Naxos : اذ تعهد الجنويون برد كل ما كانوا قد أخذوه منه أثناء الحرب (٣٦٠) . غير أن مجرد عقد الصلح كان فيه الكفاية لممارسة تأثير عظيم الأهمية على علاقات الايطاليين بالشرق الأدنى ، وأصبح فى وسع التجارة وقد تخلصت من العوائق التى كانت دائما تعرقل نموها بسبب الحروب التى وضعت الآن أوزارها أن تحظى بتقدم جديد .

وفى هذه الأثناء كانت ثورة جديدة على أهبة الاندلاع فى القسطنطينية ، واتضحت أكثر فأكثر مشروعات كانتاكوزين ، وعزمه على الاستيلاء على الامبراطورية لصالحه وصالح أسرته ، وطرد آل باليولوجوس منها ، واهتم بابقاء يوحنا الخامس باليولوجوس الامبراطور الشرعى بعيدا عن مقر الحكم . ولكن كلما اقترب هذا الأمير من سن البلوغ ، صار يتحمل بفروغ صبر آلام نفيه ، وبدأ فى وقت مبكر يبحث عن حلفاء يمكنه الاعتماد على مساعدتهم فى اليوم الذى يرى فى نفسه القوة الكافية ليطالب بحقوقه ، ويعود الى داره وسلامته ، ويطرد المغتصب . ويبدو أنه اتجه أولا الى البنادقة . فحينما قام أمير البحر نيكولو بيزانى بحملته الثانية فى الشرق الأدنى ضد الجنويين ، فاوضه يوحنا على أن يأخذ منه قرضا قدره ٢٠٠٠٠ دوكا (نقد ذهبى قديم فى البندقية — المترجم) وأعطى الدوج كرهن جزيرة تنيدوس Ténédos مع حق السيادة والانتفاع بالكامل (٣٦١) . واذ تزود بهذا المبلغ فانه أراد أن يذهب الى القسطنطينية ويظهر بها بأمل أن يشعل بها ثورة لصالحه ، ولكنه فشل .

(٣٥٩) Sanut p. 630 et s.

(٣٦٠) Lib. jur, II, 617 et ss.

(٣٦١) Tar. et Thom., inéd., à la date du 10 oct. "VI Ind. (1352) in burgo Eni»; les Commem. reg., T. 2, p. 214 no 5 ; Cantacuz., III, 208.

أما جنوبو غلطة الذين يخفوا تعاطفهم ، فانهم أعطوه ملجأ عندهم ، هو ونصيره البطريرك كاليست Calliste ، وزودوهما بالوسائل الكفيلة بوصولهما سالمين الى جزيرة تنيدوس (٣٦٢) • وهناك انتظر يوحنا ظروفا أفضل • وحلت اللحظة المرغوبة في عام ١٣٥٤ : ذلك أن ثمة جنوى من أسرة غنية محترمة ، يدعى فرانشسكو جاتيلوزيو Francesco Gattilusio غــادر جنوا ومعه سفينتان طلبــــا للثروة في الشرق الأدنى ، فقدم الى تنيدوس ليرسو عندها • ولم يكن يجهل ما فعله مواطنوه في غلطة من أجل يوحنا باليولوجوس ، وكان يعلم أنه من أول يوم لاقامته في الجزيرة ، لم يكف جنوبو غلطـــة عن الاتصـــال به ، والعمــل سرا في ســـــبيل مصلحته (٣٦٣) •

وبالخلاصة ، اتفق مع الامبراطور الشاب على القيام بهجوم مفاجيء على القسطنطينية • وبفضل خدعة نفذها جاتيلوزيو ، نجح يوحنا في التسلل داخل العاصمة وتثبيت أقدامه بها : فأخذ كانتاكوزين على غرة ، وأجبره على الاعتراف بحقوقه ، والتخلص عن اقتســام السلطة معه ، وبذلك بقي يوحنا وحده أمبراطورا • واعترافا منه بالخدمات التى أداها له جاتيلوزيو زوجه أخته الأميرة مارى ، وأعطاه جزيرة لسبوس بصفة بائنة (٣٦٤) ، وكانت هذه هي الأصل في امارة عاشت قرنا كاملا من الزمان •

وقد حكم لسبوس على التوالي خمسة أمراء من آل جاتيلوزيو ، من عام ١٣٥٥ الى ١٤٦٢ ، وكان حكمهم خيرا عظيما على الجزيرة ، اذ كفل لها ادارتهم الحكيمة رخاء غير عادى (٣٦٥) • ولا مجال هنا لسرد تاريخهم ، لكنا لا نستطيع أن نهمل الاشارة الى حدث أسهم بقدر كبير في انماء ســلطة الجنويين ونفوذهم في الامبراطورية ، وكـذا في رفع شأن أسرة

---

(٣٦٢) Cantac., II, 255, 275; Nicéph. Grdg III., 234 et s. 257.
ـ في رسالة موجهة من البايل الفينيسي ماتيوفينريو من القسطنطينية الى حكومة يذكر البايل مساندة الجنويين قضية يوحنا (٦ اغسطس ١٣٥٤) :
Mon. hsit. Slav. merid, III, 266.

(٣٦٣) Nicéph. Grtg. III, 554.

(٣٦٤) Ducas, p. 40-54, 46 ; Nicéph. Grég., III, 554 ; Laon.
Chalcoc., p. 520; matt. Villani, I, 348 et s.; Giustin., p. 136; Fogl., l.c.

(٣٦٥) حسب شهادة الكاتب اليونانى Chalcoc ص ٥٢١ •

خرجت من أحضانهم ، فوجدت نفسها فجأة فى صفوف الأمراء المسيحيين الروم ، وأصبحت من أغنى أسرهم وأرفعها مكانة (٣٦٦) ·

كان أفراد آل جاتيلوزيو حلفـــاء أسر الأباطرة فى القسطنطينية وطربزون ، وبينهم وبين هؤلاء صلات عظيمة من المودة ، يتمتعون بنفـوذ كبير على الأباطرة اليونانيين ، الأمر الذى لم يمنعهم من استغلال انحطاط الامبراطورية المتفككة لانماء ممتلكاتهم على حســاب الأمراء البنادقـة فى الأرخبيل (٣٦٧) · ولم يكن فرانشسكو ، أول هؤلاء الأمراء يملك غير لسبوس ، ولكنه استأجر لنفسه ولذريته من بعده فوكاية القديمة التى يملكها ماهون خيوس (٣٦٨) · وضم أخوه نيكولو Niccolo الى أملاكه قبل عام ١٣٨٤ (٣٦٩) مدينة اينوس AEnos الآهلة بالســكان على ساحل تراقيا ، وتم هذا الضم لفرع ناجح من آل جاتيلوزيو ، فى حين استمر الفرع الأكبر من الأسرة يحكم لسبوس · وكانت مدينة اينوس بموقعها بجوار نهر مارتيزا الصالح للملاحة مركزا للحركة التجارية بين الأرخبيل وتراقيا ، ومحاطة بمياه زاخرة بالسمك ، كما كانت تحصل على ايراد كبير من ملاحاتها ، فكانت هى التى تزود تراقيا ومقدونيا كلها بالملح (٣٧١) ·

وفى الفترة التى أشعل فيها الامبراطور يوحنا الثورة التى رفعته على العرش ، استولى العثمانيون على قصر تزيمبيه Tzympé على شاطىء

---

(٣٦٦) Ducas, trad. it (éd. de Bonn.) ; M. Friedloender, M. Pinder (Beiter zur aelteren Muenzkunde, I, Berl. 1851, p. 29 et ss.); une monographie récente de M. Schlumberger, Numismatique de l'Orient latin, p. 432 et s. ; Documenti riguardanti alcuni dinasti dell'Arcipelago, dans le Giorn. lig., I, 81 et ss. 217 et ss., II, 86 et ss., 292 et ss.; III, 313 et ss.

(٣٦٧) أضر فرانشسكو جاتيلوزيو بكيفية أخرى مصالح الجمهورية الفينيسية ، بأن سك نقودا على نمط الدوكا ducats الفينيسية · وقد كتب اليه دوج جنوا خطابا بهذا الخصوص (8 août 1357; Commem. reg., II, 266, no 252) كلفه بالحاح أن يكف عن هذا السىء ، ومن المحتمل ألا يكون هذا الانذار قد أسفر عن نتيجة مثمرة ، حتى فى زمن فرانشسكو ، وعلى أية حال فان ابنه نيكولو Niccolo وحفيده دورينو Dorino قاما من جديد بسك نقود من هذا النوع · انظر
— Schlumberger, l.c. p. 436, 439, 441;
Gradenigo, Della moneta veneta-imperiale (Udine 1869), p. 23.

(٣٦٨) Hoff., art Giustiniani, p. 319.

(٣٦٩) Le Giorn. ligust., I, 86 et s.

(٣٧٠) Laon Chalcoc. p, 520.

(٣٧١) Critobul., éd. Muller, p. 112 et s,
— هذه المزايا أوحت الى البنادقة فى فترة سابقة بفكرة احتلال اينوس :
Taf. et Thom., III, 70, 81.

الدردنيـل ، والأخطر من ذلك أنهم اسـتولوا على مدينـة كاليبوليس (جاليبولى) ، ومنهـا انتشروا ليس فقـط عـلى خيرسونيز تراقيـا la Chersonnèse de Thrace (الآن شبة جزيرة جاليبولى ـ المترجم) كلها ولكن أيضا على الساحل الشمالى لبحر مرمرة حتى رودستو Rodosto وفى الوقت نفسه تقدموا فى الجانب الآخر على طول نهر ماريتزا ، واستولوا على اندرينوبل Andrinople (حاليا ادرنة ـ المترجم) ـ وفيليبوبولى Philippopoli ، واحتلوا أخيرا شريطا عريضا من الاقليم بين نهر ماريتزا والبحر الأسود . كل هـذا كان شؤما على العهد الجـديد ، فقد تقلصت أملاك الامبراطور حتى صارت دائرة ضيقة حول عاصمته .

وليس ثمة شيء فى فتوحات البلغار ، أو فى غزوات الصرب يمكن أن يقارن بالنتائـج التى حصـل عليهـا العثمانيون المظفرون بوثباتهم السريعة. وترتبط هذه الأحداث بالسنين الأخيرة من عهد السلطان أورخان Orkhan (المتوفى عام ١٣٥٩) والسنين الأولى من عهد مراد الأول . وكانت الأمم التجارية تتمتع فى الامبراطورية بامتيازات كبيرة ، فلم يكن فى وسعها أن تشهد انهيار الامبراطورية دون مبالاة . فمن جهة ، حاول تجارها أن يتوغلوا فى داخل تراقيا ومقدونيا فاصطدموا على الفور بسادة البلد الجدد الذين لا يسمح تعصبهم الشديد بأن يحصل هؤلاء التجار منهم على امتيازات ملائمة لتجارتهم .

ومن جهة أخرى ، كان أمن التجارة معرضا للخطر على طريق من أكثر الطرق البحرية رواجا ، وذلك منذ أن سـيطر الأتراك على ضفتى الدردنيل ، ومن ثم فرضـوا سيادتهم على جاليبولى ، مفتـاح البسفور وبنطس ، وكان هذا خليقا بأن يثير قلقا شديدا فى البندقية وجنوا ومع ذلك فان الامبراطور هو الذى تأثر من هـذه الأحداث أكثر من غيره ، وبصورة مباشرة ، فأرسل الجندى ميشيل مالاسبينا Michele Malaspina الى بلاط روما يلتمس عون البابا (١٣٦٥) (٣٧٢) .

وكان أوربان الخامس يراوده منذ زمن بعيد فكرة استثارة حركة فى الغرب لصالح الامبراطور اليونانى ، واستجاب للنداء أمير واحد فقط ، ملك صغير ، هو الفارس المغوار « الكونت الأخضر » اميديه السادس ، أمير سافوى Comte vert, Amédé VI de Savoie (٣٧٣) . واذ صمم على

(٣٧٢) Raynald., ad, an. 1365, n 22.

(٣٧٣) Datta, Spedizione in Oriente di Amadeo VI, conte di Savoia ; Cibrario, Storia della monarchia di Savoia, III, 192-204.

نجدة قريبه الامبراطور يوحنا الذى كان على وشك الانهزام أمام العدد الكبير من أعدائه ، فانه قام على رأس جيش مجهز تجهيزا جيدا (٣٧٤) . وفى شهر أغسطس ١٣٦٦ كان سعيدا اذ استطاع أن ينتزع جاليبولى من الأتراك ، ولكن عند وصوله الى القسطنطينية علم أن الامبراطور وقع فى أسر ملك البلغار ، ومن ثم انطلق لغوره ، ومعه عدد من سفينتين زودته بهما مستعمرة بيرا (٣٧٥) ، فى حملة فى البحر الأسود . وشن هجمات مفاجئة على مدن ساحلية محصنة حملت ملك البلغار على اطلاق سراح الامبراطور .

عندئذ عاد أميديه الى مشروعه الأول فاستولى على موقعين تركيين صغيرين (مايو ١٣٦٧) . ولسوء الحظ اقتربت نهاية تكليف جنوده المرتزقة ، وكانت موارده المالية قد نفدت ، فاضطر آن يقفل راجعا الى وطنه . وبالاجمال لم تأت هذه الحملة الصليبية بأية نتيجة مستديمة . وعند رحيل الكونت وضع جاليبولى بين يدى يوحنا باليولوجوس ولكن ما فائدة هذه الغزوة اذا كان الامبراطور الضعيف قد قدر له أن يفقدها ثانية فى مدة قصيرة ؟ وضاعف البابا جريجورى الحادى عشر ، خليفة أوربان الخامس من مساعيه لدى الأمراء اللاتينيين واليونانيين فى الشرق الأدنى لينظموا حلفا كبيرا ضد الأتراك ، ولكن جهوده أخفقت كلها .

كان لابد من جيوش قوية ، وحملات كثيرة لايقاف تقدم العثمانيين ، ولم تكن جنوا والبندقية ، القوتان البحريتان فى حالة تسمح لهما بتعبئة مثل هذه الجيوش . وكانت البندقية فى تلك الآونة بنوع خاص مضطرة الى حشد كل قواها فى كريت التى كانت تعانى منذ عام ١٣٦٣ من ثورة عارمة ، وكان الباعث على هذه الثورة المسلحة فرض ضريبة جديدة . ولم يترك سكان الجزيرة اليونانيون ، وهم دائما متأهبون للقيام بثورة ، لم يتركوا هذه الفرصة تمر ، وفى هذه المرة اشترك معهم فى ثورتهم عدد كبير من المستعمرين البنادقة تحت قيادة زعماء طموحين ينتمون الى أحسن

---

(٣٧٤) يزعم داتا Datta (ص ٥٩) أن الكونت لم يكن عنده سوى سفن حربية استأجرها من مجهزى سفن بنادقة ، وجنويين ، ومرسيليين ، غير أن رومانن ينبئنا بان (Romanin, III, 232) الجمهورية زودته بسفينتين حربيتين ، ومبلغا من المال .

(٣٧٥) Datta p. 192.

Raynald., ad an. 1372, no 29 ; Buchon. Nouv. recherches. II. 1, p. 218 et ss. Hopf, art Griechenland, Op. cit., LXXXVI, p. 23, 24.

الأمر (تيتو فينييه ، وماركو جرادينجو ، الخ) • وكانت المستعمرة على وشك الانفصال عن الوطن الأم (٣٧٦) •

وتمكنت البندقية أخيرا من القضاء على الثورة ، ولكن ذلك اقتضاها عدة سنوات من الصراع والجهد الشاق (١٣٦٤ ــ ١٣٦٦)(٣٧٧) • وفي هذه الظروف لم يكن في مقدورها أن تفكر في الأتراك • ولم يكن أمامها فضلا عن ذلك سوى بديلين : اما أن تعبيء جيوشا ترسلـــها لنجـــدة الامبراطور اليوناني العاجز عن الدفاع عن نفسه بنفسه ، أو أن تضـــم ما تبقى من الامبراطورية ، وتعتمد على مواردها الخاصة دون أية مساعدة تأتيها من الخارج لتدافـــع بأى ثمن عن القسطنطينيـــة ضد أعـــدائها الجدد (٣٧٨) • ولم يتناسب أى من الأمرين مع سياستها ، وكل ما كانت ترغبه هو أن تحافظ على علاقات طيبة مع الامبراطور بحيث تستخلص منه أقصى ما تستطيع من مزايا • وبخلاف هذا كانت تترقب ما تسفر عنه الأحداث •

ولم تكن العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والامبراطور ســـارة بالنسبة الى الأخير ، ذلك لأن مبعوثى الجمهورية كانوا مرة بعد أخرى يذكرونه حينا بتعويض لم يدفعه ، وأحيانا بدين لم يسدده (٣٧٩) • وكان هنـــاك دائما مشاكل جديدة بين حكام المستعمرات (البابلات) البنادقة وبين الحكومة اليونانية • وضجر الامبراطور من هذه الأحـــوال ، فكلف في عام ١٣٦٢ سفيره في البندقية اندرونيك اينرتى (اينوتى ؟) Andronic Inerti (Ineoti ?) أن يطلب نسخة من المعاهدات القديمة حتى يمكنه التحقق من مدى صحة ادعاءات هؤلاء الحكام • وكان من بين

(٣٧٦) دبر بعض النبلاء مشروعا يهبون بمقتضاه الجزيرة لجمهورية جنوا ، ولكن الجمهورية رفضت مساندة هذا التمرد ، وكان من اخلاص الدوج جبرييل ادورنو أن حظر على كل الجنويين أن يتعاملوا مع أجزاء الجزيرة التابعة للمتمردين :
(Commem. reg., III, 22, no 103).

(٣٧٧) دون رومانن قصة هذه الثورة تبعا لأوثق المصادر •
Romanin, III, 217-227.

(٣٧٨) في ١٦ ابريل ١٣٥٥ اقترح مارينو فالييه ، بايل القسطنطينية (Marino Falier) تبنى هذا الرأى الأخير • انظر :
— Hopf, art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 448.

(٣٧٩) حينما كانت البندقية توفد سفراء لطلب مد فترة معاهدة ، كانت الطلبات المالية التي تبدو أنها ليست سوى الجزء الثانوى من مهمتهم ، كانت على العكس من ذلك • في الكثير من الأحيان ، الموضوع الرئيسى • انظر على سبيل المثال : تعليمات زكاريا كونتاريني :
Zaccaria Conlarini (9 sept. 1349, publ. en grec dans Miklosich et Muller, Acta groeca, III, 114 et ss.; en latin dans Taf. et Thom., IV, 341 347 ets.) ; Giovani Gradenigo (8 oct. 1357, publ. en grec. dans Mikl. et muller, l.c., III, 121 et ss.; extraits en italien dans les Commem. reg., II, 269; no 265).

النقاط المتعلقة بشكاواهم رسم الانتاج المفروض على الرعايا اليونانيين بشأن عمليات البيع والشراء التى يجرونها مع بنادقة • وفى التعليمات التى سلمها الامبراطور لاينرتى ، يعلن الامبراطور أن هذه المطالبة لا سند لها ، لأن اليونانيين رعاياه هو ، ومن حقه أن يقتضى منهم ما يشاء ، وأن هذه الضريبة تسرى على كل العمليات ، سواء جرت مع بنادقة أو غيرهم من الأجانب • ثم ان عنده الكثير من الشكاوى ، ومن أكثرها ظهورا أن بعض الرعايا اليونانيين يقبلون دون سبب معقول أعضاء فى الجالية (الفينيسية) ، وأن أفرادا من غير البنادقة يمارسون التهريب بادعاء أنهم بنادقة • وهاتان مخالفتان تضران بصالح الخزانة الامبراطورية • ويشير الامبراطور الى مخالفة ثالثة : ذلك أن عددا كبيرا من البنادقــة يمتلكون منازل أو عقارات أخــرى فى القسطنطينية أو فى جهات أخرى من الامبراطورية ، اما لأنهم اشتروا هذه العقارات ، أو لأنهم استلموهـا على شكل بائنة زواجهم من يونانيات ، أو لأنهم ورثوهـــا من أقارب يونانيين •

هذه العقارات كانت حتى تلك الآونة تدفع الضريبــة العقارية ، ولكنها عندما انتقلت الى أيدى بنادقة وقفت عن الدفع • وكان الامبراطور ينكر حق البنادقة فى شراء أملاك عقارية فى الاقاليم اليونانية ، ويطالبهم بسداد الضريبة على هذه العقارات ، أو التخلى عن ملكيتهم لها • وردت السلطات الفينيسية بأن شراء المنازل أو الأراضى أو الحدائق حق لمواطنيها بمقتضى المعاهدات ، وأنها مراعاة للحـالة الحاضرة للامبراطورية توصى مواطنيها بالكف عن المشتروات من هذا النوع حتى ينقضى أجل المعاهدة ، أى فى غضون خمس سنوات • وعلى الامبراطور الا يفرض أية ضريبة على العقارات التى يملكها حاليا بنادقة •

وفى عـام ١٣٦٢ قـدم الى البندقية سفيران يونانيـان تيوفيلاكت درموكيتس Théophylacte Dermokaiter ، وقسـطنطين كافالاروبـولو Constantin Cavalloropoulo (٣٨٠) مزودين بسلطات مطلقة ، ووقعا فى ١٣ من مايو ١٣٦٣ (٣٨١) معاهدة جديدة تؤيد المعاهدات السابقـة وتضيف اليها كالمعتاد نصوصـا جديدة • وفى مناقشـة المواد أصرت سلطات البندقية على مبدئها • وكان هناك ايضا عقبة ، ذلك هو العدد الكبير من الحانات الليلية التى يديرها بنادقة ، ويبيعون فيها كميات كبيرة من الخمور التى أعفيت من الرسوم والضرائب : وهنا كان الضرر يصيب كلا من المالية الامبراطورية وزراعة الكروم فى الامبراطورية • وفى هذه

(٣٨٠) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 129 et s.

(٣٨١) Marin, VI, 152-156; Romanin, III, 215 et s.

النقطة وافق الدوج على تحقيق رغبة أبداها الامبراطور ، بأن ينقص عدد الحانات الليلية الفينسية في القسطنطينية الى خمس عشرة حانة في فترة الخمس السنوات القادمة ، كما وعد بأن يصدر تعليمات مشددة الى البايلات بالا يعلنوا مستقبلا أن شخصا ما بندقي في حين أنه لا يستحق هذه الصفة (٣٨٢) .

واذا كان يبدو في العاصمة العديد من فرص النزاع بين الخزانة التي تطالب بحقوقها ، والبنادقة الذين يطالبون بحقهم في الاعفاءات ، فانه لم يكن من النادر في ضاحية بيرا حدوث مثل هذه المنازعات بين أمم متنافسة ، تحركها مصالح متعارضة ، وتملأ نفوسها مشاعر عدائية . كانت بيرا اقليما جنويا ، ومع ذلك كان على البنادقة أن يذهبوا اليها لأنها سوق أكثر أهمية من سوق القسطنطينية ، ويرسو عندها العدد الأكبر من السفن التي تؤدي خدماتها في البحر الأسود .

وكان يصل الى البندقية من القسطنطينية مجموعات من الشكاوى بخصوص المعاملات السيئة التي يلقاها منذ سنين بعض البنادقة من البودستات الجنويين ، بالمخالفة للعادات المتبعة في كل زمان ، ومن ثم أرسلت السلطة الحاكمة في البندقية الى جنوا في عام ١٣٦٠ سفيرا خاصا يدعى داميانو اندريا Damiano Andrea وكلفه بعرض هذه الشكاوى (٣٨٣) . واليكم بعض الأمثلة : كان بودستات بيرا قد احتجز مدة أطول مما ينبغي سفنا فينيسية عند عودتها من تانا ، وجعل يفتش حمولتها بكيفية تثير الغضب ، وكان لشخص من أهالي كانديا بضاعة مخزونة في بيرا ، فاستعمل لوزنها موازين فينيسية ، فهدده البودستات ومنعه من هذا العمل ، بل وحطم هذه الموازين . ومع ذلك فان هذا الشخص لم يفعل شيئا مخالفا للعرف العام الذي يتبعه البنادقة حتى ذلك الحين . وكان السماسرة البنادقة يمارسون دواما مهنتهم في بيرا دون أن يصادفوا أية عوائق ، ولكنهم طردوا من هناك .

واذا كان لبندقي قضية في بيرا ، فان المصروفات التي ينفقها على الشهود وتحضير المستندات أكثر بكثير مما يتحمله الجنويون أمام محاكم

---

(٣٨٢) Taf. et Thom., inéd ; le Commem. reg., II, 331 et s., no 308. — وثمة بنود محررة في المعنى نفسه ، موجودة في مواضع مختلفة من المعاهدة المبرمة في أول فبراير ١٣٧٠ بين جمهورية فينيسيا ، والامبراطور اليوناني الذي كان وقتئذ يمر بروما : Taf. et Thom., inéd.

(٣٨٣) تعليمات بلا تاريخ (أواخر ١٣٥٩) ، Commem. reg. II, 30 et s. no. 169.
وعندي النص الكامل بفضل السيد توماس Thomas

القسطنطينية • واذا كسب بندقى قضية ضد جنوى ، وحكم على خصمه بالدفع ، فانه ، أى المدعى يحكم عليه مع ذلك بالمصروفات ، رغم ثبوت حقه والاقرار به ، وكثيرا ما كانت المصروفات تزيد على المبلغ موضـوع النزاع • واذا قام بندقى بأعمال مقلقة للراحة ، أو تشاجر فى شوارع بيرا ، يلقى به البودستات فى السجن ، ويحقق موضوعه بنفسه بدلا من احالته الى قضاته المختصين بالقسطنطينية •

ولما كان بودستات بيرا لا يتلقون كما ينبغى لهم شكاوى بايلات القسطنطينية ، ويبررون سلوكهم هذا بأنهم يتبعون ما لديهم من تعليمات ، فان المسألة كان لا بد من النظر فيها وتسويتها بين حكومتى المستعمرتين • ووعد دوج جنوا بتحقيق المسألة وأوصى سـلطات بيرا بأن تحسن فى المستقبل معاملة البنادقة (٣٨٤) • وبالاتفاق مع دوج البندقية ، أوفد الى بيرا ، وكافا ، وتانا فى مستهل عام ١٣٦١ تعليمات تميل الى التوفيق والمصالحة ، جددها فى عامى ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ (٣٨٥) • ولنا مع ذلك أن نفترض ان هذه التعليمات ظلت حبرا على ورق ، ذلك لأنه حدث فى عام ١٣٦٤ أن انتهز الدوج لورنزو تشلسى Lorenzo Gelsi فرصة ايفاد سفارة الى جنوا بشأن موضوعات أخرى ، فجدد شكاويه بشأن ضروب الظلم والعنف والعسف التى يعانى منها البنادقة من جانب بودستات بيرا (٣٨٦) •

وهكذا أصبح قطع العلاقات وشيكا : اذ كان لابد أن تؤدى المناقشة بين البندقية وجنوا الى منازعات سافرة • واذا كان فى الامكان فصل الأحداث المتزامنة ، وقصر الكلام على الأحداث التى كان الشرق مسرحا لها ، فانه يمكن حقا أن تسمى الحرب التى سوف نتتبع تأريخها « حرب تنيدوس » Ténédos • وتنيدوس ، من جزر الأرخبيل القليلة التى بقيت تحت سلطة الأباطرة اليونانيين ، أو عادت الى سلطتهم ، واكتسبت بفضل موقعها عند مدخل مضيق ابيدوس Abydos أهمية كبيرة للأمم التجارية التى لها علاقات بالقسطنطينية والبحر الأسود •

واذ أصبـح العثمانيون مسيطرين على ضـفتى المضيق ، كان فى

---

(٣٨٤) Commem. reg., III, 309, nos 175, 177.

(٣٨٥) Ibid. II, p .509, nos 175, 177; III, p. 7, nos 16, 17; p. 17, no 79.

(٣٨٦) Mas-Latrie, Hist. de Chypre .III, 748 et s.

ــ ردا على ذلك تلقى الدوج من جنوا تأكيدات سلمية للغاية :
Commem. reg., III, p. 37 et s. no. 194.

وسعهم منع هذه الأمم من المرور بالمضيق • وكانت تنيدوس ، بالنسبة الى أسطول حربى مكلف بفتح الممر بالقوة ، قاعدة مناسبة للعمليات ، وملجأ قريبا تأوى اليه السفن التجارية المتجهة الى أعالى البحار هربا من مطاردة الأتراك ، كما كانت موقعا ممتازا لمراقبة الحصون القائمة على السواحل وحامياتها ، ومعرفة مشروعات الأتراك •

ومنذ زمن بعيد كانت البندقية تترقب سنوح الفرصة لكى تستولى عليها • وقد رأينا من قبل أنه فى عام ١٣٥٢ أعطى الامبراطور يوحنا الخامس الجزيرة رهنا مقابل قرض (٣٨٧) • وفى عام ١٣٦٦ ، حين قام الكونت أميديه دى سافوى بحملته ضد الأتراك ، مر بالبندقية ، ونظير المساعدة التى قدمتها له الجمهورية ، عرض أن يتنازل لها عن جاليبولى التى أزمع على غزوها ، ولكن جاليبولى كانت موقعا يصعب الدفاع عنه • ومن ثم رفضت الجمهورية باستخفاف هذا العرض ، وصرحت له بأنها تفضل تنيدوس (٣٨٨) •

ومع ذلك لم يكن فى وسع الكونت أن ينتزع هذه الجزيرة بقوة السلاح من الأمبراطور ، ابن عمه ، والذى قام بحملته هذه دفاعا عن امبراطوريته • غير أن الامبراطور كان يسيد الموقف فى الجزيرة • وفى عام ١٣٦٩ — ١٣٧ قام بنفسه برحلة الى الغرب ليطلب معونات ، ومر فى طريقه بالبندقية ، ولم تترك الجمهورية هذه الفرصة تمر دون أن تجدد طلبها ، وغرضت أن تعيد اليه نظير موافقته الجواهر التى كان قد سلمها اليها بمثابة رهن (٣٨٩) •

وفى عام ١٣٧٥ قدمت سفارة تطالب بتعويض ، وقام أسطول الى القسطنطينية ليمارس بوجوده أمامها ضغطا على ارادة الامبراطور • وفى هذه المرة عرض البنادقة ، بالاضافة الى اعادة الرهن الذى كان فى حيازتها، أن تعطيه مبلغ ٣٠٠٠ دوكا ، وتعهدت برفع العلم اليونانى فوق الجزيرة الى جانب العلم الفينيسى ، والا تتعرض لرجال الدين اليونانيين (٣٩٠) •

كانت هذه الشروط طيبة تغرى الامبراطور ، فوافق عليها

---

(٣٨٧) الملحوظة رقم ٢ تتعلق بهذه الوثيقة ، الا أن التاريخ المذكور بها ، وهو عام ١٣٥٠ غير صحيح • Romanin, III, 255.

(٣٨٨) Romanin, III, 232.

(٣٨٩) Caraldo, p. 227, cité par Cicogne Iscrizioni, venez, VI, 95.

(٣٩٠) Romanin, III, 255.

أخيرا (٣٩١) . وغير أن كل هذا قد تم دون أى اعتبار للجنويين : وكان هؤلاء على علم تام بكل ما يدبر ، ولم يكن في عزمهم بأية حال أن يتركوا لمنافسيهم محطة في مثل هذه الأهمية للتجارة مع الشرق الأدنى ، وبدلا من أن يسلموا بما تم الاتفاق عليه ، صمموا على أن يأخذوا الجزيرة لأنفسهم ، ولم يخشوا أن يؤدى عملهم هذا الى اندلاع ثورة .

وكان اندرونيك ، الابن الأكبر للامبراطور قد حاول مرة أن يسقط أباه من العرش ، وعقابا له عن هذه المحاولة حكم عليه بسمل عينيه ، ولكن الحكم لم ينفذ منه سوى نصفه . وفى أثناء رحلة الامبراطور يوحنا الى الغرب ، اعتقله بعض دائنيه من البنادقة ، واذ لم يكن أندرونيك مشفقا على والده في محنته هذه ، فانه رفض أن يسدد دينه ، وعهد بذلك الى أخيه الأصغر مانويل Manuel (٣٩٢) . وعندما عاد يوحنا ، ألقى باندرونيك في السجن تكفيرا له عن جريرته هذه ، وعين مانويل خليفة له . وتسلل الجنويون في ثنايا هذه الخلافات العائلية ، واتفقوا مع أندرونيك ، وزودوه بالوسائل الكفيلة بهروبه من سجنه ، وفقد يوحنا صديق البنادقة تاجه وحريته (١٣٧٥) . وزج في السجون البابل بيترو جريمانى Pietro Grimani والتجار البنادقة الموجودون وقتئذ في القسطنطينية ، ونهبت أموالهم (٣٩٣) .

أما الجنويون فانهم أخذوا نظير ما كانوا قد أدوه للمغتصب جزيرة تنيدوس وقلعتها ، وأرضا قبالة حيهم في بيرا (٣٩٤) . وحتى هذا الحين تم كل شىء بنجاح ، غير أنهم حين أرادوا وضع يدهم على الجزيرة ، اصطدموا بمقاومة لا سبيل الى التغلب عليها من جانب الحاكم السكان الذين ظلوا كلهم على ولائهم للامبراطور الشرعى ، لدرجة أنهم ، وهم يعلمون رغبة الامبراطور في التنازل عنها للبنادقة ، وبعد صدهم محاولة الجنويين ،

---

(٣٩١) La Vita Cardi Zeni (Murat., XIX, 216); Romanin, III, 258-261.

(٣٩٢) اسلوبنا فى عرض هذه الأحداث يختلف قليلا عن الأسلوب المقبول بوجه عام ، ولكنه مبنى على البحوث التى أجراها السيد بيرجيه دو زيفرى :
— M. Berger de Xivrey, dans son Mém. sur la vie et les ouvrages de Manuel Paléologue (Mém. de l'Acad. des inscr., XIX, 2), p. 30-39.

(٣٩٣) وضع أيضا تحت الحراسة فى بيرا بناء على طلب اندرونيك بضائع ومبالغ تخص بعض بنادقة القسطنطينية :
Casati, Guerra di Chiaggia, p. 226.

(٣٩٤) Voy le document du 23 août 1376 dans le Lib jur., II, 819-821.
هذا ليس الا تصديقا لوثيقة تنازل أولى لم تصل الينا .

سلموا جزيرتهم لأمير البحر الفينيسى ماركو جوستنيانى الذى كان يتجول. آنئذ فى الأرخبيل · ولم يضـع البنـادقة لحظة واحدة ، واشتغلوا فى. تحصـين تنيـدوس ، وأوفـدوا اليهـا البايل فينييه ant. Venier (يناير ١٣٧٧) (٣٩٥) ·

واجترأ سفير جنوى يدعى داميانو كاتانيو Damiano Cattaneo على الذهاب الى البندقية مطالبا بتنيدوس باسم الامبراطور أندرونيك ، وقد أجيب ببساطة برفض مناقشة هذه المسألة حتى اليوم الذى يعود فيه الامبراطور يوحنا الى عرشه · ووصلت الأمور على هذا النحو الى درجة لم يعد معها مجال لحل سلمى ·

وحدث وقتئذ ما من شأنه قطع العلاقات ، وذلك لوقوع نزاع شديد. الخطورة فى قبرص بين الأمتين المتنافستين · وبدأت الحرب جهارا ، حرب مليئة بكوارث فادحة توالت بسرعة لم يشاهد مثلها فى أية جهة أخرى · وكان الحظ أولا فى صالح البنادقة ، وصد بايلهم فينييه بقوة فى تنيدوس. هجومـا شنه الجنويون (نوفمبر ١٣٧٧) (٣٩٦) ، ونال أمير بحرهم فيتورى بيزانى Vettore Pisani انتصارات باهرة فى البحر التيرانى ، والبحر الأدرياتى (١٣٧٨) : فقد استولى أحد أساطيلهم فى الشرق الأدنى على فوكاية القديمة ، وأحرق ضواحى خيوس ، وميتيلين Mitylène (١٣٧٩) (٣٩٧) ·

ولكن فى خلال هذه السنة ١٣٧٩ ، تحطم الأسطول الفينيسى تقريبا عند بولا Pola ، وظهر الجنويون المنتصرون بقوات ساحقة على مرأى من البندقية ، واستولوا على كيوجيا Chioggia جنوبى بحيرات شاطئيه ، من هناك مدوا يديهم بالمعونة الى فرانسوا دى كارارا François de Carrara والملك لويس ، ملك هنغـاريا ، حليفهم · وعمل هـؤلاء بالاتفـاق مع الجنويين ، فاستولوا على أراضى الجمهورية الخلفية · وحوصرت البندقية من جميع الجهات ، وصارت محرومة من أسطول يحميها ، وبدت على وشك السقوط · ومع ذلك فبعد مرور لحظة من الوهن ، تشجع البورجوازيون فجأة ، وتأهبوا بحزم وقوة للدفاع ، وبفضل اخلاصهم ، وكفاءة قادتهم ، البندقية ، واستولوا على كيوجيا Carlo Zeno جنوبى بحيرات شاطئية محملا بغنائم استولى عليها من سفن جنوية ، لم تلبث الحرب أن اتخذت

(٣٩٥) Stella, p. 1106; Romanin, III, 258.

(٣٩٦) Sanuto, p. 680; Vita di C. Zeno, p. 217.

(٣٩٧) Lettre du doge Andrea Contarini à la commune de Pérouse (4 janv. 1380), dans l'Archiv. stor., ital., XVI, 2 part, p. 554 et s.

وجهة أخرى : فقد أصبح الجنويون الذين كانوا يحاصرون كيوجيـا ، أصبحوا بدورهم محاصرين ، وحلت بهم المجاعة ، ومن ثم قر عزمهم على الاستسلام ، واضطر الأسطول الجنوى أن يتقهقر ، ووجد البنادقة أنفسهم وهم ينتقلون من نصر الى نصر ، قادرين على تهديد جنوا (١٣٨٠) • ومع ذلك لم تقع موقعة كبيرة (٣٩٨) •

وتكلفت الحرب ضياع الكثير من الأرواح والأموال ، ونجم عنها الكثير من التخريب والتدمير عند كل الأمم التى تهتم بتجارة الشرق الأدنى • ومن ثم عرض البابا أوربان السادس ، واميديه السادس كونت سافوى (وهو الذى التقينا به بلقب الكونت الأخضر) وساطتهما (٣٩٩) • وكانت اللحظة ملائمة ،اذ كان المتحاربون وقد أصبحوا منهوكى القوى ، لا يطلبون الا وقت الصراع • ومع ذلك فان المفاوضـــات الأولى التى بدأت فى تشيتاديللا Cittadella فى صيف عام ١٣٨٠ ، واستؤنفت فى فبراير وأبريل ١٣٨١ لم تنتة الى شيء (٤٠٠) • ولكن الكونت أميديه لم ييأس بهذا الفشل (٤٠١) ، بل استدعى من جديد مندوبى الدول المعنية لاجتماع فى قصره بتورينـو Turin ، وانعقـد المؤتمـر الأول فى ١٩ من مايو ١٣٨١ (٤٠٢) • وبعـد أن تـرك الأمير للطرفين الوقت الـلازم لعرض مقترحاتهم ، واعتراضاتهم عليها (٤٠٣) ، أصدر حكمه (٤٠٤) : ودون

---

(٣٩٨) Les chroniques des Trévise et de Padoue ; Stella. p. 1106 et ss.; Daniele da Chinazzo. dans sa Cronaca della guerra di Chioza (Murati ,SS. XV 699-804) ; el comte L.A. Casati; La guerra di Chioggia e la pace di Torino. Fir. 1866.

(٣٩٩) Casati. l.c. p. 134 et ss.; Cibrario, Storia della monarchia di Savoja, III, 255 et ss., 350 et ss.

(٤٠٠) Casati, l.c. p. 134-166; Dan, da Chinazzo, l.c. p. 779. la chronique de l'écrivain padouvan Galeazzo Gattaro (Murat., ss. XVII. 409) •
Monum, Hung. hist., Acta extra. 282 et s., 289, 298 et ss.

(٤٠١) الحت جمهورية فلورنسا على الكونت أميديه الا يكف عن وساطته ، واعلنت انها سوف يسعدها أن تتوقف هذه الحرب المشؤومة حتى تستطيع سفنها أن تمخر عباب البحر من جديد ، ولها فى ذلك خطاب بتاريخ ٤ يوليو ١٣٨١ :
(Giornale degli archivi toscani. VII 179 et s.)
وخطاب آخر موجه لملك هنغاريا بتاريخ ٤ ديسمبر ١٣٨٠ بهذا المعنى :
Monum, Hung.. l.c., p. 416 et ss.

(٤٠٢) Casati, p. 175 et s. ; voy aussi les lettres publ. par M. Cibrario, l.c., p. 357 et s. 359 et s.

(٤٠٣) Casati, p. 18/-228.

(٤٠٤) Ibid, p. 228 et ss.

هذا الحكم دون تغيير يذكر في البروتوكول الذى وقعه الطرفان فى ٨ من أغسطس .

والقسم الذى يهمنا الآن فى هذه الوثيقة الضخمة (٤٠٥) هو الذى يتضمن شروط الصلح بين جنوا والبندقية ، وفقط فيما يختص بالأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية . أما الشروط الخاصة بقبرص وتانا فقد خصص لها موضع فى فصل آخر . ولما كان امتلاك تنيدوس هو نقطة البداية لهذه الحرب ، فلابد أن مصير هذه الجزيرة كان من الموضوعات الأكثر أهمية التى نوقشت فى المؤتمر : فقد طالب الجنويون البندقية باعادتها الى جنوا ، وهى فى رأيهم المالكة الشرعية للجزيرة ، ورد البنادقة بأنهم لم يستخدموا العنف فى الاستيلاء عليها ، بل ان السكان أنفسهم هم الذين توسلوا اليهم أن يأخذوها . وبغير ذلك كان لابد أن تقع الجزيرة فى أيدى الأتراك ، وأنهم قرروا الا يخرجوا منها .

ووجد الكونت أميديه وسيلة للتغلب على الصعوبة ، فقرر الا ينسب موضوع النزاع لطرف أو لآخر ، وأدرج الحكم فى معاهدة الصلح بالصيغة الآتية : تسلم البندقية الجزيرة الى المندوب المفوض لهذا الغرض من قبل الكونت ، ويتم هذا التسليم فى ظرف شهرين ونصف شهر (ومدت هذه المهلة بعد ذلك خمسة عشر يوما) ، ويتولى الكونت هدم الحصون وكل المساكن فى الجزيرة بحيث تصير غير قابلة للترميم ، ويجرى هذا العمل على حساب جنوا . وعلى الجمهورية (البندقية) أن تودع ، ضمانا لحسن قيامها بتسليم الجزيرة للكونت فى المهلة المتفق عليها جواهر قيمتها ١٥٠٠٠٠ دينار ذهبى écu لدى دولة محايدة ، وعلى الدولة المودع لديها الضمان أن تعيده الى البندقية بعد اخلاء الجزيرة ، وفى حالة عدم تنفيذ الاتفاقية تسلمه لجنوا .

وعندما قدم المندوب المفوض نفسه فى جزيرة تنيدوس بمصاحبة مندوب من البندقية ، رفض البايل جيوفانى مواتزو Giovanni Muazzo بغطرسة أن يسلمه الجزيرة (٤٠٦) . وأول ما يتبادر الى الذهن فى هذا الخصوص هو أن البايل لم يتصرف على هذا النحو من تلقائه ، وأنه اتبع تعليمات سرية من قبل حكومته : ولم يفت المندوب الجنوى الذى قدم مع المندوب المفوض أن يعبر جهارا عن شكوكه فى هذا الأمر ، وقفل راجعا

---

(٤٠٥) Verci, Storia della Marca Trivigiana e Verones, XV app., p. 71-112, dans le Lbi jur, II, 859-906 et dans les Monum, spect, hist. merid., IV, 119-163.

(٤٠٦) Commem. reg., II, 155, nos 120, 121.

دون أن يفعل شيئا (مارس ١٣٨٢) • وأوفدت السلطة الفينيسية سفراء الى حكومة جنوا والى الكونت أميديو وكلفتهم ابلاغهما أنه ليس فى عزمها بالمرة أن تلعب على وجهين ، وأنها سوف تجبر الحاكم المتغطرس على الامتثال لأوامرها (٤٠٧) • وثمة خاصية غريبة فى هذه القضية كلها : ذلك أن بانتاليونى باربو Pantaleone Barbo المندوب الفينيسى الذى حمل لمواتزو الأمر بتسليم الجزيرة ، وازيكو داندولو Enrico Dandolo ربان السفينة التى سافر عليها اتهما فى البندقية بعد انقضاء بعض الوقت وأدينا اذ ثبت أنهما شجعا مواتزو سرا على المقاومة (٤٠٨) •

فهل أعطتهما السلطات الفينيسية تعليمات سرية محررة بمعنى يخالف المعنى المقصود بمهمتهما الأصلية ، ثم سلمتهما بالتالى الى يد العدالة حتى تستبعد عن نفسها الشكوك التى ذاعت جهارا ؟ أو أن التعسين ، وقد استاءا من التنازلات التى نصت عليها معاهدة تورينو ، اعتزما التصرف على نقيض ما كلفا بتنفيذه ، حتى يحافظا بقدر المستطاع على تبعية تنيدوس للجمهورية ؟ هل يمكن معرفة الحقيقة ؟

أما بخصوص مواتزو ، فاليكم المعنى الذى يتضمنه دفاعه : فهو أولا كان مستعدا للامتثال لما أمر به ، غير ان الحامية تمردت ورفضت اخلاء القلعة قبل أن يتسلم الجند مرتباتهم ، ولم يكن معه ما يكفى لدفع تلك المرتبات ، ثم ان سكان الجزيرة ، من يونانيين وبنادقة قرروا أول الأمر ، على كره منهم ، أن يهاجروا ، ولكن وصل رسول من قبل فرانشسكو جاتيلوزيو Francesco Gattilusio سيد لسبوس ، أثار مشاعر الناس بقوله ان الجزيرة سوف تصير آخر الأمر تابعة لجنوا •

ومع أن البنادقة القادمين مع المندوب المفوض من قبل كونت سافوى ومعهم مندوب السلطة الفينيسية أصروا على ضرورة تنفيذ الأوامر ، فانهم أكدوا مع ذلك تلك الاشاعة : أما هو (أى مواتزو) فانه أراد رغم ذلك أن ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، الا أن السكان والحامية وبحارة السفن ثاروا وصمموا على الاحتفاظ بتنيدوس للجمهورية مهما كلفهم ذلك ، وهم الذين اختاروه رئيسا لهم ، وهو قد قبل هذا الاختيار ، ولم يكن فى ظنه

---

(٤٠٧) Andr. Gattaro, l.c., p. 462 et s. ; Commem. reg., III, 158, nos 130, 131.

(٤٠٨) Sanudo, Vite dé Duchi, p. 768; Cicogna Inscrix, venez., VI 97 et s

— فى ١٧ من مارس ١٣٨٣ أعلن انه لا يجوز أن يشغل باربو أية وظيفة لمدة عشر سنوات ، وفى حوالى هذا التاريخ نفى داندولو من كانديا لمدة خمس سنوات ، والغيت عقوبة باربو فى عام ١٣٨٥ بالنظر الى ما أداه من خدمات •

بالمرة أن سلوكه فى هذه الظروف يمكن أن يجعله فى عداد المتمردين (٤٠٩) • ومع ذلك تصرفت السلطة البندقية معه بحزم شديد ، وأوفدت اليه كارلو تزينو ، فقام بمحاولة ثانية لحمله على الرجوع عن عناده ، والامتثال لما أمر به ، ولكنه وجده ثابتا لا يتزعزع ، ومعه انسكان الذين صمموا على الا يتركوا ديارهم • ولم يبق ما يمكن عمله سوى ضرب الحصار على الجزيرة ، والاعلان عن مكافأة ضخمة لمن يسلم الحاكم العاصى، حيا أو ميتا (٤١٠) • ولتنفيذ الحصار كان من الضرورى استخدام اسطول وانزال قوات ، واقلع الأسطول من البندقية فى ١٤ من أغسطس ١٣٨٢ تحت امرة فانتينو جورجى Fantino Giorgi • وبعد حصار طال أمده ، استسلم مواتزو فى ١٨ من ابريل ١٣٨٣ (٤١١) •

وفى انتظار هذه النتيجة ، وجد كومون فلورنسا المودع لديه المبلغ المحدد كضمان لتنفيذ المعاهدة فى موقف شديد الحرج • واذ لم يتم تسليم تنيدوس فى المهلة المنصوص عليها ، طالبت جنوا بالضمان (٤١٢) ، ولما رفض الكومون تسليمها الضمان ، وضعت تحت الحراسة كل ما وصلت اليه من أقمشة صوفية وأجواخ ، وسائر البضائع التى يملكها رعايا فلورنسيون (٤١٣) • واوفدت فلورنسا الى جنوا مندوبين ليقدموا لها تفسيرات ، فوصلوا اليها فى ١٤ من سبتمبر ١٣٨٢ (٤١٤) ، وصرحوا بأن حكومتهم لا تستطيع أن تسلم الضمان لأنها لم تستلمه بالفعل ، واكتفت بأن احتجزته لدى نواب القديس مرقس (٤١٥) S. Marc وأضافوا مع ذلك أنها توافق على أن تدفع الغرامة بشرط اعطائها مهلة قدرها ثمانية عشر شهرا • وبعد سماع هذه التفسيرات أبرمت معاهدة بين الكومونين (جنوا وفلورنسا) (٤١٦) •

---

(٤٠٩) Lettre du doge; Commem. reg., III, 156 et s., no 122, nos 121, 123, 124.

(٤١٠) Andr. Gattaro, p. 463 et s.; Lettre du doge A. Contarini à la Commune de Florence, du 1 mai 1382; Doc. sulle relaz tosc., p. 127.

(٤١١) Andr. Gattaro. l.c.; Hopf, art. Griechenland, op. cit., LXXXVI, 28.

(٤١٢) 20 mai 1382; Giorn degli archivi toscani, VII, 184; Commem. reg., III, p, 160, nos 138-140; p. 161, no. 145.

(٤١٣) 2 août 1382; Casati, p. 330 et ss.

(٤١٤) Casati, p. 335.

(٤١٥) Casati, p. 344. confirmé par le Giorn. degli archivi tosc., VII, 181 et s. (Documents du 22 et du 23 août 1381) et pas les documents des Archiv. stor. ital. XIII, (1847), p. 119 et ss.; Commen rég, III, p. 150, nos 96, 98.

(٤١٦) Du 24 nov. 1382 au 21 Janv. 1383 (ratif. 7 févr.) ; Castati, p. 334 et s., 336 et ss.

وبعد أن استسلم مواتزو ، وعدت جمهورية البندقية جمهورية جنوا بأن تتم فى غضون ستة شهور هدم كل المبانى الموجودة فى تنيدوس (١٣ من أغسطس ١٣٨٣) • ونفذت هذه العملية بالفعل تحت أنظار مندوب جنوى ، حرر بعد ذلك محضرا مؤرخا (٤١٧) « من ضفة ميناء الجزيرة حيث يوجد المخزن حتى هذا اليوم » • ووضع هذا التنفيذ نهاية لمطالبة جنوا بالضمان الذى قدمته البندقية (٤١٨) التى كان لابد لها من أن تضحى بأمنية داعبتها زمنا طويلا ، ولم تجد النفوس الوطنية عزاء كافيا فى فكرة أن موضوع أمانيهم قد أفلت أيضا وعلى الأقل من أيدى خصومهم • وكان سكان الجزيرة الذين أجبروا على الهجرة فى حالة يرثى لها ، ووجدوا ملجأ لهم فى كريت (٤١٩) ، ونجربونت ، والقسطنطينية ، وأماكن أخرى ، وعوضتهم الجمهورية طبقا للاتفاقية ، باعطائهم منازل أو عقارات أخرى أو أموالا •

وفى عام ١٣٩٧ ، وبحجة متطلبات الدفاع عن العالم المسيحى ضد الأتراك ، وضـع الدوج بييترو ايمـو Pietro Emo مشروعا لاعـادة بناء تحصينات تنيدوس ، وقام باجراءات تستهدف الحصول على موافقة حاكم جنوا (٤٢٠) على أن المشروع لم يتحقق بالمرة ، اما لأن جنوا بقيت ثابتة الارادة ، واما لظهور عقبات أخرى • وفى القرن الخامس عشر ، زار كلافيو Clavijo وبوندلمونتى Buondelmonti جزيرة تنيدوس فوجداهـا جرداء مهجورة ، وعزا الاثنان هذه الحال صراحة الى معاهدة تورينو (٤٢١) •

لم تكن الامبراطورية البيزنطية ممثلة فى المؤتمرات التى سبقت ابرام معاهدة الصلـح فى تورينو • ومع ذلك كان وضعهـا الداخلى بين موضوعات المناقشة ، وأدى الى مشارطات بين جنوا والبندقية • وأرادت البندقية أن تدرج الامبراطور يوحنا فى معاهدة الصلح ، وطالبت بأن

---

(٤١٧) Doc. sulle relaz. tosc., p. 128 et ss.

(٤١٨) Décharge donnée à Florence, ibid. p. 135 et ss.

(٤١٩) أولئك الذين لجأوا الى كريت ، ذهبوا اليها على سفينة خاصة بهم ، وسكن معظمهم فى كانديا التى أطلق عليها فى هذا الظرف اسم تنديا Tenedea
Lettre du duc. Don. Tron. du 29 mai 1384; Commem. reg., III, 170 s., no 186.

(٤٢٠) Romanin, III, 302; Hopf, art. Griechenland. dans Erch et Gruber LXXXVI 63, ; Sathas, Doc. inéd. série. I, II et s.

– فى عام ١٤٠٥ رفضت اقطاعية فينيسيا طلبا أبداه كبير فرسان القديس يوحنا ببناء قلعة فى تنيدوس لحماية المسيحية •

(٤٢١) Glavijo, p. 45-57; Boundelmonti, Lib. insul. archipel., éd. Sinner, p. 116.

يستعيد كل حقوقه التي كانت له قبل أن يغتصب أندرونيك العرش ، وأن تعترف جنوا له بهذه الحقوق • أما جنوا فانها كانت تعتبر هذا الأمير دائما صديق البنادقة وعدوها هي ، وطلبت من البنادقة أن يتركوه لموارده الخاصة ، ويمتنعوا عن توثيق أية علاقة تجارية مباشرة مع القسطنطينية • وحتى تتم تسوية مسالة توارث العرش ، دعتهم الى أن ترسو سفنهم في بيرا ، ووعدتهم بخصوص الرسوم الجمركية ، ورسوم الانتاج بأن يلقوا نفس المعاملة التي يلقاها رعاياها هي (٤٢٢) •

وبينما كان القوم يتناقشون على هذا النحو ، جرت شائعة بين أعضاء المؤتمر بأن الامبراطور يوحنا عقد صلحا مع مستعمرة غلطة (٤٢٣) بعد أن ظل زمنا طويلا في نزاع معها ، وأصابه ضرر كبير من جراء ذلك (٤٢٤) • وكان الخبر صحيحا : فقد تم أخيرا الصلح بين أندرونيك ووالده المسن ، في شهر مايو ١٣٨١ على أن يرتقي يوحنا العرش ويحتفظ بالتاج حتى وفاته ، وينتقل التاج بعـده الى أندرونيك ، لا الى مانويل الذي سـبق تعيينه خليفة لعرش الامبراطورية (٤٢٥) •

وكانت النتيجة الطبيعية للصلح بين الأب وابنه تقاربا بين الأمبراطور الشيخ وبين سكان غلطة ، حلفاء ابنه • وفي وقت التوقيع على معاهدة تورينو ، لم يكن قد تبين بعد ما اذا كانت شائعة هذا الصلح صحيحة أم غير صحيحة ، وفي هذا الشأن يمكن التكهن بأمرين : فاما أن أميديه قد رفض مطالب جنوا بأن يتعهد البنادقة بألا ترسو سفنهم عند القسطنطينية ، والباعث على ذلك أنه اذا هم أقاموا علاقات ودية مع تلك المدينة فانهم لن يساندوا أية مؤامرات تنسج ضد جنوا • واما أنه أبدى رغبته في أن تعقد جنوا في أقرب وقت مستطاع الصلح مع الامبراطور يوحنا ، بشرط أن يعفو عن ابنه أندرونيك ويعترف به خليفة له • وهـكذا ففي تورينو ، سويت على الورق مشاكل القسطنطينية بكيفية تتمشى تماما مع ما جرى بالفعل (٤٢٦) • فقط ، حينما وقعت جنوا اتفاقية الصلح مع الامبراطور يوحنا في ٢ من نوفمبر ١٣٨٢ تنفيـذا لنصـوص معاهـدة تورينو ، كانت حريصة على أن تشترط الا يفعل شيئا من شأنه أن يؤدى

---

(٤٢٢) Casati, p. 189 et s. 191, 209.

(٤٢٣) Stella, p. 1113, ad. an. 1379.

(٤٢٤) Casati, p. 191.

(٤٢٥) Les Sitzungsberichte der Wiener Akad. phil. hist. Cl., 1851, VII, p. 345 et s. (M. J. Muller) ; Ducas, p. 46 et s. ; Ducas, p. 46 et s. Voy. les commentaires de M. Muller, p. 328 et 35.

(٤٢٦) Casati, p. 232 et s., 253.

الى القطيعة مع أندرونيك ، وتعهدت بأن تسانده ضد أعدائه كلهم ، بما فيهم ابنه وحفيده عند الضرورة ، ما عدا ضد مراد الأول ، الأمير العثماني الكبير الذي حرصت الجمهورية على أن تبقى معه فى سلام (٤٢٧) ٠

وفى الامكان أن نرى قلة اهتمام الجنويين بهذه المعاهدة ، وذلك فى مذكرة صغيرة كتبها الامبراطور بيده أسفل النسخة الأصلية من المعاهدة ، بعد مضى عدة سنوات ، واعتنى بتأكيد بياناته بذكر بعض الأمثلة ٠ ولابد أن هذه المذكرة قد كتبت قبل وفاته بوقت قصير ، أى قبل عام ١٣٩١ ٠ وتسجل معاهدة صلح تورينو نهاية الحرب الكبرى التى استثارتها المنافسة بين جنوا والبندقية فى الاقليم اليونانى ، ونعتبره أيضا بمثابة ختام لعصر من العصور ٠

لا يبقى علينا بعد هذا الا أن نوجه اهتمامنا الى جزيرة لم يكن تاريخها الى الآن فى نطاق بحثنا هذا ، لأنه لم يكن مرتبطا بالروم ولا باللاتين ، ولأن موقعها منعزل بنوع ما : نقصد بها **جزيرة رودس** Rhodes كانت هذه الجزيرة ملكا لفرسان القديس يوحنا ، وهى هيأة عسكرية فى أصلها ٠ ومع ذلك لم تكن الجزيرة بعيدة عن تيار الحركة التجارية بحيث يمكن أن يتغاضى عنها تاريخ التجارة ، على الأقل خلال الفترة التى ندرسها ٠ وكان عدد كبير من السفن التجارية يرسو عندها ، ذهابا وايابا فى رحلاتها الى آسيا الصغرى ، وسورية ، ومصر ، وقبرص كما ذكرنا من قبل ٠ الا أن عددا معينا من التجار كانوا على صلة مباشرة بالجزيرة : نذكر منهم أولا وقبل كل شيء أصحاب المصارف ، اذ كانت حركة مستمرة من الأموال بين مركز الهيئة ومؤسساتها المنتشرة فى أوروبا كلها ، من جهة ، وبين بلاط روما من جهة أخرى ٠

وكثيرا ما كان يحدث أن المبالغ المرسلة من المؤسسات الى « الرئيس الأعلى » للهيأة ، بالاضافة الى ايرادات الجزيرة لا تكفى لتغطية النفقات التى تتطلبها الحملات المرسلة ضد الأتراك : عندئذ تجد الهيئة نفسها ملزمة للالتجاء الى القوى المالية ، مثال ذلك : كانت الهيئة فى عام ١٣٢٠ مدينة لشركة باردى وبيروتزى Bardi et Peruzzi بمبلغ ضخم قدره ٥٧٥٩٠٠ دينار ذهبى (٤٢٨) ، وكان هذا الأمر كافيا لأن يكون للشركة المذكورة مندوبون فى رودس ٠ وكان الأمر كذلك بالنسبة الى بيت

---

(٤٢٧) Sauli. Della colonia di Galata, II, 260 et ss., Atti della Soc. Lig., XIII, 133 et ss.

(٤٢٨) Bosio, Storia dell' ordine Gerosolimitano, II, 29 ; p. 32.

اتشيايولى التجارى Acciaiuoli ، وهى شركة فلورنسية (٤٢٩) . وفى عام ١٣٣٥ ، وبناء على رغبة « الرئيس الأعلى » أقامت هاتان الشركتان فى رودس بيتا تجاريا بنفقات مشتركــة (٤٣٠) . والى جانب هــذه البيوت التجارية الايطالية ، كان بالجزيرة صيارفة من مونبلييه وناربون يعملون أساســا كوسطــاء للهيئة فى ارســـال الأمــوال من فرنســا وقبرص (٤٣١) . وكانت التجارة نفسها تجد هناك حقلا خصيبا تستغله : ذلك أن السفن المارة كثيرا ما تترك بالجزيرة بعضا من شحنتها المستوردة من الشرق ، وكانت آسيا الصغرى (٤٣٢) ترسل اليها ، لقربها عددا من المنتجات . ومن جهة أخرى كانت فلورنسا تجد بها سوقا لتصريف أجواخها التى تصدرها عن طريق البندقيــة ، اذ لم يكن لديهــا ســفن تستخدمها لهذا الغرض (٤٣٣) . وكان حكام الجزيرة على خبرة كبيرة بمصالحهم ، فلم يسعوا الى اجتذاب التجار الأجانب وتوطينهم الجزيرة : منهم روجر دى بان Roger des Pins ، منح فى عام ١٣٥٦ امتيازا « لبورجوازى ناربون وتجارها » (٤٣٤) ، وبمقتضى هذا الامتياز كان عليهم أن يقيموا فى عاصمة الجزيرة مستودعا كبيرا به مقصورة ودار للقنصلية . وكان للقنصل الذى ينتخبونه الحق فى النظر فى كل القضايا المتعلقة بالتجارة والملاحة ، والحكم بغرامات تصل الى مبلغ خمسين دينار بيزنطى ، ويفصل فى القضايا التى يكون فيها المدعى عليه مواطنا ناربونيا . وفى هذه الحالة يكون للمدعى عليه الحق فى استئناف الحكم فى الغرفة التجارية . وكانت السلع الاستهلاكية كالنبيذ ، والقمح ، والزيت ، واللحوم المملحة يصرح بدخولها معفاة من الرسوم ، ولكن هذا الاعفاء لا يسرى على استيراد الصابون (٤٣٥) والعبيد . وكان للناربونيين الحرية فى تصدير منتجات الجزيرة (٤٣٦) ، أما المواد الغذائيــة فان كميتهــا كانت محدودة بقدر

---

(٤٢٩) Peruzzi. Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 251, 282 — 284; Buchon. Nouvelles recherches sur la principauté française de Morée, II, 1, p. 46 et s.

(٤٣٠) Peruzlz, l.c. p. 203, 337 et s.

(٤٣١) Mas-Latrie. Documents sur le commerce maritime du midi de la France. Bibl de l'cole des chartes. 2e série. III, 206 et s. (Doc. des années 1351. 1358 1365).

(٤٣٢) Altoluogo, Ania, Palatcha, Satalia. Pegol., p. 94.

(٤٣٣) Benedetto Dei, dans (Pagnini) Della decima dé Fiorentini, II, 240; Romanin. Storia di Venezia, IV, 94.

(٤٣٤) Port. Essai sur l'hist du comm. marit. de Narbonne, p. 118-121.

(٤٣٥) يصنع منه فى رودس نفسها ؛ Pegol., p. 93 et s.

(٤٣٦) يذكر بيجول من بين هذه المنتجات الأنسجة الكتانية (ص ٩٢) .

استهلاكهم الشخصى ، ولا تخضع لأية ضريبة ، الا فى حالة واحدة ، عندما يتحمل سكان الجزيرة نفقات صيانة الموانى وترميمها ، ففى هذه الحالة يتعين على الناربونيين أن يتحملوا نصيبهم فى هذه النفقات • وأخيرا كانوا ملزمين بالمساهمة فى الدفاع عن المدينة ضد أعدائها الخارجيين •

ولنا أن نتصور أن التجارة بين رودس وناربون فى مثل هذه الظروف الملائمة قد نمت نموا كبيرا : ومع ذلك فلسنا نملك كتابات تثبت ذلك ، كما لا نعرف عدد المدن التجارية الممثلة فى رودس بتجار خرجوا من قلب هذه المدن (٤٣٧) • غير أن الثابت أن الحركة التجارية كانت نشيطة بها للغاية ، فقد بحث بيجولوتى Pegolotti (٤٣٨) طويلا فى موضـوع الموازين والمكاييل والنقود المستعملة فى تلك السوق ، وقارن بينها وبين نظيراتها فى كانديا ، وفاماجوستا وبولبا ، ونابولى ، وفلورنسا •

---

(٤٣٧) لدينا ما يثبت وجود قناصل فينيسيين فى رودس فى سنتى ١٣٧٤ ، ١٤٩٩ :
— Comem. reg., III, p. 117, no 768; Sanudo, Diarii, II, 698.

(٤٣٨) Pegol., p. 92-95, 80.

ثانيا ـ بلغاريا

أقام البلغار لأنفسهم منذ عام ١١٨٦ أمبراطورية جديدة جنوبى الدانوب السفلى على حساب الامبراطوريتين الرومية واللاتينية • وطالما بقى التحالف المنعقد بين القياصرة البلغار وبين أباطرة نيقية بهدف طرد فرنجة القسطنطينية ، منذ كانت البندقية حليفة الفرنجة وسندهم بطبيعة الحال فى الحرب مع بلغاريا • ويعطينا الهجوم المفاجىء الذى قام به فى عام ١٢٥٦ على مدينة ميزمبريا Mesembria البلغارية أسطول فينيسى تحت امرة جاكوبو دورو (١) Jacopo Doro لمحة عن هذا الوضع ، ويثبت أن ذاك العصر كان على الأقل مواتيا لاقامة علاقات تجارية بين الأمتين • أما من ناحية الجنويين ، فان تفوق البنادقة فى القسطنطينية أبعدهم عن هذه

---

(١) نيقية Nicaea وتقع على مبعدة ثلاثين ميلا جنوب حصن القبراء الواقعة على خليج بسفور القسطنطينية) من أهم بلاد العثمانيين التى أخذها السلطان أورخان من الروم ، وامتدت اليها غزوات السلاجقة واتخذوها مدة قصيرة من الزمان كعاصمة لهم حتى ردوا على أعقابهم فى الحملة الصليبية الأولى ، فتراجعوا الى هضبة الأناضول الوسطى ، فاتخذوا قونية دار ملكهم سنة ١٤٧٧ هـ (المراجع) •

Dandolo, p. 366.

النواحى ، وقلما كان اسطولهم التجارى أو الحربى يظهر فى البسفور ، ونادرا ما كان يظهر فى بنطس Pont (البحر الأسود) ٠

وهكذا ففى غضون القرن الثالث عشر ، وكانت التجارة الايطالية الكبرى تهمل بلغاريا ، بقى المجال مفتوحا أمام مشروعات الراجوزيين Ragusans ، وكان لهؤلاء مزية الوطن الأصلى ، وهى مزية كفلت لهم معاملة طيبة فى هذا البلد ، وسماهم القيصر يوحنا آسن الثانى Jean Asen II (١٢١٨ ـ ١٢٤١) « هؤلاء الضيوف المحبوبون الأوفياء » منحها اياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٣) ٠ هيموس Hémus قد احتله أمراء وأهالى سلاف ٠ (صقالبة) ، كان الراجوزيون ، وقد أصبحوا نصف صقالبة يعاملون كمواطنين حتى فى داخل البلد ، وتجلى هذا التعاطف معهم فى مجموعة من الامتيازات التى منحها اياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٣) ٠

هذا الوضع الملائم بصورة غير عادية رفع عنهم العراقيل التى كانت بدون ذلك ـ تقوم على الطريق البرى بين راجوزة والبحر الأسود ، ولذلك فكثيرا ما كانوا يفضلون استخدام هذا الطريق بدلا من السفر عن طريق البسفور ، رغم أنهم كانوا يملكون فى القسطنطينية منشأة هى لهم الى حد ما بمثابة محطة ٠

وفى أواخر القرن ، سقطت الامبراطورية اللاتينية ، كما انهارت الامبراطورية البلغارية من المجد الذى بلغته فى عهد الملوك الآسينيين Asenides ٠ ومن ذلك الحين تسنى للدول التجارية الايطالية أن توثق علاقاتها مع بلغاريا ٠ ويبدو أن الجنويين هم الذين اتخذوا الخطوات الأولى فى هذا السبيل ، فهم الذين سيطروا بنفوذهم على البحر الأسود ، وكانت سفنهم الحربية والتجارية تزور سواحله كلها ٠ واقتدى بهم البنادقة ، وكانت القسطنطينية قاعدة لعملياتهم ، وكانوا يصلون الى بلغاريا أيضا بطريق البحر ٠ ويمكنا أن نذكر بعض الأمثلة لتجار بنادقة يدخلون بلغاريا عن طريق دالماشيا Dalmatie متبعين الطريق البرى عبر الأقطار السلافية حتى البحر الأسود ، غير أن هذا كان طريقا استثنائيا ٠

حقيقة أن ميلوتين اوروش الثانى Miloutine Ouroch II ملك صربيا

---

(٢) Miklosich, Monum. Serb, p. 2 et s.

ـ فى عام ١٢٥٣ جدد يوحنا ابن ميخائيل آسن هذه الامتيازات فى مناسبة عقد تحالف سياسى مع راجوزة (Ib. p. 35 et ss)

(٣) M. Miklosich, dans ses Monumenta Serbica spectantia historiam Serbioe, Bosnoe, Ragusue (Vienn. 1858).

(المتوفى عام ١٣٢١) دعا البنادقة لأن يمروا ببلده فى طريقهم الى البحر الأسود (٤) ، ولكن ربما كان فى فكره ، أو على أية حال فى فكر خلفائه ستيفن أوروش الثالث Etienne Ouroch III ، وستيفن دوشان اللذين جددا هذا العرض فى عامى ١٣٣٠ و ١٣٤٠ (٥) أن الغرض من هذه الدعوة لم يكن توثيق العلاقات بين البنادقة وبلغاريا ، ولكن توثيقها مع القسطنطينية أو الامبراطورية اليونانيـة بوجه عام · والـواقع ان أوروش الثالث رفض رفضا قاطعا أن يضمن حمايته للمسافرين الذين يقصدون بلغاريا : وينبغى القول بأنه كان وقتئذ فى حرب مع ملك هذا البلد (٦) ·

فضلا عن ذلك ــ وهذى هى النقطة الهامة فى الموضوع ــ فان الموقف الحذر ، والمراوغات ، والاجابات الغامضة من قبل البندقية (٧) ، كل ذلك يدل بوضوح على أن البنادقة كانوا يعرفون تمام المعرفة عادات شعوب هذه الأصقاع ، فلا يمكنهم من ثمة أن يطمئنوا الى الأمن فى هذا الطريق ، ولكنهم يشعرون بمنتهى الأمان وهم فى سفنهم · ثم ان مادة التصدير الكبرى فى بلغاريا ، المحصول الأكثر وفرة ، وهو القمح ، كان نقله بحرا أسهل بكثير من نقله برا ، بسبب طول الرحلات ، وسوء حالة الطرق بنوع خـاص · وكانت فارنـا ، وميزمبريا ، وانكيالـوس ، وسوزوبـوليس (Varna, Mesembria, Anchialos, Sozopolis) وموانىء أخرى هى فى الوقت نفسه أسواق هامة للقمح (٨) ، ولكنها موجودة فى اقليم قيصر بلغاريا · نعم ، لقد أعاد اليونانيون فى فترة ما غزو هذه الموانىء كلها ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها (٩) · وكانت القسطنطينية تستورد من هناك جزءا من تموينها فى الحبوب · وكان الايطاليون هم الذين نقلوا هذه الحبوب (١٠) · وبالاجمال فان أعمال التجار البنادقـة والجنويين فى هــذه الناحية كانت قاصرة على شراء القليـل من القمح وبيعه فى القسطنطينية :

(٤) 5ème livre perdu des Misti (ann. 1317-1320), dans l'Archiv. Venet, XVII, 266; XXIII, 77.

(٥) Monum. Slav. merid., I, 337; II, 75 et s.; Monum. Hung-hist., Acta extera, I, 282, 394 et s.

(٦) Jorecek, Gesch. der Bulgaren, p. 293

(٧) Monum. Slav. merid., I. 162 (bis), 167 (bis), II, 77.

(٨) Pegol., p. 25 ; Uzzano, p. 88; Taf. et Thom., III, 179, 219-246.

(٩) Jirecek, Op. Cit., 272, 286, 289, 290, 298, 299, 325.

(١٠) Taf. et Thom., IV, 165.

وبالرجوع خلفا مع التاريخ ، نجد أن أقدم دلالة نملكها لوجود هذه التجارة هي انقطاع أصابها في عهد القيصر تيودور سفيتسلاف (١٢٩٥ ـ ١٣٢٢) Théodore Svetislav • وفي حوالي عام ١٣١٤ ، سلب بعض رعايا القيصر تجارا جنويين ، وسعت جمهورية جنوا مرتين لدى القيصر للحصول على تعويض ، وأخفقت في المرتين • عندئذ قطعت الحكومة الجنوية كل علاقة معه ، وأرسلت الى رعاياها المقيمين ببلغاريا أمرا بمغادرة البلد ، وأمهلتهم لذلك أربعين يوما ، وحظرت عليهم أن يدخلوها بعد ذلك ومعهم بضائع أو بدون بضائع ، والا حكمت عليهم بغرامة كبيرة ، وضمنت لهم الاعفاء من العقوبة عن أي أذى يوقعوه بالقيصر ورعاياه (٢٢ مارس ١٣١٦) •

وفي هذه الآونة غزا سفيتسلاف ميزمبريا وانكيالوس ، وسوزوبوليس ، واستعادها من اليونانيين (١١) ، وعلى ذلك أصبحت هذه المدن بطبيعة الحال موجودة في داخل الاقليم الذي فرض عليه الحظر • ذلك فالأمر الغريب انه يوجد في المرسوم الصادر بسريان هذا الحظر فقرة خاصة بمدينة سوزوبوليس Sozopolis ؟ ولما كانت هذه المدينة سوقا مفضلة من أسواق التجارة البحرية الجنوية ، فلاشك أنه رؤى من الضروري النص عليها بنوع خاص في المرسوم (١٢) • وتوفى سفيتسلاف عام ١٣٢٢ ، ولا نعرف ما اذا كان هذا الخلاف قد تمت تسويته في أثناء حياته • ولسنين طويلة ، كانت المصادر صامتة صمتا مطلقا بشأن العلاقات بين جنوا وبلغاريا •

وعلى العكس ، ابتداء من هذه الآونة ، انتقل البنادقة الى المرتبة الأولى • ففي عام ١٣٥٢ نرى الدوج اندريا داندولو مارينو فاليرو Marino Faliero في مهمة لدى يوحنا الكسندر آسن Jean Alexandre Asen قيصر البلغار (١٣٣١ ـ ١٣٦٥) ليعقد معه معاهدة تجارية جديدة • أقول معاهدة جديدة لأنه من الواضح أن هذه البعثة لا يمكن أن تكون أول مسعى بذل لربط علاقات تجارية مع بلغاريا ، اذ كان في فارنا من قبل قنصل بندقي يدعى ماركو ليوناردو ، Marco Leonardo وهو الذي كلف بمهمة أن يحمل الى البندقية نص المعاهدة ومعها خطاب من

---

(١١) Jirecek, Op. Cit., p. 286.

(١٢) في عام ١٣١٧ حظرت السلطات الجنوية على مواطنيها أن يشتروا من فارنا وانكيالوس anchiales حبوبا لتصديرها الى القسطنطينية طالما تشبثت هاتان المدينتان بثورتهما ضد الامبراطور اليوناني : Atti della Soc. Lig. XIII, 120.

القيصر مرفق به مذكرة بشأن قيمة النقود البلغارية • ومن قبل أيضا ، في عام ١٣٤٣ ، كان هناك عدد من البنادقة يقيمون في بلغاريا ، ذكر من بينهم شخص يدعى اورساتو دى بونسنيا Orsrto di Boninsegna ونحن نعرفهم لأنهم كانوا ضحية السرقات (١٣) • ولكن معاهدة ٤ أكتوبر ١٣٥٢ تضمنت امتيازات جديدة ، أقسم القيصر اليمين على تنفيذها • واشتملت المعاهدة أولا على ضمانات عادية لأموال التجار البنادقة في حالة غرق السفن أو الوفاة ، ثم التأكيد بعدم مسئولية أى منهم عن اساءات أو ديون واحد من مواطنيه ، وعدم مصادرة ما في منزل بندقى دون أن يكون ذلك تنفيذا لحكم • وأخيرا تعطى المعاهدة للجمهورية الحق في بناء كنائس ، ومستودعات أينما تريد ، حتى في داخل البلد • وكانت الرسوم الجمركية محددة بنسبة ٣٪ ، كما حددت من جديد رسوم الوزن والحمل (١٤) •

وبقيت مسألة المدى الذى بلغه نمو هذه العلاقات مجهولة : ومعاهدة عام ١٣٥٢ هى البرهان الوحيد على وجود هذه العلاقات • وبعد وفاة الكسندر انحطت الأحوال في بلغاريا ، وسارت بخطى سريعة نحو الانهيار التام • كان هذا الأمير هو آخر من استطاع أن يحمل بفخار لقب قيصر البلغار ، ووصفته المواثيق اللاتينية (١٥) ، والكتاب الغربيون (١٦) بعبارة Imperator de Zagora (١٧) • وبعده انقسمت بلغاريا الى ثلاث امارات مستقلة ، فمنطقة السواحل (١٨) آلت الى الطاغية دوبوردتزا

(١٣) Monum. Slav. merid., II, 208; les Monum. Hung., l.c. II, 37 et s.

(١٤) Ibid., III, 246-248; Marin, IV, 174 et ss.; M. Filiasi (Mem. stor. dé-Veneti, VI, 2, p. 236).

(١٥) Off. Gaz. l.c. Mon. Slav. merid., l.c.

(١٦) Sanuto Secr. fid. cruc p. 72; id. Istoria del regno di Romania, dans Hopf, Chron. grec.-rom., p. 142; id. Epist 6, dans Kunstmann, p. 801; Laur. de Monac., p. 146 et s.

(١٧) لم يات هذا الاسم من أن القياصرة البلغار كان مقرهم المعتاد مدينة زاجورا Zagora كما يفترض السيد كنتسمان M. Kuntsmann (المرجع السابق ص ٧١٣) لأنهم كانوا يقيمون عادة في تيرنوفو Ternovo ، ولكن لأن نواة امبراطوريتهم كانت مويسى moesie القديمة التى كان يطلق عليها أيضا في ذلك العصر اسم زاجورج Zagorje (أى البلد وراء الجبل) ، انظر : Jirecek, Op. cit., p. 375.

(١٨) كانت عاصمتها كالياكرا Kalliakra (على رأس كالياكرا في شمال شرقى فارنا) •

— أرى في : les Belletins de le societe I. R de Géographie de vienne. أن السيد ماكوفيك Makovic يقر بتماثل (Harvelle-suite vol XI, p. 490) ماليا كرا ومدينة كارتال cartal الحالية •

(دوبروتتز) : Doborditza (Dobrotitz) (١٩) وكان يملك فى عهد القيصر الكسندر قصرين حصينين فى ضواحى ميزميريا ، ويتمتع بروح المغامرة ، وأدت بين ملوك البلاد المجاورة لاقليم بنطس دورا لا يخلو من الأهمية . ومن ذلك أنه تدخل فى شئون طربزون ، وشن الحرب على الجنويين فى القرم ، مرة أولى فى عام ١٣٧٥ (٢٠) ، ومرة ثانية ، وبعنف أشد فى عام ١٣٨٤ : وفى هذه الظروف تصرف بوحى من جيوفانى مواتزو ، حاكم تنيدوس المشهور ، الذى رفض أولا ، استنادا الى سلطته ، ورغم أحكام معاهدة تورينو وأوامر حكومته أن يسلم الجزيرة للجنويين ، ثم اضطر أن يرضخ للقوة ، ولجأ اليه (أى الى دوبور ديتزا) (٢١) .

واستمرت الأعمال الحربية طوال حياة دوبور ديتزا . ونذكر من بين أعماله أنه ألقى فى السجون كل الجنويين الذين استطاع أن يقبض عليهم فى اقليمه . وعند وفاته ، أورث ابنه ايفانكو Ivanko (Juanchus) (٢٢) امارته ، وما كان فى صدره من حقد . ومع ذلك تم أخيرا تسوية المشاكل فى عام ١٣٨٧ . فقد انعقد فى بيرا بقصر البودستات جيوفانى دى ليتزانو مؤتمر ضم مندوبين عن ايفانكو ، هما كوستا Costa وجولبانى Jolpani من جهة ، والبودستات ومندوبين من جنوا ، هما جنتيلى دى جريمالدى Gentile de Grimaldi ، وجيانونى ديل بوسكو Gianone del Bosco من جهة أخرى ، واستطاعوا بالاستعانة بمترجم أن يتفقوا على تحرير معاهدة ، اليكم ملخصا لها : يتعاهد الطرفان بتناسى الماضى ، ويتعهد ايفانكو بنوع خاص باطلاق سراح الجنويين الذين قبض عليهم بأمره ، ورد أموالهم اليهم . وبالنسبة الى المستقبل ، يكفل للجنويين الرعاية والمعاملة الطيبة ، وحماية أرواحهم وأموالهم . وأصبح فى وسع الجمهورية الجنوية من تلك الآونة أن تعين قناصل دون أن يعترض الأمير

---

(١٩) Laon. Chalc. p. 326; Jirecek, Op. cit., p. 12, 320.

(٢٠) نجد فى حسابات مستعمرة كافا لهذه السنة ، نفقات تسليح سفينة جهزت لمحاربته ؟.

— Canale, Della Crimea. II, 59 et ss.

(٢١) Hópf, Griechenland dans Ersch et Gruber. LXXXVI, 28.

(٢٢) هذا الأمير البلغارى غير معروف كثيرا ، اذ كان عهد حكمه قصيرا للغاية : ويبدو ان املاكه فى داخل الأراضى لم تصل الى سيلسترى Silistri ، وكان خليفته ميرزا Mirza هو الذى ضم هذه المدينة الى الامارة : (Jirecek, Op. cit., p. 324, ‘ 342 et s.) وليس هناك أى تماثل بين ايفانكو هذا والحاكم (Bon) يانكو Janko (Janoska) الذى تقول المصادر التركية أنه سلم مدينة صوفيا الى الأتراك (١٣٨٢) : وكانت هذه المدينة الواقعة بعيدا فى الداخل ، جزءا من امارة القيصر سسمان الثالث Sisman III.

على اقامتهم . وسوف يكون هؤلاء القناصل على ثقة من أن يجدوا عنده عونا فى ممارستهم وظائفهم القضائية . وعلى الأمير أن يمنح الجنويين قطعة أرض ملائمة يشيدون عليها كنيسة ومستودعا ، ويستقروا بها فى أمن وسلام ، ويرخص لهم بأن يبيعوا فى الاقليم البلغارى ويصدروا منه كل أنواع السلع ، حتى السلع الاستهلاكية (الا فى حالة المجاعة التى يمتنع فيها خروج المواد الغذائية) . وحددت رسوم الدخول والخروج بسعر منخفض قدره ١٪ من القيمة ، وصرح باعفاء السفن والمواد الذهبية والفضية ، واللآلىء ، والمجوهرات اعفاء تاما من الرسوم والضرائب (٢٣) . ولم يتمتع الجنويون طويلا بالمزايا التى كفلتها لهم المعاهدة ، فبعد انقضاء بضع سنين أتم الأتراك فتح بلغاريا (١٣٩٣ ـ ١٣٩٨) ، ولم تلبث الآثار الأخيرة للمنشئات الجنوية أن اختفت من الأقاليم الواقعة جنوبى مصاب الدانوب .

ويجب ، قبل أن نترك هذه المنطقة أن نلقى نظرة سريعة على الذراع الشمالى لمصاب نهر الدانوب ، ولو أن هذا يؤدى بنا الى ما بعد حدود الأراضى البلغارية . كان هناك ميناء يتردد عليه الجنويون والبنادقة ، وهو من المستودعات العديدة لحبوب منطقة بنطس : ذلك هو ليكوستوميوم Lycostomium الذى يسميه الايطاليون بعامة ليكوستومو Licostomo (٢٤) . وفى مجموعة من الشكاوى التى قدمتها فى عام ١٣٦٠ حكومة البندقية الى حكومة جنوا ، نرى أن الأولى تتهم تجار الحبوب الجنويين بأنهم يمنعون زملاءهم البنادقة من اجراء مشتروات فى هذه السوق الا اذا قبلوهم شركاء لهم : فاذا قبلوا ذلك ، فان الجنويين يخدعونهم بأن يجروا من جانبهم مشتروات فى السر ، بحيث لا يجد البنادقة شيئا يشترونه ، ويضطرون غالبا للعودة وسفنهم نصف فارغة (٢٥) . وكانت ليكوستومو مدينة محصنة ، ويبدو أن الجنويين استولوا عليها فى تلك الآونة : وكان قنصل منهم يتولى ثمة مهمة الحاكم فى عام ١٣٣٢ (٢٦) .

---

(٢٣) نشر Silvestre de Sacy هذه المعاهدة مع وثائق أخرى فى « وثائق جنوة » فى : (les Not. et extr., XI, I, p. 65-71). ، واعطى تفسيرات لها فى : les Mém. de l'Acad. des Inscr., VII (1824), p. 282 et ss; Voy. Atti della Soc. Lig. XIII, 145 et s., 152.

(٢٤) Lelewel, Portulan, p. 12; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 258 ; Atl. Luxoro, p. 123, 246.

(٢٥) Taf et Thom. inéd.

(٢٦) Lird du Cartolario della masseria di Caffa, dans Desimoni, Atl Lux p. 123.

وبجانب ليكوستومو يرد ذكر سوق كبيرة للحبوب ، تلك هى سوق مونكاسترو Moncastro (حاليا أكيرمان Akkerman) . ففى عام ١٤٢١ كانت هذه الناحية تتبع الفويفود voivod (موظف كبير فى بلاد البلقان وبولونيا — المترجم) الكسندر ، أمير فالاشيا الصغرى la petite Valachie ، ومولدافيا Moldavie . وفى عام ١٤٤١ وجد الرحالة البلجيكى جيبير دو لانوى Guillebert de Lannoy هناك جنويين مقيمين اقامة دائمة (٢٧) وفى عام ١٤٤٥ ، حين شن فاليران دى فافرن Valeran de Wavrin قائد أسطول صغير لدوق برجنديا حربا على الأتراك عند الدانوب السفلى ، كانت مدينة مونكاسترو وقلعتها فى أيدى الجنويين ، وكان فى الميناء سفن يملكها أهالى طربزون وأرمن (٢٨) .

---

(٢٧) Oeuvres de Lannoy ; éd. Potvin, p. 59.

(٢٨) Jehan de Wavrin, Anciennes chroniques de l'Engleterre, éd. Dufont, II, 95.

ثالثا ـ آسيا الصغرى التركية

ذكرنا قبلا ما كان عليه وضع بودستات البنادقة فى القسطنطينية فى عهد الامبراطورية اللاتينية ، ورأينا أنهم استغلوا النفوذ الذى منحتهم إياه هذه الامبراطورية فى تيسير دخول مواطنيهم فى أقصى نواحى آسيا الصغرى ، عن طريق معاهدات أبرموها مع أباطرة نيقية وسلاطين ايكونيوم (حاليا قونية) . عندئذ دخل الغربيون البلاد بطريقين فى آن واحد : فدخل الايطاليون عن طريق أرمينيا الصغرى وممرات جبال طوروس ، وغامروا لأول مرة بعبورها وتجاوزها ، فى حين نظم البروفانسيون حركة تجارية بين الساحل الجنوبى لسلطنة قونية وجزيرة قبرص وفى غضون القرن الثالث عشر ، حدث بلا انقطاع تغير مزدوج فى وضع هذا القطر . وكلفت موقعة ارزنجان Erzinghian (١٢٤٤) امبراطورية السلاجقة استقلالها ، وأصبحت مجرد تابعة لخانات المغول ، ولم يبق لها وجود خاص . وأكملت المنازعات من أجل ارتقاء العرش والانقسامات انهيارها ، وتجزأت فصارت عشر امارات يحكمها سادة من أصل تركمانى ، وكان التوسع هو الغاية التى تعمل من أجلها كل امارة ، خاصة اذا كانت صغيرة .

ولم يكن فى الشرق ما يمكن الحصول عليه ، فالامبراطورية المغولية

الكبرى كانت سدا منيعا يتصدى لكل محاولة من هذا القبيل . وكان هناك من ناحية الغرب فرص متاحة للغزو . ولم يعد لامبراطورية نيقية وجود بحكم الواقع منذ عودة ميخائيل باليولوجوس الى القسطنطينية ، المقر القديم للأباطرة . وكانت تلك فترة قاسية مرت بها الأقاليم اليونانية على الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، وناضلت بقوة فى سبيل البقاء تحت حكم أمراء ذوى بأس وعزم ، وعندما رحل هؤلاء الأمراء صارت مجرد مقاطعة . واذ حولت الشئون السياسية صوب الغرب كل اهتمام الأباطرة من أسرة باليولوجوس ، فقد أهملت كثيرا مصالح هذه المقاطعة ، لذلك لم تبد سوى مقاومة ضعيفة لغارات الأمراء التركمان . وكان مجرى نهر مندريس (مياندر Meandre) منذ عدة سنين يفصل بين اليونانيين والسلاجقة ، وجنوبى النهر كان الاقليم يتبع سلطان ايكونيوم (قونية) . وبعد انحلال هذه الامبراطورية انتقل الى سادة منتشا Mentchè الذين يبدو أن مقرهم كان فى ميلازا Mylasa (بالتركيـــة milâs ميلاس ، وباليونانية ميليسوس Melissos) وهى كارية القديمة على السواحل الايجية ـ المراجع) عاصمة كاريا Carie (١) القديمة .

وفى عهد الأباطرة من آل باليولوجوس انتهك الأمراء التركمان هذا الحد وغيره من الحدود . ولايقافهم قام الامبراطور أندرونيك الأسبق بترميم حصون « ترال » Tralles ، وكانت تلك محاولة غير مجدية (٢) ، اذ ما لبث أن استولى عليهـــا ودمرها ســالبوكيس Salpokis (٣) سيد منتشا ، وعلى انقاضها قامت مدينة آيدن Aidin (٤) التركيـة التى أصبحت مركز امارة تركمانية جديدة أعطتها اسمها : وكانت هذه الامارة منتشا تضم تقريبا اقليم ايونيا Ionie القديم . وفى القسطنطينية أشرق الأمل لحظة فى الاحتفاظ بالاقليم اليونانى فى آسيا الصغرى ، وذلك حين أوفد أندرونيك الى هناك قائد المرتزقة الشهير روجر الفلورى مع فرقته القطالونية الباسلة .

---

(١) Sanuto, Istoria della Romania, dans Hopf. Chron. gréco-rom., p. 145 s.; 167 ; Pachym., I, 472 ; Ducas, p. 13 ; Ibn Batouta, II, 278-280 ; Chehabeddin, p. 338 et s. 370; Defrémery, dans les Nouv. annal des voyages, 1851, I, 13, 14.

(٢) Pachym., I, 468-474; Nicéph. Grég., I, 142.

(٣) لم يصل الينا اسم أقدم سادة منتشية المعروفين لدى البيزنطيين الا فى هذه الصورة اليونانية .

(٤) Vivien de Saint-Martin, Asie-mineure, II, 516 Roman Muntaner, trad. Lanz, II, 119 et s. (nomme cette ville Atia).

وكادت مدينة فيلادلفيا Philadelphie الهامة تسقط أمام الهجمات المتوالية التى شنها أحد أمراء التركمان العشرة ، على شد Alicher سيد كرميان Kermian • وفك روجر الحصار عن المدينة ، وهزم أتراك آيدن (١٣٠٣) (٥) • ولسوء الحظ استدعى روجر ، وهو فى أوج انتصاراته ، وأصبح القطر الواقع شمالى نهر مياندر ، بعد أن هجره المدافعون عنه ، نهبا للأتراك (٦) • وبعد وقت قليل أعاد الأتراك غزو واحتلال الاقليم الواقع بين هذا النهر ونهر كويستروس Koystros وبعد هذا النهر أيضا بقليل •

وكان آيدن مؤسس الأسرة التى تحمل هذا الاسم (٧) قد جعل مقامه فى مدينة آيدن على مسافة قريبة من نهر مياندر • وفى عام ١٣٣٣ حين زار الرحالة ابن بطوطة (٨) آسيا الصغرى ، وجد ابنه محمد سلطانا على بيركى Berki (٩) وهى مدينة كائنة وراء نهر كايستروس ، بين ثيرا Thyra ، وساردس Sardes • وكان لمحمد هذا ثلاثة أبناء (١٠) . اقتسم معهم فى حياته قسما من امارته ، وتلقى أحدهم خضر ـ بيك Khidr-Beg مدينة افيس (افسس) Ephèse (١١) ، وآخر عمر بيك Omar-Beg تلقى سميرنا (أزمير) (١٢) : وكان هذا التقسيم قد تم قبل عام ١٣٣٣ ، وفى وقت الوصية ، أبدى محمد رغبته فى أن يسرى مفعولها بعد وفاته ، وطوال حياة ولديه •

وفى حين وسعت أسرة ديادوش Diadches سليلة آيدن أملاكها على حساب الامبراطورية اليونانية حتى خليج سميرنا ، راحت أسرة

---

(٥) Pachym II. 421 et ss. ; Nicéph. Grég., I, 221 et ss.; Muntaner, Op. cit., II, 115 et ss.

(٦) Duc p. 13; Contacuz, I, 388, 481.

(٧) M. Karabacek dans la Wiener numismatische Zeitscher, II, (1870), p. 530 et ss.; IX (1877). p. 207 et ss.

(٨) ابن بطوطة ، الجزء الثانى ، ٢٩٨ ، ويتفق معه تماما شهاب الدين (Not. et extr., XIII, 339, 369)

(٩) حاليا بيرجه Birgèh — Pachym., II, 436; Miklosich et Muller, Acta graeca, I, 228, 235, 461, 497, II, 104; voyez Hadji-Khalfa, dans vivien de Saint Martin ,Asie-mineure, II, 695.

(١٠) يتفق ابن بطوطة وكانتاكوزين فى خصوص عدد أبناء محمد هذا وأسمائهم بما لا يدع مجالا للشك فى ذلك •

(١١) ابن بطوطة : الجزء الثانى ، ٣٠٩ •

(١٢) المرجع السابق ، ٣١٠ ، Doc. p. 27.

تركمانية أخرى تتقدم صوب الشمال وتستقر بثبات على ضفاف نهر هيرموس Hermos ، واستولى صاروخان Sarou-Khan مؤسسها على مانيزيا Magnésie (١٣١٣) وجعلها مقرا له (١٣) : وانطلاقا من هناك استولى على طول السواحل ، وعلى ضفتى الهيرموس على اقليم يقابل تقريبا اقليم ليديا اليونانى ، وانتقلت أملاكه الى خلفائه ، ومن هناك حتى هلسبونتس (الدردنيل حاليا) شكل القطر امارة من الامارات العشر ، تحكمها أسرة كارازى Karasi ، وهذا هو الاسم الذى يطلق عليها عادة ، ولكن مؤسسها كان اسمه « كالام » Kalam ، وكان كارازى خليفته ، وكان وريث كارازى ابنه دمير – خان Demir-Khan (١٤) ، ومقر هذه الأسرة « بالى – كيرسى » Bali-Kersi (شرقى أدراميتى (Adramytti غير أن فرعا أصغر يتمثل فى شخص أياكشى Iakchi أخى دمير خان (فى زمن ابن بطوطة ، وشهاب الدين ، وكانتاكوزين) اتخذ مقره فى برجامه Bergamah ، أو برجام Pergame (١٥) .

وأخيرا ، واصل الأمراء العثمانيون فتوحاتهم الى شمال شرقى آسيا الصغرى ، ومن ١٣٢٦ الى ١٣٣٠ استولوا بالتوالى على مدن بروسة (بالتركية بورصة – المترجم) Brousse ، ونيكوميديا Nicomédie (حاليا ازميت – المترجم) ، ونيقية Nicée ، وعلى ما تبقى من اقليم بيثنيا Bithynie اليونانى . وبحافز من الحركة التى دفعت جيوشهم صوب أوروبا ، ضموا الى أملاكهم ممتلكات جيرانهم من أسرة كارازى .

وهكذا انتشر الاسلام فى بضع سنين من نهر مياندر الى البحر الأسود ، واستقر بها . وفى ختام « مجموعة أخبار رومانيا » يقول سانودو Sanudo (١٣٣٤) ، ان فيلادلفيا كانت فى ذلك الحين المدينة الرومية الوحيدة فى كل القسم الغربى من آسيا الصغرى (١٦) . ومع اتساع العالم الاسلامى ، لم يحدث فقط انكماش كبير فى الامبراطورية الرومية ،

---

(١٣) Nicéph .Grég., I, 214; Duc., p. 13 ; Chehabeddin, p. 339, 368; Ibn. Batouta, II, 313 et s.

كان لأخيه أيضا امارة فى نيمفيوم ، شرقى سميرن ، انظر فى ذلك :

— Chehabeddin, p. 367 et Defrémery, Nouv. annal des ; voyag., 1851, II, p. 19.

(١٤) Nicéph. Grég., I, 214; Duc. p. 14; Chehabeddin, p. 339, 365; Ibn-Batouta, II, 317.

(١٥) Ibn-Batouta, II, 316; Cantacuz., II, 70; Chehabeddin, p. 366.

(١٦) Hopf, l.c., p. 146.

— لم تفتح المدينة الا بعد زمن بعيد ، على يدى بايزيد Bajazet

وانما كان في هذا التوسع أيضا خطر شديد على الامارات الفرنجية في الأرخبيل ، وأتيكا attique ، والمورة • ولابد أن الأتراك ، وقد أصبحوا مسيطرين على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، راحوا يعملون على اخضاع الجزر المجاورة • ففي حوالي عام ١٣٠٠ انتزع سادة منتشيه من اليونانيين جزيرة رودس كلها تقريبا • وفي عام ١٣٠٩ حين أرادت هيئة فرسان القديس يوحنا التوطن بالجزيرة كان لزاما عليها غزوها وانتزاعها من من الترك واليونانيين ، وكان عملها هذا جريئا ، ودليلا على المبادرة التركية (١٧) •

وفي رودس كانت هيئة فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) بمثابة معقل للمسيحية (١٨) : فقد شملت الهيئة بحمايتها جزر الأرخبيل الجنوبية ، وجعلتها في مأمن من مشروعات الأتراك ، وكفلت بما لديها من قوات سلامة الملاحة ، وهيأت مأوى للسفن التي تنقل حجاج الأرض المقدسة ، وكذا السفن التجارية العديدة (١٩) التي تضطر لعبور تلك النواحي حتى تصل الى أرمينيا الصغرى ، وجزيرة قبرص ، وسوريا ، ومصر • ومع ذلك كانت السواحل التي يملكها الأتراك طويلة جدا ، في حين أن سفن الهيئة وقواتها قليلة • ولما كان أمراء آسيا الصغرى العشرة يمارسون القرصنة على نطاق واسع ، كان من المستحيل على الهيئة أن تتصدى في كل المواقع بمقاومة فعالة •

والحقيقة أن هذه المنطقة كانت دائما مأوى لعدد كبير من القراصنة . كما كان ميناء آنيا ania الواقع بجوار مدينة كوش ـ اداسي (Scala nova) Kouch-Adassi جنوبي مدينة افسس القديمة (٢٠) ، في عهد السيادة البيزنطية مأوى حقيقيا للقراصنة من الروم والفرنجة (٢١) •

---

(١٧) Hopf, art. Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 393 et s; mas-Latrie, Hist. de Chypre, III, 602 et s.; la Chron. Astense, publ. dans les Misc di storia ital.

(١٨) Bosio, Istoria della sacra religione di S. Giovanni Gieroso-limitano, 2e part. p. 18.

(١٩) Clavijo, p. 40.

(٢٠) هي مدينة انايا anaia اليونانية وقد عرفها البلدانيون العرب باسم افسوس أو ايسوس ـ المراجع •

Taf. et Thom., III, 71, 161 et s., not : Uzz., p. 232; Lelewel, Géogr. du Moyen-Age, portulan, p. 15.

(٢١) Decisiones piraticae, dans taf. et Thom., III, 179, 180, 184 et S., 194, 207, 220, 225, 248, 257, 261 et s., 264.

ومنذ الغزو التركي ، أطلق سادة البلاد الجدد أساطيل حقيقية مزودة بما يلزم من العتاد للاغارة على جزر الأرخبيل الكبيرة والصغيرة وتخريبها • ولم يكن ثمة ما يحول بين هذه الأساطيل وبين استيلائها على السفن التجارية التي يوقعها حظها السيء في طريقها : وبلغ من جراءة هذه الأساطيل أن تطوف بسواحل الامبراطورية البيزنطية ، والمورة ، وبيوتية Beatie ، وخليج كورنثوس ، واضطر بايل نجربونت أن يدفع لهم جزية (٢٢) • وكان الاخوان من آل آيدن ، خضربيك في أفسس ، وعمر بيك في سميرنا (٢٣) يقومان بتجهيز هذا النوع من الأساطيل • ولابد من القول بأن الشركة القطالونية المقيمة في اتيكا كانت — ويا للعار — أول من شجعهما في هذا السبيل ، واشتركت معهما فيه (٢٤) •

وكانت كل القوى الفرنجية التي تقاسمت أرض اليونان : جمهورية البندقية ، وأمراء جزر الأرخبيل ، وسادة شبه جزيرة المورة ، تعاني كثيرا من هذه الآفة ، حتى انها تتمنى اللحظة التي يتسنى فيها طرد الأتراك من سواحل آسيا الصغرى ، ودفعهم الى داخلها • وحين خطط ملك فرنسا فيليب السادس لمشروع حملة صليبية ، واتصل في هذا الشأن بالدوج فرنشسكو داندولو ، أوصاه هذا بالا ينسى أنه لابد ، قبل القيام بالحملة ، البدء بشن الحرب على الأتراك ، لانه سوف يحتاج من أجل تموين جيوشه ، أن يكفل حرية مواصلاته ، وصلاته بمستودعات الحبوب الكبرى على سواحل البحر الأسود ، وأن هذه المواصلات سوف تكون مهددة طالما لم يضع حدا لجراءة هذا الشعب من القراصنة ، تلك الجراءة التي تشتد يوما بعد يوم (٢٥) •

وفي هذه الآونة وضعت الأمم الأكثر اهتماما بهذا الموضوع قواعد

---

(٢٢) Giovanni Villani, III, 137 (éd. Dragomanni) et Sanudo (Epist dans Kunstmann, Studien ueber Sanudo d. Aelt, p. 778); Hopf, Giechenland, dans Ersch et Gruber. LXXXV, 376, 422, 425 et s., 449, 456, 461, 462 et s., Hopf. Gesch. V. Andros, p. 52 et s.; Commem. reg., I, 193 no 107, p. 198 no 133; Chehabeddin, p. 354, 366 et ss.

(٢٣) Ibn-Batouta, II, 311.
Commem., I, p. 191 no 100, p. 194,
No 110, p. 195 no. 116, p. 198 no 133.

(٢٤) رسالة من الملك في ١٨ نوفمبر ١٣٣١ :
(Coll. des doc. inéd., Mdlang, hist., III, p. 97.

(٢٥) رأى السفارة الفينيسية ، دون بناء على طلبه في ١١ مايو ١٣٣٢ :
(ibid, p. 98 et ss.)

توجد هاتان الوثيقتان أيضا في :
Taf et Thom., IV, 219-222

« اتحاد » (٢٦) يتولى الانفاق على أسطول يتجول فى الأرخبيل • وكان أعضاء هذا الاتحاد الأوائل هم دوج البندقية ، ملهم الحركة ، والامبراطور أندرونيك ، والرئيس الأكبر لفرسان الاسبتارية ، وانضم اليهم بعد عام ملك فرنسا (٢٧) • وأعقب هذا التشكيل الأول للاتحاد فى عام ١٣٣٤ مجموعة قائمة على المبادىء نفسها ، دخل فيها ملكا قبرص ونابولى ، وتولى البابا يوحنا الثانى والعشرون التوجيه العام (٢٨) • وفى تلك السنة لم يكن هناك مجال للتفكير فى القيـــام بهجوم فى بلاد العدو ، اذ لم يكن التسليح كافيا غير أن « الشيفالييه » يوحنا دى سيبوى Jean de Cépoy قائد أسطول صغير مشترك مكون من سفن جهزها كل من البابا وفرنسا شن حربا على الأتراك ، وأغرق لهم عددا كبيرا من السفن • ومن جهة أخرى تشيد أخبار دلفينو Delfino ببسالة قائد الأسطول البندقى بييترو تزينو لأنه كفل للعالم المسيحى فى هذه الأنحاء أمنا لم يكن معروفا منذ زمن بعيد (٢٩) •

ومن الطبيعى أن تستفيد البحرية التجارية من هذه التهدئة • ولسوء الحظ توفى البابا يوحنا الثانى عشر ، وحل خمول كبير محل النشاط الذى كان يبذله فى تنظيم النضال ضد الأتراك • وانتهز الأتراك هذه الفرصة وعادوا الى رحلاتهم وأعمالهم التخريبية على سواحل الأرخبيل ، ولم يعـد هناك من يتصدى لهم •

وأخيرا ، فى ربيع عام ١٣٤٤ وجه البابا كليمنت السادس نداء الى ملك قبرص ، والرئيس الأكبر لفرسان الاسبتارية ، ثم الى جمهـورية البندقية • وفى هذه الآونة نظم الحلفاء أسطولا من عشرين سفينة حربية لمدة ثلاث سنوات ، على أن تبقى بتشكيلها هذا حتى فى فصل الشتاء (٣٠) ، وعهد بالقيادة العامة الى مارتينو زكاريا ، قاهر الأتراك • وبعد أن طهر زكاريا البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فسادا ، اختار سميرنا

---

(٢٦) Rhodus(6 sept 1332 : Taf. et Thom., IV, 225 et ss.; v. les Rubriques des livres perdus des Misti; Archiv. Venet., XVII, 271, XVIII, 66, 333, XX 89.

(٢٧) nov. 1333, Coll. des doc. inéd., Mel. hist., III, 101 et s., Taf. et Thom, IV, 240.

(٢٨) 8 mars 1334 : Coll. des doc. inéd., l.c., p. 104 et ss.; Taf. et Thom., IV, 244 et ss.

(٢٩) Raynald, Annal eccl. ad an. 334 no 10; G. Villani, Cron., éd. Dragomanni, III, 235; Cron. Delf. cit., danc Taf. et Thom. IV, 247.

(٣٠) Commem. reg., reg., II. p. 147 no 17, p. 118 no 22 ; Paoli, Cod. dipl, dell'ord Geros., II, 86 et s., Taf et Thom., IV, 263-266, 269-273.

مقر الأمير عمر هدفا لهجومه (٣١) • وفى ٢٨ من أكتوبر ١٣٤٤ أغار على الموقع بنجاح تام (٣٢) واشتعلت النيران فى ترسانة عمر وأسطوله • وعادت سميرنا الى أملاك المسيحيين ، وبقيت معهم خمسين عاما • وفى عام ١٣٤٨ قام عمر بمحاولة لاستعادتها ، ولكنه دفع حياته ثمنا لهذه المحاولة (٣٣) •

واذا عرفنا أهمية سميرنا (أزمير) التجارية فى الوقت الحاضر ، فسوف نتساءل عما إذا لم تكن هذه الفترة الطويلة ، من عام ١٣٤٤ الى عام ١٤٠٢ قد أكسبتها ، بسبب السيادة الغربية عليها ، رخاءا كبيرا • ولكنا اذا أمعنا النظر ، نجد أن هذا لم يكن أمرا مستطاعا • ولم يطل أمد الفرحة بالنصر : ذلك أن صعوبة الاحتفاظ بالفتح الجديد ما لبثت أن أحدثت منذ السنوات الأولى فى نفوس الأمم المتحالفة ارهاقا شديدا حتى انها فكرت جديا فى هدم المدينة حتى توفر على نفسها هذا العناء(٣٤). ولم يكن ثمة من يرضى بضياع أمواله فيها • واضطر البابا مرارا أن يبذل جهودا جبارة ليحصل من الأمم المتحالفة على أموال وسفن • واذا لم يبد أدواج البندقية حماسة كافية ، واضطر البابوات مرارا وتكرارا الى تقديم الالتماسات لحملهم على الوفاء (٣٥) بالتزامات تتجدد دائما فى معاهدات الاتحاد (٣٦) ، فانما يدل ذلك على الفائدة الزهيدة التى تتوقعها التجارة من الاحتفاظ بمدينة سميرنا •

وتدلنا دراسة المصادر على أن من أسباب النفقات الهائلة التى تتكلفها صيانة هذا الموقع هو انعدام ايراداته الخاصة انعداما شبه تام (٣٧) • وثمة حجة أخرى تؤيد رأينا هذا : ذلك أن سميرنا لم يكن لها كسوق فى ذلك العصر أية أهمية (٣٨) • وحتى بالنسبة الى منتجات وسط آسيا الصغرى ، كان من المستحيل وصول هذه المنتجات الى المدينة

---

(٣١) كان يسكن فى القلعة ، انظر : ابن بطوطة ، الجزء الثانى ، ٣١٠ •

(٣٢) Villani, l.c., IV, 68-70; Taf. et Thom., IV, 286; Niceph. Grég., II, 689; Bosio, Istoria della relig. di S. Giovanni, 2e part., p. 42.

(٣٣) Nicéph. Grég., II, 834 et s.

(٣٤) Bosio, II, 50; Rayn. a.a. 1348, no. 27.

(٣٥) Commem. reg., II, p. 151. No. 182, p. 184 no 352, p. 261 no 225.

(٣٦) Taf. et Thom., IV, 350; Commem. reg., II, p. 185 no. 354, 356, p. 187 no. 366, p. 217 no 21, p. 218 no. 23, p. 246 no. 153, p. 264 no. 241.

(٣٧) Bosio, II, 57.

(٣٨) Traité de Nymphoeum 1261; Lib. jur., I, 1352.

بصورة منتظمة ، لأن الأترك لم ينقطعوا عن التجول حولها (٣٩) : والشيء العجيب ، أنه في حين أن سميرنا ، البلد المسيحي ، لم توفق في أن تشغل مكانه بين الأسواق التي تتعامل معها تجارة الشرق الأدنى ، كان هناك مدينتان تركيتان واقعتان في نفس المنطقة ، تتمتعان بهذه المزية : ميناء الطولوجو altoluogo (٤٠) ، وميناء بالاتيا Polatia • ولم تكن مدينة الطولوجو التي كانت في القرون الوسطى تابعة لايطاليا سوى مدينة افسس القديمة (٤١) •

ولكن ما أصل اسم ألطولوجو هذا ؟ كان روم بيزنطة يطلقون كثيرا على أفسس اسم أشهر شخص من سكانها تحافظ على مقبرته (٤٢) ، (٤٣)، او أيضا لأن القديس يوحنا S. Jean كان من بين الحواريين عالما لاهوتيا ممتازا (٤٤) • وتحول الاسم الاغريقي في اللغة التركية الى أيا صولوك Ayasolouk وفي الايطالية الى الطولوجو Altoluogo (٤٥) •

ونرى عند بحثنا عن أصل اسم الطولوجو أنه ينبغي الاحتراز من أن تنسب الى المقطع ألطو Alto معنى كلمة élevé (المرتفع) ، ومقطع luogo معنى **كلمة** lieu (مكان) ، ففي العصور الوسطى كان الناس يجهلون هذه المعاني ، ويستخدمون الترجمة التي تبدو طبيعية للغاية ، اى « المكان المرتفع » ، وتبدو كذلك صحيحة لأن مدينـــة افســس في العصور الوسطى لم تكن في موقعها القديم ، في ســـهل كايستروس Kaystros وانما كانت فوق جبل (٤٦) •

والواقع أن الأتراك شيدوا المدينة الجديدة على صخرة تشرف على قرية أيا صولوك الحالية ، وذلك تيسيرا للدفاع عنها ، وامتدت المدينة حتى

---

(٣٩) Bosio, II, 57, 71. 79, 80. 90, 96 et s., 101, 103 et s.

(٤٠) Ducas, p. 192, et ss.

(٤١) Ludolphi de Suchem, De itinere terroe sanctoe liber, éd. Deycks, p. 25.
L'Oreint. Relation rhénane de la fin du XIV si; cle, publiée dans Orient und Occident, de Benfey, I, 636; Ramon Muntaner, ed. Lanz, p. 37J

(٤٢) Cf. Procop., De adif., p. 310; Theophanes, Chronogr., I, 728.

(٤٣) Wibaldi Epist., éd. Jaffé, Biblioth. rer. german., I, 153; Guill. de Tyr. XVI, 23.

(٤٤) Taf. et Thom., I, 118 ; Ludolph., l.c. ; Bembo, l.c.

(٤٥) Sanuto dans Hopf, p. 145. Dans Taf. et Thom,. III, 193.

(٤٦) Ludolph., p. 25.

كنيسة القديس يوحنا القديمة . وفي موضع خورس الكنيسة كان يشار أيضا الى قبر الرسول ، ولكن باقي الكنيسة تحول الى سوق كان الأتراك يبيعون فيه القطن ، والكتان ، والقمح ، الخ (٤٧) . كانت افسس القديمة التي صارت مهجورة ، بعيدة بمسافة ما عن البحر ، وكان لابد من بناء ميناء صناعي لها ، أما المدينة الجديدة فكانت أكثر بعدا . نذكر مع ذلك أنه كان يوجد على الساحل مدينة أخرى تسمى أيضا ألطولوجو ، انشئت في مستهل القرن الرابع عشر ، ويسكنها ايطاليون (٤٨) كانوا لبواعث سياسية منفصلين عن وطنهم الأصلي . وينعى الحاج لودولف Ludolphe على هؤلاء الايطاليين أنهم شاركوا في مصالحهم الأتراك ضد المسيحيين ، وكانت القرصنة في الغالب حرفتهم الرئيسية . ولم يقل لودولف ان التجارة كانت هناك مزدهرة ، ولا يذكر بيجولوتي معاصره في مذكراته أى شيء عن مدينة الطولوجو الثانية هذه . وكانت الصفقات التجارية قبل منتصف القرن الرابع عشر تعقد في المدينة التركية القائمة على صخرة أيا صولوك .

ويقول بيجولوتي ان التجار الغربيين كانوا مضـــطرين الى نقل بضائعهم من المدينة الى الساحل ، وبالعكس . ولم تكن الطولوجو سوقا من الدرجة الأولى ، ومع ذلك كان لها بعض الأهمية بحيث يرى بيجولوتي من المفيد أن يزود التجارة الايطالية ببعض المعلومات عن الكيفية التي تتم بها الأعمال التجارية ، ويصف الموازين والمكاييل المستعملة فيها ، ويضع جدولا مقارنا لهذه الموازين والمكاييل بالنسبة لنظيراتها في جنوا ، وبيزا ، وفلورنسا ، والقسطنطينية ، وقبرص ، ورودس ، ويذكر أصل وصبغة وطول الأقمشة الصوفية التي يمكن بيعها هناك بربح كبير . والواقع أن التجار الغربيين كانوا يصلون الى هنـــاك ومعهم أقمشـة صوفية من ناربون ، وبربنيان Perpignan ، وتولوز ، وكذا أوان فضية ونبيذ ، وصابون ، ويعودون منها ومعهم شب من كوتاهية Koutaièh ، عاصمة

(٤٧) Relation rhenane, dans Benfey, op. cit., p. 637; Arundell, Discoveries in Asia minor, II, 252 et ss. ; Odo de Diogilo, dans les Monum. Germ., SS. XXVI, 71.

(٤٨) Ludolph. p. 25.

— نلاحظ أن لودولف يعتبر أن الجنويين والبيــزيين تجمعهم التســمية العامـة « اللمبارديون » (ص ٤٢) ونذكر أيضا أن الميناء المجاور لآنيا Ania كان وكرا للقرصان الجنويين والبيزيين .

امارة كرميان Kermian (٤٩) ، وقمح (٥٠) ، وشمع ، وأرز ، وقنب غير مفتول · وكان رسم الخروج بعامة ٤٪ ، وبالنسبة الى الشمع ٢٪ ، ولم يكن هناك رسم للدخول الا على الخمور والصابون (٥١) ·

والثابت أن هذه التجارة كانت تعانى من انقطاعات كثيرة بسبب غارات القرصان : وكان عاهل الطولوجو ينظم هذه الغارات ، كما ينظمها أخوه عاهل سميرنا · وغير أن الحرب التى شنها اتحاد الدول المسيحية على الأمراء التركمان ، وهى الحرب التى روينـاها قبـلا ، تسببت فى انقطاع أطول من غيره · وأخيرا ، وبعد سقوط سميرنا ، وهزائم فادحة وقعت له فى البحر ، وفقد أخيـه عمر الذى مات وسـلاحه فى يده ، وجد أمير الطولوجو نفسـه مجبرا على عقد الصلح مع سـفير البابا ، والرئيس الأكبر لهيئة الفرسان الاسبتارية : فبعث الى البـابا بصفته رئيس « الاتحاد المقدس » بوفد مهمته الالتماس منه بقبول بنود المعاهدة كما هى ، أو بعد تصحيحها ، وتعهد بسحب السفن التركية كلها ، حتى سفن أخيه ، ونزع عتادها ، بل وتدميرها اذا صمم البابا على ذلك · ولم يلتزم بعدم السماح بممارسة القرصنة وتشجيعها فحسب ، ولكنه كفل أيضـــا سـلامة أرواح التجار المسيحيين وأموالهـم على الأراضى التركية ، وكذا الأتراك الذين يسـافرون الى بلد مسيحى على سـفن مسيحية · وعليه فضلا عن ذلك أن يتنـازل للدول المتحدة عن نصف ايرادات جمرك الطولوجو وغيرها من موانىء امارته ، ويوافق على اقامة قناصل لقبرص ورودس والبندقية والسماح لهم بتولى القضـــاء بين مواطنيهم (٥٢) ·

وبعد أن تردد البابا قليلا ، صدق على المعاهدة (٥٣) ومن نتائج هذه المعاهدة اقامة قنصلية فينيسيـة فى الطولوجو ؛ ويؤيد العديد من

---

(٤٩) Pegol. p. 370.

(٥٠) فى عام ١٣٥٥ سعى تاجران من انكونا الى شراء هذه السـلع فى الطولوجو وبالاتيا ، مع ان الظرف لم يكن مناسبا ، ومن ثم عادا صفر اليدين :
Comm. reg., II, 231, no 85.

(٥١) — Pegol, p. 40-42, 79 et s. 94.

(٥٢) M. de Mas-Latrie dans al Coll. des doc. inéd. mél. hist., III, 112 et s.; Taf. et Thom IV, 313 et ss.

(٥٣) Taf et Thom., IV 345 et s., 349 et s.; Coll. des doc. inéd., l.c., p. 119 et s. Taf. et Thom., IV, 318.

المصادر هذه الوافعة (٥٤) وانتهت جنوا أيضا بالصلح مع أمير الطولوجو في عام ١٣٥١ ، وعقدت معه معاهدة(٥٥)في مناسبة الحرب التى شنتها في المياه اليونانية ضد البنادقة والقطالونيين • وكان الحفاظ على الاتفاق الودى مع الامارات التركية فى آسيا الصغرى ضروريا لجنوا والبندقية ، لصالح مستعمراتهما وامارات جزر الأرخبيل التى تلتزمان أدبيا بحمايتها ، لذلك جددت البندقية مرارا معاهداتها مع أمراء الطولوجو (٥٦) ، وابتداء من اللحظة التى تم فيها عقد الصلح ، بذلت كل عنايتها لتجنب ما من شأنه أن يؤدى الى نزاع (٥٧) • أما سادة الطولوجو فانهم لم يهتموا كثيرا بمراعاة المعاهدات ، وواصلوا بنوع من الصفاقة حرفتهم ، حرفة القرصنة (٥٨) ، بل راحوا أيضا يسكون نقودا على نمط الدوكات (نقد ذهبى قديم فى البندقية – المترجم) ، ولم يمنع هذا تجارة الغرب من أن تمارس هناك نشاطها ، بل يبدو أنها بلغت هناك درجة مامن الازدهار •

فالواقع أننا نطالع فى مؤلف سبق لنا مرارا الاشارة اليه « أخبار رينان » Relation Rhénane عن الشرق ، والذى كتب فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ؛ أنه كان فى تلك الآونة بين سكان مدينة الطولوجو الجديدة التى بنيت على الساحل عدد كبير من التجار المسيحيين الأثرياء ، وأن هذه المدينة يتردد عليها تجار من جميع البلاد ، وتصل اليها بضائع من قلب آسيا الوسطى (٥٩) وتضيف

---

(٥٤) Commem. reg., II, 231 no 85; J. Bembo, Epist. ad Andr. Anesinum, 1536, Op. cit., p. 600.

(٥٥) M. Hopf, (Griechenland dans Ersch et Gruber, LXXXV, 447).

– على الرغم من المعاهدة قضى الأسطول القطالونى البندقى الشتاء عام ١٣٥١ – ١٣٥٢ فى الطولوجو وبالاتيا :

— Matteo Villani, éd. Dragomanni, I, 158.

(٥٦) فى أول أكتوبر ١٣٧٠ أبلغ دوق كريت ومجلسها الدوج أنه فى شهر سبتمبر ، ابرم جيوفانى مورو معاهدة مع سيد الطولوجو :

— Taf et Thom., inéd.; Commem. reg., III, p. 95 no 598

(٥٧) Mas-Latrie., Hist de Chypre, III, 752 et s. ; Vita S. Petri Thomasii dans les Acta SS. Boll., 29 Janv., p. 1013; dans Sathas, Bibl. graec, med. œvi, II, 128.

– عندما طلب الملك لويس ملك هنغاريا الى البندقية أن تزوده بسفن لمحاربة الاتراك (١٣٦٦) أبلغ أن الجمهورية مرتبطة بمعاهدة مع سادة الطولوجو وبالاتيا :

— Monum. Hung. hist., Acta extera, II, no. 485.

(٥٨) Hopf, Op. cit., p. 449, 456.

(٥٩) Benfey, Orient und Occident, I, 637.

« الأخبار » أنه يوجد مجرى مائى كبير يصل عن طريقه الحرير ، والمنسوجات الحريرية ومواد أخرى • وقد يتبادر الى الذهن لأول وهلة أن هذا هو نهر كايستروس ، لأن الطولوجو كانت واقعة على مصب هذا النهر ، ولكن بامعان النظر نرى أن « الأخبار » تصف هذا المجرى المائى الكبير ، بأنه عريض كنهر الراين ، وطويل جدا (٦٠) • وعلى هذا لايمكن أن ينطبق هذا الوصف الا على نهر مياندر (حاليا مندريس) • ويؤدى بنا هذا الى نطاق آخر ، من الوجهتين الجغرافية والتجارية • فالمنتجات التى ترد عن طريق نهر مياندر (٦١) لم تكن غايتها سوق الطولوجو ، بل سوق بالاتيا Palatia

كانت مدينة بالاتيا (بالتركية بلات Balat) التى نجدها فى الكثير من خرائط العصور الوسطى (٦٢) قائمة على أطلال مدينة ميليتوس Milet القديمة ، بالقرب من مصب نهر مياندر ، على ضفته اليسرى (٦٣) • وقد وجد فى هذه السوق منتجات آسيا الصغرى الطبيعية ، مثل الزعفران ، والسمسم ، والعسل ، والشمع ، والعفص ؛ وعنب دمشق ، وشب كوتاهية ، ومواد مصنعة مثل الماروكان الأحمر ، والسجاجيد • ويباع هناك أيضا العبيد من الجنسين ، ويصدر القمح الى رودس ، وقبرص • أما السلع الأخرى فيشتريها جنويون من خيوس ويصدرونها الى مصر ، ويستوردون فى مقابلها الى بالاتيا جوخا ، وصابونا ، وقصديرا ، ورصاصا ، الخ (٦٤) •

وكانت بالاتيا تابعة لاقليم سادة « منتشيه » ، وبعد سقوط سلطنة ايكونيوم (قونية) ، استخلص هؤلاء الأمراء الصغار لأنفسهم

---

(٦٠) هنا يتابع المؤلف النص الذى كتبه لودولف فون سوزن الذى يصف القناة المنية بعبارات تكاد تكون مماثلة ، ص ٢٥ •

(٦١) يذكر شهاب الدين سفنا من كرميان تهبط مجرى نهر مياندر حاملة شحنات من البضائع (ص ٣٥٤) •

(٦٢) Atlante Luxoro, dans Atti-della Soc. Lig., V. 112; lelewel, Portulan, p. 15.

(٦٣) Vivièn de Saint-Martin, Asie-mineure, III, 519; Mas-Latrie, Commerce d'Ephèse et de Milet au Moyen-Age, dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 5e série, V. 219; Buondelmonti, Lib. insul. archipel., éd. Sinner, p. 104, 108, 204, 209.

(٦٤) Pegol, p. 80, 94, 370; Piloti, p. 371, 376; le traité de 1403, Bibl. de l'Ecole des Chartes, l.c., p. 229.

— كان تجار راجوزا يمارسون التجارة غالبا مع بالاتيا :

— Luccari Ristretto degli annali de Rausa, p. 36.

فى جنوب غربى آسيا الصغرى اقليما يقـــارب فى سعته اقليم كاريـــا القديم ، وليس هنـــا مجـــال لسرد تاريخ هـــذه الامارة قبل العصر الذى ندرسه ، وحسبنا أن نذكر أنها أسهمت بنصيب كبير فى حملات القراصنة التى كانت كارثة على الجزر اليونانية (٦٥) .

ولكى تؤمن جمهورية البندقية أملاكها من غارات هؤلاء القراصنة ، وتفتح فى الوقت نفسه لتجارتها مجالا تستطيع ولوجه فى يسر ، وتجد فيه الكثير من الربح ، لم تجد أفضل من أن توثق علاقاتها مع سـادة بالاتيا عن طريق دوقها فى كريت ، مارينو موروسينى . وانتهت هذه المساعى الى معاهدة لانعرف عنها سوى أمر واحد (٦٦) : ذلك أن البنادقة حصلوا على امتياز بكنيسة للقديس نيقولا St. Nicolas واقعـــة فى داخل بالاتيا ، أو فى خارجها . ولعله من الصواب أن نرجع الى زمن عقد هذه المعاهدة انشاء قنصلية فينيسية فى بالاتيـــا ، ثبت وجودها فى عام ١٣٥٥ (٦٧) ، ولايمكن أن يكون تاريخ عقد المعاهدة ســـابقا لهذا التاريخ .

وبتصفح قائمة الحكام البنـادقة فى كريت ، تلك التى وضعها السيد هوف M. Hopf (٦٨) ، نرى أن مارينو موروسينى قد شغل منصبه مرتين : الأولى من ١٣٢٩ الى ١٣٣١ ، والثانيـــة من ١٣٥٢ الى ١٣٥٥ . ولابد لنا أن نسلم ، تمشـيا مع ماحدث لألطولوجو ، أنه فى غضون الفترة الثانية أبرم موروسينى المعاهدة المشار اليها : ذلك لأنه فى عام ١٣٥٠ قام أمير بالاتيا بتجهيز معدات حربية ضد سميرنا مما أثار قلقا شديدا فى نفس الدوج أندريا داندولو (٦٩) .

ولم يكن للبنـادقة مطلب سـوى مراعاة هذه المعاهدة باخلاص ، وأبدوا أملهم فى أن يمتنع أصدقاؤهم وحلفاؤهم عن مهاجمة بالاتيا (٧٠) .

(٦٥) كان أمراء كرميان (وعاصمتها كوتاهية) المقيمين فى داخل آسيا الصغرى ، يرسلون مع ذلك أساطيل من القرصان عن طريق نهر مياندر، تنهب جزر الأرخبيل ، وكان أمراء منتشية يحترزون من اعتراض طريقهم . انظر : شهاب الدين ، ص ٣٥٤ .

(٦٦) Mas-Latrie, p. 229.

(٦٧) Commem. reg., II, p. 231 no 85.

(٦٨) Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXV, 459; LXXXVI, 174.

(٦٩) Lettre de Dandolo à la Commune de Pérouse : Archiv. stor. ital, XVI, 2e part., p. 536.

(٧٠) Mas-Latrie, Hist. de Chypre, III, 752 et s.; mon. Hung. hist., Axtera, extera, III, no 485.

وسوف نرى فى الفترة اللاحقـــة التطورات التى حدثت للعلاقات بين البندقية وهذا الميناء • ولكن ينبغى لنـــا ، قبل أن نبتعد عن امارات آسيا الصغرى العشر ان نقول بضـــع كلمات عن التأثير الذى مارسته التجارة على نظام النقد • لقد تكلمنا من قبل عن نقود سكت فى الطولوجو على نمط دوكات البندقية ، واحتجاج الجمهورية فى هذا الشأن ، ولكن هذا ليس كل شىء • ففى غضون القرن الرابع عشر ، خرج من مصانع ماجنسيا Magnésic على جبـــل ســـيبولوس (٧١) ، وتيولوجوس Théologos (افسيس) (٧٢) ، وبالاتيـــا (٧٣) نقود عليها كتابات لاتينية منقوشة ، تستنسخ بدقة نمط الـ Gigliati (٧٤) التى سكها فى نابولى أمراء آل أنجو ، ويستنتج من هذا أن ســـادة صـــاروخان Sarou-Khan (ليديا) ، وآيدن (ايونيا) ، ومينتش (كاريا) سكوا نقودا خاصة لتسهيل معاملات رعاياهم مع الايطاليين •

ولننتقل الآن الى الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى • وفى حوزتنا بخصوص القسم الكائن بين بربيا Prefpia (٧٥) ، وخليج الاسكندرونة دليل ممتاز : ذلك هو سانودو Sanudo السابق : فهو لايغطى فقط قائمة بمحطات الساحل ، ولكن ، رغبـــة منـــه فى خدمة ملاحى بلده ، يحدد المدة التى تستغرقها الملاحة من جهة الى أخرى ، والاتجاه المتبع ، وطبيعة أماكن الرســـو ، وصـــخور البحر ، وأغواره • ومنذ أن أمسى الأتراك سادة هذا القســـم من الســـاحل ، لم يعد الأجانب يلقون به معاملات متماثلة ، وكثيرا ما يضيف ســـانودو مذكرة ينبه فيها الى أنه يمكن فى ميناء أو آخر الاطمئنان الى الأهالى ، أو الاحتراز منهم •

وتدل كمية المعلومات التى جمعهـــا هذا الكاتب ودقتهـــا ، وهى معلومات لايمكن أن تكون قد وصلت اليه الا عن طريق ربابنة السفن ،

---

(٧١) Pinder et Friedlander ,Beitrage zur aelteren Muenzkunde, p. 52 et ss.

(٧٢) M. Karabacek, dans la Wiener numismatische Zeitschr., (2e année, 1870), p. 525 et ss.

(٧٣) Karabacek, Op. cit., 9e année (1877), p. 200 et ss.

(٧٤) M. Sschlumberger (Numism. de l'Or. lat. p. 478 et ss.

(٧٥) Sanudo, p. 90

ـ تبعا لوصف سانودو ، كان هذا الميناء الذى يشحن منه الخشب لمصر ، واقعا عند مصب نهر عميق ، وهذا وصف يمكن أن ينطبق اما على قناة تصريف بحيرة Keuidchès او على Doloman-Tchaï

تدل على أن المخاطر المحتملة لم تكن عقبة كافيـــة لابعاد الغربيين عن الســـاحل الجنوبى لآســـيا الصغرى ٠ والواضــــح أن مــن هذه المعلومات مالايمكن قبــوله الا بتحفظ شـــديد ، مثـــال ذلك أن ميـــناء prodensalium Portus (فى الجنــوب الغربى من سلفكيه Sélefkèh) كان فى عـــام ١٣٠٠ ملتقى عدد كبير مــن السفن البروفانســـية أو أن Portus janucnsis (فى القسم الغربى من خليج ساتاليا Safalia) (٧٦) كان محطة يتردد عليها الكثير من السفن الجنوية ٠ والثابت أنه فى تلك الآونة لم يكن هذان الاسمان يسترجعان سوى ذكرى ماضية ، والأمر كذلك ولاشك بالنسبة الى الموانى الأمالفية والأنكونية التى تضعها بعض خرائط العصور الوسطى المتأخرة على الساحل شـــمالى جزيرة رودس وقبالتها (٧٧) ٠

غير أن المصادر المعاصرة تزودنا مثلا بالبرهان على أن أهالى نجريونت كانوا يحضرون القمح والنبيذ وسلع اخرى من ماكرى Makri على الخليج الذى يحمل هذا الاسم (٧٨) ٠ والثابت أنه فى عام ١٢٨٩ عبرت سفينة جنوية البحر من الاسكندرية الى كانديلور Candelore وعليها شحنة من السكر ، والكتـــان ، والفلفل (٧٩) ، وأنه فى عام ١٣٣٢ حملت سفينة ابن بطوطة من لاوديكيا (بسوريا) الى آلايا Alaja (٨٠) وتتيح لنا هذه الحقائق أن نستنتج وجود حركة تجارية نشيطة يغذيها الجنويون بين مصر وسوريا من جهة ، وبين الساحل الجنوبى لآســـيا الصغرى من جهة أخرى ٠ والجدير بالذكر أيضا ، فى كل من الحالات التى ذكرناها أن ميناء الوصول هو نفسه ، ذلك لأن الميناء الذى سماه الأتراك وقتئذ « آلايا » كما يسمونه كذلك فى الوقت الحاضر ، كان

---

(٧٦) Sanut., p. 89; Uzz, p. 234; sur les cartes du Moyen-Age (atlante Luxoro, p. 113, 235; Lelewel, l.c., p. 16 ; Muenchen. Karten, ddutiées par M. Thomas dans les Abh. der Muenchen. Akad., cl. I; vol. X, sect. 1, p. 285 et s.); Ritter, Khleinsien, II, 750.

(٧٧) Lelewel, Portulan, p. 15 ; Atlante Luxoro, p. 115; Nicolo da Este, Viaggio a Gerusiemme, p. 114; Lannoy, éd. Potvin, p. 176. Uzz., p. 233., indique un Capo di Malfetam.

(٧٨) Taf. et Thom., III, 196, 208, 262.

(٧٩) Annal. Jan., p. 324.

(٨٠) Ibn-Batouta, II, 254.

الغربيون في العصور الوسطى يسمونه « كانديلور » (٨١) ، وهي مدينة تركية تجارية ، يتردد عليها تجار من القاهرة والاسكندريه وسوريا . وكان المصريون يتزودون منها بالخشب (٨٢) .

وبطبيعة الحال كان الغرب من جزيرة قبرص يتيح مجالا لعلاقات كثيرة ، لذلك لم يفت بجولوتي أن يضع ، خدمة للتجار قائمة مقارنة للنقود ، والموازين ، والمكاييل في كانديلور وفاماجوسته (٨٣) . ومع ذلك تفوقت ساتاليا على كانديلور ، اذ كانت أكثر الأسواق التركية على الساحل الجنوبي رواجا . وكانت Lajazzo الميناء المسيحي هو وحده الذي نجح في منافستها بفضل موقعه عند منطلق طرق الهند ووسط آسيا . وكانت ساتاليا مدينة متسعة ، متينة البنيان ، محاطة بحدائق زاخرة بأشجار الفاكهة ، وقائمة في مؤخرة خليج فسيح ، ويشمل أهاليها الكثيرون ثلاثة عناصر رئيسية متميزة : العرب المسلمين، والروم ، واليهود ، ويقيم كل عنصر في حي خاص تحيط به أسوار ؛ وفي ضاحية مينا Mina (٨٤) تجار مسيحيون، من أصل غربي(٨٥)، لأنهم يذكرون على حدة الى جانب اليونانيين ، ويضطرون الى غلق أبواب حيهم عندما يجن الليل ، ووقت صلاة الجمعة عند المسلمين . وكانت الأسواق والمتاجر الجميلة المنسقة قائمة في حي الأتراك (٨٦) .

وكان أنشط حركة تجارية هي تلك التي تجرى مع مصر ، وذلك لأسباب عديدة : أولهما وحدة الدين ، ثم التعاطف السياسي . واذا كان الأمراء التركمان مضطرين النضال دون هوادة ، أولا ضد

---

(٨١) Sanut. p. 89; Uzz., p. 234 ; Atl. Luxoro, p. 114; Muenchen. Karten, Op. cit.,; Lelewel, 1.c., p. 16; Laon, Chalcoc., p. 244, 377; lelehel, l.c., et Mas-Latrie dans la Biblioth de l'Ecole de schartes, 2e série 315.

(٨٢) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٥٧ ، أبو الفدا (Géogr., II, 2, p. 135) شهاب الدين ص ٣٤١ ، ٣٧٣ .

(٨٣) Pegol., p. 79 ; Assises de Jérus. II 360.

(٨٤) Edrisi, (II, 134) le nomme Minà imuta.

(٨٥) مع ذلك يذكر Ghistele ص ٣٢٩ أيضا من سكان ساتاليا مسيحيين يتبعون الكنيسة الأرمنية .

(٨٦) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ٢٥٨ – ٢٦٠ ، كذلك :

— Ludolf von Suthen, p. 35 ; Benfey, Orient und Occident, I, 636; M. Villani, éd. Dragomanni, II, 358; Aboulf. Géogr., II, 2, p. 133, 135.

المغول ، ثم ضد العثمانيين الذين واصلوا تقدمهم بجرأة ، فانهم شعروا بالحاجة الى الاستناد الى حليف قوى ، مثل مصر ، وتصدق هذه الملاحظة بنوع خاص ، كما تقول المصادر على أمراء سباتاليا والايا (٨٧) ومن جهة سلاطين مصر ، فانهم كانوا مرتاحين لتزايد نفوذهم في آسيا الصغرى ، وحصولهم فيها على كل التسهيلات لاستيراد الأشياء الضرورية لبناء قوتهم العسكرية والحفاظ عليها • والواقع أن مينائى ساتاليا وكانديلور كانا يصدران اليهم عبيدا من المسيحيين وأتراكا يجندون بهم جيوشهم ، وخشبا ، وقطرانا لبناء سفنهم •

كان سانوتو اذن على حق في رأيه حين كتب يقول انه لابد لقطع المؤن عن سلطان مصر من معاملة أتراك آسيا الصغرى على أنهم أعداء(٨٨)، ولسوء الحظ لم يكن لدى العالم المسيحى قوة يستطيع بها منع تجاره من تهريب المواد الحربية من آسيا الصغرى الى مصر ، ولم يكن فى مقدوره بالأحرى منع الأتراك من مزاولة هذه التجارة • كانت هذه التجارة تكفل لساتاليا وكانديلور رخاءا ناميا ، وكانتا ، في مقابل ما تصدرانه الى مصر من سلع ، تستوردان منها توابل ، وكتان ، وسكر ، الخ (٨٩) • وقد يؤدى هذا بنا الى خلط علينا أن نحترز منه • فعندما نجد مذكورا بين المواد المحمولة الى سوق ساتاليا الفلفل والنيلة ، فان هذا لايعنى بالمرة أنه كان يوجد بين هذا المكان وبين الهند حركة تجارية برية ، كما كان الحال بالنسبة الى لاجازو : فلم تكن ساتاليا من حيث المنتجات الداخلية تتلقى مباشرة سوى منتجات آسيا الصغرى ، كالشمع ، والعفص ، وصمغ الكثيراء ، والشب الذى يرد من كوتاهية ويستغرق خمسة عشر يوما ليصل الى غايته (٩٠) •

ومن جهة أخرى كانت أجواخ شالون Châlons ، وناربون ، وبربنيان ، ولمبارديا تباع بسهولة في هذه السوق ، فقط يتعين أن تكون ألوانها زاهية ، وتكون نصف مجزوزة ، فلم يكن في ساتاليا من يجز الصوف • نرى من ذلك أن تجارة الغرب كان لها مجال تمارس فيه • وهناك ما يدعو الى الافتراض بأن الجنويين والبنادقة كانوا بعامة يلعبون أهم دور في هذه السوق ، كما في غيرها من الأسواق • وفي عصر

---

(٨٧) شهاب الدين ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٣٣٧ ، وبصفة عامة ص ٣٧٥ وما بعدها •

(٨٨) Sanut., p. 28 et s.

(٨٩) Ibid, p. 29.

(٩٠) Pegol., p. 42, 370, 376.

بيجولوتي ، حصلت شركة باردى Bardi الفلورنسية على امتياز بالا تدفع سوى ٢٪ كرسم للدخول فى ميناء ساتاليا ، ولاتدفع شيئا عند الخروج ، فى حين أن التجار القبارصة (٩١) كانوا يدفعون لخيوطهم الذهبية ، وشملاتهم ٢٪ عند الدخول والخروج • وبخلاف الرسـوم الجمركية ، كان المعتاد أداء رسم السمسرة بنسبة ½٪ (٩٢) •

وعلى قدر علمنا لم تكن هذه الرسوم الجمركية مبالغا فيهـا ، ومع ذلك كان التجار المسيحيون يجدون أنفسهم كثيرا عرضة لمضايقات فى سوق ساتاليا هذه ، لأن حاكم البلد كان السيد تكيه Tekhe وهو أمير تركى وبدأ وضعهم فى وقت ما يبشر بالتحسن ، وذلك فى عام ١٣٦١ • وفى احدى حملات بطرس الأول ملك قبرص ضد المسلمين ، استولى على هذه المدينة • ولسوء الحظ لم يدم الاحتلال القبرصى هذا سوى اثنى عشر عاما؛ كما أن الهجمات المتواترة التى جعل يشنها العاهل القديم فى تلك الفترة لم تترك السكان المسيحيين لحظة واحدة من الهدوء والسكينة ، وأصبح من المستحيل القيام بأية رحلة لأغراض تجارية فى داخل المدينة •

وفى السنة نفسها التى تم فيها فتح ساتاليا ، حظى ملك قبرص بنصر آخر ، اذ استولى على مدينة جوريجوس (كوريكوس) Gorhigos (Corycos) فى أرمينيا : ذلك أن سكان المدينة كانوا يخشـون الهزيمة أمام هجمات أمير كرمان Caraman القوى ، ويرون ملكهم غير قادر على أن يرسـل لهم نجدات ، وأنهم أصبحوا يعتمدون على قواهم الخاصة ، ومن ثم دب فى نفوسـهم اليأس من الخلاص ، فالقوا بأنفسهم فى أيـدى بطرس الأول المقـدام • وكانت كل فتوحـات هذا الأمير فى البر تعود سريعا الى أيدى المسلمين ، وكان الاستيلاء على هـذه المدينـة استثناء من ذلك ، اذ بقيت مستعمرة قبرصـية حتى عـام ١٤٤٨ ، وازدهرت التجارة فيها سريعا ، خاصة وأن الأمم التجارية المستقرة فى قبرص لم تهمل بابا ملائما كهذا مفتوحا على آسيا الصغرى ، وأن أمراء كرمان بقوا طوال هذه المدة تقريبا على وئام مع قبرص • وفى حوالى ١٣٧٥ ، كما يقول المؤرخ سترامبالدى Strambaldi سجل جمرك

---

(٩١) كان تجار هذه الأمة يزورون بكثرة ساتاليا ، انظر فى ذلك :
Assis de Jérus., II, 360.

(٩٢) Pegol, p. 42 et s.

جوريجوس دخلا قدره ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ دوكا ، مما يدل على وجود حركة تجارية كبيرة (٩٣) ·

لقد استعرضنا سواحل آسيا الصغرى كلها ، من البسفور الى صقلية ، من وجهة علاقاتها مع تجارة الغرب ، منذ أن خضعت لسلطة الترك · وليس ثمة فائدة من أن نفعل الشيء نفسه مع وسط هذا القطر (آسيا الصغرى) ، اذ لاتوجد كلمة واحدة تحمل على الافتراض بأن التجار المسيحيين قد جالوا به ، أو أقاموا به منشئات (٩٤) · ولكن التجار المصريين والسوريين كانوا وحدهم الذين خاطروا بالتجوال فيه ، ونزلوا كثيرا في مينائي ساتاليا والاجا (٩٥) ومن هناك يصلون الى موانيء الشمال ، الى سينوب Sinope وسمسون Samsoun ومنها يبحرون الى سوداك Soudak ، وكافا ، وكيرتش ، ويزورون دولة خانات التتار (٩٦) · وعلى السواحل الشمالية بين بيبثنيا القديمة التي احتلها العثمانيون ، وامبراطورية طربزون ، كانت امارة كاستيموني Kastemouni التركمانية تشكل اقليما محصورا شاسعا ، يجدر بنا أن نتريث عنده قليلا · كانت المدن الساحلية المتراصة على طول هذا الساحل ، وبخاصة ساماسترو Samastro (اما ستريس القديمة Amastris ، والآن اما سيراه (Amasserah) ، وسينوب ، وسيميسو Simisso (اميسوس Amisus القديمة ، واليوم سامسون Samsoun) معروفة جيدا لدى ربابنة السفن التجارية الغربية على أنها مواقع للرسو على طريق طربزون ، وكافا ، وتانا ، واحداها ، سينوب كانت مشهورة بأنها وكر القراصنة ، ولنبدأ بها · ففي عهد آخر سلاطين ايكونيوم ، تلقى وزيرهم القوى النفوذ معين الدين سليمان المعروف أكثر بلقب بيرفانيه Pervanèh (توفي عام ١٢٧٨) ، تلقى مدينة سينوب بمثابة اقطاعية له

---

(٩٣) Etude de Mas-Latrie (2 et 3 articles) : Des relations politiques et commerciales de l'Asie - Mineure avec l'île de Chypre Bibl de l'école des chartes 2ᵉsérie, I et II : l'île de Chypre, Paris 1879, p. 205et s.

(٩٤) ومع ذلك فان الجنوى دومنيكو دوريا قد تجول في جميع أنحاء البلد ، لأنه زود شهاب الدين بمعلومات عن آسيا الصغرى أكثر وأدق من المعلومات التي زوده بها شيخ آخر من شيوخ آسيا الصغرى ، انظر :

Chehab., p. 347 et s., 338.

(٩٥) شهاب الدين ، ص ٣٧٢ ، ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٥٧ ·

(٩٦) شهاب الدين ، ص ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ابن بطوطة ، الجزء الثاني ٣٥٤ · ركب في سينوب سفينة يونانية انزلته في كيرتش ·

ولورثته (٩٧) . ولم تزل المدينة ملكا له ولذراريه في العصر الذى كتب فيه أبو الفدا كتابه الجغرافي ، أى فى حوالى عام ١٣٢٠ .

ووقع حفيد بيرفانيه فى نزاع مع الغربيين ، غالبا بسبب أعمال القرصنة التى يزاولها . ففى عام ١٢٩٩ فاجأه وأسره فى قصره بحارة سفينتين تجاريتين (ربما جنويتين (، ونقلوه أسيرا الى أوروبا ، ولم يسترد حريته الا فى مقابل فدية كبيرة (٩٨) . وثمة سليل آخر لبيرفانيه، معاصر لأبى الفداء ، اشتهر بانه قرصان لا يرجى صلاحه(٩٩) ، ولعله هو نفس الشخص الذى تلقاه باسم غازى شلبى Ghazi-Tchélébi وهو غواص بارع ، أغرق سفنا يونانية ، بشق فتحات فى قاعها ، تدخل منها المياه (١٠٠) ، أو باسم زلبى Zalabi ، أو شلبى (١٠١) ، هاجم مرة بعد أخرى فى عامى ١٣١٣ ، ١٣١٤ بدرجات متفاوتة من النجاح سفنا جنوية بالقرب من كافا (١٠١) .

وعندما شن أولى هذه الغارات كان حليفا لأمبراطور طربزون ، الأمر الذى لم يمنع أتراك سينوب أن يغيروا على هذه المدينة بعد بضع سنين (فى عام ١٣١٩) ويحرقوها كلها تقريبا (١٠٢) . ولاشك أن غازى شلبى هذا هو الذى استضاف فى عام ١٣٢٤ بعض الجنويين الجولفيين ، ثم نصب لهم غدرا وخيانة ذلك الكمين الذى سبق أن تكلمنا عنه فى وقته (١٠٣) . وبعد وفاة هذا الرجل الشرير ، انتقلت سينوب فى حوالى عام ١٣٣٠ الى سليمان امير كاستمونى ، وبقيت فى اسرته حتى النهاية . واستمرت القرصنة فى عهد هذه الأسرة كما كانت فى الماضى .

---

(٩٧) Defrémery, étude sur Ibn-Batouta, dans les Nouv. annal des voyage(1851, II, 57; D'Ohsson, Hist. des Mongols ,IV, 500.

(٩٨) D'Ohsson, l.c.

(٩٩) أبو الفدا Géogr II, 2, p. 146.

(١٠٠) ابن بطوطة ، الجزء الثانى ٣٥٠ . أخطا السيد هامر Hammer (Gesch. des osm Reichs, I, 37, 39) إذ يقول ان غازى شلبى هذا هو « آخر سلالة » سلاطين ايكونيوم .

(١٠١) معاهدة عام ١٣١٤ بين جنوا وطربزون : inéd. et Contin de Jacq. de Voragine (Atti X) p. 502.

Chronique de Panaretos, publ. par M. Fallmerayer, p. 15, 45.

(١٠٣) Le Contin. de Jacq de Voragine, p. 506; Stella p. 1051 et s. et Gius-tiniani, p. 122.

(١٠٤) ابن بطوطة ، الجزء الثانى ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، شهاب الدين ، ص ٣٤٠ ، ٣٦١ .

=

وفى عام ١٣٤٠ أسر أسطول يضم اثنتى عشرة سفينة حربية من سينوب (١٠٥) الكثير من السفن الجنوبية والفينيسية وغيرها ، وبقى الأسطول بالمرصاد مستعدا لمهاجمة قافلة أخرى ينتظر قدومها من تانا ، حين وصل الأميرال الجنوى سيمون دى كوارتو Simon de Guarto الى البحر الأسود ومعه سبع سفن كبيرة محملة بالبضائع .

وما أن دخل ميناء كافا حتى أنزل الى البر حمولة السفن وجهزها بمعدات حربية ، وأكمل أسطوله بضم عشرين سفينة أقل حجما ، جهزها فى كافا ، واذ تأهب على هذا النحو ، فانه مضى لملاقاة السفن التركية ، فاغرق عشر سفن منها ، واستولى على ما فيها من غنائم ، وقتل كل بحارتها . هذا المثال يثبت أن السلاجقة لم يكونوا فى البحر الأسود وفى الأرخبيل جيرانا مناسبين لتجارة الغرب . ورغم كل شىء ، كانت سينوب تتمتع بميزة أنها فى الشمال ، مثل الطولوجو فى الغرب ، سوقا لتجارة الغرب ، كما كانت وكرا للقراصنة ، ذلك لأن ميناءها كان ممتازا ، وموقعها قد أحسن اختياره ليكون مأوى للسفن التجارية المتجهة الى طربزون . ثم ان وفرة السمك على طول السواحل ، والثروات المنجمية فى الضواحى كانت تشكل شحنة متاحة لمن يطلبها . وعلى خريطة لورنتيانا Laurentiana لعام ١٣٥١ نرى فوق سينوب علما جنويا (١٠٦) ، الأمر الذى يثبت بالتأكيد أنه كان يوجد فى تلك الآونة قنصلية لتلك الأمة ، مع أن أول وثيقة تشهد بوجودها ترجع الى عام ١٤٤٩ .

وكان للبنادقة أيضا فى سينوب مستعمرة تجارية يدير شئونها قنصل ، يساعده مستشاران ، ومجلس مكون من اثنى عشر عضوا : وفى حوزتنا محضر لجلسة من جلسات هذا المجلس ، أنعقدت فى كنيسة القديسة مارى فى سينوب (١٠٧) ، وكان موضوع الجلسة يتعلق بهدية تقدم لسيد المدينة ، وكان المفروض أن يحمل الهدية شخص يدعى جوجلييلمو دى

= ويطلق شهاب الدين على الحاكم الذى أقامه على سينوب ابراهيم أمير كاستمولى . ابن سليمان اسم « الغارى شلبى » ، ولعل هذا خلط فى الاسماء . وفى هذا الخصوص نشيع تردد كبير لدى المستشرقين.

(١٠٥) Stella, dans Murat., XVII, 1076.

– تطلق المصادر الغربية كثيرا على السادة (الحكام) لسينوب لقب « شلبى » Tchélébi (سيد) ، وهذا ما سبق إن رأيناه فى خصوص أمراء الطولوجو .

(١٠٦) Atti della Soc. Lig., V, 133.

Filiasi, Memorie storiche dé Veneti primi e secondi, VI, 2, et Marin, IV, 90 et s.

سكاربانتو Guglielmo de Scarpanto في مهمة لدى الأمير • ولما لم يكن لسينوب أمير الا في العصر التركي ، وكانت قيمة الهدية مقدرة بالدوكات التركية ، فان هذه الوثيقة التي لا تحمل لسوء الحظ تاريخا لا يمكن أن تنتمي الى عصر السيادة اليونانية التي تخلصت منها سينوب منـــذ عام ١٢١٤ (١٠٨) ، ولابد أنها كانت في عصر السيادة التركمانية • ولابد أن المستعمرة الفينيسية في سينوب عاشت فيها زمنا طويلا ، وهذا على الأقل ما قد يستخلص من قراءة الوثيقة المشار اليها : فكلمة consol يسبقها رقم ٩٩ (١٠٩) ، وفي ذلك يقول ماران Marin ان هذا الرقم الذي دونه القنصل جريجنولو Greignuolo الذي كان يشغل منصبه وقتها رقم يدل على الترتيب في سلسلة رؤساء المستعمرة في سينوب • غير أننا لا نجد هذا النظام الرقمي في أية وثيقة حررها القناصل • ونفترض أن هذه العلامة ليست الا ايجازا اصطلاحيا اعتبرها السيد فيليـــــاس رقم ٩٩ ، وليس الغرض من هذه الملاحظة التشكيك في طول حياة هذه المستعمرة •

والى الشرق من سينوب ، يصادف الملاح مناءا آخر له علاقات نشيطة للغاية مع القرم ، ولا شك أيضا مع طربزون وأميسوس القديمة (١١٠) التي سماها الغربيون في ذات العصر سيميسو Simisdo وبامعان النظر في هذا الاسم نجد أنه بالاجمال ينطبق على مدينتين متجاورتين ، مدينة سمسون التركية Samsoun التي كانت فيما مضى تابعة لأمير كاستيموني التركماني ، ثم أصبحت تابعة لسلاطين آل عثمـــــان (١١١) ، ومدينة سيميسو المسيحية •

وفي العصر الذي قام فيه أمراء يونانيون طردهم اللاتينيـــــون من القسطنطينية بتأسيس امبراطوريتي طربزون ونيقية الجديدتين ، كان في مدينة أميسوس المسيحية حاكم يتمتع ازاء الامبراطوريتين باستقلال شبه تام (١١٢) • ترى في أي عصر وبأية وسيلة استطاع الجنويون أن يصيروا

---

(١٠٨) Fallmerayer, Geschichte von Trapezunt, p. 94 et s.

(١٠٩) M. Filiasi.

(١١٠) كانت السفن الحربية الفينيسية المتجهة الى طربزون ترسو أيضا عند سيميسو ، كثيرا ، أو بانتظام : Misti, lib. 7 (1322-1324), dans l'Archiv. Venet., XVIII, 329.

(١١١) Hammer, Gesch dans des osman. Reichs, I, 227, 374.

(١١٢) Fallmerayer, Gesch von Trapezunt, p. 55-57.

سادة المدينة ؟ وهل حلوا مباشرة محل الروم أو الترك ؟ هذى نقاط يغشاها ظلام لا قدرة لنا على تبديده • على أنه فى وسعنا أن نثبت بما فى أيدينا من مستندات وجود قنصلية فى سيميسو اعتبارا من عام ١٣١٧ (١١٣) ، غير أن انشاء هذه القنصلية يرجع غالبا الى تاريخ سابق •

وعلى خريطة لورنتيانا لعام ١٣٥١ ، يعلو موقع هذه المدينة أيضا علم جنوى ، والبيان هنا له ما يبرره أكثر مما فى حالة مدينة سينوب ، فالواقع أن القنصل فى سينوب كان فى أرض أجنبية ، فى حين أن منصب القنصل فى سيميسو فى أرض جنوية •

وسوف نعود الى هذه النقطة فى الفترة التالية ، ونتكلم فيها أيضا عن مستعمرة جنوية أخرى ، هى مستعمرة سامسترو Samastro

ونحن اذا تتبعنا الساحل الشمالى لآسيا الصغرى متجهين ناحية الشرق ، نصل الى امبراطورية طربزون المسيحية • الا أن تاريخ هذا البلد يستحق أن نفرد له فصلا خاصا ، مثله مثل تاريخ مملكة أرمينيا المسيحية • وكان فى وسط آسيا الصغرى أيضا ، بين امبراطورية طربزون وأرمينيا منطقة تركية ، ولكنها ليست ذات أهمية فى دراسة الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اللهم الا لأن الطريق التجارى الكبير الممتد من آسيا الصغرى الى فارس يجتازها ، وهناك على مشارف آسيا الصغرى توجد سيفاس Sivas التجارية ، وسوف نتكلم عنها فى فصل آخر •

---

(١١٣) Off. Gaz., p. 366.

الجزء الثانى الفترة الثانية

٢ ــ نمو تجارة الشرق الأدنى على أثر انفتاح القارة الآسيوية

(من أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الرابع عشر) ٠

(ب) تيار التجارة القديم من الشرق الى البحر المتوسط عن طريق الجنوب٠

أولا ـ قبرص

فى الفترة السابقة ، كانت سورية ، وهى تحت سيطرة الفرنجة ، مركزا من أهم المراكز التجارية • وفى غضون الفترة التى ندرسها الآن ، بدأت جزيرة قبرص ، وأرمينيا الصغرى وهما بمثابة حارستين لمراكز العالم المسيحى الأمامية (١) ترثان معا الرخاء التجـــارى الذى كانت تتمتع به الدول التى أسسها الصليبيون • كانت أرمينيا الصغرى تتمتع ـ تبعـا لموقعها فى القارة بمزية كبيرة تتمثل فى تلقى البضائع الواردة من داخل آسيا عند ملتقى طرق القوافل ، فى حين كان من الضرورى عبور البحر ، ولو أنه لمسافة قصيرة للوصول الى قبرص ، وتحمل كل المتاعب الناجمة عن نقل البضائع على متن السفن وارتفاع نفقات النقل • غير أن وضـع أرمينيا الصغرى كان من ناحية أخرى وضعا شاذا وكانت الطرق الواقعة فى أقصى الشمال ، بين كل الطرق التجارية المتجهة صوب البحر المتوسط. هى وحدها التى تنتهى عندها •

---

(١) يصف فيليب دوميزيير (Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 387) Philippe de Maizières. قبرص بأنها « الحد القوى الضرورى للعالم المسيحى الكاثوليكى » •

أما قبرص ، فعلى العكس من ذلك كانت بمثابة مركز تدور حوله كل هذه الطرق ، وحسبنا اثباتا لذلك أن نرسم على الخريطة اتجاهات الرحلات بخطوط تمتد من الجزيرة الى موانيء الجوزات Lajazzo واللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، والاسكندرية • وثمة عيب آخر فى موقع أرمينيا الصغرى ، ذلك أنها كانت شديدة التعرض لغارات جيوش سلطان مصر ، والدمار الذى تسببه ، فى حين كانت قبرص ، لاحاطتها بالبحر من كل الجهات فى حمى من هجماتها ، لأن قوة مصر كانت غالبا فى جيوشها البرية أكثر منها فى جيوشها البحرية • وأخيرا كانت قليقيه Cilicie معروفة بمناخها الضار بالصحة ، فى حين كان مناخ صقلية أكثر ملاءمة لها.

وسوف نتحدث طويلا فى الفصل التالى عن القرارات (البراءات) البابوية التى صدرت بعد سقوط عكا مباشرة ، تحظر كل تعامل تجارى مع المسلمين • وكان لهذه الأنواع من التحريم بالضرورة أثرها فى عالم التجارة : فاعتقد بعضهم أنهم ملزمون بايمانهم أن يبتعدوا عن السواحل التى شملها التحريم ، وخشى البعض الآخر العقوبات الصارمة التى تتهددهم ، وحرص آخرون على تجنب الوقوع فى أسر السفن الحربية المكلفة بمطاردة « المسيحيين الفجار » • أما ملوك قبرص فانهم تحمسوا لتنفيذ الحظر ، حماسة لا تخفى ما تتضمنه من أغراض نفعية • فالواقع أنه اذا كانت التجارة مع مصر وسورية قد أصبحت عرضة للتوقف أو محفوفة بالصعاب ، فقد اضطر التجار المسيحيون للبحث عن سوق أخرى ، ومن ثم كانت قبرص « آخر بلد مسيحى » متاح لهم بطبيعة الحال ، حسب تعبير لودولف دو سوذيم Ludolphe de Sutheim

وتبين للكثير من البيوت التجارية التى كانت فيما مضى تملك فروعا ناجحة فى عكا ، وبيروت ، وطرابلس أن قبرص سوف ترث القسم الأكبر من التجارة بين الشرق والغرب ، ومن ثم اتخذوها مقرا لهم (٢) • وحين اضطر سكان مدن سورية الساحلية الى الفرار ، لجأوا الى قبرص مؤقتا ، وارتاح بها معظمهم فعدلوا عن العودة الى أوطانهم ، ورأينا أكثر من بارون افرنجى يتعزى عن ضياع قصر له فى سورية ، ويطلب من الحكام من أسرة لوزينيان Lusignans اقطاعية جديدة ، أو وظيفة فى البلاط •

وسرعان ما أدركت حكومات الأمم التجارية الغربية ازدياد أهمية جزيرة قبرص ، فبادرت اما بانشاء مستعمرات بها ، والمطالبة بمزايا لمواطنيها ، واما بزيادة الامتيازات التى حصلت عليها فيما مضى من ملوك

---

(٢) Doc. sulle relaz tosc., p. 110 et s (no D et G).

الجزيرة . أما عكا فانها سقطت فى ١٨ من مايو عام ١٢٩١ : وفى شهر أكتوبر من السنة نفسها حصل التجار القطالونيون من الملك هنرى الثانى من أسرة لوزينيان على امتياز يكفل لهم رســـما منخفضا قدره ٢٪ على الاستيراد والتصدير ، يخفض بمقدار النصف للتجار المارين بالجزيرة (٣) . وفى الشهر نفسه حصل البيزيون على الامتياز نفسه ، بالاضافة الى الحق فى انشاء قنصليات ، وغير ذلك فى كل ما يطيب لهم من أنحاء الجزيرة (٤) ، ولعل هذا تعزيز للامتيازات القديمة التى منحها اياهم جى دولوزينيان ، وعلى أية حال فثمة مجموعة من المواثيق الخاصة لسنوات ١٢٩٣ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣١٠ ، ١٣٢٠ تكشف لنا البيزيين المقيمين بجهات مختلفة من الجزيرة وهم يزاولون بهمة أعمالا تجارية . ويبدو أن ليماســـول Limisso كانت فى العهود الأولى مقرهم المفضل ، يمتلكون بهـــا دارا عامة domus, logia Pisani comunis يمكن القول عنها ، دون خوف من الخطأ أنها كانت قنصلية (٥) ، بينما لا نجـد فى حوالى عام ١٣٠٠ فى فاماجوستا الا القليـــل من البيزيين المنعزلين ، وليس بها أى موظف استعمارى (٦) .

وبخصوص جمهورية جنوا ، فان سقوط الدول الصليبية فى سورية كان متزامنا مع أحداث ضارة ، فقامت مصاعب خطيرة بينها وبين الملك هنرى الثانى ، وشيئا فشيئا ، فى عهد (الثنائى) ايبـــلان Ibelin ازداد تراخى الحلف المنعقد المعزز خلال الفترة السابقة . فهل نحتاج الى دليل يثبت ذلك ؟ كان بنديتو زكاريا Benedetto Zaccaria مزودا من قبل الجمهورية بأوسع السلطات التى تخوله الدفاع عن مصـــالحها فى الشرق الأدنى حيث كان يقيم بصفة دائمة ، ومن ثم عقد فى ٢١ من سبتمبر ١٢٨٨ معاهدة مع الملك ، ولكن حكومته تنصلت من تصرفه هذا اذ بدا لها أن المعاهدة تفرض على الجمهورية التزامات ثقيلة . وبذل الملك جهودا غير مجدية لحمل الجمهورية عـلى التصـديق عـلى المعاهـدة ، ولكنه ادرك أنه سيصطدم برفض تام ، ومن ثم قرر الغاء المعاهدة من ناحيته (١٧ من مايو ١٢٩٢) (٧) ، وهذا هو ما كان فى وسعه أن يفعله .

(٣) Capmanyy, Memor., II, 56 et s.

(٤) Doc. sulle relaz. tosc., p. 109 et s.

(٥) Ibid. p. 109-111.

(٦) Archiv de l'Or. lat. II, 2, p. 10, 30, 38 et s., 52 74, 8. 6, 103.

(٧) Anna.l Jan., p. 322; Lib. jur., II, 275 et s.

واستمر النزاع حتى عام ١٢٩٨ ، وأخيرا نجح سفيران جنويان ، لانفرانكو سبينولا Lanfranco Spinola وايجيديو دى كوارتو Egidio di Quarto فى حمل الطرفين على الموافقة على تسوية تحدد بنودها بدقة المزايا القنصلية للجمهورية ، بحيث تزيل أسباب الخلاف (٨) .

وبعد سقوط عكا ، اهتم البنادقة اهتماما شديدا بالتجارة مع قبرص . وفى عام ١٢٩٢ ، استشعروا قرب اندلاع حرب مع جنوا ، فبادروا بارسال قافلة من خمس عشرة سفينة كبيرة مسلحة الى قبرص وأرمينيا الصغرى تحمل تجارا وبضائع (٩) . ونشبت المعارك فعلا بعد قليل ، وتركزت بنوع رئيسى فى هذه البقاع (معركة « الجوزات » البحرية عام ١٢٩٤) .

وزاد الطين بلة ظهور القراصنة الجنويين فى مياه قبرص (١٠) ، وكانوا يفضلون مهاجمة السفن الفينيسية (١١) ، فان تجارة البندقية مع قبرص عانت كثيرا من الأزمات خلال السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر . وفى الجزيرة نفسها ، حاق بالبنادقة فى عام ١٣٠١ ضرر كبير ، على أثر رفع ثمن الملح الى ضعف ما كان عليه فى السنة السابقة (١٢) . ومع ذلك اهتمت الجمهورية اهتماما كبيرا بالمحافظة على علاقاتها القديمة بهذه المملكة . وفى عام ١٣٠٢ قرر مجلس الشيوخ ايفاد سفير الى الملك هنرى الثانى . وفى حوزتنا نص التعليمات التى دونت له (١٣) .

نجد فى هذه التعليمات المطالب الآتية : أولا ، أن يعفى البنادقة من ذلك الحين من الضريبة المقررة عند وصولهم ، وعند رحيلهم ، وعند اقامتهم بالبلد . ثانيا ، يمكنهم أن يحصلوا بالمجان ، أو بمقابل عند اللزوم على كنائس ، وأحياء ، ومستودع lobia وسوق Platea فى مدن نيقوسيا ، وليماسول ، وفاماجوستا ، واذا استدعاهم للمثول أمام القضاء بعض مواطنيهم ، أو بعض الأجانب ، فلا يجوز احالتهم الى محاكم خلاف محاكمهم الخاصة . وأخيرا ، فان أموال البنادقة الذين يتوفون أو يغرقون

---

(٨) Pagano, Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 24 ; Canale, Nuova istoria di Genova, III, 230.

(٩) Annal. Jan., p. 353.

(١٠) Assis. de Jérus; 11, 363, 368.

(١١) M. de Mas Latrie, dans les Nouvelles preuves de l'hist. de chypre, Biblioth de l'Ecole des chartes XXXIV, 1873, p. 50 e tss.; Romanin, 400 et s.

(١٢) Mas Latrie, Hist de Chypre, II, 99 et s.

(١٣) Ibid, Nouvelles preuves, l.c., p. 54 et ss.

تبقى فى حوزة ملاكها الشرعيين . وفى مقابل ذلك تأذن حكومة البندقية لسفيرها أن يعقد صلات صداقة قوية مع الملك ، وعليه فضلا عن ذلك أن يصرح بأن البنادقة المقيمين بالمملكة على استعداد لأن يسهموا بأشخاصهم فى الدفاع عن أماكن اقامتهم ضد أى عدو يغير عليها ، بشرط ألا تمنعهم هذه الخدمة من السفر .

ولم تتم الموافقة على هذه الاقتراحات دون مشقة لأنه كان لا مناص من ايفاد بعثات متعددة من أحد الطرفين الى الطرف الآخر (١٤) . ولم يتم النص على بنود المعاهدة الا فى عام ١٣٠٦ ، وكان هنرى الثانى وقتئذ ضحية دسائس أخيه أمورى Amaury الذى استقبل السفير البندقى فيتالى ميشيل Vitali Michiel ، بصفته وصيا على العرش ، ووافق على الغاء الضرائب على التجارة الغاء تاما . وبخصوص الكنائس ، والمستودعات ، ودور الادارة (١٥) ، والأراضى الفضاء التى طلبتها الجمهورية فى المدن الثلاث المذكورة بعاليه ، فانه اشترط أن تشتريها الجمهورية ، وأذن للبنادقة الذين يريدون الاقامة بها أن يشيدوا منازل فقط ، لا قصورا حصينة ووافق الوصى على الفقرات الخاصة بالقضاء ، وبأموال البنادقة المتوفين والغرقى ، ولكنه احتفظ لمحاكمه بالاختصاص فى الدعاوى الجنائية ، ووافق على بعض مطالب الادارة المالية لميراث المتوفين ، وقبل عروض الخدمات المقدمة باسم الجمهورية بكل حذافيرها طبقا لتعليمات عام ١٣٠٢ ، ووضع فوق ذلك شرطا اضافيا يقضى بأن يقسم كل بايل اليمين عند استلامه الوظيفة ألا يعطى أجنبيا شهادة الجنسية الفينيسية ليستمتع بالمزايا المخصصة لمواطنيه (أى البنادقة) ، وأن يقسم المستوردون البنادقة اليمين وهم يقدمون للجمرك اقرارا ببضائعهم أمام موظفى الملك بأنه ليس فيها شىء يخص رعايا غير بنادقة (١٦) . وعندما استعاد الملك هنرى الثانى سلطته ، قدمت البندقية اليه هذه المعاهدة ليصدق عليها ، وليس ثمة ما يدعو للشك فى أنه لم يصدق عليها . وكان على المندوب الموفد بمهمة تقديم المعاهدة ليصدق عليها الملك أن يبقى فى قبرص بصفة بايل (١٧) اذا نجحت مهمته . ثم ان هذا المنصب كان موجودا من قبل .

---

(١٤) Publiques des Misti, dans l'Archiv. Venet., XVII, 134; XVIII, 315.

(١٥) Voyez le decret du sénat de 1333 : Bibl de l'Ecole des chartes, 1874, p. 99.

(١٦) Mas Latrie, Hist de Chypre, II, 102-108.

(١٧) Arch. Venet., XVIII, 317.

وهكذا فالثابت أنه قبل انقضاء عشر سنوات على سقوط عكا ، كانت المراكز التجارية الأربعة الكبرى فى ذاك العصر ، البندقية ، وجنوا ، وبيزا ، وبرشلونة قد نجحت فى نقل مستعمراتها السورية الى جزيرة قبرص ، كما أن جالياتها التى كانت تملك من قبل بالجزيرة متاجر ، وسعت هذه المتاجر وضاعفت أعدادها (١٨) ، غير أن هذا البيان لا يكفى ، ولابد من بذل جهد كبير لرسم صورة وافية للحياة التجارية فى قبرص فى بضع السنين هذه ، ولا يتيسر ذلك الا بعد نشر العقود الجنوية المسجلة فى فاماجوستا بالكامل ، وهو العمل الذى تولاه السيد ديزمونى M. Desimoni • ولسنا نعرف الا بداية هذا النشر الذى يضم قرابة ٢٢٠ وثيقة من ٢٦ ديسمبر ١٢٩٩ الى ٢٧ من أغسطس ١٣٠٠ (١٩) •

وانا لنندهش اذ نرى منذ السنين الأولى لعهد الرخاء فى قبرص جمعا خليطا من التجار ، والصيارف ، وأصحاب السفن الغربية يعملون بهمة ونشاط • وكان الجنويون بديارهم ومجالسهم وموظفيهم الاستعماريين يحتلون بطبيعة الحال المرتبة الأولى فى الجزيرة ، كما أن البنادقة مع بايلهم وفى مجالسهم ، والأنكونيين مع قناصلهم ، والبيزيين ، والفلورنسيين ، وأهالى مسينا ، ووكلاء البيت التجارى الكبير « سكوتى » Scotti (٢٠) كانوا يظهرون فيها بمظهر لائق • ويمثل فرنسا بالجزيرة أهالى من ناربون (ولهم فيها قنصل) ، ومونبلييه ، ويمثل أسبانيا تجار من برشلونة ، وساراجوسا (سرقسطة) Saragossa ، وتاراجونة Tarragone • وسوف نتكلم بنوع خاص عن معظم هذه الأمم ، ولا نريد هنا الا لمحة عن تشكيل هيئة التجار فى قبرص فى عام ١٣٠٠ •

بينما كانت معالم الحياة التجارية مركزة فى فاماجوستا (٢١) ، كان مقر البلاط ، والنبلاء ، والحكومة فى نيقوسيا ، داخل الجزيرة • وكان موقع

---

(١٨) Arch. de l'Or. lat., II, 2, p. 35, 69, 73-75.

(١٩) عقود مبرمة فى فاماجوستا أمام موثق لعقود الجنوى لامبرتو دى سامبوتشيتو (الجزء الأول) فى :

— Archiv de l'Or. lat. II ,2, 1882, p. 1-120.

(٢٠) Ibid, p. 55.

بمقتضى عقد مبرم فى ٢١ من يولية ١٣٠١ فى فاماجوستا بين هذا البيت وبضعة بيوت أخرى فى المدينة نفسها من جهة ، وبين صاحب (أو مجهز) سفينة جنوى من جهة أخرى . يلتزم هذا الأخير بشحن بضائع تخص تلك البيوت ، وذلك فى الجوزات وينقلها مباشرة الى مرسيليا وايج مورت • والبضائع المشار اليها هى القطن والسكر وشجر البقم ، والقرفة ، والعاج ، والزنجبيل ، والبخور ، والنيلة ، والصوف •

(٢١) Ludolph, p. 32 ; Pegol,. p. 64

فاماجوستا على الساحل الشرقي يضمن لها مزية كبيرة على ليميسو القائمة على الساحل الجنوبي ، ولأنها قريبة كثيرا من موانئ سوريا كلها ، وقبالتها ميناء الجوزات في أرمينيا الصغرى ، كانت مركزا تتجه اليه كل منتجات الشرق . وفي العصر الذي عاش فيه بيلوتي Piloti (حوالى عام ١٤٤٠) كان أزهى عصور فاماجوستا مجرد ذكرى ، ومع ذلك اليكم الصورة التي يرسمها عنها ، اذ يقول : « كانت كل القوافل المحملة بالتوابل تصل الى بيروت وطرابلس السورية حيث يشحنها الأهالي على متن سفنهم لتنقلها الى فاماجوستا ، وتحمل هذه السفن أيضا القطن وسائر منتجات سوريا . وفي فاماجوستا تتلاقى أمم المغرب كلها ، وتمارس أعمالها التجارية » (٢٢).

وفي تاريخه الذي يمتد الى عام ١٤٣٢ ، يذكر ليونتيوس ماشير Leontios Machaires القبرصي أنه في عهد بطرس الأول كان يرد من سورية بضائع الى فاماجوستا ، وكان البنادقة والبيزيون والجنويون والفلورنسيون والقطالونيون يأتون ثمة طلبا لهذه البضائع لأن البابا حظر عليهم المضي الى أبعد منها ، فكان ذلك كسبا « للفقراء القبارصة » (٢٣) .

ويعرض علينا بيجولوتي Pegolotti (٢٤) الذي أقام في جزيرة قبرص فترتين ، الأولى من ١٣٢٤ الى ١٣٢٧ ، والثانية عام ١٣٣٥ بصفته وكيلا لبيت باردى ، قائمة طويلة للسلع الموجودة بالسوق : فلم يغب عنها شيء من منتجات الشرق النفيسة التي يطلبهـا الأوروبيون في العصور الوسطى .

وفي هذا العصر وجد السائح الألمـاني لودولف دو سوذيم Ludolphe de Sutheim في فاماجوستا كميات هائلة من التوابل ، ويؤكد أنها كانت هناك شائعة شيوع الخبز في ألمانيا ، وكان في قباء تاجر من تجار السلع الغذائية في المستعمرات كميات من خشب الصبر أكثر مما يمكن حمله على خمس مركبات ، وآثر ألا يتحدث عما رآه من أحجار كريمة ، وديباج مذهب ، وأشياء أخرى ثمينة من هذا النوع ، لأن مواطنيه لن يصدقوه . وفي رأيه أن تجار هذه المدينة يتمتعون بثراء فاحش ، وأنهم أغنى من تجار أية مدينة أخرى ، غير أن الرفاهيـة والاباحة كانا متناسبين مع ما بها من ثروة . وكانت هناك منافسة كبيرة بين التجار

(٢٢) Reiffenberg, Monuments pour servir à l'histoire des provinces de Namur, de Hainaut et de Luxembourg, IV, 366.

(٢٣) Chronique de Chypre, texte grec, éd. Miller et Sathas (Paris 1882), p. 48 et s.

(٢٤) Pratica della mercatura, p. 48 et s.

والمسافرين من كل البلاد : ففي فاماجوستا ، وفي جزيرة قبرص بوجه عام ، يمكن دائما معرفة كل ما يجرى تحت الشمس (٢٥) .

ولم يكن يجذب هذه الجموع الكبيرة من التجار الى قبرص ، وبخاصة فاماجوستا السلع النفيسة المستوردة من قلب آسيا فحسب ، ولكن أيضا منتجات الجزيرة نفسها . ومن هذه المنتجات ، يشغل السكر والملح المرتبة الأولى . وكان قصب السكر متوفرا للغاية في ضواحي ليميسو ، وبافو Baffo ، وتجرى صناعة السكر بوجه عام وسط المزارع نفسها ، ومن كبار ملاك العقارات ، زارعي السكر ، والقائمين بتكريره أسرة كورنارو Cornaro . وكان الملك في حقوله ، وفرسان القديس يوحنا في أراضيهم الشاسعة في كولوسى Colossi يصنعون السكر الذى يشترى البنادقة معظمه ، وينتشر من البندقية الى الغرب كله (٢٦) .

أما الملح فكان يستخلص على ضفاف البحيرتين الواقعتين بالقرب من ليماسول ولارناكا Larnaca (ملاحات) (٢٧) ، فيدخل فيهما ماء البحر ، ويترسب الملح ثمة بعد تبخر المياه في حرارة الصيف . وكانت هذه الملاحات الطبيعية في العصور الوسطى (٢٨) أكبر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، ويحتكر الملك انتاجها وبيعه (٢٩) . ويبدو أن البنادقة أيضا هم الذين يشترون أكبر الكميات من الملح (٣٠) . والحقيقة أن الملح كان في كل زمان من السلع الرئيسية في تجارتهم (٣١) .

ولا يجوز ، في مجال الحديث عن منتجات قبرص الطبيعية أن ننسى

---

(٢٥) Ludolph, p. 32-34

(٢٦) لمزيد من التفاصيل انظر مادة « السكر » بالفصل الخاص بالسلع التجارية ..

(٢٧) نجد في هذا الخصوص شروحا في قصص الرحالة :

— Steph. v. Gumppeneberg, p. 244 et s., Ghsitele, p. 250 et s., Georg. Gemnicensis, p. 614, Pictro Casola, p. 86, 87, Hans Stockar (Schaffh. 1839), p. 32-34. Rahricht et Meisner, Deutsche Pilogerfahrten, p. 325, 382 et s., Conrady, Vier rheinische Pilgerfahrten, p. 245.

(٢٨) MM. Unger et Kotschey, Die Insel Cyprn, p. 8 et ss.

(٢٩) Mas Latrie, II, 100; III, 237, not. 1, 554 et ss., 560 et ss.; Pegol., 37;

(٣٠) Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium, I, 142; Mas-Latrie, II, 100.

(٣١) Marin, V, 42-58.

نبيذها الممتاز (٣٢) ، أو القطن ذا الجودة المتوسطة بين قطن سوريا وقطن جنوب ايطاليا ، وصقلية ، ومالطة ، أو « النيلة » التي تقل كثيرا في جودتها عن نيلة بغداد ، أو « لادن » (صمغ راتنجي يستعمل في صنع العطور — المترجم) ، أو الحنظل (٣٣) ، أو الخروب (٣٤) .

فاذا انتقلنا من الحاصلات الطبيعية الى المنتجات المصنعة ، صادفنا غالبا منسوجات تدل أسماؤها العربية (٣٥) على أن نماذجها الأصلية واردة من قارة آسيا . وفي فاماجوستا ونيقوسيا (٣٦) ، تصنع من مواد مختلفة « الشملات » القبرصية المشهورة (٣٧) المطلوبة في مصر وسوريا (٣٨) ، وآسيا الصغرى (٣٩) ، وتباع بأثمان مرتفعة في الغرب (٤٠) . وفي عام ١٣٩٨ أوفد لويس الثاني دوق بوربون دليلا له الى قبرص ، وكلفه أن يبتاع له « شملات » رقيقة ، حمراء وبيضاء . ونجد في الكثير من الدفاتر التجارية ، وقوائم الجرد المحررة في الغرب اشارة الى عدد من قطع الشملات . ونجد كثيرا الى جانب هذا البيان اشارة الى جزيرة قبرص باعتبارها المصدر الأصلي .

وكانت صناعة الخيوط الذهبية ، والأقمشة الحريرية المختلطة ، أو المطرزة ، أو الموشاة ، بشرائط متناسبة مع جزيرة قبرص حتى أن

---

(٣٢) في العصور الوسطى كان نبيذ قبرص يعتبر ملك الأنبذة ، ويقدم على موائد الأمراء ، وكان كل الحجاج الذين يمرون بقبرص يلهجون بمديح هذا النبيذ :
Pegol., p. 67.

— Schultz Hopsches Leben, 1, 298 et ss; Ludolph de Southeim, p. 34, Boldensele, p. 241. Wilber. v. Oldenb. p. 180; Innominatus III, dans Tobler, après Théodoricus, p. 129, 130.

(٣٣) Pegol., p. 64; Pasi, p. 141 b-142 a; Mas-Latrie, III, 535.

(٣٤) Pegol., p. 67; Pasi, l.c.; Casola, p. 49,88; Mass-Latrie, II, 499; III, 300 et s.

(٣٥) Voir le chapitre de Pegolotti sur Chypre, p. 65.

(٣٦) Mas-Latrie, Hist de Chypre, III, 244, 497, 535, 775, 777.

(٣٧) Ghistele p. 254; Assis. de Jérusalem, II, 361, 365.

(٣٨) بالنسبة الى الاسكندرية والقاهرة وبيروت ودمشق انظر :
Piloti, p. 358, 376.

(٣٩) Pegol, p. 42.

(٤٠) Mas-Latrie, II, 448-451 ; Bibl de l'Ecole des chartes, série VI, vol. I, p. 348, et s; Pasi, p. 886, 142, a; Chiarini, p. LXXIX a.

الخيوط الذهبية كان يطلق عليها « ذهب قبرص » (٤١) ، كما عرفت المنسوجات الحريرية هناك باسم « جوخ قبرص الذهبى » (٤٢) • ومن قبل ، فى عام ١٣٠٠ كانت كنيسة القديس بطرس بروما تملك زخارف تسمى « مشغولات قبرصية » de opere Cyprensi (٤٣) • وسوف نتحدث فى فصل خاص عن منسوجات حريرية وقطنية وكتانية أخرى منتشرة فى سوق قبرص • ولم يكن عند الغرب ما يقدمه عوضا عن هذه الأقمشة الفاخرة سوى أجواخ الفلاندر ، وفرنسا ، ولمباردیا ، الخ • ونرى بالفعل ، حسبما هو مسجل فى الدفاتر التجارية الخاصة ببعض تجار الغرب أن هذا الجوخ هو السلعة الرئيسية الواردة من هذه البلاد (٤٤) • حقا ان مصانع الحرير التى أقيمت فى ايطاليا طبقا لنموذج مصانع قبرص تقدمت تقدما سريعا ، الا أن منتجاتها كانت توجه الى الغرب فقط • ومع ذلك كانت قبرص تتلقى أنبذة من اليونان وايطاليا ، وخردوات وأدوات حديدية ونحاسية من ميلانو (٤٥) •

وفى فاماجوستا مستودعات كبيرة تديرها بيوت تجارية شرقية (٤٦)• وتتم المبادلات التجارية بوساطة سماسرة • ولاعتبار صفقة تجارية أنها باتة ، لايكفى دفع العزبون ، بل لابد أيضا من أن تسجل فى دفاتر موظفى الجمرك • ولم تكن هناك ضرائب على المبيعات والمشتروات ، أما الرسم الجمركى العادى المفرض عند الدخول والخروج فكان ٤٪ ، وهو السعر المفروض على كل التجار التابعين للأمم التى لاتتمتع بأى امتياز • ولكن فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، كانت الأمتان التجاريتان ، البندقية وجنوا تتمتعان بالاعفاء الكامل (من الرسوم والضرائب) ، وكان البيزيون والأنكونيون والبروفنسيون والنربونيون والقطالونيون قد حصلوا على تخفيض ضرائبى بمقدار النصف • وأما الشركتان الفلورنسيتان الكبيرتان باردى Bardi ، وبيروتزى

---

(٤١) Francisque Michel, l.c., I, 255, 307; II, 187.

(٤٢) Ibid, I, 306 et ss., II, 174, 189, note 2, 458.,

(٤٣) Archiv. della soc. rom. di storia partia, VI (1883), p. 11 et s.

(٤٤) Pegolotti, p. 66, 74; Chiarini, p. LXXIX a; Pasi, p. 142 a; Mas-Latrie, III, 774 et ss.

(٤٥) Pegol. p. 67; Chiarini, l.c.; Pasi, l.c.

(٤٦) كان الاخوة Lachas النسطوريون ، مثلا يربحون من هذه التجارة أموالا طائلة ، وفى الاعياد يعرضون كميات من خشب الصبر ، والياقوت ، واللآلىء ، والقطع الذهبية التى تمتلىء بها مخازنهم •

Peruzzi فانهما تتمتعان بنفس الخطوة (٤٧) . وبالحاج من وكيل شركة باردى ، بالدوتشى بيجولوتى ، امتد أثر هذا الامتياز فشمل كل الفلورنسيين (١٣٢٤) (٤٨) ، ولم يكن هؤلاء حتى هذا التاريخ قد تخلصوا من دفع الضرائب كلها ، الا بأن يدعوا . غشا وخداعا أنهم بيزيون ، غير أن البيزيين كانوا يعاقبونهم على ذلك بشدة .

ومنذ أن منحوا تخفيض الرسوم ، كان يكفى أى تاجر أن يقدم للجمرك شهادة تثبت جنسيته الفلورنسية ، موقعا عليها من وكيل بيت باردى فى فاماجوستا ليحصل من موظفى الجمرك على أن يدفع الرسم بسعر ٢٪ . وفيما عدا هذا الاستثناء كانت القواعد العامة المطبقة على الأمم غير المعفاة من الضرائب هى ما يأتى : البضائع الملقاة على الأرض والباقية لحساب التاجر يمكن نقلها دون دفع رسم عند الخروج ، والبضائع التى تشحن فقط من سفينة الى أخرى فى ميناء فاماجوستا ، وتنقل من ثمة الى جهة أخرى دون أن توضع على الأرض تدفع رسم مرور بنسبة ١٪ (٤٩) .

وهناك أخيرا رسم « عام » لجزيرة قبرص ، يسمى la Missa وهو « ضريبة » ، الغرض منها تعويض ملك قبرص عن النفقات التى يضطر الى صرفها لتطهير البحار المجاورة من القراصنة الذين يرتادونها : هذه الضريبة التى تقدر بالنسبة الى الشحنة ، تحصل من السفن القادمة من آسيا الصغرى التركية ، ورودس ، وارمينيا ، وسورية ، ومصر ، وكانت فى الواقع تخص ربان السفينة ، ولكن الربان يضيفها الى أجرة السفينة بحيث يتحملها التاجر فى النهاية . أما البنادقة والجنويون فكانوا معافين من هذه الضريبة ، اسوة بغيرها من الضرائب .

وقد استقينا المعلومات السابقة من بيجولوتى الذى نثق به كل الثقة لأنه كان بصفته وكيلا لبيت تجارى كبير فى وضع أكثر ما يكون ملائمة لمعرفة كل التفاصيل التى تهم تجارة قبرص معرفة دقيقة . ويذكر

---

(٤٧) Les Archiv de l'Or. lat., II, 2, p. 60; Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 251, 276, 321 (aux années 1335, 1339, 1345);

Mas-Latrie II, 147, 149, 164; Bibl de l'Ecole des chârtes 1874, p. 59.

(٤٨) لم يمنح هذا الامتياز هذه المرة الا لسنتين ، ثم أعيد منحه فى عام ١٣٢٥ لسنة واحدة ، وفى عام ١٣٢٦ لخمس سنوات ، وأخيرا فى عام ١٣٢٧ الى الأبد .

(٤٩) توجد هذه القاعدة من قبل فى الامتياز الممنوح لصالح بيزا فى عام ١٢٩١ ، انظر :

— Doc. sulle relaz. tosc, p. 108.

بيجولوتى من البلاد والمدن التى لها علاقات تجارية بالجزيرة الى جانب بيزا وهى دولة انحطت وتقلص قواها ، يذكر أمة ظهرت حديثـــا ، ولها طاقة فتية : تلك هى فلورنسا ، وفى حوزتنا رســالة كتبتها حكومة فلورنسا بعد وفاة هوج الرابع Hugues IV من أسرة لوزينيان الذى أقام فى عهده بيجولاتى فى جزيرة قبرص ، وهى موجهــة لخليفتــه بطرس الأول (١٣٦٠) ، وتمتدح الكرم الذى أبداه الملك المتوفى حيال مواطنيه ، وتوصى الملك الحالى بتاجـر ذهب الى قبرص لتحصيل بعض الديون (١٣٦٥) (٥٠) . ومن بين الأمم التى تتمتع بامتيازات الأنكونيون، فكانت سفنهم تقوم برحلات كثيرة الى قبرص . ويبدو أن مدنا ايطالية أخرى كانت تستفيد من هذه الظروف فتصــدر بضـائع الى الجزيرة وتستورد بضائع منها (٥١) .

والتجارة الفرنسية كان يمثلها تجار من عدة مدن ، وبخاصة ناربون ومونبلييه (٥٢) ، فتستورد هذه المدن من قبرص منسوجات صــوفية وكتانية وغيرها ، وزنجبيلا وفلفلا وســكرا . وفى عام ١٣٣٤ كانت سفينة عائدة من فاماجوستا الى « ايج ـ مورت » Aigues-Mortes وعلى ظهرها تجار فرنسيون ، و ١٠٧ أكياس فلفل ، فوقعت أسيرة فى أيدى قراصنة قطالونيين (٥٣) . وفى عام ١٣٥٠ كانت سفينة أخرى استأجرها تاجر من ناربون تنقل شـــحنة من الفلفـل والزنجبيل ، وتيلة بغداد من فاماجوستا الى فرنسا ، فنهبها قراصنة صقليون (٥٤) . ومن كمبيالات وخطابات توصية محفوظة الى يومنا هذا نعرف أسماء تجار من جنوب فرنسا مقيمين فى قبرص ، نذكر منهم بيت سـيراليه الكبير

---

(٥٠) Doc. sulle relaz. tosc. p. 118, 123.

ـ فى العقود الموثقة بفاماجوستا ، والمذكورة آنفا ، نجد عددا كبيرا من الأسمـــاء الفلورنسية :

— P. 8, 24, 37, 55, 58, 60, 65, 84, et s., 86 et s., 89, 108.

(٥١) يذكر بيجول (Pegol., p. 154 et S) أسعار النقل فى السفن الأنكونية غير المسلحة ، وتزودنا هذه المعلومة بقائمة بسلع التصدير والتوريد . ونجد أسماء أنكونيــة فى العقود الموثقة المشار اليها فى البيان السابق :

34 et s. 46, 65, 66, 77, 90 et s., 97, 106 et ss., 111.

(٥٢) نجد أسماء بورجوازيين من هاتين المدينتين فى العقود الموثقة بفاماجوستا :

— l.c. p. 33, 44, 63, 92, 94-96, 105 et ss.

(٥٣) Mas-Latrie, III, 728.

(٥٤) Ordonnances des Rois de France, IV, 425.

من ناربون (٥٥) · وجالية تجار مونبيليه هى الوحيدة Seraller التى نعرف بالتفصيل تنيظمها وامتيازاتهـا · وقد زال الامتياز الذى منحه اياها الملك هوج الرابع (١٣٢٤ — ١٣٥٩) ، ولحسن الحظ أمكن الحصول على مضمونها من تحذير وجهه قناصل مونبيلييه الى خليفة بطرس الأول · وتتوافق البنود المتعلقة بالرسوم الجمركية التى تحصل عن البضائع عند دخولها قبرص وعند خروجها منها ، وكذا البضائع غير المبيعة أو المعاد تصديرها دون انزالها برا ، تتوافق تمـاما مع بيانات بيجولوتى حتى اننا لانرى فيها سوى نسخة من القواعد المتبعة منذ زمن بعيد فى هذا الموضوع ·

وفيما يخص القناصل ، كانت العادة المتبعة فى بلدية مونبلييه أن تلحق بسفنها التجارية قناصل حتى يكون الركاب تابعين دواما لقضائهم، عند سفرهم وعند عودتهم · وعندما يصل القناصل الى المكان المقصود يؤدون به وظيفة المديرين والقضاة طوال فترة اقامة من معهم من الركاب، وكذا بالنسبة الى مواطنيهم الموجودين فى هذا البلد المقصود ذاته · وعند عودتهم يعينون واحدا أو اثنين أو أكثر من اعضاء الجالية ليؤدوا نيابة عنهم هذه الوظائف الى حين وصول قنصل آخر · وقد أذن الملك هوج لجالية مونبلييه بأن تتبع هذا النظام أو بعبارة أصح تحتفظ به فى قبرص ، ومنح هؤلاء القناصل اختصاص القضاء المدنى والجنائى حيال مواطنيهم ، ويؤدون وظائفهم فى أروقتهم (دار القنصلية loggia) فى فاماجوستا ، وفى مدن أخرى ، يتبعهم فى تنفيذ أحكامهم اثنان الى أربعة من الضباط (٥٦) bastonniers ou sergans ·

وثمة خطابات توصية تعرفنا أسماء هؤلاء القناصل الذين أوفدتهم بلدية مونبلييه الى قبرص خـلال أعوام ١٣٤٥ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٦ ، ١٣٨١ (٥٧)· ولانظن أننا مخطئون اذا قلنا ان لقب regentes mercatorum Montispessulani (٥٨) الذى منح باجازة قبرصية فى عام ١٣٥٢ لأرنولدس رينودى Arnoldus Raynaudi وريموندس سـولاتشى

---

(٥٥) Mas-Latrie, Documents sur le commerce maritime de midi de la France, dans la Biblioth. de l'Ecole des chartes, série II, vol. III, p. 207; ; Germain, Hist de la commune de Montpellier, II, 541 et ss.; Mas-Latrie, Nouv. preuves de l'hisloire de Chypre, l.c., p. 85.

(٥٦) Germain, Hist. de la commune de Montpellier, II, 506 et ss.

(٥٧) Mas-Latrie Hist de Chypre, II, 208 et ss., note; Germain, l.c., ... et s.

(٥٨) Germain, l.c., p. 541.

قـد خصص لاثنين من هـؤلاء النواب الذين Raymundus Sclacii يعينهم القناصل عند رحيلهم ، وثمة اجازة قنصلية أخرى فى عام ١٣٥٨ تنبئنا أن الاخير كان أحد بورجوازى مونبلييه ، وتاجرا للسلع الغذائية فى قبرص (٥٩) • وكانت الأمور بين تجار مونبلييـه وموظفى قبرص لاتجرى في يسر دون أن تحدث بعض المتاعب من حين الى حين • من ذلك أنه حدث فى عهد هوج الرابع أن تظلم التجار من طريقة وزن الأشياء (٦٠) • وفى عهـد بطرس الأول (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩) طولب هؤلاء التجار بان يؤدوا ضعف ما كان عليهم أن يؤدوه من الرسـوم الجمركية انتهاكا للحقوق الممنوحة لهم كتابة • وفى غضون رحلة بطرس الأول الى الغرب ، توقف بعض الوقت فى مونبلييه (من ٢٩ مارس الى ٣١ مايو ١٣٦٣)(٦١)، وانتهز قناصل المدينة هذه الفرصة فقدموا له شكاوى بهذا الخصوص(٦٢) • وللحال كتب بطرس الى أخيه يوحنا دو لوزينيان القائم بشئون الحكم نيابة عنه فى غيابه وأن يعمل على منع هذه المخالفة (٦٣) • وعندما عاد الى نيقوسيا أعطى أهالى مونبلييه أمرا (دبلوما) جديدا أكد فيه من جديد امتيازاتهم فى كل من الشئون الجمركية والقضائية (٦٤) •

ونعلم من قبل أن القطالونيين (٦٥) كانت لهم نفس المزايا التى يتمتع بها تجار مونبلييه بالنسبة الى الجمارك ، والقنصليـة ، وترجع امتيازاتهم الى عام ١٢٩١ ، ولم يحصلوا على امتيـازات أخرى من ذلك

---

(٥٩) Bibiloth de l'Ecole des chartes, série II, vol, p. 207.

(٦٠) Germain, l.c., p. 542.

(٦١) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 240.

(٦٢) Germain, l.c., p. 596 et ss.

(٦٣) Lettre écrite dA'vignon le 21 avril, dans Germain, l.c., p. 544.

(٦٤) Germain, Histoire du commerce de Montpellier, II, 261.

ـ جعل جيرمان تاريخ هذا الدبلوم ١٤ يناير ١٣٦٥ ـ ومع ذلك يبدو ان هـذا التاريخ مشكوك فى صحته ، لأن « بيير » لم يعد الى قبرص قبل شهر اكتوبر (Mas-Latrie, l.c., II, 241)

وربما ينبغى أن نقرأ التاريخ ١٣٦٦ أو ١٣٦٧ •

(٦٥) نجد أسماء لهذا البلد فى العقود الموثقة بفاماجوستا :

— l.c., p. 60, 62 89, 97, 101, 111, 114.

الحين (٦٦) . على أنه فى حوزتنا جوازات مرور وخطابات توصية سلمتها سلطات برشلونة لبعض التجـار والبحارة (٦٧) ، وبعض القـرارات الصادرة بتعيين قناصل فى فاماجوستا ليشرفوا بهـا على مصـالح القطالونيين فى قبرص وأرمينيا الصغرى (٦٨) . هذه الوثائق تثبت أن التجارة بين برشلونة ومملكة قبرص كانت مستمرة كعادتها دون انقطاع أو صعوبات . ولم يكن التجار . القطالونيون يتوقفون دائمـا عنـد فاماجوستا ، فكثيرا ماكانوا يغامرون بمواصلة الابحار حتى دمشق ، ولنا فى ذلك مثل جرى فى عام ١٣٣٨ (٦٩) فاذا انتقلنا من الأمم الأقل مراعاة الى الأمم التى تتمتع بالاعفاء التام من الرسـوم ، الى الجمهوريتين التجاريتين الكبيرتين تبين لنا أول كل شيء أنه كان يوجد بين جمهورية جنوا وملوك قبرص سلسلة من المنازعات التى قد تبعث على الظن بأن جنـوا كانت تفكر منذ زمن مبكر أن تقيم بالقوة مستوطنة لها فى قبرص .

فالواقع أنه فى أعقاب بعض أعمال القرصنة التى اقترفها جنويون عند سواحل الجزيرة تجددت المنازعات القديمـة بشدة حتى أمر الملك (١٣٠٥) تجار هذه الأمة أن يبتعدوا عن الشاطىء وينقلوا سـكنهم الى نيقوسيا ، مهددا بالغاء كل مالهم من امتيـازات اذا لم يكفوا عن هذه الغـارات (٧٠) . ورأى سالفيجو بيســانيو Salvaigo Pessagno الموفد عام ١٣٠٦ بمهمة من قبل الجمهورية لدى الملك أن كل طلباته قد رفضت ، فأمر مواطنيه أن يغادروا الجزيرة ، قائلا لهم بصراحة انه لم يعد ثمة مجال لمعاملة الجزيرة الا على أنها عدوة لهم ، ولابد من شن حرب ضدها . أما الملك فانه منع خروج أى جنوى من مملكته ، ووضع أموالهم تحت الحراسة ، وحظر على رعاياه أن يشتروا أو يحتفظوا بأشياء تخصهم . وفى اللحظة التى بدا فيها أنه لامفر من نشوب الحرب ، أطاح أمورى

---

(٦٦) حين انهمك جيمس الثانى ملك أراجون بتنظيم حملة صليبية ، بعث بيدرو دسبورت فى سفارة الى جايخاتو ، خان تتار فارس ، وكذا الى ملوك قبرص وأرمينيـا الصغرى طالبا تحالفهم معه (١٢٩٣) . وفى هذه المناسبة طلب من ملك قبرص أن يمنح التجار القطالونيين فندقا وحيا ، ويخفف الضرائب التى يجبيها على البضائع الباقية لحسابهم والتى يعاد تصديرها (Navarrete, l.c. p. 177) سنا نعرف رد هنرى الثانى ، والأمر كذلك بالنسبة لما منحه للسفراء الأراجونيين فى عام ١٣١٦ .

(٦٧) Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 734 et s.; Capmany, II, 111.

(٦٨) Campany, II, app. p. 66 .

(٦٩) Mas Latrie, III, 734.

(٧٠) Assis. de Jérus., II,363-368.

Amaury أخاه هنرى من العرش (٧١) ، ومع ذلك لم يدم السلام طويلا اذ انبثقت خلافات جديدة بسبب وقوع مشاجرات بين بعض الجنويين وبعض بورجوازى فاماجوستا ، سالت فيها الدماء ٠

وطالبت الجمهورية بترضية ، ولكن أموري الذى جرت الأحداث فى عهد وصايته (١٣٠٦ - ١٣١٠) ، وهنرى الثانى حين استرد عرشه ، رفض كل منهما بدوره طلب الجمهورية بحجة أن الاثارة صدرت من جانب الجنويين ٠ وادعت جنوا أنها قد أهينت بهذا التصرف ، فأمرت رعاياها أن يخرجوا من الجزيرة ، وأذنت لكل منهم أن يعامل القبارصة معاملة الأعداء ، ويوقع بهم كل أذى مستطاع ، دون أن يناله أى عقاب : وأدى ذلك الى استيلاء طائفة من الجنويين على « بافو » (بافوس) ٠ Baffo (Pophos) ٠ وأعدت جنوا عدتها مرارا لارسال حملات الى قبرص ، ولكن كانت كل حملة تتوقف قبل رحيلها ، أحيانا نتيجة لمساعى البابا الذى لم يدخر وسعا للوساطة (٧٢) ، وأحيانا بسبب الخلافات الداخلية فى الجمهورية نفسها ٠ وأخيرا توفى الملك هنرى الثانى ، ملك قبرص ، وخلفه هوج الرابع ، وأمكن عقد الصلح عام ١٣٢٩ (٧٣) ٠ وكان المفاوض الجنوى هو نيكولينوفيسكى ديى كاردينالى Niccolino Fieschi dei Cardinali الذى سبق له أن أدى فى عام ١٣٢٠ مهمة فى بلاط نيقوسيا مع بييترو جريللو Pietro Grillo (٧٤)

وجرت المفاوضات أساسا فى مسائل خاصة بالتعويضات ٠ ومع ذلك فالمعاهدة اذ أعادت الى الجنويين كل الحقوق والممتلكات التى كانت تتمتع بها فى عام ١٢٣٣ ، وأكدتها من جديد ، تغاضت عن كل المصاعب التى ظهرت عند تفسير المعاهدة القديمة (٧٥) ٠ ولم يمنع هذا الجمهورية من الالحاح على الملك بمطالب تتعلق بأمور حديثة العهد بدرجة ما ، حتى بعد أن دفع لها مبالغ كبيرة ، ولم تبد حماسا فى منع أعمال القرصنة التى يقوم بها رعاياها كل يوم اضرارا بمصالح القبارصة ٠ وفى عام ١٣٣٨

---

(٧١) Amadi, dans Mas Latrie, III, 681 et s.

(٧٢) Raynald, a. a. 1313 no 10, 1317, no 25, 1919 no 10, 1320 no 47, 1323 no 13, 1328 no 36.

(٧٣) M. Pagano (p. 28); Canale, Nuova istoria di Genova, III, 231, note 2.

(٧٤) Raynald, a.a. 1320, no 47.

(٧٥) Lib, jur, 11, 483 et ss.; Mas Latrie, II, 150 et ss.

عقد صورليونى سبينولا Sorleone Spinola سـفير جنوا معاهدة جديدة (٧٦) ، ولم تأت هذه المعاهدة بتغيير محسوس فى الموقف .

وفى مرة أخرى كان الملك هو الذى أوفد سفراءه الى جنوا حيث استقبلوا بحفاوة ، ولكن حين طال أمد المفاوضات ، صرفوا بأسـلوب غير لائق . واذ راحت جنوا تعبىء أسلحتها ضد قبرص ، عرض البابا كليمنت السادس وساطته مرة أخرى ، ونجح بمشقة فى ارساء قواعد الصلح (١٣٤٤) ، وتلاحقت المفاوضات أمام الكرسى الرسولى (الفاتيكان): وأصر الجنويون بنوع خاص على ثلاث نقاط صرحوا بأنه لامناص منها : أولها حق الجنويين فى أن يكون لهم سجـون فى جزيرة قبرص (٧٧) ، ثم حرية الدخول فى أى وقت فى موانىء الجزيرة دون أن يلتزموا بطلب تصريح بالدخول من الموظفين الملكيين ، وأخيرا حرية صنع الخبز فى فرن المستوطنة الجنوية للجنويين الغرباء على المستوطنة .

ولم يقبل المفاوضون القبارصـــة هذه المطالب الا على مضض ، وفقط لفترة مؤقتة قدرها ثلاث سنوات ، ولم يسلموا بذلك الابناء على الحاح البابا الذى ضغط عليهم حتى يبتوا فى المسـألة ، ولأن الطرف الآخر أبدى تساهلا فى نقاط أخرى (مثل فرض ضريبة على عقود البيع التى تبرم بين جنويين وأجانب) ، وأخيرا لأن الطرف الآخر قبل أن يخضع الرعايا الجنويون العاملون فى خدمة الملك أو التابعون له تبعية اقطاعية لقضائه المباشر ، وهذا ما طلبه الملك (٧٨) . ولسنا نعرف ما اذا كان الصلح قد تم على أساس هذه القواعد ، فهذا أمر مشكوك فيه ، ولا توجد وثائق من عهد هوج الرابع يمكن الرجوع اليها لالقاء الضوء على علاقات هذا الأمير بجمهورية جنوا .

وفى رحلة طويلة قام بها خليفته بطرس الأول فى أنحاء أوروبا ، أقام عدة أسابيع فى جنوا (منـــذ أواخر شـــهر يناير حتى منتصـف

---

(٧٦) Mas Latrie, II, 166 et ss.

(٧٧) "أكدوا ، تأكيدا غير صحيح أن ثمة معاهدات سابقة كفلت لأمتهم الحق فى أن يكون لها سجون خاصة بها ، وهذا امتياز لم يكن ملوك قبرص يمنحونه عن طيب خاطر ، بل كانوا يطلبون من الموظفين المستوطنين ، البيزيين والبنادقة ، فى حالة ما اذا حكم على أحد من مواطنيهم بالسجن من محاكمهم ، أن ينفذ العقوبة فى سجون البلد التى كانت دائما تحت تصرفهم :

Doc. Sulle relaz. tosc. p. 108; Mas Latrie II, 105.

(٧٨) M. de Mas Latrie : la Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1873, p. 65 et ss.,

شـــهر مارس ١٣٦٣) (٧٩) : انتهز الدوج هذه الفرصـــة فطلب تأكيد الامتياز الأساسى الممنوح عام ١٢٣٢ (٥ مارس) (٨٠) . وبينما كان بطرس يواصل رحلته ، ظهر فى قبرص نزاع كاد يهدد السلام من جديد (١٣٦٣ — ١٣٦٤) : ذلك أن أمير البحر القبرصى يوحنا دى صور Jean de Sour قطع الأذن اليمنى لبحارين فرا من الخدمة ، وتبين أن هذين البحارين جنويان ، وترتب على ذلك حدوث مشاجرات دامية بين البحارة الجنويين والقبارصة . واعتزم البودستات الجنوى جوجلييلمو ايرميريو Gugl Ermirio أن يثأر للبحارة مواطنيـــه ، فقبض على بحـار بيزى يخـــدم فى الأســـطول الملكى ، واشترك فى الشغب (٨١) ، فأمر بقطع لسانه . ولما علم أمير البحر يوحنا الصورى بتنفيذ هذا الأمر ، توجه الى رواق الجنويين بصحبة يوحنا دى سواسون Jean de Soissons قـاضى فاماجـــوستا لتأنيب البودســتات على اصداره هذا الحكم الهمجى . وفى هذه الأثنـــاء تجمع الجنويون حول زعيمهم : فغضب أمير البحر وأمرهم بالانسحاب ، والامتناع عن العراك والا تعرضوا لعقوبة الاعدام .

وثار غضب ايرميريو ، وأصـــدر أمره الى كل الجنويين بمغادرة الجزيرة فى شهر أكتوبر ، وبادر هو بالذهاب الى جنوا وتقديم شكوى اليها . ورغم هذا الموقف التهديدى ، صرح ضابط الملك بأن كل جنوى يرغب فى البقاء يمكنه أن يبقى دون أن يناله أى أذى (٨٢) . ولم يكن ثمة شىء بغيضا الى الملك مثل الذى حدث ، وبخاصة فى تلك الآونة التى كان على البندقية أيضا أن تقضى فيها على ثورة نشبت فى كانديا ، ومن ثم كان يخشى أن تؤجل مشروعاته الخاصة بالقيام بحملة صليبية . أما جنوا فانها اهتمت بالأمر ، وأرادت شن الحرب ، واستقبلت ببرود شـديد الشخصيات التى أوفدها بطرس لتسوية الأمور تسوية سلمية ، وكان هؤلاء هـم بيتروس تومى Petrus Thomoe بطريرك القسطنطينيـــة ، وبيترو دى بانيولو Pietro di Bagnolo من ريجيو Reggio طبيب الملك الخاص (٨٣) .

---

(٧٩) Mas Latrie, II, 240.

(٨٠) Lib. jur., II, 720 et ss. , Mas Latrie, II, 248 et s.

(٨١) نجد أيضا أسماء بيزيين ذكرت فى مناسبة مشاجرات جرت عام ١٣٣١ فى فاماجوستا بين جنويين وقبارصة :
— Contin. de Jacq. de Voragine, Atti della Soc. Lig., X, 510:

(٨٢) P. 75 de la nouvelle édition de Machairas.

(٨٣) Acta SS., 29 Janv. II, 1012.

ومع ذلك فقبل أن يغادر بطرس البندقية ليقوم بحملته الصليبية ، ابتهج حين بلغه أن السلام قد استتب : وقد تم الوصول الى هذه النتيجة الطيبة أولا بفضل فصاحة بيتروس تومى ، ثم بفضل تدخل البندقية دبلوماسيا (٨٤) ، والحاح البابا أوربان الخامس · وفرض الجنويون شرطا لموافقتهم (على الصلح) يبدو مع ذلك أنهم لم يتمسكوا بتنفيذه فيما بعد ، ويقضى هذا الشرط بنفى قاضى فاماجوستا يوحنا دى سواسون، وأمير البحر يوحنا دى صور اذ اتهموهما بأنهما المحرضان على المعاملة السيئة التى لقيها مواطنوهم فى قبرص وتحدد المعاهدة بدقة فئات الأفراد الذين يستحقون الاعفاءات والاستثناءات والحصانات الممنوحة للجنويين بوجه عام ، وتشمل ليس فقط كل سكان « الريفييرا » من موناكو الى الطرف الجنوبى لخليج سبيزيا Spezzia ، ولكن أيضا كل الأفراد ، أينما كانوا يقيمون ، الذين يعيشون تابعين للسلطات الجنوية ، أو يخضعون للتكاليف المفروضة على مواطنى الجمهورية ، بالاضافة الى ذرية هؤلاء الأفراد ، سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين ، وكذا خدمهم ، وأرقائهم ، وعتقائهم ، اذا كانوا فى خدمة أسيادهم ، وتترك الحالات المشكوك فيها لتقدير البودستات ومستشاريه · فاذا حدث فى حالة ما أن رفض الملك أو نوابه حكمهم ، كان لهم أن يلجأوا الى دوج جنوا ، ومجلسه ، وأعضاء المجلس البلدى ليجروا تحقيقا محايدا · والمواطنون الجنويون الذين يشترون مالا (أرضا) يجعل ملكيتهم له أتباعا اقطاعيين للملك قبرص ، يبقون مع ذلك خاضعين لقضاء بودستات جنوا ، ويظل الملك حرا فى أن يسحب منهم اما ملكيتهم المال ، أو التمتع الكامل أو الجزئى بالأرض الاقطاعية ، وفى حالة الجرائم التى يرتكبها مواطنون جنويون فى خدمة الملك ، اما بصفة بحارة أو بأية صفة أخرى، تملك السلطات القبرصية الحق فى اعتقالهم ، وعليها أن تسلم المذنب الى البودستات ليحاكمه وينفذ فيه الحكم ·

فاذا قامت منازعات جديدة ، فانه لايجوز للملك أو لعملائه أن يقبضوا على مواطنين جنويين أو يحجزوا بضائعهم أو سفنهم بأية حجة · ويصرح الملك للجنويين بأن يكون لهم سجون خاصة للمجرمين التابعين لأمتهم · وعلى الملك أن يلغى الأوامر الضارة بالبحارة ، والتى تلزم ربابنة السفن قبل دخولهم أى ميناء أن يحصلوا على تصريح من موظفى الميناء بالدخول ، ولم تنفذ هذه القاعدة الا فى الحالة التى تتقدم فيها ثلاث سفن كبيرة بخلاف السفن التجارية · ومع ذلك يحتفظ موظفو الملك بالحق فى

(٨٤) Mas Latrie III, 747 et ss.

التحقق من شخصية المسافرين عند وصولهم ، ويجب أيضـا اخطارهم مقدما برحيل السفن الجنوية حتى يتوفر لهم الوقت الكافى للتأكد من أن جميع الأشـخاص الموجودين على ظهـر السفينة معفون من الالتزام بالحصول على اذن خاص من الملك بالرحيل (٨٥) •

وهكذا ففى ختام الفترة التى ندرسها ، كان الجنويون قد نالوا كل مايرغبون • لقد كادوا يهاجرون هجرة جماعية مرتين ، فى أكتـوبر ١٣٦٤ ، ثم فى فبراير ١٣٦٥ (٨٦) ، ولحسن حظهم استطاعوا فى كل مرة أن يتجنبوا هذه النهاية • وكفلت المعاهدة الجديدة لجاليتهم ظروفا معيشية ملائمة كل الملاءمة • ومرت الظروف المعيشية لهذه الجالية فى عدة مراحل : ففى البداية ، بعد سقوط عكا بقليل أوفدت جمهورية جنوا « بوتستات ••• » potestas et visecomes هو ماتيو زكاريا (١٢٩٢) Matteo Zaccria ؛ ولابد أن هذا اللقب الرفيـع قد أثار فى أعين الغرب الأهمية التى حظيت بها حديثـا مملكة الجزيرة (٨٧) (أى قبرص) ، صـار الشخص الذى نال هذا اللقب رئيس الجنويين كلهم فى قبرص • ونجد فى عام ١٣٠٠ تنظيما آخر ، فثمة اثنان يحملان لقب rectores januensium in Cypro (وهما شبيهان بالقنصلين العموميين فى سوريا فى أواخر عصر الدول اللاتينيـة) ، والى جانب هاتين الشخصيتين ، أو بالأحرى تحتهما حـاكم rector يذكر أحيانا بلقب قنصل ، ملحق بنوع خاص بجالية فاماجوستا (٨٨) •

غير أن هذا النظام لم يدم طويلا ، وحل محله نظام آخر نهائى • فمنذ عام ١٣٢٩ (٨٩) وحتى النهـاية ، دون انقطـاع كان فى قبرص بودستات ، وهو رئيس الجنويين كلهم فى الجزيرة ، يعاونه سـتة مستشارين (٩٠) ، ويساعده ضباط sergents يصل عددهم الى عشرة

---

(٨٥) انظر وثيقة الصلح المؤرخة ١٨ ابريل ١٣٦٥ فى :
— Le Lib jur. II, 132 et ss.; Mas latrie, II, 254 et ss.;
ـ ويذكر ماشير النقاط الرئيسية فى :
Machairas, Chronique, op. cit., p. 80-83 :

(٨٦) Machaires, p. 77.

(٨٧) Lib. jur., II, 276.

(٨٨) Archiv. de l'Or lat, II, 2, p. 11, 20, 24, 25 et s.

(٨٩) Mas Latrie, II, 158; Assises de Jérusaelm, II, 385, Machairas, p. 62 75 et ss., etc.

(٩٠) Off. Gaz. p. 340.

حسب المعاهدة التي لخصناها (٩١) ، ومقره فاماجوستا ، وتعطيه المعاهدة الحق في منزل يبنى على نفقة الدولة ، ويتصل برواق خارجي عن طريق بوابة ، ويدير شئون كل الجنويين الموجودين في الجزيرة من تجـــار وغيرهم ، ويدافع عن مصالحهم أمام موظفي المملكة ، وهو القاضي الذي يتولى الفصل في القضايا المدنية والجنائية كالسرقة والقتل والخيانة التي يكونون طرفاً فيها (٩٢) • ويضم الى هذه الوظائف العامة الادارة المباشرة لأكبر جالية (في الجزيرة) • وفي المدن الأخرى حيث توجد جاليات أصغر عدداً ، يوجد قناصل أو مديرون recteurs يؤدون وظائفهـــم بموجب انتداب من البودستات •

ويبدو أن البنادقة قد لعبوا في قبرص في تلك الآونة دوراً دوراً أقل شأناً من دور الجنويين فيها ، الأمر الذي لم يمنعهم مع ذلك من أن تثور منازعات كثيرة بينهم وبين ملوك البلد • وقد فتحت معاهدة عام ١٣٠٦ — المفيدة كثيراً لهم — فتحت للتجارة بين البندقية وقبرص عهداً من الرخاء السريع (٩٣) • ومع ذلك فمنذ بداية حكم هوج الرابع (١٣٢٤ — ١٣٥٩)، انبثق خلاف وقتي : ذلك أن بيتروزينو Pietro Zeno الذي كلف بأن يحمل الى الأمير تهاني الجمهورية بمناسبة ارتقائه العرش طلب في هذه المناسبة زيادة كبيرة في الحقوق الممنوحة لأمته في اقليم قبرص دون أن يقدم شيئاً في مقابل ذلك ، ومن ثم صاغ الملك اجابته بعبارات غامضة تسويفية (٩٤) ولم يقبل مجلس شيوخ البندقية هذه الاجابة ، وحظر على اتباعه الذهاب الى قبرص ، وأمر الموجودين منهم في الجزيرة بمغادرتها على الفور (٩٥) •

ولكن هوج لم يفزع من مثل هذا التصرف القليل الأهمية : فالواقع أن المعاهدة التي أنهت الخلاف في عام ١٣٢٨ (٩٦) بعد مفاوضات عسيرة

(٩١) Mas Latrie, II, 259.

(٩٢) لم يعد للملكية من نفوذ ، حتى ان الموظفين الملكيين لم يعد لهم من عمل سوى تنفيذ الأحكام التي يصدرها البودستات في القضايا الهامة تنفيذاً أعمى ، وهي القضايا الخاصة بجنويين •

(٩٣) Actes du Sénat publiés par M. de Mas Latrie, II, 133 et s.; l'Archiv. Venet., XVIII, 317-319.

(٩٤) Mas Latrie, II, 137 et ss.

(٩٥) Ibid, II, 135 ; Archiv. Venet., XVIII, 319 (extr. du livre IX des Misti)

(٩٦) Mas Latrie, II, 142 et s.; Archiv. Venet. XVIII, 320 et s.

ليست الا نسخة من معاهدة ١٣٠٦ مع تغييرات واضافات لا أهمية لها . ولم يكتسب البنادقة سوى منشأة جديدة فى بافو (بافوس) (٩٧) ، وتسنى للتجارة مع ذلك أن تستعيد سيرتها الأولى ، وواصلت نشاطها بلا انقطاع (٩٨) فيما عدا واقعتين : ففى عام ١٣٤٩ اضطربت المشاعر فى وقت ما لوقوع فتنة لم يعرف لها سبب ، أغارت فيها عصبة مسلحة من أهالى صقلية وقبرص رواق البنادقة فى فاماجوستا (٩٩) . وفى عام ١٣٥٠ اندلعت الحرب البحرية الكبيرة بين البندقية وجنوا ، وفى هذه الحرب نجحت البندقية ذات مرة فى أن ترسل الى فاماجوستا قافلة من تسع سفن تجارية مكلفة بأن تحضر منها تجارا وبضائع . على أن مثل هذا العمل كان عرضة لمخاطر كبيرة فلم يتسن تكراره . ولم يستتب أمن الملاحة بالكامل الا بصلح عام ١٣٥٥ (١٠٠) .

وعندما خلف بطرس الأول (١٣٥٩ ــ ١٣٦٩) هوج ، حملت اليه البندقية تهانيها بمناسبة توليه الحكم ، حملها اليه جيوفانى داندولو Giov Dandolo وپانتاليونى باربو Pantaleone Barbo (١٣٦٠)، وأبدى الملك الجديد استعدادا أكبر من استعداد أبيه لتحقيق رغبات الجمهورية ، فلم يكتف بتجديد معاهدة ١٣٢٨ ، بل منح البنادقة امتيازا يقضى بأن الذين يدانون لارتكابهم جرائم قتل يجب مستقبلا الا يقدموا الى محاكم البلد ، بل يحالوا الى قضاء الملك الذى يباشره بنفسه ، وأصدر الى عملائه فضلا عن ذلك أمرا شديدا بأن يعاملوا المعاملة الواجبة للرعايا البنادقة كل شخص يطالب بهذه المعاملة بشرط أن يقدم شاهدين يضمنان جنسيته ، وأن ينجزوا أوراق السفن الفينيسية المسافرة بمجرد أن تنفذ هذه السفن لوائح أمن الميناء (١٠١) . وأبدى من جهته أمله فى أن تتخذ الجمهورية اجراءاتها لمنع دخول أى شخص بصورة مخالفة للقوانين مما يسبب اضطرابا فى المملكة ، ومنع أى

---

(٩٧) L ib-Pact; Taf. et Thomas, Der Doge Andr. Dandolo, p. 126.

(٩٨) Mas Latrie dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 90 et ss. : Monum. spect. hist. Slav. merid., II, 214.

ــ فى ذلك العصر لم تكن القوافل التى تتكون كل منها من ثمانى سفن شراعية حربية (قواديس) والمرسلة الى قبرص بالحدث الشاذ .

(٩٩) Mas Latrie, dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 102 et s.

(١٠٠) Sanuto, Vite dei dogi, dans Munrat., SS. XXII, p. 625, 640.

(١٠١) Mas Latrie, II, 228-232.

تهرب من الضرائب والرسوم . وفى عام ١٣٦١ ، أوفد سفارة الى البندقية تحمل عدة شكاوى فى هذا الخصوص :

ولم يسع حكومة البندقية أن ترفض اعطاءه ضمانات عن الموضوعات التى ذكرها ، ووعدت بأنهـا سوف تبذل فى المستقبل مزيدا من الدقة والعناية فى اعطاء شهادات الجنسية الفينيسية ، وأن ربابنـة سفنها لن يسمحوا بركوب رعايا قبارصة ، سواء كانوا جنودا مرتزقة أو عبيدا ليس معهم جوازات سفر ، وأن تجارها لن يشتركوا فى الغش والاحتيال بأن يصرحوا بأن ثمة بضائع هى بضـــائعهم فى حين أنها تخص أفرادا خاضعين للرسوم الجمركية . وبعد تسوية هذه المسائل طلب السفراء القبارصة فى مقابل ذلك اعفـــاء مواطنيهم من الرســوم الجمركية فى البندقية كما يعفى البنادقة منها فى قبرص ، ولكن مجلس الشيوخ رفض هذا الطلب رفضـــا باتا بدعوى أن دولا أخـــرى ســـوف تطالب بهذا الاعفاء (١٠٢) .

ولم تصل المزايا الممنوحة للبنادقة بالمرة الى مدى الامتيازات التى منحها بطرس الأول للجنويين عام ١٣٦٥ : من ذلك مثـــلا أنه لم يكن مرخصا لـ « بايلاتهم » بالفصل فى جرائم القتل . ومع ذلك كان وضعهم هاما لانهم يمثلون أمة من الأمتين الأكثر رعايـة ؛ فوظائفهـم ووظـائف مستشاريهم الاثنى عشر (١٠٣) المكلفين بالتدخل رسميا فى كل أنحاء الجزيرة التى يوجد بها بنادقة ، ووظائف عملائهم الثانويين فى نيقوسيا ، وليميسو ، وبافو لم تكن وظائف بلا سلطة ، لأن مواطنيهم يستفيدون من المزية التى يتيحها لهم الاعفاء من الضرائب ليزاولوا مع الجزيرة تجارة نشيطة . وكان هناك من جهة أخرى عدد من الأسر النبيلة ، نذكر منها فقط أسرة كورنارو Cornaro اشترت فى قبرص ممتلكات أقامت فيها اقامة دائمة .

والثابت أن قبرص كانت فى عهد رخائهـا ملتقى السفن التجارية والتجار الذين ينتمون الى كثير من الأمم الغربية الأخرى ، ولكن ليس هناك فى ذلك أسانيد مكتوبة ، وبخاصة فى شأن أولئك الذين لم يكونوا يتمتعون باعفاءات وامتيازات خاصـــة . وفى القوائم المقارنة للنقود والموازين والمكاييل التى رأى بيجولوتى ضرورة وضعها لعدد كبير من البلاد من جهة ، ولفاماجوستا من جهة أخـرى ، اذ كان تحويل هذه القيم ضرورة

---

(١٠٢) Ibid, II, 233-235.

(١٠٣) Ibid, II, 228, 235, 358.

يومية للتجارة ، لانجد سوى أسماء بارليتا Barletta ، وتابولى ، ونيم Nimes ، ومونبلييه ·

ويضيف بيجولوتى الى قائمته بيانا بمصاريف النقل من هذه المدن الى قبرص ، وبالعكس (١٠٤) ، وهذا برهان أكيد على وجود نشاط كبير فى المبادلات التجارية · وفيما يختص بنابولى ، نجـد أيضا فى مناسبة الأحداث الدموية التى عكرت صفو أعياد التتويج فى فاماجوستا عام ١٣٧٢، أن ماشيراس Machairas يتحدث عن الأمم التى كان لها منشئات دائمة فى هذه المدينة فيذكر أهالى نابولى الى جانب القطالونيين والبروفنسيين ، والفلورنسيين ·

ثانيا ــ مصر وسورية

أثار سقوط عكا مشاعر العالم المسيحى الغربى كله · وكما يتوقع المرء ، أعقب لحظة الذهول الأولى مجموعة من الاتهامات التى وجهت أساسا الى البلدان التجارية لأنها كانت تقيم حتى آخر لحظة علاقات تجارية مع مصر ، وبذلك أسهمت فى زيادة موارد العدو · غير أن بلاط روما لم يشأ أن يترك فورات الغضب هذه تتبخر فى عبارات لا جدوى منها ، اذ أرادت استثارة العالم المسيحى من جديد وتنظيم صلات صليبية جديدة ·

ولابد من التسليم بأن حملة جديدة على فلسطين أصبحت من ذلك الحين عملية شديدة الصعوبة لأن الفرنجة لم يعودوا يملكون ثمة قيراطا من الأرض ، وأن جيشا غازيا سوف يجد نفسه معزولا ، لايملك فى القارة نقطة واحدة يرتكز عليها ، سوى أرمينيا ، وهى بلد غير صحى ، بعيد كثيرا عن ساحة النضال · وكان البابوات يعرفون ذلك ، ويعرفون أيضا فتور شعوب وأمراء ذلك العصر ، مما يشكل عقبة كؤود فى سبيل تعبئة الجيوش الكبيرة التى يتطلبها مثل هذا المشروع ، ومن ثم أرادوا ، دون أن يفقدوا رؤية هذا الهدف ، أن يراعوا كل ضروب الحذر والتأنى فى اعداد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية · ولم تعوزهم الآراء ، سواء التى طلبوها أو التى لم يطلبوها : ونصح الرجال الذين كانـوا أعرف من غيرهم بشئون الشرق بالعمـل قبـل كل شىء على اضعاف العدو باستنزاف مصادر قوته ورخائه ·

(١٠٤) Regol., p. 82 et s., 88.

وللحصول على هذه النتيجة ، كانت هناك المراسيم الكنسية القديمة التى تحظر بيع أى شىء الى المسلمين ، مما يمكن تحويله إلى أداة حربية ، فاذا أمكن تنفيذ هذه المراسيم ، ومراعاتهـــا كان ذلك كسبا كبيرا • فالواقع انه لما كان المصريون قليلى المعرفة بفنون القتال ، لايقدرون على تحمل اعباء الحرب ، فقد عبا السلاطين جيوشهم باستخدام العبيد الذين يشتريهم العملاء أو التجار المسلمون والمسيحيون من بلاد الشـــمال ، وبخاصة من ضفاف البحر الأســـود ، ويتدربون فى مصر على الفنون العسكرية (١٠٥) فلو امكن تحريم هذه التجارة بشدة ، ومنعها بغارات بحرية ، لوقع السلاطين فى ضيق شديد ، واضطروا لتعبئة جيوشهم من عناصر أقل كفاءة • وهناك نقطة ثانية هامة : ذلك أن مصر لا تنتج حديدا أو خشبا ، فكيف يتسنى للسلاطين أن يسلحوا جيوشهم ويبنوا سفنهم الحربية اذا توقف ورود هذه المواد ؟

وليس هذا كل شىء : فهذا البلد (أى مصر) يقطعـــه فى كل الاتجاهات قنوات وترع ، وتجرى غالبية الحركة التجارية فيه بواسطـة المراكب : ويدين البلد بالجزء الأكبر من خصوبته لهذه القنوات المنظمـة بعناية : هذه المراكب ، وهذه القنوات مصنوعة من خشب ، وهذا الخشب لابد من اســـتيراده (١٠٦) • وعلى ذلك كان يكفى تطبيق الحظر الذى أصدرته الكنيسة ضد توريد الحديد وخشب البناء والأسلحة لبـــلاد المسلمين لاضعاف القوة العسكرية فى مصر ، والرخاء المادى للسكان • وحتى اذا أريد تطبيق القانون باقصى مداه ، فلابد أن يشـــمل الحظر المواد الغذائيـــة (١٠٧) التى كانت مصر تاخذ معظمها من الخارج رغم خصوبة تربتها •

وكان أولئك الذين اعتزموا شن حرب حقيقية ضد المسلمين يريدون دفع الأمور الى مدى أبعد من هذا ، فكانـــوا يرون ضرورة منع المسيحيين كلهم من أن يحملوا الى المسلمين أو يحضروا من عندهم بضائع من أى

---

(١٠٥) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 120, et s., 274; Sanuto, Secr. fidel. cruc., p. 27; Haython Hist orient. cap. 50, 54; Piloti, p. 331 et s.; Lannoy, éd. Potvin, p. 118; Tafur, p. 80.

ـ المعروف ان سلاطين مصر ونوابهم يخرجون من صفوف هؤلاء العبيد ، أى المماليك •

(١٠٦) Mas Latrie, Op. cit., p. 120 et s.

ـ انظر فى هذا المرجع ملاحظات السفراء الذين أرسلهم هنرى الثانى ملك قبرص الى البابا كليمنت الخامس ، فى عصر مجمع فينا ، وملاحظات سانوتو ، ص ٢٥٠ وما بعدها •

(١٠٧) Capmany, Memor. II, 36 et s.

نوع ، وباختصار قطع كل علاقة تجارية معهم • وكان فى عزم أولئك الذين فكروا فى هذه الخطة الكبيرة أن يقتصر تطبيق هذه الاجراءات أول الأمر على رعايا سلطان مصر • غير أنه لما كان أتراك آسيا الصغرى من جهة ، وعرب البربر (١٠٨) وأسبانيا من جهة أخرى يمارسون التجارة مع مصر ، كان لابد منطقيا من وضع حدود للعلاقات بين هذه الشعوب ، بمعنى الامتناع عن شراء بعض منتجاتهم اذا ثبت ، أو ثار الشك فقط فى أن هذه المنتجات وردت مباشرة من مصر ، أو من الهند عن طريق مصر ، وبمعنى الا تظل التجارة القديمة كما كانت ، مع فارق واحد ، هو خلق وسطاء آخرين • وبالطبع لايجوز التساهل مستقبلا فى وجود بضـــائع مصرية المصدر فى مخازن جزر البحر المتوسط أو اليونان (١٠٩) •

كل هذا أعد بناء على حسابات بالغة الدقة • فالواقع أن مصر فى ذلك الأوان كانت تستمد جزءا كبيرا من ثروتها من تجارتها مع الغرب ، وخاصة من حاصل المبادلات التى تتم بوساطتها بين آســـيا وأوروبا ، فكان توقف هذه التجارة حقيقيا بأن يقضى على أحد مصادر الثروة العامة • فضلا عن ذلك ، كانت البضائع التى ترد على اقليم السلطان تدفع رسوم دخول وخروج مرتفعة جدا حتى ان المبالغ التى تدفعهـــا ثلاث أو أربع سفن تساوى قيمة شحنة سفينة كاملة منها (١١٠) ، وكانت المراكب التى تنقل البضائع على القنوات والترع تخضع لرسم يبلغ ثلاثة دنانير ذهبية ونصف دينار عن كل مركب (١١١) ، ومن ثم كان توقف التجارة يحدث فراغات كبيرة فى خزائن الدولة •

هذى هى الفكرة التى كانت توجه نيقولا الرابع حين نشر فى العام الذى سقطت فيه عكا مرسوما يحرم توريد الأسلحة والخيل والحديد والخشب والمواد الغذائية وغيرها للبلاد كلها الخاضعة لحكم السلطان ، والا وقع على المخالفين أولا عقوبة الحرمان ، وثانيا الاعلان بأنهم ملعونون.

---

(١٠٨) فى العصر الذى كان فيه رامون مونتانر Roman Muntaner فى خدمـــة فردريك ملك صقلية حاكما لجزيرة جربة الواقعة بالقرب من الساحل الأفريقى بين تونس وطرابلس (١٣٠٨ ـ ١٣١٣) ، كان فى تلك الجزيرة مستودع للبضائع المصرية ، ولابد أن الصقليين والقطالونيين كانوا ينتفعون بهذا المستودع • انظر :
— Zurita, Anales de Aragon, Saragossa 1610, II, fol. 19.

(١٠٩) Sanut, p. 28 et s.

(١١٠) Sanut., p. 23, 25 ; ibid. p. 24 ; Mas Latrie, Op. cit., p. 121; Baluze, Vitoe paparum Avenionensium, II. 180.

(١١١) Sanut., p. 25.

الى الأبد ، ومجردون من حقوقهم المدنية والوطنية ، ومن أهليتهم لأن يوصوا أو يرثوا (١١٢) • وجدد البابا هذا الحظر فى مرسوم بابوى موجه الى حنوا ، حيث أعلن صراحة أن تحريم زيارة البلاد الاسلامية هو فى معناه تحريم مطلق ، الغرض منه اضعاف موارد السلطان بحرمانه من الأموال التى يحصل عليها من التجارة (١١٣) ، وفى جنوا ، اعتبر هذا المرسوم قاسيا جدا sententia durissima (١١٤) • وفيما بعد أنقص نيقولا الرابع الى عشر ســـنوات مدة الحظر فيما يختص بالمواد الغذائية ، الا أن هذا لم يؤد الى أية نتيجة • وفى عام ١٢٩٩ مد بونيفاس الثامن Boniface VIII الى عشر سنوات الحظر الخاص بتصدير المواد الاستهلاكية الى مصر (١١٥) ، ومدت المهلة بعد ذلك الى مالانهاية • ومن جهة أخرى ، وباستثناء النبيذ والزيت والقمح ، الخ فان عبـــارة alia quoecumque mercimonia شملت بعموميتها مجموعة من المواد الأخرى التى كان بيعها للمسلمين يعود بأرباح للتجار الغربيين • وأبقى على هذا الحظر بأقصى مداه العام بونيفاس الثامن (١١٦) (١٢٩٤-١٣٠٣)، وبنوا الحادى عشر Benoît XI (١١٧) (١٣٠٣ - ١٣٠٦) •

ومع ذلك ففى هذه الأثناء أعاد الأول منهما فى عام ١٢٩٥ قوانين مجامع دينية قديمـــة تنطبق فقط على توريد الأدوات الحربية (١١٨) ، كما صرح الثانى شفاهة بأن فى امكان البنادقة أن يصدروا الى مصر كل المواد التى لم تذكر بنوع خاص فى قراره البـابوى (١١٩) ، كالجـوخ

---

(١١٢) Raynald., Annal. eccl., a. a. 1291, no 27.

(١١٣) Raynold, Op. Cit., no. 26.

(١١٤) Annal, Jan. p. 341.

(١١٥) Bullarium romanum, éd. Taurin, IV, 152-155.

(١١٦) Bref. de l'an 1297 aux evêques de Barcelone et de Tortosa, communiqué par Navarrete, dans les Memorias de la R. Academia de historia, V. Madr. 1817, p. 179, et Bulle du 16 Avri 1199, dans le Bullarium romanum, éd. Taurin 1.c.

(١١٧) Bulle de 1304 (Taf. et Thom., IV, 20 et s.) communiquée aux Venitiens avec avis de s'y conformer, le 5 avril de la Même annde (Ibid, IV ,19 et s.)

(١١٨) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 92.

(١١٩) Commem., I, p. 38, no 166 ; Registres de Bevoit XI, éd Grandjean, p. 84 et s., 87, 249.

والثيــاب وعلى ذلك فما الذى حدث ؟ اما أن التعبيرات التى وردت فى القرارات البابوية كان من طبيعتها أن تفسر بأن الحظر لاينطبق الا على المواد المصنفة على أنها من مواد التهريب الحربى ، واما أن القـــرارات البابوية لم تنشر بدرجة كافية (١٢٠) • كذلك كان هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أن التجارة مع مصر مشروعة طالما لاتتناول سوى مواد غير ضارة بلا شك • ومع ثم فان البابا كليمنث الخامس Clement V حين راح يعــد العدة للقيام بحملة صليبية جديدة ، بــدأ فى خريف عام ١٣٠٨ بنشر العديد من القرارات البابوية التى يتضح منها بصورة لاتقبل الشك أن البضائع كلها دون استثناء تقع فى نطــاق التحريم ، وأنذر المخالفين بمصادرة أموالهم ، وفقد حريتهم ، وتسليمهم كرقيق لمن يقبض عليهم ، ووصمــــهم بالعــار وما يترتب على ذلك من نتائج ، بالاضافة الى الحكم عليهم بالحرمان الكنسى الذى لايمكنهـم التحلل منه الا بالتنازل لصالح الحملة الصليبية عما حصلوا عليه من مكاسب من تجارتهــم غير المشروعة ، وبشرط أن يحصلوا بذلك على اذن خــاص من البابا (١٢١) •

ويبدو أن هذه الأعمال تمت تنفيذا للنصائح التى أسداها وطورها البندقى مارينو سيـانوتو الكبير Marino Sanuto l'ancien الملقب بتورسيللو Torsello فى الكتــاب الأول من مؤلفــه Secreta fidelium crucis : ويكفى فى الواقع أن نذكـر أنه اذا كان المؤلف الذى يشكل هذا الكتاب جزءا منه لم يتم الا فى عام ١٣١٣، فان الكتاب نفسه قد تم وضـعه قبـل ذلك بزمن طويل : اذ حرر بين شهر مارس ١٣٠٦ وشهر يناير ١٣٠٧ ، ووجهه مؤلفه فى صورة مذكرة الى البابا كليمنث الخامس (١٢٢) ، وكان تأثيره اذن واضحا كل الوضوح•

ولما استشار البابا فى هذه الآونة الرئيس الأكبر لرهبـان المعبد « مولاى Molay » ، حرر هذا مذكرة موجزة تنتهى بأنه يجب أن يفـرض على الأمم التجـارية أن توقف تجـــارة تعود بالربـــح على

---

(١٢٠) Sanuto, p. 21 ; Voyez aussi le manuscrit de Sanuto d'Emeram, publié par M. Kunstmann dans ses Etudes sur Marino Sanuto l'ancien.

(١٢١) Encyclique du 12 oct. 1308, dans Taf et Thom., IV, 74 et s.; brefs spéciaux dans les Commem. reg., I, p. 89, no 381, et dans Raynold, Annal. eccl., a 1308, no 36.

(١٢٢) Kuntsmann, Op. cti., p. 705 et s.

المسلمين (١٢٣) • وقد عرض ريمون لول Raymond Lulle في كتابه بعنوان De fine الذى كتبه فى مونبلييه عام ١٣٠٦ أفكارا مماثلة : ففى رأيه أنه يكفى أن يمتنع المسيحيون ست سنوات فقط عن شراء توابل من المصريين ، والا يزوروا بعامة الاسكندرية أو سورية ، وذلك لايقاع الخراب بالسلطان وأمبراطوريته حتى تغدو الحملة الصليبية مشروعا خاليا من الصعوبات (١٢٤) •

ولابد أخيرا أن البابا كان على علم بتاريخ الشرق الذى كتبه فى أغسطس عام ١٣٠٧ الأمير هيتون Hayton (Hethoun) رئيس دير كهنة بواتييه Premonties de Poitiers (١٢٥) : فهو أيضـــا يوصى ـ كاعداد فعال للحملة الصليبية ـ باتخاذ اجراءات تستهدف ايقـــاف التصدير الى مصر ، من شـأنها بالضرورة حرمان هذا البلد من المعدات الحربية وكمية من أشياء أخرى ، ومع ذلك لا يبـالغ فى منطقه الى حد تحريم التجارة تحريما تاما (١٢٦) • وبعد بضـع سنين ، وعند عرض موضوع الحملة الصليبية على مجمع فيينا الدينى (من أكتوبر ١٣١١ الى مايو ١٣١٢) ، طلب كليمنت الخامس رأى هنرى الثانى ملك قبرص فى الحملة والاستعدادات اللازمة لهـا ، وتوضح المذكرة التى قدمهـــا الى المجمع سفراء الملك ، بأمثلة ملحقة بها كيف أن « المسيحيين الآثمين » أسهموا فى انماء مقاومة سلطان مصر بامداده ليس فقط بالمعدات الحربية، ولكن أيضا بمواد أخرى ، وانتهت بتحريم كل تجارة مع هذا البلد (١٢٧) •

لكن كيف يتسنى الوصول الى هذه النتيجة ؟ لقد رأى كل انسان أن تهديدات البابا على قدر شدتها لم تكن كافية • وقال الأشخاص الذين استشيروا فى هذا الشأن بضرورة تجهيز عشر ســـفن حربيـة تجول باستمرار فى البحر المتوسط ، وخاصة بين آســـيا الصغرى ومصر ، وتهاجـم فى عرض البحر ، وتطـــارد عند الضرورة الى الموانىء السفن

---

(١٢٣) Baluze, Vita papar. Avenion, II, 180.

(١٢٤) M. Kuntsmann, Op. cit., p. 723 et s.

ـ تبعا لدبينج (Hist. du commerce, II, 192) فإن ر. لول R. Lulle يكون قد قدم للبابا نيقولا الرابع فى عام ١٢٨٨ الأفكار والمقترحات نفسها • ومع ذلك فمن الصعب التسليم بأنهم انهمكوا فى وضع خطة لحرب صليبية عامة قبل سقوط عكا •

(١٢٥) Histoire littéraire de la France, XXV, 481.

(١٢٦) Historia orient., cap. 56.

(١٢٧) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 118 et ss.; Mas Latrie, p. 128 et s.

التجارية المسيحية أو المسلمة التى تضبط متلبسة بجريمة الاتجار مع هذه البلاد . ولما كان من المتوقع الاستيلاء على غنائم كبيرة ، فيجب لاستثارة حماسة البحارة ، مع عدم صرف مرتبات كبيرة لهم أن تترك لهم الغنائم كلها . ويجب ألا يتولى تموين هذا الأسطول احدى الجمهوريات الكبيرة أو احدى الممالك التى تمارس نوعا من التجارة ، كما لايجوز أن يكون قائدها من رعايا واحدة من هذه الجمهوريات أو الممالك ، اذ يخشى الا يهاجم الا الأجانب ، ويترك مواطنيه يمرون بسلام فيستفيد هؤلاء فائدة مضاعفة : كما لايجوز أن يتولى هذه الوظيفة أى شخص يخشى أمرا من جانب الأمم التجارية (١٢٨) .

كل هذا قد فهمه نيقولا الرابع ، قبل كليمنت الخامس ، وقبل وفاته بقليل أصدر أمرا الى فرسان القديس يوحنا ، وفرسان الهيكل بأن يجهزوا عشرين سفينة فى مياه قبرص ، لحماية هذه المملكة ، ومملكة ارمينيا ، ومحاربة المسلمين والقبض على كل سفينة تحاول الوصول الى بلد خاضع للسلطان . وبعد وفاته (١٢٩٢) عكف الكرادلة على تحقيق رغبته ، وكلفوا مانويل زكاريا بتشكيل أسطول يتولى قيادته ، وأن يزود الأسطول باثنتى عشرة سفينة ، ويزوده مواطنه الجنوى تديزيو دوريا Tedisio Doria بثمانى سفن . وفى البداية خلق بودستات جنوا بعض المصاعب ، وهدد هذين النبيلين بغرامة لأنهما قبلا أن يؤديا خدمة فى الخارج دون تصريح منه . ومع ذلك حصل الكرادلة على عفو عن هذين الجنويين لما بذلاه من الحاح وتهديد ، ونال الاثنان اذنا بالالتحاق بخدمة الكنيسة لسنة واحدة (١٢٩) ، وارتحلا على رأس عشرين سفينة انضم اليها فى قبرص خمس عشرة سفينة أخرى ، وضعها الملك تحت تصرفهما : وبهذه القوات مضيا يستعرضانها أمام كانديلور Candelore والاسكندرية ، دون أن يحصلا على نتيجة فعالة (١٣٠) .

وبعد هذه المحاولة الأولى ، جرت محاولة ثانية على ما يبدو فى عام ١٢٩٣ بست سفن فينيسية مجهزة على نفقة فرسان الهيكل لحماية قبرص (١٣١) . وبعد قليل الغيت هيئة فرسان الهيكل ، وورثت

---

(١٢٨) Sanut., p. 27-31; Mas Latrie, II, 118 et ss.; Baluze, Op. cit., p. 179 et ss.; Raim. Lulle, cité par M. Kunstmann, Op. cit., p. 723.

(١٢٩) Annal. Jan., p. 342.

(١٣٠) Sanut, p. 232.

(١٣١) Annal. Jan., p. 362.

رسالتها هيئة فرسان القديس يوحنا . وفى عام ١٣٠٨ عهد اليها البابا كليمنت الخامس صراحة بمراقبة القسم الشرقي من البحر المتوسط ، وضبط المسيحيين الذين يتجرون مع مصر ، وكفل لها اعانات مالية خاصة لهذه الخدمة (١٣٢) . ونقلت هيئة فرسان القديس يوحنا مقرها الرئيسى من قبرص الى رودس (١٣١٠) ، ولم تهمل مع ذلك المهمة التى عهدت اليها (١٣٣) ، ومن ثم نشأ كما سنرى نزاع شديد بينها وبين جنوا . ومن جهة أخرى طارد ملوك قبرص بسفنهم السفن الغربية التى تصادفها على طريق مصر ، فى الذهاب والأوبة . وأنبأ سفراء الملك هنرى الثانى فى مجمع فيينا الدينى (١٣٤) بأن السفن الحربية القبرصية أسرت على هذا النحو عددا كبيرا من السفن التجارية ، وضربوا مثلا لذلك سفينة جنوية أسرت أخيرا بينما كانت مبحرة من آسيا الصغرى الى مصر وعليها شحنة من خشب البناء (١٣٥) ، وأضافوا أنه لم يجرؤ انسان على الخروج من قبرص أو من الموانىء المجاورة فى هذا الاتجاه خشية الوقوع فى أسر سفن الملك الحربية التى كانت تؤدى مهمة كلفها بها البابا نفسه . يبدو اذن أن سانوتو لم يكن على صواب تام حين كتب أن ملك قبرص قام بعدة جولات بحرية فى سفنه الحربية دون أن يتعرض له أحد (١٣٦) واتبع هوج الرابع سياسة سلفه ، ولما اشتكت جمهورية جنوا من الأضرار التى لحقت ببعض رعاياها ، برر ذلك بأنه لم يفعل سوى « تنفيذ أوامر كنيسة روما » .

وأخيرا (١٣٧) ، يبدو أن بعض القباطنة مارسوا أيضا عمليات

---

(١٣٢) Raynald, a. a. 1308, no. 34; Paoli, II, p. 19, 31.

(١٣٣) Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 683; Aboulféda (Annal. muslem, éd. Reiska, V, 211.

(١٣٤) Mas Latrie, II, 121 et ss.

(١٣٥) نجد مثالا آخر من هذا النوع فى وثيقة نشرها كابمانى :
Capmany, II 374 et s. :
ففى شهر نوفمبر عام ١٣٠٠ ، قبضت أربع سفن حربية قبرصية على سفينة من ماجورقا اعتقادا بأنها ذاهبة الى مصر ، فى حين أنها كانت قاصدة كانديا . انظر أيضا :
Capmany, II, 374 et s :

(١٣٦) ص ٣١ ، ملحوظة هامشية ، يبدو غالبا أن هؤلاء السفراء كانوا يشيرون الى الكتاب البابوى الذى حرره البابا بونيفاس الثامن الى الملك فى عام ١٢٩٩ ، أنظر :
— Raynald, a.a. 1299, n. 38.

(١٣٧) Mas Latrie, II, 156.
— ترجع هذه الواقعة الى عام ١٣٢٩ ، ولكن فى عام ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ استلم الملك من البابا يوحنا الثانى والعشرين أوامر جديدة للتحرك :
— Raynald, a.a. 1323, no. 12, 1324 no 43.

المطاردة هذه باسم الكنيسة : فهل كانوا يستجيبون دائما لبواعث دينية ، أو يسعون فقط للحصول على مكاسب مادية ؟ مثال ذلك أنه فى عام ١٣٠٣ جال شخص يدعى مارينو بولجارو Marino Bulgaro وهو فى الغالب جنوى النشأة ، فى مياه جزيرة كريت ، وطارد كل السفن المتجهة الى الاسكندرية (١٣٨) كانت هناك اذن لحظة حرجة بالنسبة الى أمم الغرب التجارية : فالطريق الجنوبى ، ذلك الذى يقر سانوتو بان أوربا تتلقى منه الجزء الأكبر من توابل الهند ، كان يبدو انه أصبح غير صالح بالمرة ، وكانت الكنيسة التى طالبت بتحريم استخدامه فى التجارة قوية (١٣٩) • فما هو الموقف الذى اتخذته الأمم التجارية ازاء مراسيم البابوات ؟ هل أدخلت فى تشريعها دون مناقشة أحكاما تحظر على التجار زيارة البلاد الخاضعة للسلطان ؟ هل قبلت عن طيب خاطر الاجراءات التى أمر بها الكرسي الرسولى (الفاتيكان) وتستهدف الغاء التجارة ؟ هذى مجموعة من الأسئلة التى سنحاول أن نجد اجابة لها •

ولنبدأ باسبانيا التى ارتقى فيها جيمس الثانى Jayme II عرش أراجون فى فترة سقوط عكا تقريبا • ولما حكمت عليه الكنيسة بالحرمان ، وأحاط به الأعداء من كل الأنحاء ، لم يتردد عام ١٢٩٢ فى تجديد معاهدة التحالف التى كان قد ابرمها منذ عدة سنوات مع سلطان مصر ، مثلما فعل من قبل أخوه وسلفه الفونس الثالث ؛ وفى المعاهدة الجديدة ، لم تمس الشئون الخاصة بالعلاقات التجارية (١٤٠) • وفيما بعد ، حين نال عفو البابا بونيفاس الثامن ، تعهد بالوفاء بالالتزام الذى يفرضه عليه لقبه : « حامل العلم ، وكابتن ، وأميرال عام الكنيسة الرومانية » بالعمل على اعادة فتح الأرض المقدسة (١٤١) • وفى عام ١٣٠٢ ، أصدر ، من أجل الحرب ، وشرف خدمة الكنيسة الرومانية المقدسة قرارا يحرم بصفة عامة على رعاياه كل تجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان (١٤٢) • وكان ذلك تنفيذا للوعد الذى أعطاه • ولم يكن هذا القرار – حسبما يتبين من عباراته نفسها – لم يكن استنساخا للمراسيم

---

(١٣٨) Taf, et Thom inéd.; les commemoriali, p. 40, no. 176.

(١٣٩) Mas Latrie :Archiv des missions scientif., II, 374; Makrizi, dans de Sacy, Chrestom-arab, II, 48 ; Weil, Gesch. der Chalif, IV, 353, 360.

(١٤٠) Campany, IV, 17-19.

(١٤١) Raynald, a.a. 1297, nos 19 et ss.

(١٤٢) Navarrete, dans les Memorias, 1.c., p. 180, et s.

السابقة التي يطل مفعولها بسبب ضعف العقوبات التي توقع على المذنبين ، فلم يكن الأمر اذن سوى مراسيم صدرت من قبل ضد تزويد مصر بالعتاد الحربي .

ويمكن القول بأن هذا الحظر الجديد لم يكن في خاطر الملك أكثر جدية من سوابقه ، ويمكن تأييدا لهذا الرأي أن نستعرض مع فابوس Wappoeus نوعين من الوثائق ، فهناك أولا « دبلوم » (مرسوم) لهذا الملك ، في عام ١٣١٥ يتضمن قائمة بالسفن المسجلة عند مدخل ميناء برشلونة ومخرجه (١٤٣) ، ونقرا على رأس القائمة أسماء السفن المبحرة الى مصر : وينبغي تفسير عبارة ultra mar على هذا النحو ، على الأقل تبعا للغة المتداولة في ذاك الحين ، وعلى ذلك تثبت التجارة مع مصر بموجب وثائق رسمية ، ودون جدال . ويمكن الرد على ذلك بأن عبارة ultra mar ذات معنى مطاط : ففي عصر الحروب الصليبية كانت هذه العبارة تنطبق بوجه عام على الرحلات الى سورية ، طالما كانت رحلات أفرنجية ، كما استخدمت كثيرا في جهات أخرى بمعنى أوسع ، فتشمل عندئذ مصر وسورية وأرمينيا الصغرى وقبرص . وعلى ذلك ، ففي الحالة التي ندرسها لاتكون هذه الحجة دالة على التواطؤ الملكي . وثانيا ، لما كان جيمس قد أوفد الكثير من السفارات الى السلطان ليحتفظ بصداقته ، فالراجح أن المصالح التجارية قد عولجت أكثر من مرة ، على الأقل معالجة ثانوية ، غير أن عناصر الايضاح في شأن هذه النقطة الثانية لا وجود لها بالمرة .

فالخطابان اللذان عهد بهما الملك الى سفرائه في عامي ١٣١٤ ، ١٣٢٢ والموجهان الى السلطان الناصر محمد لا يحتويان الا على عبارات للمجاملة ، ولا يتبين منهما الغرض الحقيقي من مهمة الوفد (١٤٤) ، أما الفقرات الخاصة بالمهمة فانها لا تتحدث الا عن تسليم بعض المسيحيين الأسرى لدى المسلمين ، أو عن تدخل لصالح الكنائس المسيحية الكائنة في اقليم السلطان (١٤٥) . ولكن ها هي ذى واقعة ثابتة : ففي كل مرة يسافر فيها سفراء ملك أراجون (وأغلبهم من أهالي برشلونة) الى مصر ، كان يجهز لهم سفينة في برشلونة ، ولما كان الملك يهتم برخاء هذه المدينة ، فقلما ترك مثل هذه الفرصة تمر دون أن يعطي بعض التجار — مقابل عوض — اذنا بأن ينتهزوا هذه الفرصة فيرسلوا الى مصر ، أو

---

(١٤٣) Capmany, II, 76 et ss.

(١٤٤) Ibid. IV, 64 et s., 73 et ss.

(١٤٥) Navarrete, p. 182 et ss; Capmany, IV, 80.

يحضروا منها كمية من البضائع ، فيما عدا المواد الممنوعة فى كل الأزمان بطبيعة الحال ، وكان أحيانا يطلب ترخيصا خاصا من البابا (١٤٦) .

وفى أواخر عهده تخلى عن كل فكرة لحرب صليبية ، لذلك فمع مراعاته لقواعد الحظر التجارى ، كان يبدى مزيدا من التسامح مع المذنبين . من ذلك أنه فى السنة السابقة لنهاية حكمه ، أوقف سير المحاكمة التى بدأت ضد بورجوازى من برشلونة اتهم بنقل بضائع من قبرص الى مصر ، واكتفى بالحكم عليه بغرامة قدرها ٢٥٠٠ « صول » sols (١٤٧) .

ويذكر البعض أمثلة أخرى لقرارات « بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى العمومية » أصدرها خلفاء جيمس ، الفونس الرابع ، وبطرس الرابع لصالح تجار اتهموا بأنهم ذهبوا الى سوريا (الى بيروت أو دمشـــق) عن طريق قبرص لأعمال تجارية (١٤٨) .

وأخيرا ، فى عام ١٣٣٨ ، وبالحاح من بلدية برشلونة ، اتخذ بطرس الرابع خطوة حاسمة ، اذ أمر بايقاف كل المحاكمات التى بدأت ضد الذين تاجروا مع البلاد الخاضعة للسلطان ، والامتناع مســتقبلا عن محاكمة أمثالهم (١٤٩) . والحقيقة أن هذا القرار لم يوقف سوى الاجراءات فى المحاكم المدنية ، فلم يكن من سلطة الملوك رفع الأحكام الكنسية بالتوبيخ والحرمان ، وكان لهم على أكثر تقدير أن يتوسطوا لصالح رعيتهم الذين صدر ضدهم قرار بالحرمان (١٥٠) . وســوف نعود الى هذه المســألة فيما بعد ، ويكفى حاليا أن نتابع موقف ملوك أراجون فى هذه الظروف .

---

(١٤٦) Documents des années 1305, 1317, 1321 dans Navarrete, Op. cit, p. 182-186.

- ذات مرة ، وكان البحر المتوسط يرتاده القراصنة ، رأى جيمس الثانى من الفطنة ان يصحب بعثته سفينتان حربيتان جملتا ، باذن من البابا ، فى خدمة التجارة :
— Capmany, IV, 79 et s.

- فى عام ١٣٢٧ ، انتزوا فرصة مرور سفارة فرنسية ذاهبة الى مصر عن طريق برشلونة :
— Nivarrete, p. 18 et s .

(١٤٧) وثيقة بتاريخ أول أغسطس ١٣٢٦ فى :

(١٤٨) وثيقة بتاريخ ١٣٣٥ فى :
Mas Latrie, Hist de Chypre, III. 720 et ss.
— Mas Latrie, III, 732; de 1338, ibid, 734.

(١٤٩) Campany, II, 107-109; Ibid IV, 96 et s.

(١٥٠) مثلما فعل ، على سبيل المثال الفونس الرابع فى عام ١٣٣٤ :
Capmany, IV, 96.

ومن الملائم في شرح هذا الوضع أن نبين أن أكبر مدينة تجارية في مملكتهم كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال يتيح لها أن تسمع الناس كلمتها عند الأزمات . فاذا هي لم تبد رأيها بصراحة ضد حظر التجارة ، فانها لم تتوان في السعي لالغاء هذا الحظر ، وفي هذه الأثناء لم تستدع بالمرة جاليتها في الاسكندرية ، وتركت قنصليتها في تلك المدينة . وبعد انقضاء عشرة أعوام على سقوط عكا ، نجد فيها بالفعل قنصلا للقطالونيين ، تخاطبه بلدية برشلونة ، هو وأمير الجمرك فتوصيهما ببورجوازي له مطلب قديم يريد تحقيقه في الجمرك (١٥١) . ويمكن الاعتراض بأن المثال الذي ذكرناه يسبق بسنة قرار جيمس بالحظر العام على ممارسة التجارة .

ولكنا لا نجد أثرا لالغاء القنصلية ، حتى في تواريخ لاحقة ، بل على العكس نجد في عام ١٣٢٢ راهبا فرنسيسكانيا أيرلنديا ، هو سيمون سيميونس Simon Simeonis ذاهبا للحج في بيت المقدس ، فيمر بالاسكندرية ويجد بها الى جانب الفنادق الجنوية ، والفينيسية ، والمرسيلية ، الخ فندقا قطالونيا ، وقناصل لهذه الجنسيات المختلفة . وكان هذا الراهب مسافرا مع تجار غربيين ، ورأى تجارا آخرين يقطنون الفنادق ، وجعل يلاحظ أسلوب معيشتهم (١٥٢) . وبخلاف هؤلاء السكان المقيمين بصفة دائمة ، كان الفندق القطالوني يستقبل من وقت لآخر تجارا من برشلونة ، لم يكن في وسعهم دائما الحصول على اذن من البابا أو الملك ، ولكنهم يغامرون بمخالفة الحظر ، معتمدين على حظهم في المرور دون أن يلحظهم أحد ، أو على حصولهم على أرباح ضخمة يستطيعون منها دفع الغرامة اذا ضبطوا . وكانت بلدية برشلونة أقل صرامة من الملك في مثل هذا النوع من مخالفة اللوائح .

ومنذ أن نقل البابوات مقامهم الى افينيون Avignon أصبحت المدن التجارية في جنوبي فرنسا تحت أيديهم تقريبا . فهل تريدون معرفة ما كانوا يفعلونه بقرارات الكنيسة بحظر التجارة مع مصر ؟ اليكم بعض الأمثلة : فسيمون سيميونس الذي ذكرناه منذ هنيهة ، أقام من ١٤ الى ٢٢ من أكتوبر ١٣٢٢ في فندق المرسيليين بالاسكندرية (١٥٣) . وفي غضون رحلته في عام ١٣٢٣ علم أنه بالحاح من بورجوازي من مونبلييه

(١٥١) Capmany, II, 372 et s.; Appendice, p. 66.

(١٥٢) Itineraria Symonis Simonis et Wilellmi de Worcestre éd. Nasmith, Cantabr. 1778, p. 19-22.

(١٥٣) Ibid., p. 21.

يدعى جويوم بونمان Guillaume Bonnesmains اذن السلطان الناصر محمد الذى كان منذ قليل قد اضطهد المسيحيين اليعاقبة ، أذن باعادة فتح كنيسة سانتا ماريا دو لا كاف Santa Matia de la Cave بمصر القديمة (١٥٤) • والثابت من بعض الوثائق أن بونمان هذا لم يكن من مواليد مونبلييه ، وانما هو من فيجياك Figeac ، ورغم أنه ينتمى الى طبقة التجار ، فانه قبل أن يتولى من ١٣٢٧ الى ١٣٢٩ باسم « شارل الجميل » Charles le Bel ملك فرنسا مهمة تتعلق بالدفاع عن مصالح المسيحيين بمصر • وقد طلب تصريحا بذلك من البابا يوحنا الثانى والعشرين ، ولكنه لم يركب السفينة وحده ، بل كان فى رفقته تجار من قطالونيا وجنوب فرنسا ، انتهزوا فرصة سفرهم ، فحملوا معهم سلعا لبيعها فى مصر (١٥٥) •

ولقد رأينا من قبل ، فى الفقرة السابقة تجارا من جنوب فرنسا ، وبخاصة بورجوازيين من مرسيليا يمارسون التجارة مع مصر • وكان أيضا من أهالى جنوب فرنسا أولئك الذين كشفوا سر الاجتماعات المشبوهة التى انعقدت فى ليون بين « فيليب الجميل » Philippe le Bel والبابا كليمنت الخامس بقصد القيام بحملة صليبية ، فحذروا السلطان ، وبادروا بتزويده بأدوات حربية ، وعبيد ، الأمر الذى كان مبررا لاصدار مرسوم ٢٨ أغسطس ١٣١٢ الذى جدد به الملك الحظر ، واستنكر هذه الأعمال التى لا تليق باسم المسيحى (١٥٦) •

ولابد أن الموقف الذى إتخذته الجمهوريات التجارية الايطالية كان له تأثير قوى على هذه الأزمة ، وهذا شىء واضح ؛ فلننظر أولا فى موقف جنوا • فبتأثير الانفعال الذى سببه سقوط عكا (فى ١٨ من مايو ١٢٩١) ، وربما أيضا تحت ضغط النداء الذى وجهه البابا الى الجنوويين مباشرة (فى ١٣ من أغسطس) يستحثهم فيه على حمل السلاح لتخليص الأرض المقدسة ، وقطع كل علاقة تجارية مع مصر (١٥٧) ، اضطرت جمهورية جنوا أن تقرر بوجه عام تحريم التجارة مع ولايات السلطان • والواقع

---

(١٥٤) Ibid. p. 53

(١٥٥) Navarrete, l.c., p. 186 et s;. Lot. dans la Biblioth. de l'Ecole des chartes, 4 série T.V. (1865), p. 503 et ss., et T. XXXVI (1875), p. 588 et ss.

(١٥٦) Ordonnances des rois de France, I, ٤/5; ordonance de St Louis (1254), ibid XI, 331.

(١٥٧) Raynold, a.a. 1291, nos 23-28.

أنه فى خلال هذه السنة حكمت السلطات الجنــــوية بالغرامة على شركة لبركارى Lercari التى أرسلت بضائع من جنوا الى الاسكندرية فى سفينة مسلحة ، وذلك لمخالفتها المرسوم الذى أصدرته البلدية ، وعصيان أوامر البابا (١٥٨) .

وبعد وقت قليل ، استولى تيديزيو دوريا ، وهو نفس الشخص الذى دخل فيما بعد مع مانويل زكاريا فى خدمة الفاتيكان ، استولى ، ربما بارادته الشخصية على ســــفينة بيزية كانت عائدة من الاسكندرية بشحنة ثمينة وتجار من بيزا وناربون ومرسيليا وغيرها ، وأعلن القضاة الجنويون أن السفينة غنيمة لمن استولى عليها ، باعتبـــــار أن القوانين الكنسية ترخص لأى انسان أن يقبض على أى شخص متلبســـا بجريمة الاتجار مع مصر ، ويحتفظ به عبدا له ، كما يحتفظ ببضاعته ملكا له . ومع ذلك ففى هذه المرة أبديت رغبة فى العفو عن هؤلاء التجار ، فأطلق سراحهم ومعهم جزء من بضائعهم (١٥٩) . يبدو اذن أنه فى البداية تبنت جنوا بالكامل آراء الكرسى الرسولى ، ومن ثم نرى أكثر البابوات حماسة فى ذلك العصر ، هو كليمنت الخامس يهنئها دون قيد أو شرط (١٦٠) ، نقول مع ذلك أنه لا يوجد بين قوانين جنوا التى بقيت محفوظة الى يومنا هذا قانون يحرم بصفة عامة التجـــــارة مع مصر ، فى مستهل القرن الرابع عشر .

وقد رأينا من قبل القانون الوطنى الذى تكون بالتدريج فى غضون القرنين السابقين ، وطبق فى مستعمرة غلطة (١٦١) : هذا القانون لا يحتوى بالمرة على أى نص يحمل على الافتراض بأن الحظر القديم بتصدير معـدات حربية الى مصر قد امتد فيما بعد ليشمل سائر المواد التجارية ، بل نجد فيه على العكس من ذلك ، ودون أى تغيير ، نص مرسوم لعام ١٢٩٠ يذكر الأسلحة وحدها باعتبارها بضاعة محرمة (١٦٢) .

نستخلص من ذلك أنه اذا كان لدى جنوا الرغبة فى قطع علاقاتها بالكامل مع مصر ، فانها لم تثبت طويلا على هذه الرغبة . ففى عام ١٣٠٤

---

(١٥٨) Annal Jan, p. 338.

(١٥٩) Annal. Jan. 341.

(١٦٠) Paoli, Cod. dipl .dell'ordine gerosolem., II, 33.

(١٦١) Statuti della colonia Genovese di Pera, editi da Vinc. Promis dans les Miscellanea di storia italiana, XI, 1870, p. 513 et ss.

(١٦٢) Ibid, p. 738 no CC. Canale Nuova istoria della repubblica di Genova, III, 173.

الذى نسق فيه أكبر جزء من القوانين التى شكلت مجموعة قوانين Péra وبالتأكيد فى عام ١٣١٦ ، تاريخ آخر القوانين الملحقة بهذه المجموعة ، عادت الحال الى ما كانت عليه قبلا ، وبقيت الأدوات الحربية هى وحدها المحرمة . نجد التحفظ نفسه في ال Devetum Alexandria بتاريخ ١٩ من مارس ١٣١٦ ، وهو قانون يطبق بنوع خاص فى غلطة وكافا Caffa كما نجده فى المرسوم التالى بتاريخ ٣٠ من ديسمبر ١٣١٧ ، والمحرز بنوع خاص لجنوا والريفييرا ، وأخيرا فى Devetum Ispaniae et Barbaria بتاريخ ١٨ من مارس ١٣٤٠ ، والجريمة الوحيدة المقصودة والتى تستحق العقوبات المنصوص عليها فى كل هذه القوانين هى توريد الحديد ، وخشب البناء ، والأسلحة ، والعبيد من الجنسين للمسلمين فى الشرق أو الغرب (١٦٣) . فهل كانت هذه العقوبات تطبق دائما بدقة ؟ انه لسؤال هام . فلو طبقت كذلك لما وجد البابا يوحنا الثانى والعشرون حججا كافية لتعزيز شكاويه ضد الجنويين الذين يتهمهم بمرارة بمساعدة « الكفار » (يقصد المسلمين) بتزويدهم بالعبيد والعتاد الحربى ، والعيش مع السلطان فى جو من الود والصفاء (١٦٤) .

وعلى كل حال ففى جنوا لم تكن القوى المكلفة من قبل البابا بالقيام بجولات فى البحر المتوسط لطاردة المسيحيين الفجار تعتبر بمثابة قوات متعاونة ، وانما بمثابة أعداء . من ذلك أنه فى شتاء عام ١٣١١ الى ١٣١٢ أسر فرسان هيئة القديس يوحنا سفينة جنوية عائدة من الاسكندرية تحمل شحنة من التوابل ومواد أخرى ، وللفور أبحر سفير جنوى ، هو أنطونيو سبينولا للمطالبة بتسليم السفينة ، الا أن الفرسان رفضوا تسليمها دون اذن من البابا ، ومع ذلك وعدوا بأن يطلبوا قرارا من الفاتيكان فى أقرب وقت عن طريق ممثليهم . واستشاط سبينولا غضبا ، **وذهب الى آسيا الصغرى مع رفاقه الجنويين ، وقابل السيد منتيشيه Mentèchè التركماني (١٦٥) ، وطلب منه القبض على تجار رودس وغيرهم من رعايا هيئة القديس يوحنا الموجودين فى اقليمه والقائهم فى السجن ، ويبدو**

---

(١٦٣) Les Monumenta hist patr., Leges municipales, p. 371-377 .

(١٦٤) Raynald, a.a. 1317, no 36 ; Guill Adoe D.emodo extirpandi Saracenos.

(١٦٥) Madachias, le Mandachia de Sanuto (Hopf. chroniques greco-romanes 145 (167) ; Ducas p. 13, 66, 106; Laon Chalcoc, p. 65 et s. 168, 244 ; Sanuto I.c., p. 167.

انه قد عرض عليه اعانة مالية قدرها ٥٠٠٠٠ دينار ذهبى ان هو غزا جزيرة رودس وطرد الفرسان منها .

ولم يكتف سبينولا ورفاقه بذلك ، فقد التقوا فى عرض البحر بعدد من الفرسان فأسروهم ، وقرروا ألا يخلوا سبيلهم الا فى مقابل فدية . وكان غريبا أن يصدر هذا التصرف من سفير ، ولكنه يعلم أنه يعتمد على حكومته ، آية ذلك أنه بعد أن انتظر الأشخاص الموفدون من قبل الهيئة ليطالبوا الجمهورية أن تعترف بحقوقها ، أكثر من شهر دون أن يقابلوا أحدا من المسئولين ، اضطروا الى العودة كما جاءوا ، ولجأوا الى البابا الذى أرسل الى جنوا تعنيفا شديدا ، وأنذرها باطلاق سراح فرسان رودس بلا فدية ، ومعاقبة المواطنين الجنويين الذين ارتكبوا هذا العدوان الأثيم ضد هيئة الفرســـــان ، وأن يتخلوا عن التحالف مع الأتراك (١٦٦) . ولسنا نعلم ما تم فى هذا الأمر .

واستولى ملك قبرص أيضا على سفن جنوية فاجأها على طريق مصر ، عند ذهابها أو عند عودتها ، وتصرفت جنوا معه مثلما تصرفت مع فرسان رودس . وفى عام ١٣٢٩ ، وبناء على اقتراح الملك عرض النزاع على تحكيم البابا يوحنا الثانى والعشرين ، وأصدر البابا حكمه فى عام ١٣٣١ ، فحكم من جهة على الملك بأن يدفع للجنويين تعويضا قدره ١٠٠٠٠٠ دينــــــار بيزنطى ، وحكم من جهة أخرى على الجنويين بأن يدفعوا تعويضا عن الطلبات المضادة التى قدمها الملك فى حدود هذا المبلغ (١٦٧) .

وربما نتساءل عما اذا كانت المستوطنة الجنوية فى الاســـــكندرية مازالت موجودة فى هذه الفترة الحرجة ؟ والاجابة على ذلك سهلة ، لما نعرفه عن موقف الوطن الأم : فان كانت قد زالت ، فان ذلك لم يـكن ليحـدث الا فى السنوات الأولى التى أعقبت سقوط عكا ، وهذا غير محتمل . وعلى كل حال فهناك وثيقة جنوية بتاريخ ٤ أكتوبر عام ١٣٠٤ (١٦٨) تثبت أنه كان يوجد فى هذه الفترة قنصل جنوى يقيم فى الاسكندرية ، اسمه جيزولفو ديى جيزولفى Ghisolfo dei Ghisolfi . كذلك رأى سيمون

---

(١٦٦) Le bref du pape Clément V. du 26 nov 1312, dans Paoli, Cod. dipl., II, 31-33; Mas Latrie, Hist de Chypre II, 31-33 : Sanuto, Secr. fidel. cruc., p. 31;

(١٦٧) Mas Latrie, Op. cit., II, 156 et s., 173; Raynald, a.a. 1331, no 30.

(١٦٨) Taf. et Thom., IV, 31.

سيميونيس فى عام ١٣٢٢ فى الاسكندرية قنصلية جنوية وفندقا جنويا منظمين كما كان الحال من قبل ٠

أما فيما يختص ببيزا ، فان اللوائح التنظيمية لهذه المدينة تزودنا بمعلومات مزدوجة ٠ فمن جهة ، تجدد لوائح ادارة التجارة البحرية لعام ١٣٠٥ ، ١٣٢٢ الأوامر القديمة ضد توريد الأدوات الحربية لمصر (١٦٩) ، بينما تحيطنا هذه اللوائح من جهة أخرى بوجود قنصلية بيزية فى الاسكندرية عام ١٣٠٥ ، مما يعنى بالتالى وجود جالية بيزية بها ٠ فضلا عن أنه قد طبق فى هذه الآونة المرسوم القديم الذى كان يقضى بالزام القنصل بأن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا ايرادات فرن الجالية البيزية ، وذلك للانفاق منها على شمعة تكريما للقديسة ماريا (١٧٠) ٠

ولننتقل الآن الى جمهورية فينيسيا ٠ فليس فى الامكان القول بانقطاع علاقاتها بمصر بعض الوقت ، فى الفترة التى أعقبت مباشرة سقوط عكا ٠ حقا ان المصادر صامتة فى هذا الشأن ، ولكن من الثابت أنه كان لديها بواعث للغضب من السلاطين : فقد وقعت فى الأسر فى غزة سفينة تجارية فينيسية (كانت غالبا قد هربت من عكا وبها شحنة ذات قيمة كبيرة تتكون من معادن نفيسة مسكوكة ، أو فى شكل سبائك) أرسلت السفينة الى القاهرة حيث احتفظ بها كغنيمة (١٧١) ٠

كذلك كان فى سجون القاهرة منذ عدة سنوات مواطنون بنادقة سقطوا فى أيدى المصريين اما وقت الاستيلاء على عكا ، أو فى ظروف أخرى (١٧٢) ٠ ومع ذلك فان كان هناك فتور فى العلاقات فان ذلك لم يدم وقتا طويلا ٠ **ففى عام ١٣٠٢ ، بعد انقضاء احد عشر عاما فقط على سقوط عكا حضر سفير بندقى من جديد فى بلاط مصر ليطلب بالأساليب المعتادة تجديد الامتيازات القديمة** ، وكان يدعى جويدو دى كاتالى Guido de Canali (١٧٣) ، **وسلمه الملك الناصر محمد الذى ارتقى العرش آنئذ للمرة الثانية دبلوما (اجازة) يؤكد الامتيازات التى منحها**

---

(١٦٩) Sanut ined. Pic., éd. Bonaini, III, 426, 578.

(١٧٠) Ibid. III 395.

(١٧١) Mas Latrie Traités de paix et de commerce, Suppl., p. 86 et s.

(١٧٢) Commem., I, 116 et s.; Taf. et Thom., IV, 88 ; Commem., I, 106;

(١٧٣) Archiv. Vennet., XVII, 134; XIX, 110.

قلاوون (١٧٤) ، ووافق أيضا ، بناء على اقتاح رياسة الجمهورية Seigneurie بإقامة فرانشسكو دى كانالى Francesco de Canale قنصلا للبندقية بالاسكندرية ، كما تنازل عن نصف ايرادات الجمارك عن البضائع التى تنتمى لرعايا بنادقة فى حدود المبلغ المستولى عليه فى غزة (١٧٥) .

والواقعة جديرة بالاهتمام لأن حكومته كانت تبذر تبذيرا شديدا حتى انه لم يكن فى وسعه أن يستغنى عن ايرادات الجمارك . وكان من بين المواد المستوردة التى تخضص فى احضارها البنادقة ، تلك المواد المطلوبة أكثر من غيرها ، وكان بيعها للمسلمين محظورا على مسيحى الغرب .

وقررت الاجازة كذلك اعانة لتوريد هذه المواد ، وذلك بالترخيص بخروج البضائع المشتراة بحصيلة بيع هذه المواد دون دفع أية رسوم (١٧٦) . ويبدو أن هذه الفقرة لم تثر أى اعتراض من قبل السفير البندقى ، وربما لم تتح له فرصة للاعتراض . فضلا عن ذلك ، كانت الجمهورية تراعى بدقة تطبيق أحكام الحظر . ووجد جويدو دى كانالى الذى عين دوقا لكريت بعد سنة من انتهاء مهمته فى مصر ، وجد نفسه مسوقا لتطبيق المراسيم التى صدرت حديثا بحظر تصدير الرقيق خارج دائرة حكومته : فثمة عدد من الرقيق ابتيعوا فى القسطنطينية لارسالهم الى مصر ، وجىء بهم الى كريت فى سفينة جنوية ، فاحتجزهم ، واعترض على ارسالهم الى مصر . وكاد هذا التصرف من قبل السلطة يتسبب فى نشوب حرب ، فقد طالب أمير الاسكندرية بتسليمه الرقيق ، فرفض طلبه . ومن ثم اعتقل القنصل الفينيسى ، فعين بانجرازيو فينير Pangrazio Venier بدلا من فرانشيسكو دى كانالى ، ولكنه رفض أن يدفع له المرتب كما جرى

---

(١٧٤) فقد الامتياز الذى منحه قلاوون ، وليس عندنا منه سوى تصريح يخص سوريا ، سوف نتكلم عنه فيما بعد .

(١٧٥) تنحصر تواريخ الوثائق الأربعة التى حررها جويدو دى كانالى فى نهاية سفارته بين ٦ و ٢٢ من ذى القعدة عام ٧٠١ هـ ، أى بين ٢ ، ١٨ من اغسطس عام ١٣٠٢ م ، ونشرت فى :

— Mas Latrie, Traités,, append. p. 82-88, et dans Taf. et Thom IV, 5-12
— Mas Latrie, p. 86; Taf. et Thom. p. 10.; Amari. Dipl. arab., p. 484, not 29,

(١٧٦) Mas Latrie, Op c., p. 83, no8; Taf., et Thom., IV; 6.

العرف (١٧٧) ٠ وفي عام ١٣٠٤ أوفد سفير بندقي اسمه جيوفاني سورانزو Giovanni Soranzo الى مصر ليحاول في الغالب تسوية هذه المشكلة ، والمعتقد أنه حقق هذه الغاية (١٧٨) ٠

وهكذا يتبين من دراسة الوثائق التي استقينا منها المعلومات السابق ذكرها أنه تعاقب على الاسكندرية من ١٣٠٢ الى ١٣٠٤ قنصلان بندقيان ٠ وثمة واقعة أخرى تؤكد وجود هذه القنصلية ، ذلك أنه في حوالى هذه الفترة ، وعلى الأصح بين عامي ١٣٠٣ ، ١٣٠٧ نوقش في مجلس الشيوخ الفينيسي مشروع لائحة خاصة بالقنصل الذي يعين في هذا المنصب ، ولسوء الحظ لم نحصل على نص هذه اللائحة (١٧٩) ٠ فاذا كان هناك قنصل ، فذلك لأنه توجد جالية من التجار من واجبه أن يدافع عن مصالحها ٠ كما نلاحظ في تلك الآونة وجود عدد الملحقين بالقنصل بنجرازيو فينير (أو مستشاريه) بلغوا سبعة من مواطنيه في الاسكندرية omnes mercatores Alexandrie (١٨٠) ٠

وكانت التجارة البحرية وقتئذ في أوج نشاطها : فثمة سفن حربية وتجارية ، مسلحة أو غير مسلحة تبحر الى الاسكندرية ، ودمياط ، وتنيس ، وتعود منها ليس فقط بمنتجات مصر ، كالكتان ، والبلح ، والعنبر ، وأوراق السنا (١٨١) ، ولكن أيضا بمنتجات من الشرق الأقصى ، كالفلفل ، والزنجبيل ، وشجر البقم ، والقرفة ، والبخور كانت هذه التجارة تعتبر مشروعة طالما أنها تتناول أشياء غير محرمة ٠ وصدرت في تلك الآونة بشأن السفن التي تعمل على خط مصر لوائح جديدة تحدد مواعيد الاقلاع ، والشحنات ، ومدة الاقامة ، الخ (١٨٢) ٠

ولم يلبث البنادقة أن حاولوا أيضا تثبيت أقدامهم في سوريا ٠ وكانت غالبية الأماكن التي ازدهرت فيها تجارتهم فيما مضى قد أصبحت

---

(١٧٧) Taf. et Thom., IV, 23 et ss. ; Commem. reg., I, 40 et ss., no 176, 183 et s., 187, 216 et s. 221; Rubriche del Misti, dans l'Arch. Venet., XVIII, 59; XIX 111 et s., XX 293 et s.

(١٧٨) Taf. Thom., IV, 31 et s.; Commem. reg., I, p. 47, no 215; Arch., Venet., XIX, 111.

(١٧٩) Arch. Venet., XIX, 111, XX, 294.

(١٨٠) Taf. et Thom., IV, 32.

(١٨١) أوراق جنس من الشجر تستعمل لعلاج الاسهال (المترجم) ٠

(١٨٢) Arch. Venet., XVIII, 315 ; XIX, 103 et s., 111 et s.

أطلالا مهجورة . ومع ذلك لم يكن المصريون قد أتموا فتح القسم الشمالى من البلد ، واذا بالبنادقة يطلبون امتيازات لرعاياهم الذين يريدون الذهاب الى هناك . ومنحهم السلطان قلاوون الامتيازات التى طلبوها (١٢٨٨) وأعلن أنه يتولى حماية أشخاصهم وأموالهم ، ولم يطلب منهم فى مقابل ذلك سوى دفع الضرائب والرسوم العادية (١٨٣) .

وفيما بعد ، حين لم يعد للدول الصليبية وجود ، وثقت البندقية علاقاتها بالأمير الذى يتبعه القسم الأكبر من فلسطين . ولم تعد عكا مركز الثقل السياسى للبلد ، بل صار هذا المركز هو صفد ، وهو موقع حصين فى جبال الجليل غير بعيد عن طبرية ، اختاره السلطان بيبرس بعد الغزو مباشرة ليجعل منه معقلا من معاقل الاسلام (١٨٤) . وكان الأمير الذى يعينه السلاطين فى هذا الموقع يحكم من هناك باسمهم شواطىء عكا وصور وصيدا وجزء من سورية حتى دمشق (١٨٥) .

وفى عام ١٣٠٤ زار اثنان من البنادقة فرانشيسكو فيرمانوس Franciscus Fitmanus ، وقسطنطينوس Constantinus أمير صفد من قبل الدوج الذى كلفهما برسالة شفهية للأمير . ونحن لا نعرف اسم هذا الأمير ، ولكنا نعرف فقط لقبه Baylius et admiralius castelli de Safet et omnis contrate Accon : وبعد أن تلقى الأمير تعليمات السلطان الناصر محمد ، كتب رده باللغة العربية فى خطاب يوجه الى الدوج . وفى هذا الخطاب نقرأ أن رعايا الدوج يمكنهم الحضور الى ممتلكاته ، فى أمن تام لأشخاصهم وأموالهم ، وانه اذا أراد البنادقة أن يزوروا قبر السيد المسيح ، فانه يزودهم بحرس يرافقهم ، يذهبون ويعودون معه فى أمان واذا كان منهم من يريد الاستقرار فى اقليمه فانه يكفل له الحماية والمعاملة الكريمة (١٨٦) .

ثم ان البنادقة لم ينتظروا اتمام هذه الترتيبات فارسلوا سفنا الى سورية . ففى عام ١٣٠٠ وقعت سفينة منها عند عودتها فى أسر بعض

---

(١٨٣) هذا « الدبلوم » الذى متيع بالقاهرة فى ٢٩ من شوال ٦٨٧هـ . (٣٦ نوفمبر ١٢٨٨ م) نشره لأول مرة السيد ماس لاترى :
— Mas Latrie, Traités, suppl., p. 81 et ss.

(١٨٤) Weil, Gesch. d. Chalif., IV, 55, 58-60.

(١٨٥) Burchard, de Monte-Sion, éd. Laur., p. 34; Ricoldo de Monte Crucis, ibid, p. 106; Frescobaldi, p. 130; Jacques de Vérone, dans Roehricht et Meisner, Deutsch Pilerreisen, p. 62; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 22; Chemseddin Dimichki, p. 286 et ss.

(١٨٦) Taf. et Thom., IV, 30 et s.; Archiv, de l'Or, lat., I, 406-408.

القراصنة (١٨٧) . وفى محاضر جلسات مجلس الشيوخ فى ذلك الحين ، دون ما يأتى Galeoe Syrioe الى جانب Galeoe Alexandrioe وكانت الفينيسية تزور موانىء البلد وتمكث بها كما كانت تفعـــل فى الماضى : وشوهد هناك أيضا سفن فردية ، بعضـــها غير مسلح ، وكان مجلس الشيوخ يسمح للسفن الحربية المتجهة الى قبرص بالمرور فى طريقـــها على سوريا (١٨٨) .

كل التصرفات التى ذكرناها آنفا تثبت عزم الحكومة الفينيسية على الاحتفاظ للتجارة الوطنية بأسواق مصر وسورية ومع ذلك ، فبين عامى ١٣١٣ ، ١٣١٧ ظهر مرسوم لمجلس الشيوخ يحظر على مواطنى البندقية ان يذهبوا بأنفسهم أو ان يصدروا بضائع الى ممتلكات السلطان الواقعة بين دمياط وبورتيلا Portella . ولم يبق لسوء الحظ النص الكامل لهذا المرسوم ، وكان موجودا فى الكتاب الرابع من ال Misti الذى لا يوجد منه سوى قائمة بالموضوعات ، وقد ذكر بايجاز فى أربعة مواضع مختلفة من هذه القائمة (١٨٩) ، ويختلف شكل التنويهات من موضع الى آخر . وبتجميع المواضع الأربعة ، يمكننا اعادة تشكيل عنوان المرســـوم كما يلى :

— «Non eatur nec mittatur aliquid ad terras Soldani scilicet a Damiata usque ad Portellam Armenioe par riperiam sub penal procentenario».

ولنتريث برهة عند هذا النص ، ونحاول تحليله . نرى أولا أن أهم الأسواق التى يتردد عليها التجار الغربيون فى امبراطورية الســـلاطين ، وهى الاسكندرية بقيت خارج نطاق الحظر ، والأمر كذلك بالنسبة الى دمياط : لان عبارة : usque ad Portellam Armenia a Domiata تفسر بمعنى أن النقطتين المذكورتين ليستا ضمن الاقليم المحظور دخوله . فالواقع لا يمكن أن يطرأ على ذهن الجمهورية أن تفرض الحظر على الأبواب القليقية ، وهى مقر مكتب جمرك أرمنى واقع خارج سيادة السلطان .

وعلى ذلك اذا كان فى فكر واضعى المرســـوم أن جمرك الأبواب القليقية ليست ضمن المنطقة المحظورة ، فان دمياط لم تكن كذلك ضمن هذه المنطقة . ومن ثم فالميناءان اللذان كان الغربيون يدخلون عن طريقهما

---

(١٨٧) Commem. I, p. 13 no 44.

(١٨٨) Archiv, Venet, XVII, 260; XVIII, 315-317; XIX, 103 ét s.

(١٨٩) Ibid, XVIII, 52, 317; XIX, 105, 112.

فى أهم ممتلكات السلطان ، بقيا كما كانا من قبل مفتوحين للبنادقة •
ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتا نهر النيـل ومعنى ذلك
أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوى من أملاك السلطان ،
ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتا نهر النيل ؟ ومعنى ذلك
أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوى من أملاك السلطان ،
ولم يكن الغرض منه على ما يبدو واضحا الحاق الضرر بالكفار (يقصـد المسلمين) بقدر ما كان يتغيا وضع التجار البنادقة وبضائعهم بعيدا عن الأخطار التى قد يتعرضون لها فى سوريا ، لأن هذا البلد كان آنئذ مسرحا لحروب دامية متواترة بين المصريين والمغول (١٩٠) •

ولم يكن التفاهم الودى بين البندقية ومصر فى تلك الآونة بالذات يعكر صفوه شىء ، حتى ان أمير الاسكندرية أطـلق سراح كل المسجونين البنادقة الذين كانوا تحت سلطته ، وذلك بناء على طلب الدوج جيوفانى سورانزو ، وكفل للتجار البنادقة أحسن حفاوة ، وأرسـل هـدايا الى الدوج (١٩١) •

وفى روما ، اعتبر هذا الاتفاق الودى بين البنادقة والمسلمين أمرا بغيضا الى أقصى درجة • وسعى الدوج لدى البابا ليحصل منه على تصريح للبنادقة بان يصدروا الى مصر ذهبا وفضة وقصديرا ونحاسا وأصـوافا وزعفرانا وموادا أوروبية أخرى ، وتعزيزا لطلبه ذكر التصريحات الشفوية التى أعطاها بنوا الحادى عشر (١٩٢) والتى ذكرناها من قبل ، بل انه أذن لسفرائه بأن يقدموا فى نظير الترخيص المطلوب مبلغا كبيرا يصـل الى ٥٠٠٠ دينار اذا لزم الأمر ، كل ذلك دون جدوى (١٣١٧) • فبـدلا من أن تستسلم الادارة البابوية ، أصرت أكثر من ذى قبل أن ينفذ بقـوة القانون فى البندقية الحكم الذى يصدره البابا ضد كل شخص يزاول أى نوع من التجارة مع المسلمين •

ونعلم أنه تبعا لأوامر كليمنت الخامس ، يوقع على المخالفين أشـد العقوبات الكنسية ، وكان محظورا على من يتلقون الاعتراف أن يمنحـوهم الغفران ، الا اذا وافقوا على أن يدفعوا لخزانة الكنيسة أو يتخذوا الاجراءات

---

(١٩٠) Weil, Gech. d. Chalif., IV, 309 et ss.

(١٩١) Litera domini Hermedini d.d. 13 Raboe 717 (1817) dans Taf. et Thom. IV, 103.

(١٩٢) Commem., I, p. 183 et s., nos 64, 65; Archiv, Venet, XIX; 112 Archiv, Venet., XXIV, 310.

الايصائية (المختصة بالوصية) الكفيلة بأن يدفع ورثتهم لخزانة الكنيسة مبالغ تساوى المبالغ التى استثمروها فى تجارتهم مع المسلمين · ولما كان البنادقة ضمن الذين يزاولون هذه التجارة بنشاط كبير ، كانت الغرامات التى يطلبها منهم الكرسى الرسولى تصل الى أرقام هائلة ، فتساوى أحيانا مجموع الأموال التى يتركها المتوفى · وبالطبع كان الورثة ومنفذو الوصية يجدون هذا الأمر قاسيا للغاية ، ولا يذعنون له بسهولة ·

وللتغلب على مقاومتهم أوفد البابا يوحنا الثانى والعشرون الى البندقية أديمار تارجا Adhéman Targa كبير كهنة بسانت أفريك Ste Affrique (أسقفية فابر Dioc. de Vabres) الذى أصبح من ذاك الحين عميد تول Tulle ، والراهب الدومينيــــكى فولكو Folco من ســـسترون Sisteron (de Sistarico) (١٣٢٢) ، وكانت مهمتهمــا أولا تحصيل المبالغ المودعة أو المتروكة بوصايا لتسلم الى الكنيسة ، ولكنها لم تدفع حتى ذاك الحين ، وثانيا للحكم بحرمان كل البنادقة المعروفين جهارا بمزاولة التجارة مع المسلمين : ويجب عليهما قبل أن يمنحاهم الغفران أن يستوثقا من صحة توبتهم وأنهم دفعوا الغرامات المحكوم بها عليهم (١٩٣) ، وبالفعل أصدر تارجا قرارات الحرمان ضد عدد كبير من النبلاء البنادقة ، وضد نواب كنيسة القديس مرقس الذين يتخذهم عادة من يتوفون منفــذين لوصاياهم ، هذا التدخل من قبل محكمة كنسية أجنبية فى البندقية بدت لرياسة الجمهورية تعسفا لا يحتمل ، ومن ثم دعت الى الاجتماع لجنة مكونة من رجال الدين والقانون ، وأعلنت اللجنة أن تارجا قد تجاوز سلطاته ، وأنه من المناسب وقف تنفيذ العقوبات التى حكم بها ·

وحررت المقاطعة وعلى رأسها الدوج وعدد كبير من الأفراد احتجاجا قدم الى البابا الذى كلف بالتحقيق الميريك Almeric (Almeri) (١٩٤) أسقف رافينا Rovenne ، ويبدو أن الحكومة الفينيسية كانت تريد أن تضع مبدأ يقضى باباحة تزويد المسلمين ببضائع لا تساعد على انماء قوتهم الحربية · الا أن يوحنا الثانى والعشرين أعلن أن هــذا الاقتراح ملحد

(١٩٣) Ibid, p. 250, no 361 ; p. 257 et s., no 406; p. 260, no 415; p. 250, no 360.

(١٩٤) Ibid. p. 250. no 361 : p. 257 et s., 110 406; p. 260, no 415, Taf. et Thom IV. 196 et s. : Archiv Venet. XXIV, 312 ; Opere, T. III, Helmet 1763, Cecchetti, La republica p. 45 et ss.; Bartolommeo Venezia et la corte di Roma nei rapporti della religioni, I (Venez, 1874), p. 286 et s.

(١٣٢٦) (١٩٥) ، ورجح نفوذه القوى المبدأ العكسى . ورضخت البندقية للضغط المترتب على وجود مندوبين من الكرسى الرسولى ، وأصدر مجلس البريجادى Pregadi والكوارانتا Quaranta بالاتفاق فيما بينهم فى ١٨ من يناير ١٣٢٣ مرسوما يقضى بوجه عام بحظر التجارة مع مصر ، ومع كل البلاد الخاضعة للسلطان ، ولم يرفع هذا الحظر زمنا طويلا : ففى عامى ١٣٥٠ ، ١٣٧٤ أعيـد فرضـــه بعبارات أشـــد صرامة على موظفى المستعمرات (١٩٦) .

وربما يفسر هذا السبب فى أنه فى غضون تسع سنوات على الأقل ، ابتداء من نشر هذا المرسوم لم يعرض على مجلس الشيوخ اللوائح الخاصة بالتجارة مع مصر (١٩٧) ، وكذلك السبب — وهذا شىء عجيب — فى أنه فى شهر فبراير ١٣٤٥ تبين لسلطان مصر أنه منذ ثلاث وعشرين ســنة لم ير أحد فى امبراطوريته سفينة تجارية فينيسية (١٩٨) . ولقد اعترانى لزمن طويل الشك فى امكانية حدوث توقف طويل بهذا القدر فى العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، وتذكرت أنه فى عام ١٣٢٧ طلب الدوج جيوفانى سورانزو من يوحنا الثانى والعشرين الاذن بارسال ثلاثين سفينة كبيرة وعشر سفن لنقل لاحضار بضائع من مصر ، وأن يرسل اليها كذلك فى كل من الخمس السنوات التالية ثلاث سفن تجـارية تقلع من جزيرة كريت (١٩٩) .

غير أن هذا المثال انما يثبت شيئا واحدا ، ذلك أنه اذا كانت الجمهورية قد خضعت للقوة فقبلت أن تصدر تشريعات بالحظر ، فانها لم تيـأس مع ذلك من أن توجه للبابا من حين الى حين طلبات بترخيصات استثنائية . أما معرفة ما اذا كانت قد حصلت هذه المرة على ما تريد ، فهذا أمر آخر ،

---

(١٩٥) Commem., I, p. 272 ,no 465; Colle, Storia dello studio di Padova, I, si et ss ; comme. I, p. 250 no 361, p. 257 et s., no 406; Archiv. venet, XVII, 137 et s.; XIX, 113; XXIV, 313-315.

(١٩٦) Inistruction pour un conseiller nommé pour l'île de Crète. (1350), publ. par M. Thomas Abh. d. bayr. Akad., Cl I, XIV, sect, I, p. 215. Commision d'Andrea Gradenigo, baile de Constantinople (1374), publ. par M. Diehl. dans les Mélonges d'archéol et d'hist. de l'Ecole française de Rome. 3e Ann., 1883, p. 130.

(١٩٧) لتبين هذه الواقعة من مطالعة عناوين كتب Misti المفقـــودة :
— Archiv, Venet, XIX 113.

(١٩٨) Taf. et Thom IV, 291.

(١٩٩) Ibid, 208 et s.; v. Archiv, Venet. XIX, 113.

ولانجد في أية جهة ما يثبت أن البابا منحهـا الترخيص • ينبغي اذن التسليم بأن السلطان قال الحقيقة الواقعة •

ومهما بدت هذه الواقعة لأول وهلة غير صحيحة ، فانا نلاحظ أنها ليست كذلك اذا تفكرنا في أمرين : أولا أن في امكان البنادقة أن يعوضوا الى حد ما عما يفقدونه من ناحية مصر ، بمضاعفة رحلاتهم الى الجوزات وطربزون وتانا ، لأن هذه الموانيء بقيت مفتوحة لسفنها ، ثانيا ، أن التوقف المؤقت للحركة التجارية مع مصر لم يتضمن كنتيجة مباشرة قطع كل علاقة بهذا البلد • فقد رأى سيمون سيميونيس في الاسكندرية في شبـتاء عامي ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ جالية تجـارية فينيسية ، وقنصـلية فينيسية (٢٠٠) ، وهكذا ظلت هذه الجالية موجودة ، ولو في ظروف أكثر صعوبة : ولا شك أن أعضاءها احتفظوا بعلاقات غير مبـاشرة مع الوطن الأم ، وكان يكفي لذلك تحويل البضائع عن طريق قبرص ، أو كانديا ، أو ارمينيا الصغيرة •

ومع ذلك فقد جاء وقت أصبح فيه الالتزام بالامتناع عن رسـال السفن الفينيسية الى مصر ثقيل الوطأة على البنادقة • كان ذلك في عام ١٣٤٣ : فقد حدث شقاق بينهم وبين سيد تانا لم يلبث أن اتخـذ طابع العنف ، وسوف نعود الى الكلام عنه فيما بعد ، ونتج عن ذلك أن أصبح الطريق الشمالي الذي تسلكه تجارة الشرق غير صالح للاستخدام لمدة طويلة ، وفي الوقت نفسه وقعت أحداث سياسية قلبت أحوال فارس ، وانعدم الأمن على الطريق الأوسط الذي يجتازها • ولم تبق وسيلة أخرى سوى اعادة فتح الطريق الجنوبي الذي يمر بمصر • وبعد قليل من كارثة تانا أوفد الدوج مارينو فالييرو ، واندريا كورنارو في سفارة لدى البابا كليمنت السادس للدفاع عن قضية البنادقة الذين كانت التجارة عماد حياتهم ، وكان من شأن هذه الأحداث أن تؤدي بهم الى الخراب •

وفي ٢٧ من أبريل ١٣٤٤ صرح البابا لفترة خمس سنوات بارسال ست سفن كبيرة ، وست سفن نقل الى الاسكندرية وسائر الأنحاء التابعة لسلاطين مصر بشرط ألا تحمل سوى بضائع مسموح بها • وفي سبيل الحصول على هذا الترخيص لم تتورع الجمهورية عن توزيع هبات سنخية على حاشية البابا • وما أن استلمت الترخيص حتى قام وفد جديد الى القاهرة (١٣٤٤) ، وكان السفير نيكولو تزينو Niccolo zeno مكلفـا

(٢٠٠) Itinerar., éd. Nasmith, p. 21, 43.

بالتفاوض مع السلطان الملك الصالح اسماعيل (١٣٤٢ – ١٣٤٥) فى شأن منح مواطنيه امتياز جديد .

وأبدى السلطان تسامحا ، ورحب بمجموعة من الرغبـــات التى قدمها السفير باسم بعض التجار البنادقة (فبراير ١٣٤٥) . وفى الخطاب المرفق بالامتياز ، طلب منهم العودة بكل اطمئنان الى الاسكندرية ودمياط . وما كاد نيكولو تزينو يرحل ، حتى خلفه سفير آخر ، هو انجيلو سيربى Angelo Serbi . **وعند عودة هـــذا السفير الى البندقية احضر معه خطابا من اسماعيل بتاريخ ٦ أغســطس ١٣٤٥ يجـدد به السلطان وعده بان يحسن وفادة التجار البنادقة ، ويأذن للجمهورية بأن تقيم قناصل لها ، ليس فقط فى الاسكندرية ، ولكن اينما تشاء (٢٠١)** .
وعندما تم تسوية الأمور كلها من جانب كل من البـــابا والسلطان ، أرسلت البندقية بعثة أولى من سفينتين كبيرتين لكل منهما حمولة كبيرة غير عادية (١٣٤٥) : وأقلعت البعثة وعلى رأسها سورانز ســورانزو Soranzo Sotanzo (Superantius Superantio) الى الاسكندرية وعلى ظهر السفينة قنصل جديد للجالية الفينيسية بهذه المدينة (٢٠٢) ، سلمه مجلس الشيوخ تعليمات اضافية بوضع حد لتصرفات سيئة شاعت فى الجالية ، وتذليل بعض الصعوبات الآتية من الخارج . وفى هذه المناسبة وضـــع المجلس قواعد جديدة لصـــالح الســـفن التى تبحر الى الاسكندرية (٢٠٣) .

وقد يبدو أنه من تلك الآونة عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبلا : ولكن ذلك لم يكن الا فى الظاهر . فمن حيث المبدأ لم يرفع الحظر على التجارة ، وباستثناء بعض الحالات التى منح فيها البابا بعض التراخيص باذن خاص ، أبقت محكمة فينيسيا بشدة على الحظر . وفى الأصل ، كان لهذا الموقف ما يبرره : فقد كان يجرى بهمة اعداد حملة لغزو الأرض المقدسة ، وكان من الضرورى اضعاف العدو بقطع موارد قوته ، وأسباب معيشته . غير أن البابوات ، باصرارهم على الابقاء على الحظر فى حين كان الأمل فى حرب صليبية جديدة يتضاءل شيئا فشيئا ، ومع أن أحد أبطال الحظر الشديدى التحمس له ، وهو مارينو سانوتو الكبير أبدى النصح

(٢٠١) Taf. et Thom., IV, 296 et s.

(٢٠٢) Dandolo, l.c.; Laur de Monac., l.c., Sanuto, l.c.

(٢٠٣) Taf. et Thom., IV, 308 et S.; Biblioth de l'Ecole des chartes, XXXV (1874), p. 101.

منذ زمن بعيد (١٣٢٦) بالكف عنه (٢٠٤) ، تجاهلوا (أى البابوات) أو استخفوا بالتغيرات التى حدثت فى الموقف بمرور الزمن ، ولم يعد الأمر من جانبهم سوى عناد وأنانية يستحقون عليهما اللوم ، الغرض منهما ببساطة اجبار الأمم التجارية على السعى لاكتساب الحظوة لديهم ببذل الهبات لخزائنهم أو لحاشيتهم .

وقد أعطينا فيما سبق مثلا لذلك ، وهاكم مثلا آخر : ذلك هو ايصال المخالصة الذى حرره أمين خزانة البابا بمبلغ ٩٠٠٠ دينار ذهبى دفعه فى عام ١٣٦١ الدوج جيوفانى دلفينو Giov. Delfino تعبيرا عن شكره من أجل ترخيص منحه البابا (٢٠٥) . ويبدو أن الخزانة البابوية كانت وقتئذ فى مسيس الحاجة الى هذا المبلغ . غير أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد : فالتراخيص أصبحت سلعة حقيقية تتداولها الأيدى . من ذلك أن رخصة منحها فى البداية البابا اينوسنت السادس لشخص يدعى جيرادو دى روستيشيللو دى ديبه ، تنازل عنها هذا لبعض الجنويين ، وأخيرا دفع أحد سكرتيرى دوج البندقية عن نصفها مبلغ ألف « دوكا » (٢٠٦) . وفى هذه الحالة كان الأمر يتعلق بسفينتى شحن . ولكن فى مرة أخرى بلغ الثمن المطلوب للحصول على رخصة بارسال ثلاثين سفينة كبيرة وعشر سفن شحن الى مصر ١٢٠٠٠ دينار ذهبى : هذه الرخصة منحها البابا كليمنت السادس لقريبه جويوم روجير الثالث Guillaume Roger III كونت بوفور Beaufort وفيسكونت تورين Taurenne (٢٠٧) ، وهو من أغنى ملاك جنوب فرنسا ، ولالينور دو كومانج (دو كونفنيس) Aleinor de Comminges (de Convenis) زوجته ولكن البابا كان يعلم تمام العلم أن أملاك الكونت بعيدة عن البحر ، وأنه لا يستطيع أن يستخدم الرخصة بنفسه ، وعلى ذلك كان لابد للرخصة من البداية أن تنتقل الى أيد أخرى ، ثم أن البابا أذن للكونت بذلك صراحة فى الرخصة ، ووهب الكونت الرخصة لشخص يدعى ستيفانوس دى

(٢٠٤) Epist., à la suite des secr. fidel cruc., p. 207.

(٢٠٥) Commem. reg., II, p. 321, nos 244, 245, 246; p. 319, no 223; p. 329 no 241.

(٢٠٦) Commem., p. 323, nos 256, 258.

(٢٠٧) Anselme, Hist générale de la maison royale de France. 3e éd., VI, 317.

باتوتو نظير خدمات أداها هذا اليه ، وباعها ستيفانوس هذا لدوج البندقية (٢٠٨) ٠

وبالاضافة الى الأعباء المالية التى تفرضها هـذه الأمور على الأمم التجارية ، كان هناك اجراء بغيض : ذلك أن البابوات كانوا يقرنون بكل رخصة شرطا يقضى بانه قبل اقلاع السفينة التى منح الترخيص من أجلها ، كان على صاحب الامتياز أن يؤكد بقسم يؤديه أمام أسقفه عدم وجود أية أدوات حربية ضمن الشحنة ، وعلى الأسقف أن يستوثق بنفسه من صدق القسم (٢٠٩) ٠ وهكذا لم يكن يكفى البابا أن البندقية قـد أدرجت فى تشريعها حظر نقل الأدوات الحربية الى بلاد المسلمين ، بل فرض أيضا رقابة صارمة على السلطات الكنسية ٠

وفى عام ١٣٥٩ ارتكبت فى البندقية مخالفة لهذا التحريم ، وللحال سحب البابا اينوسنت السادس كل التراخيص التى منحها من قبل لمصر وسوريا، هو أو أحد أسلافه٠ وبالاجمال كان البابوات يعتبرون تراخيصهم قابلة للسحب فى أى وقت ، وكثيرا ما كانوا يفرضون حظرا كليـا على التجارة ، أحيانا بمناسبة ارتكاب مخالفة ، كالتى ذكرناها ، وأحيانا عند نشوب معارك بالأسلحة بين المسلمين والمسيحيين (٢١٠) ٠

وقد نثير الملل اذا ذكرنا لى الرخص التى حصل عليها البنادقة ، وبخاصة فى فترة معينة (من عام ١٣٦٤ تقريبا) حيث تتابع صدورها بانتظام تقريبى من عام الى عام ، وأحيانا كانوا يحصلون على عدة رخص فى عام واحد ٠ وكانت هـذه الرخص كثيرا ما تشمل عددا كبيرا من السفن ، ويبذل البنادقة قصارى جهدهم ليستفيدوا منها بالكامل ، وكانوا من جهة أخرى يجتهدون باخلاص فى الا يتجاوزوا العدد المرخص لهم من السفن ، أو المهل المحددة (٢١١) ٠

واذا كان البنادقة قد استطاعوا ببذل المال ، وطيب المقال تذليل الصعوبات التى نجمت عن الحظر الذى استنته الكنيسة على التجارة ،

---

(٢٠٨) pidces publijées par M. Thomas dans l'Archiv. Venet. XVII, 99-125, d'après les commemoraili V. Mas Latrie. Hist. de Chypre, III, compléments, p. 749 et s., et dans les Doc. inéd. Mélang. hist, III, 156-158.

(٢٠٩) Taf. ét Thom., IV, 278-307; Commem. reg.. II, p. 320, no 241; III, p. 42, no 227; p. 76, no 452.

(٢١٠) Commem. reg., II, p. 305, no 153; III, p. 49, no 274.

(٢١١) Commem. reg., II. p. 237, nos 116, 117.

فانهم لم يكونوا أقل براعة فى المحافظة على علاقاتهم الطيبة بسادة مصر ، يشهد بذلك المعاهدات التى أبرمها معهم ايرمولاو فنير Ermolao Venier عام ١٣٥٥ ، ونيكولو كونتاريني Niccolo Contarine عام ١٣٦١ .

فالمعاهدة الأولى (٢١٢) وهى نسخة مطابقة تماما لمعاهدة عام ١٣٤٤ مرفق بها خطاب يعلن فيه قاضى القاهرة لأمير الاسكندرية وقاضيها عودة البنادقة ، ويوصيهما بالترحيب بهم (٢١٣) ، ولا تختلف المعاهدة الثانية عن الأولى الا فى بعض التغييرات والاضافات القليلة الأهمية : فالسلطان الملك المنصور ، أو بالأحرى الأمير يلبغا Ylbogha (٢١٤) الذى كان يحكم باسمه يرخص للقنصل البندقى بالاسكندرية أن يحول نقودا الى بضائع فى حدود ٢٠٠٠ بيزانت (بدلا من ١٠٠٠ وهو الحد المسموح به من قبل) دون أن يدفع رسما عن ذلك ، ويوافق على اخلاء بعض الحانات الليلية التى تزعج البنادقة لوجودها بجوار فنادقهم (٢١٥) .

وفى حين عمل البنادقة فى أواسط القرن الرابع عشر على تعزيز وضعهم فى مصر بابرام ثلاث معاهدات تجارية جديدة مع هذا البلد (١٣٤٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١) فضل الجنويون أن يبحثوا عن أسواق جديدة على الطرق الشمالية التى تمر بمدينتى كافا ، وتانا عن طريق سورية وفارس ، ومع احتفاظهم بمنشئاتهم فى الاسكندرية ، كما يشهد بذلك سيمون سيميونيس ، أهملوا معاهداتهم مع السلاطين حتى سقطت بمضى المدة دون أن يحاولوا تجديدها ، ومع ذلك كانوا يطلبون دائما الى البابا ، من وقت لآخر الترخيص لهم بعمل رحلات الى بلاد خاضعة للسلاطين .
ففى عام ١٣٣٦ ، كان الحزب الجويلفى السائد وقتئذ فى جنوا فى نزاع مع كل من امبراطور الروم اندرونيك الثانى ، والمستعمرات الجنوية فى البسفور والبحر الأسود . ومن ثم أصبحت المياه الرومية وبنطس مغلقة فى وجه البحرية الجنوية ، ولم تجد الحكومة (الجنوية) وسيلة سوى أن تفتح لها طريقا عبر بلاد المسلمين ، فلجأت الى البابا يوحنا الثانى والعشرين . واذ راعى البابا الأزمة الحادة التى تعانيها الجمهورية فانه

---

(٢١٢) Mas Latrie, Traités suppl., p. 88 et ss. ; Marin, VI, 137-141.

(٢١٣) Oas Latrie. Traités suppl., p. 92; Mas Latrie, dans les Archiv, des miss. scient, II, 373.

(٢١٤) Weil Op. cit., IV, 506 et ss.

(٢١٥) Marin, VI, 141 et s.; Mas Latrie, Tratés. p. 93; de Sacy, Abdallatif. Relation de l'Egypte, p. 324 note 38 et suppl. p. 57 et s.; Chrestom, arab., I, 150 et s.; Quatremère, Makrizi, I, 2, p. 6, nol.

سمح للبحرية الجنوية أن تتوقف عند الساحل الشمالي لسورية (Laoécicena ora) وتدخل من هناك في علاقات تجارية مع فارس والهند : ومنح هذا الترخيص لمدة سنتين (٢١٦) .

ومع أن الأمر لم يكن متعلقا الا باجتياز الأقاليم التي تشكل في الشمال حدا لدول السلطان وأن الهدف المقصود هو فارس اذ كان النضال الكبير ضد تتار الشواطىء الشمالية لبنطس في أوجه في ذلك الوقت ، أي في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر ، اتجه اهتمام الجنويين فجأة نحو مصر . وحتى يعوضهم كليمنت السادس عن النفقات التي تحملوها في سبيل الدفاع عن كافا ضد التتار (١٣٤٦) (٢١٧) منحهم ترخيصا بالاتجار مع هذا البلد . والراجح أنهم استفادوا على قدر المستطاع من هذا الترخيص .

وفي عام ١٣٣٨ رخص ملوك أراجون باعادة علاقات برشلونة مع مصر . واعتبارا من تلك الآونة استعادت الحركة التجارية بين البلدين على ما يبدو نشاطا جديدا . ولم يهدأ بال تجار برشلونة حتى استطاعوا أن يحصلوا في خصوص الرسوم الجمركية على نفس المعاملة التي يتمتع بها الجنويون والبنادقة . وفي حوالي عام ١٣٥٠ نجحوا في خفض الرسوم بالنسبة اليهم والى القطالونيين من ١٥٪ الى ١٠٪ ، وهو سعر مخصص للأمم الأكثر مراعاة . وتكلفت السفارة الموفدة الى السلطان في هذه المناسبة ٨٠٠ بيزانت ذهبي . ولتغطية هذا الاتفاق فرضت ضريبة اضافية قدرها ١٪ على كل البضائع المرسلة من برشلونة الى مصر وبالعكس (٢١٨). تدفع للقناصل : وثبت وجود هذه الضريبة الاضافية ، ووجود الفندق . وفي وثائق رسمية (٢١٩) .

تتيح لنا اللمحة الموجزة التي قدمناها آنفا عن العلاقات بين الأمم التجارية الرئيسية وبين مصر أن نصدر الآن حكما اجماليا على نتائج الحظر الذي فرضه البابوات . ولا ننكر أنه في الفترة التي أبقى فيها على هذا الحظر بشدة من جهة ، وروعي من جهة أخرى ، كف عدد من التجار عن زيارة الاسكندرية ، واهتموا بالبحث عن أسواق أخرى لتجارتهم . ولكن حتى في هذه الفترة كان هناك عدد لا بأس به من التجار استمروا في

---

(٢١٦) Raynald, a. a. 1326, no 25.

(٢١٧) Canale, Storia dei Genovesi, (Ière ed.), IV, 346.

(٢١٨) Capmany, Mem., IV, 107 et s.

(٢١٩) Ibid. II, app., p. 66 : brevet de 1358.

التردد فرادى على البلد الممنوع زيارته ، يجذبهم اليه الأرباح الضخمة التى تكفلها التجارة مع مصر ، وأيضا بسبب الصعوبات التى تحيط بهذه التجارة ، ولم يبالوا بالتهديدات الكنسية الرهيبة (٢٢٠) ·

وبالتأكيد اسهم الضغط الذى مارسته البابوات لفترة زمنية معينة فى تحويل السياسة التجارية التى تنتهجها الأمم المهتمة بهذه التجارة الى بلاد أخرى ، فبذلت اهتماما أكبر بالطرق الجديدة المفتوحة عبر المناطق التى يحتلها التتار ، وكفت عن ارسال أساطيلها الى مصر · ولكن حتى فى أشد أوقات هذه الفترة ، لم تفقد الاسكندرية بالكامل الأهمية التى لوضعها · من الوجهة التجارية العامة · ففى هذه الفترة رأى بيجولوتى الذى كان يقيم وقتئذ فى قبرص من الضرورى أن يضع قائمة مقارنة بالنقود والموازين والمكاييل المستعملة فى الاسكندرية من جهة ، وفى عشرة أماكن تجارية فى ايطاليا ، وبروفانس ، وأسواق شامبانى Champagne من جهة أخرى (٢٢١) · وحين نرى فى كتابه كميات التوابل المكدسة فى سوق الاسكندرية ، نقول انها حقيقة بألا تكون كذلك لو لم يكن تصريفها الى الغرب مكفولا ·

وكان رعايا الأمم التجارية يجدون هناك فى كل العصور نواة من مواطنيهم مستقرين فى مصر ، وقناصل وفنادق تابعة لأوطانهم · ذلك لأنه حتى فى الزمن الذى كان فيه الحظر أثقل ما يكون عبئا على التجارة ، لم تقطع السلطات البلدية فى البندقية وجنوا وبرشلونة ومرسيليا علاقاتها البتة مع مصر لدرجة الغاء قنصلياتها ، أو اغلاق فنادقها ، أو استدعاء تجارها ·

وتقدم الأخبار الغربية برهانا على وجود تجار من الفرنجة فى الاسكندرية ، اذ تحكى نزاعا قام فى عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦/١٣٢٧ م) بين هؤلاء التجار وبين الأهالى المسلمين بالمدينة : فنسب المقريزى الخطأ الى المسيحيين ، ولكن من الراجح أن التعصب والغيرة لعبا دورا من ناحية المسلمين (٢٢٢) · وفيما بعد ، فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ،

---

(٢٢٠) من بين ما ذكر فى هذا الخصوص ثلاثة تجار من راجوزة ، قبض عليهم فى عام ١٣٠٤ متلبسين بجريمة الاتجار مع مصر · وقد صفح عنهم بنوا الحادى عشر بشرط أن يتخلوا عن جزء من ارباحهم لبناء دير للدومينيكان فى بلدهم :
— Theiner, Monum hist. Slav. merid. illustr., I, 121.

(٢٢١) Pegol., p. 56 et ss.

(٢٢٢) Relations de Nouveiri et de Makrizi (de Sacy, Chrestomathie arabe, II, 48) reproduites par M. Weil (Gesch. d. Chalif., 360 et s.). Ibn-Batouta (voyages, I, 45 et s.)

حين ضاعف البابوات التراخيص ، أقبل الغربيون من جديد الى الاسكندرية في جموع كبيرة ، وعادت بالتدريج حركة السفن التجارية في هذا الميناء نشيطة كما كانت من قبل ، أو يجوز لنا على الأقل أن نعتقد ذلك ، مع أنه لا توجد احصائيات في هذا الخصوص ٠

وما كادت الأعمال تستعيد سيرتها الأولى حتى انقطعت فجأة من جديد بسبب وقوع حادث لا يمكن أن نصفه بأحسن من أنه خاتمة من خواتم الحروب الصليبية ٠ ذلك أن بطرس الأول ملك قبرص المحب للقتال جعل من نفسه ، بمؤازرة البابا أوربان الخامس المحرض الأول لنشوب حرب مسيحية ضد المسلمين ، ومن أجل هذا جال في معظم البلاد الأوروبية من ١٣٦٢ الى ١٣٦٥ ، وحاول بشخصه وبرسائله أو عن طريق مندوبيه أن يضم الى مشروعاته كل ملوك الغرب ٠ وفي مثل هذا المشروع كانت القوة البحرية لجنوة والبندقية حليفا له قيمته ، ومن ثم لم يدخر وسعا في أن يزور هاتين المدينتين ، الا أنه لم يجد بهما صدى كافيا لندائه ٠ وكانت المصالح التجارية كافية لأن تثير في هاتين الجمهوريتين نفورا من هذه الحملة ٠

ولكن الى جانب هذا الباعث كان عند البندقية وقتئذ مشاغل أخرى ، اذ كانت منهمكة في القضاء على ثورة خطيرة نشبت في كريت (٢٢٣) ٠ أما بخصوص جنوا فانها كانت وقتئذ على خلاف مع الملك بخصوص بعض المشاكل التي لا تدخل تفاصيلها في دراستنا هذه ٠ ومع ذلك فان فصاحة بتروس تومى Petrus Thomoe الداعي للحملة الصليبية ومستشار قبرص فيليب دى ميزير Philippe de Maizières تغلبا أخيرا على ترددات البنادقة الذين وعدوا بتجهيز عدد من السفن يكفي لحمل الفي فارس ، النصف على نفقتهم ، والنصف الآخر على نفقة الملك (٢٢٤) ٠

اما الجنويون فانهم بعد أن استقبلوا في البداية بتروس تومى استقبالا فاترا انتهوا بالاقتناع بالصلح مع الملك ، وتعهدوا بتزويد الحملة

---

(٢٢٣) Commem. reg., III, p. 14, no 60; p. 23 ,no 110 et s.; p. 25 no 126 et s.; p. 55, no 316; p. 56, no 316.

(٢٢٤) Phil. Mazzerius, Vita S. Petri Thomasii, dans les acta SS. Boll., 29 Janv. II, p. 1007, 1011; Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 742 et ss.

الصـــليبية بثلاث ســـــفن (٢٢٥) . ولســـوء حظ الملك طال أمد الاستعدادات (٢٢٦) ، وتفرق عـدد كبير من الذين كان من المنتظر أن يشتركوا فى الحملة . وفى اللحظة الحاسمة اقتصر اسهام جمهـــورية البندقية على سفينة حربية واحدة ، واضطر الملك أن ينفق على تجهيز سفينتين أخريين وباقى السفن (٢٢٧) . وأخيرا ، فى ٢٧ من يونيه ١٣٦٥ استطاع أن يبحر الى البندقية ، وضرب موعدا ليقـــابل فيه جيشه فى رودس .

وكانت الاسكندرية هى النقطة التى اعتزم الهجوم عليها : ففى ١٠ من أكتوبر استولى عنوة على المدينة ، ونهبها (٢٢٨) . ولما كان جيشه قليل العدد ، وغير متين البنيان ، فلم يستطع الاحتفاظ بنصره ، ومن ثم أعادة بعد بضعة أيام الى السفن ، قبل وصول قوات العدو التى هرعت للقـاتلة ، وكر راجعا الى قبرص (٢٢٩) . وفى البندقيـة استياء الناس كثيرا (٢٣٠) من الخطـة التى انتهجتهـا الحملة ، اذ أغـار بطرس على الاسكندرية دون أن يتيح للجالية الفينيسية بها الوقت الكافى لأن تتخذ

(٢٢٥) Phil. Mazz., Op. cit., p. 1012; Lib. jur., II, p. 732-744; Magrizi.

(٢٢٦) انتظارا لبدء العمليات ، أرسل الدوج لورنزونشيلزى الى قنصل البندقية فى الاسكندرية فى شهر أبريل عام ١٣٦٤ أخطارا بترك مقره . وبناء على خطاب وارد من الملك من باريس يدل على أنه لن يتخذ أى عمل جدى فى تلك السنة ، أعطى الدوج أمره للقنصل أن يبقى ، وطلب من البابا عدة تصريحات لسفن تجارية بالابحار الى مصر فى تلك السنة . انظر :

— Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1873, p. 72 et s. ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 252. not; Taf. et Thom., inéd.

(٢٢٧) Phil Mazz., Op. cit., p. 1013; Makrizi, dans de Sacy., Chres-tom. arab. II, 49.

— يتحدث المقريزى فى الواقع عن ٢٤ سفينة بندقية ، ولكن هذا يثبت فقط أنهم فى مصر لم يكونوا يميزون بين السفن التى تجهزها الجمهورية والسفن التى تؤجرها للملك .

(٢٢٨) تتحدث بعض الأخبار الانجليزية :

(walsingham, dans les Scrit. rer. britann. XXVIII, a., : p. 301 et s.; Monach. S. Alban., ibid LXIV, p. 55 et s.)

عن أقمشة حريرية ، وبروكار مذهب ومحلى بالأحجار الكريمـة أحضرهـا بعض الانجليز والأكويتانيين من هذه الحملة .

(٢٢٩) Phil. Mazz. Op. cit., p. 1013-1017 : Machaut Laprise d'Alex-andrie, publ. par Mas Latrie (1877), p. 86-109; Machairas, p. 90 et ss.; Piloti p. 389 et s.

(٢٣٠) Mas jatrue, op. cit., III, 751 et s.

لنفسها اجراءات الأمن الكافية (٢٣١) حتى راح القنصل نفسه اندريا فينير والكثير من البنادقة ضحية لأعمال النهب (٢٣٢) ٠

وتدل هذه الواقعة على ضعف التفاهم بين الملك والبنادقة ٠ أما الجنويون فقد كان لهم فى ميناء الاسكندرية وقت الهجوم عليها ست سفن بها عدد كبير من البحارة ، ولكنهم لم يشتركوا فى الغارة ، ومع ذلك فما أن تمت الغزوة حتى اشتركوا فى نهب المدينة (٢٣٣) ٠ وهكذا كان دور الجمهوريتين فى هذه الحملة دورا ثانويا للغاية ، **ومع ذلك كانت وطأة انتقام السلطان شعبان أثقل عليهما منها على غيرهما : فقد نشر اعلانا دعا فيه التجار المسيحيين الى الاقامة فى أمن وسلام دون أن يخشوا سوءا ، ولم يكن هذا الا خدعة منه ، فبعد انقضاء بضعة أيام ، القى القناع ، وأصدر أوامره بالقبض عليهم والقائهم فى غياهب السجون ، وتم ذلك ٠ وابتداء من هذا الحين لم تجرؤ أية سفينة تجارية بطبيعة الحال أن تخاطر بالذهاب الى الاسكندرية** ٠ وعانى الغرب كله من هذا التوقف فى التجارة : ولما شحت التوابل فى السوق ارتفع ثمنها للمحال (٢٣٤) ٠

والعجيب أن السلطان نفسه هو الذى بدأ يطلب فتح باب المفاوضات للصلح ، فاوفد مفاوضين الى البندقية وجنوا ٠ وأدرك البابا أوربان الخامس للحال من هذا الأسلوب فى التصرف أن السلطان يحاول أن يلقى بذور التفرقة فى العالم المسيحى ليضعف وسائله العملية ، فكتب من فوره الى الجمهوريتين يحذرهما من اقتراحات السلطان الماكرة (٢٣٥)، ولكنه كان فى ذلك متأخرا : فالقوتان التجاريتان كانتا تصبوان الى سرعة استعادة النشاط التجاري مع مصر ٠ وقبل وصول الرسالة البابوية الى البندقية بوقت طويل كان الدوج ماركو كورنارو قد كتب الى شعبان يشكره على اقتراحاته ويعلن اليه ايفاد سفيرين ، فرانشسكو بمبو Francesco Bembo ، وبييترو سورانزو Pietro Soranzo ، وتلقى جوابا على رسالته بأنهما سوف يلقيان كل ترحيب (٢٣٦) ٠ ورحل السفيران بالفعل رغم تحذيرات البابا (٢٣٧) ٠

---

(٢٣١) وعد بطرس الدوج الا يقوم بأى عمل ضد الاسكندرية قبل نهاية شهر اكتوبر ، ولكنه لم يف بوعده : — Bibl. de l'Ecole des chartes, 1873, p. 79.

(٢٣٢) Ibid., 1873, p. 78 et ss.

(٢٣٣) Phil. de Maizières, dans Latrie II, 388 et s.

(٢٣٤) Les chroniques anglaises .... et Machaut,, Op. cit., p. 115 et s.

(٢٣٥) Daynald, a. a. 1366, no 12; Commem. reg., III, p. 45, no 251;

(٢٣٦) هذا فى الحقيقة هو الغرض من الخطاب الذى لا يحمل تاريخا والموجود فى : Les commem reg., III, p. 48, no 268.

(٢٣٧) من وثائق اعتمادهما ما يحمل تاريخ ٢٩ يناير ١٣٦٦ Mas latrie, III, 753.

وليس لنا علم بنص الأوامر التى أعطيت لهما · ولكن تبعا للتاريخ المنظوم لجويوم دوماشو Guillaume de Machaut فان هذه الأوامر كانت قاصرة على طلب اطلاق سراح مواطنيهما ، والتأكيد بأن التجار البنادقة الذين يرغبون فى الذهاب الى مصر سوف يلقون بها المعاملة التى تكفلها لهم الامتيازات القديمة (٢٣٨) ، وقد حقق لهم السلطان على الأقل هذا المطلب · وفى شهر يونيه عام ١٣٦٦ ، أرسلت الحكومة الفينيسية الى سفرائها فى بلاط البابا نص معاهدة أبرمتها مع السلطان ، وكلفتهم بأن يضعوا هذا النص تحت أنظار البابا لاقناعه بأن موضوع هذه المعاهدة هو فقط تسوية المسائل التجارية (٢٣٩) ·

وسرت اشاعة فى الأوساط الكنسية بأن الأمم التجارية تفصل قضيتها عن قضية ملك قبرص ، وأنها تستعد لعقد صلح منفرد مع السلطان (٢٤٠) ، لذا حرصت الجمهورية على احاطة البابا علما بأن الوفد الذى بعثت به الى السلطان لم يكن له أية صبغة سياسية · غير أنه من غير المعقول أن تجرى مفاوضات دون أمل فى الوصول الى عقد صلح حقيقى ، فقط كان فى بلاط مصر حزب ذو نفوذ قوى يريد الحرب (٢٤١) ، وأبدى السلطان أنه لن يوقع على معاهدة صلح مع الجمهورية الا اذا اشترك فى المعاهدة عدوه الرئيسى ملك قبرص · وعلى ذلك انتقل السفراء الى قبرص حيث كان الملك يستعد لارسال حملة الى سواحل سوريا ، فنجحوا فى اقناعه بالعدول عنها ، واجراء مفاوضات مع السلطان (٢٤٢) · الا أن هذه الجهود كلها لم تسفر عن شىء لأن السلطان لم يكن فى الواقع يريد الصلح (٢٤٣) ·

وفى هذه الأثناء توجه مارينو فينير ، وجيوفانى فوسكارينى الى أفينيون ليشرحوا للبابا أوربان الخامس باسم جمهورية البندقية أنه

---

(٢٣٨) Machaut ,Op. c., p. 116.

(٢٣٩) Mas Latrie, III, 755; Makrizi dans Weil, op. cit., IV, 518 et s.

— ينبغى قراءة ١٣٦٦ بدلا من ١٣٦٨ ·

(٢٤٠) Phil. Mazz., l.c., p. 1017; Raynald, 1366, no 16.

(٢٤١) لتهدئة الأمير يلبغا ، أهدته الجمهورية صقورا مدربة على الصيد :
— Weil, Op. cit., p. 512 et s.; Mas Latrie, II, 285.

(٢٤٢) Machaut, p. 118 et s.; Machairas, p. 94 et s,

(٢٤٣) Machaut, p. 122 et ss.; Machairas, p. 97 et ss.; Mas Latrie, II, 292.

يمكن اعتبار الصلح قد تم ، وأن الأمر لايتوقف الا على ملك قبرص ، وان الجمهورية مصممة فى هذه الظروف على استعادة التجارة مع مصر دون انتظار القرارات الأخيرة التى يصدرها الملك ، ولكنها حريصة قبل كل شىء على الحصول على اذن من قداسته (٢٤٤) . وعلى ذلك منح البابا ترخيصا بأربع سفن شاحنة ، وثمانى سفن كبيرة ، ولكن لرحلة واحدة فقط ، وصرح بأنه يعتبر أى اتفاق بين البندقية والسلطان ، تم عقده ، أو جارى عقده باطلا وكأنه لم يكن اذا كان من شأنه أن يعرقل استمرار الحرب الصليبية ضد المسلمين (٢٤٥) .

وبعد انقضاء بضعة أسابيع (١٧ أغسطس) علم البابا بالاستعدادات الجارية فى مصر وسورية ضد قبرص ورودس (٢٤٦) ، فأعلن عن حظر عام جديد (٢٤٧) ، حتى لا يقال ان الأمم التجارية تتآخى مع المسلمين فى الوقت الذى تتعرض فيه المراكز المتقدمة للعـــالم المسيحى لغاراتهم . واذ قررت حكومة البندقية منع مرور الفرق العسكرية الثانوية والخيل والأسلحة قاصدة قبرص ورودس ، فقد أنذرها البابا بالغاء قرارها هذا ، كما احتج ملك قبرص على ذلك (٢٤٨) .

ومع ذلك عاد الكثير من التجار الغربيين يزاول التجارة مع مصر . ويحكى فيليب دو ميزير Philippe de Maizières أن الظواهر الطبيعية تجلت قاسية للغاية مع هؤلاء التجار ، ورأى فيها عقابا أنزلته بهم السماء . والشىء الذى يبـــدو أقرب الى المنطق أنهم لم يلقوا لدى المسلمين سوى مقابلة سيئة ؛ وفى خريف عام ١٣٦٦ كانت خمس سفن فينيسية راسية فى ميناء الاسكندرية بين سفينة جنوية وسفينة قطالونية، فارتابت السلطات فى وجود قبارصـــة بها ، وأنذرت السفن بتســـليم القبارصة . ورفضت السفن ، واعقب ذلك معركة قصـــيرة تغلبت فيها البحرية المصرية . وانتهز السلطان هذه الفرصـــة للتنديد بالبنـــادقة

---

(٢٤٤) Mas Latrie, III et SS. (documents des 6, 14 et 25 Juin 1366).

(٢٤٥) Commem. reg., III, p. 47, no 267 (23 juin 1366).

(٢٤٦) منذ الربيع

Archives de l'Orient latin, I, 391 et s., Paoli, Cod. dipl. II, 95.

(٢٤٧) Commem. reg., III, p. 49, no 274; cf. Phil. Mazz., l.c., p. 1017.

(٢٤٨) Commem. reg., III, p. 51, no 296; p. 53, no 305, Mas Latrie, Hist de Chypre, II, 285-289.

الذين وعدوا بأن يكونوا أصدقاء له ، ولكنهم تعاونوا مع أعدائه ، وأصدر أمره بالقبض على كل من وجد منهم فى اقليمه : فاعتقل ستة وأربعين بندقيا فى بيروت (٢٤٩) ، ولقى آخرون نفس المصير فى طرابلس . وطال سجن كل من اعتقلهم السلطان بعد حادث الاسكندرية (٢٥٠) .

أصبح واضحا أنه طالما لم ينعقد الصلح انعقادا متينا بين السلطان وملك قبرص ، فانه لا أمل فى استتباب الأمن لصالح التجارة . وفضلا عن ذلك أعلن السلطان جهارا للجنويين (٢٥١) والبنادقة بأنه لايمكن أن يعقد صلحا حقيقيا معهم طالما هو فى حالة حرب مع قبرص . وبذل البنادقة والجنويون والقطالونيون كل مافى وسعهم لبث روح السلام فى نفوس الملكين ، ولكن فى اللحظة التى انتعش فيهـا الأمل ببلوغ هذه الغاية ، انقطعت المفاوضات بسلسلة من الهجمات التى شنها ملك قبرص على مدن سوريا الساحلية (ديسمبر ١٣٦٦ ، سبتمبر ١٣٦٧)(٢٥٢) . وتشبث هذا الأمير ، مدفوعا بميوله القتالية ، بمشروعاته الصليبية العامة : ولكى يحققها قام بجولة ثانية فى الغرب ، وقام ببعض الوقت ، عام ١٣٦٨ لدى البابا فى روما (٢٥٣) حيث أوفدت اليه جنوا والبندقية سفراءها ليبذلوا الجهد لحمله على التصالح مع السلطان . وتحدث البابا نفسه بهذا المعنى ، وقبل أن يتوسط بين هاتين الدولتين ، وأذن لمفوضية الذين عينهم لهذا الغرض أن يعقدوا الصلح باسمه ، مع بعض الشروط (٢٥٤) . وكلفت جنوا لهذه المهمة كاسانو تشيجالا Cassano Cigala ، وباولو جستنيانى Paolo Giustiniani ، وانتدبت البندقية نيكولوجستنيانى ، وبيترو مارتشيللو ، ولكن عناد السلطان قضى على كل الجهود .

---

(٢٤٩) Commem. reg., III, p. 52, nos 301, 302; Taf. et Thom inéd.; Machairas, p. 100; Commem. reg., III, p. 55 et s., no 319.

(٢٥٠) Mas Latrie, III, 319.

(٢٥١) Machairas, p. 106 et s.; Strambaldi, dans Mas Latrie, II, 347; Makrizi; de Sacy, Chrestom., p. 50, et Weil, Gesch. der Chalif., IV, 513 not 2.

(٢٥٢) Machairas p. 102 et s. 113 et ss. Machaut, p. 205 et ss., Makrizi, dans Weil, IV, 523.

(٢٥٣) Mas Latrie, II, 241, not.

(٢٥٤) انظر وثيقتى ١٩ ، ٢٠ من مايو ١٣٦٨ فى :

— Mas Latrie, II, 291 et ss., 302 et ss.; Machaut, p. 219 st ss. ; Machairas, p. 119 et ss.

ولم يكن الصلح قد انعقد بعد حين اغتيال أحدهم بطرس الأول (١٧ يناير ١٣٦٩) (٢٥٥) . وفى هذه الأثناء استمر السلطان يسجن ، وينهب ، ويسيء المعاملة ، وأحيانا يقتل التجار الذين يقعون فى يديه . وثارت حفيظة الجمهوريتين ، فاعتزمتا أخيرا التخلى عن دور الوساطة ، وأن ترسلا الى مصر سفنا حربية لاجبار السلطان على اطلاق سراح السجناء (معاهدة التحالف فى ٢٨ من يوليه ١٣٦٩) ودعيتا الوصى على عرش قبرص ، والرئيس الأكبر فى رودس أن ينضما اليهما . وتعاهد الجنويون والبنادقة على الغاء كل تجارة مع مصر طالما استمر هذا النزاع : ونص على ذلك صراحة فى المعاهدة . وفيما يخص سائر الأمم التجارية ، فان البابا عمم ومعها هذا الاجراء باصداره مرسوم ٢٧ يوليه من نفس السنة (٢٥٦) . وكان لابد أن ينتهى كل شيء ، حسب الظاهر ، ولكن بعد هذه المبادرة العظيمة ، وبعد ملأ أوراق كثيرة بالكتابة ، انتهى كل ذلك بارسال ثمانى سفن خليفة ، اتخذت لها مواقع قبالة الاسكندرية ، وأرسلت الى السلطان انذارا حاسما باطلاق سراح المسجونين . ولما لم يظهر فى رده أى استعداد للامتثال ، انسحبت السفن بعد أن تركت له اعلانا بالحرب (ديسمبر ١٣٦٩) (٢٥٧) .

ومع ذلك فان توقع السلطان نشوب حرب جديدة فى عام ١٣٧٠ ضد الغرب المتحالف نجح فى اخافته ، فأنبأ قبرص بانه على استعداد للصلح . وقوبل هذا النبأ بالفرح ، وأوفد سفراء جدد الى مصر للمفاوضة باسم ملك قبرص ، والرئيس الأكبر برودس ، وجنوا ، والبندقية ، نجحوا فى وضع أسس لسلام دائم بين السلطان وهذه الدول كلها (نوفمبر أو ديسمبر ١٣٧٠) (٢٥٨) ورغم كل الجهود التى بذلت الى اليوم لم يمكن العثور على وثيقة الصلح هذه .

---

(٢٥٥) Machairas ; Mas Latrie, III, p. 304; Taf et Thom. inéd.

(٢٥٦) Commem. reg. III, p. 82-86, nos 503, 506 509, 510, 512-215 517-521.

تحكى المصادر العربية أنه فى عام ١٣٦٩ قامت أربع سفن حربية افرنجية بالهجوم على الاسكندرية ، ولكنها ردت على أعقابها خاسرة : هذه الواقعة لا صلة بينها وبين الحملة التى أعدتها الأمم المتحالفة ، ذلك الحلف الذى لم يتم كما ذكرنا بعاليه الا فى ٢٧ يولية : والحقيقة هى قيام سفن قبرصية بمحاولة غزو الاسكندرية فى أثناء سلسلة من الغارات التى شنتها على طول سواحل سوريا (فى ١٠ من يولية) .

(٢٥٧) Machairas, p. 161-164; weil, Gesch. der Chalif., IV, 523 et s.; Machairas, p. 159 et s.

(٢٥٨) Makrizi dans de Sacy, Chrestom arab., II, p. 50 et dans weil, IV, 524, Machairas, p. 164-171; Mas Latrie, II, 347 et ss.

وعلى كل حال حصلت الأمم التجارية على نتيجة مزدوجة كانت مطلوبة بشدة : فقد استرد التجار الغربيون الذين ظلوا مسجونين منذ زمن بعيد أو قريب في سجون مصر وسوريا (٢٥٩) ، استردوا حريتهم ، وفتحت المعاهدة للتجارة البحرية عهدا من الأمن كان مغلقا منذ زمن بعيد. واذ كف البابا أوربان الخامس عن اقامة العراقيل في وجه التجارة مع مصر ، فانه رفع الحظر الذى كان قد جدده أخيرا بقرار في عام ١٣٦٩ ، ومنح رخصا جديدة (٢٦٠) . والثابت أن الغربيين أسرعوا بحماسة أشد من ذى قبل الى السوق التى أعيد فتحها للتجارة ، وتنافسوا في بذل الجهود لاستخلاص أقصى مايستطيعون من ربح . ومن بين الذين تذكرهم الوثائق نجد أهالى راجوزة Ragusans ؛ فبناء على توصية الملك لويس ملك هنغاريا ، نجح هؤلاء في الحصول على اعفاء من الحظر البابوى (١٣٦٦) ، (٢٦١) وبعد انعقاد الصلح طلبوا من السلطان شعبان أن يمنحهم امتيازا لتجارتهم ، وحصلوا على هذا الامتياز (٢٦٢) .

وسوف نتناول في فصل آخر قصة تطور التجارة بين أوروبا ومصر بعد سنة ١٣٧٠ ، أما الآن فلابد أن نضع خاتمة للفترة التى درسناها حتى الآن ، ولا يبقى علينا بعد ذلك الا أن نلقى نظرة سريعة وعامة على الأقاليم والأسواق التابعة لامبراطورية سلطان مصر حيث يتلاقى الغربيون والشرقيون كما اعتادوا أن يتلاقوا ، وعلى الطرق التجارية التى كانوا يسلكونها .

ففيما يختص بالاسكندرية ، أولى هذه الأسواق ، فانا قلنا كل ما يمكن أن يقال عنها كلما ورد اسمها في حكاية الأحداث التى نكتب عنها . ولكن دمياط التى تحدثنا عنها قليلا ، فانها تستحق أكثر من مجرد تنويه . فنقل المدينة ، واعادة بنائها على موقع من النيل بعيد عن البحر أفقدها كما رأينا مزية موقعها الأول على الخط الذى تسلكه التجارة . ومع ذلك مازالت ايرادات جماركها كبيرة ، تزود خزانة السلطان بمعونة

---

(٢٥٩) وسجون دمشق أيضا ، تبعا لما ذكره ابن قاضى شهباء ؟ Ibn ûadhi Chouhbah -- Weil, Op. cit.

(٢٦٠) Commem. reg., III, p. 94, no 587.

(٢٦١) Theiner, Mon. hist. Slav. merid., I, 285.

(٢٦٢) Luccari, Ristretto degli annali di Rausa, p. 63.

- يطلق المؤلف على شعبان اسم « مليش سيراف » Melech Seraf والحقيقة أن السلطان كان يحمل لقب الملك الأشرف .

قيمة (٢٦٣) ، وعندما زارها ابن بطوطة فى عام ١٣٢٦ وجدها ممونة بسلع من كل نوع (٢٦٤) • ويتحدث عنها بيجولوتى كثيرا (٢٦٥) ، ويكفى هذا لاثبات انها كانت ومازالت قبلة الكثير من الغربيين • ومع ذلك ففى القرن الرابع عشر قلت زياراتهم كثيرا عمـــا كانت فى عصر الحروب الصليبية ، ولم تسترد التجارة قليلا من الحياة من هذه الناحيـة الا فى نهاية العصور الوسطى •

وفى دمياط ، كما فى الاسكندرية ، كانت المواد المطلوبة والثمينة أكثر من غيرها فى السوق هى الواردة من الهند ، وكانت البضائع تتبع دائما الطريق التى تكلمنا عنها فى معرض الحديث عن العصور القديمة ، **فمن عدن كانت البضائع تصعد البحر الأحمر حتى عيذاب Aidab ، ومنها تنقلها قوافل الى قوص Kous** ، ومن هذا الموقع الأخير تتبع مجرى نهر النيل حتى البحر المتوسط ، وينبغى عدم الاستعانة بالمصادر الغربية للعثور على وصف صحيح لهذا الطريق ، ذلك لأن الرحلة بالنسبة الى الأوروبى فى ذاك العصر كانت محفوفة بمخاطر شديدة ، حتى ان القليل جدا منهم ، هم الذين نجحوا فى التوغل داخل تلك المناطق • من ذلك على سبيل المثال أن سانوتو الأكبر يتصور أن عدن واقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وفى رأيه أن منتجات الهند كانت تنقل من عدن الى قوص على ظهور الجمال فى تسعة أيام (٢٦٦) (وهذا زمن قليل جدا بالتأكيد) ومثال آخر يتبدى فى «الخريطة القطالونية» Carte catalane التى يرجع وصفها حسب الرأى المسلم به بوجه عام الى سنة ١٣٧٥ يخلط بين القصير وقوص ، وليس ذلك لأنها تضع القصير على النيل فى الموضع الذى توجد فيه قوص ، والعكس بالعكس ، فالمدينتان مثبتتان تماما فى موضعهما الصحيحين : فنحن نتبين تماما على الخريطة خطا يمثل مجرى النيل ، وخطا آخر موازيا له يمثل ساحل البحر الأحمر ، ونقرأ اسم Cassa أى قوص Kous على الخط الأول ، واسم Chos أو قصـــير Kosseir على الخط الثانى الى جانب Aidab (عيذاب cdydip

---

(٢٦٣) Haython, Hist, orient., cap. 54.

(٢٦٤) Ibn Batouta, I, 59.

(٢٦٥) Pegol, p. 59, 77, 191; Nicc. da Pogg,. Libro d'alframare, II, 185.

(٢٦٦) Ed. Bongars, p. 22; p. 260; Zurla di Marco Polo.

— كان الاخوة بيزيجانى أكثر علما بهذا الخصوص ، فخريطتهم (المرســـومة عام ١٣٦٧) مصحوبة بشرح نجد فيه أن ثمة سفنا تحمل حاصلات الهند الى عدن ، ومنها عبر البحر الأحمر حيث تصل الى نهر لا يمكن قراءة اسمه (هو النيل ، يقينا) •

وانما هناك شرح للخريطة نقرأ فيه : « فى مدينة Chos تجلب الأفاويه الواردة من الهند ، ومن هنـــاك تنقل الى بابليون (القـــاهرة) والى الاسكندرية » (٢٦٧) ٠

هذا النص واضح ، واذا أخذنا به ، فلابد من التسليم بأن السفن القادمة من عدن لم تكن تنزل شحنتها الى البر الا فى القصير ٠ غير أن الخلط واضح فالشرح يطبق على ميناء القصير Chos البحرى ما كان يجب أن يطبقه على مدينة قوص Cossa على النيل ٠ وفى هذا الخصوص تتوافق شهادات الجغرافيين والمؤرخين العرب بالاجمـــاع ، وهى وحدها الجديرة بالثقة : فالسفن المحملة بالتوابل لم تكن تصعد حتى القصيـــر ، ولكن فقط الى عيذاب ٠ ولنأخذ أولا بشهادة كاتبين فى مستهل القرن الرابع عشر ، أبو الفدا ، وشهاب الدين ٠ فالاول يذكر عيذاب على أنها ملتقى تجـار اليمن (التى كانت عدن هى أهم سوق فيها) (٢٦٨) ٠ أما الثانى فيقول ان « قوافل بحار الهند والحبشة واليمن والحجـــاز » تجتاز صحراء عيذاب وتتوقف عند قوص (٢٦٩) ٠ والمقريزى ، الكاتب فى العصور الوسطى الذى عرف أحسن من غيره مصر وتاريخها يصدق على أقوال الاثنين السابق ذكرهما ، ويزيد عليها فيعرفنا بأن عيـــذاب هى الموقع الذى كانت تفرغ عنـــده منتجات الهند حتى عـــام ٧٦٠ هـ (١٣٥٩م) (٢٧٠) ، وأنه اعتبارا من هذا التاريخ اتخذ المسار التجارى اتجاها آخر : فمن عيذاب كانت التوابل تحمل كما كانت من قبل على ظهور الجمال حتى قوص ، مقر حكام مصر العليا ، فهذه المدينة التى كانت أقل قليلا من القاهرة من حيث أهميتها التجارية ، تضم عددا كبيرا من المخازن ، وأسواقا فاخرة (٢٧١) ، ويذكر أبو الفدا قوص باعتبـــارها ملتقى تجار عدن ، وكان من بين سكانها عددا من التجار الأثرياء ٠

وكان فى مصر اتحاد لتجار الجملة له فروع تمتد الى أنحاء بعيدة ، يطلق عليها اسم Karémites ويمارس أعضاؤها التجارة مع اليمن ، وبنوع خاص مع عدن ، وكانت تجارة التوابل أهم فرع فى أعمـــالهم

---

(٢٦٧) Ed. Buchon et Tastu, p. 114.

(٢٦٨) Aboulf., Géogr., trad. Reinaud, I, 167.

(٢٦٩) Mesalek-el-Absar, cité par Quatremère, Mém. sur l'Egypte, I, 194.

(٢٧٠) Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II, 162 et s.

(٢٧١) Aboulf., trad. Reinaud, I, p. 151; Ibn Batouta, I, 106 et s.; Quatremère, Mem. sur l'Egypte, I, 194.

التجارية (٢٧٢) ، ويملكون مستودعا في قوص ، وهذا دليل على ما لهذه المدينة من أهمية تجارية • وهناك تشحن منتجات الشرق في مراكب (٢٧٤) تهبط مجرى النيل في خمسة عشر يوما حتى القاهرة ، ومنها تصل بطريق الماء الى الاسكندرية ، باستثناء نقلة قصيرة على اليابسة في نهاية الرحلة ، على طول الفرع الذي يتجه نحو الشمال الغربي (٢٧٥) • ذلك هو ، الى نهاية الفترة التي تهمنا في هذه الدراسة الطريق العادي الذي تسلكه منتجات الهند والصين ، على الأقل بالنسبة الى القسم الذي يمر بمصر • وثمة سفن قليلة تنزل شحنتها في الطور Tor بشبه جزيرة سيناء ، أو في السويس حيث تنقلها قوافل الى النيل (٢٧٦) • وفي بدايات هذه الفترة أظهر عدد من قباطنة السفن ايثارهم الصعود حتى الطور سيرا بالقرب من الساحل العربي • وفيما بعد امتنع هذا الاستثناء ، ولكنه عاد في الفترة التالية فأصبح القاعدة العامة •

وأعتقد أنه لا فائدة من الاصرار على اثبات أن مكة كانت تتمون عن طريق عدن بمنتجات الهند والصين ، وأنه في الأعياد السنوية التي تقام

---

(٢٧٢) Les notes de Quartemère, dans les Not. et extr., XII, 639; XIII, 214 et s.;
Amari,Dipl. arab., p. lxiii; Makrisi, Hist. des sult. mamlouks, II, 1, p. 92 et s.; II, 2, p. 167; Chroniken der Stadt Mekka, publ. par Wuestenfeld, II, 285.

(٢٧٣) Quatremère, dans les Not. et exts., XIII, 215.

(٢٧٤) يشار اليهم باسم Zerme العربية في نص السيد بولو ، ص ٥٩ ؟ germe, في : أماري (Amari, Dipl arab, p. 339) و giarme, في (Frescobaldi, p. 32) و cerme أو sarme في بيلوتي ، ص ٣٤٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، germes في لانوى Lannoy ص ٦٨ ، ٧١ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣٦ • germe, و éd. Polvin. في Ghistele, p. 192 giermo; في gerba ; Pegol., p. xxiii. Tafur, p. 76 ، وأعطى الأخير عن ذلك وصفا تفصيليا

(٢٧٥) سمي هذا الفرع taligiata (Sanuto, p. 22) calizene, ، عند السيد بولو ، Calis, Caliz, Sigoli, p. 168. عند بيلوتي ص ٣٤٥ ، ٣٩١ •

ـ كلمة خليج العربية تعني قناة بوجه عام ، ولكنها تطلق بنوع خاص على فروع النيل • انظر :

Viaggi alla Tana, p. 144; les notes de Poggi, dans l'éd de Sigoli, p. 120;M. de Sacy dans l'éd. d'Abdallatif, p. 429 ; M. Yule, éd. de M. Polo, II, 374.

(٢٧٦) Ludolph.; p. 64.

بمناسبة الحج حيث يفد اليها المسلمون من كل الأنحاء ، يجرى ثمة بيوع كبيرة • وبالنسبة الى المصريين كانت سوق مكة موردا اضافيا • ولكن بين القوافل كانت سوق دمشق تلعب دورا كبيرا من حيث عدد الحجاج فيها ، وبالتأكيد كانت القوافل تحمل عند رحيلها جزءا كبيرا من السلع الثمينة • وثمة حاجان ألمانيان زارا دمشق فى الفترة التى ندرسها ، هما جويوم دى بولدنسيل Guillaume de Boldensele (۱۳۳۳) ، ولودولف دى سوذيم Ludolphe de Southem (۱۳٤۰) (۲۷۷) ، ذهلوا من كميات التوابل والعطور والجرائر ، والبروكار المذهب ، والأحجار الكريمة التى رأياها • ولم يهتم لودولف دى سوذيم بمصدر هذه البضائع ، ولكن بولدنسيل ، الأكثر فضولا أشار الى الطريق الذى أتت منه ، ولم يكن هو الطريق الذى ذكرناه من قبل ، ولعله تتبع الطريق الأكثر أهمية • فالواقع أن أكبر جزء من منتجات آسيا كان يصل الى دمشق لا بطريق قوافل مكة ، وانما عن طريق الخليج الفارسى وبغداد (۲۷۸) ، أو بطريق البر فقط عبر فارس وبلاد ما بين النهرين • وبخلاف هذه المواد الأجنبية ، كانت التجارة فى دمشق تتمون بمنتجات وطنية ، لأن هذه المدينة كان بها عمال حرفيون على درجة كبيرة من المهارة فى مختلف الفروع ، ولم يفت الحاجان أن ينوها بذلك •

على أن هذه اللحظة لا تناسب الدخول فى التفاصيل ، لأن الحركة التجارية المباشرة بين دمشق والغرب كانت قاصرة على الشىء القليل • فتاجر برشلونة الذى يجازف فى عام ۱۳۳٥ بالانتقال من قبرص الى سوريا ، ويتوجه الى دمشق ليعقد صفقات تجارية مع المسلمين رغم قرارات الحظر الكنسية (۲۷۹) لا يبدو أنه يجد كثيرين يفعلون كما يفعل . وحتى حلب ، ثانى سوق سورية من حيث الأهمية ، وتمتلىء أسواقها بكمية هائلة من سلع الهند ، وأطلق عليها البعض اسم « الهند الصغيرة » (۲۸۰) لم تذكر الا نادرا فى المصادر الغربية فى ذاك العصر ، ومع ذلك لابد لنا أن نذكر أن الراهب « المتأمل » (يتبع طائفة من رهبان

---

(۲۷۷) Ludolph. p. 98.

(۲۷۸) من بين شروح الخريطة القطالونية لعام ۱۳۷٥ (ص ۱۲۲) ما يقول أيضا أن اللآلىء ومنتجات الهند التى تصل من الخليج الفارسى الى سوريا تمر ببغداد ، وكذا بدمشق بنوع خاص •

(۲۷۹) Mas Latrie, Hist. de Chypr III, 734.

(۲۸۰) Hammer, Ilchame, I, 183.

القديس فرنسيس — المترجم) الفلورنسي جيوفاني دي مارينيولي Giov. dei Marignolli مر بتلك المدينة عند عودته من رحلة في الصين والهند ، ورأى فيها الكثير من المسيحيين يلبسون الزي الغربي ويتكلمون الفرنسية بلهجة قبرصية (٢٨١) ، وكان معظم هؤلاء من القباوصة دون شك .

وبين فاماجوستا والسواحل السورية المجاورة لها ، كانت تجري بطبيعة الحال حركة تجارية نشيطة . وكان من شأن الغارات المتواترة التي تقوم بها الأساطيل القبرصية على المدن الساحلية السورية في أواخر الفترة التي ندرسها أن تقطع هذه الحركة مؤقتا . لذلك فان القليل الذي يعرفه بيجولوتي عن سوريا ، بقوله في مجال حديثه عن فاماجوستا : فهو يشير (٢٨٢) الى عدد من السلع التي يجدها المرء في أسواق هذا البلد ، بل ان أسماءها تدل على مصدر قبرصي : تلك هي الخيوط الحريرية ، والسميت (نسيج حريري تخالطه خيوط ذهبية وفضية — المترجم) ، والشملات (الشملة نسيج من الصوف ووبر الماعز ، ويلقي على الكتفين — المترجم) ، الخ . وكانت سوريا ممثلة هناك بقطنها ، وهو عالي الجودة ، كما نعرف ، والتوابل التي تأتي بها القوافل . وجاء زمن كان فيه تجار بيروت وطرابلس يركبون البحر للذهاب الى فاماجوستا ليبيعوا بها منتجات بلادهم ، وبخاصة القطن والتوابل الواردة من داخل آسيا (٢٨٣) . كان ذلك عصر ازدهار فاماجوستا ، ويقع ضمن عصرنا هذا . ولما كان التجار الغربيون من جهة يجدون بها في سهولة السلع الشرقية النادرة المطلوبة ، وأنهم من جهة أخرى اذا حاولوا التوغل في أراضي المسلمين يتعرضون لتهديدات الكنيسة لهم بالحرمان ، وغارات الطرادات القبرصية ، فان معظمهم كانوا يتوقفون هناك ويتجنبون الذهاب الى سوريا .

غير أن قبرص لم تكن البلد الوحيد الذي يحول الغربيين بعيدا عن طريق سوريا ، فمملكة أرمينيا الصغرى المسيحية كانت من حيث موقعها تشكل راس الحربة لطريق تجاري جديد ، وتمتاز بأمن أوفر مما في سوريا ، ومسافة يقطعها المسافر أقل طولا للوصول الى البلاد المنتجة للتوابل ، وأخيرا امكانية سلوك هذا الطريق دون المرور بالمنطقة المحرمة

(٢٨١) Dobner, Monum. hist. Bohem., II, 92.

(٢٨٢) Pegol., p. 55, 77 et ss.

(٢٨٣) Piloti, p. 366.

الخاضعة لسلطان مصر . فطالما كانت فاماجوستا مفتوحة لكل الغربيين بلا تمييز ، وطالما كانت أرمينيا باعتبارها مسيحية ، وفارس باعتبارها بلدا صـــديقا يرحب بهم ، فانهم (أى الغربيين) لم يكونوا يهتمـــون بسوريا . ولكننا نشهد بعد قليل انقلابا يحدث فى هذا الموضع . ففى بداية الفترة التالية ، سقطت فاماجوستا فى أيدى الجنويين ، واعتبارا من هذه اللحظة تحولت عنها الأمم التى تنافس جنوا . وفى هـــذا الوقت تقريبا ، دمر سلاطين مصر مملكة أرمينيا الصغيرة .

وفى فارس أعقب التعصب والفوضى التسامح والنظام السائدين فى العهود السابقة . وكانت نتيجة هذه التغيرات أن ظهر الغربيون من جديد فى سوريا بصـورة مستمرة . ومع ذلك يبالغ بيـــلوتى بعض الشىء اذ يقول انه اعتبارا من احتلال الجنويين فاماجوستا أن بدأ سائر اللاتينيين يترددون على دمشق وباقى مدن سورية (٢٨٤) .

وقبلا ، فى أواخر الفترة التى نتحدث عنها ، بدأت العلاقات المباشرة لتجارة الغرب مع سورية تتضاعف . وعندما أعطى البابا الاذن بزيارة البلاد الاسلامية ، انتهز البنادقة هذه الفرصة ، ليس فقط بارسال سفنهم الى مصر ، ولكن أيضا بالقيام من وقت لآخر برحلات الى سورية ، وبخاصة بيروت : مثال ذلك فى عام ١٣٤٥ (انظر بعاليه) وعام ١٣٦٦ . وكانت الارسالية الأخيرة تتكون من ثلاث سفن كبيرة على ظهرها سبعون تاجرا ، وشحنة ثمينة ، ومبلغ كبير من المال . وعند وصول القافلة ، استقبل التجار فى الظاهر أحسن استقبال ، ولكن ما أن بدأت المبادلات التجارية حتى قبض الأمير غدرا على كل من كان موجودا منهم على الأرض . ولقى آخرون نفس هذا المصير فى طرابلس (٢٨٥) . وعندما دفع البنادقة ملك قبرص بطرس الأول الى أن يعقد الصلح مع السلطان ، كان ذلك كما نرى نصحا من أجل مصلحة ، وكانت غايتهم تجنيب مواطنيهم عواقب أعمال كيدية من هذا النوع . ولم تكن للحمية التى أبداها القطالونيون فى اقرار السلام باعث غير هذا (٢٨٦) ، وبدأ البعض منهم بالفعل يزورون بيروت .

---

(٢٨٤) Piloti, p. 367.

(٢٨٥) Machairas, p. 100; Commem. reg. III, p. 43, no. 234; p. 52, nos 301, 303.

(٢٨٦) Machairas, p. 94, 100.

بل ودمشق منذ زمن مبكر (٢٨٧) ، في فترة كان التجــول في بلاد المسلمين حدثا نادرا ودليلا على الجرأة .

واذا تساءل البعض عن مدن سوريا التي استفادت من عودة الحركة التجارية ، نجيب بأن بيجولوتي لا يذكر سوى أربعة موانىء : عكا ، وبيروت ، وطرابلس ، واللاذقية ، وخمس مدن داخلية : رمله Ramla (ليـدا Lyda) ، ودمشق ، وحماة ، وأنطاكيـة ، وحلب ، ويقارن موازين ومكاييل هذه المدن بنظيراتها في أماكن أخرى . وفي خصـوص بعض هذه المدن يذكر الرسوم الدخولية الواجب دفعها عنـد الدخول والخروج ، ولكن هذه المعلومات تتسم بجفاف الاحصاء ، ولا تفتح لنـا رؤى كافية عن حالة التجارة في البلد . أما أهم الموانىء في مملـكة بيت المقدس القديمة ، تلك التي ازدهر فيها النشاط التجاري في الأحياء الأوروبية ، فانها صارت خرائب مهجورة .

وفي عام ١٣٣٠ ، وعام ١٣٤٠ ، بعد انقضاء حوالي نصف قرن على سقوط الدول اللاتينية ، زار بعض الحجاج عكا ، وصـــور ، وحيفا ، وقيصرية ، وعسقلان ، ويافا ، ووجدوا في هذه الأماكن مناظر الخرائب الكئيبة (٢٨٨) . ولم تعمل حكومة المسلمين شيئا لاعادة بنائها ، ومع ذلك فبالنسبة الى عكا مثلا ، لم يكن الأمر يتطلب بذل جهود كبيرة : ذلك أن الحكومة لم تكن تريد أن تغرى هذه المدن الفربيين لاعادة غزوها ، وأنهم اذا عادوا فاستولوا عليها بحملة صليبية جديدة فانها لن تترك في أيديهم سوى خرائب . ومن بين هذه المدن ، كانت عكا وحدها هي التي لم يزل بها القليل من الحركة التجارية . غير أن الحياة التجارية أصبحت من ذلك الحين متركزة في دمشق وحلب ، وكان هنـاك مســتقبل ينتظر المدن الساحلية التي لها صلة بتلك الأسواق الكبيرة ، مثـل بيروت وطرابلس واللاذقية ، أو أنها بدأت بالفعل تكتسب بعض الشهرة ، وبنوع خاص بيروت التي يصفها جويوم دي بولدنسيل (٢٨٩) بأنها مدينة متألقة .

---

(٢٨٧) نجد أمثلة لذلك بالنسبة لسنتي ١٣٣٥ ، ١٣٣٨ في Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 732-734.

(٢٨٨) Boldensele, p. 242-244; Ludolphe de Suthem, p. 38, 46; Ibn Batouta, I, 129 ; Aboufleda, Géogr., II, 2, p. 17, 20, 22.

(٢٨٩) Op. cit., j. 286.

(ج) أسواق وطرق جديدة ينشئها التتار

اولا : ظهور التتار (المغول)

كان لظهور المغول (التتار) فى الساحة العالمية تأثير حاسم على نمو التجارة بين الشرق والغرب • هذه القبيلة التى لم تكن بالكاد معروفة حتى ذلك الحين ، بدأت باخضاع عدد من القبائل المجاورة لها وضمها اليها • وعندما نمت قواتها بدرجة كافية ، وانطلقت خارج آسيا الوسطى بقيادة خانها تيموجين الملقب بجنكيزخان (أى القوى) ، ساد الاعتقاد بعودة عصر الفتوحات الكبيرة • وتتمثل طبيعة جنكيزخان وخلفائه فى عجرفة لا حدود لها توحى اليهم بالطموح الى بسط سيادتهم على العالم كافة • ولكى يحققوا هذا المشروع الهائل جندوا جماعات لاحصر لها من المحاربين المدربين تدريبا جيدا ، واستخدموا خليطا من العزيمة والرياء للتغلب على كل العقبات التى تعترض مسيرتهم ، واستخفافا بأرواح البشر بدرجة لم يعرفها أحد حتى ذلك الحين • كانوا وهم منتصرون يختمون فتوحاتهم بمذابح بشرية حقيقية ، ويوقعون الخراب بمن يبقى على قيد الحياة باستنزافهم بأساليب بارعة لم يسمع بها أحد •

ولم يلبث المغول أن ظهروا فى المراكز المتقدمة من العالم المسيحى • وفى عامى ١٢٢٢ ـ ١٢٢٣ اجتازوا كالعاصفة الهوجاء القوقاز ، والقرم ، وجنوب روسيا • غير أن ظهورهم هذا كان مجرد ظهور عابر ، فظهروا ثانية بعد بضع سنين ، وعلى رأسهم باطوخان • وفى هذه المرة مدوا غزواتهم المدمرة حتى سيليزيا Silésie ، وبوهيميا Bohémie ، وهنغاريا (١٢٤١) ، وأنشأوا لهم مستوطنة دائمة فى جنوب روسيا •

ولما كان العالم المسيحى فى الغرب قد تعب من الحروب الصليبية ، وانقسم الى حزبين بسبب النزاع بين البابوية والأمبراطورية ، فانه لم يفكر فى شيء سوى أن ينهض بجموعه ليحارب العدو المشترك • وبدأ البابوات بالدعوة الى حرب صليبية ضد المغول ، ولما رأوا أن جهودهم غير مجدية ، خطر لهم أن يستخدموا ضدهم الأسلحة الروحانية ، ولهذا لجأوا الى جماعات « الصدقة » التى نشأت حديثا ، وتميزت بحماسة دينية قوية • وكان الأمر يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة لوعظ هؤلاء الخانات التتار الذين يعتبرون أنفسهم سادة العالم حتى يخضعوا لشريعة المسيح وممثله على الأرض • وكان لابد أيضا من شجاعة كبيرة للاقدام على

مزاولة أى نوع من التجارة مع جنس بشرى كانت شراســـته وعاداته الثورية تبعث الرعب فى نفوس البشر كلهم · ولكن النجاح معهم فى هذا السبيل كان نصرا لايقدر بثمن ·

والواقع أن اعتناق المغول الدين المسيحى لم يبد مستحيلا حتى تكون كل محاولة تبذل فى هذا السبيل غير مجدية · وبالفعل تكون فى وسط آسيا حول نواة هذا الجنس المسيطر تكتل من عشــائر تضم أكثر من عنصر مسيحى · فمن بلاد مابين النهرين وفارس حيث مقار جماعاتهــم الرئيسية ، نشر النسطوريون حولهم بلا ضوضاء فكرة المسيحية ، وتجلى تأثيرها فى تلك النواحى · من هذا أن ال Karaites ، وهى قبيلة كبيرة استقرت على حدود الصين ، اعتنقت منذ زمن بعيد الديانة المسيحية ، يشهد بذلك المؤرخ المسيحى أبو الفرج Aboulfaradj (Bar Hebroeus) (٢٩٠) والمؤرخ المسلم رشيد الدين Rachideddin (٢٩١) ، ويردد الأخير هذه الواقعة مرارا · هذه الشهادة المزدوجة الصـــادرة من معســكرين متضادين تبدو لنا كافية لاثبات هذا الأمر (٢٩٢) ·

وثمة قبيلة أخـــرى لاتقل ضـخامة عن السابق ذكرها ، وهى قبيلة النايمان Naimans التى استقرت على المجـرى العلوى لنهر ارتش Irtich ، يزعم البعض أنها كانت تعتنق المذهب النسطورى ، يؤكد هذا الزعم على الأقل جويوم دو روبروك Guill de Roubrouk وبعض الكتاب الشرقيين · الا أن ثمة مبشر آخر ، أقوى ملاحظـــة من جويوم دو روبروك ، وهو يوحنا دو بيانو Ouigours دو كاربين Jean de Piano de Carpine يقول لنا ان النايمان كانوا وثنيين (٢٩٣) · وعلى أية حال فالثابت أن المسيحيين كانوا يعيشون باعداد كبيرة وسط العشائر التى لم تعتنق المسيحية ، مثلا عند الاويجور Ouigours (٢٩٤) · وبوجه عام فان الرحالة الغربيين الأوائل الذين زاروا بلاد التتار وجدوا

---

(٢٩٠) Hist. dynast., éd., Pococke ,p. 427; Chron. Syr., éd. Bruns 2e partie, p. ccclxxxv et s.; Voy les remarques de M. d'Avezac dans 2e partie, p. ccclxxxv et s. ; Voy les remarques de M. d'Avezac dans l'introd de Joh. de Plan. Carpin., p. 534 et s.

(٢٩١) Hist des Mongols de la Perse, éd Quatremère, I, 93.

(٢٩٢) M. Zarncke (op. cit., p. 65 et ss).

(٢٩٣) G. de Rubr. p. 260, 295; Erdmann, Temudschin, p. 563; Zarncke, Op. cit., p. 67.

(٢٩٤) G. de Rubr., p. 282, 288; Hayton, De Tartaris, cap. 2.

مسيحيين من المذهب النسطورى منتشرين فى كل أنحائهـــا ومعهم قساوستهم وكنائسهـــم (٢٩٥) • ويشغل بعض النسطوريين فى بلاط الخانات التتار مناصب الوزراء والأطبـــاء والمعلمين ، ويتمتعون ثمة بنفوذ كبير (٢٩٦) •

وأخيرا لاننسى ماكان يؤديه بعض النساء المسيحيات ، أمهـــات الخانات أو زوجاتهم • ونتوقع من هذه الناحية نتائج عظيمة من الأحلاف التى انعقدت بين ذرية تيموجين (جنكزخان) وأسرة زعماء قبيلة الكيرايت Keraite الذين أصبحوا تابعين للتتـــار • هذه الأسرة المسيحيـة أنجبت أم خانى مانجـــو Mangou الشهيرين قبـلاى ، وهولاكو • وزوجة هذا الأخير ، وزوجة أرجون خان Argoun-Khan : وأسماؤهن هى : سيوركوكيتى Siourkoukiti ، ودوكوز ــ خاتون Dokouz-Khatoun ، وأوروك Ourouk ، وكان الثلاثة يعتنقن المسيحية صراحة ، وللاثنتين الأخيرتين الفضـــل فى تمتع المسيحيين بحظوة كبيرة لدى زوجيهما (٢٩٧) • وفى عام ١٢٤٥ سافر المبشرون الأوائل الذين أوفدهم الكرسى الرسولى الى بلاد التتار : ولم يكن هناك فى هذا الوقت أية معلومات عن هذا الشعب ، فلم يؤخذ فى الاعتبار بعض العناصر التى كان من شأنها أن تكون ذات أثر فعال فى هداية هذا الشعب الى الدين المسيحى •

ومع ذلك انطلق راهبـــان : اسيـــلان Ascelin الدومينيكانى ، ويوحنا دو بيانو كاربينى الفرنسيسكانى بشجاعة الايمان ، وتوغلا مع رفاقهما ، أحدهما فى المواقع الأماميــة للتتار فى فارس ، والثانى الى

---

(٢٩٥) G. de Rubr., p. 292, 301 et ss., etc. ; M. Polo. I, 153, 160 et s., 165 et s.; 203, 206, 214. Lettre de Sempad. dans Guillaume de Nangis (Bouq., XX, 360 et ss).

(٢٩٦) Abulfarague, Hist. dynast. éd. Pococke, p. 321; Assemani, Biblioth. or., III, 2, p. 105; Rachideddin, citation dans Saint-Martin, Mém. sur l'Arménie, II, 280 et dans d'Ohsson, Hist. des Mongols, II, 234 et s. ; G. de Rubr., p. 293, 320, 338; Orpélian, dans Saint-Martin, Op. cit au bas de la p. 135.

(٢٩٧) Quatremère. Rachideddin, I, 90; Saint-Martin, Op. cit. Rachideddin, I 94 et s. ; De Tartaris, cap 27; Malakia, dans Brossel, Hist. de la Géorgie addit, et éclairciss p. 455; Kiracos de Ganlzag, dans Brosset, Deux historiens Arméniens (S. Pétrersb. 1870-1871), p. 185, 194 et dans Dulaurier, Les Mongols d'après les historiens Arméniens, dans le Jour. asiat., V série, T., XI, p. 491; 507; Vartan, dans la Suite de cet article, Ibid. T. XVI, p. 209 et s., 308 et s. ; Hayton, Op. cit., cap. 45 ; Hammer, Gesch, des Ilchane, I, 360, 395.

معسكر خانات التتار أنفسهم • وفشلت هذه الارسالية الأولى تماما ، ورفض التتار رفضا باتا أن يعتنقوا الدين المسيحي ، وأجابوا اجابة قاطعة بأن على مسيحي الغرب أن يخضعوا لسلطانهم • وفشل كذلك المبشران اللذان أوفدهما القديس لويس S. Louis ، وهما أندريه دو لونجيمو André de Longjumeau (١٢٤٩) ، وجويوم دو روبروك ، وهو راهب فلمنكي (١٢٥٣ ـ ١٢٥٥) • وعلى أثر ذلك ضعف الأمل فى الغرب بصورة واضحة فى هداية التتار الى المسيحية •

وفى هذا الخصوص ، كان مسيحيو الشرق أشد مثابرة • وماليث أن ذاع بين النسطوريين المنتشرين فى معسكر البلاط أن خانا أو أميرا ما صار مسيحيا فى السر ، أو أنه على وشك أن يصير مسيحيا (٢٩٨) والثابت أن هؤلاء كانوا يبالغون فى اظهار نفوذهم ، وينخدعون بتصرفات الأمراء التتار • والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يبدون الكثير من العطف على القساوسة المسيحيين ، ويزورون كنائسهم ، ويحضرون احتفالاتهم : فقط فات هؤلاء النسطوريين أن مايفعله الأمراء مع المسيحيين، يفعلونه بالمثل مع الكهنة الشامانيين والبوذيين والمسلمين ، فكانوا يمنحون كل هؤلاء نفس الامتيازات • ولم يكن هذا السلوك يدل على تغيير فى الدين ، وانما يخفى لامبالاة شديدة بأمور الدين والعقائد والشئون السياسية (٢٩٩) • واذ خرجت هذه الشائعات من بين صفوف النسطوريين فانها ذاعت لدى مسيحي غرب آسيا ، من أرمن وجورجيين ممن كانت لهم مصلحة خاصة فى نشرها فى الغرب ، اذ كان يهمهم فوق كل شىء أن تكون هناك علاقات ودية بين مسيحي الغرب وبين التتار • وعندما خف الرعب الذى استثارته الغزوات الأولى ، لم يلبثوا أن يعترفوا بأن نير التتار أهون عليهم من نير المسلمين الذى كان ثقيلا على البعض منهم ، وكان الباقون مهددين به ، وكأنه قدر لامفر منه •

وبفضل وساطة قوية أداها سورى نسطورى ذو نفوذ ، هو الدكتور سيميون Siméon (١٢٤١) وملك أرمينيا حيتوم الأول Hétoum Ier (١٢٥٤ ـ ١٢٥٥) عاملهم الخانات العظام معاملة طيبة غير عادية ،

---

(٢٩٨) Joh. de Plan. Carp. p. 766; G. de Rubrouk, p. 260.

(٢٩٩) Mon étude sur les Colonies de l'égalise romaine dans les pays Tatars, dans la Zeitschrift J. hist. Theol., 1858, p. 260 et ss., p. 269, 275 et s.

(٣٠٠) Kiracos, dans Brosset, Op. cit., p. 137 et s. 178; Lettre du connétable arménien Sempad, l.c. p. 362; l'Hist. de Sempad Orpélian, dans Saint Martin, Op. cit., p. 129 et ss.

ومنحوهم بلا مقابل حرية ممارسة طقوسهم ، بل وصرحوا لهم أن يشيدوا كنائس جديدة على نفقتهم (٣٠٠) • وراعى هولاكو خان فى العديد من المدن التى استولى عليها أن يحافظ بقدر المستطاع على أرواح المسيحيين وأموالهم وكنائسهم (٣٠١) • ومع أنه لم يكن مسيحيا (٣٠٢) ، الا أن تصرفاته يظهر فيها تأثير زوجته النسطورية ، دوكوز خاتوم ، وكان يميل بفضلها الى معاملة المسيحيين بالحسنى ، وأظهر لهم اعترافه بما أبداه المقاتلون الجورجيون والأرمن من شجاعة فى قتالهم المسلمين الى جانبه التتار (٣٠٣) • وانا لنلمس هنا سببا ثانيا ، سياسيا ودينيـــا لايثار المسيحيين الشرقيين التتار بصورة واضحة •

ويبدو أن التتار قدر لهم أن يقضوا على تفوق الاسلام فى آسيا • لذلك فبعد الضربة المباشرة التى أنزلها هولاكو بقلب الاسلام بقضائه على الخلافة فى بغداد (١٢٥٨) واصل فتوحاته فغزا سوريا ، وانضم اليه الجورجيون وسكان أرمينيا بأوامر من أمرائهم ، ثم سكان جنوب أرمينيا الصغرى بقيادة ملكهم حيتوم الأول ، انضموا اليه فى حماس • وبقتالهم تحت أعلامه عدو العالم المسيحى (٣٠٤) لم يكونوا يفكرون فى أنهم يؤدون واجبا مفروضا عليهم كأتباع ، وانما يؤدون واجبا مقدسا • ولسوء الحظ فان المسيرة المظفرة التى قام بهـــا التتار وحلفاؤهم المسيحيون بلغت نهايتهــا •

فبعد زمن قصير ، أوقعت أقوى دولة فى الاسلام وهى مصر بالتتار هزيمتين ساحقتين ، ودخلت سوريا (١٢٦٠) دخول السادة العظام ، ودفعت أرمينيا الصغرى غاليا ثمن نجاحها العابر • وكان منجو Mangou قد وعد ملك أرمينيا بغزو الأرض المقدسة ، واعادتها بالتالى الى المسيحيين •

---

(٣٠١) Kiracos, p. 185 et s., 188; d'Ohsson Hist. des Mongols, III, 241 ; Ricold de Monte Crucis, dans Laurent, Peregrinatores medue oevi, p. 120.

(٣٠٢) Hayton, De Tartaris, p. 424 ; Vartan, l.c., p. 306-308.

(٣٠٣) Malakia, l.c., p. 456; Vartan, l.c., p. 304 ; Hayton, p. 420; Orpélian, dans saint-Martin, Op. cit., p. 123, 152; Bar-Hebroeus, Chron. Syr., p. 543 Rachideddin, I, 94 et s.

(٣٠٤) استقبل المسيحيون احتلال المغول دمشق بفرح ، وانتهزوا هذه الفرصة لمعاملة المسلمين بعجرفة • واهانتهم ، وسبهم ، وتركهم القائد المغولى ، وهو مسيحى ، يفعلون ذلك • انظر ، المقريزى :
Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, I, 1, p. 98; cf. p. 106.

ويبدو أن هولاكو تكفل بتنفيذ ما وعد به أخوه (٣٠٥) ، ولكنه أخفق . غير أن فشل هـذه الحملة أثار فى نفوس مسيحيى الشرق رغبـة حارة بأن يوحدوا بأى ثمن قوى التتار ، والعـالم المسيحى الغربى ضـد العدو المشترك ، مصر .

وعكف ملوك أرمينيا بهمة من الجانبين على تحقيق هـذه الفكرة ، ووجدوا لدى خانات التتار استعدادا تاما لذلك . وانتهى العصر الذى كان فيه الخانات العظام ينذرون أمراء الغرب بالخضوع لهم دون قيد ولا شرط ، وانقسمت امبراطوريتهم الهائلة الى خانات مستقلة وكلها شاسعة وقوية ، ولكن كثيرا ما كانت أعمالهم الخارجيـة تعرقلهـا مابينهم من منافسـات داخلية . ولم يعد فى وسع سادة هذه الامارات المصغرة أن يتكلموا باللهجة المتعجرفة التى كان يستخدمها الخانات العظام. كأثر لنشوة انتصاراتهم . على أنه لكى يتسنى القيام بالحملة المطلوبة ضد سوريا ومصر لم يكن فى المستطاع الاستعانة بغير أمير واحد من هؤلاء الأمراء ، ذلك هو سيد مملكة التتار التى أسسها هولاكو فى فارس . فالخان الأكبر الذى أقام فى الصين لم يزل يمارس على هذه المملكة نوعا من السيادة الاقطاعية ، ولكنه لم يعد يهتم بشئون غرب آسيا .

وكان خليفة هولاكو المباشر أباقا Abaka (١٢٦٥ — ١٢٨٢) ملتزما بسيرة سلفه ، متبعا تصرفاته الطيبة مع المسيحيين (٣٠٦) ، ومن ثم اتخذ الخطوات الأولى فى تنفيذ هذه السياسة ، فأوفد مرارا سفراء الى البابا وبعض أمراء الغرب يحثهم على التحالف معه وتنظيم حملة مشتركة . وأبدى ابنه أرجون Argoun (١٢٨٤ — ١٢٩١) المشاعر نفسها التى كانت لوالده من ناحية المسيحيين ، ووجه الى أمراء الغرب الدعوة اثر الدعوة للقيام بحملة صليبية ، واعدا اياهم بتقديم جيوش ومؤن . ومن بعده واجه خانيـة أخـر ، اعتنقوا الاسـلام ، منهم قازان Ghazan (١٢٩٥ — ١٣٠٤) واولجايتو Oldjaitou (١٣٠٤ — ١٣١٦) ، واجهوا دون خوف فكرة محاربة عدوهم الأكبر سلطان المماليك (٣٠٧) ، ومعهم جيش مسيحى .

ولم يفت السفراء المكلفون بحمـل رسائلهـم الى الغـرب ، وهم

(٣٠٥) Hayton, p. 418 et s., 421.

(٣٠٦) Biographie du partiarche nestorien Yabalaha III (mort en 1318), trad. Siouffi, dans le Journ. asiat., 7e série, T. XVII (1881), p. 89 et ss.

(٣٠٧) Le livre sur sur les Tatars, écrit en France en 1307 par l'Arménien Hayton (Héthoum), voy. Cap. 55, 58, 60.

مسيحيون فى الغالب أن يلمحوا بأن سادتهم قد تحولوا تحولا نصفيا أو بالكامل الى العقيدة المسيحية ، سواء كان ذلك مثبتا أو غير مثبت فى التعليمات المزودين بها ٠ والواقع أنه لم يكن هناك شىء من هذا ، غير أن هذا التلميح كان له أثر طيب ، وكان السفراء يطلبون من البابا التفضل بإيفاد مبشرين لهداية شعب التتار الى المسيحية ٠ وكان البابوات سعداء بأن يجدوا أعوانا لهم فى المسألتين اللتين تهمانهم فوق كل شىء ٠ العودة الى شن الحملات الصليبية ، وهداية التتار الى المسيحية ، ومن ثم أحسنوا وفادة هؤلاء السفراء ، أيدوهم بحماس ٠

على أن الأمراء الدنيويين اقتصروا على بذل وعود لم تنفذ بالمرة (٣٠٨) ٠ وبدلا من الجيوش الصليبية التى كان الخانية ينتظرونها ، فانهم لم يستقبلوا سوى مبشرين يحملون توصيات من البابا أو من أمير مسيحى ٠ وكان هؤلاء المبشرون يؤدون مهمتهم بهمة يستحقون عليها كل ثناء ، وكانوا يحضرون معهم الى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عددا كبيرا من المسيحيين الشرقيين ، ويشيدون الكنائس والأديرة ، وينشئون مطرانيات وأبرشيات ٠ غير أن جهودهم كلها لم تمنع جمهور الشعب التتارى الكبير من أن يعتنق الدين الاسلامى ٠ ومنذ عام ١٢٩٥ اعتنق الخانات الذين بقوا حتى ذلك الحين أوفياء لدين آبائهم ، اعتنقوا الدين الاسلامى ، ولم يتخلوا بعد ذلك بالمرة عن الاسلام ، باستثناء واحد فقط منهم ، هو تاجودار أحمد (١٢٨٢ ـ ١٢٨٤ Tagoudar Ahmed) ،

ولحسن الحظ كانت الاعتبارات السياسية التى تفرض سلوكيات طيبة مع الغرب تخفف من التعصب الدينى الملازم لهذه الديانة ، وكان ذلك بتأثير ملوك أرمينية ، وبروح التسامح الدينى الذى لم يزل حيا فى نفوس الجنس المغولى ، واذا كان هناك بعض الاضطهادات التى اقترفت ضد المسيحيين ، فانها لم تكن طويلة الأمد ٠

وهكذا ففى غضون النصف الثانى من القرن الثالث عشر تحولت الضغينة التى شاعت بين التتار وبين العالم الغربى الى نوع من التجاذب ،

---

(٣٠٨) لم ينفذ الملك جاك الثانى ، ملك أراجون الوعود بالنجدة التى أبداها فى عام ١٣٠٠ لخان غزان عن طريق بدرو أوليفيرو (من برشلونة) ، انظر :
Capmany, Memorias, IV, 28 :
وكان قد فرض شرطا أن يحصل على جزء من البلاد التى يتم فتحها ، وأن يؤذن لرعاياه بالسفر الى سوريا والتجوال بها وزيارة الأراضى المقدسة دون أن يدفعوا أية جـزية ٠ وفيما يختص ببرشلونة ، لا شك فى أن لفظة « أسفار voyages» تعنى ليس فقط رحلات الحج ، ولكن أيضا الرحلات التجارية ٠

فصار كل منهما يسعى الى الآخر : الغرب بفكرة تحويل التتار الى الدين المسيحى ، والتتار بأمل الحصول من الغرب على امدادات ليحاربوا عدوهم القوى ، مصر • وانتهت هذه المحاولات كلها بالفشل ، من كلا الطرفين ، الا أنها أسفرت فى بضع سنين متعاقبة الى تبادل الخطابات والرسائل ، ونتج عن ذلك تقارب بين العالمين تجلى أثره بالخير ، فى غير المسائل السياسية والدينية •

وفى أثر المبشر القادم الى بلاد التتار ، أقبل التاجر ، وقام أمثال يوحنا دابيانو دى كاربينى ، وأندريه دو لونجيمو ، وجويوم دو روبروك برسم الطريق الذى سلكه بعدهم ليس فقط العديد من رجال الدين المشتغلين بالتبشير ، ولكن أيضا العلمانيين الذين اجتذبهم الى تلك البلاد النائية الرغبة فى الربح : فقد فتحوا لمن ساروا على نهجهم الطريق الى أقطار شاسعة ، بأن توغلوا حتى مقر الخان الأكبر فى مجاورات قره قوروم ، وهى مدينة واقعة جنوبى بحيرة بيكال Baikal فى بلاد الكلخاس Khalkhas ، على بعد أربعة أو خمسة أميال انجليزية من المجرى العلوى لنهر اورخان Orkhan فى الموضع المسمى الآن قرة بلغاسون Kara-Balghassoun (٣٠٩) • ولم يدخل قبلهم أى تاجر أوروبى فى قلب قارة آسيا ، ومن المستحيل اثبات أن التجار المقيمين فى موانىء الدول الصليبية قاموا برحلات كبيرة داخل آسيا : بل انه ليس لدينا مثال واحد يثبت أنهم خاطروا بالذهاب فقط الى بغداد أو حتى الى ضفاف الخليج الفارسى •

وكانت دمشق وحلب الواقعتان على بعد يومين أو ثلاثة أيام من البحر المتوسط تمثلان الحد الأقصى الذى لم يتجاوزه من ناحية الشرق أكثر التجار الغربيين ، ولم يكن التجار يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل كان بعض التجار الايطاليين قد صعدوا مجرى نهر جيهان Bjihan وتوغلوا عن هذا الطريق فى أرمينيا الصغرى ، فى حوض نهر الفرات ، الا أنه من المستحيل تحديد النقطة التى وصلوا اليها • وكانت سواحل البحر الأسود وبحر أزوف وقتئذ لا يتردد عليها الا القليل النادر من التجار الغربيين ، ولم يكن التجار يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل فى وسط آسيا • وكان لابد لهؤلاء التجار من بذل جهد كبير ليتعرفوا

---

(٣٠٩) Obel Rémusat, Recherches sur la ville de Kara-Koroum (Mém. de l'Acad des Inscr., VII (1824, p. 234 et ss.), p. 288 et s.; Pauthier, M. Polo, p. xxxvii et s., et p. 171; et Journ. Asiat., 6e série, T. IX, p. 50; Yule dans le Geographical Magazine, juill, 1874.

— يعتمد المؤلف على معلومات المسافر • الروسى بادرن Paderin الذى زار أطلال هذه المدينة فى عام ١٨٧٣ •

بأنفسهم على بلاد آسيا التى بسط عليها الخانات سلطانهم : وان لم يكن ما وراء الفرات كله أرضا مجهولة عندهم ، فان كل تلك النواحى كانت على الأقل أرضا عذراء .

وأخيرا ، فحتى ذلك الحين لم يكن أى أوروبى قد زار البلاد التى تمتد شرقى آسيا ، خلف اقليم الخلفاء . ولم يكن ذلك بسبب أن هؤلاء التجار الغربيين تنقصهم روح المغامرة ، فان ما كان يمنعهم بنوع خاص من التوغل داخل القارة الآسيوية هو التعصب الاسلامى الأشد عنفا فى الداخل منه على الحدود حيث كان سلاطين حلب وايكونيوم (قونية) على الأقل يقبلون عقد معاهدات تجارية مع الايطاليين . وفى خارج سوريا وآسيا الصغرى كانت كل خطوة يخطوهـا المسـافر تعرضه لمزيد من الأخطار . وعلى العكس من ذلك لم يعرف المغول كما سبق أن قلنا هذا الهوس بالاضطهادات الدينية ، فالعديد من المسيحيين الذين انتزعوهم من أوطانهم ، وأتوا بهم قسرا الى وسـط آسيا ، وكـذا المسيحيون الذين استقروا بارادتهم فى امبراطوريتهم ، استمروا يمارسون دون أى عائق عاداتهم الدينية ويتمتعون بوجه عام بمعيشة يحسدون عليها : وتسنى للمبشرين أن يستوثقوا من ذلك بأنفسهم .

وكان فى مقدور المسافرين المسيحيين المزودين بجـوازات مرور يحصلون عليها من الخانات ، وبصحبة حرس من المغول ، وفى حماية الموظفين أن يتوغلوا فى أقسام المملكة الشاسعة التى يسكنها أقوام أغلبهم مسلمون ، مثل بلاد ما بين النهرين ، وفارس ، وبخارى ، وتركستان . ومن حيث الحضارة ، لم يكن المغول متخلفين بدرجة لا يستطيعون معها أن يعرفوا قيمة منتجات البلاد الأخرى . وثمة حقيقـة واحدة تكفى لاثبات رأى مسبق فى صالحهم ، ذلك أنهم كلما استولوا على مدينة كانوا يراعون بعامة سلامة العمال من سكانها وينشئون العديد من المستوطنات الصناعية وينقلون العمال الى مواقع مختلفة من امبراطوريتهم (٣١٠) . وعلى ذلك كان فى مقدور التجار الأجانب أن يطمئنوا الى أنهم سوف يجدون هناك كل ترحيب . وكان جنكزخان فى عصره حريصا على ألا يعرقل شىء مسير القوافل ، وكان السبب فى نشوب حرب من أكبر الحروب التى خاضها ، المعاملة القاسية التى لقيتها فى اقليم بعض سلاطين خوارزم قافلة كان قد جهزها هو بنفسه : فقد قبض على التجار الذين يشكلون القافلة عند

---

(٣١٠) Les missionaires Jean de Piano de Carpine (p. 697, 711) et Simon de S. Quentin (voy. Vinc. Bellov., Spec. hist., lib. 29, cap. 77); Rachideddin, éd. Quatremère, p. 181, 339, 389; d'Ohsson, Hist. des Mongols, III, 77, 80, etc. Guill. de Rubrouk, p. 279 et s., 350.

وصولهم الى اوترار Otrar ، وسلبوا ، وقتلوا ، ذلك في حين أنه كان يعامل تجار هذا البلد أحسن معاملة ممكنة (٣١١) ٠ وكان قد أقام مراكز على طول الطريق لحماية التجار (٣١٢) ٠ وسوف نرى خانات فارس يراعون بهمة هذا التنظيم ويقيمون قوات عديدة لحفظ الأمن في الطرق ٠ وكانت ارادة سادة البلد تقضي بأن يلقى التجار الأوروبيون في كل مكان عونا ومساعدة ٠ وعلى الأقل حرص خانات فارس الذين هم من أصل مغولي على مراعاة هذا السلوك لاجتذاب مسيحيي الغرب الى حلفهم ضد مصر ٠

وعندما غزا الخانات القسم الغربي من آسيا ، عكفت الأمم التجارية الغربية على ملأ الفراغ الذي حدث بعد ضياع سوريا ، لأن الشريط الضيق من الأرض ، وهو آخر ما تبقى للدول اللاتينية على الساحل ، كان مقدرا له السقوط ان عاجلا ام آجلا في يد مصر ٠ وعلى ذلك وجهت هذه الأمم أنظارها بطبيعة الحال صوب امبراطورية المغول الشاسعة ، ونحن نعرف عن ذلك ما فيه الكفاية ، فلا يثير هذا الأمر دهشتنا ٠

ولم يكن دخول الامبراطورية أمرا عسيرا : فعند الخروج من أرمينيا ، لم يكن على المرء الا أن يعبر سلسلة جبال طوروس ، وعلى السفح المقابل يطأ أرض المغول ٠ وكان لأرمينيا مزية أخرى ، باعتبارها نقطة بداية : ذلك أن ملوكها كانوا في آن واحد أصدقاء للعالم المسيحي الغربي ، وأتباعا للخانات المغول ٠ واذا فضل المرء أن يبدأ الرحلة من امبراطورية طربزون الصغيرة التي اضطر ملوكها أن يسلموا بسيادة الخانات المغول ، فان مسيرة بضعة أيام تؤدي به الى اقليمهم (٣١٣) ٠ وأخيرا ، كانت امبراطورية المغول تمتد فتشمل قسما من أوروبا ، وتضم هناك مساحة من السواحل يمكن الوصول اليها بسهولة من ناحية البحر ، وكذا الساحل الشمالي للبحر الأسود ، وسواحل بحر آزوف كلها ٠ ولما كان التتار حقيقة من أبناء السهوب (٣١٤) ، فانهم لم يستفيدوا من امتلاكهم الموانئ ليبنوا لهم أساطيل ، ومن ثم كان في وسع السفن الأجنبية أن ترسوا عندها دون أن تخشى لقاء من ينافسها ٠

ومن ذلك الحين انفتح للتجارة طريقان سلكهما الغربيون فتوغلوا في قلب عالم التتار : أحدهما يبدأ من أرمينيا الصغرى أو امبراطورية

---

(٣١١) Erdmann, Temudschin der Uner-schutterliche, p. 355 et s.

(٣١٢) Ibid. p. 356.

(٣١٣) Guill. de Rubrouck, p. 216.

(٣١٤) Cantacuz, III, 192.

طربزون فيؤدى أولا الى فارس ، ومن هناك ، قد يركب المسافر البحر فيعبر الخليج الفارسى ، ويواصل رحلته حتى الهند أو الصين • والطريق الثانى يبدأ من جنوب روسـيا الحالية ويجتاز وسط آسيا وينتهى الى الصين • ونبدأ بدراسة الطريق الأول (٣١٥) •

ثانيا ــ ارمينيا الصغرى

باعتبارها الطريق الى وسط آسيا

بعد ازدهـار امارة أنطاكية ، الحصن الشـمالى للدول الصليبية ، ازدهارا مؤقتا ، انكمشت منذ بضع سنوات حتى أصبحت قاصرة على مدينة أنطاكية وبضعة حصون الى أن سقطت نهائيا تحت ضربات سلاطين مصر المظفرين • وكان ذلك قبل سقوط عكا بزمن طويل • وأدت هذه الخسارة الى انتزاع تجارة الغرب من سوقى أنطاكية واللاذقية ، فكان من الضرورى العمل على ايجاد أسواق جديدة ، ولكن لابد من استيفاء عدة شروط : فهذه الأسواق يجب أن تكون واقعة على جزء من الساحل بعيد عن غارات الكفرة (يقصد المسلمين) ، ويجب التأكد من حسن استقبال التجار بها ويجب أخيرا أن تهيء الأسواق منفذا ميسورا للمنتجات الواردة من داخل القارة الآسيوية حتى تصدر الى الغرب • ولحسن الحظ كان هناك بلد يجمع كل هذه المزايا : وهى مملكة مسيحية تقع على رأس الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى وسورية • ونحن نعرف أن الأمم التجارية كانت منذ زمن بعيد على علاقات ودية مع هذا البلد •

وكان هناك على الساحل المحيط بخليج الاسكندرية ميناءان ، أقلهما أهمية هو ميناء بالى (بالس)
Palli (Pals), Pottus Pallorum, Portus de Pallibus
ويقع على بعد عشرة أميال من انطالية شمال غربى نهر جيحان • وثمة عقود موثقة فى سنتى ١٢٧٤ ، ١٣٠٠ تعرفنا بأن هذا الميناء كان بمثابة محطة يتردد عليها عدد من السفن التجارية القادمة من جنوا وبرشلونة (٣١٧) •

ولا يبدو أن فترة نشاط هذا الميناء قد طالت كثيرا بعد سنة

---

(٣١٥) Sanuto, dans Bongars, II, 88 et s., et les Portulans du Moyen-Age.

١٣٠٠ ، ذلك لأن الأخ بروشار Brochart يتحدث فى تقرير له عن موانىء الحوض الشرقى للبحر المتوسط التى يمكنها أن تحتوى أسطولا فى حالة تنفيذ مشروعات الحروب الصليبية التى كان يجرى اعدادها وقتئذ ، فيقول عن ميناء بالورس Palores انه ميناء مهجور ، كما أنه صغير وضيق بالنسبة الى مثل هذا الأسطول (٣١٨) . نجد هذا الاسم أيضا على الخرائط البحرية فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، وكذا خرائط القرن الخامس عشر . وليس من الجائز أن نستنتج من ذلك أن هـذه الناحية قـد احتفظت بأية أهمية كميناء بحرى : ذلك لسبب بسيط ، وهو أن واضعى هذه الخرائـط قد اكتفوا بنسخ خرائط من سبقوهم .

وعلى بعد عشرة أميال فقط من هناك ، نحو الشمال الشرقى ، غير بعيد عن أطلال ايجيه القديمة Egée قامت مدينـة هـامة ، تلك هى ثغر وقلعة آياس Lajazzo ، الواقعة داخـل الخليج الذى يحمل هذا الاسم ، وتمتاز على جارتها بأن لهـا ميناء فسـيحا ، ويذود عنها حصنان ، أحدهما قائم على جزيرة قبالة المدينة (٣١٩) . وعندما يخرج المسافر من هذه المدينة ذاهبا الى شمال سورية ، لم يكن عليه الا أن يسير محاذيا ساحل خليج آياس ويجتاز ممر بيلان Beilan وتستغرق هذه المسيرة بضعة أيام .

ومن الناحية الأخرى يجد المسافر نهر جيحان ، وهو صالح للملاحة على جزء طويل ، ويصـب فى الخليـج على مسـافة ليست ببعيـدة من آياس (٣٢٠) ، وتتصـل هذه الناحية من جهة باقليم الفرات العلوى ،

---

(٣١٦) V. Sanuto, l.c. et les remarques de MM. Desimoni et Rey dans les Archives de l'Or. lot., I, 436; II, 1, 349.

(٣١٧) Archiv. de l'Or. lat., I, 451, 473, 474, 475; II, 2, 40.

(٣١٨) Advis directif, p. 303.

(٣١٩) Sanut., Epist., à la suite des Secret., fidel cruc., u. 289 et s., 297; Weil, Gesch. der Chalif., IV, 351; Aboulf., Géogr., II, 2. p. 27; Archiv de l'Or lat., I, 495, 505.

(٣٢٠) ثغر آياس بلدة قديمة على الساحل الغربى لخليج اياس (الاسكندرية حاليا) ، وكان الملاحون والتجار الايطاليون فى القرون الوسطى يعرفونهـا باسم « اجاتزو » او لاجاتزو » Ajazzo/Lajarro . وكانت جزءا من امارة ارمينيا الصغرى ، تركزت فيها التجارة بين الغرب والشرق ، وكانت تربطها بالشام وبلاد الجزيرة طرق برية جيدة ، ومنها بدأ خرج ماركوبولو فى رحلته الى آسيا سنة ١٢٧١م ، كما كانت مقر المقيم البندقى لدى آل عثمان .

وقد ذكرها ابن اياس فى تاريخه باسم قلعة آياس التى كانت مدخلا بحريا وتجاريا لارمينيا الصغرى — المترجم —

(انظر دائرة المعارف الاسلامية — خورشيد الجزء الأول ، ص ١١٥) .

ومن الجهة الأخرى بأقاليم آسيا الصغرى التى تفصلها عن أرمينيا سلسلة جبال طوروس ، وأخيرا يمكن بطريق البحر الاتصال بسهولة بقبرص وسوريا .

ويتحدث أبو الفدا عن الجوزات باعتبارها ميناءا مشهورا ، وملتقى التجار ، يهرعون اليها من البر والبحر ، ولكنه ينسب الأصل فى رخائها الى عصر لاحق للعصر الذى قضى فيه قضاء مبرما على الدول الصليبية ، وهذا غير صحيح (٣٢١) .

وقد مر ماركو بولو بهذه المدينة قبل سقوط عكا بعشرين سنة ووجد بها حركة تجارية نشيطة ، ويقول انه شاهد بها « كل أنواع التوابل ، والحرائر ، والبروكار المذهب ، وسلعا أخرى ترد اليها من داخل آسيا » ، ويأتى اليها تجار جنوا والبندقية وغيرهما ومعهم منتجات الغرب يبادلونها بمنتجات الشرق . وفى زمن هذا الرحالة المشهور كانت لاجاتزو نقطة انطلاق التجار والمسافرين الغربيين (٣٢٢) الذين يقصدون التوغل فى داخل آسيا ، وكانت أيضا الميناء الذى يأتون اليه ليبحروا منه عائدين الى بلادهم . وفى الرحلة الأولى التى قام بها الاخوان نيكولو ومافيو بولو Niccolo et Maffio Polo فى الصين ، انطلقا من سواحل البحر الأسود ، ولكنهما مرا بآياس فى عام ١٢٦٩ عند عودتهما الى وطنهما . وكانت هذه المدينة هى التى اختاراها كنقطة انطلاق لرحلتهما الثانية التى قاما بها عام ١٢٧١ بصحبة ماركو بولو الشاب (٣٢٣) .

والذى يهمنا كثيرا من كل ما رواه ماركو بولو عن آياس أنه يذكر هذا الميناء على أنه سوق فى الدرجة الأولى من الأهمية لتجارة مختلف أنواع التوابل . وتتأكد هذه المعلومة بامتياز منح للجنويين فى عام ١٢٨٨ ، ونطالع فى هذا الامتياز تعدادا لبعض السلع مثل الفلفل ، والجنزبيل ، وخشب البقم ، والنيلة التى اعتاد الجنويون أن يشتروها فى الجوزات ويصدروها من ناحية ايكونيوم (قونية) (٣٢٤) . وبعد عشر سنوات اشترى اثنان من البنادقة ، وهما ماركو ميشيل الملقب لوتاتارو Marco Michiel (Lo Tataro) وباولو مورووسينى

---

(٣٢١) Aboulf., Géogr., l.c.

(٣٢٢) V. le Liber pergrinations de Ricoldo di Monte Croce, dans Laurent, Pereinatores, p. 113, 122.

(٣٢٣) Marco Polo, éd. Pauthier, I, 15, 18 et s., 34 et s.

(٣٢٤) Recueil des historiens des croisades, Documents arméniens, éd. Dulaurier, I, 752, 754.

اشتريا من الجوزات ست بالات من الجنزبيل ، من Paolo Morosini النوع المسمى بالبلدى (٣٢٥) • غير أن فى هذه البراهين ما يكفينا • والثابت أن الجوزات كانت على صلة بالبلاد المنتجة للتوابل عن طريق القوافل •

والمطلوب أن نبحث أولا عن رسم الطريق الذى تسلكه التوابل ، هل كانت تمر بالخليج الفارسى ، ثم تصعد مجرى نهر الفرات لتصل عن طريق الأبواب القليقية Portella الى الجوزات فى خليج الاسكندرونة ؟

الجواب نعم اذا سلمنا مع السيد بوتييه M. Pouthier أنه ينبغى قراءة الفقرة التى كتبها ماركو بولو فى هذا الخصوص كما يلى : « اعلموا أن كل التوابل والأقمشة الحريرية والذهبية الواردة من بلاد الفرات تحمل الى هذه المدينة » (٣٢٦) ونقرأ بعد هذا بقليل ، كنتيجة لذلك أن « كل من يريد الذهاب الى أرض الفرات من تجار أو غيرهم ، يتخذ طريق هذه المدينة » • غير أن السيد يول Yule أثبت ببراهين قوية (٣٢٧) أن معنى الفقرة الأولى قد حرف بملاحظة هامشية أضيفت فيما بعد ، وأن الأمر لاعلاقة له أبدا بالفرات : وقد فهمها المترجم اللاتينى الأسبق أحسن مما فهمها صاحب التعليق : فقد ترجمها ببساطة بهاتين الكلمتين : infra terram (Orienti)

والواقع أن ماركو بولو كتب فى الفقرتين fraterre وهذا التعبير يشير فى فكره الى داخلية آسيا • وعلى ذلك فمن العبث محاولة العثور فى هذه الفقرة على أية اشارة محددة الى البلاد التى تمر بها القوافل •

وعلى أية حال فالحقيقة التى يمكن انكارها هى وجود حركة تجارية بين سورية وآسيا الصغرى • ورغم ما كان يصيب هذه الحركة كثيرا من معوقات وصعوبات بسبب الغارات التى يشنها خانات هولاكو ، وأباقا ، وقازان (١٢٦٠ — ١٣٠٠) وحملات سلاطين مصر ضد أرمينيا الصغرى ، فانها كانت مستمرة ، وكان جمرك الأبواب العليقية (بورتيللا) يجمع

---

(٣٢٥) Romanin Stor, di Venez., III, 400 et s.; M .de Ma Latrie, dans la Biblioth. de t'Ecole chartes, 1873, p. 50-54; les Commem., I. p. 67 et s., no 298.

(٣٢٦) مما لا شك فيه أن التركيز على الأهمية التجارية لهذه المدينة على الطريق بين أرض الفرات وخليج الاسكندرية قد عمل على الاعتقاد بأن المقصود بها مدينة « سيس » عاصمة ارمينيا الصغرى • ولكن سياق الحديث يؤكد أنها هى ميناء آياس البحرى السابق الاشارة اليه فى هامش ٣٢٠ •

(٣٢٧) M. Polo, I, 43, note 4.

لملوك أرمينيا ايرادات كبيرة (٣٢٨) • وكان عدد من التجار البنادقة يجتازون أيضا الحدود عند هذه النقطة ويدفعون الرسوم المطلوبة (٣٢٩) ، وتجار آخرون يصلون الى أرمينيا عن طريق البحر ، ويتزودون من آياس بالمنتجات السورية • يشهد بذلك ميشيل ، ومورروسيني اللذان ذكرناهما قبلا فى مناسبة شراء ست بالات من الجنزبيل ، وحملا معهما أيضا من حلب ثمانية عشر كيسا من القطن • ولكن كان هناك دائما تجار يسافرون الى سورية بعد انجاز أعمالهم فى أرمينيا •

وتدخلت جمهورية البندقية فى عام ١٣٢٠ لصالح مواطنيها لدى الملك لأوون الخامس Léon V حتى لا تقام الصعوبات فى وجه من يريد منهم الانتقال من أرمينيا الى سورية • وأبدى الملك استعداده لمنحهم الحرية المطلقة فى هذا الخصوص طالما لم يكن فى حرب مع المسلمين (٣٣٠) •

نقول بعد ذلك ان سورية لم تذكر بالاسم فى فقرة الوثيقة التى نعطى ها هنا معناها العام ، فقد استبدل باسم البلد كلمة تبدو غامضة فى ظاهرها : Jusem ، غير أن النص فى مجموعه يدل على أن المقصود هو بلد اسلامى مجاور ، وفى هذا ما يكفى لاستبعاد سلطنة قونية ، ثم ان كل ما قيل (فى هذا النص) ينطبق بوضوح على سورية • ويجب قـــراءة in Sem : فالنص الأصـــلى به كلمة Sem (أو Scham بمعنى الشام) بوضوح ، التى كان يستخدمها الأرمن ويقصدون بها سورية بوجه عام ، وبخاصة الاقليم الذى به مدينة دمشق (٣٣١) • وقد يبدو عجيبا أن ينقل المترجم اللاتينى هذا الاسم الشرقى دون أن يترجمه ، مع أن هذا الاسم كان مألوفا أيضا فى الغرب ، واستعمله سانوتو كثيرا ، ويقرنه دائما باسم سورية ، مما يدل على أن الاسمين ينطبقــان على موضوع واحد (٣٣٢) •

---

(٣٢٨) منذ عام ١٣٢٣ أجبروا على النزول عن نصف ايرادات جمارك بورتيلـــلا ، والجوزات لسلاطين مصر ، انظر :
— Raynald, Annal. eccl., a.a. 1323, no 9, T. XXIV, p. 221.

(٣٢٩) Traités de 1307 et de 1321, dans Langlois, Trésor, p. 167, 183.

(٣٣٠) Langolis, Ibid., p. 181.

(٣٣١) Dulaurier, dans le Journ. asait., 5e série, T. XVI, p. 293, 294 et dans le Recueil des historiens des croisades, Doc. armén., I. 303 : Brosset, annotations de Kiracos, dans Deux historiens Arméniens, p. 145, not. 4; Haython, Hist. Orient., cap. 14, p. 11, éd. de Helmst. (1985); Mas Latrie. Traités. Suppl. p. 81.

(٣٣٢) Secr. fid. cruc, p. 36, 37, 56, 92, 97, 243; Kunstmann, Marino, Sanudo, Suppl., Epist. V. p. 795 (Tirage à part, p. 99).

ويطلق بيجولوتي أيضـا عبارة Sciame di Soria في خصـوص انتاج القطن ، ويقارن بين منتجاته في حماة ، وحلب ، وعكا ، واللاذقية ، الأمر الذى يدل ، حسب قوله على أن هذه المدن الأربع لم تشملها مقاطعة Scham (٣٣٣) • وعلى العكس من ذلك ، في المعاهدة المذكورة قبلا ، تظهر كلمة Sem على أنها تعنى سورية بوجه عام • وقد أوضحنا أنه حتى في الأزمنة الأكثر اضطرابا ، ما أن تهدأ الأحوال حتى تسترد الحركة التجارية نشاطها من سورية الى أرمينيا ، وبالعكس •

أما بخصوص معرفة ما اذا كان النصيب الأكبر من منتجات الهند قد استمر يستخدم اقليم سورية ، أى ما اذا كانت آياس تتلقى توابل الهند عن طريق سورية ، فان هذه مسألة ينبغى معالجتها على حدة ، اذ ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألة أخرى يجب أولا ايجاد حل لهـا : فمنذ القضاء على الخلافة في بغداد ، هل احتفظت بلاد الدجلة والفرات ، من ناحية التجارة ، بنفس الأهمية التى كانت لها من قبل ؟ فمنذ غزو هولاكو هذه المنطقة ، انتقل مركز النقل السياسى الى شمال بلاد ما بين النهرين ، أى الى ايران : فبين تبريز Tauris وبغـداد ، العاصـمتين القديمة والجديدة ، لم تلبث المنافسة في التجارة أن تجلت بتدرج بطىء ولكنه منتظم • وطالما احتفظ كل من الخلافة من جهة ، والدول اللاتينية من جهة أخرى بكيانه الخاص ، كانت منتجات الشرق المستورة عن طريق الخليج الفارسى تمر ببغداد وتصـل الى البحر المتوسـط عن طريق أنطاكية واللاذقية (٣٣٤) •

ومع ذلك نلاحظ أنه مع أن حركة منتجات الهند من الشرق الى الغرب تتبع دائما نفس الاتجاه ، عن طريق الخليج الفارسى ، وبصرة وبغداد ، فان ماركو بولو يشير الى وجود عـلاقات بين تبريز والهند (٣٣٥) • ويقرر سانوتو في الجزء الأول من كتابه Secreta fidelium Crucis الذى ألفه في عام ١٣٠٧ أن منتجات الهند التى تجتاز القسم الغربى من امبراطورية المغول لتصدر الى الغرب كانت تمر اما ببغداد واما بتبريز • ولكن في عصره كان هذا الطريق أقل الطرق استخداما في التجارة ، أما الجزء الأكبر من البضائع فكان يتخذ طريق الاسكندرية • واحتفظت

---

(٣٣٣) Pegol, p. 367.

(٣٣٤) Sanut, p. 22.

(٣٣٥) وقد مر (ماركو بولو) بطورس (تبريز) عند عودته من الصين عام ١٢٩٣ او ١٢٩٤ — بحث Ed. Pauthier, p. 47 et s., 60.

بغداد وتبريز بالأسبقية فى تجارة التوابل الدقيقة ، مثل الكبابة (حب العروس : نبات من الفصيلة الفلفلية يستعمل فى الطب — المترجم) ، والناردين (نردن : نبات صغير طيب الرائحة — المترجم) ، وما شابه هذه الأنواع ، ذلك لأن قيمة هذه المواد لا تتوقف على وزنها · ومن ثم فان نفقات نقلها برا لمسافات طويلة لا تؤثر تأثيرا محسوسا على سعر التكلفة ·

وثمة سبب آخر لتفضيل هذه الأصناف : ذلك أنه لما كان ثمنها مرتفعا ، فلابد أنها كانت تدفع فى مصر رسوما مرتفعة كثيرا ، فى حين أنها لم تكن خاضعة فى امبراطورية المغول الا لرسم معتدل · وأخيرا فاذا كانت التوابل الثقيلة الوزن تتبع بعسامة طريق الاسسكندرية ، فان الأنواع الرقيقة منها مثل الزنجبيل والقرفة كانت تصدر بطريق البر ، أى عن طريق امبراطورية المغول لغم طول المسافة ، وذلك لتتجنب أسباب التلف (٣٣٦) ·

وحتى بداية القرن الرابع عشر كانت بغداد وتبريز تتقاسمان مزية نقل منتجات الهند الى الغرب ، ولكن فيما بعد اجتذبت تبريز بالتدريج هذه التجارة ، فى حين تراجعت بغداد والبصرة الى المرتبة الثانية (٣٣٧) · وعندما أقام بيجولوتى فى قبرص وأرمينيا صار أقدر من أى انسان آخر على متابعة تقلبات التجارة فى الشرق فى الفترة بين عامى ١٣٢٠ ، ١٣٥٠ · ويبدو أنه لم يكن يعرف بغداد بالاسم ، بينما أفرد لتبريز فقرة طويلة يتبين منها أنه كان يجرى فى هذا الموقع تبادل كل أنواع التوابل ، وفرزها قبل عوضهما للتجارة ، ولا تجرى هذه العملية الا فى المخازن الكبيرة · وكانت تبريز تتلقى أيضا ، غير التوابل منتجات فارس ووسط آسيا ، وكان معظم هذه البضائع يعاد تصديره صوب البحر المتوسط عن طريق آياس · ويعدد بيجولوتى كل المراحل المتتابعة بين هاتين المدينتين ، وكل الرسوم التى تدفع على طول الطريق · وفى الفترة التى كان يقيم أثناءها فى أرمينيا (١٣٣٥) كانت الحركة التجارية بين المدينتين فى أوج نشاطها ، وكان ملك أرمينيا وقتها هو لاؤون الخامس ، وكان بيجولوتى يمثل لديه بيت باردى ، وكان خان فارس يدعى أبو سعيد Abou Said ، ومن ثم أطلق بيجولوتى على امبراطورية المغول اسم أرض بوسعيد Terra di Bou Saet ·

---

(٣٣٦) Sanut. l.c. p. 23.

(٣٣٧) حين زار ابن بطوطة هاتين المدينتين (١٣٢٧) كانت بصرة قد بلغ التدهور منها مبلغه ، أما بغداد فلم تزل تواصل المنافسة ، ورأى فيها أسواقا بديعة : ابن بطوطة : II, 8, 100 et s, IV, 555

ولما كان هذا الطريق لا يمر باقليم أرمينيا الا بجزء صغير جدا من طوله ، فانه من الأنسب لنا أن نصفه مع دراستنا هذه لفارس • أما الآن ، فانا لا نقدم سوى معلومة واحدة : ذلك ان مدينة سيواس (سلفاسترو ، سافسترو) (Salvastro, Savastro) Sivas, الواقعة على هذا الطريق كان لهـا فى ذاك الأوان أهميـة تجارية كبيرة • يؤيد ذلك واقعتان : أولاهما أن بيجولوتى اهتم بوضع قائمة بالموازين والمكاييل المستعملة فى هذا المكان مع مقارنتها بنظيراتها فى قبرص وعكا (٣٣٨) ، وثانيتهما أن جمهورية جنوا كان لها هناك قنصل فى حوالى عام ١٣٠٠ (٣٣٩) •

واذا كان بيجولوتى قد اهتم بأن يصف بهذه الدقة الطريق التجارى من الجوزات الى تبريز ، فهو قد فعل ذلك خدمة لمواطنيه الايطاليين • فالواقع أن كل التجار الغربيين الذين ينزلون برا عند آياس لم يكونوا يتوقفون عندها ، بل كان عدد كبير منهم يواصل سيره الى تبريز ، بل والى ما بعدهـا • لهـذا كلفت جمهوريـة البندقيـة ميشيل جستنيـانى Michele Giustiniani سفيرهـا لدى لاوُن الخامس أن يطلب من الملك ، لصالح مواطنيها تصريحا رسميا بأن يجتازوا البلد للذهاب الى تبريز ، وقد منحهم الملك هذا التصريح ووعدهم بتقديم كل ما يلزمهم من تسهيلات (٣٤٠) •

من جهة أخرى كان التجار الغربيون الذين يقصدون قونية يبدأون رحلتهم من الجـوزات • وفى عـام ١٨٨ قامت من آياس قوافـل من جمال وخيل وبغال محملة بتوابل يملكها تجار جنويون فعبرت ممرات حصن جوجلاج Gouglag على حـدود أرمينيا وسـلطنة قونيـة (ايكونيوم) (٣٤١) ، وربما اجتازت مثل هذه القوافل آسيا الصغرى بانحراف حتى تصل الى القسطنطينية ، وربما كان عبور ممرات جوجلاج

---

(٣٣٨) Pegol, p. 7-13, 48, 50, 79.

— فى مصر الجغرافى ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) ، كانت سيواس ذات أهمية تجارية ، وثمة طريق للقوافل يربط هذه المدينة بقيصرية : انظر أبو الفدا : Aboulf., Géogr, II, 2, p. 139.

وفى عام ١٢٧٤ قام جنوى يدعى سيمون ليركارى برحلة من الجوزات الى سيواس • انظر : Archiv. de l'Or. lat., I, 448 et s.

(٣٣٩) Miscell. di storia patria, XI, 761.

(٣٤٠) Langlois, Trésor, p. 181; Dulaurier, dans el Recueil des hist. des crois., Doc. armén., I, p. clii, not 1.

(٣٤١) Recueil des hist. des crois., 1.c., p. 754.

أسـهل اذا بدأ من مدينة طرسوس Tarse • غير أن ميناء هذه المدينة قد بدأ حينئذ على ما يبدو يمتلىء بالرمال ، وصار الدخول اليه بطريق البحر مستحيلا • ومن ثم تحول المرور الى ناحية آياس رغم طول المسافة الواجب قطعها (٣٤٢) •

وعاد نمو العلاقات مع داخل آسيا عن طريق آياس بالفائدة على سكان الأقاليم الواقعة وراء أرمينيا • فصـار فى مقدورهم هم أيضا ، باستخدام الطرق التجارية المؤدية الى تلك المدينة ، أن يذهبوا الى الشاطىء ويتاجروا مع أمم الغرب التجارية • وفى عام ١٢٦٧ استولى أمير البحر الجنوى لوكيتو جريمالدى Luchetto Grimaldi فى ميناء قريا قوس Korykos (curco) الأرمنى على سـفينة كبيرة محملة ببضـائع ثمينة (٣٤٣) ، فطالب أصحاب البضائع بتعويض عنها ، وكان من بينهم أرمن من آياس ، وسوريون من عكا وصور ، وأنطاكية ، وبعض رعايا الخان المغولى أباقا (٣٤٤) • وكان مسلمو سـورية يجلبون الى سـوق آياس كميات كبيرة من القطن (٣٤٥) • وثمة شخص من بغـداد يدعى يوسف كان يملك بها على ما يبدو متجرا مستديما (٣٤٦) •

وهكذا كان ميناء آياس وشوارعهـا مكتظة بالتجـار من جميع الجنسيات • وهناك كان الافرنجى يتاجر علنا مع المسلم • والشىء الذى كان يضفى على هذا الملتقى جاذبية قوية لمسيحيى الغرب فى فترة كان دخول موانى المسلمين فيها محظورا بأمر البابا ، والا وقع على المخالف عقوبات صارمة ، وذلك لأن موقع الميناء كان فى أرض مسيحية • ويقول سانوتو ان التجار الذين يخشون الحـرمان الذى توقعه عليهم الكنيسة ، كانوا يذهبون الى آياس (٣٤٧) • واذا كان عصر ازدهار هذه المدينة يقابل

---

(٣٤٢) Note de Dulaurier, Ibid.introd., p. xlii.

(٣٤٣) Annal. Jan. p. 261.

(٣٤٤) Document du 22 oct. 1268; Mas Latrie, Hist .de Chypre, II, 74-79 ; Langlois, Trésor, p. 149-151; Archiv. de l'Or. lat., I, 441.

– لا بد التسليم أنه بين التجار الشرقيين من البلاد الاسلامية الذين كانوا يزورون الدول الصليبية وارمينيا كان يوجد عدد كبير من سكان الموصل ، واعتاد الغربيون أن يطلقوا عليهم اسم : Mossoulans, (Mosolini)

(٣٤٥) Langlois, Op. c., p. 197 et s.

(٣٤٦) Ibid., p. 175.

(٣٤٧) Epist. V, à la suite des Secr. fidel. cruc., p. 297.

العصر الذى يطبق فيه بصرامة الحظر الذى أصدره البابورات ، فان ذلك لم يكن نتيجة لعامل الصدفة وحده ، وانما كان نتيجة مباشرة لهذا الحظر .

ولنتناول الآن على حدة كلا من الأمم التجارية الأوروبية التى كانت تتردد على أرمينيا فى هذا العصر . وقد عرضنا من قبل تاريخ علاقات البندقية بهذا البلد حتى معاهدة عام ١٢٤٥ ، وأبرمت المعاهدة التالية فى عام ١٢٧١ ، وهى بوجه عام منقولة من المعاهدة السابقة ، غير أن ما يعطيها اهمية خاصة هو أنها لأول مرة تذكر قضاء بايل بندقى مقيم اقامة ثابتة فى البلد (٣٤٨) . وحتى هذا الحين كانت الجالية الفينيسية فى أرمينيا تعتبر اما تابعة لنظيرتها فى عكا ، أو تابعة للوطن الأم مباشرة . واعتبارا من هذه اللحظة أصبح لها ادارتها الخاصة ، كما أصبح الانفصال بينها وبين جاليتها فى سورية أمرا واقعا سابقا لسقوط عكا . ولما كانت أهم لحظة فى تاريخ هذه الجالية هى تلك التى كانت تملك فيها استقلالها ، والتى وصلت فيها الى أقصى درجات الرخاء ، فان المرغوب فيه هو الحصول على أوفر المعلومات عن هذه الفترة . لذلك فانا نأسف كل الأسف للفراغ الذى نتج من فقد محاضر مجلس شيوخ البندقية (Misti) عن السنوات من ١٢٩٣ الى ١٣٣٢ .

وفيما تبقى من السجلات فى خصوص هذه الفترة (٣٤٩) ، نجد بضعة أسماء لبايلات واشارة الى بضع سفارات ، وطلبات تعويض ، وهدايا مرسلة الى بلاط أرمينيا . غير أننا لا نجد فى غير هذه الوثائق ذات الأهمية الثانوية أثرا للتعليمات المحررة للسفراء ، والأوامر الصادرة الى البايلات . ولم تكن المنازعات بين جمهورية البندقية وملوك أرمينيا نادرة الحدوث ، ولسنا نقدم برهانا على ذلك سوى المرسوم الذى تجدد ثلاث مرات ، ويحظر على الرعايا البنادقة الذهاب الى أرمينيا . وتميز عام ١٣٠٣ أو ١٣٠٤ بنزاع قوى بنـوع خاص : فعلى حين غرة استولى بايل بندقى (اندريا سانوتو ؟) على رأس عدد من مواطنيه التجار ، وبحارة سفينتين على الحصن القائم أمام بوابة آياس ، حيث توجد الترسانة ، وسلمها للنهب والسلب ، كما استولى على الكثير من المنازل التى يملكها مواطنون وأجانب (٣٥٠) . ولم يتضح الباعث على أعمال العنف هذه ،

(٣٤٨) Langlois, Op. cit., p. 151 et ss., Taf. et Thom., III, 115 et ss.; des actes du sénat de Venise des années 1274 et 1279.

(٣٤٩) Arch. Venet., XVIII, 134, 139; XVIII, 315-323; XX, 294.

(٣٥٠) Mas Latrie. Hist de Chypre, III, 677 et s., 684-687; Langlois, Trésor, p. 165 et s., 170 et ss. ; Langlois, au haut de la page 171; Arch. Venet., XVIII, 316; Langlois, p. 173; Commem. reg., I, p. 67, no 297; Arch. Venet., XVIII, 315.

ولعلها من أعمال الثأر . وفى تلك الآونة بالذات ، وعلى الرغم من منح البنادقة اعفاء من الضرائب والرسوم ، فرض الملك رسما قدره ٤٪ على كل السلع التى يستوردونها (٣٥١) . ورغم قلة المصادر المتاحة لنا ، حاولنا استخلاص بضعة معلومات عن تصرفات البنادقة فى أرمينيا فى هذا العصر . ففى كل عام ، فى تواريخ محددة ، تقلع من البندقية الى آياس سفن تمر بقبرص (٣٥٢) : وتجرى هذه الخدمة بانتظام شديد ، حتى انه فى عدد كبير من الحالات ، وبالنسبة الى الصفقات التى تعقد فى آياس كانت مواعيد الاستحقاق تحدد بتاريخ وصول هذه السفن (٣٥٣) .

كانت الجوزات هى غاية رحلات هذه السفن ، والمركز الرئيسى للجالية ، ومقر البايل البندقى . ومنذ عام ١٢٧١ صار للبنادقة بالمدينة كنيسة يتولى خدمتها قسيس منهم (٣٥٤) ، وملحق بالكنيسة مقبرة كان لابد من توسيعها فى عام ١٣٢٠ (٣٥٥) : هذه المعلومات تثبت وجود جالية كبيرة العدد . وتذكرنا ضرورة توسيع المقبرة أيضا برداءة مناخ أرمينيا والأحياء الفقيرة المجاورة للساحل ، والتى كانت الاقامة فيها مضرة بصحة الأوروبيين ، بل وتقضى على حياتهم فى بعض الأحيان (٣٥٦) . على أنه اذا كانت آياس (لاجاتزو) مركزا تجاريا ، فانها لم تكن تستغرق كل اهتمام البنادقة ، اذ كانوا يمارسون نشاطهم فى كل أنحاء أرمينيا ، فى سيس (سيسية) Sis ، والمصيصة Mamistra ، وأذنة (أضنة Adana) ، وطرسوس Tarse ، وحصلوا ثمة على ممتلكات وامتيازات ، وأظهروا غيرة فى عملهم ، ونجحوا فى الحصول لتجارتهم فى هذه المدن على نفس التسهيلات التى كانت لهم فى آياس (٣٥٧) .

وكان لهم فى هذا الشأن أسباب وجيهة : فقد كان فى الامكان الحصول بالداخل بسعر أقل مما فى آياس (٣٥٨) على الكثير من

---

(٣٥١) Arch. Venet., XVIII, 315.

(٣٥٢) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 133 et ss., Marin, Storia del Commercio de Veneziani, IV, 104; V, 193; Arch. Venet., XVII, 259 et s., 263; XVIII, 315 et ss.; XIX, 105.

(٣٥٣) Langlois, Op. c., p. 193; Archiv. Venet., XIX, 105.

(٣٥٤) Langlois, p. 153, 169, 176, 184.

(٣٥٥) Ibid. p. 181.

(٣٥٦) Mas Latrie, Op. c., III, 118 et 122; Sanut., p. 37; M. Polo, I, 34, éd. Pauthier.

(٣٥٧) Langlois p., 177.

المواد ، كالفراء والجلود والحرير والصوف مما يستعمل فى صنع الشملات ، وكان لهاتين المادتين الأخيرتين قيمة خاصة منذ أن تعلم البنادقة من الأرمن صنع الشملات ، واشتغلوا بصناعتها (٣٥٩) ، ونمت هذه الصناعة بدرجة كبيرة حتى انهم تجنبوا تبعيتها بأية درجة للصناعة الأجنبية ، بأن نجحوا فى تشغيل عمال منهم محليا فى معالجة المواد الأولية الخام الموجودة فى البلد ، فنشـأ فى داخل الجالية طائفة من الصناع ، كسب التجار كثيرا من عملهم . غير أنهم كانوا ، أكثر من البنادقة أنفسهم فى حاجة الى حماية فعالة من جانب حكومة الوطن الأم ، لأن فقرهم كان يعرضهم كثيرا لمكائد الموظفين الأرمن (٣٦٠) .

وأسوة بالبندقية ، لم تنتظر جنوا سقوط الدول اللاتينية نهائيا حتى توثق علاقاتها بأرمينيا الصغرى ، فمارست مع هذه المملكة حركة تجارية نشيطة جدا : ولدينا عقود موثقة جنوية ، صادرة بتواريخ فى الجوزات نفسها (٣٦١) تحيطنا علما بالنمو المبكر لهذه التجارة ، والتشكيلة الكبيرة من الأشياء التى تتضمنها . كان التجار الجنويون يستوردون من الغرب الى أرمينيا نبيذا وزيتا وجبنا وشعيرا وجوخا وأقمشة من جميع الأنواع (٣٦٢) ، ويصدرون منها توابل كالجنزبيل والفلفل والنيلة والسكر وخشب البقم (٣٦٣) والقطن الخام والمغزول (٣٦٤) ، وبخارية (٣٦٥) (نسيج مصمغ كان يصنع أصلا فى بخارى) وحديدا وجلودا وأغنادا وأبقارا وحميرا وخيلا وعبيدا (٣٦٦) . ولم يكن مسموحا ببيع العبيد المسيحيين للمسلمين ، مباشرة أو بطريق غير مباشر .

---

(٣٥٨) Ibid. p. 181, 194.

(٣٥٩) Ibid. p. 191, 193.

(٣٦٠) Langlois, p. 180 et s.

(٣٦١) عقود مبرمة فى أعوام ١٢٧١ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٩ فى l'Aias (أرمينيا الصغرى » وبيروت أمام موثقى عقود جنويين ، نشرها :
— Corn. Desimoni. Arch. de l'Or. lat., I, 434, 534.

(٣٦٢) Rec. des hist des crois., Doc. armén., I, p. 752-754; Arch. de l'Or lat., l.c., p. 530, 532 et ss.

(٣٦٣) Rec. des hist., l.c., Arch. de l'Or. lat., I, 455, 501-503, 507-509, 516 et s., 519, 525.

(٣٦٤) Arch. de l'Or lat., I, 455, 532 et s.

(٣٦٥) Ibid. I, 455, 503.

(٣٦٦) Ibid. I, 503; Rec. des hist., l.c.

ولم يكن التجار الجنويون يجلبون هذه المواد كلها الى بلادهم ، بل يبيعونها على طول ساحل أرمينيا ، فى قرياقوس (سوق الكركى) (٣٦٧) Korykos أو على شاطىء سورية ، فى بيروت وعكا وصور (٣٦٨) على سبيل المثال · وكانوا ينقلون خشب البناء من سلوقية (قليقية) Selefkèh الى دمياط ، وهى من الموانىء التى يترددون عليها فى يسر (٣٦٩) ، ويقومون برحلات عديدة الى الداخل · وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك ، وسوف تتاح لنا الفرصة للعودة الى الكلام عنه ·

ونمت الجالية الجنوية فى أرمينيا نموا سريعا ، ونالت استقلالها فى زمن مبكر ، وفى اللقب الذى يطلق على رئيس الجالية ما يكفى لاثبات ذلك : اذ كان أولا مجرد « نائب قمص » Vice-comes ، وفى العصر الذى تتحدث عنه أصبح قنصلا ، وكان لقبه بالكامل « قنصلا ونائبا » Consul et vice-comes, consul et vicarius : وهذا هو اللقب الذى عرف به فيليبينو تارتارو Filippino Tartaro فى عام ١٢٧٤ وليو دى نيجرو Leo di Negro فى عام ١٢٧٩ (٣٧٠) · ونرى أولهما فى مناسبة قضية حكم فيها ، يرفض استئناف حكمه لبودستات جنوا فى صور ، ولم يكن يعترف بدرجة من القضاء أعلى من درجته سوى محكمة « قباطنة » الجمهورية Capitaines de la Rep. (٣٧١) ·

لنا أن نستنتج من هذا أن الجالية الجنوية فى أرمينيا لم تنتظر تفكك الدول اللاتينية حتى تنفصل عن السلطة المركزية القائمة فى سورية · ولا يبدو أن القنصل الجنوى فى آياس كان عنده مجلس يساعده ، ومع ذلك كان يدعو فى بعض الحالات رجالا من أهل الخبرة boni Homines ينتخبهم من بين أعضاء الجالية (٣٧٢) ، ويحمل منفذ أحكامه لقب Placerius ، ويتولى هذا أيضا شئون البيع بالمزاد (٣٧٣) · ويسمى

---

(٣٦٧) Ibid. I, 532 et s.

(٣٦٨) Ibid. I, 453, 503, 528.

(٣٦٩) Ibid. I, 449, 459, 465, 509 et s.

(٣٧٠) Ibid. I, 445, 451, 456, 458, 476, 483, 501, 505, 524 : Atti della soc. Lig., XIII, 101.

(٣٧١) Arch. de l'Or. lat. I, 483.

(٣٧٢) Rec. des hist. des crois., l.c.

(٣٧٣) Arch. de l'Or lat., I, 470, 497, 503 et s., 509, 513, 515, 524, 529, 531 et s.

البناء الذى به المحكمة القنصلية (logia in qua regitur curia consulatus) (٣٧٤) وتمتلك الجالية كنيسة مكرسة للقديس لوران Loggia St. Laurent (٣٧٥) وملحق بها مقبرة (٣٧٦) . وينظم علاقات الجالية بحكومة البلد اتفاق عقد عام ١٢٨٨ بين الأميرال بنديتو زكاريا (٣٧٧)، مفوض جمهورية جنوا فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط والملك لاؤون الثالث (٣٧٨) . وبعد أن رحل زكاريا (فى ٦ من فبراير ١٢٨٩) توفى الملك ، ولما عاد فى ربيع السنة نفسها ، وجد على العرش حيتوم الثانى Hétoum II ابن لاؤون . وبناء على طلب زكاريا وهب الملك للجنويين سوقا كانت مملوكة لأرملة رجل يدعى جوجليلمو ستريجيا بوركو ، ويقال له سلقاتيكو ، وخفض رسم الخروج على البضائع المعاد تصديرها بمعرفة الجنويين من أرمينيا الى الاقليم التركى (٣٧٩) .

والعجيب أننا لا نملك أية وثيقة رسمية (دبلوما) من القرن الرابع عشر منحها ملك أرمنى للجنويين ، ولا أية حقيقة يمكن أن تحيطنا علما بأنباء العلاقات التجارية بين جنوا وأرمينيا الصغرى . ومع ذلك فليس هذا سببا يدعونا الى الافتراض بأن الحركة التجارية قد توقفت وقتئذ ، فهذا استنتاج سابق لأوانه . والحقيقة أنه حدث فى عام ١٢٩٧ أن دمر يتوفيلو موروسينى Teofilo Morosini قبطان سفينة فينيسية فى الاقليم الأرمينى ، فى آياس غالبا سوقا يمتلكها الجنويون (٣٨٠) الا أن هذه الواقعة لا تثبت وحدها أن الجالية الجنوية فى هذا البلد قد انتهى أمرها ، فلم يكن ذلك سوى حادث من تلك الحوادث العابرة العديدة التى سرعان ما تنسى ، والتى تصيب كلا من الجاليات الجنوية والفينيسية بالتبادل على مدى الحرب الطويلة الأمد التى أثارتها المنافسة بين

---

(٣٧٤) هذا هو المكان الذى تسجل به عادة العقود الموثقة .

(٣٧٥) Arch. de l'Or. lat., I, 452, 454, 456, 493 ,497, 503, 513, 522, 524, 529.

(٣٧٦) Ibid, I, 454, 499, 504, 527, 531.

(٣٧٧) Lib. jur., II, 275 ; Annal. Jan., p. 322; voy. la note de M. Desimoni, dans Atti della Soc. lig., XIII, 553 et s., not.

(٣٧٨) Lib. jur., I, 183 et ss.; Langlois (Trésor, p. 159 et ss); Dulaurier (Rec. des hist. des crois., Doc. armén., I, 746 et ss.); Not et extr, IX, 97-122.

(٣٧٩) Jac. Doria (Annal. Jan.), p. 324; Saint-Martin (l.c., p. 104).

(٣٨٠) Dandolo, p. 407; Cicogna, Inscr. venez. III, 187; Romanin, Storia di Venezia, III, 89, 90; Marat., Antiq. ital. med avi, II, 168.

الجمهوريتين (٣٨١) . وفي عام ١٣٣٥ وجد بيجولوتي الجنويين يتمتعون أيضا باعفاءات جمركية كانت لهم في كل زمان (٣٨٢) . ولنا أن نفترض أن منشئاتهم وتجارتهم ظلت قائمة حتى سقطت مملكة أرمينيا تحت ضربات أعدائها .

وبالنظر الى الوضع الملائم الذى كان لمملكة أرمينيا ، كان لابد أن يؤدى سقوط الدول التى أنشأها الفرنجة الى تنمية جديدة لهذه المملكة ، ويستثير بها المنافسة تبعا للفرص المتاحة للكسب . ومع ذلك احتفظ الجنويون والبنادقة بتفوق ملموس بفضل كونهم من الأمم الأكثر رعاية ، أما منافسوهم الذين حصلوا على نفس المعاملة التى كانت لهم فانهم قلائل ، نذكر منهم البيت التجارى والمصرفى الكبير « باردى Bardi » الفلورنسى ، وربما نال هذا البيت هذه الحظوة بسبب ما قدمه للملك من قروض . وعلى أية حال فان وكيله فرانشسكو بالروتشي بيجولوتي حصل له في عام ١٣٣٥ على اعفاء تام من رسوم الدخول والخروج ، في حين أن منافسه بيت بيرونزي Peruzzi الفلورنسى أيضا ، استمر يدفع رسما قدره ٢٪ من القيمة عند الوصول وعند الرحيل .

ويؤكد بيجولوتي أن الصقليين كانوا يتمتعون أيضا بالاعفاء الكامل . الا أن هذه المعلومة يناقضها بصورة لا تقبل الجدل وثيقة رسمية (دبلوما) أرمينية اكتشفت في دار وثائق مسينا . هذه الوثيقة تحمل امضاء لاوون الخامس بعد زواجه بوقت قليل بابنة فردريك الأول ملك صقلية . وبالنظر الى مشاعره الودية حيال بلد حميه ، وعد ملك أرمينيا الصقليين بأن يحسن وفادتهم في ولاياته ، ولم يمنعه ذلك من أن يفرض رسما قدره ٢٪ على دخول السلع التى تقدر بالوزن وخروجها ، بينما اكتفى بالنسبة الى السلع الأخرى برسم انتاج بسيط قدره ١٪ . والفترة بين تاريخ هذه الوثيقة (٢٤ من نوفمبر ١٣٣١) (٣٨٣) وتاريخ اقامة بيجولوتي في أرمينيا فترة قصيرة لا تتيح صدور وثيقة أخرى تمنح للصقليين اعفاء تاما من الرسوم الجمركية .

أما بالنسبة الى البيزيين ، فانا نعلم من بيجولوتي انهم كانوا يدفعون

---

(٣٨١) كانت ساحة هذه الحروب غالبا هى سواحل أرمينيا ، انظر :

— Dandolo, p. 404 et ss. ; Archiv. stor. it., App., no. 18, p. 11-15; Sanuto, Secr. fidei cruc., p. 83; Héthoum, éd. Dulaurier, dans le Rec. des hist. des crois, l.c. p. 489; Romanin, III, 98.

(٣٨٢) Pegolotti, p. 45.

(٣٨٣) La note de Dulaurier, dans ses Recherches sur la chronologie arménienne, I (Paris 1859), p. 130 ; Langlois, p. 186-190; le Recueil des hist des crois., l.c., p. 759 et ss.

رسماقدره ٢٪ من قيمة السلع عند دخولها وخروجها . هذا الوضع الأدنى من وضع سائر أمم ايطاليا لم يمنعهم من السفر فى جموع كبيرة الى آياس (٣٨٤) ، ومن هناك يبحرون على طول سواحل أرمينيا وسوريا ومصر . وكانوا يفضلون بذل جهودهم فى البلد الأخير : فكانوا يوردون اليه الحديد والخشب ، رغم قرارات الحظر الكنسية (٣٨٥) . وقد تكشف لنا كل ما نعرفه عن الأعمال التجارية التى كانوا يمارسونها فى هذا الخصوص عن طريق عقود مبرمة لدى موثقى العقود الجنويين ومن السهل علينا أن ندرك كيف أن كل هذه العقود المبرمة بين بيزيين مؤرخة اما فى محكمة جنوية ، أو فى بيت تجارى خاص يملكه جنوى (٣٨٦) ، غير أن هذا لا يبعث على الاعتقاد بأن البيزيين لم يكن لهم محكمة خاصة بهم : فالثابت أنه كان يوجد قنصل « ومحضر » Placerius بيزى (٣٨٧) . ترى ماذا كانت اختصاصاتهما ؟ وكان لمدينة بليزانس Plaisance (بياتشنزا ، شمال وسط ايطاليا ــ المترجم) أيضا قنصليتها (٣٨٨) ، ودار قنصلية loggia فى الجوزات (٣٨٩) ، وتتمتع جاليتها هناك (٣٩٠) برعاية خاصة ، لأن طوائف تجار الجملة المشهورة فى الوطن الأم كان ابا وكلاء يتولون الأعمال التجارية والمصرفية فى آن واحد (٣٩١) . وختاما نذكر أيضا بالنسبة الى ايطاليا تجار سيينا Sienne (باقليم تسكانيا) وأنكونا Ancone (على البحر الادرياتى) . ويكفى مجرد ذكر هاتين المدينتين نظرا لعدم وجود معلومات بشأنهما (٣٩٢) .

---

(٣٨٤) Archiv. de l'Or lat., I, 467, 473, 480-482.

(٣٨٥) Ibid. I, 443 et s., 447 et s., 450, 460 ,466, 468, 481 et s., 484 et s., 487 et s., 491 et s.; Sanuto, dans Bongars, II 88; Langlois, Voyage en Cilicie, p. 472; Rey, Périples de Syrie et d'Arménie, dans les Archiv. de l'Or. lat., II, 1, p. 333.

(٣٨٦) Arch. de l'Or. lat., I., 444, 446-448.

(٣٨٧) Arch. de l'Or. lat., II, 2 p. 21, chart de l'an 1300; Chartes de 1304 et de 1307, dans Langlois, Trésor, p. 165, 173; Arch. de l'Or. lat., I, 497.

Placerious Pisanorum

(٣٨٨) Langlois, Trésor, p. 174, «Giov. Boldi»: Commem. reg., I, 192.

(٣٨٩) Langlois, Trésor, p. 165 ; Arch. de l'Or. lat., I, 494, 533 et s.

(٣٩٠) Arch. de l'Or. lat., I. 462, 508. 510, 514 et s., 523, 533 et s., Commem., reg. II, p. 41, no. 241.

(٣٩١) Arch. dé l'Or. lat. I, 494, Doneaud, I lcommercio e la navigazione dei Gevovesi nel medio evo, p. 137-143.

(٣٩٢) Arch. de l'Or. lat. I 465, 488, 490, 510.

وشارك جنوب فرنسا بنصيب فى تجارة أرمينيا الصغرى ، ولدينا براهين مختلفة عن ذلك : منها أولا أسماء البروفانسيين المثبتة فى العقود المبرمة لدى موثقين جنويين فى الجوزات (٣٩٣) ؟ وثانيا ، الحادث الذى وقع لتاجر من مرسيليا صادر أسطول فينيسى كل بضاعته مع السفينة التى كان يركبها · وفى قائمة السلع التى صودرت نجد أغطية للخوانات ، وفوطا ، وأمواس حلاقة ، وصناديق صابون ، ومرايا ، وشموعا ، وأحزمة باريزية ، وباختصار مجموعة من السلع الأوروبية التى كان هذا التاجر يريد بيعها فى الشرق الأدنى · وبعد أن صودرت بضاعته ، توجه من آياس الى بلاد الروم ، ولم يكن هو المالك الوحيد لهذه الأشياء ، فقد كان معظمها ملكا لتاجرين من مونبلييه (٣٩٤) · ونذكر ثالثا وثيقتين رسميتين لعامى ١٣١٤ ، ١٣٢١ تحملان توقيع ملوك أرمينيا ، وفيهما أمر صادر الى موظفى الجمارك بألا يطلبوا من تجار مونبلييه سوى رسم قدره ٢٪ ، ويقول بيجولوتى ان هـذا هو السعر المطبق بعـامة على كل البروفانسيين (٣٩٥) ·

نختم هذا التعداد بالقطالونيين · من المرجح أن القانون البحرى المسمى Consulado del Mar قد دون فى قطالونيا ، والثابت أنه طبق من البداءة على أمة لها بحرية تقوم برحلات كثيرة الى أرمينيا (٣٩٦) · وتعرفنا العقود المبرمة عند موثقين جنويين فى آياس بأسـماء بعض بورجوازى سرقسطة (فى ش٠ق اسبانيا) يمارسون التجارة فى هذا البلد (٣٩٧) · ففى عـام ١٢٩٣ أوفـد جيمس الثانى ملك أراجـون بيير دسبورتس Pierre Desportes (Petrus de Portis) فى سـفارة لـدى جيكاتو Geikatou خان المغول ، وعهد اليه فى هذه المناسبة بخطاب يسلمه الى ملك أرمينيا يطلب اليه منح القطالونيين سوقا وحيا سكنيا ، فضلا عن خفض الرسوم الجمركية (٣٩٨) · والواقع أنه فى الفترة التى كان فيها

---

(٣٩٣) Ibid. I, 495, 506.

(٣٩٤) Langlois p. 164 et s. ; Taf. et Thom., III, 374 et ss; Regest. dans les Commem. I, p. 171, no 7; p. 240, no 318 et s., p. 246, no 344; dans les livres V-VIII des Misti ; l'Arch. Venet., XX, 310 et s.; Bibl. de l'école des chartes, 2 série, III, 210.

(٣٩٥) Langlois, p. 178 et s., 185 et s.; Germain, Hist. du commerce de Monpellier, II, 9 et s.; Dulaurier, Recherches sur la chronologie arménienne, p. 188-191; Recueil des hist. des crois., l.c., p. 754 et ss.

(٣٩٦) Pardessus, Collection des lois maritimes, II, Introd., p. xviii.

(٣٩٧) Arch. de l'Or. lat., I, 451-455 (année 1274).

(٣٩٨) Navarrete, dans les Memorias de l'Academia de Medrid, V. 177 et s.

بيجولوتى موجودا فى أرمينيا ، خفض الرسم العادى وقدره ٤٪ الى النصف بالنسبة الى القطالونيين ، ولعلهم يدينون بهذه الحظوة لتدخل الملك · ولا يبدو أن مدينة برشلونة أقامت قنصلية لها فى أرمينيا · وعلى الأقل كان قنصلها فى قبرص (فى فاماجوستا) يؤدى فى عام ١٣٤٧ مهام قنصل أرمينيا (٣٩٩) ·

وعلى العمـوم بذل ملوك أرمينيا كل ما فى وسـعهم من أجل تقدم التجارة ، وكانوا يحبون أن يروا الأمم الغربية تتنافس للحصول على مكان لها فى ولاياتهم ، ولم يكفهم أن يضمنوا تعاطف العالم المسيحى معهم ، بل كانوا يودون أن يتدعم هذا الشعور بمصلحة مادية · ذلك لأنه من غير مساعدة فعالة من ذول الغرب البحرية ، وهم مطوقون من جميع الجهات بالمسلمين منذ سقوط الدول اللاتينية ، لم يكن فى مقدورهم أن يقاوموا أعداءهم ، وأشد هؤلاء الأعداء بأساهم سلاطين مصر · كان هؤلاء السلاطين يغارون من ازدهار تجـارة أرمينيا ، ويغيظهم أن يروا مملكة مسيحيـة صغيرة ، مستقلة تظل قائمة وسط جيرانها المسلمين ، ومن ثم دأبوا على مهاجمتها · ويفترض سانوتو أنهم كانوا يريدون تحويل تيار التجارة الآسيوية الكبير حتى يمر باقليمهم (٤٠٠) ، وهذا أمر محتمل · ولكن من الراجح أيضا أن مصلحتهم السياسية كانت فى الدرجة الأولى من الأهمية · وفى نظرهم أنه لو زالت مملكة أرمينيـا فلن يبقى فى آسيا رقعـة من الأرض تصلح قاعدة لعمليات جيش صليبى ، اذا ما فكر العالم المسيحى تفكيرا جديا فى تخطيط مشروع لاسترداد الأرض المقدسة ·

وللوصول الى هذه الغاية كانت هناك وسـيلة ممتازة تتمثل فى القضاء على مالية أرمينيا : لذلك فرض عليها (سلاطين مصر) بمعاهدة عام ١٢٨٥ جزية قدرها مليون درهم (٤٠١) ، رفعتها معاهدة ١٣٢٣ الى مليون ومائتى ألف درهم ، اطلبـوا منها التنـازل عن نصف ايرادات الملاحـات وجمارك آياس ، والأبواب (القليقية) (٤٠٢) · وكان البلد نفسه فقيرا ، لا تكفى موارده لدفع هذه الجزية الضخمة ، وسد الفراغ الذى يحدث فى ايرادات الجمارك · ولمواجهة هذا الموقف المرهق، وجد ملوك أرمينيا أنفسهم مضطرين الى فرض ضرائب باهظة على التجار الأجانب · ولكنهم امتنعوا

---

(٣٩٩) Capmany, Mem., II, app., p. 66.

(٤٠٠) Secr. fid. cruc., p. 7.

(٤٠١) المقريزى : تاريخ سلاطين المماليك ، الجزء الثانى ، ١ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٧ ·

(٤٠٢) Raynald, Annal eccl., a.a. 1323, XXIV, 221.

عن المساس بالمعاهدات التي تخفض أو تلغى رسوم الدخول والخروج . واستمروا فى منح « دبلومات » بهذا المعنى ، ولكنهم أبقوا على رسوم المرور بالقنوات المائية ، ورسوم رسو السفن فى الموانىء ، ورسوم المرور بالطرق، ورسوم الأسواق ، الخ ، وهى التى لم تذكرها المعاهدات .

ويحصل جاب ملكى census رسم انتاج ، حتى على المبيعات التى يجريها تجار تابعين للأمم الأكثر رعاية (٤٠٣) . وكلما ارتفعت الجزية الواجب دفعها لمصر ، ثقلت الأعباء التى تفرض على التجارة . ولا دون شك أن نعتبر بمثابة نتيجة مباشرة لهذه الجزية مرسوما يقضى بأنه يجب مستقبلا على التجار البنادقة عند وصـــولهم أن يسلموا الى دار العملة الملكية نصف الأشياء الفضية التى تكون معهم (٤٠٤) . هـــذه الأعباء تثقل أيضا كاهل الأمم التجارية كلها ، ولكنا نعلم أن البنادقة وحدهم هم الذين جاهروا بمطالبهم ، وتمردوا على هذه الأوضاع . وقد سبق أن رأينا أن فى مستهل القرن الرابع عشر قام بايلهم على رأس بحارة سفينتين من البندقيــة واســتولى بالقوة على قلعـة فـوق أرض آياس ونهب كل ما وجـده هنـاك بمـا فى ذلك الكثير من الأشـياء التى يمتلكها شرقيون وأوروبيون (٤٠٥) . ولعلنا نرى فى هذا العمل انفجارا للسخط الذى استثارته الاجراءات التى تحدثنا عنها بعاليه . ثم ان الجمهورية وافقت فيما بعد على تعويض الملاك الذين أصابتهم أضرار فى هذه المعركة . وعلى أثر ذلك كلف عدد من السفراء من قبل الجمهورية بتقديم شكاوى لبلاط أرمينيا ، منهم ميشيل جستنيانى فى عام ١٣٢٠ ، وجاكوبو نريفيزانى فى عام ١٣٣٣ . وقد أوفد هذا الأخير اثر تقرير غير ملائم قدمه البايـل بيتيرو براجادينو عقب عودته من أرمينيـا (٤٠٦) . وتقضى التعليمات الصادرة لهؤلاء السفراء بالاصرار على الغاء الرســوم الجديدة الجائرة بالبنادقة ، اما فى آياس نفسها أو فى أثنـاء رحلاتهم

---

(٤٠٣) فى خصوص النظام الأرمنى للضرائب انظر :

— Dulaurier, Recueil des hist. des crois., l.c., p. xcvi et ss. et particulièrement le traité de 1288, ibid, p. 745 et ss.

(٤٠٤) Langlois, p. 180, 191.

(٤٠٥) لم يذكر المؤرخون هذه الحرب ، ولم يرد لها ذكر الا فى الوثائق المأخوذة من « الوثائق الفينيسية » المنشورة فى :

— Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 677 et s., 684-687; Langlois, Trésor, p. 165 et ss. ...

(٤٠٦) Langlois, p. 179-182, 191 et s., 193 et s.

داخل البلد ، وكذا الغاء ضريبة قدرها تاكولان taclin (٤٠٧) يدفعها كل اسبوع البنادقة نساجو الشملات وأصحاب الحانات ، وعلى السفراء أيضا أن يحتجوا على ضروب الازعاج والتباطؤ من جانب موظفى الجمارك ، والاهانات التى يوجهها الأهالى الأرمن الى المستوطنين (البنادقة) الفقراء ، وأن يشكوا للملك نفسه من أنه لا يهتم بقضاء البايل ، وأن المستوطنين لا ينالون منه عونا كافيـــا ضـــد مدينيهم المتقاعسين ، وحماية فعالة ضد ما يقع عليهم وعلى أموالهم من اعتداءات • وتلقى الملك لاوون الخامس كل هذه الشكاوى بروح طيبة ، ووعد بالقضاء على التعديات التى ترتكب بالمخالفة للمعاهدات ، وأن يحكم بالعدل •

كل هـذه مشاكل بسيطة ، فى الامكان معالجتها ؛ ولكن من ناحية العـدو كان الخطر يتفاقم مع ازدياد قوته ، ويهـدد وجـود المملكـة • **وتركت غزوات المصريين وراءها الخراب والدمار ، وأصيب رخاء المستوطنات التجارية بأضرار مباشرة** ؛ فالمسلمون لم ينشروا الحرق والقتل والنهب فى الأرياف والطرق التجارية وحدها ، بل أصابت غاراتهم المدن التى يسكنها المستوطنون ، طرســـون وأذنة وآياس والمصيصة ، كلا منهم بدوره (٤٠٨) • ويبدو أن سلاطين المماليك كانوا يستهدفون بنوع خاص آياس كمركز تجارة ارمينيا •

وقد نهبت آيـاس مرتين ، فى عامى ١٢٦٦ ، ١٢٧٥ (٤٠٩) ، ثم استولى عليها السلطان الناصر محمد مرة ثالثة ودمرها فى عام ١٣٢٢ (٧٢١ هجرية) ، وأسر عددا كبيرا من المسيحيين ، واستطاع عدد آخر منهم الفرار تحت جنح الظلام فى سفن قبرصية ، حيث لجأوا الى قبرص وقرياقوس •

وعندما استتب الأمن فى عام ١٣٢٣ استطاعت المدينة أن تنهض من تحت أنقاضها ورمادها ، وأعيد بناء القلعة الحصينة على البر ، وكان لا مناص من التخلى عن اعادة بناء القلعة البحرية (قلعة اياس ـ المراجع) ،

---

(٤٠٧) كانت التاكولان آنئذ تســـاوى تقريبا الدراخمة drachme ، وكانت عشرة تاكولانات تساوى دينارا بيزنطيا • انظر فى ذلك :

— Pegolotti, p. 44 et s.; Dulaurier, dans le Recueil, l.c., p. 749; Dessimoni, dans les Arch. de l'Or lat., I, 439.

(٤٠٨) Weil, Gesch der Chalif., IV, 55, 77 et s. 255. 267. 33-335, 350 et s., 504 et s.; Arch. de l'Or. lat., I, 266 et s., 270.

(٤٠٩) Dulaurier, Rec. des hist. des crois., p. 522, 528; Weil, Gesch. der. Chalif., IV, 56, 78.; Cont. de Guill de Tyr, p. 467; Sanut., p. 226.

فكان هذا موضوعا لشكوى التجار الذين بقيت بضائعهم معرضة فى المستودعات لغارات العدو ، ومفاجئات القراصنة (٤١٠) ٠

وفى عام ١٣٣٧ (٧٣٥هجرية ـ المراجع) قام المصريون بغزوة جديدة ، وفى هذه المرة لم تنج آياس من اقتحام العدو اياها الا بعد أن تعهد لاؤون الخامس بهدم حصون المدينة التى رممت حديثا بفضل المعونات المالية الكبيرة التى قدمها البابا يوحنا آلثانى والعشرين (٤١١) ، وأن يستقبل فى جهات أخرى حاميات اسلامية (٤١٢) ٠ ولم تنقذه كل هذه التنازلات الا لفترة قصيرة ٠ **فقد استولى المسلمون على المدينة لآخر مرة فى عام ١٣٤٧ (٤١٣) وبقيت فى قبضتهم ، وعبثا توسطت البندقية بناء على طلب البابا كليمنت السادس لاعادة المدينة الى ملك أمينيا (٤١٤) ، وعبثا قامت قوات مملكتى قبرص وأرمينيا متحدة بضرب الحصار على المدينة فى عام ١٣٦٧ (٤١٥) ، حتى ضاعت نهائيا من أيدى المسيحيين ، وخلف ازدهارها القصير الأمد انحلال سريع ٠ ولم يبق لمملكة أرمينيا نفسها وجود لأمد قصير الا بفضل الخلافات الداخلية التى أضعفت مصر فترة من الزمن ٠**

وفى عام ١٣٧٤ قر عزم السلطان الملك الأشرف أن يتخلص نهائيا من هذه الدولة المسيحية ويضم قليقية la Cilicie الى ولاياته ٠ ولم يستطع ليتون السادس (تكفور ـ المراجع) أن يقاوم ، بل طورد حتى وسط الجبال فى قلعة جابان Gaban ، ملجأه الأخير ، ومنها نقل أسيرا الى مصر فى عام ١٣٧٥ (عام ٧٧٦ هجرية ـ المراجع) واذ أصيب المستوطنات التجارية فى أرمينيا فى الصميم بسقوط آياس ، فانها واصلت **حياتها بمشقة حتى تم دمار المملكة نهائيا ، واندثرت دون أن تترك أثرا لها** ٠ وعند سكان هذا البلد فى الوقت الحاضر قصة خالدة ، تحكى ان غابات الزيتون التى عادت الى حالتها البرية التى ما زالت موجودة الى

---

(٤١٠) Sempad, dans le Recueil des hist. des crois, l.c., p. 667 et s.; Ibid. p. 756 et s.; Weil Op. cit., IV, 334 et s.; Raynald. Annal. eccl., a.a. 1322, nos30, 34 et s.; a.a. 1328, no 9; Sanut, Epist., à la suite des Secr,. fid. cruc., p. 289, 297 et s.

(٤١١) Raynald. l.c., a.l. 1331, no 30.

(٤١٢) Weil, Op. cit., IV, 351.

(٤١٣) Le 25 mai, d'apr&s la relation du pèlerin Jacques de Vérone, dans Roehricht et Meissner, Deutsche Pilgerreisen, p. 51.

(٤١٤) Dulaurier, l.c., p. 709; Raynald, l.c., XXV, p. 454; Commem. reg., II, p. 157, no 215.

(٤١٥) Dulaurier, l.c. p. 716; Weil, Op. cit., IV, 523.

الآن قد زرعها الجنويون (٤١٦) ، وأن حصن جوليك كالا Goulek-Qala الذى يشرف على مضيق جوليك بوغاز Goulek-Boghaz (الذى أسميناه قبلا جوجلاج Gouglag) قد شيده أيضا الجنويون (٤١٧) . على أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة .

ثالثا – طربزون ، باعتبارها المدخل الى وسط آسيا

كان للظاهرة التى تجلت فى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، وابان اجتياح آسيا الصغرى بالتدريج نظير فى شمالها الشرقى . فهناك أيضا بفضل طوق من الجبال التى تحميها من غارات الجيوش ، نجت دولة صغيرة يحكمها أمراء مسيحيون من المصير الذى انتهى اليه الكافة : وكانت هذه الدولة فى البداية مقاطعة صغيرة (Thêma) تابعة للامبراطورية اليونانية ، وكان حكامها الذين يحملون لقب « دوق كالديا » Caldée يتمتعون فى بعض الفترات باستقلال تام . وفى السنة التى استولى فيها الفرنجة على القسطنطينية ، أصبحت هذه المقاطعة امبراطورية « امبراطورية طربزون » وامتد كيانها هذا حتى القرن الخامس عشر . وكان أول أمير اعتلى هذا العرش (ابريل ١٢٠٤) هو الكسيوس الأول Alexis 1er حفيد أندرونيك ، وبذلك فان الأسرة الحاكمة التى أسسها هى فرع من أسرة كومنينوس التى أعطت الامبراطورية اليونانية العديد من الأباطرة العظام . وثمة احدى قريبات الكسيوس ، وتدعى تامار Thamar ملكة جورجيا ، هيأت له ملجأ ، ثم زودته بجيش (٤١٨) غزا به أولا اقليما شاسعا على الساحل الشمالى لآسيا الصغرى . ولكن انكمشت امبراطوريته فى أثناء حياته فلم تعد تشغل على الساحل سوى الحيز المحصور بين نهر تيرمودون Thermodon غربا ونهر فيز Phase شرقا . وجاء غزو التتار فى الوقت المناسب (١٢٤٤) لانقاذ البقية الباقية المهددة دواما بتفوق سلطنة ايكونيوم (قونية) الساحق . وبعد أن أنزل التتار بجيش السلطان هزيمة منكرة لم تقم له بعدها قائمة ، وطدوا سلطتهم فيما وراء نهر الفرات ، وبخصوص امبراطورية طربزون ، اكتفوا بأن يأخذوا

(٤١٦) Langlois, Voyage dans la Cilicie, p. 44.

(٤١٧) Kotschy, Reise in den cilicischen Taurus, p. 71 et ss., 204 et ss.

(٤١٨) Hist, de la Géorgie, trad. Brosset, 1ère part., p. 465.

منها جزية ظلت تدفع بعض الوقت ، وتركوها في أمان تام ، وأسهم ظهورهم في آسيا الصغرى اسهاما غير مباشر في رخاء مدينة طربزون وازدياد أهميتها ، لأنه حول التجارة من الاتجاه الذي كانت تتبعه حتى ذلك الحين ، وأصبحت طربزون بحكم موقعها على الخط الذي بدأ يسلكه تيار الحركة التجارية الكبيرة بين الشرق والغرب مرحلة من مراحل هذا الخط (٤١٩) .

وقد لعبت طربزون دائما دورا خاصا باعتبارها موقعا تجاريا ، وطالما كانت من مدن الحدود التابعة للامبراطورية البيزنطية ، كان الروم والعرب يتقابلون فيها ويتبادلون التجارة ، فهذا هو ما يذكره لنا المسعودي ، والاصطخري ، وابن حوقل (٤٢٠) ، كما كانت تمارس من جهة أخرى حركة تجارية مع اقليم القوقاز وروسيا (٤٢١) ، وكان عدد كبير من التجار المسلمين من سلطنة قونية ، ومن سورية وبلاد ما بين النهرين يتقابلون في سيواس Sivas حيث ينظمون القوافل ، ويسيرون بها عن طريق طربزون الى السواحل الشرقية والشمالية لاقليم بنطس Pont (٤٢٢) ، غير أن رخاءها التجاري نما نموا كبيرا بعد تدمير بغداد بأيدي هولاكو خان ، في حين كانت تبريز (طورس) المركز السياسي والتجاري لآسيا ، فطالما بقيت بغداد ، كانت منتجات الشرق تتجه صوب البحر المتوسط ، وبعد سقوطها اتجه التيار التجاري ناحية الشمال لأن القوافل التي تحمل الى البحر السلع المصدرة الى الغرب من تبريز (طورس) كانت تقطع للوصول الى بنطس مسافة أقصر مما تقطعه للوصول الى البحر المتوسط ، وترتب على ذلك انقلاب في الحركة التجارية : ففي حين كان مجموع البضائع القادمة من وسط آسيا تتدفق صوب البحر المتوسط ، أصبح الآن جزء منها ، بل وجزءا كبيرا يسلك طريق تبريز (طورس) الى بنطس ثم الى شاطىء البحر الأسود ، عند طربزون بنوع خاص ، أما الأهالي ، وهم قليلو النشاط بطبيعتهم ، يفضلون الصناعة الصغيرة على متاعب المشروعات الكبيرة ، فانهم لم يسهموا في التجارة الكبيرة الا بنصيب ثانوي للغاية ، ولكنهم كانوا يدركون تمام الادراك المزايا التي تعود عليهم من وفود الأجانب في أعداد متزايدة ، ورأوا بعين الرضا نمو التسهيلات من أجل تصريف المنتجات في البلد يوما

(٤١٩) Fallmerayer, Gesch. v. Trapezunt, p. 318.

(٤٢٠) M. Defrémery dans le Journ asiat., 4e série, T. XIV, p. 462 et par d'Ohsson dans son livre Des peuples du Caucase, p. 26.

(٤٢١) Maçoudi, II, 46 et s.

(٤٢٢) Ibn, Alathir, à l'année 602 (1205-1206 op. I.C)., cité par Defrémery Op cit., p. 461 et s.; Schehabeddin, p. 380.

بعد يوم . فالواقع أن اقليم الامبراطورية كان به أكثر من نوع من السلع التي يعرضهـا على الأجانب . كانت العاصـمة تنتج أنسـجة مسرودة (تريكو) ، وأقمشة متعددة الألوان من كتان (Rhizoeum) ، وصوف ، ووبر الحرير (٤٢٣) . أما الجبال التي تحيط بالامبراطورية فتحتوى على مناجم فضة (٤٢٤) ، وحرير ، وشب من أجود الأصناف (٤٢٥) .

قلنا أن أهالي طربزون تركوا التجارة الكبيرة للأجانب ، واستفاد الغربيون من ذلك . ولما كان وسط آسيا مفتوحا لهم في أعقاب العديد من السفارات المتبادلة بين خانات المغول والدول الغربية ، فقد تحرك عدد كبير من التجار الأوروبيين لاستغلال المجال الجديد الذي انفتح لهم ليمارسوا فيه نشاطهم . وكانت طربزون بمثابة باب من الأبواب التي نفذوا منها . ومن هناك ، كان عدد منهم يصل في الحال الى طوروس ، أو يغامر الى أبعد من ذلك ، الى قلب آسيا ، وآخرون يتوقفون هنـاك ، ويستلمون البضائع التي تجلبها القوافل من الداخل . ويوجد هناك ، كمـا في آياس تـوابل الهنـد (٤٢٦) ، وعقـاقير فارس ، وحـرير الصين (٤٢٧) . والشيء العجيب أن من أوائل التجار الذين نلقاهم على هذا الطريق اثنين من أهالي مرسيليا ، مزودين بخطابات توصية من شارل دانجو (الذى وقع عليها بامضائه بصفته كونت بروفانس) لامبراطور طربزون ، وربما سلم أحد هذه الخطابات لخان التتار ، وهو مؤرخ في ٧ من ديسمبر ١٢٦٦ ، وخطاب آخر بتاريخ ١٣ يناير ١٢٦٧ (٤٢٨) .

فهل طرد الايطاليون البروفنسيين على أثر ذلك من هذه السوق . أو استمرت بحريتهم (بحرية البروفنسيين) تتردد عليها دون أن تترك

---

(٤٢٣) Eugenicus, à la suite des Eustathue opuscula, éd. Tafel, p. 373; Gesch. des Kaiserthums Trapezunt, p. 321.

(٤٢٤) A Baibourt, suivant le texte ramusien de M. Polo : V. Yule, M. Polo, I, 49; Ritter, Asien, X, 372.

(٤٢٥) في داخل البلاد ، خلف سيرازونت Cérasonte ، انظر :
— l'art. Alum, dans le chapitre relatif aux articles de commerce.

(٤٢٦) للحصول على التوابل ، كانت السفن الفينيسية تتجاوز أحيانا طربزون ، Pegol., p. 13.
وتمضى حتى باطوم ، انظر :
— Vadi, cf. Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, Op. cit., p. 268; les Commem., II, p. 100, no 566.
ـ هذه المعلومة تثبت وجود طريق ثانوى يبدأ أيضا من طورس .

(٤٢٧) Fallmerayer, Gesch. V. Trapezunt, p. 318.

(٤٢٨) Del Guidice, Cod. dipl. di Carlo d'Anjio, I, 219 et s.

أثرا لمرورها ؟ لا علم لى بذلك ، وكل ما نعرفه بوجه عام عن اقامة الغربيين فى طربزون ينطبق على أفراد ينتمون الى ثـلاث مدن ايطاليـة : جنوا والبندقية وفلورنسا ٠

سوف نرى فى الفصل التالى أنه فى عشر السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، استقر عدد من الجنويين بصفة دائمة فى فارس ، وظهروا ظهورا عابرا فى الغرب ليؤدوا به بعض المهام باسم الخانات ٠ ومن المفيد البحث عن الطريق الذى سلكـه هؤلاء فى ذهابهم وايابهم ٠ ولابد أن القـارىء يميل بطبيعة الحال الى التسليم ، بعـد كل ما قيل فى الفصل السابق بأنهم كانوا يمرون بجوزات ٠ وربما كان هذا غير صحيح ، لأنه كان هناك طريق أقصر لعله الطريق الذى كانوا يفضلون سلوكه ٠ هذا هو ما تعرفنا به وثيقة اكتشفت أخيرا ، وهى قائمة حساب نفقات سفر جالفريد دو لانجيل Galfreid de Langele (١٢٩١ ـ ١٢٩٣) (٤٢٩) الموفد من قبل ادوارد الأول سفيرا من انجلترا الى فارس ٠

وكان أول عمل أداه لانجيل التوجه الى جنوا ، وفى عزمه بالتأكيد أن يجمع أحسن المعلومات عن الطريق الذى يتعين اتباعه ، ولعله يجد رفاقا سبق لهم أن سلكوا هذا الطريق ٠ والتقى هناك بمن كان يريد لقاءه : التقى بشخص يدعى بوسكاريللو دى جيزولفى Buscarello dé Ghizolfi (Guisulfi) كان فى خدمة أرجون خان (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) وأتى ليزور باسم هذا العاهل بلاطات روما وباريس ولندن ، وأقام قبل عودته بعض الوقت فى وطنه الأصلى ، وكان عليه أن يصحب معه فى عودته أخاه برسيفال Percivalle وابن أخيه كورادو Corrado وكانت مهمة لانجيل بالذات تقابل مهمة بوسكاريللو ، فهى بالنسبة الى الفارس الانجليزى فرصة ذهبية ، تتيح له أن يسافر فى صحبته (٤٣٠) ٠ وقام الاثنان برحلة الذهاب والعودة عن طريق طربزون ، حيث تزودا بما يحتاجان اليه من مؤونة فى طريقهما ؛ ومن الأشيـاء التى تزودا بها ، اشتريا حصانا من تاجر جنوى يدعى بنديتو Benedetto (لا تذكره الوثيقة الا بهـذا الاسم) وتركا جزءا من أمتعتهمـا فى منزل نيكولـو دوريا (٤٣١) ٠

---

(٤٢٩) I conti dell' ambasciata al chan di Persia nel 1292, pubbl. da Corn. Desimoni, Atti della Soc. Lig., XIII, 537-698.

(٤٣٠) Ibid, p. 552 et ss., 567 et ss., 591, 594-596 605, 607, 617 637, 641 et s.

(٤٣١) Ibid, p. 608, 614.

هذه التفاصيل تثبت وجود جالية جنوية فى طربزون : وهى أقدم ما نملكه من أدلة . فهل كان دوريا Doria هـذا كما يفترض السيد ديزيمونى M. Desimoni (٤٣٢) قنصل جنوا فى طربزون ؟ هذا سؤال لابد أن نتركه بلا جواب أكيد . غير أنه ليس ثمة شىء يبيح لنا أن ننفى وجود قنصلية جنوية فى هـذه المدينة فى تلك الآونة . فالـواقع أن الايطاليين الذين تأكد لنا أولا وجودهم فى طربزون هم الجنويون : والشاهد الذى لدينا عن ذلك فقرة كتبها المؤرخ البيزنطى جورجيوس باشيميريس Georgios Pachymérès : فهو يذكر فى مناسبة حدث وقع فى عام ١٣٠٦ (سوف نتكلم عنه فى حينه) أن الجنويين كانوا مستقرين هناك منذ زمن قديم (٤٣٣) .

وثمة حقيقة أخرى تؤدى بنا الى النتيجة نفسها : ذلك أن امتيازات الجنويين فى المعاهدات المبرمة بين أباطرة طربزون والبندقية قد اتخذت مرارا بمثابة أنمـاط من المزايا التى يراد منحها للبنادقة . ولابد أن تخصيص حى لهم يرجع الى عام ١٣٠٠ (٤٣٤) . فالواقع أنه فى رسائل متبادلة فى عام ١٣٤٥ بين دوجى جنوا والبندقية فى خصوص أرض معينة أجرى عليها البنادقة بعض الأعمال كما لو كانت هذه الأرض ملكا لهم ، نرى أن الأول يدعى ملكية الأرض ، ويثبت دعواه فى « قرار ذهبى » bulle d'or نشر منـذ أكثر من خمسين عاما باللغتين اليونانيـة واللاتينية (٤٣٥) أصدره الكسيوس الثانى امبراطور طربزون (١٢٩٧ ــ ١٣٣١) يهب بموجبـه هـذه الأرض للجنـويين ، ويضـيف الدوج أن الكسيوس ، بمنحه هذا الامتياز لمواطنيه لم يفعل سوى الاقتداء بأسلافه الذين يدين لهم الجنويون بامتيازات أخرى .

هذه الجملة تفتح لنا مجالا واسعا فى السنوات الأولى من القرن

---

(٤٣٢) Ibid., p. 553.

(٤٣٣) Pachym., éd. Bonn., II, 449.

(٤٣٤) كانت الجالية الجنوبية تملك أيضا من زمن مبكر محكمة خاصة بها ، ونجد الدليل على ذلك فى ميثاق بتاريخ ٦ أكتوبر ١٣٠٢ :

— Atti della Soc. Lig., XIII, 553, not. 2.

(٤٣٥) Atti della Soc. Lig, XIII, 536; Taf et Thom., IV, 289; Marin (VI, 86) et M. de Mas Latrie (Archives des missions scientifiques II, 348 note); Fallmerayer, Gesch. V. Trapezunt, p. 300.

ـ لم تكن ارضروم مطلقا واقعة داخل حدود امبراطورية طربزون . وفى قمة ازدهارها كانت بالكاد ممتدة من ناحية أرمينيا الى بايبورت

Fallmerayer, Gesch V. Trapezunt, p. 300 : Baibourt

الثالث عشر ، وتجعلنا نأسف على فقد مجموعة كاملة من الوثائق الرسمية (الدبلومات) التى أصـــدرها أباطرة طربزون لصالح لجنويين . ولقى اثنان من « دبلومات » ألكسيوس الثانى نفس المصير : أولهمـا قرار بالتنازل استندأليه دوج جنوا فى نزاعه مع دوج البندقية وكل ما نعلمه أن هذا القرار كان نتيجة لمهمة عهد بها الى بيتيرو ارجولينو Pietro Ugolino

أما القرار الثانى فانه قرار bulle حصـــل عليه سفير آخـــر ، هو أوبرتو كاتانيو ديللا فولتا Oberto Cattáneo della Volta (٤٣٦). وكانت الأرض الممنوحة لاوجولينو من أجل مواطنيه ، واحتلوها بالفعل واقعة عند « قلعة الأسود » Léontocastron) Chateau des lions المسماة أيضا قلعة أو راس ميدان Chateau au Cap du Meidan (٤٣٧). واسم « ميدان » هذا أطلق وما زال يطلق على مكان على شكل مستطيل يقع على هضبة تشرف على ميناء طربزون .

وكانت « قلعة الأسود » المجاورة لهذا المكان تشكل جبهة متقدمة على البحر ، تشرف على الرصيف المسمى دافنوس Daphnus . ولم يزل يرى فى هذا الموقع أساسات لأبنية تعتبر من صنع الجنويين (٤٣٨) . ولهذه الأرض مزايا كثيرة نظرا لموقعها بجوار الميناء ، وعلى مرتفع يشرف على المدينة ، وسوف نرى بعد قليل أن الجنويين كانوا يتشبثون بها . غير أن حصول الجنويين على هذا الموقع لم يمنعهم بعد انقضاء بضع سنوات من أن يقدموا بعض المطالب : فقد وجدوا أنه مما يثير السخرية أن يفرض أمير صغير تفتيش بضائعهم بمعرفة موظفى الجمارك ، فى حين أن عاهل امبراطورية كبيرة مثل امبراطور بيزنطة قد أعفاهم من الرسوم والضرائب كلها . ومن ثم أرسلوا وفدا مهمته العمل على تخفيف الأعباء الضريبية عن التجارة .

ولم يكن الامبراطور الكسيس الثانى مستعدا للموافقة على تنازلات من هذا النوع . عندئذ أبدى الجنويون أنهم يريدون قطع العلاقات كلها مع طربزون ، وقام كل من لهم منشئات بالمدينة ، بالاستعداد الصاخب لشحن كل أموالهم المنقولة على أسطول تجارى راس فى الميناء . ولم يفرغ

---

(٤٣٦) Atti della Soc Lig. XIII, 515. 521, 522, 528, 530.

(٤٣٧) Atti della Soc. Lig., XIII, 515, 530.
– لم يكن هـــذا الموقع فى الحقيقة ســـوى ضاحية من طربزون ، ومع ذلك فان Atlante Luxoro تذكره على حده باسم ميدان Medan ;
— Atti della Soc. Lgi., V. 132, 265.

(٤٣٨) Fallmerayer, Fragmente aus dem Orient, I, 48 et s.; Orig. Fragm., Op. cit., p. 83, 84, 89 et s. ; Hamilton, Reise in Kleinasien, I, 229.

الكسيس من هذه المظاهرة ، وكان يدرك تمام الادراك أن انقطاع الحركة التجارية سوف يضر بتجارة الجنويين أكثر مما يضر بخزانته ، ومن ثم أعلن أنه لا بأس عنده من رحيلهم ، على أن يدفعوا الرسوم المستحقة على البضائع التى استوردوها من قبل . ورد الجنويون على ذلك برفض بات ، وسارعوا بشحن بضائعهم فى السفن عندئذ أرسل الامبراطور قوات عسكرية لاجبارهم على الامتثال له ، فحدث صدام أريقت فيه الدماء ، وعومل الجنويون أسوأ معاملة .

وحاول الجنويون مخادعة أعدائهم فأشعلوا النيران فى ضاحية المدينة ، ولكن لسوء حظهم وصلت النيران الى بضائعهم المكدسة على الأرصفة ، وكانت كافية لشحن إثنتى عشرة سفينة تنتظرهم فى الميناء . وقد ضطرتهم هذه الخسائر فى الأرواح والعتاد لعقد الصلح ، وسداد الرسوم الجمركية حتى تصدر أوامر أخرى (٤٣٩) . وقعت هذه الأحداث فى عام ١٣٠٦ ، ومع ذلك تجددت المتاعب . ويسجل ميشيل باناريتوس Michel Panaritos فى كتابه « أخبار طربزون » أن اللاتينيين تمردوا فى عام ١٣١١ ، وفى حومة القتال أشعلوا النيران فى الترسانة البحرية (٤٤٠) . وفى رأيى أن هؤلاء اللاتينيين هم قطعا الجنويون . والواقع أن السنوات التالية اتسمت بسلسلة من المعارك بين جنوا وطربزون . فقد أراد الكسيس الثانى أن يأخذ بثأره لحريق ترسانته ، فنظم فى عام ١٣١٣ مناصفة مع الغازى شلبى ، سيد سينوب حملة الى القرم ، ولقى جنويو كافا وجهات أخرى فى هذا القطر ضروبا من المعاملة القاسية فى هذه المناسبة . وأقلعت من طربزون سفن طاردت السفن الجنوية فى البحر الأسود .

ومن الطرف الآخر قام اوتافيانو دوريا Ottaviano Doria واتشيللينو جريللو Acellino Grillo وميجولو ليركارى Megollo Lercari (٤٤١) وملاحون جنويون آخرون فاغرقوا عددا من سفن طربزون . وبعد أن أوقع كل من الطرفين أضرارا شديدة بالطرف الآخر ، قر عزمهما على عقد الصلح . وفى معاهدتى ١٣١٤ ، ١٣١٦ (٤٤٢) نرى

---

(٤٣٩) Pachymeres, II, 448-450.

(٤٤٠) Panaretos, dans Fallmerayer, Orig. Fragm., Op. cit., p. 15, 45.

(٤٤١) éd. Desimoni, Atti della Soc. lig., XIII, 495 et ss.; Agost Giustiniani, dans ses Annali di Genova, à l'année 1380 (éd. de 1537, p. 148 et s.

(٤٤٢) Atti della Soc. Lig., XIII, 513 et ss., 527 et ss.

الطرفين يطالبان بتعويضات • ويبدو أن الامبراطور استرد من الجنويين في أثناء المعارك حي ليونتوكا سترون Leontocastron ، وأعطاهم نظير عقد الصلح الموقع الذى كانت تشغله فيما مضى الترسانة البحرية (٤٤٣)، ووعدهم بأن يحيطه بأسوار وأبراج وخنادق ، واشترط لذلك منع الرعايا اليونانيين من الاقامة في هذا الحى ، ويسرى هذا المنع على سائر الأجانب ، فيما عدا الكنائس المبنية من قبل في الحى ، فانهـا تبقى بتصريـح من القنصل ، أثناء النهار تحت تصرف رجال الدين اليونانيين لاقامة الشعائر بها ، كما يبقى الرصيف المجاور لهذا الحى تحت تصرف الجنويين وحدهم • ويحظر على السفن اليونانية والأجنبية الرسو هناك عند وصولها ورحيلها، وتفترض المعاهدتان (٤٤٤) ، كما قلنا وجود قنصلية جنوية في طربزون ، وسلطة القنصل القضائية محددة حسب العرف بالنسبة الى قضاء محاكم البلـد •

ولم يكن قدم العهد تسببا باستقرار الجنويين بطربزون ، وصلابة موقفهم بازاء الأباطرة سوى النتائج الطبيعية للوضع القوى الذى اكتسبته هذه الأمة في غلطة ، والتفوق الذى كفله لها في البحر الأسود ووجود جالية مزدهرة ومحطة بحرية قوية مثل محطة كافا • واستطاعت جنوا مع نقطتى الارتكاز هاتين أن تعمل على انشاء مستوطنات أخرى ورعاياتها على طول سواحل البحر الأسود • وكانت واثقة كل الثقة بأن تجاب مطالبها ، خاصة لأنه اذا دعت الحاجة الى استخدام القوة لتقرير مطالبها هذه ، فانها لم تكن بحاجة الى استقدام قوات عسكرية من ايطاليا ، لبعدها ، انما كان لها قوات على أتم استعداد في غلطة وفي كافا •

وثمة نتيجة أخرى ، في نطاق هذه الآراء ، تتمثل في أن المستوطنة

---

(٤٤٣) «Dalsanam Trapezonde» : ibid, 514, 530.
– كان مرخصا للجنويين أن يختاروا بدل الترسانة مكانا آخر مماثلا لها في المساحة، وواقعا في حى آخر من أحياء المدينة يطيب لهم أن يختاروه ، وكذا على « المارين » Marine باستثناء حى ليونتوكاسترون ، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الترخيص •

(٤٤٤) تكرم السيد الأستاذ جوزيف مولر ، من تورين باعطائى نسخة من معاهدة ٢٦ أكتوبر عام ١٣١٤ ، أخذت من دار وثائق تورين ، وكتب عنها السيد كانالى Canale ملخصا في الطبعة الأولى من كتابه « تاريخ جنوا » ، الجزء الرابع ، ص ٣٥٣ وما بعدها • أما بخصوص المعاهدة الثانية التى أبرمت في طربزون في ٩ من يولية ١٣١٥ ، وصدق عليها في جنوا في ١٦ (٢٤ ؟) من مارس ١٣١٦ ولست أعرف عنها سوى ماكتبه Canale في المرجع السابق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٥٤ ، و Falmerayer :
— Falmerayer, Orig. Fragm., op. cit., XV, 84.

الجنوية فى طربزون كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بالسلطة المركزية فى جنوا ، فكانت هناك ادارة تسمى Afficium Gazario (أى مكتب القرم) تتولى ادارة الشئون الاستعمارية فى البسفور ، وبنطس ، وشئون الملاحة مع هاتين الجهتين (٤٤٥) ، وكان هذا المكتب يصدر تعليمات الى قباطنة السفن التى ترسو عند طربزون ، والى القوافل التى تسير من هناك الى طورس ، ويصدر أوامره الى القناصل فى طربزون (٤٤٦) . وبالنسبة الى أهمية هذا المنصب (أى قنصل طربزون) كان تعيين من يشغله من اختصاص السلطة المركزية ، بدلا من أن يتولاه قنصل كافا . وكان لقنصل كافا بصفته رئيس أهم مستوطنات بنطس الحق فى شغل مجموعة من الوظائف الاستعمارية الأقل شأنا ، حتى فى خارج مقر عمله (٤٤٧) .

ولمساعدة القناصل فى أداء مهام وظائفهم الادارية والقضائية ، ولموازنة سلطتهم طبقا للمبادىء الديموقراطية ، ألحق بهم مجلسان : مجلس صغير ، ومجلس كبير ، يضم الأول ستة أعضاء ، والثانى أربعة وعشرين عضوا ، يختارون من بين أفراد الجالية نفسها (٤٤٨) .

ولم يوطد البنادقة مراكزهم فى البحر الأسود بقدر ما فعل الجنويون. وعلى أية حال فانهم لم ينشئوا مستعمرة طربزون الا بعد زمن طويل . ولم يتسن ذكر معاهدتين عقدتا بين البندقية وامبراطور طربزون فى عامى ١٣٠٣ ، ١٣٠٦ الا بعد حدوث خطأ واضح . فبالنسبة الى المعاهدة الأولى ، يرجع الأمر كله الى خطأ مطبعى وقع فى طبعة مارن Marin واهمال من جانب دبنج Depping . وما هى الحقيقة : فثمة معاهدة أبرمت بين البندقية وطربزون يرجع تاريخها الى عام ١٣١٩ م . ففى طبعة مارن ، وبخطأ مطبعى ، استبدل بهذا الرقم رقم ١٣٣ (هكذا) ، وبدلا من اجراء شىء من الحساب لاثبات التاريخ الحقيقى ، استبدل دبنج برقم ١٣٣ التاريخ ١٣٠٣ (٤٤٩) .

---

(٤٤٥) Off. Gaz., p. 307.

(٤٤٦) Ibid., p. 337, 350, 366, 385; Canale, Della Crimea, I, 240, 325, 380.

(٤٤٧) Canale, Della Crimea, I, 241, 348, et s., 376 et s.

(٤٤٨) Off. Gaz., p. 337, 350. Le conseil de Six.
— ينظر « مجلس الستة » فى معاهدتى ١٣١٤ ، ١٣١٦ .

(٤٤٩) Cf., Marin, IV, 145 , et Depping, Hist. du commerce entre le Levant et l'Europe, II, 89-91.

وبالعثور فى كتاب فالميراير Fallmerayer على معاهدة مماثلة بتاريخ ١٣١٩ ، سلم بأن هذه المعاهدة ليست الا نسخة مطابقة لمعاهدة ١٣٠٣ ، والواقع أن النصين متماثلان ، ولكن ليس هناك الا تاريخ واحد حقيقى ، ذلك هو عام ١٣١٩ • أما فيما يختص بمعاهدة ١٣٠٦ المزعومة ، فانهـا لم يكن لهـا وجـود • فتبعـا لمـا ذكره السيد جوزيف مولر M. Joseph Muller تكون هذه المعاهدة قد عقدها جياكومو جوسونى Jiacomo Gussoni من قبل الدوج بييترو جرادينجو والجمهورية (٤٥٠) •

وفى ذكره لهذه المعاهدة ، ادعى أنه استند الى وثائق جمعها السيد تافل Tafel ، وكانت هذه المجموعة تحت نظرى : ففى الوثيقة المقصـودة ، لم يذكر بها لا الدوج ولا الامبراطور • بقيت اذن مسألة التاريخ وحدها ، وهو عام ١٣٩٦ وليس ١٣٠٦ • وعلى ذلك فاقدم « دبلوم » معروف منحه امبراطور طربزون للبنـادقة كان ولم يزل دبلـوم ١٣١٩ ، وهو الذى سلمه الامبراطـور الكسيس الثانى الى بانتاليون ميشيل Pantaléon Michiel (٤٥١) سفير البندقية ، ويتميز بأنه يضع الأسس لموقف جديد ، ونرى فيـه الامبراطور وهو يمنح البنـادقة لأول مرة سـلطة تنظيم مرسى (scalam facere) فى طربزون ، اسـوة بالجنويين ، ويخصص لهم لأول مرة أرضا يبنون عليها مستودعا ، وكنيسة ، ومنازل للسكنى ، ويسمح لهم باقامة « بايل » يتمتع بنفس الاختصاصات التى للروم • لا يمكن اذن أن ننسب الا الى تاريخ هذا الدبلوم على أكثر تقدير افتتـاح خدمات الملاحـة التى تتولاها سـفن (قواديس) طربزون Galeoe Ttapezundoe ، وهى خدمات لا يتيسر لنا لسوء الحظ تتبع سيرها ، الا فى فهارس الموضوعات فى كتب Misti المفقودة (٤٥٢) :

ولابد أن نسلم أيضا بان البنادقة لم يبدأوا قبل هذا التاريخ ، أى قبل عام ١٣١٩ فى وضع أسس مستعمرتهم فى طربزون • فالواقع أن مجلس الشيوخ أرسل الى بايل هذه الناحية ، فقط بين عامى ١٣٢٠ ، ١٣٢٢ مبلغا قدره مائة جنيه لبنـاء دار للقنصلية loggia وفنـدق ومنازل (٤٥٣) • ويستخلص من الوصف الوارد فى نص المعاهدة أن

---

(٤٥٠) Sitzungsberichte der Wiener Akad, Philos. hist. Cl., VII, année 1851, p. 334.

(٤٥١) Arch. stor. ital., App., IX 374-378; dans la Coll. des doc. inéd., mél. hist., III (1880), p. 83 et ss.; Taf. et Thom., IV, 122 et ss.

(٤٥٢) Archiv. Ven., XVII, 258, 259, 261; XVIII, 43, 329-332, 335-336; XX, 296; Commem. reg., II, p. 100, no. 566.

(٤٥٣) Ibid. XVIII, 327.

هذه المبانى أقيمت ، على الأقل بصفة جزئية على الأرض التى تنازل عنها الامبراطور للجنويين فى عام ١٣٠٠ ، واستعادها فى عام ١٣١٦ ، ولابد أن نتعرف فى لفظة Londocastrum بالوثيقة (وهى تحريف لكلمة Bondocastrum على « قلعة الأسود » (Leoncastron) وسوف نرى أن هذا كان سببا لوقوع نزاع بين البندقية وجنوا ٠

وكان أول بايل للبنادقة فى طربزون هو جيوفانى سانودو Giovanni Sanudo ، ويمكن التسليم بذلك دون تردد ، وقد كلفه الدوج جيوفانى سورانزو Giovanni Soranzo فى عام ١٣٢٠ بأن يفرض على كل فرد من أفراد الجالية ضريبة قدرها خمسة عشر « صول » عن كل مائة صول من ماله ٠ وتبعا لهذه التعليمات ، استخدم سانودو ثلث المبلغ الذى جمع على هذا النحو فى بناء حى جديد ، وسلم جزءا من باقى المبلغ ليشيل دولفينو Michele Dolfino سفير البندقية عند مروره بطربزون متوجها الى طورس ، كبدل لمصاريف سفره ، وجزءا آخر للتاجر جيوفانى بريولى Giovanni Priuli مساعدة له فى تجارته بشرط أن يؤدى للدوج فى نهاية شهرين رأس المال الذى استلمه مع الفوائد (٤٥٤)٠

نستخلص من كل هذا : أولا ، أن المستوطنة كانت فى هذا التاريخ منهمكة بتشييد مبانيها المخصصة للصالح العام (cavasera) ومساكن الأفراد domi (٤٥٥) ٠ ثانيا ، أنها مع كونها فى فترة تكوينها ، قد أسهمت فى التكاليف التى اقتضتها الاجراءات الضرورية لفتح طريق المواصلات بينها وبين فارس ، وهذا أمر طبيعى لأن البنادقة المقيمين فى طربزون هم أول المستفيدين من ذلك ٠ ولنعد الى وثيقتنا الرسمية (الدبلوما) ، اذ لم تستنفد بعد مضمونها ٠ نرى فى هذه الوثيقة أن الكسيس يضع البنادقة على قدم المساواة التامة مع الجنويين ، فهم مثلهم مرخص لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وبأن يكون لهم سماسرة من جنسهم ، ويجعل الرسوم المفروضة على تجارة الأمتين مستقبلا متماثلة تماما ٠

وفى هذا الخصوص تذكر الوثيقة أولا البضائع التى سوف يحضرها البنادقة على سفنهم ، فان أعادوا تصديرها فى قوافل الى داخل آسيا ،

---

(٤٥٤) Taf. et Thom., IV. 171 et s. (Commem. reg., I, p. 226, no 225); Archiv Venet., XVIII, 330, 334.

(٤٥٥) ثمة معلومة مرتبطة بهذه الأحداث ، تتمثل فى الأمر الصادر عام ١٣٢٢ لقنصل البندقية بتانا Tana بان يرسل نقودا لبايل طربزون من أجل الأعمال الخاصة بتحصينات القلعة ، انظر : Canale, Della Crimea, II, 443 (extr. des registres des Misti)

يتحدد رسم المرور بمبلغ ٢٠ آسبر aspres (٤٥٦) (نقد فضى تركى قديم — المترجم) عن حمولة الدابة الواحدة · فاذا استوردوا البضائع فى الامبراطورية ليبيعوها بها ، تحصل الدولة من كل من البائع والمشترى رسما مختلفا ، تبعا لما اذا كان المشترى رعية فينيسية أو لم يكن كذلك ، أو تبعا لما اذا كانت السلعة تباع بالوزن أو بالكيل · وفى حالة البيع لأفراد من غير البنادقة يدفع البائع ٣٪ ، ورسما اضافيا قدره ١/٢٪ أو ٢٪ اذا كانت السلعة تباع بالوزن· فاذا كان كل من البائع والمشترى بندقيا كان على كل منهما أن يدفع ١/٢٪ ١ أو ٢٪ (وتختلف القراءات فى هذه النقطة) اذا كانت السلعة تباع بالوزن ، ولا يدفعان شيئا ان لم تكن كذلك (أى تباع بالكيل) (٤٥٧) · والمستورد الذى يريد أن يعيد تصدير سلعة لم يتيسر له بيعها ، يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يدفع أى رسم ·

أما السلع الذهبية والفضية ، والأحجار الكريمة ، والأحزمة ، وسائر الأشياء المماثلة التى يستوردها بنادقة ، ويعرضونها للبيع فى البلد فانه يسمح بدخولها معفاة من الرسوم ، فاذا أعيد تصديرها بطريق القوافل ، فانها تخضع لرسم قدره ٢٠ آسبر · ويعالج الدبلوما فى موضع ثان مسالة البضائع التى يأتى بها البنادقة من داخل آسيا ، فيفرض عليها عند دخولها رسما قدره ١٢ آسبر (٤٥٨) عن حمولة الدابة الواحدة ، كما يفرض على كل السلع التى تباع داخل الامبراطورية رسم انتاج قدره ١٪ ·

كان عهد الكسيس الثانى الذى تدين له الأمتان التجاريتان بأهم ما حصلوا عليه من أموال وامتيازات عهدا قويا مزدهرا · ولكن بعده ، وبخاصة بعد وفاة ابنه الثانى بازيل الأول Basile 1er (١٣٤٠) أدى وقوع بعض الفتن الداخلية الى فقد أجزاء من الاقليم فقد تنازع السلطة حزبان كبيران ، متساويان تقريبا فى القوة ، وتتابعت انقلابات القصر

---

(٤٥٦) 28 aspres, suivant Pegolotti, p. 13.

— كان هذا الرقم دون شك خاصا بالرسم المفروض على غير أصحاب الامتياز : ويقول الكاتب نفسه انه كان يضاف الى هذا الرسم رسما تكميليا قدره آسبر واحد للقنصل ·

(٤٥٧) Pegol., p. 13.

14 aspres, suivant Pegol., 1.c.

(٤٥٨) لعل هذا هو السعر المفروض على غير أصحاب الامتياز · ويذكر المؤلف هنا أيضا رسما اضافيا قدره اسبر واحد للقنصل · وفى عام ١٣١٤ أى خمس سنوات فقط قبل تاريخ الدبلوم كان ١٥ آسبر كومنينات aspres comnenates (وكان سارى المفعول فى طربزون) تساوى دينارا بيزنطيا « هيبربر » besant hyperpre وتبعا للحساب الذى أجراه السيد ديزيمونى ، نصل الى النتيجة الآتية ، وهى : (ibid. 651 et ss., 675 et s.) 21 aspri = 1 fiorino

على فترات قصيرة ، وتركت الاضطرابات ، وأعمال النهب المتكررة شوارع العاصمة خربة مقفرة . وكانت حالة الحرب الأهلية تلك سببا فى اضعاف الامبراطورية ، واستغل تركمان اميد Amid (ديار بكر) هذه الحالة فأغاروا عليها .

وفى الغزوة الأولى (يناير ١٣٤١) تقدموا حتى العاصمة وأشعلوا فيها الحرائق . وشاركت المستعمرات بطبيعة الحال فى المعاناة الشاملة ، وأصبح الحى الفينيسى كله رمادا مثل سائر أنحاء المدينة . والراجح — ولو أنه لا توجد أية وثيقة تذكر ذلك — أن الحى الجنوى عانى هــذا المصير . الا أنه فى غضون احدى هذه الثورات الشعبية الكثيرة الحدوث فى طربزون أن عانى التجار الفرنجة من أزمة شــديدة . ويزعم المؤرخ البيزنطى نيقوفور جريجوراس Nicéphore Grégoras أن جريمة قتل ارتكبها عام ١٣٤٣ فى تانا بندقى ضد تتارى أثارت غضب اهالى طربزون ، ويرى أن مثل هذا الحادث يقع هناك كل يوم بسبب غطرسة الايطاليين . وبدافع من هذا الشعور انقض الأهالى على اللاتينيين وقتلوا عددا كبيرا منهم ، والتمس الآخرون الرحمة (٤٥٩) . ويحتمل كثيرا أن تكون هذه المذبحة من تدبير حزب وطنى متطرف ، ويبدو لنا أنه لا ضرورة للبحث عن الباعث الحقيقى لجريمة القتل التى ارتكبت فى تانا ورواها المؤلف .

وعلى أية حال فانه بعد هــذا الانذار بالخطر أوقف البنادقة مؤقتـا تجارتهم مع طربزون . ومع ذلك ففى عام ١٣٤٤ تلقى مجلس الشيوخ أنباء طيبة من تلك الناحية ، فجازف بارسال قادسين على سبيل التجربة ولما لم يكن البايل ومستشاروه قد غادروا طربزون ، فقد صدر الأمر اليهم أن يتسلموا الشحنة ، ولكن ربابنة القادسين كانوا مكلفين بالتوجه الى البلاط وتسليم الامبراطور بعض الهدايا ، وابلاغه بعزم حكومتهم على ارسال سفن أخرى وتجار (٤٦٠) .

وليس فى وسعنا أن نقول ما اذا كان البنادقة قد عملوا منذ تلك الآونة على اعادة بناء حيهم الذى احترق ، أو اذا كانوا قد شرعوا فى هذا العمل قبل قيام الثورة الشعبية التى راح ضحيتها الكثيرون ، فالأمر لم يثبت بوضوح . غير أن الثابت هو أن اعادة البناء هذه أثارت نزاعا مع

---

(٤٥٩) Niceph. Greg., II, 687. Voy. Fallmerayer. Gesch. V. Trapezunt, p. 188 et s.

(٤٦٠) Délibération du Sénat, du 15 avril 1344; Taf. et Thom., IV. 275 et s.

الجنويين . وتداركا للخطر المحتمل دائما بعودة غارات الترك ، رأى البنادقة أنه من الضرورى احاطة حيهم بالخنادق وغيرها من التحصينات .

وامتدت هذه الأعمال على الأرض التى منحت فى الأصل للجنويين . ورغم أن هذه الأرض قد استردت منهم ، وأعطوا فى مقابلها عام ١٣١٦ موقع الترسانة البحرية ، فانهم لم يسلموا بسقوط حقهم فى تلك الأرض . ومع أن الامبراطور أصدر التصريح اللازم لمباشرة الأعمال ، الا أنهم احتجوا ، وحملوه على سحب الاذن الذى أصدره . وقدم نائب البايل الى حكومته تقريرا بهذا الموقف السىء ، فأوفد أندريا داندولو ، دوج البندقية الى جنوا موثق العقود نيكولينو دى فراجانسكو Nicolino de Fraganesco وكلفه بمقابلة جيوفانى دى مورتا Giovanni di Murta دوج جنوا ، وتقديم شكوى اليه من الموقف العدائى الذى اتخذه جنويو طربزون ، وهو موقف لا مبرر له فى الواقع ، لأن التحصينات المقامة تفيد البنادقة أنفسهم بقدر ما هى مفيدة للجنويين . وتلقى دوج جنوا بالقبول مطالب رسول البندقية ، مع تحفظات بشأن حقوق أمته فى الأرض المتنازع عليها ، وأرسل الى مواطنيه أمرا بالا يقيموا أية عراقيل فى سبيل أعمال الحفر التى يقوم بها البنادقة (٤٦١) .

أما الجنويون فانهم لم يتركوا ثأرهم لمذبحة المستعمرين الفرنجة ، ولم يتنازلوا عن حيهم القديم « ليونتوكا سترون » . وفى عام ١٣٤٨ استولوا عنوة على كيراسونت Cérasonte المدينة الثانية بالامبراطورية ، ونهبوها وأحرقوها (٤٦٢) . وفى السنة التالية أقبلت سفينتان حربيتان من كافا ، وظهرتا قبالة طربزون ، وحاربتا البحرية الامبراطورية : ومع أنهما انتصرتا فى هذه العملية ، الا أنهما انسحبتا ، ولم تحاولا الرسو وانزال الجند . وراح الفرنجة من سكان المدينة ضحايا هذه العملية : فقد نهبت بيوتهم ، والقى بهم فى السجون . وبعد انقضاء سنة ، ظهر الجنويون من جديد تحت أسوار المدينة : وفى هذه المرة جاءوا بثلاثة قوادس من كافا ، ومركب من أميسوس Amisos (سمسون Samsoun) وكان الامبراطور ميخائيل الجالس على العرش وقتئذ ضعيفا لكبر سنه ، فارتاع من هذا الاستعراض الحربى ، واستسلم . واستلم الجنويون

(٤٦١) Instruction pour le notaire, du 20 nov. 1344 : Taf. et Thom. IV, 330 et s.; ibid. 332, Lettre de Murta pour le règlement de cette affaire et de diverses autres, ibid. 287 et ss.

(٤٦٢) Depping (I, 130).

ليونتوكا سترون التى ردها اليهم الامبراطور (١٣٤٩) واحتفظوا بها دون عائق حتى سقطت الامبراطورية (٤٦٣) .

وفى السنة نفسها أوفدت جمهورية البندقية نيكولا كويرينى Nicolà Quirini فى مهمة الى طربزون (٤٦٤) . وفى وسعنا أن نخمن ما كانت تريده الجمهورية ، ذلك لأن امتيازها هناك قد نقص بسبب ما استرده الجنويون . غير أن مسعاها هذا قد فشل . ولم يعد البنادقة يستطيعون الابحار الا فى سفن حربية مسلحة ، اما لهذا السبب ، أو بسبب الحرب الضارية التى نشبت فى تلك الفترة بين جنوا والبندقية ، وتفوق الجنويون فى البحر الأسود (١٣٥١ ــ ١٣٥٥) (٤٦٥) .

وانتاب الحركة التجارية بين طربزون والبندقية انقطاع طويل . وأخيرا أبدت حكومة طربزون لحكومة البندقية رغبتها فى اعادة العلاقات بينهما ، فأوفدت اليها سفارة (١٣٦٠) (٤٦٦) ، كما أوفد الدوج لورنزو تشيلسى Lorenzo Celsi جوليلمو ميشيل Guglielmo Michiel وكلفه أن يحيى الامبراطور الكسيس الثالث باسمه واسم بايل القسطنطينية أندريا كويرينى Andrea Quirini (١٣٦٤) ، ويعلنه بموافقة دولته على ارسال سفن جديدة الى طربزون ويطلب منه أن يمنح جاليتها قطعة أرض، فخصص لها الامبراطور قطعة أرض واقعة أسفل دير سانت تيودور جابراس S. Théodore Gabras ومنح البنادقة تخفيضا قدره ١٪ على رسم الانتاج المفروض على مبيعاتهم داخل الامبراطورية (٤٦٧) . ويبدو أن الأرض التى خصصت لهم لم توافقهم ، ولعله يتعين البحث فى هذه المعلومة عن السبب فى قيام نزاع عنيف فى السنة التالية بين رؤساء الجاليتين الفينيسية والجنوية فى حضرة الامبراطور ذات يوم حضر فيه مع حاشيته فى « ميدان Meidan بمناسبة الاحتفال بعيد القيامة (٤٦٨) .

---

(٤٦٣) Mich. Panaretos, dans Fallmerayer, Orig. Fragm., 2e sect., p. 22 et s., 51.

(٤٦٤) Berchet, Del commercio dei Veneti nell' Asia, p. 103.

(٤٦٥) فى عام ١٣٥٢ فاجأت سفن فينيسية حربية السفن الجنوية وهى راسية أمام طربزون واحرقتها :
Panaretos, l.c., p. 25, 53.

(٤٦٦) Filiasi, Mem. dei Veneti, VI, 2, p. 217.

(٤٦٧) Privilège du mois de mars 1364, dans Pasini, Codd. mser Bibl Tourin, I, p. 222 et s.; Miklosich et Muller, Acta et diplom. Grac, medii oevi, III, 130 et ss.

(٤٦٨) Panaretos, l.c., p. 32 60.

ولم يذكر المؤرخ ذلك ، ولكن القـــوم كانوا فوق الأرض المتنازع عليها ، ولم يكن من المستحيل أن تكون هذه الفــكرة قد أثارت حفيظة البايل ضد القنصل الحائز السعيد لليونتو كاسترون • وفى عام ١٣٦٧ وصل الى طربزون على قادس مسلح تسليحا جيدا ســـفير جديد ، هو بييترو دالمر Pillro Dalmer موفدا من قبل الدوج ماركوكورنارو ، وحمل الامبراطور على سحب الامتياز السابق والتنازل (للجالية) عن الرأس المسمى رأس سانت كروا Ste Groix تبعا للكنيسة التى تحمل هذا الاسم والمقامة هناك • ورخص للسفير بأن ينشىء على هذا الموقع حيا سكنيا يحميه سور ، وعد الامبراطور بأن يبنى له على نفقته دعامة وبرجا ، ويحيطه بخندق ، وأن يتصل بالخارج بوساطة جسور • وطالب الســفير أيضا بتغيير الرسوم المفروضة على التجارة ، ولكن الامبراطور أبقى على رسوم المرور القديمة ، ولم يوافق الا على تخفيض طفيف قدره ½١٪ على رسم الانتاج (٤٦٩) وتتمثل أهمية دبلوما عام ١٩٣٧ فى أنه أعطى البنادقة ملكية الأرض التى يقيمون عليها من ذلك الحين بلا انقطاع حتى سـقوط طربزون • كانت هذه الأرض هضبة تشكل لسانا ممتدا فى البحر مثل ليونتوكاسترون ، وكانت مثلها موجودة فى القسم الخلفى المتصل بالشارع الذى تقوم فيه على خطين طويلين الحوانيت والمخازن التابعة للمستوطنين • ولم يكن هذان الحيان فى نطاق سور المدينة ، بل كانا جزءا من ضاحيـة « الحـــدائق » ، ولكنهمـــا كانا محوطين بأســـوار ومحميين بأبراج حصينة (٤٧٠) . وكان منظر هذه الأسوار والأبراج من الخارج مهيبا لا يتوافق مع النشاط أو الرخاء التجارى • ولم تدم الفترة الأكثر رخاء الا الى عام ١٣٤٠ على أكثر تقدير ، واعتبارا من هذا التـــاريخ بدأت الامبراطورية ، مثلها مثل جارتها فارس تظهر عليها علامات الانحلال التى كانت غير ملائمة لنمو الحركة التجارية •

---

(٤٦٩) Taf. et Thom., inéd. ; les commem. reg., III, p. 67, no 390.

(٤٧٠) على هذا النحو وصفها كلافيو Clavijo القشتالى الذى مر بطربزون فى عام ١٤٠٤ وهو ذاهب فى مهمة الى سمرقند ، ص ٨٣ ، ٨٤ (طبع بمدريد عام ١٧٨٢م) ، راجع :

— Fallmerayer, Fragmente, p. 48, 97.

كان من آثار انهيار الخلافة الاسلامية على يدى هولاكو (خان المغول) القضاء على جزء كبير من أهمية بغداد والمدن المجاورة لها . فقد كانت هذه المدن الواقعة حتى ذلك الحين فى قلب الحياة السياسية والتجارية للعالم الاسلامى تعيش فى رخاء تام ولكن منذئذ بدأ تدهورها . حقا لم يظهر التدهور مرة واحدة : فبعد أن زار ماركوبولو مدينة بغداد راح يسترسل بعبارات الاعجاب فى وصف هذه البقاع الشاسعة ، وأهمية صناعة المنسوجات الحريرية والبروكار (الديباج) المذهب القائمة بها ، وتجارتها النشيطة مع الهند عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسى (٤٧١)، فلم يتهمه أحد بأنه يردد قصة سمعها ، أو ينسب الى هذه المدينة (بغداد) عظمة لم تكن لها الا فى عهد الخلفاء .

وثمة رحالة آخر رأى بغداد فى مستهل القرن الرابع عشر : هو شمس الدين الدمشقى Chamseddin Dimichki فوصفها أيضا بأنها المكان الذى تلتقى عنده سفن قادمة من الصين واليمن والهند ، وبلاد الزنج (الساحل الشرقى الافريقى) عن طريق نهر الدجلة ، بينما بحارة الفرات يأتون اليها بمنتجات أرمينيا والغرب (٤٧٢) . وفى زمن ماركوبولو لم يكن أحد يفكر فى اعتبار طائفة تجار الموصل من عناصر المجد القديم ، الذين يمارسون بنوع خاص تجارة التوابل والأقمشة الثمينة التى يصدرونها الى جهات نائية (٤٧٣) . والتجارة لا تهجر دفعة واحدة طرقا تربط بلادا بعيدة بعضها ببعض ، ولا تقطع فى آن واحد علاقات وطيدة . ومع ذلك فان هذين السوقين الكبيرين لم يكونا وحدهما : فثمة منافس لهما برز منذ حين : تلك هى طورس (أو تبريز) Tauris التى كانت فيما مضى حاضرة إقليم هام به عدد كبير من السكان ، وأثرت بالصناعة والتجارة ، ونجت من التدمير المغولى الرهيب بخضوعها بارادتها لهؤلاء الغزاة المغول الذين اتخذوها حاضرة امبراطوريتهم الغربية (٤٧٤) . وازداد عدد سكان المدينة من ذلك الحين زيادة سريعة ، وما لبث أن نشأ بجوار

(٤٧١) Ed. Pauthier, p. 47 et ss.

(٤٧٢) Voyez son Manuel de cosmographie, trad. Mehren, p. 113.

(٤٧٣) M. Polo, éd. Pauthier, p. 45 et s.

(٤٧٤) Yaqout, p. 132-134.

المدينة القديمة مدينة جديدة سميت « الغازانية » Ghazanièh نسبة الى غازان خان Ghazan-Khan الذى بنـــــاها (٤٧٥) وفى عام ١٣٠٥ والسنوات التالية بنى أولجايتو Oldjaiton خليفة غازان مقاما ثانيا له : مدينة سلطانية جنـــوب شرقى طورس (تبريز) ، فى اقليم العراق العجمى (٤٧٦) .

وسرعان ما اكتسبت هاتان المدينتان أهمية تجارية كبيرة ، ووجد فى أسواقهما أولا منسوجات حريرية فاخرة ، وديباج ، وسجاجيد مصنوعة فى طورس نفسها (٤٧٧) ، ثم نخبة جميلة من الأحجـــار الكريمة التى تخصصت المدينتان فى صنعها (٤٧٨) ، وأخيرا كل السلع التى يمكن تصور وجودها فى كل أنحاء العالم ، فقد كان لطورس بالفعل أوسع ما يمكن من العلاقات (٤٧٩) ، ولم يشر ماركوبولو الا الى جزء قليل من هذه السلع حين قال انه يمكن مشاهدة وصول البضائع الى طورس قادمة من بغداد والموصل من جهة ، ومن جيرمسير Germsir (كريمسور Cremsor) والهند من جهة أخرى (٤٨٠) • ويشير اسم جيرمسير هنا (ترجمته الحرفية : البلد الحار) بالتأكيد الى الساحل الجنوبى لايران ، ويمتـــد على طول الخليج الفارسى والمحيط الهنـــدى ، وهو معروف بمنـــاخه الشـــديد الحرارة (٤٨١) ، ومن هناك يصل الى داخل فارس منتجات الهند ، ولآلىء الخليج الفارسى • وكان المقر الصيفى للخانات يستفيد كثيرا من العلاقات مع طورس ، وكان هذا المقر آهلا بالتجار الذين أجبروا على الانتقـــال اليه والسكنى به ، ومن ثم نشأ نشاة اصطناعية من حيث كونه مكانا للتجارة (٤٨٢) ، ومع ذلك ازدهر واشتهرت أســـواقه العامرة بكافة السلع (٤٨٣) •

---

(٤٧٥) D'Ohsson, IV, 276 et ss. ; Rachideddin, éd, Quatremère, p. xvii.

(٤٧٦) D'Ohsson, IV, 486; Hammer, Geschichte der Ilchane, II, 185. et s

(٤٧٧) Yaqout, p. 133; M. Polo, p. 59 et s.

(٤٧٨) M. Polo, p. 60 ; Ibn-Batouta, II, 129 et s.

(٤٧٩) Oderico da Pordenone, p. ii, iii ; Pegol., p. 7-9.

(٤٨٠) M. Polo, p. 60.

(٤٨١) Ritter, Endk., VIII, 723.

(٤٨٢) D'Ohsson, IV, 487.

(٤٨٣) Oderico, p. iii,

وكانت المنتجات التي يكثر عليها الطلب في امبراطورية التتار الغربية هي الأحجار الكريمة ، من فيروز ، وياقوت أحمر ، ولازورد ، ولآلىء الخليج الفارسي ، وحرير سواحل بحر قزوين ، ونيلة كرمان • وكانت الصناعة الوطنية ، وبخاصة النسيج ، والتى كانت مزدهرة قبلا فى عهد الملوك الساسانيين تنتج أيضا سلعا تجد تقديرا كبيرا فى الخارج • وفى هـذا الخصوص كانت مدينة يزد Yezd تفوق سائر المدن ، ويشـتغل سكانها ، وكلهم تقريبا من النساج بصنع أجمل حرائر طبرستان ، وكانت براعتهم معروفة لدرجة أن الأقمشة الخارجة من ورشـتهم كانت مطلوبة فى كل بقاع الشرق ، من الصين الى آسيا الصغرى (٤٨٤) ، وتحمل هذه الأقمشة اسمها (٤٨٥) وتنشره فى كل أنحاء العالم المعروف . والى جانب هذه المنسوجات المنقطعة النظير ، احتفظت حرائر وأقطـان نيشابور (٤٨٦) ، ومرو (٤٨٧) ، وأصفهان (٤٨٨) ، وشستر (٤٨٩) ، وشيراز (٤٩٠) بشهرتها القديمة • غير أن تعداد المراكز الصناعية فى امبراطورية التتار الغربية لا يكتمل اذا اقتصر على مراكز فارس نفسها ، لأن حدود هذه الامبراطورية كانت تمتد بعيدا صوب الغرب ، وتضم كردستان ، وأرمينيا الكبرى ، وبلاد ما بين النهرين • وهناك أيضـا ازدهرت صناعة النسيج : فقد كان معروفا فى كل الأنحاء بروكار (ديباج)

---

(٤٨٤) M. Polo, p. 70; Clavijo, p. 114; Contarini, p. 70; Glos. Barbaro, Viaggio in Persia, p. 42; Mohammed Medjidi, cité dans Yaqout, p. 611, not.

ـ سوف نرى فيما بعد أن يزد كانت واقعة على طريق للقوافل ، وهى مدينة تجارية هامة ، ولأسواقها شهرة كبيرة : ابن بطوطة ، الجزء الثانى ، ٦٨ •

(٤٨٥) يذكر ماركو بولو أن هذه الأقمشة تسمى زاسدى Zasdi

(٤٨٦) ابن حوقل ، فى Journal of the Bengal Society, XX, p. 153 et s, الاصطخرى ، ص ١٢١ ، ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ٨١ •

(٤٨٧) ابن حوقل ، المرجع السابق ص ١٥٧ ، الاصطخرى ، المرجع السابق ، ياقوت ، ص ٥٢٦ •

(٤٨٨) ابن حوقل ، والقزوينى فى :
— Uylenbroch, Descriptio Iracoe persicoe, p. 6, 28.

الادريسى ، الجزء الثانى ، ١٦٧ ، ياقوت ، ص ٣٩٠ •

(٤٨٩) الاصطخرى ، ص ٥٩ ، الادريسى ، الجزء الأول ٣٨٣ •

(٤٩٠) Clavijo, p. 114.

وأقطان بغداد والموصـــل ، وماردين Mardin ، وموش Mouch وأرزنجيان Erzinghian (٤٩١) .

ومن العسير علينا أن نعدد كل المدن الكبيرة والصغيرة التي اشتغلت بهذه الصناعة وثمة عدد كبير من منتجاتها المصنوعة خصيصا لتناسب مناخ هذه المناطق أو ذوق سكان هذه البلاد لم تكن تخرج من الشرق ، فلم يكن في المستطاع تصديرها بحالتها هذه الى أوروبا . غير أن هناك منتجات أخرى راجت في الغرب : ولسنا نريد أن نقدم برهانا على ذلك خلاف العدد الكبير من الأقمشة التي توجد أسماؤها الشرقية المصـــدر مدونة في وثائق أوروبا في العصور الوسطى ، والتي سوف نتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد . وعلى أية حال فان الحرير الخام كان يطلبه دائما التجار الغربيون ، وكان أثرياء أوروبا يطلبون اللآلىء والأحجار الكريمة بشغف شديد ، مثلما يطلبها الشرقيون .

وما أن انفتحت آسيا الصغرى للتجـــارة حتى هرعت أمم الغرب التجارية بايفاد مستكشفين الى البـــلاد التي تحتوي على مثـــل هذه الكنوز (٤٩٢) . وأول اسم نقابله من الايطاليين الذين اســـتقروا في طورس اسم البندقي بييترو فيليوني Pietro Viglioni (فيوني Vioni) وقد حفظ الى يومنا هذا وصيته التي كتبها في طورس في ١٠ من ديسمبر ١٢٦٤ ، وندين الى هذه الصدفة بالمعلومات التي حصلنا عليها (٤٩٣) . فمن الأشياء التي أوصى بها مواد من صناعة غربية ، أجواخ من البندقية ، ولمبارديا ، وألمانيا ، وفلاندر ومواد أخرى هي حاصلات طبيعية من أصل شرقي لا شك فيه كاللآلىء ، والسكر ، وأشياء أخرى كلعب الشطرنج ، والسروج ، والكؤوس ، والشمعدانات ، والأكواب الزجاجيـــة ، وهي مشكوك في حقيقة مصدرها ، ولم تكن هذه الأشياء كلها ملكا للموصى ، ويبدو أنه كان بالأحرى وكيلا عن شركة أو سمسارا يعمل كوســـيط لبعض مواطنيه .

---

(٤٩١) M. Polo, p.37 et s. , 45, 48; le texte ramusien, éd. Baldelli Bon.i p. 32; Jule, p. 57; Ibn-Batouta. II, 143; Barbaro, Vaiggio in Persia, p. 28, b., Ibn-Batouto, II. 294. XO

(٤٩٢) في حوزتنا شهادة تثبت قدم العلاقات بين أوروبا وفارس ، وذلك في مؤلف ضخم : le dictionnaire latin-persan-cuman. كتبه جنوى في عام ١٣٠٣ ، ويتنوع خاص كخدمة يقدمها للتجار .

(٤٩٣) Archiv. Venet., XXVI, 161-165.

واذا كان هناك أشخاص آخرون أقاموا بصفة دائمة في طـورس (تبريز) ، وأنشأوا جالية منتظمة لها رئيسها ، فانه من العسير علينا أن نفهم لماذا يأمر فيليوني بتسليم بضائعه أو المبالغ المحصلة من بيعها الى بايل عكا البندقي ليحفظها وديعة عنده · ولعله كان من الرواد الأوائل في هذا الخصوص · وثمة أسماء أخرى معزوفة لتجار أوروبيين استقروا في فارس ، وصلت الينا في أخبار ارساليات كاثوليكية ·

وفي عهد أرجـون خان (١٢٨٤ ــ ١٢٩١) حامي المسـيحيين وصديقهم ، كان يعيش في طورس (تبريز) بصفته تاجر بيزي (من بيزا) نبيل اسمه أوزوليس Ozolus أو جوليس Jolus ، وصلنا اسمه محرفا ، قدم للمبشرين مساعدة مادية ومعنوية ، واشترك بنفسه في مجهود البعثة بالسعي في هداية بعض الأشخاص في محيطه الى الدين المسيحي · وقد حفظت خطابات كتبها له في عامي ١٢٨٩ ، ١٢٩١ ، البابا نيقولا الرابع (٤٩٤) يهنئه فيها ويوصي به في الوقت نفســه لدى المبشرين الفرنسيسكان · ولو فقدت هذه الخطابات لما عرفنا ان البيزيين كان لهم من يمثلهم في هذه السوق · كذلك علمنا من أخبار الارساليات بالأحداث المتعلقة ببدايات ظهور الجنويين في فارس · ويتحدث جويليلموس آدي Guilliélmus Adae (٤٩٥) الذي كان ثاني أسقف في مدينة سلطانية عن المشروعات العظيمة التي وصفها الجنويون بالاتفاق مع أرجون خان : فقد انتوى هذا انشاء ميناء في الخليج الفارسي ، وتحويل تجارة الهند الى هذا الموقع ، واقترح وضع طرادات عند عدن لسد الطريق ومنع السفن التجارية من الذهاب الى مصر عن طريق البحر الأحمر · ولسوء الحظ فان النزاع الكبير بين الجويلفيين والجبليين ، الذي بذور الشقاق في صفوف الجنويين فأصابهم بالعجز ، ومن ثم قضى على هذا المشروع الجميل (٤٩٦) ·

وبعد وفاة أرجون خان بزمن قليل ، مر الثلاثي « بولو » بطورس (تبريز) عند عودتهم من رحلتهم في الصين (١٢٩٣ أو ١٢٩٤) ، ولم

---

(٤٩٤) Mosheim, Hist. eccl. Tartar., app. p. 97, 105.

(٤٩٥) De modo extirpandi Saraccnos; le Recueil des hist. des crois., doc. armén., T. II.

(٤٩٦) Abel Rémusat Mém. de l'Acad. des Inser., VII (1824); p. 113, 362 et ss., 388, 430 et ss.; Hommer, Ilchane, I, 394 e s., II, 148; M. Polo, II, 277; Atti della Soc. Lig., III, c., IV, cc.; Giorn. ligust., 1874, p. 346; Abel Rémusat. Mém. de l'Acad .des inscr., VII ,358 et s.; Desimoni, Arch. stor. ital., 1879, 4ᵉ série. I, 305 et s.

يلفت ماركوبولو فى هذه المناسبة أن يذكر أن عددا كبيرا من التجار ، معظمهم من الجنويين يأتون الى هذه المدينة ، يجذبهم اليها الأرباح الكبيرة التى يحصلون عليها ، والأسواق المليئة بالأحجار الكريمة وغيرها من السلع (٤٩٧) وفى موضع آخر غير بعيد يشير الى واقعة حديثة ، مضمونها أن الجنويين نظموا خدمة ملاحية فى بحر قزوين ، وكانت بداياتها وظهورها فى طورس أحداثا جرت فى وقت واحد تقريبا ، واذا فهمنـــــا عبارات ماركوبولو بمعناها الحرفى عرفنا أن الجنويين سيروا سفنهم فى هذا البحر الداخلى (٤٩٨) ، ومن ثم كان عليهم أن يصعدوا بهذه السفن نهر الدن حتى الموضع الذى يكون فيه مجراه أكثر قربا من مجرى نهر الفولجا ، ثم ينقلونها برا من النهر الى النهر الآخر (الفولجا) (٤٩٩) • وبعد أن تحدث ماركوبولو عن بدايات الملاحة هذه ، أضاف العبارة الآتيـــة : "et d'illec vient la soie gecle" ، وتدل هذه العبارة على أن الجنـــويين يقصدون استغلال السواحل الجنوبية لبحر قزوين حيث ينتج الحرير على نطاق واسع • وليس من المعقول أن يرحلوا من هناك ليتوغلوا فى داخل فارس ، ويصلوا الى طورس مثلا ، فالتـــكوين الجغرافى والســـياسى للبلد (٥٠٠) لا يناسب ذلك • ويبدو أن الغرض الوحيد من التجارة فى بحر قزوين هو الحرير • وفضلا عن ذلك كان هناك للوصول الى فارس طرق أكثر ملاءمة من شعاب البورز Elbourz • وسوف نعود فيما بعد الى هذا الموضوع •

كانت أرمينيا الصغرى من جهة ، وامبراطورية طربزون من جهة أخرى ، وهما بلدان لم يكن الجنويون وسائر الأمم التجـــارية أجنبيين بالنسبة اليهما ، متصـــلتين بطورس (تبريز) بطرق قـــوافل مطروقة بكثرة • ولنبـــدأ بطريق آيـــاس الى طورس (تبريز) التجـــارى ، وكان يسلكه عادة التجار الايطاليون فى عهد بيجولوتى (٥٠١) • فقد ترك

(٤٩٧) Ed. Pauthier, p. 60.

(٤٩٨) Ed. Pauthier, p. 44.

(٤٩٩) انظر فى التذييل المقال الخاص بالحرير •

(٥٠٠) حتى عام ١٣٠٦ كان امراء جيلان Ghilan مستقلين ، وفى هذا التاريخ فقط ، اخضعهم أولجانيوخان • انظر :

— Hammer, Gesch. der Ilchane, II, 206 et ss..

(٥٠١) Pegol., p. 9-11; Libro del conscimento de todos los reynos.

— من الممتع مقابلة هذا الطريق ببداية الطريق الثانى Cathay ، ويبدأ من

هذا الكاتب عن هذا الطريق وصفا مصحوبا بقائمة طويلة بالأماكن التى يمر بها ، معدة اعدادا جيدا ليستفيد منهـا كل المشتغلين بالتاريخ والجغرافيا : ومع ذلك لم يلق هذا الوصف ما يستحقه من اهتمـام ٠ ولما كان هذا الطريق يبدأ من أرمينيا الصغرى ، فقد اتخذ عالمان فرنسيان من تاريخ هذا البلد موضوعا لدراساتهما ، وهما فيكتور لانجلوا Victor Langlois ، وادوار ديلوريه Edouard Dulaurier ، وأفردا بضعة سطور لدليل بيجولوتى هذا ، ولكنهما اقتصرا على الجزء من الطريق الذى يدخل فى نطاق دراستهما ، وفى غير هذا الجزء اكتفيا بالاشارة الى بعض النقاط الرئيسية التى لم يكن فى تحديدها أية صعوبة (٥٠٢) ٠ وثمة عالم انجليزى ، هو السيد يول Yule جعل من هذا الدليل دراسة أوفى (٥٠٣) ٠ أما أنا فقد بذلت ما فى وسعى ، فى المطبعة الألمانيـة لهذه الدراسة لايضاح بعض الفقرات ٠ غير أن أحسن الأعمال التى ولدها هذا الدليل هى التى قام بها السيد هـ ٠ كيبرت H. Kiepett (٥٠٤)

ومع ذلك لم يزل هناك الكثير مما ينبغى عمله قبل كشف النقاب عن كل الأسماء التى يتضمنها هذا العمـل ، خاصة وأن قسما كبيرا من الطريق المذكور يجتاز بلادا لم تطأها أقدام أوروبية الا فى القليـل النادر ٠ وعلى أية حال تكفى نظرة عابرة لمعرفة أن أهم المحاط الوسطى هى سيواس Sivas ، وارزنجيـان Erzinghian ، وارضروم Erzeroum ٠ ومن هنا نستطيع تقسيم الطريق كله الى أربعة أقسام ٠ ففى القسم الأول نقرأ الأسماء التالية : اجاتزو ، كوليدارا ، جاندون ، كازينا ، جافازيرا ديل اميراليو ، جادو ، جافايرا دى كازا جاكومى : Ajazzo, Colidara, Gandon, Casena, Gavazera dell' amiraglio, Gadue, Gavazera di casa Jacomi.

ولسوء الحظ لم يذكر بيجولوتى النواحى التى يجتازها المسافر فى القسم الأدنى من أرمينيا الصغرى ٠ وكانت كوليدارا ، وجاندون همـا

= قبرص ، وينتقل الى القارة (الاسيوية) عبر أرمينيا الصغرى ، ويمر بمدينة سيفاس التركية ، ويعبر أولا الفرات عند أرجو Argot (؟) ، ثم اراكس Araxe ويصل أخيرا الى طورس ٠

(٥٠٢) Langlois, Trésor des chartes d'Arménie, introd., p. 97; Dulaurier, Recueil des hist. des croisades, documents arméniens, I, introd. p. cl.

(٥٠٣) Cathay, II, 299-301.

(٥٠٤) Etude sur l'Itinéreire de l'Asie occidentale, de Pegolotti, par M. Kiepert, dans les Sitzungsberichte der philos hist Cl. der Berliner Akad., 1881, p. 901 et ss. (avec carte).

المحطتين المجاورتين لحدود الولايات التابعة لملك ارمينيا وخان فارس على التوالي · كانت الأولى الواقعة على الحدود الأرمينية هى على الراجح قلعة جوبيدار Gobidar ، ويبـــدو أنها من أقدم ممتلكات الأرمن فى هـــذا الجزء من آسيا الصغرى ، ولكن لا جدوى من البحث عنها فى الخرائط الحديثة اذ لا أثر لها فيهـا ، وهى موجودة فى الجزء من سلسلة جبال طوروس Taurus التى تحد قليقية من الشمال (٥٠٥) · أما جاندون ، وكان يحصل عندها لخان التتار رسم دخول قدره عشرون آسبر aspres ، فلم يستطع أحد الى الآن أن يحدد موقعها ·

وبالنسبة الى المحطة التالية ، كازينا ، فانه يمكن على العكس من ذلك التعرف عليها بالتأكيد تحت اسم كوكسن Coxon عند الصليبيين ، وجوجيزون Gogison عند الأرمن ، وجوكسن Geuksun عنـــد الترك (٥٠٦) · ولكى نتعرف جيدا على الطريق الذى سلكناه حتى الآن ، نتوقف لحظة ونتناول خريطة آسيا الصغرى التى رسمها كيبرت ، ونلقى نظرة خاطفة على رقعـة الأرض المحصـــورة بين لاجاتزو (آيـاس) ، وجوكسن · هذا الفحص يدلنا بالأرجح على أن التجار الغربيين ، عند مغادرتهم لاجاتزو يتقدمون بحذاء نهر جيهـان (جيحـان) حتى أناباد Anabad ، ثم يبتعدون عن النهـر متبعين رافده اناباد صـــو Anabad-sou · هذا الطريق يمر بهم تحت أسوار جبين Gében أو جابان Gaban

وثمة ، دبلوما ، صادرة من الامبراطور لاوون الثانى Léon II فى شهر مارس ١٢٠١ تعرفنا بأن الجنويين كانوا يدفعون رسما لصاحب هذه القلعة عند ممر جيهان ، حيث يمرون من الضفة اليمنى للنهر الى الضفة اليسرى ، ثم يواصـلون الطريق على طول نهـر أباباد الذى كان حوضه تابعا لسلطة سيد جابان ، ومن هذا الحوض يصلون دون مشقة الى جوكسن (٥٠٧) ومن المحطات الثـلاث التى يذكرها بيجولوتى بين جوكسن وسيفاس ، اثنتان ليستا الا مجرد خان للقوافل gavazera

---

(٥٠٥) Mathieu d'Edesse. dans la Bibliothèque arménienne, éd. Dulaurier, p. 216, 432; Dulaurier Chronologie arménienne, p. 103; Recueildes hist. des crois doc. armén., éd. Dulaurier, I, 30; Langlois, Trésor des chartes. p. 53, 97.

(٥٠٦) Ritter, Asien. XIX, 32 et ss., 270 et s.

(٥٠٧) M. Kiepert.

أما جادو الواقعة بين المحطتين ، فهى ضيعة • ومن المرجح كثيرا أن الطريق يلتوى ابتداء من جوكسن صوب الشمال الغربى حتى يصل الى حوض نهر ساروس Sarus ، ويتبع مجرى هذا النهر حتى منبعه ، ويجتاز خاصرة جبل طوروس الشرقى ويدخل أخيرا فى حوض نهر هاليس Halys فلا يتركه حتى سيفاس •

وفى القسم الثانى ، نجد سلفاسترو ، ودودرياجا ، وجريبوكو ، وموغيسار :
Salvastro, Dudriaga, Greboco, Mughisar

والشىء العجيب أن السيد لانجلوا لم يتعرف على سيفاس تحت اسم سلفاسترو ، لأن هذه التسمية تشبه كثيرا اسم سيباست Sébaste وهو اسم سيفاس القديم ، واسم البلد نفسه باللغة الأرمينية سيفاسديا ، سيفاسد Sevasdia, Sevasd (٥٠٨) الذى يذكره ماركوبولو (٥٠٩) باسم سافاست Savast ، كما ذكر فى الخريطة القطالونية (٥١٠) ، والفرنسيسكانى الاسبانى المجهول (٥١١) باسم سافاستو Savasto وذكره أخيرا لانجيل Langele فى أخبار رحلاته Comptes de voyage باسم سافاست Savaste أو سافاستوم Savastum (٥١٢) • أما دودرياجا ، المحطة التالية فهى فى رأيى قرية تودورجا الحالية Todourga (Todorag) على بعد عشرة فراسخ شمال شرقى سيفاس فى القسم العلوى من وادى نهر هاليس (٥١٣) • وهكذا فابتداء من سيواس يتجه الطريق بعامة الى الشرق مع ميل خفيف الى الشمال • وبمتابعة هذا الخط حتى أرزنجان ، نقابل فى الخرائط الحديثة موضعا يسمى موشار Mouchar (أو ميهار Mehar) ، ولعله المكان الذى سماه بيجولوتى موغيسار Mughisar • ويبدو العثور على محطة جريبوكو (بين دودرياجا وموغيسار) مشكلة لا حل لها تقريبا ، ذلك لأنه من المستحيل العثور

(٥٠٨) Brant, dans le Journ. of the geogr. Soc., VI (1836), p. 214, not I; Yule M., Pool, I. 45.

(٥٠٩) Ed. Pauthier, I, 37.

(٥١٠) Not. et extr., XIV, 1, p. 100.

(٥١١) Libro del conscimiento, p. 82.

(٥١٢) Atti della soc. Lig., XIII, 594 et s., 596.

(٥١٣) Les itinéraires de Tchihatcheff, dans la 20e livraison supplémentaire des Petermann's Mittheilungen, p. 13, avec la carte spéciale de Kiepert

فى خريطة حديثة على أى مكان له اسم مشابه لهذا الاسم ٠ الا ان السيد كيبرت قد برهن هنا مرة أخرى على علمه ورجاحة عقـــله : فباتبــاع ارشاداته ثم تصفح خريطة الاخوة بيزيجـــانى Pizigani (١٣٦٧) ، ندهشل اذ نجد أيضاً بين سيواس وارزنجيان محطة اجريبوس Agreboce التى ليست فى الغالب الا أوروراسى Arauraci عند الرومان (٥١٤) ٠

وفى القسم الثالث : ارزنجا ، وجافازيرا سوللامونتانيا ، وليجورتى ، وبونتى ، وجافازيرا فيورى دارزيرونى ، وبانيى دارزيرونى ٠ ١
Arzinga. Gavazera sulla montagna, Ligurti, Ponte, Gavazera fuori Bangni d'Arzeroni.

أما مدينة ارزنجيان فانها معروفة ، ولا داعى لأن نتريث عندها : وحسبنا أن نذكر ابن بطوطة حين يمتدح حسن تنظيم أسواقها (٥١٥) ٠ ولسنا نجد فى بقية هذا القسم سوى فنادق للقوافل، وجسرا (على الفرات)، واســـما لضيعة واحدة هى ليجورتى ، لا يمكن العثور عليهـــا فى حدود معلوماتنا الحاضرة ٠ والطريق الذى تسلكه القوافل فى الوقت الحاضر يعبر نهر الفرات فى منتصف الطريق تقريبـــا بين ارزنجيان وارضروم عند ماماخاتون Mamakhatoun على الجسر القديم المعروف باســـم كورجون Korgeun ولما كان من الضرورى البحث عن جسر بيجولوتى الأكثر قربا من ارضروم ، فان السيد كيبرت يسلم بحق أنه كان يوجد وقتئذ طريق يتجه أكثر الى الشمال . يجتاز الفرات عند Aqkala على أكثر تقدير ٠ وبين هذا الجسر ومدينة أرضروم لم يعد هناك سوى موضعين للتوقف عندهما ، أحدهما فندق للمسافرين ، والآخر بنـاء به دار للاستحمام ومكتب للجمارك يقع على الأرجح فى ضاحية ارضروم ٠

القسم الرابع : ارزرون بانيى ارزرون فيرسو طوريس ، وبولوربيك ، وسيرميساكالو ، وأجيا ، وكالاكريستى ، وترى كييزى ، وسوتو لاركانو ، وسكاراكانتى ، ولوكى ، وبيانا دى فالكونيرى ، ولى كاموزونى ، وبيانا ديل فيومى روسو ، وكوندرو ، وساندودى ، وتوريسى :
Arzerone, Bangni d'Arzerone verso Torisi, Polorbecch, Sermessa calo, Piana di Falcresti, Tre chiese, sotto Larcance Scaracanti, Locche, Piana di Falconieri. liCamuzoni, Piana del Fiume rosso, Condro, Sandoddi, Torisi.

(٥١٤) M. Kipert; M. Yule.

(٥١٥) II ,294.

وحين يواصل المسافر طريقه من أرضروم الى طورس (تبريز) يقابل اولا الضاحية الشرقية لأرضروم وبها أيضا دار للاســـتحمام ومكتب للجمارك . وبعد مسيرة قرابة تسع ساعات يصل الى أراكس Araxe عند موضع يسمى باللغة الأرمينية بولوراباهاج Polorabahag ، أي القلعة المستديرة (وسماها بيجولوتي Polorbecck) ، وهناك يعبر النهر على جسر له سبعة عقود ، اسمه الحالى تشوبان - كوبرى Tchoban-Keupri

وفى نهاية السهل الذى يرويه نهر أراكس ، يخترق الجبال فيصل الى ممر ديلى بابا Deli-Baba : وعلى هذه المرتفعات على ما يبدو كان الموضع الذى لم يعد له أثر الآن ، ويشير اليه بيجولوتى باسم سيرميسا كالو Sermessa calo ، كما يشير اليه اوديريكو دابوردينونى Oderico da Pordenone باسم ساربيسا كالو Sarbisacalo . وبعد أن يجتاز المسافر الممر ومحطة آجيا Aggia التى لا يعرف موقعها ، يقابل على مرتفع مراد Mourad منزلين للايواء معروفين الى الآن ، وتتردد عليهما القوافل بكثرة : كاراكيليسيه Karakiiissè (كالاكريستى Calacresti عند بيجولوتى) ، واوتشيكيليسيه Utchkilissè (اى بالتركية : ثلاث كنائس ، ويسميها بيجولوتى Tre chiese) . (٥١٦)

وتوجد المحطة التاليـــة عند مجاورات مدينـــة ديادن Diyadin الحالية على ذروة جبل (يسميها بيجولوتى Sotto Larcanoe) يرى منها الى الجنوب الغربى قمة جبل Massis الذى أطلق عليه خطأ اسم أراراط Ararat . وعلى مسافة ليست بعيدة من هناك يصل المرء الى مدينة قرقند Karakand الحالية (يسميها بيجولوتى سكاراكانتى Scaracanti)

وبالنسبة الى المحطات الثلاث التالية لم يتسن الى الآن الكشف عن معنى الأسماء التى أطلقها عليها بيجولوتى . فضلا عن ذلك أمكن ملاحظة أن الطريق الذى كانت تسلكه القوافل فى العصور الوسطى ، ابتداء من أرضروم يتبع على وجه التقريب نفس الاتجاه الذى تتبعه القوافل فى وقتنا الحاضر . يمكن اذن التسليم بأن الأمر كذلك بالنسبة الى النصف الثانى من الطريق . ويقدم السيد كيبرت دليلا جديدا يعزز هذا الغرض : ذلك أن نهر فيومى روسو Tlume rosso (٥١٧) عنـــد بيجولوتى ليس الا « النهر الأحمر » (كزيل تشاى Kizil Tchai) وهو فرع من نهر أراكس

(٥١٦) Dulaurier et Langlois ; Ritter (Erdk., X, 350); M. Yule ,Cathay, II, 301.

(٥١٧) Oderico de Pordenone Yule, Cathay, II, 2e append., p. xliv.

يغمر أسوار مدينة خوى Khoi • لا يبقى اذن ، بعد ثبوت هذا ، شيء من نظرية السيد يول Yule الذى يرى فى النعت rosso تحريفا لكلمة أراس Aras أو راس Ras (الاسم العربى لكلمة أراكس Arax) • وهى نظرية تحملنـــا على التسليم بأن القوافل التى تذهب الى طورس تتحول عن الطريق المباشر لتصل الى ضفاف النهر • نضيف أن مدينة خوى ليست حديثة كما يظنها السيد كيبرت ، لأنها كانت موجودة قبلا فى العصور الوسطى (٥١٨) ، ولو كان الطريق الذى ندرسه يجتازها لذكر بيجولوتى اسم المدينة لا اسم النهر •

وبين النقطة التى يعبر عندها الطريق نهر كزيل تشاى وطورس ، نهاية الرحلة ، يذكر بيجولوتى أيضا محطتى كوندرو Condro وساندودى Sandoddi • والمسالة تتطلب معرفة ما اذا كان ينبغى البحث عن موقع هذين المكانين على الضفة اليمنى لبحيرة أورمية Ourmia (حاليا ريزايى Rezaye ، ش• غ• ايران : المترجم) أو فى داخل الأراضى : فهناك من جهة طريق بين خوى وطورس يمتد بمحاذاة البحيرة ، ومن جهة أخرى تتصل المدينتان احداهما بالأخرى بطريق يسلكه الكثيرون يمر بمراند Marand وصوفيان Sofian • وينحاز السيد كيبرت الى الرأى الأول ، لأنه لم يزل يشاهد هنـــاك مكاتب جمركية قديمة فى قريتى شاناداك Chanadan وشاهناجان Chahnadjan • ولكن كيف يمكن اثبات التماثل بين شانادان وكوندرو Condro وبين شاهناجان وساندودى Sandoddi ؟

تكلمنا عن الدليل الذى وضعه بيجولوتى ، وكانت غايته أن يضع خدمة للمسافرين الغربيين قائمة بالنفقات التى لابد أن يتحملوها للذهاب ببضائعهم من الجوزات الى طورس • وعنـــدما يمر المسافر عبر الحدود أو يدخل بعض المدن الكبيرة ، لابد له أن يدفع ضريبة لعاهل البـــلد أو ممثليه • وعند عدد كبير من المحطات ، يظهر رسم ثابت قدره نصـــف آسبر aspre (عملة فضية تركية – المترجم) عن حمـــولة الدابة الواحدة ، يطلق عليها المؤلف اسما غريبا : tantaulaggio ويرى السيدان كانستريني Canestrini (٢١٩) ، ولانجـــلوا (٥٢٠) أن هذا الاسم

(٥١٨) : Cette ville est nommée Coye dans les Comptes de Langele, 1.c., p. 610, Hoy dans Clavijo, p. 107, Choey dans Ghistele, p. 305, Khowyy dans Aboulféda, Géogr., II, 2, p. 149, 153.

(٥١٩) Archiv. stor. ital., 1ère série, append., IX 348 not.

(٥٢٠) : Trésor des chart. p. 94.

يتكون من كلمتين tant (بمقدار) ، a (عن) ، auna (قياس قديم aune يساوى تقريبا ١٫١٨٨ مترا — المترجم) • وعلى هذا يجب على التجار الغربيين أن يدفعوا عند كل محطة من المحطات المذكورة بالقائمة (وهى لا تقل عن أربع عشرة محطة بين أرضروم وطورس) رسما قدره نصف آسبر عن كل أون auna من القماش الموجود ضمن أمتعتهم ولكن مثل هذه الضريبة الثقيلة تعنى فى الواقع حظرا مطلقا ! •

لذلك فان الأمر هنا لا يتعلق برسم محدد بالأون عن القماش • والواقع أن بيجولوتى يضيف كل مرة عمدا أن هذه الضريبة وقدرها نصف آسبر تحصل عن حمولة كل دابة • فضلا عن ذلك فان التفسير الذى نناقشه خطأ من أساسه ، بمعنى أن هؤلاء العلماء يشتتون من أصـــل كلمة رومية اسم ضريبة لم يكن لها وجـــود الا فى داخل الامبراطورية التترية الفارسية (٥٢١) • ويبدو أنه كان من الواجب البحث أولا عما اذا لم تكن هذه الضريبة شرقية فى أصلها ، وكان يكفى دراسة المعجم الصغير الذى وضعه بيجولوتى فى مقدمة مؤلفه Pratica della mercatura لمعرفة أن كلمة tantaullà فى لغة التتار تعنى Gueι (guardia) (رصد ، عسس) (٥٢٢) ••

ومن ثم يتعين التسليم بأن الـ tantaullaggio كانت رسما يدفع للمراكز (العسكرية) المقامة على نقط مختلفة لحماية القوافل • والواقع أنه كان فى فارس فى عهد سـيادة التتار ، وربما قبله تنظيم من هذا النوع لأمن الطرق • وفى عهد أرجون رابع خانات التتار (١٢٨٤ — ١٢٩١) ، كان يعهد بقيادة الرجال المكلفين بهـــذه الخدمة الى أمير ذكى وحازم ، فترتب على ذلك ضروب من العسف • فبدلا من ردع لصـــوص الطرق الذين زادت جرأتهم يوما بعد يوم ، كان جنود الأمن يساعدونهم خفية ، وكانوا هم أيضا يطالبون المسافرين بأكثر مما هو مفروض عليهم • وهناك أشخاص غرباء على خدمة الأمن يرتدون ثيابهم الرسمية ويبتزون الأموال من المارة •

واذ صارت الطرق الكبيرة شديدة الخطر ، بدأ المسافرون يهجرونها

---

(٥٢١) Langlois

(٥٢٢) Pegol., p. XXIII; le dictionnaire latin-persan-couman de 1303, publ. par Klaproth, Mém. relat. à l'Asie, III, 220 (éd. Géza Kuun., p. 105).

ويسلكون الطرق العريضة المختصرة حيث يفلتون على الأقل من أعمال الاغتصاب التى يقترفها الـ Tangauis (العسس) ، ولم يعودوا معرضين كثيرا للقاء الأشخاص الخطرين الا على الطرق الكبيرة • وعالج غازان خان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) هذه الاضطرابات بالشدة التى كانت فى طبيعته : فلم يكتف باعدام كل من يقبض عليهم من اللصوص ، والأشخاص الذين يثبت تواطؤهم معهم ، بل اعتبر أيضا مراكز الحراسة ، وسكان القرى الواقعة على الطرق مسئولين عن السرقات التى ترتكب فيها • وبجوار كل مركز أقام عمودا حجريا معلقا عليه قائمة بأفراد المركز ، وقيمة الضريبة النظامية المفروضة •

وعلى هذا النحو لم يعد المسافرون معرضين لأن يسرقهم أى انسان ، أو يستغلهم حرس المخافر أنفســـهم ، وتسمى هـــذه القائمة « جدول العدالة » ، وكانت الضريبة نصف اكتشيه Aktchè عن حمولة أربعة بغال ، أو جملين • وفى عهد غازان خان ، كان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف تانجول (عسس) على قدم الاستعداد فى كل وقت لحفظ الأمن فى الطرق • وما لبثت هذه الاجراءات أن أثمرت (٥٢٣) ، وبقيت نافذة فى عهود خلفاء غازان خان ، يشهد بذلك بيجولوتى الذى كتب الفقرة التى أوردناها آنفا فى حياة أبو سيد خان (١٣١٦ ـ ١٣٦٦) •

وتتبين ذلك أيضا فى بعض فقرات المعاهدة التى عقدها البنادقة مع هذا الخان نفسه فى عام ١٣٢٠ ، ونجد فى هذه الفقرات المراسيم الخاصة بالتانجول : من مسئولية مشتركة بين السلطات وبين ســـكان الأنحاء المجاورة للمخافر عن كل السرقات التى ترتكب اضرارا بالقوافل ، وحظر المطـــالبة بالتامتولاكو Tamtaulaco ، وهو أى مبلغ يزيد على الرسم القانونى • ويبدو أن هذا الرسم كان وقتئذ أعلى مما كان فى زمن غازان خان : فالثابت من جهة أن كلمتى « اكتشيه » و « آسبر » تدلان على عملة واحدة (تساوى حوالى ٦٠ سنتيم من النقد الحالى) (٥٢٤) ، وأن لهما معنى واحدا : « أبيض » • وفى عهد أبو سيد خان ، كان يدفع نفس القيمة (نصف آسبر) عن الحمولة الواحدة ، التى كانت تدفع فى عهد غازان خان عن حمولتين من الجمال أو أربع حمولات من البغال •

---

(٥٢٣) رشيد الدين ، نقل السيد برنهاور هذه الفقرة فى :

— M. Bernhauer dans son Mémoire sur les institutions de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs, dans le Journ asiat., 5e serie. T. XV, p. 589 et ss.; D'Ohssen, Hist. des Mongols, IV, 470 ss.

(٥٢٤) D'après les tableaux comparatifs des monnaies de M. Desimoni, dans son éd. de langele, l.c., p. 647-680.

فالتاجر المسافر من الجوزات الى طورس ومعه دابة واحدة ينفق فى المتوسط ١٥٣ آسبر تقريبا يدفعها لمحصلى الجمارك ، وللمخافر على الطرق ، بالاضافة الى ٥٠ آسبر تقريبا يدفعها لعصابات المغول من قطاع الطرق الذين قد يلتقى بهم فى طريقه ، أى أنه يدفع ٢٠٣ آسبر فى المجموع (يقول بيجولوتى ٢٠٩ ، ولكنه أخطأفى الجمع) ، وهذا المبلغ يعادل ١٢٠ فرنكا من نقدنا .

هذى معلومات كافية عن طريق آياس ــ تبريز ، والرسوم التى تحصل فيه . ولنلتفت الآن الى الطريق الذى كان ينافسه ، طريق القوافل من طربزون الى طورس (تبريز) .

ولسوء الحظ لا يوجد وصف خاص باى من الطريقين . ويكتفى بيجولوتى بالقول بأن التجار الذين يسافرون فرادى على ظهور الجياد يقطعون هذه المسافة فى اثنى عشر الى ثلاثة عشر يوما ، وتقطعها القوافل من ثلاثين الى اثنين وثلاثين يوما (٥٢٥) ، ولا يذكر أيا من المدن التى يمر بها هذا الطريق . أما جيوزافات باربارو Giosafatte Barbaro فانه رسم طريقا ، ولكنه يبتعد كثيرا عن الخط المستقيم الذى يتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى حتى ليبدو لنا من المستحيل أن يكون قد استخدم بالفعل وبوجه عام فى التجارة بين السوقين ، وأقصى ما يسعنا أن نسلم به هو أن بعض المسافرين قد فضلوا استخدامه (٥٢٦) .

بقى كلافيجو Clavijo الذى سافر أيضا من طربزون الى طورس (تبريز) ، ولكنه تحول كثيرا عن الطريق المباشر ، واستغرقت رحلته (من ٢٧ أبريل الى ١١ يونيه) (٥٢٧) مدة أطول بكثير من المدة المتوسطة التى ذكرها بيجولوتى ، حتى ليستحيل أن تسلم بأنه سلك الطريق المعتاد . وعلى ذلك فاننا لا نستطيع أن نعتمد على هذين الوصفين للرحلات فى اكتشاف اتجاه الطريق التجارى ، ونقول الشىء نفسه عن الطريق الذى سلكه الفارس لانجيل Langele عند عودته من مأموريته : فحتى يعود الى طربزون ، مر بمدينة خوى ، وأردجيش Erdjich (على الضفة

(٥٢٥) Pegol, p. 11.

(٥٢٦) Viaggio nella Persia, p. 48, 49.

يتخذ هذا الطريق من البداية ، بشكل ملحوظ اتجاها نحو الجنوب ، فى خط مستقيم الى ارزنجيان ، وكاربورت

(٥٢٧) Viage, p. 86-108.

الشـــــمالية من بحـــــيرة فان Van) ، وملازكرت Melazkert وأرضروم (٥٢٨) ٠

ومن المحتمل كثيرا أن طريق القوافل فى العصور الوسطى لم يكن ينأى كثيرا عن الطريق المتبع فى الوقت الحاضر ، والذى يمر بباييورت Baibourt ،وأرضروم ، ودياذن Diyadin ، وخوى (٥٢٩) ، هذا الخط قد رسمته الطبيعة نفسها الى حد ما ، ومجموع أيام المسير التى ذكرها بيجولوتى بالنسبة الى القوافل المتجهة من طربزون الى طورس يساوى تماما الزمن الذى تستغرقه القوافل فى وقتنـا الحاضر فى اجتياز المائة والخمسين فرسخا التى تفصل المدينتين احداهما عن الأخرى متبعة الطريق الذى بيناه آنفا (٥٣٠) ٠ ويمكننا ، بالنسبة الى اليومين الأولين من المسيرة أن نثبت بالمستندات التى بين أيدينا أن الطريقين متماثلان : فالواقع أننا نملك « دبلوما » صادرا فى عام ١٣١٤ ، حللناه من قبل ، ولدينا أيضا مذكرات عن رحلة الشيفالييه لانجيل ٠ ففى الدبلوم (٥٣١) ، يحظر الكسيوس امبراطور طربزون كل الرعايا الروم من الانضمام الى القوافل الجنوبية لغاية ناحية أشير اليها باسم « كابانوم » Cabanum ٠

ولابد لنا فى هذه الصورة أن نتعرف على قرية كاراكابان Carakaban (الكابان الأسود) الواقعة فى الجبل على بعد تسعة فراسخ من طربزون ، وعندها تتوقف الى يومنا هذا القوافل المتجهة الى باييورت وأرضروم (٥٣٢). ونجد اسم هذه القرية فى مذكرات لانجيل ، وكانت هــــذه أول رحلة يقطعها بعد قيامه من طربزون قاصدا طورس ٠ وكانت باييورت ثالث مرحلة (٥٣٣) : يقول السيد بولو M. Polo فى طبعة راموزيو Ramusio

---

(٥٢٨) Atti della Soc leg., XIII, 610-614.

(٥٢٩) Blau., Die commerciellen Zustande Persiens, p. 210 et ss.

(٥٣٠) فى تقريره عن الطريق التجارى للبحر الأسود كتب السيد م٠ ر٠ جوديل قنصل النمسا فى طربزون أنه لاجتياز هذه المسافة ، تستغرق القوافل على الأقل من ٢٧ الى ٣٠ يوما حين يكون الطريق فى أحسن حال ، ويلزمها أربعون يوما حين يكون فى حالة سيئة ٠ انظر :
— Mittheilungen uber Handel Gewerbe und Verkehrsmittel, 1ère année, Vienne 1850 (p. 119).

(٥٣١) Atti della Soc. Lig., XIII, 517.

(٥٣٢) Hamilton, Reisen in Kleinasien, Pontus und Armenien, I, 158. Ritter, Erdk. XVIII, 905.

(٥٣٣) Atti della Soc. Leg., XIII, 608 : Cabanum montanum Papertum ; cf. p. 595, Papertum.

انها قلعة يمر المسافر تحتها عند ذهابه من طرابزون الى طورس (تبريز) ويقال انه يوجد أيضا فى حصون بايبورت ، وارضروم القديمة ، وحسن كاليه Hassan-Kalèh ، وبايزيد بقايا القلاع التى شيدها الجنويون على هذه المواقع المختلفة لحماية قوافلهم (٥٣٤) . ويقابل المرء على طول الطريق الكبير الحالى خانات للقوافل يرجع انشاؤها الى العصور الوسطى ، يقال ان تلك الأمة (جنوا) هى التى أقامتها : وهذا على الأقل هو ما يحكيه القصص الشعبى (٥٣٥) .

وقد أيد السيد برانت Brant قنصل انجلترا فى أرضروم هــذه القصة دون تردد ، واعتبرها حقيقة تاريخية ، رغم عدم وجود أى أثر لهذا النوع من المنشئات فى أية وثيقة . ويمضى السيد برانت الى حد القول بأن الجنويين حصلوا من ملوك أرمينيا على ترخيص باقامة هــذه القلاع : وهذه واقعة ربما كان من العسير عليه أن يثبتها : ذلك لأنه فى العصر الذى كانت فيه القوافل الجنوية تجتاز الطريق من طرابزون الى طورس ، أى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم تعد هذه الأصقاع من زمن بعيد خاضعة لملوك أرمينيا ، اذ كان القطر ، حتى حدود امبراطورية طرابزون الصغيرة خاضعا لخانات فارس .

ولكنا رأينا أن خانات التتار هؤلاء كانوا حريصين على توفير أمن الطرق ، فأقاموا لهذا الغرض مخافر عديدة ، وكانوا فضــلا عن ذلك شديدى الغيرة على سلطتهم ، فلا يسمحون لأمة أجنبيــة أن تشــيد فى اقليمهم قلاعا حصينة ، وفنادق للقوافل . وما تبقى من هذه المبانى الى الآن لا يظهر عليه الا القليل جدا من السمات الغربية ، حتى ان الرحالة هاملتون Hamilton الخبير فى هذه الشئون قد تعرف بيقين أحدها على الطراز الاسلامى ، ويقول ان الطراز الظاهر فى المبانى الأخرى قد يكون بيزنطيا أو جنويا (٥٣٦) .

وحين نعلم أن أتراك آسيا الصغرى كانوا يصفون بسهولة كل بناء قديم بدرجة ما بأنه جنوى ، فانا لا نعلق أية أهمية على القصص الشعبى فى هذا الخصوص . ومع ذلك فانه لاثبات أن الطريق التجارى فى العصور

---

(٥٣٤) Ramus, II, p. 4, b.

(٥٣٥) James Brant, Journey through a part of Armenia and Asia Minor, dans le Journ. of the geographical Society, VI (1836), p. 188. Hamilton, op. cit., I, 177.

(٥٣٦) Op. cit. I, 175-177. M. Karl Ritter (Erdk, X, 391).

الوسطى بقى كما كان حتى وقتنا الحاضر لا ضرورة لاجراء ذلك عن طريق الآثار ، لأن التماثل بين الطريقين لم يزل قائما • فالقوافل الخارجة من طربزون تصل الى أرضروم عن طريق بايبورت بمسيرة تستغرق سبعة أو ثمانية أيام ، ومن هناك تتبع نفس خط السير الذى تتبعه القوافل الخارجة من آياس ، وتستفيد مثلها من الاجراءات التى يتخذها الخانات التتار للمحافظة على أمن الطرق • وكانت الرسوم الواجب دفعها للمخافر القائمة على طول الطريق أقل بالتأكيد من تكاليف بناء القلاع عند المآوى الرئيسية على مراحل الطريق ، وترميم هذه القلاع ، والصرف على حامياتها •

لقد فرغنا من الحديث عن الطرق التجارية فى فارس ، فاذا أردنا الآن أن نبحث عن الأمم التى ينتمى اليها المسافرون الذين كانوا يستعملون هذه الطرق ، نصادف فى مقدمتهم البنادقة والجنويين •

ويبدو أن أول قرار عام صدر من أحد خانات المغول من أسرة هولاكو لصالح البنادقة كان مرسوما سلمه رسول من « العاهل التتارى » الى دوج البندقية ، نصه الأصلى بلغة تتارية ، وترجم الى اللاتينية • ولسوء الحظ ضاع النص الأصلى ، أما الترجمة فتثبت تاريخ الوثيقة . وهو أول شهر نوفمبر عام ١٣٠٦ ، وتبدأ بهذه الكلمات :

Verbum Çuci (Var. : Zuci) Soldani duci Venetiarum (٥٣٧)

وهنا يبرز سؤال ، ألا وهو : هل كان يوجد فى احدى ممالك التتار فى ذلك العصر ملك يحمل اسم جوجى Djoudji أو اسما شبيها به ؟ كان الخان الأكبر المقيم فى الصين هو تيمور Timour حفيد قبلاى الأكبر (١٢٩٤ — ١٣٠٧) ، أما خان مملكة أوجوتاى Ogotai فكان يدعى تشابار Tchapar (١٣٠١ — ١٣٠٩ ؟) ، وخان مملكة تشاجاتاى Tchagati اسمه دوا Doua (توفى عام ١٣٠٧) ، وكان ملك كبتشاك Kiptchak هو توكتاى Toktai (١٢٩١ — ١٣١٣) • وكان أولجاتيو Oldjaitou (١٣٠٤ — ١٣١٦) يحكم فى فارس (٥٣٨) •

ولم يكن أى من هذه الأسماء ينطق لفظة تشوسى Çuci ، ومع

---

(٥٣٧) Taf. et Thom., IV, 47 (Commem. reg., I, p. 66, no 289).

(٥٣٨) يذكر اولجاتيو فى خطاب لفيليب الجميل اسماء الخانات من سلالة جنكيز خان الذين حكموا معه فى عهده ، انظر :

d'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 483;
Hammer Gesch. der Ilchane, II. 144 et s., 183

ذلك نجد فى هذا الشكل اسم ملك تتارى ، وهذا أمر لا شك فيه ، لأن تاريخ الوثيقة مدون تبعا لدورة الحيوانات لدى التتار ، فكان ذلك هو عام الثعبان · ولننظر عما اذا كان اسم الاله المؤرخ به الوثيقة لايقترب بنا من الحل · يقول النص Facta in Mugantis ، ولابد لنا أن نرى فى هذا الاسم غالبا مقاطعة موجان جنوبى نهر كوز (٥٣٩) ، وهو اقليم تابع لخانات يفضلون الاقامة به (٥٤٠) · وهناك ارخ خطاب أولجايتو الى فيليب « الجميـــل » Philippe le Bel ملك فرنسا ، الذى ســبق الاشارة اليه (٥٤١) · وقد حرر هذا الخطاب فى السنة نفسها التى صدر فيها الامتياز الممنوح الى البنادقة ، والذى نحاول أن نعرف مانحه · ومن ثم فليس ببعيد الافتراض بأن السلطان تشوس ، وأولجايتو ليسا الا شخصا واحدا ·

وثمة معلومة تؤيد هذا الافتراض : ذلك هو لقب هذا السلطان الذى لا نراه فى أية جهة أخرى ملحقا باسم خان مغولى ، فقد اتخذ أولجايتو هذا اللقب حين اعتنق الاسلام (٥٤٢) · ومع ذلك هناك فرق كبير بين اسمى تشوس وأولجايتو ، فلابد اذن من شىء أقوى يؤيد افتراضنا هذا ، أجده فى الحدث الآتى : ذلك أن الرسـول الذى سلم الدوج خطـاب السلطان كان مكلفا كذلك بأن يحمل الى مواطن بندقى اسمه بييترو رودلفــو Pietro Rodulfo من طرف شخص يدعى خوجة عبد الله Khodja Abdallah اقرارا مكتوبا بلغة تتارية ، يتنازل فيه صاحبه عن أية ترضية (أو تعويض) عن ضرر سببه له بييترو هذا ، ويعد بألا يحمل أى بندقى آخر مسئولية مثل هذا الضرر ، ويؤيد هذا الوعد شاهدان من الغرب ، هما بالدوكشيو بوفيتــو Balduccio Buffeto (Buffero ?) وتومازو أوجى دى ســينا (دى سيين) Tomazo Ugi de Sena (de Sienne) ، وهما يقيمان بالتأكيد فى المكان الذى يقطن فيه عبد الله : ووقع الاثنان بامضائهما بالايطالية ،

---

(٥٣٩) بالأصح : مقاطعة موجان Moghan الواقعـــة فى المثلث المكون من بحر قزوين ، والمجرى السفلى لنهر أراكس ، والمجرى السفلى لنهر كور · انظر أبو الفدا ، (Géogr., II, 2, p. 153 et s.) ...

d'Ohsson, Des peuples du caucase, p. 156; Dorn, Caspia, dans les Mem. de l'Acad. de St Pétersb,. 7e série XXIII (1875).

(٥٤٠) Abel Rémusat, Second mém. sur les relat, polit des princes chrétiens avec les empereurs mongosl, Mém de l'Acad des Inser., VII (1824), p. 372, 398; Hammer, Gesch., der Ilchane, II, 184.

(٥٤١) Abel Rémusat, l.c, p. 438; M. Polo, éd. Pauthier, II, 781..

(٥٤٢) D'Ohsson, l.c., IV, 480, 486.

ويحدد الثاني حالته بهذه الكلمات Alduci (Ilduci) del Soldano» (٥٤٣)

ولكنا نعـــلم أن أولجايتـو قد أوفد فى عام ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ عامله يولدوتشي iulduci (حامل الســـيف Jouldouchi) واسمه توماســـو Tomaso حاملا رسائل الى فيليب الجميل ملك فرنسا ، وادوارد الثاني ملك انجلترا ، والبـــابا كليمنت الخامس يلتمس تحالفهم معه ضـــد مصر (٥٤٤) • والواضح أن توماس شاهد عبد الله ، وتوماس حامل رسائل السلطان ليسا الا شخصا واحدا ، كذلك فان سيد أحدهما وسيد الآخر لابد أن يكونا كذلك شخصا واحدا • بعبارة أخرى أن مانح الامتياز للبنادقة هو أولجايتو • وفى هذا الامتياز ، ذكر صراحة أنه منذ زمن بعيد كان من عادة التجار البنادقة أن يترددوا على فارس ، وكان محظورا مضايقة أى منهم بدعوى أن واحدا من مواطنيه ترك ديونا عليه فى البلد ، أو آذى أى واحد من السكان • ونرى أن اقرار عبد الله انما هو نتيجة مباشرة لهذا المرسوم • وختاما لهذه النقطة لا يبقى علينا سوى أن نصحح التاريخ الوارد بهـــذه الوثيقة فى النسخة التى وصلت الى أيدينا • ذلك أن « سنة الثعبان » فى التقويم التتارى الذى تتكون دورته من اثنتى عشرة سنة لا تقـــابل عام ١٣٠٦ من التاريخ الميلادى ، وهو الرقم المبين بالترجمة اللاتينية ، ولكنها تقابل عام ١٣٠٥ (٥٤٥) •

ويمكن التسليم بأن توماس أوجى (من ســـيينا) الحارس الخاص لأولجايتو قد أدى مهمته فى رحلة واحدة ، وسلم الرسائل المكلف بتسليمها الى مختلف الأمراء على التوالى ، والخطاب الذى حرره سيده الى الدوج ، واقرار عبد الله الموقع عليه منه • حقا ان هذه الوثائق المختلفة تحمـــل تواريخ متباعدة بعضها عن بعض : ١٣ ـ ١٤ مايو ، ١٣ سبتمبر ، أوائل نوفمبر ١٣٠٥ ، ولكن يمكن القول أيضا بأن توماسو مكث فى فارس الى ما بعد تحرير الوثيقة الأخيرة • ذلك لأننا لا نتحقق من وصوله الى بلاط روما الا فى أوائل شهر مارس عام ١٣٠٦ ، والى بلاط انجلترا بعد ذلك ،

---

(٥٤٣) Taf. et Thom., méa.; regeste du premier volume des Commemoriali, p. 54, no 252.

(٥٤٤) Abel Rémusat l.c., p. 398-401, 437.

(٥٤٥) Abel Rémusat, l.c., p. 397; Adeler, Zeitrechnungen von Chata und Jgur, Abh. der hist .phil. Cl. der Berl. Akad., 1;re part. p. 270 et ss.; Zeitrechnung der Chinesen, dans la même publication, année 1837, p. 203, 276 et ss.

في ٧ من يوليه من السنة نفسها (٥٤٦) .

وتسجل مهمة توماسو أوجى (ورفيقــه ، وهو رجــل شرقي يدعى مملاك Mamalak) بداية العلاقات الدبلوماسية بين امبراطورية التتار الغربية والبندقية . ومن تلك الآونة بدأ مجلس الشيوخ يوجه أنظاره ناحية فارس ، ويبدو أن موضوع المفاوضات الأولى كان ايفاد سفارة الى هــــذا البلد (٥٤٧) . وقبل ميشيل دولفينو في عام ١٣٢٠ هذه المهمة ، وكان عليه أن يختار بين الطريقين اللذين وصفناهما .

وثمة معلومة تدلنا على الطريق الذى اتخذه : ذلك أن البايل البندقي في طربزون ، جيوفاني سانوتو سلمه عند مروره بتلك المدينة مبـــلغ خمسين « ليبرا جروسورم libroe grossorum (٥٤٨) ، وأســفرت هذه المهمة عن معاهدة في حوزتنا نصها ، ولكنها ظلت زمنا طويلا تعتبر معاهدة بين البندقية وتونس ، وذلك بسبب خطأ في القراءة ، فبدلا من كلمـــة طوريسيوم Tuisium (Tauris) (طورس) الوجودة في عنوان المعاهدة ، قرئت تونيسيوم (تونيس) Tunisium (٥٤٩) ، ولا يوجد في النص نفسه شيء يبرر هذا الخلط (٥٥٠) .

وكان الأمير الذى تفاوضت معه البندقية يطلق على نفســـه لقب « امبراطور مونسيت imprator Monsait » ، وفي ذاك العصر كان ملك تونس أميرا من أسرة « الحفصيين » اسمه « أبو يحيى أبو بكر » ، ولا يمكن أبدا أن تنطبق صفة الامبراطور أو اسم مونسيت على هذه الشخصية ، وبعكس ذلك ينطبــق كل مــن الاســم واللقب على أبو ســـيد خـــان Abou-Said-Khan (١٣١٦ ـ ١٣٣٦) الذى كان يحكم آنئذ فارس ، ونجد

---

(٥٤٦) Abel Rémusat, l.c. p. 399-401.

ـ عالجت هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل في المقال :

Contributions à l'histoire du commerce du Levant au XIV siècle.

(٥٤٧) Berchet, La republica di Venezia e la Persia, Nuovi documenti regesti Venise 1866 (extr. de la Raccolta Veneta, T. I.), p. 36; l'archiv. Venet XVII, 136, XVIII, 327, 330.

(٥٤٨) Taf. et Thom., IV, 171.

(٥٤٩) Marin, Storia del commercio del Veneziani, IV, 288; Taf. et Thom., Der Doge Andrea Dandolo, p, 137.

(٥٥٠) أثبت ذلك في مؤلفي :

Colonie commerciali degli Italiani in Oriente nel medio evo. II (1868), p. 82.

اسمه أحيانا فى مؤلفات الكتاب الشرقيين ، وعلى النقود فى شكل «بوسيد» Bou-Said (٥٥١) ، ويحرف الكتاب الغربيون هذا الاسم فيجعلونه «بوساى» Boussay (٥٥٢) أو Bousaid Khan ، أو Bosseichan ، أو موسيد (٥٥٣) Mussayd ، أو بونسيت (٥٥٤) Bonsait ، أو بونسايت Bonsaet (٥٥٥) ، وليس هناك بين هذه التحولات وبين اسم مونسيت Monsait الا فروق خفيفة .

وفى المعاهدة المشار اليها يطالب السفير باعادة الأموال التى تركها أحد الرعايا البنادقة واسمه فرنشسكو داكاناليه Francesco da Canale المتوفى فى أرسنجا Arsenga ، واغتصبها دون حق شخص يدعى بدر الدين لولو Badradin Loulo . **ارسنجا هى بالطبع ارزنجيان ، أما بدر الدين لؤلؤ فهو اسم شخصية فارسية كبيرة كانت تلعب فى ذاك العصر بالذات دورا كبيرا** (٥٥٦) . ونجد أخيرا فى سجلات Misti فى السنوات ١٣٢٦ ــ ١٣٢٨ أن سفيرا ثانيا موفدا الى طورس كان مكلفا ببحث قضية فرنشسكو دى كاناليه (٥٥٧) .

والعجيب أن النص لا يذكر المكان الذى دون به ، ولكنا نملك قدرا كافيا من الدلائل التى تملأ هذا الفراغ وتسجل اسم صورس . فالعنوان المدون على رأس المعاهدة فى Liber pactorum (٥٥٨) بالبندقية أحدث عهدا من عنوان النص نفسه ، وهذا العنوان هو Pactum Turisii وعندى نسخة طبق الأصل ، تفضل الاستاذ مولر مشكورا فزودنى بها . وقد أخطأ البنيه ماس لاترى Mas Latrie عند نشره هذه الوثيقة فى ال Liber Pactum فقرأ Pactum Tunisii غير أن الأسماء ليست هى الدلائل الوحيدة التى تفصل فى هذه المسألة لصالح طورس بدلا من تونس . ذلك أننا نصادف هنا وهناك فى النص أسماء موظفين من كل

---

(٥٥١) D'Ohsson, IV, 716 et s.

(٥٥٢) Livre de l'estat du grant Caan, p. 59, 65.

(٥٥٣) Arch. de l'Or. lat., I, 268 270.

(٥٥٤) Arch. Venet, XVII, 270 XXVII, 95.

(٥٥٥) Pegol., p. 9.

(٥٥٦) Hammer, Gesch der Ilchane, II, 277, 281.

(٥٥٧) Archiv. Venet., XVIII, 333.

(٥٥٨) Lib. IV, fol. 84.

نوع ، وأسماء ضرائب يدل شكلها التركى المغولى بصورة لا تقبل الجدل على أن المعاهدة لا يمكن أن تكون قد أبرمت الا فى بلد تتارى ٠

ونذكر فيما يلى بعض هذه الأسماء : شيركوشى Cerchuçi أو يارجوتشى Yargoutchi ، وهو قاض (٥٥٩) ، وثيلماشى Thilmaci ترجمان (٥٦٠) ، وتاتولى tatuli (٥٦١) ، وشارولى Charauli (٥٦٢) من حراس الطرق ، والشرطة ، وتامجاسى ، جابى الضرائب ورسوم الجمارك (٥٦٣) ، وتاموجا tamoga ، ضريبة (وبالأصح : الختم ، والدمغة) (٥٦٤) وتولاسو Taulaço (تامتولاسو tamtaulaço) ، وهو رسم يجبى لحماية المسافرين فى الطرق الكبرى (٥٦٥) ٠

ويصر السيد ماس لاترى أخيرا بحق على أن كل ما فى الوثيقة (الدبلوم) يدل على أن البلد المقصود واقع فى داخل القارة (٥٦٦) ٠ وباختصار فان كل شىء يثبت أن أبو سعيد خان هو محرر الوثيقة ، وفى وسعنا أن نلخصها فى بضعة سطور (٥٦٧) ٠ فالبنادقة سوف يتمتعون بالحرية المطلقة فى التنقل فى كل أنحاء ولايات الخان ، ولهم أن يتوقفوا حيثما شاءوا ، وأن يرعوا ماشيتهم ثلاثة أيام فى كل موقع ، ولا يحصل منهم ، أو من خدمهم وتراجمتهم أية ضريبة خلاف الرسوم الجمركية ، والرسم الخاص بحراس الطرق ، ولا يقتضى منهم أكثر من الرسوم والضرائب القانونية ، ويكون سعر الرسوم والضرائب مستقبلا هو نفس سعرها يوم ابرام المعاهدة ، ولا تحصل الا فى النزل القائمة عند المحاط المعتادة ٠

وللبنادقة الحق فى أن يطلبوا من حراس الطرق مرافقتهم لحمايتهم ، فان رفض واحد منهم هذا الطلب فعليه تقع مسئولية ما قد يحدث للطالب

---

(٥٥٩) ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ١١ فى رشيد الدين ، (الناشر كاترير ص ١٢٢) ؛
Brosset, Addit et éclairciss. à l'hist. de la Géorgie, p. 439.

(٥٦٠) Pegol., p. xxiii.

(٥٦١) V. plus haut.

(٥٦٢) Hammer, Gesch. der Ilchane, I, 38; II, 189.

(٥٦٣) Ibid. I, 278, 364.

(٥٦٤) Vambéry, Uigurische Sprachmonumente, p. 232 ; Hammer, op. cit., II, 172; Pegol., p. xx.

(٥٦٥) Voy plus haut.

(٥٦٦) l.c., p. 74 et ss. 83, et s.

(٥٦٧) Texte publié par M. de Mas Latrie, l.c., p. 95-102, et dans Taf. et Thom., IV, 173 et ss.

من أضرار نتيجة لرفضه . وفى الحالة التى ينهب فيها أو يسرق أحـــد البنادقة وهو سائر فى طريقه ، تلتزم الســـلطات ، وحراس الطرق ، وسكان الناحية أو المنطقة بالعثور على الأشياء المسروقة ، والا التزموا بدفع تعويض عنها . وبناء على طلب القنصل البندقى يجب على رئيس المنطقة أن يقدم المعونة والمساعدة للبنادقة وقوافلهم ، ولا يجوز بالمرة القبض على حاملى بريدهم أو قائدى قوافلهم بأية ذريعة كانت . ولا يجوز اعتقال اى شخص من رعايا البندقية لجريمة ارتكبها أو دين تركه واحد من مواطنيه . فكل انسان مسئول عن أفعاله وديونه الشخصية ، ومن واجب السلطات أن تكون فى عون البنادقة ، وتلزم المدينين بالسداد .

واذا توفى أحد البنادقة ، لا يجوز لأى شخص خلاف القنصل أن يمس الأشياء التى كان يملكها المتوفى . واذا رفع بندقى شكواه الى محكمة فارسية ، فالقضية ينظرها قاض من أعلى درجة . وفى القضايا المدنية والجنائية بين « الفرنجة » (البنادقة) ، يخضع الأطراف لقنصلهم فقط . وأخيرا ، وهذا امتياز بالغ الأهمية ، يصرح للرهبان اللاتينيين الذين يتولون الوظائف الكهنوتية حيال التجار البنادقة ، أن ينشئوا بعثات دينية فى النواحى التى يختارونها فى الاقليم . ونحن نعلم من قبل أن ميشيل دولفينو لم يكن أول بندقى يسافر من البندقية الى فارس ، فالتجارة بين البلدين كانت تمارس منذ زمن بعيد .

وتبين لنا من قبل أن البنادقة ظهروا فى طورس (تبريز) فى زمن مبكر ، ولا فائدة أن تكرر هنا ما سبق أن قلناه فى هذا الخصوص . وفى حوالى عـــام ١٣٠٢ لم تكن الرحلة من البندقيـــة الى طورس عن طريق طربزون تبدو فى عين أى انسان أمرا غير عادى (٥٦٨) : وكان البنادقة يملكون ثمة عددا من الوكالات التجارية ، لذلك كان لهم هناك قنصلهم ورئيس رجاليتهم Maçor كما تذكره المعاهدة التى حللناها آنفــــا . وتلقت المستوطنة بعد قليل لوائح ادارية عهد بتطبيقها الى هذا القنصل وملحقيه (مستشاريه) الأربعة (٥٦٩) الأربعة ، وأول اسم عرف من أسماء هؤلاء القناصل هو ماركو دى مولينو Marco de Molino . وفى ٦ من يونيه عام ١٣٢٤ كتب ماركو لدوج البندقية خطابا وصـــف فيه حالة المستوطنة بأنها غير طيبة : فقد حظر على البنادقة ، لصالحهم أن يتاجروا مع أحد من المسلمين .

---

(٥٦٨) Arch. Venet., XVIII, 268. XXVII, 94.

(٥٦٩) Ibid. XVIII, 331; XVII, 270.

ورغم هذا الحظر اتصل شخص يدعى فرانشسكو كويرينى Francesco Quirini واثنان من مواطنيه بهذا المسلم ليبتاعوا منه شيئا من التوابل ، وترتب على هذه المخالفة وقوع نزاع بين كويرينى وأربعة من مواطنيه فى خان للقوافل يقال له delle telle ، وضرب كويرينى حتى سالت دماؤه . واذ أراد أن يثار لنفسه مضى يشكو أمره الى أم الخان ، وتوصل بأقواله ، وبما وزعه من أموال على حاشية الأميرة الى القبض على خصومه وسجنهم ، ولم يستطع القنصل أن يخلى سبيلهم الا بعد أن دفعوا مبلغا قدره ٢٧٠ دينارا بيزنطيا . وهكذا ففى هذه القضية ، رأينا بنادقة يستخدمون العنف ضد واحد من مواطنيهم حتى ينالوا حقهم بأيديهم ، كما رأينا هذا المواطن يشترك مع بعض الأجانب ليأخذ بثأره .

ولما لم يكن هذا بكاف ، فان الجالية وجدت نفسها مضطرة لدفع ٥٠٠٠ دينار بيزنطى لسداد ديوان أحد وكلاء بيت ماركو دافانز Marco Davanzo . هذه الأحوال السيئة مجتمعة ولدت فى نفس القنصل هواجس مؤلمة بالنسبة الى المستقبل ، ومن ثم وصف طورس بأنها مكان غير أمين ، ولعل من الأفضل الخروج منها ، اللهم الا اذا اتخذ الدوج بعض الاجراءات التى يتسنى له أن يعرف مدى ملاءمتها بسؤال التجار الذين يعرفون حقيقة أمرها (٥٧٠) .

وفى عام ١٣٢٨ أوفدت حكومة البندقية ماركو كورنارو الى طورس (تبريز) لمعالجة عيوب التنظيم التى أحيطت علما بها ، وتسوية الديون التى سجن التجار البنادقة بسببها . وهناك قبض على ماركو كورنارو ، ولم يعرف شىء عن نتيجة مهمته .

ولم تتغلب المستوطنة على ما تعانيه من متاعب مالية . فثمة أحد سكان طورس (تبريز) ، ويدعى حاجى سليمان طايبى Hadji Soliman Taibi طالب المستوطنة بتعويض قدره ٤٠٠٠ دينار بيزنطى ، ونجح فى استصدار حكم ، عليها بالسداد ، وكان لابد من التصريح له بأن يفرض على كل بندقى يصل الى المدينة أو يخرج منها أن يدفع ضريبة قدرها أربعة دنانير بيزنطية عن كل دابة حتى يتم سداد الدين كله . حقا انه لسبب أو لآخر ، كان يستقطع من الأربعة الدنانير التى يحصل عليها طايبى هذا

---

(٥٧٠) Taf. et Thom., IV. 192 et ss.

(٥٧١) توجد مذكرات كثيرة بخصوص هذه السفارة فى :
— Misti (Arch. Venet., XVIII, 332-335, 338.
— يتبين وجود كورنارو فى طورس عام ١٣٢٨ فى فقرة من :
Commem. reg., II, p. 26, no. 155.

مبلغ قدره ثلاثة اسبرات aspres لصالح اثنين من البنـــادقة من بيت سانوتو Sanuto ، الا أن هذا لم يكن من شـأنه أن يخفف من عبء الضريبة الملقى على عاتق الجالية (٥٧٢) .

وفي الوقت نفسه رخص مجلس شيوخ البندقية لبايل طربزون أن يفرض على كل تاجر من مواطنيه عند سفره الى طورس (تبريز) رسما قدره « آسبر » واحد عن كل دابة ، وتشكل حصيلة هذه الضريبة ايرادا لصالح ترجمان يدعى أفاشي Avachi يبدو أنه أدى بعض الخـــدمات البندقية لم يغرب عن بالها أبد سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن التجارة ، يثرى أحد الأجانب ، ولكن كان هناك بلا شك صلة بين هذه الضريبة والضريبة الاخرى ، ذلك لأن أفاشي هذا كان أيضا اسم الترجمان حاجي طايبى .

وبعد وفاة أبو سعيد خان (١٣٣٦) ، حـــدث توقف في الحركة التجارية بين البندقية وفارس ، وكانت الأعباء الضريبية على التجارة أقل أثرا في هذا التوقف من تزايد الأخطار الأمنية في الطريق .

وقد انقسمت خانات فارس الى امارات مستقلة ، وكان أمراؤها في حروب مستمرة مع بعضهم بعضا ، ومن ثم عجزوا عن القضاء على الفوضى التي عمت ولاياتهم . ورغم الصعوبات التي شاعت في هذه الأزمنة ، فان البندقية لم يغرب عن بالها أبد سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن بعثة فارسية موفدة من قبل الأمير أشرف الجوباني prince djoubanien Echref ماضية في طريقها الى جنوا ، ومن ثم أرسلت البندقية للحال الى ماركو فوسكاريني بايل القسطنطينية أمرا بأن يتصل بهذه البعثة ويتفاوض معها لصالح التجارة بين البندقية وفارس (٥٧٤) .

ومن المشكوك فيه أن يكون هذا المسعى قد أدى الى نتيجة ما . على أن الفرس كانوا أيضا راغبين في استعادة العلاقات التجارية القديمة . وفي حوزتنا خطابان موجهان الى بايل طربزون ، وبنادقة هذه المدينة من قبل السلطان أوفيس Oveis الذى كان يحكم طورس (تبريز) واذربيجان من ١٣٥٧ الى ١٣٧٤ (٥٧٥) يدعو فيهما التجار البنادقة بالحاح

(٥٧٢) Taf et Thom., IV, 222 et s.

(٥٧٣) Décret du Sénat, du 16 juin 1332, dans Marin, IV, 172.

(٥٧٤) Taf. et Thom., IV, 276 et s.

(٥٧٥) D'Ohson, Hist des Mongols, IV, 742 et ss; Rampoldi, Annal. musulm., X, 82, 90, 94, 96, 104 et s., 160; Herbelot, Biblioth. orient., s.v. Avis.

للعودة الى طورس كما كانت حالهم فى عهد أبو سعيد . ويضمن لهم خلو الطرق من كل المخاطر ، وأنه يدخر وسعا فى حفظ الأمن بهـا ، ويعد التجار بأنهم سـوف يلقون فى فارس أحسن اسـتقبال ، ويدفعون بها ضرائب أقل مما كانوا يدفعونه من قبل .

وفى رد تجار طربزون على الرسالة الأولى ، نرى أنهم ضعيفو الثقة ومتحفظون ، ويقولون انه منذ عامين وصل الى طربزون تجار فى اسطول يضم سفنا كثيرة ، وانتظروا هناك فتح طرق المواصلات ، وقبل أن يخاطروا بسلوك هذه الطرق أرادوا أن يشهدوا وصول قافلة كبيرة قادمة من طورس (تبريز) ، دلالة على زوال كل خطر فى هـذا الطريق ، ومن ثم يقبلون الانضمام الى هذه القافلة حين تواصل سيرها الى وطنها . والواقع أنهم كان لديهم بواعث كثيرة لأن يكونوا على حذر . وثمة تجار بنادقة أكثر جراءة ، خاطروا بالرحيل فرادى ، فكانوا ضـحية السلب والنهب فى الطريق ، وقبض الخان على اللصوص ، وعاقبهم ، ووعد بتعويض الضحايا ، ولكن لم يكن أحد يثق كثيرا بوعوده (٥٧٦) .

واعتبـارا من تلك الآونة ، وطوال الفترة التى نتولى دراستهـا ، لا نجد أثرا لمرور بنادقة على الطريق من طربزون الى طورس (تبريز) ونعود الآن الى الجنويين ، ونتتبع تطور علاقاتهم التجارية بفارس فيما بعد رحلة ماركوبولو . ففى هذه الأثناء أنشأوا قنصلية فى طورس . واقتصادا فى الانفاق جعلوا الموظف المعين فى هذا المنصب يشغل وظيفته لستة أشهر بدلا من ثلاثة كما هو الحال فى سائر القنصليات . ويساعد القنصل فى أداء مهمته مجلس يضم أربعة وعشرين عضوا ، ويكفى حضور اثنى عشر أو ستة عشر عضوا لتكون المداولة صحيحة .

وكان الى جانب القنصل أيضا محكمة تجارية يتجدد أعضاؤها كل أربعـة شهور . وتمتد سلطة القنصـل ومجلسـه فتشمل كل المواطنين الجنويين المقيمين فى فارس بصفة مؤقتة أو دائمـة ، ذلك لأن طورس (تبريز) لم تكن المدينة الوحيدة التى تجذبهم اليها ، فقد كانت هناك جالية من التجار فى سلطانية ، ومدن غيرها تزورها قوافلهم على الأقل ، وكانت هذه القوافل على ما يبدو فى حركة دائمة بين طربزون وطورس (تبريز) ، وبالعكس . ولما كان من المحتمل أن يستغل سائقو الدواب التجار ، فقد كلفت السلطات الجنوية الاستعمارية فى طربزون وطورس

(٥٧٦) Commem. reg., III, p. 81, no 495; p. 86, no. 522; p .111, no 719.

(تبريز) بعض الأشخاص الذين يعرفون البلد معرفة تامة باستئجار دواب النقل وتوزيعها على القوافل ·

ومن جهة أخرى ، تدل المراسيم الصادرة من حكومة جمهورية جنوا على اهتمام دائم بالحفاظ على هيبة الدولة فى فارس ومنع وقوع أية منازعات ، ومن ثم حظرت قبول أى أجانب (باستثناء البنادقة واليونانيين ، والمقصود بالأجانب هم أهالى طربزون) فى القوافل أو البيوت الجنوية ، كما صدرت لائحة تنص على أنه بالنسبة إلى ما يشتريه كل جنوى فى فارس ، لا يجوز أن تزيد مدة الاستحقاق على أربعة شهور ، كما لا يجوز السماح بهذه المدة الا بتصريح من القنصل والمجلس اللذين يتعين عليهما أن يستوثقا من يسار المشترى قبل أن يوافقا على طلب المهلة (٥٧٧) ·

ورغم الاحتياطات التى اتخذت لتدراك أية تعقيدات ، فقد كان من العسير ، دون التعرض لأية صدمات اجتياز العاصفة التى هبت فى أعقاب وفاة أبو سـعيد وانتهت بتفكك امبراطـورية الخانات · وكان اقليم اذربيجان ، وعاصـمته طورس (تبريز) من نصيب الأمير الجوبانى « حسن الصغير » وخلفه أخوه أشرف ، وهو طاغية لادين له ولا خلق · ويتحدث المؤرخ الجنوى ستيللا Stella عن هذا العاهل الذى فرض سلطانه فى عام ١٣٤٤ على طورس والاقليم المجاور (٥٧٨) ، فيسجل له — دون أن يذكر اسمه أنه أوفد فى هذا العام سفيرا حمله خطابا موجهاً الى الدوج ، وكومون جنوا ، يؤكد رغبته فى أن يعيش فى سلام مع الجنويين ، ويتعهد بأن يعيد اليهم كل ما كان قد سلب منهم · ويضيف المؤرخ أن الجنويين صدقوا هذه الوعود ، ضعفا منهم — ولكن الأمير أعد كمينا للتجار الذين وثقوا بكلامه فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، واسـتولى على بضائع قيمتها ٢٠٠٠٠٠ بالعملة الجنوية libroe grossorum

هذه الوثيقة لا يمكن أن تنسب لغير أشرف ، فهو الذى كان يحكم طورس (تبريز) فى التاريخ الذى ذكره ستيللا ، وكان مكروها من رعيته لطبيعته القاسية الخبيثة (٥٧٩) · وكان لزاما على الجنويين الا يعرضوا أنفسهم لمفاجئات من هذا النوع ·

ولما كانت طورس (تبريز) فى تلك الآونة قد حوصرت وسقطت

(٥٧٧) Ordinacio Tourixii, dans l'Off. Gaz., p. 348-350, et les deux paragraphes précédents, p. 347 et s.

(٥٧٨) Giustiniani (Annali di Genova, fol. 131).

(٥٧٩) Voyez la relation de Stella, p. 1081, et le portrait d'Echref dans Hammer, Gesch. de Ilchane, II, 337 et ss.

لمدة مرات ، فانهم قرروا أن يبحثوا خارج هذه المدينة عن موقع حصين نوع ما يهيىء لهم ملجأ يأوى أشخاصهم وبضائعهم فى حالة الخطر . يحكى كلافيجو Clavijo أن اختيارهم وقع على مرتفع كائن على بعد رسخ من طورس ، وأنهم اعتزموا تشييد قلعة فوق هذا المرتفع ، واشتروا بالفعل هذه الأرض من أمير البلد ، واسمه سلطان فايس Soltanvays لكن هذا الأمير رفض طلبهم بدعوى أنه لا ينبغى للتجار أن يشيدوا قلعة . ويمكن بسهولة أن نتعرف فى هذا الاسم على السلطان أوفيس Ovéis الذى سبق الحديث عنه . وبعد وفاته بقليل اكتسحت عشائر تيمور لنك فارس ، وتحت موجاتهم الطاغية اختفى لزمن طويل كل أثر للمستوطنة التجارية الجنوية ، والغربية بوجه عام .

يتبين لنا من ذلك ، فى كل ما يختص بعلاقات الأمم التجارية الغربية بفارس فى هذه الحقبة أن ما تعلمه عنها قليل جدا . وبقدر علمنا ، لم يبق من هذا العصر سوى امتيازين ، بحيث أن قدرا كبيرا من الأسئلة الهامة ، وبخاصة ما يتصل منها بوضع التجار الأوروبيين فى امبراطورية التتار بقيت حتما دون حل . هناك مع ذلك نقطة يزودنا بشأنها بيجولوتى بكل الايضاحات المرغوبة : تلك هى الرسوم الجمركية ، أو « التمغة » Tamgha (Tamogha) باللغة التركية التترية (٥٨٠) : وهذا ما يقوله (٥٨١) : « بالنسبة الى الأشياء المبيعة أو المشتراه بوزن البلد تدفع خمسة دنانير بيزنطية (الدينار البيزنطى = peso de Torissi) ٦ أسبر aspres) مع خصم نصف أسبر عن كل قنطار . وفيما يختص بالجوخ والنسيج الكتانى والفراء والشملات والقصدير ، وبعامة الأشياء التى تباع بكميات قليلة ، وبالقياس تدفع أربعة دنانير بيزنطية الا ثلث دينار عن كل قنطار . أما الفضة واللآلىء فانها معفاة بالكامل من رسوم الدخول والخروج .

ولابد أن خفض هذه الرسوم ، وبخاصة اذا قوبلت بما كان يحصل منها فى مصر ، والهمة التى تبذلها الحكومة فى المحافظة على الأمن فى الطرق ، طالما كانت أسرة هولاكو تتربع على العرش (٥٨٢) ، وأخيرا حرية

---

(٥٨٠) «Tamunga» Pegol., p. xx, «tamenga«, p. 9, “Camunoca», p. 8 et s.

(٥٨١) P. 8, 9.

(٥٨٢) ماركو بولو ، ص ٦٩ ، ينوه بالخدمات التى تقدمها الحكومة المنغولية للتجارة ، باهتمامها بالقضاء على لصوص الطرقات ، حتى لا يعانى المسافرون من أعمالهم الاجرامية ، ومع ذلك فهو ينصح التجار أن يتزودوا بالأسلحة ليدافعوا بها عن أنفسهم ضد قطاع الطرق .

النقل التي كان يتمتع بها التجار الأجانب في جميع أنحاء الامبراطورية كل ذلك لابـد أن يكون له تأثير حسن على الغربيين ، ويحث عددا كبيرا منهم على الذهاب الى فارس طلبا للثروة . وثمة بعض المغامرين الغربيين اعتبروا هذا البلد قاعدة للأعمال ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة .

وعلى أية حال لم يتوقف المبشرون في ذلك العصر عند فارس ، فقد مضى الكثير منهم الى الهند والصين ، نذكر منهم يوحنا دى مونتكورفينو Jean de Montecorvino في عام ١٢٩١ ، واودريكو دا بوردينـــوني Oderico da Pordenone في عام ١٣٢٠ . وكان الطريق حرا تماما . وفي حين كان السلاطين تدفعهم روح الارتياب الى عدم السماح لأى أوروبي باجتياز اقليمهم للذهاب الى الهند ، فان ملوك التتار في فارس لم يقيموا أية عراقيل أمام التجار الغربيين الذين يريدون أن يمضوا من بـلادهم لزيارة شبه الجزيرة (الهندية) (٥٨٣) .

وكانت طورس (تبريز) متصلة بساحل الخليج الفارسي بطريق للقوافل يمر بكاشان Kachan ويزد Yezd وكرمان Kerman وفي عصر ماركوبولو (٥٨٤) ، كان الجزء من هـذا الطريق بين كرمان والساحل يرتاده اللصوص قطاع الطرق ، وقد وقع هو نفسه عند عودته من رحلة في ايدى احدى هذه العصابات ، ولم يخلص منها الا بالفرار السريع المفاجيء ، والاحتماء في قلعة مجاورة ، ولم ينج في الطريق سوى سبعة من رفاقه (٥٨٥) . ومع ذلك تحسنت هذه الحال ، غالبا في مستهل القرن الرابع عشر عندما حل محل الأمراء المحليين حكام من المغول (٥٨٦) . وبغض النظر عن الأخطار التي يتعرض لها المسافرون ، كان هذا الجزء من الطريق شديد الوعورة ، اذ يجتاز اقليم كرمان الجبلى القاحل مصدرا لمتاعب شديدة لا نظير لها ، ومن ثم يشعرون حقا بالراحة والغبطة عندما يصلون في النهاية الى السهل ، ويلمحون على بعد الخليج الفارسي وأرمز Ormouz (هرمز) أكبر سوق في تلك المنطقة .

وفي العصر الذي وصلنا اليه الآن ، لم يكن من نوع من الاستثناء أن نصادف اسم مرفأ سيراف Sirâf . ولعل أبو الفدا هو الكاتب الوحيد الذي لم يزل (في القرن الرابع عشر) يتحدث عن سكان هـذا البلـد

---

(٥٨٣) Sanut. Secr. fidel. cruc;. p. 23.

(٥٨٤) M. Polo, p. 79 et ss.; Oderico da Pordenone, p. iii.

(٥٨٥) M. Polo, p. 83 et s.; cf. p. 31.

(٥٨٦) Hammer, Gesch der Ilchane, II, 49.

الكثيرى العدد ، وثرواتهم ، والحركة النشيطة التى تعم ميناءها بدخول السفن اليها وخروجها منها ، والواضح أنه فى هذه الفقرة ينقل ما كتبه مؤلف آخر (٥٨٧) . ومن قبل كانت **جزيرة كيش** (قيس) Kich التى ورثت أهمية سوق سيراف العظيمة ، قد بدأت تنزوى أمام منافس أكثر ازدهارا : ففى تلك الآونة سطع اسم هرمز ببريق طمس كل الأضواء ، واحتفظ بهذا البريق حتى أواخر العصور الوسطى . وفى بداية العصر الحديث ، تظهر هرمز ثانية أعظم من ذى قبل تحت سيادة البرتغاليين .

ولم يكن اسم **هرمز** فى كل الأوقات هو اسم الجزيرة التى تعرف به فى الوقت الحاضر . ففى مستهل العصور الوسطى كانت تسمى **أيرون** Jéroun . ولكن على الساحل المجاور ، وعلى بعد بضعة فراسخ (٥٨٨) ، قامت مدينة باسم هرمز Ormouz ، ما زلنا نرى أطلالها على بعد ستة أو سبعة أميال انجليزية الى الجنوب الغربى من حصن ميناب Minâb (٥٨٩) وكانت هرمز القديمة متصلة بالخليج الفارسى بقناة بحرية لم تزل الى الآن صالحة للملاحة فى قسم منها . ولكنها كانت وقتئذ صالحة لمرور السفن المختلفة الحمولة ، ومن ثم يمكن اعتبارها ميناءا بحريا . وفى القرن العاشر كانت تضم عددا قليلا من السكان ، ويقيم تجارها متفرقين فى ضواحيها ، ومع ذلك كانت أسواقها فى ذلك الحين موضع فخارها ، ومصدر ثروات كبيرة (٥٩٠) .

وفى زمن الادريسى تحدث هذا الرحالة عنها فقال انها مدينة كبيرة وجميلة . وكانت مستودعا لمنتجات كرمان ، نذكر فى مقدمتها السكر ، ونوعا ممتازا من النيلة (٥٩١) . ومن دلائل الخير والفأل الحسن أن تأتى سفن من الهند تنزل بها السلع المرسلة الى كرمان وسجستان

---

(٥٨٧) Aboulf., Géograph., II, 2, p. 96.

(٥٨٨) Ibn-Batouta, II, 230.

يقدر ابن بطوطة هذه المسافة بثلاثة فراسخ ، ويؤيد الكولونيل بيل تقديره هذا .

(٥٨٩) انظر المعلومات التى زود السيد يولى بها الكولونيل بيل Pelly وهو انجليزى مقيم بوشير Bushire (ماركو بولو ، الجزء الأول ، ١٠٥) .

(٥٩٠) الاصطخرى ، ص ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ . ويذكر كوداما Kodama فى معلوماته الاحصائية (المتوفى عام ٩٤٨) أورموز (هرمز) على انها ميناء كيرمان ، انظر :
— Journ. asiat., 5e série, XX, p. 168; de même Aboulféda (trad. Reinand, II, 28).

(٥٩١) الادريسى ، الجزء الأول ، ٤٢٤ .

وخراسان (٥٩٢) . وكانت كيش (قيس) تطمع فى الاحتفاظ باحتكارها التجارة مع الهند ، ولم تستطع أن تشهد دون قلق هرمز وهى تحول لصلحتها جزءا من منتجات هذا البلد ، وكان ذلك يثير المنازعات حتما ، فكان كل من الأميرين اللذين يتبعهما السوقان يريد اجبار قباطنة السفن التجارية على التردد على مينائه وحده دون الميناء الآخر ، فكان نشوب الحرب بينهما أمرا طبيعيا (٥٩٣) .

ويبدو أن هرمز خرجت من الصراع منتصرة ، ذلك لأن ماركوبولو الذى زارها فى عام ١٢٩٢ وصفها بأنها مكان تجارى هام للغاية (٥٩٤) . وكان التجار الهنود يحضرون اليها فى سفنهم توابل ، وأحجارا كريمة ، وأقمشة ثمينة ، وبروكار (ديباج) من ذهب ، وعاجا ، وسلعا أخرى ترسل من هناك الى كل الجهات . وكان تجار هرمز يصدرون بدورهم الى الهند على سفنهم سلعا مختلفة ، وخاصة الخيول (٥٩٥) . وكانت سلطة أمراء هرمز تمتد الى بضعة مواقع على الساحل الشرقى لبلاد العرب ، منها خلاط Khalat وموقع آخر حصين لم يذكر له ماركوبولو اسما ، ولعله مسقط Mascate ، وكانت هذه الممتلكات تتيح لهم فرصا لتوثيق علاقاتهم بالهند . وكانت خلاط تستقبل منتجات واردة من الهند ، وتصدر اليها فى مقابلها خيولا عربية (٥٩٦) .

ورغم هذه المنافسة استمرت كيش طوال القرن الثالث عشر (٥٩٧) تساهم بنصيب كبير فى تجارة الهند . وأصاب كيش المصير الذى أصاب

---

(٥٩٢) ياقوت ، ص ٥٩٥ .

(٥٩٣) ابن الأثير : Ibn-Alathir (éd. Tornberg, XII, 156, 199), cité par M. Defré mery dans ses notes sur le Gulistan de Sadi, p. 178.

– وقد توفى ابن الأثير فى عام ١٢٣٣ قبل أن يشهد توقف الحروب .

(٥٩٤) شمس الدين (ص ٢٣٩) يقول على الأقل أن التجار يقبلون ويلقون مراسيهم فى مينائه

(٥٩٥) M. Polo, p. 85-89, 714 et s.; p. 68, 614, 641 et s.

حين يذكر ماركو بولو (هرمز) فهو يقصد دون شك المدينة القائمة على اليابسة .

(٥٩٦) M. Polo, p. 713; Ibn-Batouta (II, 225) sur Kalhat; les citations d'Ibn—Alathir par M. Defrémery, dans sa traduction du Gulistan de Sadi, p. 74, not.

(٥٩٧) Sanuto, Secr. fidel. cruc., p. 22 :

– يذكر سانوتو أيضا كيش Kich الى جانب مدينة اورموز ، على أنها مستودع لتوابل الهند .

الكثير من جزر الخليج الفارسى وجزءا من سواحل بلاد العرب التى تشكل القسم الجنوبى من الخليج ، فغزاها (١٢٢٩ — ١٢٣٠) أبو بكر بن سعد ، وهو أمير من السلاجقة المرتبطين بالخانات المغول فى فارس بوشائج من تبعية تكاد تكون اسمية ، وحكم اقليم فارس Fars كما حكمها أسلافه بلقب أتابك Atabek (١٢٢٦ — ١٢٦٠) (٥٩٨) . وبعد وفاته ووفاة أبنائه الذين عاشوا بعده قليلا ، عاد اقليم فارس والجزر والساحل العربى الى خانات المغول الذين تولوا ادارته من ذلك الحين عن طريق حكام وملتزمين عموميين fermiers généraux ، منهم جمال الدين ، من شيراز ، الذى لعب دورا بالغ الأهمية من ١٢٩٦ الى ١٣٠٦ ، وضم الى رتبته الروحية « كشيخ للاسلام » رتبة « ملك الاسلام » لأقاليم فارس والعراق (٥٩٩) . ولما كان أبو بكر وبعده جمال الدين يملكان كيش ، فانهما كانا بالضرورة على صلة بالهند ، ووثقا علاقات ببعض أمراء هذا البلد .

ولم تكن الخيول تربى فى غرب الهند ، فكانت تستورد من أنحاء شتى ، من الصين ، والهند الصينية (٦٠٠) ، ومجاورات أزوف (٦٠١) ، وبلاد الترك (٦٠٢) ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان (٦٠٣) ، وبخاصة سواحل وجزر الخليج الفارسى ، والبحرين ، وكيش ، وهرمز . وكان التجار الفرس والعرب يصدرونها بأعداد هائلة ، ويحصلون على أرباح بالحاجات اليها ، ذلك أن أجود الخيول لا تلبث أن تموت هناك ، اما لعدم ضخمة (٦٠٤) . وكان فى المستطاع تصدير أية أعداد منها دون الوفاء تحملها المناخ ، أو لسوء معاملتها (٦٠٥) . ويحكى وصاف Wassaf ، وهو كاتب غزير المعلومات أنه فى عصر أبو بكر ، كان يصدر من الجزر

---

(٥٩٨) Hammer, Gesch. der Ilchane, I, 237 et ss.

(٥٩٩) Hammer, Op. cit., I, 240-244; II, 35, 50 et s., 63 et ss., 102, 197 et ss.

(٦٠٠) M. Polo, p. 395, 429.

(٦٠١) Ibn-Batouta, II, 371-374 .

(٦٠٢) Chehabeddin, p. 178.

(٦٠٣) Ibn-Batouta, III, 374; Chehabeddin, l.c. ; M. Polo, p. 704 . 711, 713.

(٦٠٤) Chehabeddin, p. 178, 184; 184; M. Polo, p. 67-69, 88-614 et s., 641.

(٦٠٥) M. Polo, p. 614 et s; wassaf, dans Elliot, History of India, III, 34.

والسواحل التابعة لولاياته الى مابار Maabar (على ساحل كرماندل Cormandel) وكامبيي Cambaye وجهات أخرى فى الهند عشرة آلاف حصان فى السنة (٦٠٦) • وفيما بعد عقد جمال الدين ، الملتزم العمومي لفارس Fars ، وسوندارا باندى Soundara-Pandi أقوى ملك لاقليم مابار (٦٠٧) معاهدة التزم بها الأميران ، الأول منهما أن يورد سنويا ١٤٠٠ حصان من كيش ، و ١٠٠٠٠ حصان من الجزر الأخرى التابعة لفارس ، وتعهد الثانى بأن يأخذ هذه الخيول بسعر الواحد ٢٢٠ دينارا ذهبيا ، وأن يدفع ثمن كل دابة تموت فى أثناء الرحلة (٦٠٨) •

واستلزمت هذه التجارة حركة ملاحية دائبة صوب الهند ، ولابد أن السفن التى تنقل الخيول لا تعود من رحلتها فارغة • فاقليم مابار الذى يوجه اليه أكبر قدر من الواردات كان يقدم منتجات منوعة ، ويتلقى كميات ضخمة من أثمن السلع وأندرها من الصين والهند الصينية (٦٠٩) • لم لا يشترى تجار الخيول بمكاسبهم فى أسواق مابار توابل ، وأحجارا كريمة . ولآلىء يشحنون بها سفنهم عند عودتهم ؟ يقول وصاف ان كل ثروات جزر الخليج الفارسى وجزءا كبيرا من السلع الكمالية فى بلاد أخرى . من العراق وخراسان الى آسيا الصغرى وأوروبا كانت ترد من مابار (٦١٠) ؛ واذا دفعنا الفضول الى تتبع تيار البضائع المصدرة من كيش الى الغرب ، فان النصوص تدلنا على هذا التيار وهو يصعد جزئيا الخليج الفارسى ونهر الدجلة الى بغداد ، ويجتاز من جهة أخرى فارس لينتهى الى طوس (٦١١) •

ولكن يجب الا نبتعد عن الخليج الفارسى • فمن المهم دراسة تطور سوق من أسواقه الرئيسية • فبعد انقضاء بضع سنوات على مرور ماركو بالو ، غزا هرمز جيش العدو ، وأدرك الملك وغالبية السكان

---

(٦٠٦) Wassaf, Op. cit., M. Hammer (Gesch der Ilchane, I, 240).

(٦٠٧) C'est le Sonder Bandi Dawar de M. Polo (p. 602); Yule, M. Polo II, 269 et ss.).

(٦٠٨) Rachid-eddin et Wassaf, dans Elliot, Hist of India, I, 69; III, 33 et s. M. Polo, p. 614; Aboulféda (Géogr., II, 2, p. 116); M. Yule (M. Polo, II, 272).

(٦٠٩) Rachid-eddin, dans Elliot, I, 69; Wassaf, Ibid, III, 32.

(٦١٠) Elliot, l.c., III, 32, 35.

(٦١١) M. Polo, p. 47; Sanuto, Secr. fidel. cruc. p. 22 et s

استحالة المقاومة لتفوق العدو بعدد أفراده ، ففروا في عدد من السفن ، والتمسوا ملجأ مؤقتا لهم في جزيرة كشم Kichm ـ وبعد قليل ، قر عزم الملكعي اتخاذ جزيرة أيرون Eroun (هندرابي الحالية ـ المراجع) الصغيرة مقاما له ولشعبه ، وهي الجزيرة المجاورة لجزيرة كشم . أما هرمز القديمة فقد هجرت وتركت لمصيرها التعس . ومنذ تلك الآونة لم يعد يسكن في أطلالها سوى بعض الأهالي الفقراء المشتتين . يقول توران شاه Touran-Châh الذي صار فيما بعد أمير هرمز (١٣٤٧ ـ ١٣٧٨) وكتب تاريخ أسلافه بلغة فارسية ان الأمير الذي جرت في عهده هذه الأحداث يدعى مين بهاء الدين Min-Beha-eddin أجاس سيفين Ajas-Seifin . ويذكر عام ٧٠٠ هـ تاريخا لهجرة السكان ، أي عام ١٣٠٠ ـ ١٣٠١ م . ويقدم بيدرو تيكسيرا Pedro Teixeira موجزا لمؤلف توران شاه ، وذلك في كتابه (٦١٢) :

Breve relacion del principio del regno Harmuz y de sus Reyes

ويذكر هذه المعلومة ولكن بشيء من الخطأ ، اذ يفترض أن عام ٧٠٠ هـ يقابل عام ١٣٠٢ م (٦١٣) . وثمة كتاب لاحقون ، نذكر منهم أحمد غفاري Ahmed Ghaffari (توفي عام ١٥٦٧) ومحمد مجيدي Mohammed Medjdi (١٥٩٣) نسبوا الى الملك أسماء أخرى ، وذكروا تواريخ مختلفة . وفي رأيهم أنه ينبغي ارجاع هجرة سكان هرمز في الجزيرة الى عام ١٣١٠ أو ١٣١٥ (٦١٤) . غير أن توران شاه عاش في عصر أقرب كثيرا الى الأحداث ، ويجب اعتبار معلوماته أصدق بكثير من معلوماتهم . والأمر على خلاف ذلك بالنسبة الى حمد الله المستوفى Hamdallah Moustofi من قزوين (توفي عام ١٣٤٩) الذي عاش في عهد أقرب الى الأحداث من عهد توران شاه ـ وهو كمؤرخ جدير بالثقة : فهو يقول ، كما اورد عنه السيد أوسلي M. Ouseley (٦١٥) ان تأسيس هرمز الجديدة تم في عهد معاصره الأمير قطب الدين Koutb-eddin ولسوء الحظ يستحيل التأكد من صحة ما دونه السيد أوسلي قبل جمع كتابات حمد الله وطبعها .

(٦١٢) Dans son ouvrage intitulé ; Relaciones del origen, descendencia y succession de los Reyes de Persia ye de Harmuz, Amberes, 1610.

(٦١٣) Ibid. p. 10.

(٦١٤) Ouseley, Travels in various countries of The East, more particularly in Persia, I, 157, 173.

(٦١٥) Ibid. p. 157.

ولكن حتى بفرض أن هذا المؤرخ قد دون بالفعل المعلومات التي أخذت عنه ، فنحن نبيح لأنفسنا أن نشك في ذلك ، فاننا نرى لزاما علينا أن نخطئه في هذه النقطة . فتوران شاه لابد كان يعرف النبأ الصحيح عن تاريخ قطب الدين ، سلفه وأبيه ، ومن ثم يعرف ما اذا كانت هجرة سكان هرمز قد حدثت فعلا في عهد هذا الأمير أو فيما بعد ، فهو يضع هذا الحدث قبل تولى قطب الدين الحكم بتسعة عشر عاما ، ويكتفي في روايته عن عهد هذا الأمير بالقول بأنه نجح في الدفاع عن الجزيرة ضد الغارات الآتية من الخارج ، وشن غزوات مختلفة سوف نتكلم عنها فيما بعد . ولا شك أن وطنيا ، وبخاصة اذا كان في مركز عال يمكنه أن يعرف في هذا الصدد أكثر مما يعرفه أجنبي ، حتى ولو عاش الأجنبي قبله .

وهناك حجة أخرى ، أقل اقناعا في الواقع ، توجه ضد الذين يريدون جعل الهجرة في عهد قطب الدين : ذلك أن أبو الفدا في « جغرافيته » التي فرغ من كتابتها في شهر سبتمبر عام ١٣٢١ يتحدث — بناء على أقوال شاهد عيان — عن تدمير هرمز القديمة وبناء المدينة الجديدة التي تحمل الاسم نفسه (٦١٦) . حقا انه في الامكان التوفيق بين الأمرين بوضع الحدث المشار اليه في السنوات الأولى من حكم قطب الدين الذي تولى الحكم في عام ١٣١٩ . ولكن لابد عندئذ من تنمية رواية « وصاف » لهذه الهجرة في الكتاب الثالث من تاريخه عن فارس ، فهذه الرواية تفصل في المسألة فصلا قاطعا مؤيدا لما أكده توران شاه . وقد أنجز وصاف كتابه في عام ١٣١١ ، وكان قد أهدى كتبه الثلاثة الأولى التامة الى غزان خان في عام ١٣٠٣ (٦١٧) ، ومن ثم قبل ارتقاء قطب الدين عرش هرمز بزمن طويل .

ولسوء الحظ فان الجزء الذي كانت فيه الوقائع التي نناقشها هو بالذات الذي لم يترجم ، وبعض ما اقتبسه السيد هامر M. Hammer (٦١٨) من تاريخ هرمز مشوش (٦١٩) ، والبعض الآخر يخص وقائع سابقة على الهجرة أكثر مما يخص الهجرة نفسها . ينبغي لنا اذن أن نكتفي بالقول بأن وصاف ، شأنه شأن توران شاه يجعل تدمير هرمز القديمة في حوالي عام ١٣٠٠ ، فالوقائع المحدد زمانها على هذا الوجه تتوافق تماما مع تاريخ جنوب فارس في ذاك العصر . وفي ذاك

(٦١٦) Géogr., II, 2, p. 104.

(٦١٧) Hammer, Gesch. des Ilchane, II, 122 et s., 151 et s., 243.

(٦١٨) Ibid, II, 50 et s.

(٦١٩) M. Yule (M. Polo, I, 113 et s.)

الأوان اكتسح البلد كله حتى « الساحل » « الساخن » (Germsir) ودمره حشسود الأمير كوتلوج شاه Kotlogh-Chah سليل جاجاتيه Djagatai سيد الأقاليم الواقعة جنسوب شرقي خانات ما وراء النهر Transoxianc (٦٢٠) .

حقا ، ان الجيش الذى دمر هرمز القديمة ، على قول توران شاه يتكون من أتراك قادمين من تركستان (٦٢١) — **كما يسميه أهله بينما أطلقنا عليه دواما اسم « ما وراء النهر »** (٦٢٢) . وكان كوتلوج شاه من سلالة جنكزخان . ونذكر أيضا أنه تبعا لأقوال مؤرخين آخرين ، أغار على سكان هرمز عصابات من قطاع الطرق (٦٢٣) ، وهذا الأسلوب فى عرض الوقائع ينطبق على غزوة كوتلوج شاه ، لأن هذا الأمير كان حليفا للكاراؤناه Karaounahs ، وهى قبيلة من قطاع الطرق تقطن شرقى فارس ، وعلى استعداد دائم للاغارة على الأقاليم المجاورة التى تمتاز بطبيعة أفضل (٦٢٤) .

ولم يلبث أمراء قيس أن تبينوا المناورة التى يقوم بها أمراء التوفيق . حقا لم تكن جزيرة أبيرون Jéroun سوى صخرة قاحلة ، ولكنها تتحكم فى مدخل الخليج الفارسى ، وفى استطاعة من يسيطر عليها أن يوقف بارادته كل السفن التى تحاول دخول الخليج للوصول الى قيس

. ولم يلبث أمراء قيس أن تبينوا المناورة التى يقوم بها أمراء هرمز اضرارا بهم ، ومن ثم جهزوا عدة حملات لوضع حد لهذه المنافسة الخطيرة ، ولكنها كانت تنتهى دائما بالفشل (٦٢٥) . ولم يمضى زمن طويل حتى استولى قطب الدين ملك هرمز على جزيرة قيس ، والبحرين ، جزيرة اللآلىء ، وجزء من سواحل بلاد العرب المجاورة للبحرين . ولم يحدد توران شاه ، أو على الأقل تيكسيرا Teixeira الذى لخص أعماله ، تاريخ هذا الحدث تحديدا قاطعا . ولكن يمكن ، تبعا لروايته التوقف عنده حوالى عام ١٣٣٠ (٦٢٦) . وعلى أية حال ، ففى عام ١٣٣٢ ، حين زار الرحالة

---

(٦٢٠) D'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 268 et ss.; Hammer, Ilchine. II, 98 et ss.

(٦٢١) Teixeria, p. 11.

(٦٢٢) Vambéry, Gesch. Bochara's oder Transoxaniens, p. 155.

(٦٢٣) Silv. de Sacy, Antiquités de la Perse, p. 277; Yaquout, p. 595. not.

(٦٢٤) Not. et extr., XIV, 1, p. 282 et ss.; Yule, M. Polo, I, 94.

(٦٢٥) Teixeira, p. 20 et ss.

(٦٢٦) Ibid. p. 25-33.

ابن بطوطة قطب الدين ، كان هذا الأمير ، الذى لم يكن يسيطر فيما مضى الا على جزيرة هرمز ، وجزء من سواحل عمان ، كان وقتئذ قد وسع ممتلكاته القديمة ، وأصبح يتمتع بفتوحاته الجديدة (٦٢٧) .

ومن تلك الآونة لم يعد لهرمز الجديدة منافس فى الخليج الفارسى . ورغم الاضطرابات الداخلية ، والمنافسات فى سبيل العرش ، مما يزخر تاريخها ، فان رخاءها كان يتبع دون انقطاع مسيرة تقدمية . وحين زارها ابن بطوطة وجد بهـا مدينـة كبيرة وجميلة وأسواقا مكتظة بالبضائع ، وسفنا آتية من كل أنحاء الهند فترسو عندها . وكانت الشحنات التى تنزل فيها يعاد تصديرها الى فارس ، وخراسان ، والعراقين ، أى العراق العجمى ، وهو الاقليم الأوســط بفارس مع مدن اصفهان . وحمــدان ، وسلطانية ، والعراق العربى ، أى ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وعاصمته بغداد (٦٢٨) . ويتحدث الغربيــــان اودريكو دا بوردينونى Oderico da Pordenone (٦٢٩) ، وجان مارنيولا Jean Marignola (٦٣٠) أيضا عن كميات البضائع ، والعدد الكبير من التجار الذين يتوافدون على البقعة من كل أرجاء العالم ، ومن هؤلاء التجار أوروبيون (٦٣١) .

وكانت هرمز بالنسبة الى الذين يسافرون الى الهند أو الصين (٦٣٢) ، مرحلة من المراحل الرئيسية ، نذكر من هؤلاء المســافرين بتروس دى لوكالونجو Petrus de Lucalongo رفيق السفر المبشر المشهور جان دى مونت كورفينو Jean de Monte Corvino الذى صار فيما بعد أسقف بكين ، كان الجميع ــ القادمون من بغداد أو طورس (تبريز) ــ يمرون بالجزيرة الواقعة عند مخرج الخليج الفارسى ، فكانت بالنسبة اليهم الممر

---

(٦٢٧) Ibn-Batouta, II, 124, 226 229, 233, 235 et s.; Hamdallah Moustofi, dans Hammer, Ilchane, II, 321.

(٦٢٨) II, 230 et s.

(٦٢٩) Yule, Cathay, II, append., I, p. IV.

(٦٣٠) Ed. Dobner, p. 113.

(٦٣١) يذكر موندفيل بخاصة البنادقة والجنويين . Maunderville, p. 136.

(٦٣٢) يقول موندفيل ، ص ٣٢٨ ان التجار الذين يذهبون من فارس الى الصــين يعبرون عند رحيلهم من أورموز البحر ، ويرسون عند جولباش Golbache ، ويبدو أنه يشير بهذا الاسم الى كلهات Kalhat ، ومن المحتمل أن سفن اورموز كانت ترسو كثيرا هناك .

المؤدى الى الهند ، بلد العجائب (١٣٣) . كان هناك أيضا فى داخل البلاد طرق للقوافل يمر بها جزء من التجارة بين فارس والهند .

ويمكن اعتبار كابول وغزنة من أبواب الهند ، مثلها فى ذلك مثل هرمز ، غير أننا لا نستطيع ، فى العصر الذى ندرسه أن نذكر واحدا لأوروبى اجتاز هذا الطريق . حقا ان أبو الفدا (١٣٤) يذكر المدينتين اللتين أشرنا اليهما آنفا . ويتكلم عن أهميتهما لتجارة الهند . ولكنه فيما يختص بكابول على الأقل انما ينقل من مصادر أكثر قدما . أما ابن بطوطة (١٣٥) ، معاصره ، وهو أصغر منه سنا ، فانه يذكر أيضا عظمة المدينتين فى الماضى ، ولكنه حين زارهما ، لم تكن غزنة سوى مدينة نصف خربة ، وكابول قرية صغيرة ، ويمكن اذن أن نستخلص من شهادته أن هاتين المدينتين كانتا قد فقدتا فى عصره كل أهمية بالنسبة الى أسواق الشرق .

خامسا ــ الهند

أول حدث نصادفه فى دراسة علاقات الغرب بالهند خلال الفترة التى تشغلنا فى هذه اللحظة هو بعثة ذات أهمية كبيرة قام بها بعض الجنويين ، وترجع هذه البعثة بالذات الى السنة التى أصيبت فيها تجارة العالم كله بسقوط عكا ، ونشطت بحثا عن طرق جديدة لها . **ففى عام ١٢٩١ جهز ثلاثة من الجنويين ،** هم تديسيو دوريا Tedisio Doria (١٣٦)، واوجولينو فيفالدى Ugolino Vivaldi ، وأخ لهذا الأخير ، بالاشتراك مع كثير من مواطنيهم **سفينتين حربيتين كبيرتين ، وبحروا بها الى ما وراء مضيق جبل طارق بحثا عن طريق الى الهند عبر المحيط .** ولما كان مؤرخو هذه البعثة كتاب حوليات (مؤرخى وقائع) جنويين ، حديثى العهد نسبيا ، مثل جوستنيانى Giustiniani ، وفوليتا Foglietta فقد رفض البعض الوثوق بأخبارهم . الا أن السيدين كانالى Canale وبيرتز لم يرضيا بطبعة الحوليات الجنوية القديمة التى نشرها موراتورى

---

(١٣٣) La Carte catalane, p. 123.

(١٣٤) Géogr., II, 2, p .203 et s.

(١٣٥) III, 88, 89.

(١٣٦) لم يكن دوريا من أعضاء الحملة ، ولم يستطع جوستنيانى وفوليتا أن يؤكدا اشتراكه الا بتفسير خاطىء لنص ال Anna. Jan.

Muratari اذ تبين لهما فيها الكثير من الثغرات ، ومن ثم عكفا على دراسة متعمقة لأفضل المخطوطات وأكملها ، فكشفا عن شهادة معاصرة ، وصادقة بلا ريب تؤيد واقع هذه الرحلة الاستكشافية (٦٣٧) • وليس هناك أي احتمال للطعن في صحة هذه الوثيقة ، خاصة وأن جاكوبو دوريا Jacopo Doria كاتب الخبر من أقرباء تديسيو دوريا أحد الشركاء المهتمين بالمشروع •

يقول جاكوبو دوريا بصراحة ان البعثة لم تكن غايتها التوسع في المعلومات الجغرافية في ذلك العصر بقدر ما كانت تتغيا معرفة امكانية احضـــار منتجات الهند بطريق البحر ، ودون أن تنقل من سفينة الى أخرى (٦٣٨) • وقد فشلت هذه المحـاولة ، ولم ير أحـد بعد ذلك المستكشفين الجسورين : ففي وطنهم ، في الفترة التي كتب فيها جاكوبو دوريا قصته (١٢٩٤) ، لم يعرف أحد خط سيرهم فيما بعد جوزورا Gozora ، أي المنطقة الصحراوية الواقعة في المغرب جنوبي جبال أطلس بالقرب من رأس نون Noun ، والمعروفة أيضا بأسما Gazula, Gozola, Gazolla, etc. (٦٣٩) ، ومن هناك ضاع كل أثر لهم • وبعد انقضاء حوالى نصف قرن ، علم في أسبانيا أن احدى السفينتين قد غرقت بالقرب من مدينة امنوان Amenouan ، بينما واصلت الثانية مسيرتها في اتجاه غير معروف •

أما الذين كانوا في السفينة الغارقة ، واستطاعوا الوصـــول الى الشاطيء ، فيقال ان الوطنيين هناك أسروهم ، وأخذوهم الى داخل البلد • وثمة شائعة مماثلة انتشرت في وقت مبكر وبلغت جنوا ، تقول ان أحد أبناء أوجولينو فيفالدي ، اسمه سورليوني Sorleone نظم بعثة يمضي بها للبحث عن أبيه • واذ رأى أنه من الأيسر له أن يجد أباه اذا بدأ رحلته من الساحل الشرقي لأفريقيا بدلا من الساحل الغربي ، فانه ذهب الى مقديشيو Magadoxo ، وهناك منع من مواصلة رحلته بدعوى أنه يتعرض لأخطار جسام (٦٤٠) • وثمـة جنوي آخر ، يدعى انطونيـوتو

---

(٦٣٧) Annal. Jan., dans Pertz, SS., XVIII, 335; Belgrano, annali Genovesi di Caffaro, dans l'Archiv. stor., 3e sécie, II, 124 et ss.

(٦٣٨) Annal. Jan., l.c.

(٦٣٩) Cartes : celle des frères Pizigani, la carte catalane, et celle de Bartol. Parcto (d'après les Mémor. della Soc. geogr. ital. I, 57).

(٦٤٠) روى قصة هاتين البعثتين راهب فرنسيسكاني من اشبيلية ، مؤلف كتاب : Libro del conosçimiento de todos los reynos, etc. (p. 63, 67 et s.) : Belgrano, Nota sulla spedizine del fratelli Vivaldi : Atti della Soc. Lig., XV 323; Devic, Le pays des Zendj (1883), p. 60 et ss.

اوزوديمارى Antoniotto Usodimare كان أسعد حظا من فيفالدى الصغير ، قام برحلة فى السنغال فى عام ١٤٥٥ ليحضر منها عاجا فاتبع أثر الســليل الأخير الوحيــد لركاب الســفينة التى غرقت فى عـام ١٢٩١ (٦٤١) • ودونت قصة تبعا لشهادة اوزوديمارى ، ولكننا نكشف بادىء ذى بدء على خطأ فيها : ذلك أن الاثنين اللذين يحملان اسم فيفالدى ، وهما اوجولينوس Ugolinus وفادينوس Vadinus ، أسـمتهما القصـة فادينوس وجويدوس Guidus • ومهما يكن الأمر اليكم قصة البعثة كما دونت : فى بحر غينيا ، جنحت احدى السفينتين على رصيف رملى أما الأخرى فواصلت الرحلة وحدها حتى مدينة فى أثيوبيا اسمها مينا Mena وهى واقعة بالقرب من مصب نهر جيحون Gihon : على أن السكان لم يحسنوا استقبال هؤلاء الأجانب ، بل قبضوا عليهم ، ورفضوا رفضا باتا اخلاء سبيلهم (٦٤٢) • ولما كان مؤلف هذه الرواية قد كتبها بعد انقضاء مائة وخمسين عاما على بعثة اخوان فيفالدى ، فانه لا مانع من الشك فى صحتها • ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون قد تلقى من لسان حفيد لأحد أعضاء البعثة بقايا قصة أسرية تقليدية ، ومن جهة أخرى فان روايته هذه تماثل أحد الرهبان الفرنسيسكان الاسبان الذى عاش بعد هذا الحدث بخمسين عاما على الأكثر • والمدينة التى يسميها هذا الأخير امينوان Amenouan هى بالتأكيد مدينة مينا التى ذكرها اوزوديمارى • وتبعا للطريق الذى رسمه الفرنسيسكان ، يتبين أنها واقعة فى خليج غينيا • أما بخصوص بحر الغينوية Ghinoia الذى غرقت فيه السفينة الأولى ، فلابد أن يكون هذا البحر هو الذى يغمر ساحل سينيجامبى Sénégambie (السنغال وغمبيا) (٦٤٣) •

ويبدو أن الشغف بالترحال الى الهند كان وراثيا فى أسرة فيفالدى ، وأنشىء بهذا الاسم شركة لاستغلال التجارة مع الهند • وثمة عضوان فى الشركة ، بنديتو فيفالدى الذى رحل من جنوا فى عام ١٣١٥ على سفينة يقودها انجلينو دى مارى ، وبيرسيفالى ستانكونى Percivalle Stancone استقر بهما المقام فى الهند ، ومات هناك فيفالدى فى

(٦٤١) انظر خطابه المحرر بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٤٥٥ فى :

— l'Itinerarium Antonii Ususmaris, publ. par Graberg di Hemso, dans les Annali di geografia e di statistica. II (Genova 1802), p. 287.

(٦٤٢) M. Codine, dans le Bulletin de la Soc. de géogr., 6e srrie, V (1873), p. 414, not; M. Belgrano, dans les Atti della Soc. lig. XV (1881), p. 320.

(٦٤٣) M. d'Avezac dans les Nouv. annal. des voy., 1859, III, 279 et ss.

تاريخ سابق على عام ١٣١٢ تاركا لورثته ذهبا وبضائع ، وطلب القائم بادارة أمواله من المحكمة أن تستدعى ستانكونى الى جنوا ليتولى هناك ادارة أعمال الشركة (٦٤٤) . ترى أى طريق أتبعـه بنديتـو فيفالدى ؟ هل حملته سفينة انجلينو دى مارى الى الهند بالدوران حول رأس الرجاء الصالح ؟ كلا بالتأكيد : ذلك أنها أنزلته برا اما عند الجوزات أو طربزون، ومن هناك اجتاز فارس حتى هرمز حيث ركب البحر ثانية .

ونعرف أن امبراطورية التتار كانت مفتوحة لكل الأوروبيين ، وأن عددا كبيرا منهم استفادوا من حرية التنقل هذه (٦٤٥) ، فى حين أن العقبات التى كانت تقيمها حكومة مصر فى وجه المسافرين كانت تسد لهم هذا الطريق ، فلم يجازف بسلوكه خفية ، من حين الى حين الا عدد قليل من الأشـخاص . ولم يذكر أحد المكان الذى أقام فيـه فى الهند فيفالدى وستانكونى مقر عملياتهم التجارية . وفى هذا العصر لم يكن الأجانب قد نفذوا الى داخل البلد ، ومن ثم فانه بافتراض وجود حركة تجارية ، أو ثبوت قيامها بين الهنود والأوروبيين ، فاننا اذا أردنا تحديد الأماكن التى كانت المبادلات تجرى فيها بصورة مباشرة ، فان أبحاثنا فى هذا الصدد يمكن ، بل ويجب أن تقتصر على سواحل الهند ذاتها .

ولتبسيط الموضوع ، نقسم هذا الامتداد الساحلى الى ثلاثة أجزاء . فالجزء الأول يمتد من مصاب نهر الاندوس (السند) الى مدينـــة جوا Goa الحالية ، ويمتد الثانى من جوا الى رأس كمورن Comorin ، والثالث من رأس كمورن الى الشمال صاعدا ساحل كرماندل Coromandel .

فى المنطقـة الأولى نصـــادف أولا بعد ديبـــال Daybal القديمة المشهورة (٦٤٦) مدينة لاهارى Lahary الأحدث عهـــدا (وهى حاليـا لارى بنـــدر (Larry Bender) ، وهى ميناء كبير تأتى اليـــه السفن التجارية من اليمن وفارس (٦٤٧) . وفى شـبه جزيرة جوجارات Goudjerate احتفظت مدينة سومنات Somnath وكانت

---

(٦٤٤) M. Belgrano, dans l'Archiv. stor. ital., 3 série, II, 127, et dans son étude : Della vita privata dei Genovesi (Atti della Soc. Ligur., IV, 185).

(٦٤٥) Sanut., Secr. fidel. cruc., p. 23; Petr. de Abano, Conciliator differentiarum, l.c. m

(٦٤٦) Aboulf., Géogr., II, 2, p. 111.

(٦٤٧) Ibn-Batouta III, 112, ; cf. Yule, dans l'Indian Antiquary, III, (1874), p. 115.

فيما مضى قبلة مشهورة للحجاج ـ احتفظت بأهميتها التجارية ، رغم زوال أصنامها التى دمرها المسلمون (٦٤٨) ٠

الا أن الحياة التجارية تركزت بنوع خاص فى خليج كامبيى Cambayo ، ولم يكن اسما سوفارا Soufara (سوبارا Souppara) ، وباروتش Barotch (باريجازا Barygaza) ينتميان فى ذلك الآوان الى مدينتين خاملتين (٦٤٩) ٠ وفى مواجهتهما ، على شبه جزيرة كاتيفار Kattyvar (جوجارات Gaudjerate) قامت مدينة كوكاه Koukah (حاليا جوجو Ghogho) باسواقها الواسعة (٦٥٠) ٠ غير أن سوق كامبيى كانت أنشط الأسواق والمخازن المتناثرة على ضفاف الخليج ، وكان عدد كبير من التجار الآتين الى الهند عن طريق هرمز يختمون عندها رحلتهم لأنهم يجدون بها كل السلع التى تروق لهم (٦٥١) ٠

فالواقع ، وبغض النظر عن منتجات النواحى المجاورة ، وفى مقدمتها النيلة والقطن ، ومنسوجات وجلود مصنوعة فى البلدة نفسها (٦٥٢) ، فان منتجات البلاد البعيدة ، والبلاد المجاورة ترد اليها بكميات هائلة بفضل نشاط الأهالى ، وجالية كبيرة من التجار الأجانب ٠ وكان المظهر الخارجى للمدينة يشهد بذاته عن رخائها ، اذ كان التجار الأثرياء يتنافسون فى بناء المساكن الفاخرة (٦٥٣) ٠ والى الجنوب ، على شاطىء جزيرة سالسيت Salsette قبالة القارة الهندية ، على بعد حوالى اثنى عشر ميلا انجليزيا من مدينة بومباى الحالية (٦٥٤) ،تقوم مدينة طانة Tana (Tanah) العاصمة القديمة لولاية كونكان Concan (٦٥٥)،

---

(٦٤٨) Aboulf., l.c. p. 116 et s. ; M. Polo, p. 666-668.

(٦٤٩) Quétif et Echard, Script. ord. Proedic., I, 549 et s.; Aboulf., l.c., p. 119; Indian Antiquary, I, 321.

(٦٥٠) Ibn-Batouta, IV, 60 et s. ; Yule, Cathay, I, 228; Giov. da Empoli, p. 39, 41.

(٦٥١) Hayton, dans Grynoeus, Novus orbis, p. 404 et s.; Sanuto (Secr. fidel. cruc., p. 22).

(٦٥٢) M. Polo, p. 666.

(٦٥٣) Ibn-Batouta, IV, 53 et ss.

(٦٥٤) M. Polo, éd. Pauthier, p. 662 et ss ; Yule, Cathay, I, 57 ; notes à Jord. Catal., p. vi et à M. Polo, II, 331.

(٦٥٥) Albirouni, dans Reinaud, Journ asiat., 4e série, IV, p. 251.

وتنشط فيها تجارة استيراد وتصدير كبيرة ، وكانت ضواحيها تعرض الملاحين لمخاطر جمة ، اذ يغير عليها قراصنة يتمتعون خفية بحماية عاهل البلد : وكان الأمر كذلك على الأقل فى عصر ماركو بولو (٦٥٦) .

وكان لاسم هذه المدينة عند الغربيين ذكرى مشؤومة : ففى عام ١٣٢١ كان أربعة من الرهبان الفرنسيسكان متجهين الى كولام Koulam ، يعظون السكان على طول الطريق ، وهناك وقعوا فى الأسر وضربت رقابهم بأمر الحاكم المسلم (٦٥٧) . وتثبت قصة استشهادهم هذه وجود غربيين مقيمين حتى فى تلك البقعة غير المضيافة من الساحل : ذلك أنه حين أراد أحد أعضاء البعثة ، وقد نجا من المذبحة ، وهو الدومينيكى جوردانوس Jordanus أن يقوم بجمع جثث الشهداء ليدفنها فى صوفارا Soufara ساعده فى هذه المهمة شاب جنوى (٦٥٨) .

ومن الطبيعى أن نفترض أن هذا الشاب كان ينتمى الى أسرة من التجار الجنويين المقيمين فى طانة . ولدينا بخلاف هذه الرواية خطابان من جوردانوس ، أحدهما مؤرخ من كوكاه Coga J Koukah – انظر فيما سبق) فى ١٢ من أكتوبر ٣٢١ (٦٥٩) ، والثانى من طانة فى ٢٠ من يناير ١٣٢٤ (٦٦٠) . فهو يحكى فى الخطاب الأول قصة موت رفاقه ، ويقدم تقريرا عن أعمال البعثة التى سيضطلع بها وحده ، ويضيف أن من المكان الذى يكتب فيه يستطيع المبشرون الكاثوليك أن يذهبوا الى أثيوبيا دون مشقة ، ويقول انه عرف ذلك من بعض التجار اللاتينيين الذين كان على صلة بهم .

وهكذا كان هناك فى حوالى عام ١٣٢٠ فى الموانىء القائمة حول خليج كامبيى جالية من التجار الغربيين القليلى العدد فى الواقع : وكانت المعلومات التى أبلغها المستوطنون الى جوردانوس مستقاة من مصادر

(٦٥٦) M. Polo, p. 662 et ss.; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 118; Aderico da Pordenone, p. v.

(٦٥٧) MM. Kunstmann, dans les Historisch-politische Blatter, XXXVII (1850), p. 28-36, et, Yule, dans son Cathay ; Germany, Die Kirche der Thomas-christen, p. 186 et ss.

(٦٥٨) Voyez la lettre du Pisan Franciscus, dans Wadding, Annal. ord. minor, a.a. 1321, no. 1.

(٦٥٩) Quétif et Echard, Script ord. proedic., I, 549 et s.

(٦٦٠) Wadding, Annal., VI, 359-361.

صحيحة ، لان المدن التي يقطنون بها كان لها علاقات كثيرة بعدن (٦٦١) .
ولا يفصل هذا الميناء عن الساحل الشرقي الأفريقي الا ذراع ضيق من البحر ، لاختيار بحارة للسفن التجارية القاصدة الى الهند ، كان التجار الغربيون يفضلون المحاربين الأحباش الذين كان وجودهم على متن السفن يثير الرعب في نفوس القراصنة (٦٦٢) . وقبل الفراغ من هذه الواقعة في قصة الارساليات في الهند ، نود أن نذكر أيضا قصة معجزة صغيرة تتصل بها . تحكي القصة أن تاجرا بيزيا يدعى « جوانينوس » Joaninus filius Hugolini Pisani كان في حوزته رأس أحد شهداء طانة ، وأنه بفضل هذا الأثر نجا من أيدي بعض القراصنة (٦٦٣) . ومهما كان مقدار ما في هذه الحكاية الغريبة من ابتكار ، فالحقيقة بالنسبة الينا أنه في القرن الرابع عشر كان في المستطاع ادخال تاجر بيزي يرتحل في بحار الهند في سياق قصة ما دون استثارة سخرية القاريء المتشكك .

أما المنطقة الثانية المحصورة بين جوا ورأس كومورن (٦٦٤) فانها تقابل اقليم ملبار Malabar ولا نقصد بهذه التسمية الاقليم الحالي الذي يحمل هذا الاسم ، ولكنا نقصد المنطقة الأكثر اتساعا التي أطلق عليها هذا الاسم الجغرافيون العرب في ذاك العصر (٦٦٥) . وأشهر المدن الساحلية بنشاطها التجاري في هذا القسم كانت هينور Hinaur (حاليا هونور (Honore)) (٦٦٦) ، ومنجالور Mangalore (٦٦٧) ، وهيلي Hili ، أو ايلي Eli ، وقد زالت الآن من الوجود ، ويتحدد موقعها بالجبل الذي يرى من بعد ، ويشكل رعن جبل «مونت ديلي» Mount Dely (٦٦٨) ، جورفاتان Djorfattan ، وهي غالبا

(٦٦١) Ibn-Batouta, II, 177.

(٦٦٢) Ibn-Batoyuta, II, 60.

(٦٦٣) Wadding, Annal. ord. min., VI, 359.

(٦٦٤) M. Yule, dans l'Indain Antiquary, II (1974), p. 209 et s.

(٦٦٥) Aboulf., Géogr., II, 2, p. 115 et s.; Rachid-eddin, dans Elliot, History of India, I, 68 Ibn-Batouta, IV, 71; cf. Yule, Cathay, II, 450; Yule, M. Polo, II, 326.

(٦٦٦) Ibn-Batauta, IV, 65 et ss. (Aboulf., l.c., p. 115)

(٦٦٧) Ibn-Batouto, IV, 79 et s.

(٦٦٨) Rachid-eddin, Op. cit.,; Ibn-Batouta, IV, 81, M. Polo, p. 647 et ss. ; Yule, M. Polo. II, 321 et s. ; Cathay, II, 451 et s.; Ind. Antiq., l.c., p. 209.

« كانانور Cananore في العصور اللاحقـة (٦٦٩) ، وبودفاتان Bodfattan ، وفاندارينا Fandaraina الواقعتان بين كانانور ، وكاليكت Calicut (٦٧٠) لم يعد لهما أثر اليـوم ، ثم كاليكت نفسها ، وأخيرا كولام Coulam (كويلون Quilon) » .

كانت هذه النواحي كلها على اتصال ببلاد ماوراء البحار ، اما بوساطة سفنها الخاصة ، واما بوساطة التجار الأجانب الذين يزورونها . ولا محل للدهشة من هذا العدد الكبير من الأماكن التجارية اذا فكرنا في أن مليبار كانت هي البلد الأصـلي لحاصـلات الهند الطبيعية المطلوبة بكثرة في الخارج . وكان الفلفل ، وهو أهم هذه الحاصلات ، يملأ وحـده عددا كبيرا من السفن . نضيف أيضا الزنجبيل والقرفة ، والهال (الحبهان) ، والنيلة ، وشـجر البقم ، وبهذا لم نذكر سـوى جزء من الحاصلات الرئيسية لهذا البلد السعيد . وكانت الموانيء والثغور الكثيرة العدد على الساحل تهييء للسفن كل التسهيلات حتى تاتي اليها وتأخذ ثمة شحنتها بالقرب من المزارع ، وتجد في كل الأنحاء أهالي أو مستوطنين يمارسون التجارة ويقومون لهم بدور الوسطاء .

وليس علينا أن نهتم هاهنـا الا بعلاقات التجار الغربيين باقليم مليبار . فبالنسبة اليهم لم تكن الموانيء التي أسلفنـا ذكرها على درجة واحدة من الأهمية . ولما كان التجار الغربيون يأتـون جميعـا على وجه التقريب عن طريق فارس ، فمن المؤكد أنهـم يفضلون التردد على مدن الهند المتصلة بهذا البلد (أي فارس) بطرق ملاحيـة ، يذكر منهـا ابن بطوطة بنوع خاص منجالور وكاليكت (٦٧١) . وكانت منجـالور وقتئذ من أعظم مدن مليبار (٦٧٢) ، أما كاليكت ، فاذا لم يكن ماركو بولو، والخريطة القطالونية قد ذكراها ، فلا يجوز أن نستخلص من ذلك أنها لم تكن ذات أهمية ، ذلك لأن ابن بطوطة يقول صراحـة أنه كان يتردد عليها سفن من كل البلاد ، وكانت ترسل سفنا الى الخارج (٦٧٣) .

---

(٦٦٩) Ibn Batuta, IV, cf. Yule, Cathay, II, 453.

(٦٧٠) Ibn Batouta, IV 87, 88 ; Yule, Cathay, II 253 et s. ; I, 75; l'Indian Antiquary, p. 210.

ـ لا بد أن فاندارينا كانت واقعة على بعد عشرين ميلا انجليزيا تقريبا شمالي كلكتا .

(٦٧١) IV, 80, 89.

(٦٧٢) Aboulf., l.c., p. 116.

ونقول ، حتى نكون صادقين أن تردد الغربيين على هذين الميناءين في القرن الرابع عشر أمر محتمل ، ولكنا لانذكره الا بطريق الاستنتاج . والأمر على خلاف ذلك تماما فيما يختص بكولام : فهذه المدينة الواقعة في أقصى الجنوب من بلاد الفلفل (٦٧٤) ، كانت تجتذب اليها أنظار العالم المسيحي الغربي ، نظرا الى قسما من سكانها كان منذ قديم الأزل قد اعتنق الدين المسيحي . وكان المسيحيون التومائيون (الذين ينتسبون الى نظرية توما الاكويني اللاهوتية ــ المترجم) ، أو الناصريون (٦٧٥) يشكلون ثمة عنصرا ممتازا يعتمد عليهم المبشرون فى تثبيت أقدامهم بالبلد ، والتقدم به .

وفى عام ١٣٢٩ ، أنشأ البابا يوحنا الثالث والعشرون أسقفية بمدينة كولام ، وعين اسقفا بها الراهب الدومينيكانى جوردانوس كاتالانى Jordanus Cathalani وسلمه خطابات توصية منوعة ، من بينها ماهو موجه الى ملكى كولام وديلى (٦٧٦) . واستلم جوردانوس مهام منصبه بعد عام ١٣٣٠ بقليل ؟ وحين اضطر بعد بضع سنين أن يتخلى عن مهمته ، حل محله لفترة ما الراهب المتأمل (المتأملون ، طائفة من رهبان القديس فرنسيس ــ المترجم) يوحنا مارنيولا Marignola الذى أقام بكولام أكثر من سنة بقليل بعد عودته من الصين (غالبا من ١٣٤٨ الى ١٣٤٩) (٦٧٧) . ومع أن الكنيسة الرومانية لم تنجح فى تثبيت دعائم الارساليات بصفة دائمة فى هذه المدينة ، فان الارساليات تركت بالمدينة آثارا تشهد بمرورها بها . فقد شوهد هناك لزمن طويل كنيسة كاثوليكية شيدها دون شك جوردانوس (٦٧٨) ، وكانت هذه الكنيسة تجتذب اليها التجار الغربيين .

★★★

(٦٧٣) IV, 89; II, 177, 196.

(٦٧٤) Aboulf., l.c., p. 116.

(٦٧٥) Giov. da Empoli, dans Ramus., I, 146; Germann, Die Kirche der Thomaschristen, p. 205.

(٦٧٦) Archiv. de l'Or lat., I, 275-278.

(٦٧٧) Kunstmann, Die Mission in Columbo (Hist.-polit. Bl., XXXVII, 135 et ss.); Germann, Op. cit., p. 210 et ss.; M. Yule (Cathay, I, 71 et s.)

ــ أثبت السيد يول Yule بصورة قاطعة أن كولبو Columbo هى كولام Koulam

(٦٧٨) Marignola, dans Dobn., p. 89.

ولكن هؤلاء التجار كانوا فضلا عن ذلك مدفوعين بالرغبة فى عقد صفقات تجارية مع المسيحيين التوميين ، وكان على كل تاجر ، سواء أراد ذلك أم لم يرده ، أن يتعامل معهم : ذلك لأنه بمقتضى امتياز قديم ، كان لرؤساء هذه الجالية التى أطلق عليها مارنيولا اسم « موديليال » Modilial (٦٧٩) الاختصاص فى المحافظة على الوزن القانونى Statera المستعمل فى مبيعات ومشتروات الفلفل ، وبعامة كل التوابل والعطور ، وسماهم مارنيولا لهذا السبب « سادة الفلفل » ، ولايقصد بذلك فقط أنهم يمتلكون كل مزارع الفلفل فى أرباض المدينة ، ولكن أن أى انسان لايستطيع أن يبيع مثقالا من الفلفل دون أن يتعامل معهم ، ويدفع لهم أتاوة فى صورة رسم عن الوزن (٦٨٠) .

ومن المسلم به أن من بين الأسباب التى تحمل الغربيين على التردد على كولام ، لا تعد الأسباب التى ذكرناها آنفا الا فى المرتبة الثانية ، أما مايشكل الجاذبية الأساسية لهذه السوق ، فهو الكمية الهائلة والتنوع غير العادى للسلع التى تضفى على السوق الفاخرة روعة خاصة (٦٨١) . وقد بالغ مارنيولا بالتأكيد حين زعم أن كل الفلفل المنتشر فى جميع أنحاء العالم يرد من هناك ، ولكن الحقيقة أن الفلفل كان يزرع بهذا البلد بالجملة ، وأن المحصول هناك جيد (٦٨٢) . وأعطت كولام اسمها لأزكى أنواع شجر البقم والزنجبيل (٦٨٣) . وفضلا عن ذلك كان الصينيون يجلبون اليها من الصين والهند الصينية سلعا نادرة سوف نتحدث عنها .

قلنا ان هذا السوق كان يتردد عليه تجار غربيون ، ونحن نملك فى هذا الخصوص شهادة اثنين من الرحالة : الانجليزى موندفيل Maundeville الذى تشمل روايته ، بين حكايات خرافية بنوع ما أكثر من معلومة حقيقية ، وهو يؤكد أن البنادقة كانوا يذهبون كثيرا الى

---

(٦٧٩) الأولى هى باللغة التامولية اسم عشيرة المزارعين فى فيلال Vellals وعشائر أخرى . Moutheli, mouthelljar
— Note de M. Germann .Op. cit. ,p. 212).

(٦٨٠) M. Yule (Cathay, II. 343); Marginola (p. 89, 111, 113); Le Journale de Madras, XIII, 2, 1834, p. 119; Yule, l.c., II, 378; Germann, Op. cti., p. 232.

(٦٨١) Ibn-Batouta, IV, 99.

(٦٨٢) Marignola, p. 88; Oderico da Pordenone, p. xi.

(٦٨٣) سوف نتكلم عن ذلك فى الفصل الخامس بالسلع التجارية .

هناك للحصول على فلفل وزنجبيل (٦٨٤) • أما مارنيولا فانه يقدم بطريقة غير مباشرة شخصا جنويا ، تنقل فى هذا البلد • هذا المبشر يقصد مارنيولا) كان فى كولام ، حيث عقد صلات مع هندوكى وقع ذات يوم أسيرا فى أيدى بعض القراصنة الذين باعوه الى شخص جنوى ، فاعتنق المسيحية على يدى سيده •

وأما المنطقة الثالثة فانها تبدأ من رأس كومورن ، وتقابل على وجه التقريب الاقليم الذى سماه الجغرافيون العرب مابار Maabar وسماه الجغرافيون المحدثون كروماندل • قلنا سابقا أن مابار كانت تتلقى من الخليج الفارسى ، وبخاصة من جزيرة قيش شحنات هائلة من الخيول ، وأن هذه التجارة كانت منظمة بمعاهدات مبرمة بين ملوك هذين البلدين • وكانت السفن المخصصة لهذا الغرض تنزل حمولتها عند مابار فى ميناء كايل Cail (cael) (٦٨٥) • وفى وقتنا الحاضر لا تصل أية سفينة الى الموضع الذى كانت تقوم عليه هذه المدينة ، أما أطلالها التى لم تزل تحمل اسم « كايل القديمة » Vieux-Kayl فانها تشاهد فى داخل الأراضى على بعد ميل ونصف من مصب نهر تمرابارنى Tamraparni بمقاطعة تنفيللى Tinnevelly (٦٨٦) •

ويقول ماركو بولو ان ميناء كايل لم يكن يتلقى خيولا فحسب ، فقد كان يرد اليه ويفرغ به منتجات أخرى من بلاد العرب وفارس وتجرى هناك حركة تجارية كبيرة • وأسهمت مجاورات مصايد اللؤلؤ فى خليج منار Manaar فى اضفاء حركة نشيطة على هذا السوق • فهل كان يصل من وقت لآخر الى كايل بعض التجار الغربيين على متن سفن فارسية ؟ ليس فى وسعنا أن نثبت ذلك ، ولكن ليس فى هذا ما يخالف الحقيقة • وعلى أية حال فان كل الذين يمرون بالهند للذهاب الى الصين كانوا يتوقفون فى طريقهم عند ساحل كروماندل ، ويزورون بعض المواقع الرئيسية ، مثل مزار مليابور Méliaporc (بالقرب من مدراس) (٦٨٧) ، وبه قبر القديس توماس S. Thomas ، وسوق الماس فى موتفيلى Moutfili (موتوبال Motoupalle فى الجنوب الغربى

---

(٦٨٤) M. Yule (Cathay, I, 72); Maundeville (Lond. 1727)

(٦٨٥) M. Polo, p. 641.

(٦٨٦) Yule, M. Polo, II, 307 et ss.

(٦٨٧) يقول ماركو بولو ان عدد التجار الذين يزورون هذه الناحية الصغيرة قليل جدا M. Polo, p. 622 et ss.

من مازوليباتام Masoulipatam) (٦٨٨) ، وهاتان المدينتان موضحتان على الخريطة القطالونيـة باسمى ميرابـور Mirapor ، وبوتيفيليس Butifilis (٦٨٩) • ولن نتابع المسافرين الى أبعد من ذلك فى رحلاتهـم البحرية عبر خليج البنغال ، الى سـواحل الهنـد الصينية وجزرها ، ذلك لأنه لابيير دى لوكانجـو Pierre de Lucalongo ولا أى من التجار الآخرين الذين ارتحـلوا الى الصين بطريق البحر فى الفترة التى ندرسها قد ترك لنا أية رواية فى هذا الخصوص •

واذ رأى الكثيرون أنهم يجدون فى الهند منتجات الصين ، فانهـم وفروا على أنفسهم مشقة القيـام بهذه الرحلة • ويقابل أعظـم عصر للأسرة المغولية فى أواخر القرن الثالث عشر ومستهل الرابع عشر عهداً من العلاقات السياسية والتجارة النشيطة بين الصين والهند •

وأراد قبلاى خان الأكبر أن يعترف أمراء سواحل الهند بسيادته ، ونجح فى ذلك • وجرى تبـادل السفراء ، فذهب بعضهم باسم الخان الاكبر ينذرون الأمراء أن يخضعوا ، ومضى البعض الآخر يقدمون للخان ولاء وهدايا أمراء مأبار وكولام وغيرهما من بـلاد الهند (٦٩٠) • ومن ذلك الحين صار فى وسع التجار الصينيين أن يذهبوا الى الهند دون خوف من أن يضايقهم أحد هناك ، واستغلوا هذه الظروف الملائمة فجعلوا يرسلون اليها عدداً كبيراً من المراكب الخيزرانية •

وسوف نرى حين نتكلم عن الصين بنوع خاص أى الموانىء تخرج منها هذه السفن • وليس علينا الآن الا أن نبحث عن الأقاليـم والمدن الهندية التى كانت تزورها هذه السفن • يقول رشيد الدين ، ووصاف ان « السفن التجارية الكبيرة الصينية » تدخل عادة موانىء مأبار • ومن الطبيعى أن نفكر أولا فى موانىء دلتـا كافيرى Kaveri (نيجاباتام Negapatam ، كافيريبـاتام (Kaveripatam) : ذلك لأن هؤلاء المؤرخين والجغرافيين حين يتحدثون عن « مملكة » مأبار ، لايقصدون القطر كله الذى تطلق عليه هذه التسمية ، ولكن فقط الاقليـم التابع لأمـراء أسرة بانـديا Pandya ، ويقـع مركزه فى سـهول تنجـور Tangore

(٦٨٨) M. Polo, p. 627 et ss.; Yule, M. Polo, II, 297.

(٦٨٩) Carte catal., p. 136.

(٦٩٠) Pauthier, M. Polo, p. 603 et ss., 643; Yule, M. Polo, II, 273, 314 et s.

ففي عام ١٣٠٠ كانت هذه المملكة يحكمها وزير قوى ، هو العربي تقى الدين عبد الرحمن ، وكان له الحق فى أن يختار بوساطة وكلائه وعملائه ، قبل أى شخص آخر، ما يشاء من البضائع التى تحضرها السفن الصينية ، وبعد أن يقوم هؤلاء بتفتيش السفن وإجراء الاختيار ، يصرح للتجار بإجراء مشترواتهم • أما البضائع التى لا يأخذها هؤلاء فانها تنقل الى قيش على متن السفن التى كانت قد أحضرت الخيول وبقيت تنتظر الفرصة لتشحن ببضائع عند عودتها (٦٩١) •

وكانت السفن « الخيزرانية » الصينية تلف أيضا حول رأس كمورن وتمضى الى موانىء ملبار حاملة بضائعها ، من حرير خام ، واقمشة حريرية ، وديباج ، وذهب وفضة ونحاس ، وخشب الصندل ، وكبش القرنفل وغير ذلك من التوابل النفيسة • ونشير بنوع خاص الى وجود كبش القرنفل بين السلع التى تشكل حمولة السفن الصينية : ذلك أن ماركو بولو (٦٩٢) هو الذى نوه بهذه الواقعة الهامة لأنها تدل على أن هذه السفن ، بعد أن تأخذ فى الصين جزءا من حمولتها من كبش القرنفل، تكمل الحمولة فى الهند الصينية •

والواقع أنها فى طريقها تحاذى سواحل شبه الجزيرة ، ثم جزيرتى جاوة وسومطرة ، وتجد فى كل مكان موادا تبـاع بسهولة فى الهند نفسها ، واكتفى هنا بذكر الصبر ، وشجر البقم ، واللك ، والكافور ، وجذور الخولجان (نبات طبى من الفصيلة الزنجبيلية ـ المترجم) ، ثم الحاصلات التى تصدرها الجزر الصغيرة الى أسواق جاوة وسومطرة (٦٩٣)، وبخاصة القرنفل ، وجوز الطيب ، وخشب الصندل • ويمكن القول بأن المواصلات بين الهند الصينية والهند كانت بأكملها فى أيدى تجار صينيين ، وكانت على الأقل تجرى بوسـاطة السفن الصينية وحدها • وبالفعل أشير الى وجود تجار جاويين فى كالكت مثلا (٦٩٤) ، فى حين لا يعرف مثال واحد لسفن من الهند الصينية تحمل بضائع الى الهند •

وكانت السفن الخيزرانية الصينية تشحن عند عودتها بالعقاقير

---

(٦٩١) Elliot, History of India, I, 69; III, 32, 35 et les commentaires de Yule, M. Polo, II, 269 et ss.

(٦٩٢) M. Polo, p. 654.

(٦٩٣) M. Polo, p. 561; 567; Carte catal., p. 137; Ibn-Batouta, IV, 228 et s., 240 et ss.

(٦٩٤) Ibn-Batouta, IV, 89.

الهندية ، وبخاصة الفلفل ، وبالنسبة الى هذه المادة التى سماها ماركو بول « الأفاويه الكبيرة » ، كان الصينيون هم أكبر المشترين بالجملة لها ، ويدفعون أكبر ثمن فى شرائها ، ولذلك كان يصدر منها الى الصين كميات تزيد عشر مرات على مايصدر الى عدن ثم الى الغرب (٦٩٥) ٠

ومن بين مدن ملبار ، كانت كولام أقربها الى الصينيين ، ويترددون عليها أكثر من غيرها (٦٩٦) ٠ وهناك وجد المبشر اودريكو دابوردينونى Oderico da Pordenone سفينة خيزرانية أقلته الى الصين ، وكانت تحمل قرابة سبعمائة مسافر ، منهم عدد كبير من التجار (٦٩٧) ٠ وحين اعتزم ابن بطوطة القيام بهذه الرحلة ، كان فى كالكت ٠٠ ولما كان هذا الميناء يتردد عليه الصينيون بكثرة ، كان عليه أن يختار بين ثلاث عشرة سفينة خيزرانية (٦٩٨) ٠ ومع ذلك ففى فصل الأمطار ترسو السفن الصينية غالبا عند فنداراينا Fandaraina (٦٩٩) ، وتذكر بعض المصادر الصينية فانتالينا Fantalaina باعتبارها مدينة ساحلية لها علاقات بتجار الجملة بالبلد (٧٠٠) ٠ وأخيرا ، كانت السفن الصينية ترسو أيضا عند هيلى Hili (مونت ديلى (Mount Dely) ٠ وهى أقصى بقعة متقدمة الى الشمال يتسنى لنا أن نتتبع السفن اليها ، ولم تكن السفن تقيم بها الا زمنا قصيرا بسبب رداءة قاع الرسو (٧٠١) ٠

وهكذا كان التجار الغربيون ، عند وصولهم الى الهند يلتقون هناك بصينيين ومعهم منتجات بلدهم ومجموعات الجزر المتناثرة على طول طريقهم ، وكثيرا ما كانوا يتصلون هناك بالمسلمين الذين كان يوجد جماعات منهم فى كل مدينة تقريبا من مدن السواحل ٠ فمنذ عصر فتوحاتهم الأولى فى حوض الاندوس (السند) استمرت قوتهم السياسية فى الازدياد فى شبه الجزيرة ٠ وفى الحقيقة كانت أقوى الولايات

---

(٦٩٥) M. Polo, p. 654; cf. p. 581.

(٦٩٦) Ibn-Batouta, IV, 100; M Polo, p. 644.

(٦٩٧) Yule, Cathay, II, append., p. XII.

(٦٩٨) Ibn-Batouta, IV, 89 et ss.

(٦٩٩) Ibid, IV, 88, 96.

(٧٠٠) التاريخ الرسمى للأسرة الحاكمة المغولية ، سنة ١٢٩٦ :
— Pauthier, M. Polo, p. 582.

(٧٠١) M. Polo, p. 649; Ibn-Batouta, IV, 81.

الخاضعة لسلطانهم ، امبراطورية سلاطين دلهي دولة قارية قبل كل شيء ، وكانت البقاع الساحلية التى يتجه اليها التيار التجارى بقوة ونشاط خارج سيادتها ، ولا تمس هذه الدولة الساحل الغربي الا عن طريق السند والجوجرات • حقا ، كان في هذا القطاع (منذ عام ١٢٩٨) مدينة كامبيى العظيمة الأهمية التى كان غالبية تجارها الأثرياء يعتنقون الاسلام • ولكن ابتداء من هذه المدينة حتى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، تتتابع سلسلة من الامارات الصغيرة التى يحكمها مهراجات ينتمى معظمهم للجنسية والديانة الهندوكية • ومن الصواب الافتراض بأن في هذه الامارات المستقلة كان العنصر الوطنى هو السائد في عالم التجارة ، وفي سائر الطبقات •

وبخصوص مملكة لار Lar الواقعة فى المنطقة الموجودة بها بمباى الحالية ، ذكر ماركو بولو (٧٠٢) أسماء بعض التجار الوطنيين من الجنسية الهندوكية ، والعجيب أنه يصفهم بأنهم برهميين Abraimans ، ويعزز قوله هذا بذكر تفاصيل خاصة بأسلوب معيشتهم • ومع ذلك فالمعروف أن البرهميين لايمكن أن يشتغلوا بالتجارة الا بنوع استثنائى ، وبالمخالفة لقانون طائفتهم الصارم • ومن الجائز الاعتقاد بأن الناس الذين يتحدث عنهم ماركو بولو كانوا مجرد «بانيان» Banians (هنود براهمة) عرفوا بنوع خاص بأنهم تجار ، وقد اختلط به الأمر فنسب اليهم اسم البراهمة وعاداتهم • ومن حيث المسألة التى تشغلنا ، لايهمنا كثيرا أن نعرف ما اذا كان هؤلاء القوم من البراهمة أو البانيان • ومن ناحية أخرى ، يميز ابن بطوطة ، فى جماعة التجار فى كولام بين المسلمين ، والصينيين ، والسولى Soulis ، ويقول ان الأخيرين كانت لهم مكانة خاصة بسبب ثرائهم ، ولم يكن من النادر أن يستطيع أحدهم أن يشترى وحده سفينة ويجهزها (٧٠٣) • ويذكرنا اسم سولى Soulis باسم تشولا Tchola وهى المملكة القديمة فى الجزء الجنوبى من ساحل كرمائدل (مابار) • ومن الجائز أن يكون التجار من أهالى المدينة نفسها أقلية فيها ، وأن العدد الأكبر منهم أجانب من أهالى مملكة تشولا المجاورة (٧٠٤) • ومهما كان الأمر ، فان كان

(٧٠٢) P. 634 et ss. et remarques de M. Pauthier : Yule, M. Polo, II, 802 et s.

(٧٠٣) IV, 99 et s.

(٧٠٤) Ed. Pauthier, p. 634 et s., not., éd. Yule, II, 299, 303.

بعض التجار الهندوس يبلغون هنا وهناك مكانة مرموقة ، فذلك لا يمنع من أن الدور الرئيسى يقوم به المسلمون • وفى كل لحظة يصل قادمون جدد يدعمون مستوطناتهم القديمة •

واذا كان الهندوس يتحاشون أى احتكاك مباشر معهم ، فانهم كانوا مع ذلك يحترزون من مضايقتهم ، اذ كان من مصلحتهم الا يثيروا غضب سلاطين دلهى المقاتلين الأشداء ، وألا يجعلوا من مسلمى فارس وبلاد العرب ومصر أعداء لهم ، اذ كان هؤلاء عملاء لهم قيمتهم فى تصريف القسم الأكبر من المنتجات الأهلية (٧٠٥) • وقد أحصى ابن بطوطة فى منجالور قرابة أربعة آلاف من اخوانه فى الدين • وفى فندارينا كان هؤلاء يشكلون سكان ثلاثة أحياء ، بكل حى مسجده ، وفى كالكت وكولام كان قسم كبير من طبقة التجار ، وكثير منهم من الأعيان ، يتكون من المسلمين(٧٠٦) • ولن أذكر شيئا عن المدن الأقل أهمية حتى لا أتوقف طويلا عند هذه النقطة •

وكان فى وسعى أن أختم هنا هذا الفصل ، لو لم يخطر لى أن من الأهمية مناقشة فقرة فى قرارات مجلس شيوخ البندقية (٧٠٧) استند اليها السيدان رومانن Romanin وبيرشيه Berchet (٧٠٨) ليؤكدا وجود قنصلية فينسية فى سيام (بالهند الصينية) فى اواخر القرن الرابع عشر ، وبالتالى وجود مستوطنة تجارية فينيسية • فعلام يقوم هذا التاكيد ؟ لقد تلقى مجلس الشيوخ التماسا من نيكولا بريدانى Nicc. Bredani القنصل فى سيام ، يطلب فيه اعفاءه من منصبه بدعوى أنه بقى فيه أكثر من المدة المقررة قانونا ، وفى ظروف عسيرة بنوع خاص • ويمكن تلخيص مرسوم مجلس الشيوخ فى بضعة سطور : بقرار فى ٢٩ من يناير ١٣٩١ (وفى الوثيقة عام ١٣٩٠ حسب الترقيم القديم) يقبل (المجلس) استقالة بريدانى بالنظر الى الاضطرابات

---

(٧٠٥) Ibn-Batouta, IV. 72, 75, 100.

— يبدو أن براهمة بودفاتان Boddfathan لم يكونوا يطيقون وجود المسلمين فى المدينة :
(dans Kosmas. v. Journal asiat., 4ᵉ serie, VIII, 155 ; Yule, Cathay, II, 453).

انظر : ابن بطوطة ، الجزء الرابع ، ٨٧ ، الا أن هذا استثناء وحيد على ساحل ملبار •

(٧٠٦) Ibn-Batouta, IV, 80, 88 et s., 100.

(٧٠٧) Senato Misti, XLI fol. 124 v. (177 v.)

(٧٠٨) Storia di Venezia, III, 340.

التى تسود هذا البلد ، لكن بشرط أن يجمع القنصـــل مجلسه قبل رحيله ، ويجرى انتخاب نائب قنصل حتى لايبقى المنصب شاغرا •

يستند السيد بيرشيه الى هذا النص فيزعم أن بريدانى كان بالفعل قنصلا فى سيام ، ويوضح ذلك فيذكر الرحلات التى قام بهـــا بعض البيزيين الى الهند عن طريق مصر (١١٧٥) والعلاقات التى وثقها الايطاليون فى غضون النصف الأول من القرن الرابع عشر عن طريق البر والبحر ، حتى فى الصين ، البلد الأبعد كثيرا من الهند • وقد أوضحت فيما قبل أن رحلات البيزيين هذه فى الهند لم تزل فى حاجة الى اثبات صحيح • والمؤكد أن عددا كبيرا من الايطاليين كان يتاجر مع الصين ، ولكن يمكن اثبات أن هذه التجارة لم تستمر مدة كافية ليمكن أن نستنتج منها وجود قنصلية فينيسية فى سيام فى أواخر القرن الرابع عشر ، ولا نجد فضلا عن ذلك كلمة واحدة تدل على أن ثمة رحالة قاصدين الى الصين قد توقفوا فى طريقهم فى الهند الصينية (٧٠٩) وقابلوا هناك مواطنين لهم •

ومن جهة أخرى ، فان الروايات التاريخية كلها تتفق على القول بأنه قبل وصول البرتغاليين لم يؤسس الغربيون هناك أية مستوطنة • باختصار ، يصطدم الاثبات بصعوبات يتعذر تذليلها • ولكنا نرى فى فهرست سجلات Misti الذى يشتمل على المرسوم السابق ذكره أن المرسوم قد وضع تحت عنوان « قبرص ، آرمينيا ، سورية Cypro, Armenia, Syria » ، وهذا ينقلنا الى طريق آخر •

فالمعروف أن اسم « سورية » وعاصمتهـا دمشق هو « الشـام » Cham (٧١٠) ، وقد انتقل هذا الاسم الى اللغـــة الدارجة عند الغربيين • وقد أوردت قبلا فى هذا الخصوص فقرات من سانوتو الأكبر وبيجولوتى ، ولدينا أمثلة عديدة من ترجمات لوثائق أمينية وعربيـــة ، ترك فيها المترجمون هذه الكلمـــة كمـا هى ، لأنهم واثقون من أن قراءهم يفهمونها (٧١١) • وعلى هذا فليس من المستغرب أن يكون هذا الاســم قد انزلق فى صورته الشرقية فى بعض السجلات الرســمية الفينيسية بدلا من الأســــماء المعتادة : « ســيريا «Siria » ، و « داماســـكو

---

(٧٠٩) وبخاصة فى سيام الموجودة خارج الطريق •

(٧١٠) Amari, Dipl. arab. p. 431.

(٧١١) Cf. Layglois, Trésor ,p. 181,, au lieu de «Iusem), il faut lire» in Sem».

اؤكد اذن أن بريدانى كان قنصلا فى دمشق ، أما السيد برشيه فيؤكد أن هذا مستحيل ، ويعطى لذلك سببين • الأول أن هذا المنصب لايمكن أن يشغله الا أحد النبلاء ، وأن أفراد آل بريدانى قد استبعدوا من طبقة النبلاء ، ولم يعادوا اليها الا فى عام ١٣٨٥ • وقد عزز بريدانى طلبه فى عام ١٣٩٠ على أساس أنه بقى فى منصبه زمنا طويلا بعد المدة القانونية ، وكانت المدة المعتادة لشغل هذا المنصب هى ثلاث سنوات ، ومن ثم فلابد أنه تقلد المنصب قبل عام ١٣٨٥ ، ولكن لم يكن فى وسع أى فرد من أسرة بريدانى فى ذلك الحين أن يعين قنصلا فى دمشق لأنه لم يكن وقتئذ من النبلاء •

ازاء هذا الاعتراض ، اليكم ردى : بالنظر الى النظام الذى كانت تتبعه حكومة البندقية عادة فى استبدال القناصل ، فان حالة قنصل ترك فى منصبه سنة أو حتى ستة شهور فقط بعد انقضاء فترة الثلاث السنوات هى حالة استثنائية : اذن فليس ثمة مايجبرنا على ارجاع تعيين بريدانى الى ماقبل عام ١٣٨٦ ، وفى هذا التاريخ كان حائزا بالفعل للشروط المطلوبة • ولكن السيد برشيه يقدم دليلا آخر يبدو فى الظاهر أكثر اقناعا • يقول انه فى عام ١٣٩٠ كان قنصل البندقية فى سورية يدعى جيوفانى موروسينى Giovanni Morosini • ولكن برجوعى الى قائمة الأشخاص الذين شغلوا على التوالى هذا المنصب ، وهى قائمة حررها السيد برشيه نفسه (ص ٥٥) دهشت اذ تبين لى أن اسم موروسينى لا وجود له بالمرة : فقد قرأت فى القائمة : ١٣٨٤ Franc Foscolo ، ١٣٨٦ Giov. Mocenigo ١٤٠٥ Franc Foscarini • والشاهد أننا هنا على أرض قليلة الصلابة ، والمعطيات التى حررت تبعا لها القوائم من هذا النوع تصدر بعامة من وثائق مكتوبة فى تواريخ بعيدة عن الأحداث ، ومن ثم فهى مشكوك فى صحتها ، وتكثر فيها الثغرات ، ويكفى مقابلتها بالوثائق الرسمية ليتبين عدم صحتها •

وفى الحالة الخاصة التى نحن بصددها لانعرف ما الذى يثبت وجود شخص يدعى جيوفانى موروسينى فى عام ١٣٩٠ ، أو جيوفانى موسينيجو فى عام ١٣٨٦ • وعلى ذلك لايكفى مواجهتى بهذه التواريخ لحملى على الرجوع عن الفكرة التى عرضتها ، ومجملها أننا لانرى فى شخص نيكولا بريدانى قنصلا فى سيام ، وانما هو قنصل فى سوريا • وحيثيات المرسوم التى تشير الى الاضطرابات التى تقطع أوصال البلد موضوع الجدل تطابق تماما الحالة فى سوريا فى تلك الآونة : فقد كان

الأتابك منتاش l'atabeg Mintach ينازع السلطان برقوق السيادة على مصر وعانت سورية بنوع خاص من هذا التنافس ، ونشبت معارك فى مجاورات دمشق حتى شهدت المدينـة الأعداء يقرعون ابوابها ، والفتن تخضب بالدماء شوارعهـا (٧١٢) · وكتب قنصل فينيسى بحق أن الناس فى هذا البلد يعيشون فى قلق واضطراب شديدين ·

---

(٧١٢) de mas Latrie, Traités, suppl., p. 81; «in omnibus terris et partibus de Seme».

الفهرس

الموضـــوع الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٥٤٢/ ١٩٩٠

ISBN — 977 — 01 — 2493 — 1